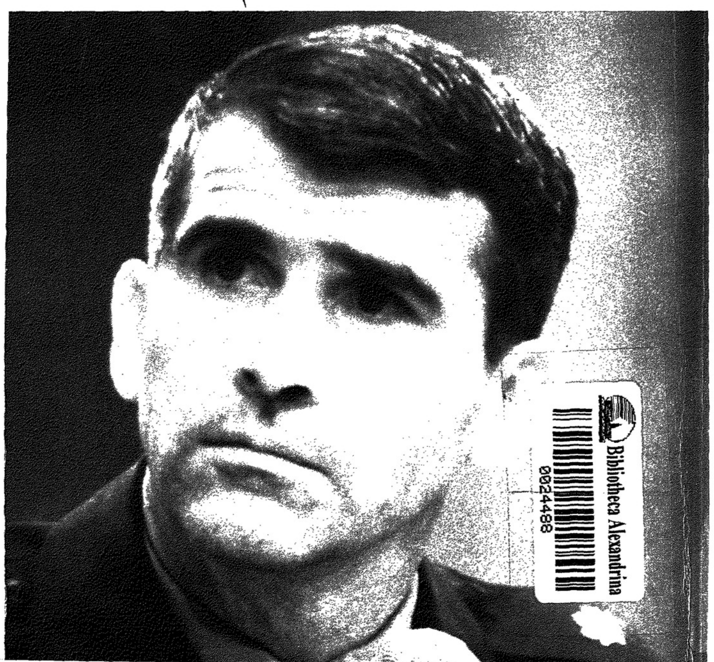
أوليفر نورث

تحت النار

UNDER FIRE

ترجمة: المقدم الركن الياس فرحات




تحت النار

أوليفر نورث

تحت النار

ترجمة: المقدم الركن الياس فرحات





الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

مقدمة

إنّ حياة معظم الناس تتغير، بشكل مختلف عن توقعاتهم، نحو الأفضل أو نحو الأسوأ. هكذا تغيّرت حياتي عندما انضممت إلى مشاة البحرية عام ١٩٦١، لم أكن أحلم بأني سأصل إلى المراكز العليا في الحكومة، وبالتأكيد لم أكن أتخيل أني سأجد نفسي يوماً ما في وسط معترك سياسي صاخب.

هذا الكتاب هو سيرتي الشخصية، وأترك للآخرين مهمة نشر القصة الحقيقية لإيران ـ كونترا على افتراض أن ذلك ممكن. لقد وضع محققو الكونغرس مجلدات من التقارير والشهادات، ولكني أشك في ما إذا كان هناك شخص واحد يعرف القصة بكاملها. كنت على حق في تصوري هذه الأحداث، وما زالت هناك أشياء لا أعرفها، ومع أني أذكر في هذه الصفحات تعبير «إيران ـ كونترا» فإن هذه العبارة غير دقيقة. ولكي أكون أكثر دقة فإن «إيران ـ كونترا» تتحدث عن عمليتين سريتين أُجريتا من قبل إدارة ريغان في أواسط الثمانينات،أولاهما كانت محاولة الانفتاح على الحكومة الثورية في إيران في مبادرة تضمّنت بيع الأسلحة للإيرانيين، ومحاولة ناجحة جزئياً لإطلاق سراح الرهائن الأميركيين في بيروت، والعملية الثانية كانت جهوداً مركزة للمحافظة على الدعم الأميركي للمقاومة النيكاراغوية، بعدما أرغم الكونغرس الأميركي وكالة المخابرات المركزية على التخلي عن الكونترا. هذان المشروعان كانا مرتبطين من الناحية المالية، كما أن بعض العناصر ـ ومن ضمنهم أنا ـ قد ساهموا في العمليتين معاً.

في الفصول القادمة سأصوّر بعض الأحداث البارزة في حياتي، والتي أثرت في نشاطاتي اللاحقة في مجلس الأمن القومي. أعرف مثلاً أن مسؤوليتي كآمر فصيلة في ڤيتنام قد أثرت في مشاعري نحو أميركا الوسطى بشكل عام، والكونترا بشكل خاص، والطريقة التي اعتمدتها والقيم التي اعتنقتها منذ سنوات أثرت بالتأكيد في موقفي من قضية الرهائن المحتجزين في بيروت.

أنا لا أطلب من القارىء أن يوافق على أي شيء قمت به أو فشلت في إنجازه. في السنوات الخمس التي تلت صرفي من الخدمة، ضخّم المسيئون ما حدث فعلاً، وكذلك فعل بعض المؤيدين، وبينما أقدّر لهم تعاطفهم، فإني لست قديساً ولا بطلاً. إني أنظر بكل فخر إلى الكثير من إنجازاتي، ولكني قمت بأعمال أسفت عليها فيما بعد. ومع أن معظم الأحداث التي تكلمت عنها حصلت في العقد الماضي فإن العالم بدأ يتغير بشكل دراماتيكي منذ الثمانينات. معظم أوروبا الشرقية عانقت مفاهيم الحرية والديموقراطية، وأظهرت الشيوعية أنها نظام مختل، كما كان رونالد ريغان يصر على وصفها. ما زلت أذكر عندما شاهدت على شاشة التلفزيون سقوط جدار برلين، لقد اغرورقت الدموع في عيني، وهرعت ابنتي دورنين صارخة: ماما ماذا حل بوالدي.

كنت بحالة جيدة بالطبع، لكن تلك اللحظة تغلبت علي. ورغم أنني أعرف أن هذه التغييرات ستحصل فإني لم أتوقع أن أشهدها في حياتي. وقد شعرت بالإحساس نفسه مرة ثانية عام ١٩٩٠ عندما رفض سكان نيكاراغوا ـ وللمرة الثانية خلال أحد عشر عاماً ـ النظام الفاسد الوحشي، ومرة أخرى في آب/ أغسطس عندما شاهدت يلتسين يقف على دبابة سوڤياتية إبان الثورة الروسية الثانية.

خلال فترة السنوات الخمس والنصف التي أمضيتها في مجلس الأمن القومي صرفت معظم أوقاتي في العمل من أجل تحرير الرهائن المحتجزين في بيروت. لقد قمت بأعمال صعبة في حياتي، لكن لم يكن أي عمل أشد ألماً منه. وبسبب الخطر المحدق بالرهائن وببعض العناصر في بلدان أخرى، فقد قمت بمعظم أعمالي بطريقة سرية تامة. فبينما كنت أعمل في هذا الكتاب وأعرض بعض الجهود، كنت أصلي لله لأن يطلق سراح جميع الرجال وأن يعودوا إلى عائلاتهم عندما انتهي من تدوين مذكراتي.

نحن الذين خدمنا في إدارة ريغان وكان لنا امتياز حق الاشتراك في التغييرات الكبيرة، وكنت آمل أن تكون هذه التغييرات دائمة، وأن تنتقل الأحداث غير العادية التي تجري في أوروبا الشرقية وأميركا الوسطى وما كنا نسميه «الاتحاد السوفياتي» إلى بلدان مثل كوبا والعراق وإيران وإلى لبنان أيضاً.

معظم فصول هذا الكتاب تصور الأشخاص الذين عملت معهم في الحكومة وخارجها، ومع أني محرج تجاه البعض، فإن معظم الذين كان لي شرف التعرف عليهم هم من الرجال والنساء المميزين، فهم مثلي واجهوا أحداثاً صعبة، ومثلي أيضاً لم يحسنوا التعامل معها أحياناً.

لقد خاطر العديد منهم بحياته، وبعضهم خسر حياته من أجل مبدئه، ولا يمكن شكر الجميع علناً وتشريفهم من أجل الأعمال الباهرة التي قاموا بها أو الاعتراف لهم بالجميل من أجل المخاطر التي واجهوها، وأنه وإن كان علي أن أحذف أو أغير بعض الأسماء في هذا الكتاب فإني أشكرهم كثيراً.

شخصيات الكتاب

أليوت أبرامز: مساعد وزير الخارجية لشؤون أميركا اللاتينية.

شارلز آلن: ضابط أمن قومي لمكافحة الإرهاب في وكالة المخابرات المركزية.

الأسترالي: الاسم الرمزي لمسؤول إيراني على علاقة بغوربانيفار.

بندر بن سلطان: أمير سعودي وهو ابن أخ الملك فهد وسفير السعودية في واشنطن.

مايكل بارنز: عضو في مجلس النواب عن الحزب الديموقراطي ورئيس اللجنة الفرعية لشؤون نصف الكرة الغربي.

أنريك برموديز: القائد العسكري لقوات المقاومة النيكاراغوية على الجبهة الشمالية.

ادوارد بولاند: عضو في مجلس النواب عن الحزب الديموقراطي.

باتريك بوكانان: مدير الاتصالات في البيت الأبيض.

وليم بكلي: رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية في لبنان. اعتقل في بيروت عام ١٩٨٤ وتوفي عام ١٩٨٥ (تحت التعذيب على الأرجح).

جورج بوش: نائب رئيس الولايات المتحدة ١٩٨١ ـ ١٩٨٨.

أدولفو كاليرو: زعيم القوة الديموقراطية النيكاراغوية وقناة الاتصال الرئيسي لأوليفر نورث في المقاومة النيكاراغوية.

وليم كايسي: مدير وكالة المخابرات المركزية ١٩٨١ ـ ١٩٨٧.

جورج كايف: ضابط سابق في وكالة المخابرات المركزية، والذي اشترك في المفاوضات مع الإيرانيين.

سبيتز شانيل: مؤسّس المؤسسة الوطنية للمحافظة على الحرية، وهو متبرّع لمصلحة المقاومة النيكاراغوية.

وليم كلارك: مستشار الرئيس ريغان لشؤون الأمن القومي ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣.

ديوي كلاريدج: ضابط خدمات سرية في وكالة المخابرات المركزية ورئيس فرقة أميركا اللاتينية ١٩٨١ ـ ١٩٨٤، ورئيس فرقة أوروبا ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥، ورئيس فرقة مكافحة الإرهاب ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧.

جون كلاين: أحد أعضاء فريق الدفاع عن أوليفر نورث.

روبرت دوتون: كولونيل متقاعد في القوات الجوية يعمل لصالح الجنرال سيكورد.

ألن فايرز: رئيس قوة العمل الأميركي اللاتينية في وكالة المخابرات المركزية.

روي فورمارك: مساعد لعدنان خاشقجي وصديق لوليم كايسي.

ريتشارد غاد: كولونيل متقاعد في القوات الجوية يعمل لصالح الجنرال سيكورد.

روبرت غايتس: نائب مدير وكالة المخابرات المركزية عام ١٩٨٦.

كلير جورج: نائب مدير وكالة المخابرات المركزية لشؤون العمليات.

ريتشارد جيسيل: قاضٍ في محكمة واشنطن، ترأس هيئة المحكمة التي حاكمت أوليفر نورث.

مانوشهر غوربانيفار: وسيط إيراني في صفقات بيع الأسلحة إلى إيران من قبل إسرائيل والولايات المتحدة.

وليم غود: الإسم المستعار لأوليفر نورث.

الجنرال جون غريتالدز: قائد كتيبة أوليفر نورث ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.

ألبرت حكيم: مبعد إيراني وشريك الجنرال سيكورد في أعماله.

فون هال: سكرتيرة أوليفر نورث.

ويلما هال: سكرتيرة روبرت مكفرلين وهي والدة فون هال.

لي هاملتون: عضو في مجلس النواب عن الحزب الديموقراطي، ورئيس لجنة الاستخبارات الدائمة في مجلس النواب.

يوجين هازنفوس: ملاح أميركي أسقطت طائرته فوق نيكاراغوا في ٥ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٦.

صدام حسين: رئيس عراقي.

دانيل أنوي: عضو مجلس الشيوخ عن الحزب الديموقراطي من ولاية هاواي.

ديفيد جاكوبسون: رهينة أميركية في بيروت، المدير السابق لمستشفى الجامعة في بيروت. في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ أصبح «الرهينة» الثالث الذي يطلق سراحه في المبادرة نحو إيران.

لورنس جنكو: رهينة أميركي في بيروت، وهو راهب كاثوليكي. في ٢٦ تموز/ يوليو أصبح الرهينة الثاني الذي يطلق سراحه في المبادرة نحو إيران.

الجنرال ب كيلي: قائد مشاة البحرية الأميركية ١٩٨٢ ـ ١٩٨٦.

علي خامنئي: رئيس جمهورية إيران.

آية الله روح الله الخميني: زعيم ثيوقراطي لإيران ١٩٧٩ ـ ١٩٨٩.

ديفيد كيمحي: المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦.

جين كيركباتريك: مندوبة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة.

هنري كيسنجر: وزير خارجية، ومستشار لشؤون الأمن القومي سابقاً، ورئيس لجنة الرئيس ريغان الوطنية حول أميركا الوسطى ١٩٨٣.

مايكل ليدين: مستشار في مجلس الأمن القومي.

روبرت مكفرلين: مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي من تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٣ إلى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥.

أدوين ميز: مستشار الرئيس ريغان. وزير العدل في الولايات المتحدة ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦.

الوحش: الإسم الرمزي لمسؤول إيراني على علاقة بـ«القناة الثانية».

الأميرال آرثر مورو: مساعد خاص لرئيس الأركان المشتركة ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥.

مير حسين موسوي: رئيس وزراء إيران.

الشاب: الإسم الرمزي للقناة الثانية في الاتصالات مع إيران.

أبو نضال: رئيس المجلس الثوري لحركة فتح.

أميرام نير: مستشار رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز لشؤون مكافحة الإرهاب.

تيرانس أودونيل: عضو فريق الدفاع عن أوليفر نورث.

دانييل أورتيغا: رئيس نيكاراغوا ١٩٨٠ ـ ١٩٩٠.

الأميرال جون بواندكستر: نائب المستشار لشؤون الأمن القومي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥، ومستشار الرئيس ريغان لشؤون الأمن القومي ١٩٨٦.

معمر القذافي: رئيس ليبيا.

رافاييل كويتيرو (تشي تشي): ثائر كوبي سابق وضابط سابق في وكالة المخابرات المركزية وموظف لدى الجنرال سيكورد.

هاشمي رفسنجاني: رئيس مجلس النواب الإيراني.

رونالد ريغان: رئيس الولايات المتحدة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨.

دونالد ريغان: رئيس أركان البيت الأبيض ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦.

غلين روبينات: ضابط سابق في وكالة المخابرات المركزية. والذي زرع معدات أمنية في منزل أوليفر نورث.

ريتشارد سيكورد: جنرال متقاعد في القوات الجوية الأميركية، ورئيس فريق الجهود لتموين الكونترا.

نيكول سيلمان: عضو فريق الدفاع عن أوليفر نورث.

جورج شولتز: وزير الخارجية ١٩٨٢ ـ ١٩٨٨.

باري سيمون: عضو فريق الدفاع عن أوليفر نورث.

برندان سوليفان: غنيّ عن التعريف.

لورنس والش: مدع عام مختص ١٩٨٦.

كسبار وينبرغر: وزير الدفاع ١٩٨١ ـ ١٩٨٨.

بنجامين وير: الرهينة الأميركي الأول الذي يطلق سراحه كجزءٍ من المبادة نحو إيران (١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥).

(١)
أعفي من مهامه

الصرف من الوظيفة ليس تجربة سارة أبداً، ولذلك فإنّ قرارات الصرف تتخذ عادة في مجالس سرية. أما صرفي أنا فقد جرى بطريقة مختلفة، كانت القاعة مليئة بالحضور والأبواب مفتوحة وملايين الأميركيين يشاهدون ذلك على شاشات التلفزيون.

لقد كنت واحداً منهم.

في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ وفي تمام الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة، وصل الرئيس رونالد ريغان ووزير العدل أدوين ميز بصورة استعراضية إلى غرفة الإيجاز الصحفي في البيت الأبيض لمواجهة رجال الصحافة وكاميرات التلفزيون. لقد شاهدت ذلك من مكتبي في بناية المكتب التنفيذي القديمة.

كان الرئيس يشرح أنه لم يطلع على الرواية الكاملة لمبيعات الأسلحة السرية إلى إيران، وأنه طلب من وزير العدل أن ينظر في هذه القضية، ثم أعلن أن مستشاره لشؤون الأمن القومي الأميرال جون پواندكستر قد استقال، وأن الكولونيل أوليفر نورث قد «أعفي من مهامه في أركان مجلس الأمن القومي».

ماذا؟

وقبل أن ألتقط أنفاسي، أعطى الرئيس الميكروفون لوزير العدل أدوين ميز وخرج من القاعة. عندها فجّر ميز قنبلته: «في سياق عمليات نقل الأسلحة، والتي بموجبها تزوّد الولايات المتحدة إسرائيل بالأسلحة، وإسرائيل بدورها تنقل هذه الأسلحة ـ عملياً تبيعها ـ إلى ممثلي إيران، فإن بعض المبالغ المالية التي نتجت عن الصفقة، التي جرت بين ممثلي إسرائيل وممثلي إيران، قد وضعت بتصرف القوات المعارضة للحكومة الساندينية في أميركا الوسطى».

وبتعبير أوضح فقد جرى تحويل بعض أرباح مبيعات الأسلحة لإيران إلى المقاومة النيكاراغوية المعروفة باسم «كونترا».

لقد استغرق الخبر لحظة حتى تفهم الصحافيون ما قاله ميز، وساد الصمت جميع الصحافيين في البيت الأبيض لثانية أو اثنتين، وبعدها انهالت الأسئلة:

هل كان الرئيس يعرف ذلك؟

ميز: لم يكن الرئيس يعرف شيئاً، إلى أن أطلعته على ذلك بنفسي.

ماذا؟

حسناً إذاً من كان يعلم؟

ميز: الشخص الوحيد في حكومة الولايات المتحدة والذي كان يعلم بدقة عن هذا الموضوع هو الكولونيل أوليفر نورث.

ماذا؟

ميز: كان الأميرال پواندكستر يعرف أن شيئاً ما من هذا القبيل يحدث، لكنه لم يتحقق من الأمر، ولم يعلم بذلك مدير وكالة المخابرات المركزية كايسي، ولا وزير الخارجية شولتز، ولا وزير الدفاع وينبرغر، ولا أي عضو في مجلس الأمن القومي، ولا أنا.

ماذا؟

وسأل أحدهم: هل يعتبر ما قام به أوليفر نورث جريمة؟ وهل سيحال على القضاء؟

ميز: إننا ندرس الجوانب القانونية للموضوع وما إذا كان هناك من جريمة.

جريمة؟

في الأسابيع الثلاثة الماضية، ومنذ أن كشفت مجلة الشراع في بيروت عن مبادرتنا الإيرانية، كانت استراتيجية الإدارة غير معلنة لكنها كانت غير مخطئة أيضاً: «يجب ألّا يتحول ذلك إلى فضيحة ووترغيت أخرى». وعلى الرغم من أن ووترغيت قد شهدت مخالفات عدة للقوانين، فقد اعتقد معظم الأميركيين أن التهمة الأكثر خطراً، والتي أدت إلى استقالة الرئيس نيكسون، لم تكن السرقة بحد ذاتها بل التستر عليها وإخفاؤها.

وهكذا في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ قرر بعض الأشخاص ـ ربما دونالد ريغان رئيس أركان البيت الأبيض ونانسي ريغان ـ أنه مهما حصل وما لم يحصل في هذه القضية، يجب ألّا يكون هناك أي تفكير بالتستر، وسوف يتولى البيت الأبيض بنفسه الكشف عن القصة بكاملها قبل أن تتسبب وسائل الإعلام بأيّ أذى.

هناك قاعدة أساسية في السياسة، وهي أن الطرف الذي يبدأ بالكشف عن قصة ما هو الذي يحدد غالباً وجهة سير المناقشات التي تتبع ذلك، ومع أنّ الجهد الذي بذل

للاستفادة من هذه «القاعدة» كان صادقاً، فإن الإدارة لم تكشف هذا «التحويل» (كما بات يطلق على العملية) وذلك لأسباب محض استراتيجية، فقد كشفوا القصة فيما بعد لأن وزير العدل علم بالموضوع من مذكرة عثر عليها في مكتبي (وكنت أظن أني أتلفتها) وتخوّف كثيراً من أن تحصل الصحافة على القصة أولاً، مثل ما جرى في ووترغيت، لأن ذلك يؤدي إلى وقوع مشاكل سياسية غير عادية للرئيس ريغان، مثل اتهامه بالتقصير والإهمال.

اختارت الإدارة أن تركز بصورة شبه تامة على «التحويل» وهذا ما يحقق لها مكاسب بشكل أكيد. كان هذا التفصيل دراماتيكياً ومثيراً، إلى حد أنه قد يؤدي إلى تحويل اهتمام الرأي العام عن الجوانب الأكثر أهمية للقصة، مثل: ماذا كان الرئيس وكبار مستشاريه يعرفون؟ وهل صادقوا على شيء ما؟ وإذا افترضنا ضمناً بأن موظفاً مساعداً ـ من المستوى المتوسط ـ في مجلس الأمن القومي، يتحمل مسؤولية هذا العمل الرهيب (وربما كان رئيسه المباشر مطّلعاً على الأمر) وأن هذا الموظف قد تصرف من تلقاء نفسه (على أي حال لا يبدو أن الأمر قابل للتصديق)، وأنه بعد الكشف عن ذلك اعتبرت نشاطاته ذات طبيعة جُرمية، وإذا ركّزت وسائل الإعلام على ذلك فإن الأمر لا يبدو وكأنه فضيحة ووترغيت ثانية، خصوصاً إذا تأكّد أن الرئيس لم يكن يعلم شيئاً عن الموضوع.

اتصلت فوراً بزوجتي لكنها لم تكن موجودة في المنزل، وكما في مناسبات عديدة من هذه المحنة الطويلة، فقد علمت بنفسي عن صرفي من الوظيفة من راديو السيارة. حاولت الاتصال بوالدتي في ألباني لكن خط هاتفها كان مشغولاً. لا شك أنها شاهدت المؤتمر الصحافي على شاشة التلفزيون وكانت تحاول الاتصال بي، ولكن خطوط الهاتف في مكتبي كانت تتعرض للتشويش في هذه الأثناء.

لم يكن من المفترض أن يجري الأمر بهذه الطريقة، لقد كنت أتوقع أن أترك وظيفتي وربما أن أصرف منها، ولكن ليس بهذه الطريقة العلنية الاستعراضية. ولقد وصلتني من قبل تحذيرات عديدة تؤكد بأن أيامي في مجلس الأمن القومي قد أصبحت معدودة.

فأنا متورط بشكل مباشر في مشروعين رئيسين سريين ومؤثرين كثيراً في المجال السياسي: المبادرة الإيرانية والكونترا، وقد بدأ الكشف عنهما في الأسابيع القليلة الماضية. كانت قصة المبادرة السرية نحو إيران قد انكشفت وانتهى أمرها، بعد التقرير الذي نشرته مجلة «الشراع» ونقلته عنها وسائل الإعلام الغربية على الفور. وقبل شهر كانت طائرة محملة بالمؤن إلى ثوار الكونترا قد أسقطت فوق نيكاراغوا، وألقى الجيش الساندينى القبض على أحد عناصر طاقم الطائرة وهو يوجين هاسفنس، وعثر معه على وثائق أدّت إلى تمكن المحققين من الوصول إلى منزل سرّي في السلفادور، حيث عثر على دفتر أرقام هواتف

يحتوي على بعض أرقام هواتف أميركية ومنها رقم هاتفي. أكّد هذا الحادث ما كان قد علمه بعض أعضاء الكونغرس والصحافيون، وهو أنه بينما كانت حكومتنا ممنوعة ـ علناً ـ من مساندة الكونترا، فإن عدداً من مسؤولي الإدارة، بمن فيهم الرئيس، كانوا يشاركون سرّاً بحملة للمحافظة على هذه المنظمة.

وعندما انكشفت المبادرتان، كان لا بُدّ من إجباري على ترك وظيفتي في مجلس الأمن القومي، وقد أزف الوقت لذلك. خلال تلك الأيام الأخيرة عملت بجهد كبير للحدّ من الأضرار وحماية أرواح الناس الذين خاطروا من أجل مساعدتنا على الجبهتين (بعض هؤلاء ما يزال في خطر ولهذا لن تظهر أسماؤهم في هذا الكتاب).

كنا نبذل جهداً كبيراً لإنقاذ من تبقى من الرهائن الأميركيين المحتجزين في بيروت، وكان أحد الرهائن وهو ديفيد جاكوبسون قد أطلق سراحه في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر كجزء من الصفقة مع الإيرانيين. وكان ثالث رهينة أطلق سراحه بهذه الطريقة، وكنا نحاول بصورة يائسة إطلاق سراح الآخرين قبل أن تنهار المبادرة بأكملها.

كانت مبادرة الكونترا قد انتهت قبل إطلاق سراح جاكوبسون. وبعد فترة قصيرة من إسقاط طائرة هاسفنس قال لي مدير وكالة المخابرات المركزية وليم كايسي: «إنهِ القضية وامحُ آثارها». كان واضحاً أن أحد الرؤوس سيتدحرج، وكنت مستعداً لأن أكون الضحية. إنّ جزءاً من الخطة كان يهدف أن أقدم ككبش فداء سياسي «مع أن كايسي كان يعتقد أنه سيكون هناك آخرون، لقد قال لي: إذا انكشف الأمر فإن الضربة ستصيب من هم أعلى منك يا صديقي»، وعندما انكشف الأمر بالفعل قال: «إنها لن تتوقف عندك».

عندما انعقد المؤتمر الصحافي كنت قد تهيّأت فعلاً لترك الإدارة، وكنت أنتظر ذلك إلى حد ما. لقد جئت إلى مجلس الأمن القومي منذ خمس سنوات ونصف، وكان من المفترض أن تدوم المهمة التي انتدبت من أجلها من مشاة البحرية سنتين أو ثلاث سنوات، وها إنني بقيت ضعف المدة التي كنت أرغبها وأتوقعها. كنت مشتاقاً للعودة إلى كامب ليوجين (معسكر ليوجين) في كارولينا الشمالية، حيث تتمركز الفرقة الثانية من مشاة البحرية الأميركية لأعود من جديد وأعمل في ما يسرني وما كنت أتقنه فعلاً: وهو أن أقود جنود مشاة البحرية الشبان، وكنت آمل في الحصول على إجازة لأتعرّف على أفراد عائلتي بشكل أفضل وانتقل. .أما الآن فعلى رسلك!

لقد أصدر الرئيس قرار صرفي للتو وأذاعه على التلفزيون، ولو كان ذلك ضرورياً لرضيت به، ولكن ما الذي قاله وزير العدل، هل أن هناك من جريمة؟ هل كان جديّاً في قوله؟ لقد كنت أعلم أننا نواجه كارثة سياسية، وأنه ستكون هناك عواقب دولية، ولكن

حتى في كـوابيسي المظلمـة لم أكن أتصور أن أي عمـل قمت به في خـدمة الـرئيس ـ وهـو قائدي ـ يمكن أن يؤدي إلى توجيه اتهامات جُرمية إليّ.

لم أكن في عداد المقربين إلى الرئيس ولكنني علمت شيئاً: وهو أن رونـالد ريغـان لم يكن يواجه الاتهام بالتقصير، وذلك بسبب أن لا أحد يريـد أن يعيد التجـربة مـرة أخرى فهذه الأزمة تكفي لجيل واحد، وهناك سبب آخر هو أن الرئيس ريغان كان محبوباً وموثوقاً به من أغلبية واسعة من الشعب الأميركي.

ومع استثناءات قليلة فإنّ أيّاً من منتقديه لم يكن يرغب في اتهامـه بالتقصـير، مع أن عبـارة «الاتهـام بـالتقصـير» لم تستخـدم في العلن، إلاّ نـادراً حتى من قبـل الأعضـاء الديموقراطيين في الكونغرس. لقد استخدم رئيس لجنـة الاستخبارات في مجلس النـواب لي هاملتون عبارة «الاتهام بالتقصير» المخيفة في جواب على سؤال وُجِّه إليـه في برنـامج «هـذا الأسبـوع مع ديفيـد برنكـلي» على شبكـة إي بي سي A B C. وفي ٥ آذار/ مارس ١٩٨٧ تقدم عضو الكونغرس هنري غونزاليس بمشروع قرار «الاتهـام بالتقصـير» في مجلس النواب فلم يلق أي تجاوب، لكنّ هاتين الحادثتين اعتبرتا منفصلتين عن بعضهما.

في خريف عام ١٩٨٦ كان للرئيس ريغان شعبية قوية لدرجة أنه كان يستطيـع ـ هو ونـانسي ـ أن يدعـو فيديـل كاسـترو إلى حفلة عشـاء في البيت الأبيض، يحضرهـا آيـة الله الخميني، من دون أن يتعرض لأي ضرر سياسي. كان من الممكن أن يهزّ الناس رؤوسهم عجباً، إلاّ أن رونالد ريغان كان سيبقى محبوباً من الجمهور، ولا شك عندي أنه لو سمح له الدستور بترشيح نفسه لولاية ثـالثة، لكـان ترشـح عام ١٩٨٨ وحقق فـوزاً ساحقـاً كما حصل في معركته مع مونديـل عام ١٩٨٤. فضيحـة إيران ـ كـونترا قد تسبب أذًى للرئيس لكنها لن تكون قاتلة.

أدى الشروع في الإعلان عن التحويـل إلى انتقال مستشـاري الرئيس من خـطر إلى آخر، كان بإمكانهم تهدئة العاصفة بينما كنا نبـذل الجهد الأخـير لإطلاق سراح الـرهائن، ولكن عندما أعلنت حكومتنا أن الإيرانيين دفعوا ثمن الأسلحة التي اشتروها مبالغ أكثر من ثمنها الحقيقي، وأن الإيرانيين كانوا يموّلون المقاومـة النيكاراغـوية دون أن يعلمـوا بذلـك، بـرزت الأضرار السياسيـة؟ من كان يعلم كيف ستكـون ردة فعل الـزعـماء الإيـرانيـين في طهران، أو محتجزي الرهائن في بيروت تجاه هذه الإهانة الموجهة من واشنطن؟

هل كان من الممكن أن يؤدي هذا الإعلان إلى أعمال عنف ضد الولايات المتحدة أو مضايقات للرهائن المحتجزين؟

كان بإمكان الرئيس ريغان أن يعالج الموضوع بطريقة مختلفة؛ كان بإمكانه أن يقول: «الأمور تتوقف هنا، لقد علمت عن التحويل ووافقت عليه، لأنه عليّ أن أقوم بذلك، وبأي شيء آخر لإخراج رهائننا من إيران، ولتجنّب التخلي عن الكونترا في أوج نضالها بين الحياة والموت. إنه من صلاحيات الرئيس أن يرسم السياسة الخارجية، وإني كرئيس للولايات المتحدة أتحمل المسؤولية عن أي شيء يحدث في عهدي».

لو قال الرئيس ذلك فما الذي كان سيفعله الكونغرس؟ بالتأكيد كان العديد من الديموقراطيين سيغضبون، ولكنهم هل كانوا أقل غضباً عندما سمعوا الرئيس يقول إنه لم يكن يعلم؟

عندما انتهى المؤتمر الصحفي كان سؤال الجميع يرتد نحو الأمة مثل ضجيج المعركة: ماذا كان يعرف الرئيس؟ ومتى عرف ذلك؟ كانت هناك بالطبع أسئلة عديدة أخرى يمكن طرحها ـ خصوصاً حول سياستنا الخارجية ـ هل إن فكرة إجراء محادثات سرية بين الولايات المتحدة وإيران جيدة؟ وإذا كنّا محايدين في الحرب العراقية الإيرانية، كما أعلنا ذلك في الغالب، لماذا كنا نمدّ العراق بمعلومات الاستخبارات العسكرية؟ ولماذا ـ في هذا المجال ـ كان كبار مسؤولي الإدارة، ومن ضمنهم وزير الخارجية جورج شولتز ووزير الدفاع كسبار وينبرغر (الذي نادراً ما كان يوافق على كل شيء)، يؤيدون العراقيين؟ لم يكن العراق هو الذي بدأ الحرب فقط، بل إنه ساهم في الإرهاب الدولي أكثر من إيران، بالإضافة إلى أن حكام العراق كانوا يستخدمون الأسلحة الكيميائية ليس ضد إيران فقط بل ضد شعبهم أيضاً.

لقد شدّدت وسائل الإعلام تركيزها على «التحويل» لدرجة أنها أهملت السؤال عمّا إذا كان الرئيس ريغان يعلم شيئاً عن القضايا الحساسة: هل كان الرئيس ومستشاروه يضللون الكونغرس والجمهور في ما يتعلق بمساعدة الكونترا؟ هل كانوا يضللون الكونغرس والجمهور في ما يتعلق بمبيعات الأسلحة إلى إيران؟ كيف كان على الرئيس أن يحافظ على سياسة ثابتة في أميركا الوسطى، عندما كان الكونغرس يغيّر رأيه حول ما إذا كان علينا أن نساعد الكونترا أم لا؟ ولماذا كان هناك العديد من أعضاء الكونغرس المعادين للمقاومة النيكاراغوية، ويبدو عليهم أنهم غير منزعجين من الحكومة الشيوعية العدوانية في نيكاراغوا؟

هذه الأسئلة وغيرها بقيت مطروحة من غير توجيه، ولكن السؤال الذي يتعلق بالرئيس والتحويل فقد بقي موجهاً: ماذا كان يعرف ومتى عرف ذلك؟ ولم يتوقف التساؤل حتى عندما قال الرئيس نفسه إنه لا يعرف شيئاً عن الأمر، أو حين أيّده فيها بعد الأميرال

بوانـدكستر في أثناء تحقيقيـات* الكونغرس. وعندما أكد الأميرال أنه لم يخبر الرئيس حـول «التحويل» هدأت الحرارة، ولكن ذلك لم ينه التضـارب في الآراء. قالت وسـائل الإعـلام: (لا مدافع مدخنة) تصل إلى تشبيه القضية بووترغيت، لكن الشعب الأميركي ما زال يجد أنّه من الصعب عليه أن يصدق أن الرئيس لم يكن يعرف الأمر.

استناداً إلى الاستفتاءات كانت الأغلبية تعتقد أن الرئيس كان يعرف، وأنـا اعتقدت ذلك أيضاً.

والآن وبعد خمس سنوات فإني أشدُّ اعتقاداً وإيماناً بأن الرئيس ريغان كان يعرف كل شيء.

صحيح أنه لم يكن يعلم بـأمر «التحـويل» مني، وعـلى الأقل ليس بصـورة مباشرة، فطوال فترة عملي في واشنطن لم ألتق به مرة واحدة على انفراد، والمرة الوحيدة التي تحدثت فيها معه كانت على الهاتف في اليوم نفسـه الذي صرفني فيـه. لقد أصرّ جـون بوانـدكستر على أنه لم يطلع الرئيس، لأنه أراد أن يعطيه فرصة «الإنكار الصادق».

في جلسـات التحقيق قال بـواندكسـتر: «لقد اتخـذت قراراً بـأن لا أسأل الـرئيس، بحيث أبعده عن القرار وأؤمن إمكانية إنكار معرفته في المستقبل إذا ما تسربت المعلومات» وحتى لو كان ذلك صحيحاً فإنه من الصعب علي أن أصدق أن الرئيس لم يكن يعرف.

ها هنا يبرز السبب، لم تكن الكونترا الجهة الوحيدة المستفيـدة من مبيعات الأسلحـة لإيران، فقد تقـرر استخدام جـزء من الأرباح في تمـويل مشـاريع أخـرى، بما فيهـا بعض العمليات المضادة للإرهاب، وفي تمويل خطط لإطلاق سراح الـرهائن. وبسبب الحسـاسية البالغة لهذه النشاطات فقد كنت أحرص على الحصول على إذن صريح للقيام بها. وفي كل مرة كنا بصدد مشروع من هذا النوع سواء أنفذ أم لم ينفذ (هذه المشاريع لم تنفذ جميعهـا) كنت أرفع مذكرة، أو كنت أوجّه رسالة على الكومبيوتر إلى الأمـيرال بواندكستر أشرح فيهـا كيفية استخدام الأموال. كان اعتقادي دائماً أن هذه المذكرات ترفـع بالتسلسـل إلى الرئيس، كما هي العادة بالنسبة إلى الـوثائق من هـذا النوع. في الحقيقـة إن نسخة من هـذه الوثـائق، مؤرخة في نيسان/ أبريل ١٩٨٦، كشفت لوزير العـدل أمر «التحـويل» قبـل ثلاثـة أيام من

---

* قال بـواندكستر في جلسة التحقيق: «الأمور تقف هنا عندي»، وأضاف: «لقد اتخذت القرار وشعرت أن لدي صلاحية لاتخاذه، اعتقدت أنها فكرة جيـدة، وكنت مقتنعاً أن الـرئيس سيظن في النهـاية أنها فكرة جيدة».

المؤتمر الصحفي، فمع كل مهاراتي المشهود بها في مجال إتلاف الوثائق، فقد فاتني أن أتلف تلك الوثيقة.

لقد دهشت نوعاً ما عندما قال الأميرال بواندكستر إنه لم يطلع الرئيس على الأمر! ولكن هل من الممكن أن أحداً غيره لم يفعل ذلك؟ كان روبرت مكفرلين، سلف بواندكستر، قد ترك منصبه الحكومي، لكنه احتفظ بحق الدخول إلى المكتب البيضاوي، ومن الممكن أن يكون قد أطلع الرئيس. وهل يعقل أن بيل كايسي لم يذكر مرة موضوع التحويل للرئيس ريغان صديقه القديم، وذلك في أي لقاء من لقاءاتهما الخاصة العديدة؟ إني أستبعد ذلك!

كنت قد ناقشت موضوع «التحويل» أنا وكايسي في مناسبات عديدة، وكان معجباً بالفكرة وامتدحها ولقّبها بـ «كبرى العمليات السرية»، وأشار في إحدى المرات إلى أنها من أكبر المفارقات، لأن إيران كانت في الوقت نفسه تقدم الأسلحة إلى الحكومة الساندينية في نيكاراغوا، ولا شك أن كايسي كان سيسر بإعادة هذه القصة على أسماع الرئيس وهذا ما أعتقد أنه قام به.

ومن المحتمل أيضاً أن يكون الرئيس قد ناقش موضوع «التحويل» مع واحد أو أكثر من كبار المسؤولين. وإذا لم يكن أي منهم على علم بمصير الفائض من مبيعات الأسلحة، فما ذلك إلا لأنهم بذلوا أقصى جهودهم من أجل أن لا يعرفوا. كانت هناك مبالغ مالية كبيرة ـ أكثر بكثير مما كانت الحكومة الأميركية تتلقاه ثمناً للأسلحة ـ تجنى من المبادلات، وقد رفعت تقارير من الاستخبارات إلى مسؤولين مثل كسبار وينبرغر وكولين باول تشرح ذلك. وحتى قبل أن أبدأ في الجوانب العملانية من المبادرة نحو إيران، كانت حكومتنا قد بذلت جهوداً جبارة من أجل جمع معلومات عن مانوشهر غوربانيفار وغيره من تجار الأسلحة، هذه التقارير السرية الحساسة كانت تعمم على عدد محدود من كبار المسؤولين في الحكومة ومن بينهم وزير الدفاع ومستشار الأمن القومي ومدير وكالة المخابرات المركزية ونائبه ومدير وكالة الأمن القومي.

ولم يكن باستطاعة أي منهم أن يقنع الناس بأنه لا يعلم عن وجود فوائض مالية، ومع ذلك فقد حاول معظمهم إنكار الأمر.

في هذه الأثناء أصيب الرئيس ريغان بصدمة عندما تبيّن له، وللمرة الأولى في تاريخه السياسي، أن الرأي العام لم يصدقه، وتساءل: هل هم حقاً يعتبرونني كاذباً؟

لا أعتقد بأن الرئيس كان يكذب، وبالطبع فأنا أدرك أنه وبالنظر إلى ما ذكرته آنفاً،

فإنّ كلامي يبدو متناقضاً! فإذا كـان الرئيس يـزعم أنه لم يكن يعلم بـأمر «التحـويل»، في الوقت الذي كان يعلم فيه فعلاً، أفلا يعني ذلك أنه كان يكذب بالفعل؟

كـلا ليس في حالـة ريغان. ومن المؤكـد أنه بـالنسبة إلى معـظم الناس، وبـالتأكيـد بالنسبة إلى معظم الـرؤساء، فإن هذين الافتراضين لا يمكن أن يكونا صحيحين في الوقت نفسـه، ولكنهما في حـالـة رونـالد ريغـان ليسا متنـاقضين بـالضرورة، فـالـرئيس عـلى رغم إنجازاته الكبيرة لم يكن يركز كثيراً على التفاصيل.

لم يكن الـرئيس ريغان يـذكر دائـماً مـا كـان يعرض عليـه، وأعتقد أنـه اطلع عـلى مـوضوع «تحـويل» الأمـوال إلى الكونـترا، ولكن ذلك لا يعني أنـه ركّز انتبـاهـه، أو كـان يتذكره. ففي أوائل عام ١٩٨٧ أوضح الرئيس للجنة «تاور» أنه لم يكن متأكّداً مما يتـذكره عن موضوع المبادرة نحو إيران، ولا ما إذا كان قد سمح بشحن الأسلحة إلى الإسرائيليين في تشرين الثـاني/ نوفمـبر ١٩٨٥، وورد في شهادتـه أنـه لم يكن يعـرف شيئـاً عن شحن صواريـخ«تو» قبل ذلك إلى إيران، على الرغم من أنه عندما كتب مذكراته من بعـد، ظهر أنه تذكر ذلك.

أظهر شريط الفيديو الذي التقط في أثناء شهادته عام ١٩٨٩ عند محاكمة بوانـدكستر صورة حزينة يائسة لرجل عجوز مضطرب، بدا أنه يتـذكر أموراً قليلة جـداً مما حـدث في أثناء ولايته. فقد كان في أوج سنيّ ولايته يفضل أن يركز على السياسة الدوليـة وعلى القيم والمثل العامة. لم يكن فضولياً وترك التفاصيل لمن هم دونه في المسؤولية، ويبدو لي أنه كان أحيـاناً يـرغب في طرح بعض الأسئلة، إلا أنـه لم يقم بذلـك لأنه كـان سيبدو من سؤالـه «غبياً» ولم يشأ أن يظهر بمظهر من لا يعرف موضوعاً يعتقد الآخرون أنه يجب أن يعرفه.

قال الأميرال بواندكستر إنه لو كان قـد بحث موضـوع «التحويـل» مع الـرئيس فقد كان سيوافق عليـه، وورد في شهادة لبواندكستر في أثنـاء التحقيقات: «كنت مقتنعـاً بأنني كنت أفهم تفكير الرئيس في هذه القضية وأني لو أحلت الأمر إليه لوافق عليه».

وأنا أوافق على ذلك، لقد علم رونالد ريغـان بأمـور كثيرة وأعـطى موافقتـه عليها، وذلك في موضوع المبادرة نحو إيران وموضوع الجهود الخاصة التي كانت تبـذل لدعم ثـوار الكونترا، وقـد تلقى تقاريـر دورية ومفصلة حـول الموضـوعين. لقـد اجتمع في منـاسبات عديدة مع المتبرعين الشخصيين للمقـاومة النيكـاراغويـة، وقد اختـار شخصياً زعيـماً أجنبياً وطلب منه أن يضاعف مسـاهمته. وعلى ضوء سياسات الرئيس ريغان وتوجيهاته لا أشك أنه اطلع على طريقة استخدام الفوائض المالية لمصلحة الكونترا ووافق عليها بحماسة.

وهناك أيضاً احتمال آخر بالطبع، وهو أن أناساً ـ حول الرئيس وربما الرئيس نفسه ـ كانوا يشتركون في خطة لحماية أعلى منصب في البلاد وحماية الشخص الذي يشغله.

ذكر رونالد ريغان في مذكراته: «إننا أرسلنا إلى المحامين الذين كانوا يرافعون عن أوليفر نورث وجون بواندكستر واللذين كانا يعلمان بما حدث، وطلبنا منهم أن يقولوا الحقيقة كاملة، وأن لا يقوموا بأي عمل لحماية الرئيس». دهشت عندما قرأت ذلك وسألت محاميّ عما إذا كان قد تلقى مثل هذه الرسالة، فأجاب: «في الحقيقة لم يحدث أن طلب مني أحد مسؤولي الإدارة أن أقول الحقيقة، كانت الرسالة الوحيدة التي سمعتها «برّىء الرئيس» ولقد سمعتها من ثلاثة أشخاص على الأقل وكل بمفرده».

في نهاية كانون الثاني/ يناير ١٩٨٧ اتصل بول لاكزالت، أحد أقدم أصدقاء الرئيس رونالد ريغان وأقربهم إليه، بأحد أعضاء الفريق القضائي الذي كان يدافع عني في مؤسسة وليامز وكونولي* ليقول لهم إنه قد أرسل إليهم مذكرة. هذه «الوثيقة» التي وصلت بعد أيام قليلة هي مذكرة قانونية تفيد أنه لن يكون باستطاعتي اللجوء إلى المادة الخامسة من الدستور، إذا أعلنت صراحة أن الرئيس لم يكن يعلم عن موضوع «التحويل»، وقد رفض محامي هذا الاقتراح على الفور.

في الشهر السابق وبالتحديد في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر، زارني أحد المساعدين العسكريين لنائب الرئيس جورج بوش، والذي كان عضواً في مجموعة بوش لشؤون الأمن القومي. كنت أنا وهو ضابطين عسكريين وقد تقرب مني بهذه الصفة، وطلب مني بحضور المحامي براندان سوليفان أن أستعمل حقي بموجب المادة الخامسة من الدستور فأبرّىء الرئيس من كل مسؤولية.

وقد تساءلنا: هل جاء هذا الضابط من تلقاء نفسه؟ أم إنه أُرسل إلينا؟ ولا أزال حتى الآن لا أعلم الحقيقة.

قبل أيام قليلة كنا قد سمعنا عن رسالة مماثلة من رجل الأعمال التكساسي المشهور روس بروت والذي كنت أعرفه وكنت معجباً به، (كنت في أوائل السبعينات أفكر في ترك مشاة البحرية والعمل في عالم التجارة وكان بروت هو الذي أقنعني بالعدول عن الفكرة، وفي عام ١٩٨١ قدم إليّ مساعدة في خلال عملية خطف الجنرال جيمس دوزير على يد الألوية الحمراء في إيطاليا).

في ١١ كانون الأول/ ديسمبر جاء إلى وليامز وكونولي حيث اجتمع مع براندان،

* مكتب المحاماة الذي يرافع عن نورث (المترجم).

قال له: «انظر.. لماذا لا يضع أولي* حدّاً لهذا الموضوع ويوضح لرجال مكتب التحقيق الفدرالي أن الرئيس لم يكن على علم. إذا ذهب إلى السجن فسأتولى أمر عائلته، وسيسعدني أن أقدم له وظيفة عندما يخرج». عندما نقل هذا العرض إليّ قلت: هذا هو أسلوب روس، إنه يظن أنه يستطيع شراء أي شيء بالمال.

بعد ستة أيام عاد بروت واجتمع مع براندان ومعي في الوقت نفسه.

وكانت رسالته هي نفسها: أن أتخلى عن اللجوء إلى المادة الخامسة، وأن أدلي بإفادة أبرّىء فيها الرئيس.

وقد وجدت أنه من الصعب عليّ أن أصدق أن بروت كان يتصرف من تلقاء نفسه، ولكن إذا كان أحد ما قد أرسله فإنه بلا شك لم يترك بصماته!

من المحتمل أن هذه الوساطات الثلاث كانت جزءاً من خطة بدأت قبل ذلك بمبادرة من الرئيس شخصياً. فبعد بضع ساعات من المؤتمر الصحفي الذي عقده الرئيس في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر، اتصل بي أحد عمال مقسّم الهاتف في البيت الأبيض إلى فندق في ضواحي فرجينيا كنت قد لجأت إليه لتجنّب فضول الصحافة.

كان الرئيس يريد أن يتحدث إليّ عن قراره بصرفي. في خلال محادثتنا الوجيزة دعاني «بطلاً قومياً»، وهي عبارة ردّدها في مقابلة مع مجلة تايم في اليوم التالي، كما استخدمها يوم ٢٥ آذار/ مارس ١٩٨٨، أي بعد سنة ونصف من صرفي، وبعد تسعة أيام من توجيه الاتهام إلي قال: «لا أزال أعتقد أن أولي نورث بطل».

كنت أدرك ماذا يعني بكلامه هذا وكنت ممتناً لتقديره. كان ريغان يعلم تماماً أنني بالإضافة إلى اشتراكي في المبادرة نحو إيران وبالعمل لمصلحة الكونترا، كنت مساهماً في بعض النشاطات المضادة للإرهاب.

وكان قد أرسل إليّ رسالتي تقدير في مناسبتين، ولذلك أصبت بدهشة عندما قرأت روايته لتلك المكالمة الهاتفية التي ظهرت بعد سنوات في «مذكرات ريغان»، فعندما أشار إليّ على أنني بطل قومي كتب الرئيس السابق: «كنت أفكر حول خدمته في فيتنام!».

ماذا؟!

لقد وجدت أنّ تصديق ذلك صعب جدّاً بسبب أني لا أعتقد أن أحداً في البيت الأبيض، في خلال فترة عملي في مجلس الأمن القومي، كان يعلم عن سجلي في حرب

---

* أي أوليفر نورث. (المترجم).

فيتنام. وهناك سبب آخر هو أني لا أعتقد أن الرئيس قد شاهدني وأنا أرتدي البزة العسكرية قبل ابتداء التحقيقات.

وهذا يعني أنه لم تكن لديه أي فكرة عن وجود أوسمة مدلاة على صدري، أو لماذا نلت هذه الأوسمة، وأكثر من ذلك فإنه بعد صرفي من العمل بوقت طويل طلب البيت الأبيض الحصول على سجل خدماتي العسكرية وأرسل السجل إلى مكتب رونالد ريغان.

أجرى الرئيس ريغان مقابلة مع هيو سايدي من مجلة تايم بعد يوم من فصلي قال فيها: «ينبغي أن أقول إن هناك حرارة شديدة في بلعومي، ولم أر سمك القرش يدور كما هي الحال الآن بينما الدم يملأ الماء». إلا أنه على الرغم من مزاجه العكر فقد امتدحني قائلاً: «إنني لا أشعر بأنني انخدعت، لقد كان الليوتنانت كولونيل نورث مشاركاً في جميع عملياتنا: أكيلي لاورو وليبيا، إن له سجلاً جيداً وهو بطل قومي».

برأيي أن ذلك يوضح تماماً أن ما كان الرئيس يشير إليه عندما وصفني بأني بطل قومي لم يكن سجلي العسكري. لقد أسفت عندما قرأت مذكراته بأن أرى محاولته لإعادة كتابة التاريخ، وهذا ما جعلني أتعجب حول موضوع آخر قاله لي في المكالمة الهاتفية.

هذه الإشارة كانت أشدّ غموضاً. ففي السنوات الخمس التي مضت، قلبتها في رأسي مرات عديدة! عندما أجرى الرئيس ريغان المكالمة أعربت له عن أسفي لما حدث، لأن المبادرة الإيرانية انفجرت في وجهنا وقلت: «إني آمل حقّاً أن لا يصيب ذلك رئاستك بأذى. لا أستطيع إلا أن أقول لك إنني بذلت أقصى جهدي في خدمتك وخدمة بلادي، ولم أكن أرغب في حدوث شيء من هذا».

قال لي الرئيس: «أولي يجب أن تفهم أنني فقط لم أكن أعلم».

وفي تلك اللحظة فهمت العبارة بمعناها الحرفي. أما اليوم وأنا أنظر إلى الوراء، أتساءل: لماذا صاغ ريغان عبارته بتلك الطريقة، وأتساءل ما إذا كان يضمر في عبارته أكثر مما فهمته في ذلك الوقت. كان بإمكانه أن يقول: «أولي لماذا لم تطلعني على موضوع «التحويل»! أو أن يقول «أولي» صدقني لم أكن أعلم ماذا يجري، وبدلاً من ذلك قال: «يجب أن تفهم أنني فقط لم أكن أعلم». وأنا الآن أتساءل ما إذا كان بمفرده عندما أجرى المكالمة؟ هل كان دون ريغان يقف إلى جانبه؟ أو نانسي؟ ربما كان الرئيس يحاول أن يقول لي: «اسمع يا أولي، أنا وأنت نعلم غير ذلك، ولكن الموقف الذي نتبعه الآن هو أنني لم أكن أعلم فأرجوك أن تتبناه».

ومن الممكن بالطبع أن يعني الرئيس تماماً ما قاله. فكما نعلم كان كل ما يقوله

تقريباً يكتبه من قبل، وكان يميل إلى الاعتماد على بطاقات الملاحظات. ولا أحتاج إلى عناء كبير في أن أتخيل ما إذا كان دونالد ريغان يعير انتباهاً للغة التي يستعملها رئيسه.

يعتقد العديد من أصدقائي ومؤيديّ أن رونالد ريغان قد خانني وهم يقولون: «لقد قمت بكل ما تستطيع من أجله وأرهقت نفسك بتنفيذ سياساته، حتى إنك خاطرت بحياتك عندما ذهبت إلى طهران، وعندما أصبت تخلى عنك في ساحة المعركة، ألا تشعر أنه خانك؟

أحياناً أشعر بذلك، ولكنني أتغير كثيراً في ما يتعلق بـ رونالد ريغان.

ففي ما يتعلق بالتغيير الذي أحدثه في العالم أشعر بسعادة بالغة، لأنه كان رئيساً لفترة ثماني سنوات، ومع ذلك لا يمكنني أن أتجاهل الحقيقة في أنه كان بإمكانه أن يضع حداً لسنوات المعاناة التي عشتها وعاشها معي، إما بأن يمنحني عفواً رئاسياً أو بإلغاء مكتب الإدعاء الخاص قبل أن يترك منصبه.

هل هذه خيانة؟ من الثابت أنه لم يكن يدعمني!

في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ رضخ الرئيس للضغوط التي تعرض لها من الكونغرس، ودعا إلى تعيين قاضي ادعاء خاص. وهذا ما أدى إلى اعتبار النشاطات التي قمت بها أنا وغيري لدعم سياسة الرئيس ذات طبيعة جُرمية. وفي هذه الأثناء تابع في تغيير مسار القصة. في البداية قال للجنة «تاور» التي عينها إنه لم يكن يعلم أن أعضاء مجلس الأمن القومي يساعدون الكونترا ولم يفاجأ عندما لم يصدقه أحد.

بعد ذلك في ١٥ أيار/ مايو ١٩٨٧ كان أكثر صراحة عندما تكلم أمام مجموعة من المذيعين ورؤساء تحرير الصحف فقال: «في الحقيقة لقد كنت مشاركاً، بصورة أكيدة، في القرارات التي اتخذت لدعم المقاتلين من أجل الحرية، لقد كانت فكرتي أنا في البداية».

(٢)
السرّ داخل السرّ

لم أكن أنـا من ابتكر مـوضوع «التحـويـل»، وبصراحـة كنت أتمنى، لأنني أحب أن ينسب إليّ ذلك، لكنها لم تكن فكرتي.

لقد برزت فكرة استخدام الأموال الإيرانية من أجل دعم المقـاومة النيكـاراغويـة في خلال اجتماع عقد في لندن في كـانون الثـاني ١٩٨٦ مع مـانوشهـر غوربـانيفار وأمـيرام نير مستشـار رئيس الحكـومـة الإسرائيلية شمعـون بـيريـز لشؤون مكـافحـة الإرهـاب. كـان غوربانيفار - وهو مغـترب إيراني ورجـل أعمال يتخـذ من باريس مقـرّاً له في خـلال معظم أوقات المبادرة الإيرانية - قناة الاتصال الوحيدة مع المسؤولين الحكـوميين في طهـران، وكان له عينان سوداوان، وبدا عليـه أنه يتمتـع بمعظم ملذّات الحيـاة، بالإضـافة إلى ذلـك كان سريـع الكلام معتـدّاً بنفسه محبّـاً للعشرة، وكان أيضـاً مضاربـاً في أسواق البـورصـة عـلى مستوى عالمي.

كنا نجتمع للبحث في مسألة الشحنة القادمـة من صواريـخ «تو» إلى إيـران. كانت هذه الاجتماعات تعقد أحياناً في جناح غوربانيفار في فندق تشرشل وهو جناح فخم، أرضه مكسوّة بالسجاد العجمي، وجدرانه مليئة باللوحات الرائعة، وفي مرات أخرى كنـا نلتقي في فندق بنتا في مطار هيثرو.

خلال استراحة في إحدى المناقشات وقف غوربا وأومأ إليّ أن أتبعه إلى الحـمّام، كان يشك حتماً أن هذه المناقشات كانت تسجّل، ولذلك فتح حنفيـة المياه في الحـمام والمغاسـل ليغطي على صوتينا، ثم قال لي بصوت ناعم وكأنه أقدم وأعـزّ صديق لي في العالم: «أولي إذا استطعنا أن نعقد هذه الصفقة ففيها مليون دولار لك».

لم يكن قد عرض عليّ رشوة من قبـل، ولكنّي لم أفاجـأ بعرضـه، فالجميـع يعلم أن غوربانيفار يعمل في أوساط ومجتمعات كان «البقشيش» فيها شائعاً.

أجبتـه بسرعة: «هـذا غير وارد، ولا تكـرر عليّ هـذا الموضـوع وإلاّ فإني أعتـبر أن

الموضوع بكامله قد انتهى».

ولكن غوربا كان محاوراً جيّداً، وإذا لم يتمكن من إقناعك بالموافقة على اقتراحه فإنّ لديه دائماً اقتراحاً آخر.

قال: لا تهتم، أنا أفهم ماذا تعمل في أوقات فراغك، يمكنك أن تؤمّن بعض المبالغ المالية لأصدقائك في نيكاراغوا.

قلت: نعم لقد فهمت عما تتحدث.

لقد بدا لي واضحاً أن الإسرائيليين والذين كان يتعامل معهم غوربا في ذلك الوقت كانوا يطلعونه على كل شيء. لقد علم منهم أو من أي سبيل آخر، أنني متورط في مساعدة المقاومة النيكاراغوية، وأنه بعد أن قطع الكونغرس المعونات التي كانت تقدمها وكالة المخابرات المركزية للكونترا، فإنها صارت تتلقى التمويل من مصادر خاصة ومن ضمنها حكومات أجنبية وبعض المتبرعين الأميركيين.

عندما عدت إلى واشنطن توجهت إلى مكتب بواندكستر لمقابلته. قلت له: «سيدي الأميرال، أعتقد أننا عثرنا على طريقة لمساعدة المقاومة النيكاراغوية». وعندما أخبرته ما اقترحه عليّ غوربا، وافق على ذلك واعتبر الاقتراح طريقة مثالية لتنفيذ سياسة الرئيس المزدوجة في الوقت نفسه. وفي ذلك المساء اتصل بي الأميرال على الخط الخاص الآمن، وطلب مني أن «أبدأ تنفيذ ما تحدثنا عنه»، وبدأت فعلاً.

ولأن «التحويل» أصبح القضية المركزية الأولى في موضوع إيران ـ كونترا، لذلك سأشرح بدقة كل الذي حصل والذي لم يحصل بالفعل.

إني أضع كلمة «التحويل» بين مزدوجين، لأن الكلمة تعني عادة شيئاً ما مشوّهاً أو منحرفاً، وكان هذا هو السبب الذي جعل «التحويل» رمزاً لقصة إيران ـ كونترا بأكملها. كان الأمر ملهباً، لقد فرض شيئاً غير قانوني وغير أخلاقي، وأوحى بأنّ المال قد سرق، وأن هناك عنصر ربط هام بين مبادرتين منفصلتين ـ إيران والكونترا ـ واللتين لم يكن يجمعهما الكثير.

كان الكونغرس وعلى الرغم من عدائه للإدارة، وبصورة مفاجئة، يرغب في تقبل الفكرة التي أطلقها البيت الأبيض من أن «التحويل» هو القضية الأساسية، وقد تقبلت الصحافة والجمهور هذه الفكرة أيضاً.

ولكن من وجهة نظري، فإن تحويل الأموال من مشروع إلى آخر لم يكن القضية المركزية، إنّه مثل ورق الهدية الذي يناسب علبتين، والذي يلف كلاً منهما فتبدو كل علبة

جذابة، ولكنه لا يظهر بوضوح حقيقة ما تحتوي كل علبة في داخلها.

على الرغم من كل ما قيل فإن «التحويل» لم يكن غير قانوني. يمكنك أن تناقش وتقول إنها فكرة سيّئة - والموضوع قابل للنقاش - ولكن على رغم كل ذلك فإن «التحويل» لا يخالف أي قانون، فبعد خمس سنوات وعشرات الملايين من الدولارات التي أُنفقت على التحقيقات والادعاءات والمحاكمات والهيئات القضائية لم يحاكم أحد بأي جُرم بسبب «تحويل» أي شيء.

والآن، إذا كانت حكومة الولايات المتحدة قد باعت أسلحة مباشرة إلى إيران، وإذا قرّر أحد ما في حكومتنا - من تلقاء نفسه - أن يأخذ المال الناتج عن مبيعات السلاح، ويرسل قسماً منه إلى الكونترا بدلاً من إرساله إلى الخزينة الأميركية فالأمر يشكل عندئذ «تحويلاً». ولكن الذي حصل ليس كذلك، فلم يكن لحكومتنا أي اتصال مباشر مع إيران، ولم يكن للإسرائيليين أي اتصال بها أيضاً، لقد اتكل الإسرائيليون على فريق ثالث وسيط، وهكذا فعلنا نحن.

لقد علم مسؤولو الحكومة عن «التحويل» وصادقوا عليه، وتفهّموا ضرورة وجود رجل وسيط، وأقرّوا أنه بعد أن يدفع للحكومة الأميركية أموالها، فإن المال المتبقي والذي يتلقاه الوسيط يمكن تحويله.

في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦ وقّع الرئيس ريغان مذكرة سمحت بالمبادرة الإيرانية وحدّدت الاعتماد على طرف ثالث في مجال تنفيذ الصفقة.

وصلت الأسلحة الأميركية الصنع إلى إيران عبر طريقين: من المخازن الإسرائيلية، والتي سددنا النقص فيها في النهاية، ومن المخازن العسكرية الأميركية. وفي الحالتين كلتيهما انتقلت الأسلحة والأموال من خلال وسطاء إيرانيين وإسرائيليين وأشخاص أميركيين من ضمنهم ريتشارد سكورد وألبرت حكيم وياكوف نمرودي وآل شويمر وبالطبع غوربانيفار. هؤلاء الرجال اشتروا الأسلحة من حكومة الولايات المتحدة وحكومة إسرائيل ثم باعوها، بعد موافقة الحكومتين، إلى إيران. ومثل جميع عملاء البورصة فقد تدخلوا في هذه الصفقة ليحققوا أرباحاً منها. وقد توجّب إرسال قسم من هذه الأرباح إلى الكونترا لدعم نضالهم ضد الساندينيين، وهو ما أطلق عليه اسم «تحويل»، فقد تحولت الأموال من جيوب غوربانيفار وبقية الوسطاء.

كان بإمكانهم أن يتحملوا ذلك بالتأكيد، واستناداً إلى أحد تقارير الاستخبارات حقّق غوربانيفار، وربما البعض الآخر، أرباحاً هائلة من هذه الصفقة، ولكن ليس على

حساب الحكومة الأميركية، لقد حدّدت وزارة الدفاع سعر كل سلعة وتلقت الثمن مقدّماً. لقد تم دفع ثمن الأسلحة من قبل الوسطاء الذين اشتروها وتلك كانت قصة أخرى.

إن حكومتنا تبيع أملاكها في جميع الأوقات، خذ مثلاً أجهزة الكومبيوتر المستعملة، فإنّ تاجر الكومبيوتر يدفع الثمن الذي تحدده الحكومة في المزاد ولنقل: عشرة آلاف دولار، وبعد شهر واحد يبيع الكومبيوتر لشخص آخر بثلاثة عشر ألف دولار، فهل يعني هذا أنه كان هناك «تحويل» وأن التاجر مدين للحكومة بثلاثة آلاف دولار؟ طبعاً لا، إن الربح هو ربحه ويمكنه أن يتصرف به على هواه.

طبعاً إنّ الصاروخ ليس كالكومبيوتر ولكنّ المبدأ المالي هو المبدأ نفسه في الحالتين.

إنّ غوربانيفار لم يكن أفضل رجل أعمال لهذه الغاية، وقد جاء في بعض فصول مبادرة إيران ـ كونترا أن مكفرلين كان الشخص الوحيد الذي يعرفه جيّداً، وأنّا جميعاً كنّا سذجاً. وباستثناء ميشال ليدين، وهو مستشار في مجلس الأمن القومي، لم يثق أحد بغوربانيفار، حتى الإسرائيليون الذين جاؤوا به لم يثقوا به ثقة تامة، وكما أخبرني آمي نير ذات مرة فإن إخلاص غوربانيفار له ثمن يجب أن يدفع، ومنذ وقت طويل. لقد كان قناة الاتصال الوحيدة مع الحكومة الإيرانية، وكنا نعلم أيضاً أنه فشل في ثلاثة اختبارات لكشف الكذب، أجرتها له وكالة المخابرات المركزية على آلة البوليغراف* حيث أخفى كل شيء تقريباً ما عدا اسمه وجنسيته.

فيما بعد وفي تحقيقات الكونغرس برز السؤال: كيف نعمل مع شخص كهذا؟ وكان الجواب بسيطاً: كان غوربانيفار هو خيارنا الوحيد إلى أن نجد شخصاً أفضل منه، ومنذ البداية كنا نبحث عن بديل يمكن الاعتماد عليه، وعندما وجدناه أخيراً ـ وهو ما سُمّي بالقناة الثانية ـ أصبح غوربانيفار من التاريخ. لكنه هو الذي جعلنا نبدأ، وبمساعدته دبرنا أمر إطلاق سراح رهينتين في بيروت. يمكن أن يكون غوربانيفار شخصاً فاسداً، لكنه لم يظهر بغير المظهر الذي هو عليه: تاجر غني يحاول أن يكسب كمية كبيرة من المال. ولم يكن الوضع وكأن هناك مرشحين آخرين لديهم اتصالات قوية في إيران يقفون في «الطابور» بانتظار الحصول على هذه الوظيفة، أو أن تحصل معجزة فتتطوع الأم تيريزا للاتصال بالإيرانيين من أجلنا!

عندما انغمست في المبادرة الإيرانية لم أكن أعلم إلا القليل عن عالم تجارة الأسلحة،

---

* آلة تشبه آلة تخطيط القلب تظهر على رسم بياني تبدّلات الأعصاب عند الإنسان المختبَر، ويمكن الاستنتاج من الرسم البياني صدق أو كذب الشخص موضوع الاختبار. (المترجم).

أما الآن فإني أفهم أن غوربانيفار كان التاجر المثالي. لقد علمت ما كان يدور في ذهن الجنرال ديك سيكورد عندما تذكر، في أثناء تحقيقات الكونغرس، أن مكفرلين قال مرة إنّ غوربانيفار هو أحد أحقر الشخصيات التي التقاها في حياته. قال سيكورد: «لقد وجدت هذا النوع من التعليق مشوّقاً لأنه كان بعيداً عن أحقر شخصية كنت قد التقيتها أنا».

مهما كانت أخطاؤه، وقد كانت عديدة، لم يقل أحد إن غوربانيفار كان غبيّاً. لم تغب عنه الحقيقة في أننا لم نثق به، وأننا كنا نتوق إلى استبداله حالما نجد شخصاً آخر لديه إمكانيات الاتصال نفسها مع الإيرانيين.

ومع أن غوربانيفار كان الشخص الأول الذي اقترح «التحويل» فإنني أشك أنها كانت فكرته. كان العديد من أفراد وكالات الاستخبارات الأميركية يعتقدون أن غوربا كان في جيب الإسرائيليين، لكن ذلك لا يعني أنه كان يعمل لهم فقط، ويمكن أن يكون قد استخدمهم تماماً كما استخدموه، ومن المحتمل أن لا يكون من المصادفة أن الإسرائيليين اقترحوا خطة «التحويل» في الوقت نفسه الذي اقترحها هو فيه.

بعد وقت قصير من إدراكي كلّ ذلك، اتصل بي الإسرائيليون وطالبوا باستعاضة شحنة الصواريخ المؤلفة من ٥٠٠ صاروخ «تو»، والتي كانت قد أرسلت إلى إيران في صيف ١٩٨٥. وكما فهموا فإن مكفرلين كان قد وافق على الشحنة، ووعد بتعويضهم الصواريخ بسرعة وبدون ثمن. لكن مكفرلين ذكر ذلك بصورة مختلفة، فقد أعلن أنه أبلغ الإسرائيليين أنه سيجري تعويض الصواريخ في نطاق مشتريات الأسلحة. لكن الإسرائيليين، ومن ضمنهم رئيس الوزراء شيمون بيريز ووزير الدفاع إسحق رابين، أصروا على أنهم لم يوافقوا على ذلك. وفي أثناء الحرب الطويلة التي كانت تدور بين العراق وإيران، وحين كان يتواجه مليون جندي أو أكثر من كل جانب، لم يكن ٥٠٠ صاروخ «تو» أكثر من نفخة في وجه إعصار، ولكن بالنسبة إلى الإسرائيليين المحاطين بالأعداء، والذين يملكون احتياطاً محدداً من مواد الحرب، فإن خسارة مؤقتة لهذه الصواريخ لها تأثير خطير في الأمن القومي.

في أوائل عام ١٩٨٦ وصل أميرام نير إلى واشنطن وذلك للمحافظة على حيوية المبادرة وللتأكّد من أن إسرائيل سوف تتلقى الصواريخ البديلة بأسرع وقت ممكن. كان أحد الخيارات أن يتوجه الإسرائيليون إلى وزارة الدفاع الأميركية لشراء ٥٠٠ صاروخ «تو»، ولكن لم يكن هناك من مجال بأن يجري ذلك بشكل سرّي. عندها عرض نير احتمالاً هو في جوهره الخطة نفسها التي عرضها غوربانيفار فيما بعد في لندن ولكن بهدف آخر. فبالنسبة إلى شحنة شباط/ فبراير والتي أرسلت إلى إيران، فإن تجار الأسلحة

الإسرائيليين سيطلبون من إيران سعراً كبيراً، ليس لتغطية نفقات شحنة «تو» المرسلة إلى إيران فقط، بل من أجل أن يدفعوا للحكومة الأميركية ثمن ٥٠٠ صاروخ «تو» إضافي لتعويض الإسرائيليين الشحنة التي كانوا قد أرسلوها إلى إيران في صيف عام ١٩٨٥.

كانت خطّة نير إذاً سابقة لخطة غوربانيفار. وإذا افترضنا أن الفكرة جاءت من الإسرائيليين فإن عرض غوربانيفار كان طريقة آمنة لإحداث تغييرات أكثر جاذبية. إنّ غوربانيفار كان له سبب خاص بالطبع ليظهر لنا دوافعه، فإذا توقّفنا عن استخدامه فإنه لن يجني أيّ مبلغ مالي.

حتى هذا اليوم لا أعلم بالضبط كيف بدأت اتصالاتنا مع إيران لأنني لم أكن مشتركاً فيها منذ البداية، ولكن ووفقاً لجميع الروايات فقد بدأت بالاشتراك مع الإسرائيليين. فيما بعد حاول بعض أعضاء لجان التحقيق في الكونغرس التعتيم على الدور الإسرائيلي، بينما حاول الآخرون في الجناح التنفيذي تضخيم هذا الدور، أو حتى توجيه اللوم إلى إسرائيل بشأن الموضوع بكامله، وهذان التفسيران كلاهما سخيف.

من خلال معرفتي، فقد بدأت المبادرة مع إيران عندما اتصل ديفيد كيمحي، المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية، بروبرت مكفرلين في أواسط عام ١٩٨٥. كان الإسرائيليون، مثلنا، يتمتعون بعلاقات جيّدة مع إيران قبل وصول آية الله إلى الحكم، وكانوا تواقين لاستئناف علاقتهم بالإيرانيين بهدف التأثير في الحكومة الثورية الحالية.

لقد اهتم الإسرائيليون بعمق بنتيجة الحرب العراقية الإيرانية، ومع أن العراق وإيران أصبحا الآن عدوين شديدين لإسرائيل، فإن الإسرائيليين أدركوا أن العراق كان يشكل تهديداً أكثر خطورة ليس لإسرائيل فقط، بل للشرق الأوسط بكامله، أما إيران ـ على العكس ـ فإنها أقل ضرراً مما كان يظهر في الخطابات، وعلى الرغم من جميع أحاديث آية الله المعادية لإسرائيل، لم تكن إيران جزءاً من «العالم العربي»، ولم يكن لها تاريخ من الأحقاد والعداوات تجاه إسرائيل.

كان العراق على أي حال موضوعاً آخر. لقد أرسل صدام حسين أكثر من مرة وحدات عسكرية للاشتراك مع الجيوش العربية ضد إسرائيل، وقد أخذ الإسرائيليون التهديد العراقي على محمل الجد عام ١٩٨١ عندما قصفت الطائرات الإسرائيلية منشأة عراقية تساهم في صنع الأسلحة النووية. في ذلك الوقت أدان العالم الغربي الغارة الإسرائيلية ـ على الأقل إعلامياً ـ ولكن بعد عشر سنوات، أي عام ١٩٩١، كان المنتقدون ممتنّين من أن القدرة النووية العراقية قد دُمّرت أو على الأقل تأخرت عقداً من الزمن.

كان للإسرائيليين دافع آخر للتحرك نحو إيران، فقد كانوا يتوقـون إلى تحريـر حوالى ٣٠ ألف يهـودي لم يتمكنوا من الفـرار عندمـا وصـل آيـة الله إلى السلطة، وقـد أصبحت حياتهم مهددة من قبل النظام الإسلامي المتشدّد. وعـلى الرغم من أن اليهـود الإيرانيـين لم يكونوا في معسكرات اعتقال وتحت الحراسة مثل الرهائن في لبنان، لكنهم كـانوا يخضعـون لرقابـة وزارة الأمن الداخـلي، وقد ختمت جـوازات سفرهم بخـاتم يمنعهم من السفر إلى «فلسطين المحتلة». وكانت إسرائيل مهتمة بإنقاذ جنديين كانا قـد اعتقلا في لبنـان واتهمت أطراف تدين بالولاء لإيران بهذا الخطف.

في صيف ١٩٨٥ عندما وصل كيمحي إلى واشنطن، أخبر مكفرلـين أن الإسرائيليين أجروا اتصـالات مع مسؤولين إيرانيين يعتقد أنهم معتدلون. اقترح كيمحي أنـه إذا كانت الولايات المتحدة تريد أن تشترك مع إسرائيل في تطوير هذه الاتصـالات فإن ذلك سيؤدي إلى تحرير رهائنها في بيروت، لكنه حذّر مكفرلـين أيضاً من أن هؤلاء المسؤولـين الإيرانيـين سيـطلبون عـاجلاً أو آجـلاً أسلحـة أمـيركيـة وهـذا مـا يشكّـل لهم رصيـداً لـدى القـادة العسكريين والحرس الثوري.

بحث مكفرلين الاقتراح الإسرائيـلي مع الـرئيس. لم يكن جواب الـرئيس واضحـاً بالضبط، ومكفرلين نفسه سرد روايات مختلفة حول لقائه مع الرئيس في مستشفى البحريـة الأمـيركية في بيتسدا حيث كان الـرئيس في نقاهـة من جرّاء عمليـة جراحية. لقد أخـبرني الإسرائيليون فيما بعـد أنهم طلبوا تـأكيدات خـاصة من أن الـرئيس قد سمـح بتعويضهم الصواريخ التي يريدون إرسـالها إلى إيـران. واستناداً إلى مكفـرلين فـإن الرئيس وافق عـلى ذلك فعلاً، ولكن روايته تختلف في كيفية إجراء هذا العوض بالضبط.

لن يفاجئني الأمر في أن يكون مكفرلين قد تابع العمل في هذه المبـادرة دون موافقـة صريحـة من الرئيس ريغـان، ولكن على الـرغم من كل شيء قيـل، فإني أرى أنـه من غير المعقول أن يكون روبرت مكفرلين الذي تعلم في أكاديمية بحرية أمـيركية قـد تصرف دون إذن الرئيس. نعم إنك تأخذ المبادرة، ولكنك تتحاور دائماً مع رؤسائـك، وستكون مغفّـلاً إذا لم تفعل ذلك، ومهما كانت هفواتنا فإنه لا يوجد بيننا مغفل.

بدأت علاقتي العملية بمبادرة إيران بعد ظهر يوم ١٧ تشرين الثـاني/ نوفمـبر ١٩٨٥ عندما رنّ جـرس الهاتف في مكتبي وكـان على الـطرف الآخر الجنـرال إسحق رابين وزيـر الدفاع الإسرائيلي. لم أكن قد تعرفت عليه من قبل، فتساءلت عمّا دعاه إلى التحدّث إليّ. وللحال دخل رابين في الموضوع فقال: «إننا نواجه مشكلة، ومكفرلين قال لي إنك تستطيع أن تساعدنا» ثم شرح لي تفاصيـل شحن إسرائيل صـواريخ «هـوك» الأميركيـة الصنع إلى

إيران، وكيف أن الطائرات* التي كانت تنقلها لم تمنح حق الهبوط في المطار الأوروبي حيث كـان يفترض أن تحط، ثم تنقـل إلى طائـرة أخـرى، وسـألني متى أستـطيـع أن أصـل إلى نيويورك في أسرع وقت ممكن.

جاءت مكالمة رابين من دون أن أتوقعها، وكنا نتحادث على خط هاتف مفتوح وكان يتحـدث «على المكشـوف» ممـا أقلقني، وقبـل أن أوافق عـلى أي شيء كنت أحتـاج إلى أن أتشاور مع مكفرلين فقلت لرابين: «لا نستطيع أن نتحدث عن هذا هاتفياً، أمهلني بضـع دقائق وسأعود إليك».

كنت أعرف أن الإسرائيليين يشحنون الأسلحة إلى إيران، وأن هذه الشحنـات أدت إلى إطـلاق سراح القس بنجامـين ويـر وهو أحـد الرهـائن المحتجزين في بـيروت. وكنت أعرف أيضاً في ذلك الوقت أن حكومتنا لم تقم بـأي دور عملي في العمليـة ما عـدا العمل عـلى استعادة رهـائننا الـذين يمكن أن يطلق سراحهم. وحتى ذلـك الحين كـان دوري أن أراقب المبادلات، وتنفيذاً لتعليمات مكفرلين بادرت إلى تنظيم عملية جمـع معلومات سـريّة حتى نتمكن من متابعة ما كان يجري بدقة.

فوجئت بطلب رابين المساعـدة، ولم أكن مستعداً لتقـديم أي شيء من دون موافقـة واضحة من مكفرلين. كان مكفرلين في جنيف يحضر أول قمَّـة عقدهـا الرئيس ريغـان مع غورباتشوف، وما إن هممت بتناول سماعـة الهاتف لـلاتصال بـه، حتى تلقيت مكالمـة على الخط «الآمن». كانت من مكفرلين نفسه والـذي قال لي: «بعـد قليل سيتصـل بك وزيـر دفاع إسرائيل» فقلت له:

ــ ألم يقل لك؟

ــ حاول أن يقول، ولكنّنا كنّا نتحدث على «خط مفتوح».

ــ «إصـغ إليّ. إن الإسرائيليين يحـاولون شحن بعض صـواريخ «هـوك» إلى إيران، والعملية بأكملها يقوم بها اثنان من المواطنين الإسرائيليين المرمـوقين، وقـد واجهتهما بعض المشاكل اللوجستية. عد إلى رابين وتولّ تدبير الأمر، اذهب إلى نيويورك واجتمع به».

خلال الأيام القليلة التالية أجريت مع مكفرلين محـادثات عديدة حول هذا الـترتيب الجديد، فأعطاني الضـوء الأخضر لاشتراك أمـيركي مباشر وأكّـد لي أن الرئيس وافق عـلى ذلك.

---

* لقد تخوّف وزير الدفاع ووزير الخارجية في الـولايات المتحـدة، وذلك لأن الـطائرات الإسرائيليـة كانت أميركية الصنع وقد زوّدت إسرائيل بها لأغراض دفاعية. رفض وينبرغر الادعاء الإسرائيلي حول «الدفاع الاستراتيجي» وتحدث عن حظر شحن الأسلحة إلى إسرائيل.

كان هذا مؤشِّراً على تغيير كبير في دور الحكومة الأميركية في مبيعات الأسلحة إلى إيران. فعندما قال لي مكفرلين إن الإسرائيليين يبيعون الأسلحة إلى الإيرانيين بتأييد خفيّ من حكومتنا، أصدر إليّ تعليمات بأن أكتفي بمراقبة المبادلات «راقِب وأصغ». حتى ذلك الحين لم نتدخل ولكننا كنا نراقب بدقة، بينما كان الإسرائيليون يشحنون ٥٠٤ صواريخ «تو» مضادة للدبابات إلى إيران عام ١٩٨٥، ليتبع ذلك إطلاق سراح القس بنجامين وير في العام نفسه بعدما أمضى ما يزيد على السنة في الاعتقال. حالما وصل وير إلى الولايات المتحدة أرسلني مكفرلين وكايسي على متن طائرة تابعة لوكالة المخابرات المركزية إلى مطار عسكري في فرجينيا لأبلغه رسالة من الرئيس ريغان، بالإضافة إلى مطالبته بأن يتعاون معنا في التحقيق. لم تكن التجربة سارّة، كان وير عدوانياً بصورة علنية ضد الولايات المتحدة وإسرائيل، وعلى الرغم مما جرى له خلال سنة كاملة في الاعتقال، فقد كان يتعاطف بصورة واضحة مع محتجزيه، وقد ضرب بيده على الطاولة وقال إنه يرفض رفضاً باتاً أن يمدّنا بأي معلومات يمكن أن تؤدي إلى استخدام القوة العسكرية لإطلاق سراح زملائه من الرهائن، ولم يظهر أي عداء لمحتجزيهم بل صبّ جام غضبه علينا.

لقد أُصبت بخيبة أمل من جرّاء موقفه، ولكنني لم أفاجأ على أي حال. لقد عانى وير الأمرين وقيّد بالسلاسل وأهينت كرامته لمدة ١٨ شهراً، وربما اعتقد أننا لم نفعل شيئاً لمساعدته. إلا أنّ الأمر لم يكن حالة من حالات «مرض ستوكهولم» الذي يصيب الرهائن فيجعلهم يتعاطفون مع محتجزيهم. كان وير قد أمضى في لبنان ٣١ سنة، والظاهر أن هذه كانت وجهة نظره قبل احتجازه، ولكنه كان عدائياً وغير متعاون بعد إطلاق سراحه، إلى حد أن بعض الذين حاولوا أن يحصلوا منه على المعلومات سمّوه «القس ويرد» (أي شديد الغرابة).

في الوقت الذي أطلق فيه سراح وير، كان يتضح لنا أن الرهائن لم يكونوا موضوع الاهتمام الوحيد في صفقات الأسلحة الإسرائيلية إلى إيران. فقبل شهر من مكالمة رابين وردت إشارة تفيد أن هذه المبادلات لها بعد آخر. في صيف ١٩٨٥ كان بين المعلومات السرية التي جمعتها تقرير من قنوات وكالة المخابرات المركزية يفيد أن طائرة نقل مؤجّرة واجهت مشاكل غير عادية فوق تركيا، وعلمنا فيما بعد أن هذه الرحلة كانت تشرف عليها شبكة خاصة في إسرائيل، وأنها كانت تحمل أسلحة إلى طهران، وكانت الترتيبات تقضي بأن يسمح للطائرة بعبور الأجواء التركية في طريق عودتها إلى إسرائيل. ولكن يبدو أن برج المراقبة في إيران أفسد الخطة وأهمل إيصال الرسالة إلى نظيره في تركيا، وحين شاهد برج المراقبة التركي طائرة غير مسجلة على شاشة الرادار طلب على الفور كشف هويتها.

وعندما أجاب الطيار، وفقاً للرواية المتفق عليها، بعث الأتراك الذين أثار الموضوع مخاوفهم طائرات معترضة للتعامل مع هذه الطائرة الغريبة. وقد اتخذ طيار الرحلة المستأجرة تدابير مراوغة، إلا أنه اضطر أخيراً إلى إعلان حالة الطوارىء في الجو فوق البحر المتوسط، وصدرت إليه تعليمات بأن يهبط في تل أبيب. وهناك سحب الإسرائيليون الطائرة إلى عنبر وأغلقوا الأبواب وأعلنوا أن الحادثة كلها لم تقع.

بدأت أجهزة استخباراتنا التدقيق في الموضوع إلى أن أبلغ إليّ مكفرلين أمراً بإنهاء التحقيقات، لأن الإسرائيليين أحكموا قبضتهم على الموضوع، وعلمنا فيما بعد أن الطائرة المستأجرة لم تعد إلى إسرائيل خالية بل كان على متنها ٦٠ يهودياً إيرانياً. والظاهر أنّ هذه المبادلات كانت تجري منذ سقوط الشاه، وكانت إسرائيل تستعيد مواطنيها بإرسال الأسلحة.

لم يكن لديّ الكثير غير هذا عندما سافرت إلى نيويورك للقاء رابين في فندق وولدورف أستوريا. كنت قد اجتمعت مع العديد من الرجال البارزين منذ أن أتيت إلى مجلس الأمن القومي، ولكنني كنت متحمّساً في الواقع لمقابلة رابين. لقد قرأت عنه، مثل معظم ضباط المشاة، ودرست تكتيكاته. ويعتبر رابين في الدوائر العسكرية الأميركية أحد أكبر القادة في التاريخ، لتخطيطه وتنفيذه ضربة إسرائيل الجوية المدرّعة والإنزالات الجوية ضد مصر عام ١٩٦٧، فإنه حقاً أنقذ حياة بلده، وكثير من العسكريين يقولون هذا الكلام.

ومع أنه اشتهر عنه أنه بارد ومنعزل، إلا أنه تحوّل إلى شخص قريب وودي أكثر مما كنت أتوقع. لقد كنت أعتبر دائماً أن نظرة المرؤوسين هي مقياس الإنسان، وقد كان مرؤوسو رابين يحترمونه جداً. كان متواضعاً وقريباً منهم أكثر من كونه متعجرفاً، وكنت أعتبر أن هذا الرجل هو من قاد هؤلاء الرجال في ظروف صعبة وحاز على احترامهم. أمضيت حوالى الساعة مع رابين شرح لي خلالها أن إسرائيل واجهت مشاكل كبيرة في محاولتها شحن صواريخ «هوك» إلى طهران. فبسبب الحادث الذي جرى فوق تركيا قبل بضعة شهور، قرر الإسرائيليون وقف الرحلات المباشرة لأنها محفوفة بالأخطار، وعوضاً عن ذلك أعدوا خططاً بديلة لشحن الأسلحة مستخدمين نقاطاً وسيطة أخرى عديدة، وموّهوا الشحنات وأعلنوا عنها أنها معدات للتنقيب عن النفط. ولكن في اللحظة الأخيرة واجهتهم المشاكل في الحصول على حق الهبوط وتمرير البضاعة.

سألني رابين: «هل تستطيع أن تجد شركة طيران مقبولة لنقل هذه البضائع؟ فأجبت: «لا أعرف لماذا لا ترسلونها بحراً؟» فقال: «نحن مستعجلون والأمر يتعلق بمصداقيتنا،

وعلينـا أن نوصلهـا إلى هناك بسرعـة». فقلت: «يبدو الأمر وكأنـه كابـوس عملاني، وفي الحقيقة إننا لا نملك هذا النوع من المهارات الجاهزة للاستخدام». فقال: «لا تقلق جماعتنا سوف يتولون أمر اللوجستية وكل ما نحتاج إليه هو شركة طيران».

عندما عدت إلى واشنطن واتصلت بمكفرلين على «الخط الآمن» إلى جنيف، اقترحت عليه أن نستعين بـالجنرال ديـك سيكورد لمسـاعدتنـا على الخـروج من هذه الـورطة. لقـد اخترت سيكورد لأسباب عديدة. أولاً علمت أنه بـإمكانـه أن يقوم بـالمهمة بشكـل جيد، ثانياً كان له اتصال مع الأمـاكن الأوروبية التي أراد الإسرائيليـون استعمالهـا كنقاط وسيـطة إلى إيـران، لأنه كـان يستعملها كنقـاط انطلاق من أجـل نقل الإمـدادات والأسلحـة إلى الكونترا، ثالثاً لقـد كان خبيـراً في مشاكـل الطيران، وأخيـراً كان سيكـورد قد أمضى وقتـاً طويلاً في إيران.

لو كنّا في عالم مثالي لاخترت غيره، فمع أن سيكورد كـان مرشحـاً جيداً فـإنه كـان منغمسـاً في نشاط سرّي آخـر ـ مساعـدة الكونـترا ـ، ويعتبر اشـتراكه في عمـل سري آخر مخالفة لقـاعدة أسـاسية في العمليـات السرية. أعـربت عن قلقي هذا لمكفـرلين وفيـها بعد لبـواندكستر، ولكن لم يستطع أي منا أن يفكر بأي شخص بديل أفضل منه لهذا العمـل، وكانت الرسالة واضحة «اهتم بالأمر يا أولي».

وهكـذا فعلت، اتصلت بديـك سيكورد، وعـلى الرغم من كـثرة مشاغله عـلى حـدّ ادعائه، فقد وافق على أن يجتمع بالإسرائيليين ليرى ما يمكنه أن يقوم به.

كما اتصلت أيضاً بديوي كلاريدج، والذي كان في ذلـك الوقت رئيس قسم أوروبـا في وكـالة المخـابرات المركزيـة، وسألتـه عمّا إذا كـان يستطيـع أن يساعـد الإسرائيليين في الحصول على حق الهبوط في أماكن مختلفة، وما إذا كان يستطيع أن يقترح إحـدى شركات الـطيران التي يمكن استئجار طـائرة من طـائراتهـا. بحث كلاريـدج الموضـوع مـع الخـبراء العاملين معه، فاقترح عليه هؤلاء شركة مقتطعة للوكالة*. نقلت هـذه المعلومات إلى ديـك فأعد ترتيبات لتقوم طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة لشركة الطيران المقتطعـة بشحن ما يفـترض أن يكون أولى الشحنات إلى طهران. ولكن وبعد وصول الطائرة إلى مراكز التحميل الأوروبية التي اختارها الإسرائيليون، رأى ديك أن المشـاكل والفـوضى وأوجاع الـرأس، بينما كـانت الشحنة تعبر هذا المطار، لم تكن نوعاً من العنـاء المعهود. ولـذلك طـار فوراً إلى إسرائيـل لترتيب إرسال الشحنات مباشرة من تل أبيب، ولكن مع كل هذا كانت العملية تنتقل من

---

* شركة تموّلها الوكالة وتديرها كتغطية لعملياتها السرية وهي تقدم خدمات كأي شركة طيران أخرى.

سيء إلى أسوأ. لم تتسع الطائرة الأولى لأكثر من ١٨ صاروخاً، وعندما وصلت أخيراً كان الإسرائيليون متخوفين، فقد أكّد لهم أحد ما - ربما غوربانيفار - أن هذه الصواريخ قادرة على إسقاط طائرات الاستطلاع السوفياتية التي تطير على ارتفاع عال، وكذلك الطائرات العراقية، والواقع أن «هوك» هي منظومة دفاع جوي للارتفاعات المنخفضة يضاف إلى ذلك أن بعض الصواريخ كان لا يزال يحمل إشارات إسرائيل وهو ما أثار غيظ الإيرانيين، ونظراً إلى استيائهم الشديد فقد بذلنا كل ما بوسعنا في ما بعد لنظهر أن الولايات المتحدة لم تكن لها أي علاقة على الإطلاق بهذه الصفقة تحديداً.

لم يتحقق للمبادرة الإيرانية النجاح الباهر، إلا أنه وبعد هذه العملية المتعثرة، يمكن أن تتحسن الأمور، وبالفعل لقد تحسّنت وعلى الأقل لفترة قصيرة.

في البداية كانت مهمتي تولي الأمور اللوجستية فقط، فقد كانت القرارات السياسية قد اتخذت. ولكن بما أنه لم يكن لدي شيء لأقوم به في ما يتعلق بقرارنا الأساسي بالاشتراك، وصلت أخيراً إلى النقطة التي أمنت لي دخولاً معتبراً إلى سياستنا، فأنا أرغب بالتأكيد في أن أتحمل المسؤولية عن دوري في العملية، ولا يوجد أدنى شك أن ذلك كان أحد أكبر الأخطاء في حياتي.

كنت أعتقد أن الحوار مع إيران له معنى، وأن البحث عن البرغماتيين والمعتدلين في الحكومة الإيرانية له معنى أيضاً. وعلى الرغم من كل شيء ما زلت أعتقد أنه يوجد مثل هؤلاء الناس في طهران، وهذا لا يعني أنهم على وشك أن يحيّوا العلم الأميركي، ولكنهم ربما - وعلى الأقل - ليس لديهم ميل إلى إحراقه، والأكثر من ذلك ثابر الإسرائيليون على التأكيد بأن بعض المسؤولين في طهران لديهم وجهات نظر متعاطفة مع الغرب.

في ذلك الوقت بدا أن بيع كمية صغيرة من الأسلحة إلى إيران قد يؤدي إلى مخاطر كبيرة. ولكن الأخطر أن نتورط في ترتيبات مبادلة الأسلحة بالرهائن؟ وهذا ما وضعنا جميعاً في مأزق أخلاقي حرج. ففي جانب كانت الحياة الإنسانية مقدّسة، وفي جانب آخر أن تقوم بما يعتبره الناس تنازلاً للإرهابيين كان فكرة رهيبة، وخصوصاً أنها تخالف قرار حظر الأسلحة الذي فرضناه على إيران.

لقد اتخذ القرار بالمتابعة على مستوى أرفع مني، لكني كنت مشتركاً بإرادتي. كان بإمكاني أن أستقيل احتجاجاً، ولكني لم أفعل على الرغم من أنني كنت قد استجوبت شخصاً آخر لاتخاذه قراراً مماثلاً.

خلال العام ١٩٨٠ - ١٩٨١ عندما أمضيت سنة في كلية الحرب البحرية في نيويورك

في ولاية رودايلاند، حضر عدد من مسؤولي الأركان المشتركة لإلقاء محاضرات. أورد الجنرال روبرت باروكان قائد المشاة البحرية ـ خلال عرضه ـ أنه عارض عملية «الصحراء واحد»، وهي العملية الفاشلة التي أمر بها الرئيس كارتر لإنقاذ عناصر السفارة الأميركية المحتجزين في طهران قبل نهاية ولايته.

فيما بعد في ذلك المساء وخلال حفلة استقبال خاصة لمشاة البحرية ذهبت إليه وسألته: «جنرال إذا كنت قد عارضت هذه العملية بشدة فلماذا لم تستقل؟» فأجابني: «أعتقد أنه ببقائي يمكنني أن أمنع مهمات أخرى من هذا النوع».

عام ١٩٨٥ وجدت نفسي في وضع مماثل أعمل على تنفيذ سياسة تساورني الشكوك حول توجّهاتها. وبالتأكيد كان بإمكاني أن أستقيل ولكنني لم أفعل. ومع مضي وقت طويل ما أزال أتذكر كيف كان الشعور عندما كنت أجلس لأتحدّث مع الرجال الذين اشتريت لهم حريتهم ونحو من كانوا ما يزالون محتجزين في لبنان.

عندما اتصل بي مكفرلين وقال لي: «امضِ ببيع الأسلحة إلى إيران»، كان بإمكاني أن أتحداه فأقول له: «انتظر لحظة عمّا تتحدث هنا؟ هل لهذا أي هدف؟ أليس التورط الأميركي المباشر في هذه العملية يخالف مبدأين من مبادئنا الأساسية؟

ولكني كنت أعرف الجواب ولذلك لم أطرح السؤال. كنت متجاوباً مع سياسة الإدارة القاسية تجاه الإرهابيين والحكومات التي تدعمهم. لقد كتبت شخصياً عدداً من تصاريح الرئيس حول الموضوع فيما بعد، وعندما تقدمت مبادرة إيران كان لديّ شكوك كبيرة حول ما إذا كانت فكرة جيدة. ولكني لم أفعل شيئاً لإلغائها.

إنّ الجنرال بارو لم يستقل عند اتخاذ القرار بمتابعة عملية «الصحراء واحد» بل استقال أحد أعضاء حكومة كارتر. كان لديّ الكثير مما لا أحبه في سياسة سيروس فانس وزير الخارجية في عهد الرئيس كارتر، ولكني كنت أحترمه دائماً، لأنه يتصرف وفقاً لقناعاته، وعندما اعترض فانس على ما كان يخطط له كارتر ومستشاره لشؤون الأمن القومي زبغنيو بريجنسكي استقال بكثير من الاحترام. فقط فيما بعد أذيع عن معارضته واحتجاجه، وعندها كان الأوان قد فات على الرئيس الذي عمل له كي لا يعاني أي ضرر من الاستقالة.

بالنسبة إليّ فإن أصعب جانب من السعي هو القبول بأننا وضعنا سعراً لحياة الإنسان: وهو ٥٠٠ صاروخ «تو» وحتى هذا اليوم فإني أجد هذا الجزء من مبادرتنا نحو إيران هو الأكثر إزعاجاً لنا.

ولكن كان هناك مشاكل كثيرة أخرى. لم نأخذ بعين الاعتبار عواقب تسرّب المعلومات، وأن أي كشف مبكّر لصفقاتنا مع إيران قد لا يسبب الضرر للرهائن فقط، بل سيسبب الضرر للهيبة الأميركية في الخارج، وللفعالية السياسية للرئيس داخل البلاد. وعندما تتسرب فإنها بالتأكيد ستؤدي إلى الموضوع الأخير.

وبينما كان يمكن للمبادرة الإيرانية أن تتقدم ـ وقد تقدمت إلى حد ما ـ كان هناك أيضاً خطر من أن تكون الصفقات مع الخاطفين ـ وحتى من خلال وسطاء ـ تثير شهيتهم وتدفعهم إلى خطف المزيد.

وهناك مشكلة أخرى وهي الرياء والنفاق في تزويد إيران بالأسلحة في الوقت الذي كنّا نمنع فيه دولاً أخرى من القيام بذلك، ويمكن أن يكون لدينا أسباب وجيهة لبيع الأسلحة لإيران، أسباب لا تتصل بالضرورة بموضوع الرهائن، ولكنه لا يحق لنا أن نفعل ذلك في الوقت الذي كنا نقول فيه لبقية العالم أن لا يفعل؟

بعض الدول الأخرى، ومن ضمنها فرنسا وألمانيا وإيطاليا، كانت ترغب في بيع الأسلحة لطرفي النزاع كليهما، وأن تقوم بذلك بشكل سري بينما تنكر ذلك أمام العالم، والفرق هنا أن هذه الدول لن تمنع غيرها إذا ما قام بذلك.

على الرغم من جميع هذه السلبيات كانت المسألة الأخلاقية هي الأهم بالنسبة إليّ. إنه من السهل استنكار عملية تبادل الرهائن بالأسلحة، ولكن وزارة الخارجية لم تحقق أي نجاح في عملية تحرير الرهائن بالطرق الدبلوماسية. ومع وجود الطرق البديلة فإني لست متأكداً أنه غير أخلاقي ومن الخطأ أن نقوم بكل ما نملك من طاقة لتحرير المواطنين الأميركيين المحتجزين في بيروت.

لم أكن موجوداً عندما بحث مكفرلين والرئيس ريغان الاقتراح الإسرائيلي باشتراكنا في مبادرتهم نحو إيران، ولكني لو كنت هناك لقلت: «إن الإسرائيليين يبيعون السلاح لإيران من أجل إقامة تحالف مع المعتدلين، ولأنهم يرون أن العراق يشكل تهديداً لهم، ولأنهم يريدون القيام بأي عمل لإنقاذ شعبهم. إنهم يدعوننا إلى الاشتراك، وقد يؤدي هذا إلى فوائد كبيرة في مجال التهديد السوفياتي، وفي مجال تحرير الرهائن في بيروت، ولكن يمكن أن يؤدي أيضاً إلى نتائج عكسية. أنا أميل إلى الموافقة على الاشتراك، ولكن ذلك محفوف بالمخاطر ويجب أن ننتبه إلى الأخطار».

لا أعرف بالضبط ما الذي اطلع مكفرلين الرئيس عليه، إلاّ أنني أعرف أنه قال لي إن الرئيس وافق على تدخلنا، وقال لي مكفرلين أيضاً «تدبر الأمر»، وكان هذا كل ما

أحتاج إليه. كان نوعاً من التحدي الذي أرغب بقبوله فسارعت بالموافقة عليه. قلت لنفسي إن باستطاعتي أن أقوم بهذا العمل، فأنا من رجال مشاة البحرية، إنّ هذه الصفقة غير سليمة بمجملها، ولكنني أستطيع أن أهتم بها.

كان بإمكاني أن أفعل كما فعل سايروس فانس من قبل، عندما وجدت نفسي متورّطاً في عملية تتناقض بهذا الشكل الصارخ مع السياسات المناهضة للإرهاب، والتي ساعدت بنفسي على تطبيقها، كان بإمكاني أن أنسحب، ولكن بدلاً من ذلك أسرعت بالالتحاق، وهذا هو السبب الذي أدى إلى وجودي في ربيع عام ١٩٨٦، إلى جانب مكفرلين على متن طائرة متوجهة إلى طهران.

(٣)
عالم آخر

لقد نفّذت قبل هذه المرة مهمات سرية عديدة، لكن هذه المهمة كانت فعلاً محفوفة بالمخاطر، فبينما كانت الطائرة تبدأ الهبوط باتجاه طهران، كنت أدعو الله أن لا يقدم أحد الطيارين الإيرانيين المولعين بإطلاق النار على إسقاط طائرتنا، وهي إسرائيلية من نوع بوينغ ٧٠٧ ومموّهة، لأنه لن يفهم حقيقة وظيفة رحلتنا غير المسجّلة على الجدول، وخصوصاً أنه لم تكن لدينا خطة طيران، وقد يعتقد أيضاً أن طائرتنا قاذفة عراقية مموّهة، فإيران كانت في حالة حرب مع العراق. كان ذلك في ٢٥ أيار/ مايو عام ١٩٨٦ صباح يوم أحد، وكان عدد من المسؤولين الرفيعي المستوى بانتظارنا أو هذا ما كنا نتمناه. ولكن ما إن دخلنا المجال الجوي الإيراني حتى حلقت طائرتان قديمتان من طراز «ف ـ ٤» لتتعرفا علينا.

كانت هذه المهمة سرية للغاية، إلى درجة أن كايسي طلب منا أن لا نخبر أحداً، حتى زوجاتنا، عن وجهة الرحلة. كان بوب إيرل الموظف في مكتبي على علم بتفاصيل برنامج الرحلة، وكان على اتصال دائم معي في أثناء سفري. قبل أن أغادر قلت لزوجتي بتسي إنه في حالة حدوث أي طارىء يمكنها أن تتصل ببوب الذي كنا نعرفه منذ سنوات. كانت بتسي تريد أن تعرف موعد عودتي لأننا كنا قد عرضنا منزلنا للبيع، وكانت تحتاج إلى توقيعي على عقد البيع. حاولت أن أطمئنها إلى أنني لن أتأخر أكثر من المفروض، ثم رجوت الله في قلبي أن يحقق ما قلته.

كان الرئيس ريغان قد وافق على رحلتنا وكذلك فعل الأميرال بواندكستر ، وكان هناك أعضاء آخرون في الحكومة يعرفون بأمر الرحلة، إلا أنه من الغريب أن نرى أن عدداً منهم ظهروا وكأنهم نسوا كل ما يتعلق بالموضوع.

وإذا افترضنا أن الطائرة حطت بسلام فإنه ما يزال هناك أسباب تدعونا إلى القلق. قبل أن أغادر واشنطن استدعاني وليم كايسي إلى مكتبه في البناية التنفيذية القديمة،

وسلّمني بكل هدوء ست حبات بيضاء مثلثة في غطاء بلاستيكي وقال: «خذ هذه فقد تحتاج إليها إذا تدهور الموقف».

بدا ذلك وكأنه مقطع من رواية تجسس، ولكنني علمت أن الموضوع بالنسبة إلى كايسي يكاد يكون روتينياً، فلا شك أنه زوّد عشرات الرجال والنساء بمثل هذه الهدية الرهيبة قبل سفرهم، ليس فقط في أثناء عمله في وكالة المخابرات المركزية، بل قبل ذلك بعقود عديدة. ففي أثناء الحرب العالمية الثانية كان كايسي مسؤولاً عن عمليات استخبارية سرية لصالح قوات الحلفاء في أوروبا، ولا شك أن بعض هذه الحبوب قد استخدم من قبل عملاء شجعان في ألمانيا النازية وفرنسا المحتلة.

كان رئيس وفدنا روبرت مكفرلين، رئيسي السابق والرجل الذي كنت أحترمه كثيراً، وعلى الرغم من أنه استقال من منصبه كمستشار لشؤون الأمن القومي قبل ستة أشهر تقريباً، فقد كان يزور طهران بصفته المبعوث الشخصي لرونالد ريغان، أما أعضاء الوفد الآخرون فكانوا جورج كايف، وهو مسؤول سابق في وكالة المخابرات المركزية وكان مقر عمله في طهران قبل ثورة الخميني وكان يتكلم الفارسية بطلاقة، وهوارد تيشر زميلي في مجلس الأمن القومي، وأميرام نير المسؤول عن مكافحة الإرهاب في الحكومة الإسرائيلية، بالإضافة إلى ضابط اتصال آخر من وكالة المخابرات المركزية، وبقي ضابط اتصال آخر في تل أبيب كانت مهمته أن يتلقى رسائلنا المرسلة بالشيفرة، ثم يرسلها إلى واشنطن حيث يجري حل رموزها في وكالة المخابرات المركزية وفي غرفة الأوضاع في البيت الأبيض.

لم يكن لأي وفد قادم من بلاد «الشيطان الأكبر» أن يتوقع أن يستقبله موظفو الأمن العام في مطار مهراباد بالزهور، كذلك كنّا نسافر بأسماء مستعارة وبجوازات سفر مزورة قدمت لنا من قبل وكالة المخابرات المركزية، وهذا ما سبّب غيظاً لأولئك الذين يصدرون جوازات السفر الحقيقية، والذين لم يرق لهم الأمر عندما افتضح فيما بعد. كان اسم مكفرلين المستعار شون بفلين، أما جورج كايف فقد كان يسافر باسم سام أونيل، وقد أطلق شاربيه وغيّر تسريحة شعره على سبيل التمويه. كان نير يحمل اسماً أميركياً: «ميلر»، أما أنا فقد كنت جون كلانسي، وحتى تكتمل الرواية جرى طلاء الطائرة «بوينغ ٧٠٧» التابعة للقوات الإسرائيلية بإشارات «آرلينغاس» الخطوط الجوية الإيرلندية.

كانت الرحلة طويلة فلم يكن بإمكاننا أن نسافر مباشرة من تل أبيب إلى طهران، لأن هذه الطريق ستمر بنا في أجواء الأردن والعراق والسعودية، وهي ليست بلداناً ودية تجاه رحلات جوية تنطلق من إسرائيل. وبدلاً من ذلك أقلعت الطائرة باتجاه الغرب فوق

البحر المتوسط، ثم استدارت وحلّقت فوق إسرائيل وتابعت باتجاه إيلات ثم تابعت تحليقها فوق البحر الأحمر، ثم اتجهت شمالاً نحو إيران. وقد انتابنا القلق للحظة أو لحظتين عندما حلقت طائرتنا فوق الأسطول السوفياتي الراسي بالقرب من ساحل أثيوبيا إلا أنه تركنا دون اعتراض.

لقد نفذت الرحلة إلى إسرائيل للبدء بمهمتنا بطريقة سرية أيضاً، وشهدت توقفاً في محطات عديدة وتغيير رحلات. كنت قد سبقت الوفد ووصلت عبر قبرص، بينما جاء زملائي الأميركيون عبر فرانكفورت حيث أقلتهم طائرة خاصة مستأجرة إلى تل أبيب، ولم أعلم لماذا استخدمت هذه الطائرة بالذات لنقل شحنة من الدجاج، كانت مليئة بريش الدجاج والغبار وأشياء أخرى لا يعرفها إلاّ الله، ولذلك وصل زملائي إلى إسرائيل وهم بمزاج عكر.

كانت رحلتنا إلى طهران ذروة لقاءات عديدة جرت مع أفراد ومسؤولين حكوميين إيرانيين مرموقين. ولكن عندما هبطت الطائرة ووصلنا إلى قاعة الوصول لم نجد أحداً بانتظارنا. كان أحد المسؤولين في المطار قد أدخلنا إلى قاعة انتظار قال عنها جورج كايف إنها كانت قاعة استقبال الشخصيات البارزة سابقاً، وهمس إليّ: «من قبل كانوا يستقبلون الأميركيين هنا، وأضاف أنه سواء أكان الزوار وفوداً من الكونغرس أو إطفائيين من أوهايو، فإن الأميركيين كانوا دائماً يستقبلون على الرحب والسعة». كانت هذه الغرفة سابقاً مزيّنة، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمي، وعلق على جدرانها صور ملونة للشاه وأفراد عائلته. أما اليوم فمن الصعب أن نتخيل ما كانت في السابق، فما عدا ثلاث أو أربع كراس ومقعدين خشبيين غير مدهونين، كانت الغرفة خالية من أي شيء يذكر. لقد ذكرني ذلك بنيكاراغوا والأنظمة الثورية الأخرى حيث اختفى منها منذ زمن طويل كل ما له قيمة، إذ سرقته الحكومة أو مسؤولون فاسدون، حتى إنّ مصابيح الكهرباء كانت قد اختفت.

كان يوماً حاراً وكانت حرارة الشمس قوية إلى حد أنها كانت تأتي من الشوارع والأزقة. وقفت أنا وجورج أمام المبنى على أمل أن يظهر أحد ما لملاقاتنا، وظهرت على مسافة لوحة ضخمة لآية الله تطل علينا من فوق، ورأينا مسلحين اثنين يحمل كل منهما بندقية، يتمشيان ذهاباً وإياباً، ولكنهما لم يسألا عن سبب وقوفنا. بعد انتظار لمدة نصف ساعة تمكن جورج من إقناع موظف دائرة الهجرة بأن يسمح له بإجراء مكالمة هاتفية بالنيابة عنا، وبعد دقائق قليلة جاء الجواب المطمئن بأنه سيأتي شخص لملاقاتنا.

كان الانتظار في المطار خيبة أمل بعد الرحلة الطويلة الشاقة، وقد رثيت لحال

مكفرلين الذي ضاق به المكان وبدا وكأنه أسد محجوز داخل قفص، فقد بدا له أن هذا التأخير المتعمد كان ازدراءً مقصوداً.

لم أكن متأكداً تماماً، فمن خلال تعاملي السابق مع الإيرانيين، تبين لي أن تأخيراً كهذا يكون سببه قلة الكفاءة وليس الموقف السياسي. ربما أبلغ غوربانيفار الإيرانيين أننا قادمون، فرد المكلفون بالاتصال به والذين يعرفون أخباره جيّداً بالقول «نعم سيأتون طبعاً»، أو لعله لم يقل لهم شيئاً لأنه ظنّ أننا لن نأتي فعلاً، وفي كل حال لم يكن أمامنا إلّا أن ننتظر.

كان مطار مهراباد من قبل مطاراً مدنياً مزدحماً، أما الآن فكان معظم النشاط يقتصر على الجانب العسكري، وقد رأينا عدداً من طائرات «ف ـ ٤» فانتوم الأميركية الصنع التي لا تزال تعمل منذ أيام الشاه، ورأينا طائرات أخرى بدا أنها لم تعد صالحة للعمل، ومنها طائرات هليكوبتر من نوع «هوي» وهي على درجات متفاوتة من الأعطال، منها ما كان بحاجة إلى محرك، ومنها ما كان يحتاج إلى أبواب أو مراوح. كان الإيرانيون قد أخذوا قطع الغيار من نصف عدد أسطولهم الجوي لإصلاح النصف الثاني كي يصبح قادراً على الطيران، وكانت مراثب الطائرات قد تحولت إلى مزابل، وكان هناك أسطول كامل من طائرات النقل سي ١٣٠ يربض على الأرض ويعلوه الغبار.

أخيراً وبعد ساعة ونصف من الانتظار ظهر غوربانيفار ومعه مسؤول إيراني كنت أنا وجورج قد التقيناه من قبل وكنا نسمّيه «الأسترالي». لم يكن للأسترالي أي خبرة على الإطلاق في الأعمال الحكومية قبل الثورة، أما الآن فقد أصبح على مقربة من رأس السلطة في إيران. كان ودياً بشكل عام ما عدا رائحة فمه الكريهة التي قال عنها جورج إنها تستطيع أن تطوي جلد وحيد القرن! بالتأكيد لم يكن أحد المسؤولين الكبار الذين كنا نأمل أن نلتقيهم، ومع ذلك وفي هذا الظرف كنا سعداء لرؤية أي كان.

كان غوربانيفار أيضاً كعادته لبقاً، وقد اعتذر بحجة أنه لم يكن يتوقع وصولنا باكراً. أما مكفرلين المشهور بقلة كلامه، وبأنه كان رسمياً، فقد ألقى كلمة قصيرة تحدث فيها عن تمنيات ينقلها من رئيس الولايات المتحدة، وكيف أننا نأمل بأن تكون المحادثات مثمرة... إلى آخر ما هنالك... وقد أصر على أنه حضر للقاء مسؤولين حكوميين رفيعي المستوى، وكان يعني في كلامه: «إسمع يا غوربانيفار إننا لم نقطع هذه المسافة ونصل إلى هنا حتى نجتمع بك».

أما غوربانيفار والذي كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة فأجاب: «لا تقلق إن البرلمان

منعقد»، كما لو أن ذلك يصلح الأمور. لكنه كان متوتراً وبدا عليه ذلك بوضوح وكأنه ضُبط وهو يمارس الغش والخداع.

كان غورباتيفار قد أكّد لنا أننا سنلتقي مع هاشمي رفسنجاني رئيس البرلمان الإيراني، الذي كان الإسرائيليون وأجهزة استخبارات أخرى يصفونه بالاعتدال، كما كنّا ننتظر أن نلتقي الرئيس علي خامنئي ورئيس الوزراء موسوي. كان الاجتماع مع آية الله غير وارد، وربما كان ذلك أفضل، فقد كانت تقارير الاستخبارات تفيد أن الرجل عجوز وقليل النشاط.

كان برفقة غوربانيفار والأسترالي حوالى عشرة شبان مسلحين من الحرس الثوري الملتحين، وكانوا قد وصلوا في سيارات مهترئة جداً لم أرَ مثلها في حياتي، وكأن أحداً قد اشترى مجموعة من السيارات القديمة في مزاد جرى في حي فقير من البلد.

قال أحدهم: «رجاء تفضلوا نحو السيارات». فخرجنا جميعاً في قافلة من السيارات في رحلة غير مريحة إلى الفندق استغرقت نصف ساعة. كان مشهداً عجيباً، رجال يشهرون البنادق عبر النوافذ، والسيارات تصدر دخاناً أسود أو أزرق من عوادمها. تكاد ثروة هذا البلد من النفط لا تنضب ولكن يبدو أن لا أحد يعرف كيف يكرر هذا النفط.

خلال هذه الرحلة رأينا البنية التحتية المتهالكة في طهران، بما في ذلك الجسور القديمة والطرقات المليئة بالحفر. نظرت من حولي فرأيت آثار الحرب وشاهدت بعض المباني في المطار وقد أصيب بنيران العراقيين، ولكنني وفي ضوء المشاهد القليلة التي رأيتها في المدينة، أدركت أن مشاكلها ناتجة عن الإهمال أكثر مما هي عن سقوط القنابل أو الصواريخ. تكاد لا ترى أحداً على الطريق لا يرتدي اللون الأسود، ولاحظت عدداً كبيراً من الدراجات الهوائية، وهو مشهد مألوف في البلدان التي تخوض حروباً، حيث يخضع البنزين للتقنين. كنت أنا ونير قد أحضرنا معنا آلاف تصوير، ولم يهتم أحد عندما التقطنا بعض الصور، بل إن عدداً من رجال الحرس الثوري وقف أمام عدساتنا لنلتقط له صوراً وهو يشهر سلاحه.

وصلنا إلى ما كان من قبل قوس النصر العملاق للشاه، وهو الآن مغطى بالشعارات الثورية، ثم قرب سجن إيفن حيث ينهمك حرس الخميني بتجاوزات تزيد عن التي قام بها رجال الشرطة السرية في عهد الشاه. وأخيراً وصلنا إلى المدخل الأمامي لفندق هيلتون طهران، والذي أصبح يعرف اليوم باسم فندق الاستقلال. كان الجدار الخارجي مليئاً بثقوب ناتجة عن إطلاق الرصاص وكان هذا علامة غير مشجعة. لقد بدا وكأن أحداً

ما قد فتح النار من رشاش عيار ٥٠٠، بعض النوافذ فجّرت، ولكني فوجئت عندما رأيت أن إشارة فندق هيلتون القديمة ما زالت موجودة.

نزلنا جميعاً في الطابق العلوي حيث كنا بمنزلة وسط ما بين الضيوف والمحتجزين، وقد أشاروا علينا بعدم ترك الفندق، لأننا «لا نريد أن يعرف الآخرون بوجودكم، وذلك لن يكون جيداً بالنسبة إلينا ولا بالنسبة إليكم أيضاً».

لقد قيل لنا إنّ كل شيء كان لصالحنا. كان هناك فريق من الحرس الثوري موجوداً في جناح قرب المصعد من «أجل حمايتنا». ممّن؟ لقد تعجّبت. وحتى لو كنا أغبياء وغادرنا الفندق فإلى أين يظنون أننا سنذهب؟ إلى قلب مدينة طهران من أجل أن نثير ثورة مضادة بقيادة أميركية؟

كان هذا أفضل مكان متوفر للسكن في كل إيران، ولكن ضغط الماء كان ضعيفاً، والأضواء خافتة، وكانت المصاعد تعمل بصورة متقطعة، وعند كل تبديل للحرس كنا نسمع أصوات وقع أقدامهم وهم يصعدون وينزلون على السلالم.

ومع ذلك فقد بذل مضيفونا كل جهد لإظهار ودّهم، وكان واضحاً أنهم يريدون إنجاح هذه المحادثات. كانوا يرسلون إلى غرفتنا يومياً سلات من الفاكهة الطازجة، كانت الفاكهة رديئة ومن الصعب أن نجدها معروضة في أي متجر أميركي! ولكن كان ذلك أفضل ما عندهم. كنا نعتمد في وجبات الطعام على خدمة الغرف حيث من المفترض أن تكون الوجبة ذات طابع غربي، على أي حال قدمت لنا بعض المأكولات الإيرانية اللذيذة، وبعضنا كان وكأنه يتوق إلى البيرة الباردة وخصوصاً في ذلك الجو الحار، ولكن كان ذلك ممنوعاً في ظلّ الجمهورية الإسلامية.

في أوقات تناول الطعام كان وفدنا الصغير يجتمع في شقة مكفرلين، وكنا نتخاطب كتابياً لأن الغرف كانت دون شك مليئة بأجهزة التنصّت. كان أحدهم قد وضع باقة زهور كبيرة في وسط الطاولة، وكان كل منّا بين الحين والآخر يتعمّد التحدث مباشرة باتجاه الباقة ويشيد بجمال مدينة طهران وكرم المضيفين.

عندما كنا نتحدث إلى بعضنا كنا نخرج إلى الشرفة ونتحدث بأصوات خافتة ونحن ننظر إلى الجبال الرائعة الجمال في ناحية، وإلى أفق المدينة الملبّد بالدخان والغبار في ناحية أخرى. كنا نتحدث أيضاً في غرفة الاتصالات حيث ركّزنا جهازنا العامل عبر الأقمار الاصطناعية، وحيث اتخذنا تدابير تجعل من الصعب التنصت علينا.

لكننا لم نتنصّت على أحد، ففي الأحوال العادية وعندما كنا نجتمع مع الإيرانيين

كنا نخفي آلات تسجيل وآلات تنصّت أخرى لتسجيل حواراتنا، أما هنا فلا. ذلك لأنه إذا ما ضبطنا ونحن نقوم بشيء من هذا النوع فقد نمضي بقية عمرنا نندم على هذا العمل.

بعد قليل من وصولنا إلى الفندق تمشّيت أنا ونير في الممر وقرب المصعد، كانت هناك غرفة مليئة بعناصر من الحرس الثوري، كانت بنادقهم ملقاة في زوايا الغرفة وقد رفعوا أرجلهم ووضعوها على الأثاث. لقد ذكّروني بالطلاب الإيرانيين الذين كنت قد شاهدتهم على التلفزيون، وسألت نفسي عمّا إذا كان أي من إخوتهم الأكبر سناً منهم قد اشترك في احتلال سفارتنا عام ١٩٧٩. لم يكن هؤلاء الشبان وديين ولكنهم لم يكونوا عدوانيين أيضاً. كان بعضهم يتكلم الإنكليزية ويتباهى بذلك، ولا شك أننا أثرنا فضولهم، فمعظمهم لم يكن قد سافر إلى خارج البلاد، وبالتالي لم يلتق أشخاصاً أميركيين، وعلى الأقل كنا نمثل بالنسبة إليهم تنويعاً للروتين المعتاد، وتغييراً مقبولاً للحياة على الجبهة مع العراق.

وإذا نظرت إلى داخل الغرفة، وجدت عدداً من الحرس يلهو بمجموعة المسدسات التي كنا قد جئنا بها كهدايا. حتماً لقد دخلوا إلى طائرتنا وأخرجوا حمولتها، كما لاحظت أنهم كانوا يأكلون الكعك.

في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ عندما علم العالم بزيارتنا انتشرت أنباء تفيد أن حمولة طائرتنا لم تحتو على قطع الكترونية لصواريخ هوك فقط، بل احتوت على نسخة من الكتاب المقدس موقعة من الرئيس ريغان وكعكة على شكل مفتاح، وكان ذلك رمزاً لرغبتنا في فتح ملف علاقات جديدة مع طهران.

كان التقرير حول الكتاب المقدس خاطئاً. صحيح أنني أحضرت الكتاب المقدس إلى طهران، ولكنه كان كتابي وكنت أحمله دائماً في أسفاري معي. إلا أنني بعد أشهر عدة من الزيارة قدمت فعلاً نسخة عن الكتاب المقدس موقعة من الرئيس ريغان إلى مجموعة أخرى من الإيرانيين.

ولكن، نعم لقد أحضرنا معنا كعكة. ولأن الكعكة كانت أحد أكثر التفاصيل التي أشيعت عن قصة إيران ـ كونترا، فإني سأسرد الرواية الحقيقية لها.

لم تكن الكعكة على شكل مفتاح، والأكثر من ذلك أنها لم تكن على علاقة فعلية بمهمتنا. فعندما كان غوربانيفار يجري ما كان يسميه (وهو متفائل) «الترتيبات» الخاصة برحلتنا إلى طهران، طلب من نير أن يحضر كعكة من الشوكولا كهدية إلى والدته الأرملة

العجوز، التي كانت تقيم في طهران. كانت قصة مؤثرة مع أننا في أثناء الرحلة تساءلنا ـ أنا وجورج ـ وبصوت عالٍ عما إذا كان لغوربانيفار أمٌ فعلاً.

في الواقع إن هذه الكماليات لم تعد موجودة في المخابز أو المخازن المحلية، وقد أصبحت طهران مثل العواصم الثورية، حيث كانت العملة الأجنبية تنفق لاستيراد القليل الضروري فقط. ولأن الكعكة كانت إحدى طلبات غوربانيفار السهلة، ذهبت أنا ونير إلى مخبز في تل أبيب حيث اشترينا كعكة كبيرة وفيها طبقة من الشوكولا، وعندما صعدنا إلى الطائرة وضعت صندوق الكعكة بعناية على المغسلة في المطبخ، وبعد ساعات من إقلاع الطائرة قمت أنا وجورج لنصنع القهوة، وعندما فتحت الخزانة فوق المغسلة بحثاً عن الأكواب لاحظت بعض المسدسات مرصوفة داخل صندوق أنيق.

ولسوء الحظ كنت قد تركت غطاء الصندوق مفتوحاً، وعندما مددت يدي لإخراج أحد أكواب القهوة، وقع أحد المفاتيح على الكعكة وأحدث فيها فجوة عجيبة. وعندما رأيت عمق الفجوة التي أحدثها سقوط المفتاح، أعدت ترتيب الكعكة بعناية لإخفاء الحفرة، ثم تركت المفتاح هناك وأنا آمل أن يظهر ذلك على أنه عملية تزيين مقصودة. وقلت: «حسنا يا جورج سنقول للسيدة غوربانيفار إنّ هذا هو مفتاح قلوبنا».

وكما حدث فإن هدية غوربانيفار لم تصل إلى والدته، فقد وصلنا إلى طهران في شهر رمضان والمسلمون لا يأكلون خلال هذا الشهر إلاّ بعد غياب الشمس.

كانت رحلتنا إلى إيران رمزاً للثقة ومناسبة نقول فيها للإيرانيين «حسناً وعلى الرغم مما فعله عناصركم بموظفي سفارتنا عام ١٩٧٩، وعلى الرغم من غضبكم لمساندتنا للشاه، فإنّا نخاطر بأنفسنا لنظهر لكم بأننا مخلصون في إقامة علاقات جيّدة بين بلدينا».

بالإضافة إلى ذلك كان لنا أسباب أخرى عديدة. أحد هذه الأسباب كان وليم بكلي رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية في بيروت، والذي خطف قبل أكثر من سنتين على أيدي جماعة من الراديكاليين الشيعة اللبنانيين. لعل كايسي عندما أعطاني تلك الحبوب قبل أن أغادر واشنطن كان يفكر ببكلي، وأنا أعلم أنني كنت أفكر به أيضاً. كان بكلي على اطلاع وثيق على عمليات وكالة المخابرات المركزية في الشرق الأوسط، وقد علمنا من مصادر عديدة أنه تعرض لتعذيب شديد ومات في الأسر بعدما تمكن محتجزوه من جمع ٤٠٠ صفحة من وقائع استجوابه. ومنذ اللحظة التي اختفى فيها بكلي في صندوق سيارة «رينو» بيضاء اللون في ١٦ آذار/ مارس عام ١٩٨٤، قام كايسي ووكالة المخابرات المركزية بجهود استثنائية لاستعادته حيّاً، والآن تفيد جميع المعلومات أنه مات. ولكن

الوكالة كانت ما تزال تعمل لاستعادة جثته، والحصول على نسخة من «اعترافاته»، والتي كان كايسي يتخوف من أن تصل إلى أيدي السوفيات من خلال علاقتهم بالمجموعات الفلسطينية.

كنا نأمل أيضاً أن نستعيد الرهائن الأميركيين المحتجزين في بيروت: الأب مارتن جنكو مدير مكتب الإغاثة الكاثوليكية في بيروت، وتيري أندرسون مراسل وكالة الأسوشيتدبرس، وديفيد جاكوبسون مدير مستشفى الجامعة الأميركية، وتوماس سذرلاند عميد كلية الزراعة في الجامعة الأميركية، وكان هناك رهينة خامس هو بيتر كيليورن مدير مكتبة الجامعة الأميركية قد «بيع» لِلّيبيِّين الذين قتلوه ردّاً على الغارة الأميركية على بلادهم. كان موته عنصر تذكير في أن الرهائن يمكن أن يقتلوا في أية لحظة.

وهذا ما أعطى مهمتنا صفة الإلحاح والسرعة.

كنا نعرف أن للإيرانيين دالة على الخاطفين في بيروت، مع أننا لم نكن نعرف مقدار نفوذهم، ولا كيف يمكن أن يمارسوا هذا النفوذ. وعلى أي حال فقد اعتبرنا إطلاق الرهائن هدفاً أولياً في مبادرة استراتيجية واسعة، على الأقل هكذا كان قصدنا.

إلّا أن الأمور لم تجرِ كما توقعنا، فبينما لم نكن نريد أن تتدنى مبادرتنا نحو إيران إلى مستوى صفقة مباشرة للسلاح مقابل تحرير الرهائن، فالواقع أنها تحولت كذلك.

لم يكن الرئيس ريغان ليقبل بذلك حتى بعد انتهاء ولايته. لقد ذكر في مذكراته أنّنا لم نكن نتعامل مع الخاطفين أنفسهم بل كنا نبيع الأسلحة إلى الإيرانيين ردّاً على تدخلهم في بيروت. وكتب ريغان أنه أخبر وزير الخارجية جورج شولتز ووزير الدفاع وينبرغر بأن الوضع كان شبيهاً بما لو أن أحد أولاده قد اختطف. وهذا التعبير ينمّ عن شدة حزنه وتأثره. كتب الرئيس أنه قال لهما: «أنا لا أؤمن بالفدية لأنها تؤدي إلى المزيد من الخطف، ولكني إذا تبيّن لي أن أحداً ما له اتصال مع الخاطفين، وأن بإمكانه أن يعيد ولدي دون أن أقدم شيئاً للخاطفين، فأقوم بذلك طبعاً وسيكون من الملائم أن أكافىء ذلك الشخص إذا أعاد إليّ ولدي، إنّ هذا لا يعتبر دفع فدية للخاطفين».

من الناحية الكلامية كان الرئيس على حق، لكن جورج شولتز قال إن هناك تبايناً في تفسير ذلك، وإنه سينظر إلى تعاملنا مع الإيرانيين على أنه مبادلة الأسلحة بالرهائن. لقد كنت أنتقد جورج شولتز كثيراً ولكنه كان على حقّ في هذا الرأي.

خلال تعاملنا مع الإيرانيين، كان موقفنا فيما يتعلق بالرهائن على الشكل التالي: أنتم ترغبون في الحصول على التكنولوجيا الأميركية، وتحتاجون إلى تجارتنا وتريدون منا أن

نشتري النفط منكم، وأنتم تستميتون للحصول على المزيد من الأسلحة الأميركية لتدعمكم في حربكم ضد العراق التي تستنفد طاقاتكم، كما أنكم تعلمون أن السوفيات لا يرغبون شيئاً أكثر من رغبتهم في دخول هذه المنطقة وهو ما يشكل كارثة لنا ولكم.

حسناً إننا نرغب في إجراء المحادثات، إنّنا نعرف من يدير الأمور هنا، فهمنا أن الشاه قد رحل إلى الأبد، وبإمكاننا أن نحقق تقدماً حالما نجتاز هذا الحاجز. نحن نعلم أن لكم نفوذاً على محتجزي الرهائن في بيروت، فلنزح مشكلة الرهائن من الطريق بحيث نتمكن من التقدم في معالجة المسائل الكبرى.

لقد أطلق سراح بنجامين وير قبل أشهر قليلة من بدء محادثاتنا المباشرة مع الإيرانيين، وفي الوقت الذي غادرنا إلى طهران كنا نتوقع أن يكون إطلاق سراح رهائن آخرين وشيكاً. لقد كنا على خطأ في ذلك، ولكن قبل أن تنهار المبادرة الإيرانية، وأخيراً في نهاية عام ١٩٨٦ أطلق سراح رهينتين هما الأب مارتن جنكو وديفيد جاكوبسون.

وبينما كان الرهائن بالتأكيد حاضرين في أذهاننا، فإن السبب الحقيقي والسبب الأول الذي جاء بنا إلى طهران كان سبباً يتعلق باهتمامات واسعة في السياسة الخارجية الأميركية. اليوم يبدو أنه من «الموضة البالية» أن نتحدث عن الخطر السوفياتي، ولكن في ربيع ١٩٨٦ كان هذا الخطر حقيقياً وخصوصاً في الخليج الفارسي.

كانت إيران دائماً معرضة للغزو السوفياتي، حتى قبل أن يكون هناك اتحاد سوفياتي (أو إيران)، كانت أعين الروس مسلطة على بلاد فارس. كانت موانىء إيران الدافئة والتي يمكن استخدامها على مدار السنة تروق للروس كثيراً. وهناك قضية أخرى أصبحت مهمة جداً بعد الحرب العالمية الثانية، وهي كميات النفط الهائلة التي تملكها إيران، والتي يعتقد أنها تحتوي على ١٠٪ من الاحتياط العالمي للنفط، إضافة إلى كميات هائلة من الغاز الطبيعي.

هذه الدوافع وحدها تكفي لحث السوفيات على الدخول إلى هذا البلد الذي يشترك معهم في حدود برية يبلغ طولها ١٢٠٠ ميل، وسوف يمهّد لهم طريقاً إلى الخليج الفارسي بأكمله. ولكن في منتصف الثمانينات كان هناك عاملان إضافيان جعلا التهديد السوفياتي لإيران حقيقياً: الأول كان الحرب العراقية الإيرانية والتي لم تضعف إيران فقط، بل قوّت الروابط بين العراق وموسكو الداعمة الرئيسية لها، والثاني كان الغزو السوفياتي لأفغانستان. أصبح الدب الروسي الآن أقرب من أي وقت مضى، وهذا ما دعا الإيرانيين إلى نقل بعض الأسلحة التي زودناهم بها (وبهدوء) إلى الثوار الأفغان.

وبتعابير جغرافية استراتيجية كانت إيران كنزاً. وفي الوقت الذي لم تعد تملك فيه أي تأثير فعلي بسبب رحيل الشاه، فإن السوفيات ـ على الأقل ـ حافظوا على المسافة مع الإيرانيين، ولكن مع وجود القوات السوفياتية في أفغانستان وتدفق السلاح السوفياتي الذي يقوي العراق، أصبحت إيران محاصرة مهدّدة.

وهناك سبب آخر جعل العلاقة مع إيران أكثر جاذبية بالنسبة إلى كايسي. فقبل سقوط الشاه كانت إيران أحد مراكز المراقبة الأساسية لنا لمراقبة الفضاء السوفياتي والصواريخ وبرامج الأسلحة النووية. كان كايسي مهتماً كثيراً باستعادة هذه الإمكانيات المفقودة، ورأى في المبادرة الإيرانية وسيلة ممكنة لإعادة بناء مراكز جمع المعلومات هذه. كان التهديد السوفياتي هو السبب الذي من أجله أردنا الدخول إلى إيران، ولأنه ـ على الأقل ـ كان هناك بعض أعضاء الحكومة الإيرانية يرغب بالتعامل معنا، وحتى قبل أن أتورط عملانياً في المبادرة كان الرئيس قد وافق وبهدوء على بذل جهود من أجل التقارب مع طهران. لم يشارك الرئيس أحد في الإدارة في هذا الهدف، ولم يعلم به أحد، وقد وافقه في الجانب الإيراني موقف موازٍ. ولكن ومن أجل الشعور المعادي لأميركا، فإن معظم القيادات الإيرانية تفهّمت أن عليها أن تتخوّف من الاتحاد السوفياتي أكثر مما تتخوّف منا.

عندما سقط الشاه عام ١٩٧٩ كانت التوقعات أن يقوى حزب الثورة الشيوعي الجيّد التنظيم، ولكن بدلاً من مكافأتهم على معارضتهم للشاه، فقد نكّل الإيرانيون بالشيوعيين، وفي ظل الخميني تحولوا إلى جماعات صغيرة تقوم بأعمال إرهابية نادراً ما يسمع عنها الأميركيون.

لقد شاهدنا جميعاً احتلال السفارة الأميركية والمظاهرات المعادية لأميركا تسير في الشوارع، لأن ذلك هو الذي كانت الحكومة الإيرانية تريد أن تراه. كانوا يلتذون بإهانتنا ولكنهم كانوا مصممين كذلك وبشكل مساوٍ على اقتلاع الشيوعية من جذورها.

هل تصبح إيران أفغانستان ثانية؟ في وقت ما بدا ذلك ممكناً، ولن تفاجأ أجهزة استخباراتنا إذا دخل الروس إلى إيران، وذلك إمّا بتحويل الثورة الإسلامية نحو أهدافهم، أو بانتظارها حتى تنهار، لأن زخم الانتصار وغنائمه في إيران كان بعيداً كل البعد عن تلك الأرض الفقيرة «أفغانستان».

في النهاية يبدو أن الغزو السوفياتي لأفغانستان هو الذي أنقذ إيران بالتحديد. كانت هناك أكبر قوة عسكرية في التاريخ يحاربها ويقاومها ثوار بدائيون، وكانت المقاومة الأفغانية

منقسمة على نفسها وضعيفة التجهيز، ولكن لا يوجد شيء أفضل من الغزو يثير السكان المحليين ويجمعهم ضدك.

في شباط/ فبراير ١٩٨٩ عندما انسحب السوفيات نهائياً من أفغانستان وعادوا إلى بلادهم، وصفت أجهزة الإعلام الأميركية انسحابهم ـ تماماً كما عرضته موسكو ـ أنه نتيجة للنوايا الطيبة لغورباتشوف، ولكن النوايا الطيبة لا تعتمد في السياسة. لقد انسحب السوفيات بسبب الأكفان القادمة إلى روسيا الأم، ولأن غورباتشوف كان يسعى إلى إنقاذ الاقتصاد السوفياتي المتدهور. لقد كان بحاجة إلى معونة من الغرب، وكان يدرك أنه لن يحصل عليها طالما أن قواته تحتلُ قسماً من أفغانستان. كانت أفغانستان هذه فيتنام الاتحاد السوفياتي، ولكن دون احتجاجات في الشوارع وتقارير إخبارية ليلية، وبالنسبة إلى غورباتشوف كانت أفغانستان كارثة.

كان من الأسوأ للسوفيات لو أنهم دخلوا إيران بطبيعتها الجبلية وسكانها الأكثر عدداً، ولكن هذا لا يمنع القول إنهم ربما كانوا حاولوا ذلك.

في أوائل عام ١٩٨٦ عندما بدأنا نتحدث مباشرة إلى الإيرانيين، كان واضحاً جداً أن السوفيات سوف يرغمون على الانسحاب من أفغانستان. وبالعودة إلى الماضي، كان هناك أشياء كثيرة حول الشرق الأوسط غير واضحة لنا ـ أشياء ربما من الواجب علينا أن نعرفها ـ لقد بدا من غير المعقول أن نكون غير مستعدين ليس فقط لسقوط الشاه بل لصعود نيوقراطية الخميني وانتشار التيار الأصولي الراديكالي الإسلامي.

أنا من الأشخاص الذين يلومون جيمي كارتر من أجل كل مشكلة نواجهها، ولكن تراجع إمكانيات استخباراتنا كان على مرأى منه. صحيح أن ذلك بدأ من قبل وخلال إدارة الرئيس فورد، عندما أضعفت لجان التحقيق في كل من مجلس الشيوخ والنواب، والتي ترأسها السيناتور فرانك تشيرش والنائب أوتيس بايك، إمكانيات الوكالة للقيام بأي عمل سرّي. ولكن الرئيس كارتر لم يفهم حقيقة الحاجة إلى العمل السري، وكان مقتنعاً أن وكالة المخابرات المركزية قد نمت بقوة أكثر من اللزوم. وفي نطاق تخفيض عدد العاملين في الوكالة، سرّح شانسفيلد تورنر، مدير وكالة المخابرات المركزية في عهد الرئيس كارتر، مئات من مسؤولي الوكالة من ذوي الخبرة. ولقد تمّ طردهم، وهذا ما يدعو إلى العجب حقاً، في رسالة على الكومبيوتر.

كانت المعنويات منخفضة في وكالة المخابرات المركزية، مما أدّى إلى استقالة بعض المسؤولين ذوي الخبرة. لم يقدّر كارتر ولا نائبه والتر مونديل ولا تورنر أيضاً أهمية العنصر

البشري، وحاولوا أن يضعوا التكنولوجيا المتطوّرة مكان العنصر البشري، وفي هذه العملية انحسرت إمكانيات الوكالة في الأعمال السرية. ومع أن عواقب هذه الأعمال لم تبرز إلا في إدارة الرئيس ريغان، فإن الرئيس كارتر بات ضحية أعماله. فبعد أن احتل شباب آية الله اليافعون سفارتنا في طهران، لم يكن لدينا عميل واحد للمخابرات المركزية على الساحة، يمكنه أن يعطينا المعلومات الضرورية حتى تخطط عملية ناجحة لإنقاذهم، ولو استطاع الرئيس كارتر أن ينهي أزمة الرهائن لأمكن إعادة انتخابه*.

يبدو الآن واضحاً أن وكالات استخباراتنا لم تعتمد على الجواسيس وعلى ضباط الحالة الأمنية فقط. كانوا يستخدمون بعض التكنولوجيا المذهلة التي لم تكن متوفرة في أي مكان آخر في العالم، إن الناس الذين ساهموا في هذا النشاط اعتادوا القول إنه يمكنهم كشف جنرال كوبي وهو يسعل داخل سيارته خارج ماناغوا، أو طيار سوفياتي يسابق الرياح على علو ٤٠ ألف قدم فوق سورية، كانوا يبالغون ولكن ليس كثيراً.

لا توجد آلات تقرأ قلب الإنسان، ولا معدات لقياس الآمال والطموحات، ولا حتى الأيديولوجية والانتماءات. وإذا حاولنا أن نجمع المعلومات المفيدة حول مجتمع آخر دون عملاء على الأرض، نكُن مثل الطبيب الذي يعالج المريض باستشارة الرسوم البيانية والمخططات فقط. يمكنه أن يعلم الكثير ولكن دون أن يسأل «أخبرني بماذا تشعر؟ وأين يؤلمك؟» ويحصل على أجوبة حقيقية. إنّ هناك حدوداً لا يمكن أن نتجاوزها.

يتطلب الأمر سنوات عديدة من أجل تدريب العملاء وتوزيعهم، ولهذا كنّا خلال سنوات عهد ريغان نجد أنفسنا بمواجهة مشاكل كبيرة في أمكنة فاجأتنا جميعاً، مثل: إيران ـ باناما ـ نيكاراغوا ـ أنغولا ـ الموزامبيق ـ مصر ـ الصومال ـ سورينام ـ غرانادا ـ ودون أن نذكر العملاء الكوبيين في جميع أنحاء أميركا الوسطى.

كان لدينا عدد كافٍ من عملاء المخابرات في تلك البلدان، وظننّا أنهم سيغرقوننا بالتحذيرات في واشنطن. وبغض النظر عن من يدير وكالة المخابرات المركزية، فإن هذه المعلومات كانت ستوزع على وزارة الدفاع والبيت الأبيض والكونغرس حتى يقول أحد ما:

---

* في ربيع عام ٩١ وردت عدة تقارير عن اتفاق بين إدارة حملة ريغان الانتخابية وبعض السلطات الإيرانية عام ١٩٨٠، وذلك لتأخير إطلاق سراح الرهائن إلى ما بعد الانتخابات. أنا لا أصدق ذلك، ومع ذلك فإني أرى نقطة إثبات لأقول إن شيئاً كهذا لم يحدث. وإذا حصل ذلك فلماذا لم يرشدني كايسي أو بوش واللذان ادّعيا أنهما قاما بذلك مع من أتعامل معه من الجانب الإيراني. بالتأكيد كانوا سيعرفون شخصاً أكثر تأثيراً من غوربانيفار أو الأسترالي، والأكثر من ذلك لم يذكر أي مصدر إيراني أو لّمح إلى هذه المبادرة المفترضة عام ١٩٨٠.

«انتظر ماذا يحدث هنا؟» وبدلاً من ذلك، صعقنا عندما أطيح بالشاه وتم الاستيلاء على سفارتنا في طهران، ولقد ذهلنا عندما فجر مقر مشاة البحرية في لبنان، وخرسنا عندما اغتيل السادات مع أن القاتلين كانوا يخططون لقتله منذ أشهر. كان الإيرانيون قد عرفوا الخطة، وبعثوا بتحذير إلى المصريين وبتحذير إلينا، ولكن رجال السادات كانوا غير قادرين من الناحية النفسية على قبول هذه المعلومات من عدوهم السابق، ولم يكن لدينا العملاء حتى نتثبّت من هذه المعلومات بصورة مفصّلة.

وهناك سبب آخر لفشل مخابراتنا في إيران مع أن الشاه كان يحظى بدعم كامل منا، فقد كان يتخوّف من أن يكون لدى وكالة المخابرات المركزية خطة لاستبداله، ولم يرض أن تراقب الوكالة نشاطات المعارضة الدينية. لقد اعتقدت وكالة المخابرات المركزية أنه إذا ضبطنا الشاهُ ونحن نراقب خصومه عن قرب في الداخل، يمكن أن يستنتج أننا ندعمهم فعلاً. وبعد برهة فإن تحليل المعلومات الذي يجري في واشنطن قلّل من تقدير المعارضة الدينية في إيران، وهذا ما خفّف من دوافع الوكالة لمراقبتها عن قرب.

وهكذا وبحلول العام ١٩٨٥ وعندما حان أوان قياس الحرارة السياسية في إيران كنا في ظلام دامس. كان من المعقول أن نفترض ـ كما اعتقد الإسرائيليون ـ أن بعض أعضاء الحكومة الإيرانية هم أكثر عقلانية وبراغماتية واعتدالاً من آية الله. كنا نعرف، على سبيل المثال، أن بعض المسؤولين الرسميين الإيرانيين قد سمح لهم بمغادرة البلاد من أجل التعامل مع الوسطاء الأجانب، وحول تسوية المسائل العالمية مثل جداول الطيران الدولية. كان الإيرانيون متعاونين جداً، وبالتأكيد فقد كان بعض العناصر في الحكومة يرون أن العلاقة مع الولايات المتحدة أو على الأقل فتح قناة اتصال هو أمر لمصلحتهم. ولكن مع عدم وجود أي شخص يخبرنا الحقيقة في طهران، لم نكن نعلم ما إذا كان هناك جناح معتدل أم لا.

كنا متأكدين من أن حكومة آية الله لم تكن متراصّة في وحدتها، والسبب يكمن في أنّ الدكتاتورية ـ منذ أيام يوليوس قيصر ـ كانت تميل دائماً إلى خلق أجنحة لردع المرؤوسين عن الاتحاد في معارضة رئيسهم. في حالة إيران كانت هناك تقارير تفيد أن رفسنجاني نفسه كان معتدلاً، وبالتأكيد لم يكن أحد في الحكومة الإيرانية متعصّباً مثل «آية الله» حتى ولو اضطر الجميع إلى التظاهر بذلك. هل كانت آمالنا صحيحة أم أننا كنا ضحايا أوهام؟ حتى اليوم لا أستطيع أن أؤكد، ولكنني كنت أعتقد وما زلت أنه كان هناك على الأقل بعض المعتدلين في الحكومة الإيرانية.

وعلى الرغم من عدم معرفتنا فقد كان هناك شيئان واضحان: أولاً لم يكن الوضع

على هذه الحال منذ مدة طويلة، فقد كانت إيران على علاقة صداقة وطيدة مع الولايات المتحدة، لقد قدمت الولايات المتحدة الكثير إلى الشاه ـ وعلى الأقل حتى النهاية عندما تخلى عنه كارتر ـ وعلى الرغم من الخطابات العدائية الصادرة عن نظام الخميني، فقد بقي هناك احتياط من الصداقة والنية الطيبة تجاه أميركا في بعض القطاعات من المجتمع الإيراني ومن ضمنهم العسكريون. لقد علمنا من تقارير المنشقين ومن مصادر استخباراتنا أن التغييرات الراديكالية على أعلى المستويات لم تنعكس تماماً على عامة الناس.

كنا نعرف أيضاً أن آية الله رجل مسن، وعلى الرغم من إيمان مؤيديه به، فقد كان علينا أن نفترض أنه إنسان فانٍ. وقد برز سؤال لا مفر منه: ماذا يحدث عندما يموت؟ ألا يكون هناك مغزى لمحاولتنا بأن نحقّق نوعاً من التعاون مع المعتدلين والبرغماتيين في الحكومة؟ وبحيث يكون هناك لنا بعض التأييد عندما يسيطر نظام جديد؟ وإذا لم ينبثق نظام جديد وتبع وفاة آية الله فوضى، ألن يكون ذلك دافعاً قوياً يحثّ السوفيات على الدخول؟

ألا يعتبر قصر نظر من قبلنا أن نعتبر العداوات السابقة هي العامل الوحيد الذي بموجبه نحدّد علاقتنا مع إيران؟ لقد سببت لنا كل من ألمانيا واليابان أذى أعظم آلاف المرات ممّا سببه الإيرانيون ثم أصبحتا حليفتينا. في أوائل ١٩٨٦ بدأنا نتجه بحرارة نحو السوفيات وكنا نقبل الصينيين. لا نستطيع أن نلوم الجميع في الحكومة الإيرانية عما حدث منذ ست سنوات في سفارتنا. إنّ التقرب نحو إيران كان بالتحديد خطورة سياسية، ولكن ألا يمكننا أن نكسب شيئاً ببذلنا هذا الجهد؟

* * *

عقد الاجتماع الأول في طهران في جناح مكفرلين في الساعة الخامسة بعد الظهر بعد ساعات قليلة من وصولنا، ومرة أخرى أصبنا بخيبة أمل لغياب أي مسؤول رفيع المستوى من الجانب الإيراني. وبدلاً من أن يحضر غوربانيفار والأسترالي بصحبة رفسنجاني أو رئيس الوزراء، فقد دخلا علينا ومعهما رجل قصير بدين يكسو الشيب شعره وعمره في الخمسينات. أطلقنا عليه إسم «الدكتور نو» وكان ناطقاً رسمياً للشؤون الغربية، لقد كان أعلى رتبة من الأسترالي إلا أنه لم يكن من كبار المسؤولين.

لقد كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة وبوضوح تام، وهو أمر سررنا به، وعندما كان غوربانيفار يترجم كنا نشعر أنه يغير الكلام الذي يترجمه. لعله كان يقول في نفسه: «لا أستطيع أن أصوغ الفكرة على هذا الشكل فلأخفّف من لهجتها قليلاً».

رحب «الدكتور نو» بنا في طهران واعتذر عن الفوضى التي حصلت في المطار، ثم

تحدث قليلاً وبطريقة ما قال إن علينا أن لا نتأمل بأن نحصل على نتائج مثيرة. . وعموماً يمكن تلخيص رسالته بالآتي: «رجاء إننا نحاول أن تنجح المهمة، ولكنني لا أضمن أن يكون الشخص التالي الذي سيقرع الباب ويدخل هو رفسنجاني. نحن لا نزال نتذكر الاجتماع الذي عقد في ربيع عام ١٩٨٠ بين مهدي بازركان أول رئيس وزراء لنا وزبغنيو بريجنسكي مستشار الرئيس كارتر للأمن القومي. بعد ذلك بأيام قليلة وبسبب ذلك الاجتماع الوحيد أُقصي بازركان عن منصبه. إن جماعتنا مهتمون بالاجتماع معكم ولكن علينا أن نتحرك ببطء شديد وبعناية فائقة».

عندما أنهى الدكتور نو كلامه رد مكفرلين بقوله: «إننا في الولايات المتحدة نعترف بأن إيران دولة ذات سيادة، لقد كانت هناك خلافات في وجهات النظر في السنوات الثماني الماضية، ولكن علينا أن نتعامل مع بعضنا على أساس الاحترام المتبادل».

الاحترام المتبادل؟ لا. . لم يكن هذا هو الشعور السائد في ذلك الوقت. . فقبل أن ينقضي النهار أرسل مكفرلين برقية إلى واشنطن ضمّنها وصفاً دقيقاً للوضع الذي كنا فيه. كان مكفرلين في واشنطن يثير السخرية بنثره المطول وعباراته المشوّشة، والتي سميت على سبيل المزاح «المكفرلينية»، وكانت تعتبر مراوغة حتى بمقاييس الدبلوماسية. أما هذه المرة فكانت عباراته جميلة وواضحة ودقيقة. قال: «تصوّروا ماذا ستكون عليه الحالة بعد هجوم نووي على إيران إذا بقي أحد التتار وعين نائباً للرئيس، ثم عين طالب آخر تخرج حديثاً وزيراً للخارجية، وأصبح صاحب مكتب المراهنات مسؤولاً عن الاتصالات مع الدول الأجنبية».

كان ما أغضبه كثيراً هو أن الإيرانيين لم يكونوا مستعدين لزيارتنا، كنت أخشى أن يحدث مثل هذا، ولذلك كانت وجهة نظري - التي كررتها مراراً قبل أن يذهب مسؤول مثل مكفرلين إلى طهران - أنه يجب أن تتبعه زيارة على مستوى الموظفين، نتأكد خلالها من أن الجانبين متفقان على الهدف الصحيح من زيارتنا، وعلى ما نأمل جميعاً في تحقيقه منها. وعلى الرغم من أننا لم نكن واثقين من إمكانية تحقيق هدفنا الأخير، فقد كان هذا الهدف هو ترتيب اجتماع سري بين رفسنجاني ونائب الرئيس جورج بوش، يجري مثلاً على أرض محايدة في أوروبا أو في الشرق الأقصى أو حتى الشرق الأوسط، وكان الهدف أن نشعر الإيرانيين بأننا جديون ليس فقط في استعادة الرهائن، بل باستئناف نوع من العلاقة بيننا. وعلى الرغم من أن عقد مثل هذا الاجتماع بدا غير محتمل، فإن الإعداد له كان سيكون أسهل من ترتيب اجتماع مماثل بين رفسنجاني وجورج شولتز. كان شولتز يحب الظهور ويصعب عليه أن يذهب إلى مكان دون أن ترافقه الصحافة، أما بوش فقد كان رئيساً

سابقاً لوكالة المخابرات المركزية ومتآلفاً مع العمليات السرية، بالإضافة إلى أنه كان المسؤول الأميركي المكلف بحضور الجنازات الرسمية في جميع أنحاء العالم، وكان ممكناً بينما هو في طريقه إلى حضور جنازة أن يجتمع سرّاً مع نظيره الإيراني.

إلا أنّ ذلك لم يحدث، وأحد الأسباب أن كايسي كان يعارض بشدة فكرة الزيارة التمهيدية، وكان يقول إن إرسال مكفرلين إلى طهران كان محفوفاً بما يكفي من المخاطر، أما أن يذهب وفد أميركي إلى هناك من دون أن يرافقه مسؤول رفيع المستوى فهو أمر خطير للغاية ولا يحتمل. فمن الجائز أن نختفي جميعاً وسيزعم الإيرانيون أننا لم نحضر للزيارة، حتى إن حكومتنا قد تضطر إلى نكران أي علم لها بأمر الزيارة.

ربما كان كايسي على حق في تقدير المخاطر التي تحف بزيارتنا التمهيدية، إلاّ أن عدم ترتيب مثل هذه الزيارة كانت له مخاطر أيضاً. حتى في التعامل مع الحكومات الصديقة لم يكن من الممكن عقد لقاءات دبلوماسية مثمرة من دون إجراءات تمهيدية، وعندما كان مسؤول أميركي رفيع المستوى يزور دولة أجنبية، كنا دائماً نحاول أن نعد سلفاً برنامج اجتماعاته، فيعرف من سيلتقي ومتى وما الذي يحتمل الاتفاق بشأنه. كان هذا جزءاً من الروتين الدبلوماسي.

أما في حالة إيران فقد كان ما نعرفه قليلاً جداً، وقد ظهر أن كثيراً مما كنا نظن أننا نعرفه كان خاطئاً. كانت أجهزة استخباراتنا تراقب غوربانيفار عن كثب، وكنا في معظم الأحيان نعرف ما يقوم به، ولكن عندما كان يسافر إلى إيران كانت الأضواء تنطفىء، ففي إيران لم نكن نعرف شيئاً عمّا كان يقوله للإيرانيين، وعن الالتزامات التي يقطعها ويتعهد بها نيابة عنا.

عندما وصلنا إلى طهران اتضح لنا أن غوربانيفار لم يجرِ تمهيداً كافياً للزيارة أو لمثل هذه الاجتماعات، وأنه كان يقول لنا غير ما كان يقوله للإيرانيين، وتبيّن لنا أن الإيرانيين لا يحترمونه أيضاً، فقلت في نفسي: إنّنا على الأقل متفقون حول هذه النقطة. وإذ أستعيد في ذاكرتي الذي حصل أقول: إنني لا أعتقد أن الإيرانيين كانوا فعلاً يتوقعون وصولنا، ولا عجب في أن نرى غوربانيفار محبطاً عندما التقيناه في المطار، فعندما حضر أخيراً كان صامتاً معظم الوقت وهو غير ما ألفناه فيه، وعندما رآنا أنا ومكفرلين وجورج ونير بدت الدهشة واضحة على وجهه، ولعله صعق كثيراً لرؤية نير، لأن حضور أي إسرائيلي إلى طهران كان مجازفة كبيرة. والمرجح أن وجود الوفد بأكمله أصابه بصدمة. لعله كان يريد أن يذهب إلى أعضاء في الحكومة فيقول لهم: «أرأيتم، كنت أعرف أنهم لن يأتوا، أعطوني شروطاً أفضل لأعود بها إليهم».

طوال هذا الوقت كان يقول لنا: «يجب أن تـأتوا إلى طهـران، وعندهـا يطلق سراح الرهائن».

كان يجب أن نفهم أنه على الرغم مما قاله لنا غوربانيفار فإن إجراء اتصالات مباشرة بيننا وبين الإيرانيين قد يكون آخر شيء في العالم يرغب حدوثـه، لأنه عنـدما يحدث ذلك يصبح هو بلا دور، لقد كشفت زيارتنا إلى طهران خداعه.

قيل لنا إنه إذا حضرنا إلى طهران فإن الـرهائن المحتجـزة سيطلق سراحهـا، وما إن يختفي هذا الحاجز فسيكون بوسعنا أن نبحث المواضيع الأهم. ولكن مع نهاية هذا اليوم رأينا أن شيئاً من هذا القبيل لن يحدث بسرعة، وقد عبّر مكفرلين عن استيائه وخيبة أمله من عدم عقد اجتماعات مع مسؤولين رفيعي المستوى، وأمضى اليوم التالي منفرداً في جناحه.

بما أن مسألة الرهـائن باتت أسـاسية في هـذه القصة، فسيكـون من المهم أن نشرح السبب الذي من أجله خُطفوا. قد يبدو السؤال واضحاً مع أنه نادراً ما تم بحثـه ببساطـة ووضوح. إن الحقيقة هي أن بعض الأميركيين والغربيين احتجزوا من أجل حثّ مواطنيهم على عدم المجيء إلى المنطقة. كـل ما كـان للخاطفـين من مآخـذ على ضحـاياهم هـو أن جنكو وير وبقية الأميركيين كانوا يحملون جوازات سفـر زرقاء. كـان هدف الخـاطفين هـو إهـانتنا وزرع الخـوف في قلب أي أميركي يـرغب بزيـارة المنطقـة. إنـه من الصعب عـلى الأمـيركيين أن يصـدقوا أو يتقبلوا أن هنـاك بعض الناس لا يحبـوننا. لا يحبـوننا؟ يجب أن يحبونا. انظر ماذا نفعل حتى نساعدهم، نحن أصدقـاء جيدون أليس كـذلك؟. . هـذا ما يراه الراديكاليون الأصوليون في بيروت. إنهم يكرهوننا ويكرهوا كـل ما نقف عليـه. إنهم يحتقـرون القيم اليهوديـة والمسيحية واحـترامنا لحـرية الفـرد وللدور الذي تلعبـه أميركـا في العالم. لقد استبد القلق بالرئيس ريغان من جراء موضوع الرهائن، وقد أوضـح لنا عـدة مرات ـ نحن الذين نتعاطى هذه المسألة جميعاً ـ بأن علينـا أن نقوم بكـل ما هـو ممكن من أجل إعادتهم إلى بلادهم. لقد شاركه العديد من الأميركيين قلقـه، ولكن البعض شعر أن الرهائن قد أعطوا التحذير الكافي قبل أن يسافروا، لكنهم قاموا بما اختاروه هم. أنا أتفهّم هذا المنطق، وأنا بالتأكيد لا أدعم فكرة الحكومة الأبوية، ولكن ماذا عن أولـئك الشجعان الذين بقوا في بـيروت لإنجاز مهـام إنسانيـة، وقامـوا بذلـك لأنهم أميركيـون؟ كان ديفيـد جاكوبسون مديـر مستشفى الجامعـة الأميركيـة، كان يسـاعد في إنقـاذ حياة النـاس، وكان حضوره رمزاً ومحط إعجاب الناس للقيم الأميركية.

مع أنه على كل منا أن يتحمل مسؤولية القرار الذي يتخذه، فإني أعتقد أن الـرئيس كان على حق في أن يهتم بشدّة بموضوع الرهائن عندما تدخّل في الموضـوع. وتسأل مـا هو

عمل الحكومة الأميركية إذا لم تكن مهتمة بحماية حياة وأرواح المواطنين الأميركيين؟ والشيء نفسه صحيح في إسرائيل، والذي كانَ سبباً في حضور نير إلى طهران، كان مصمماً على إنقاذ جنديين إسرائيليين محتجزين في بيروت، لقد أصبحت أنا ونير صديقين. قال مرة أمامي مثلاً يهودياً: إن من ينقذ حياة شخص كأنه أنقذ العالم بأسره.

ليس لديّ أدنى شك في أن الرئيس ريغان كان لديه الشعور نفسه، وأرى من الصعب عليّ أن أخطئه في محاولته لإعادة الرهائن إلى وطنهم ما دام للمبادرة الإيرانية فرصة للنجاح، وقد نجحت إلى درجة معيّنة، ولكنها لم تكن الجهد الوحيد الذي قامت به حكومتنا. فخلال هذه الفترة نفسها قامت وزارة الخارجية بمبادرات دبلوماسية متعددة ومبادرات أخرى لتحقيق الهدف نفسه. جميع هذه المبادرات كانت تستحق أن يعمل بها لكن لم ينجح منها أي واحدة.

في اليوم الثاني من زيارتنا لطهران، ومع بقاء مكفرلين في غرفته تعبيراً عن شعوره بالإهانة، تابعت أنا وكايف وتاليشر ونير الاجتماعات، ونظراً لغياب مكفرلين فقد أصبحت أنا المفاوض مؤقّتاً. قلت للإيرانيين إننا نشعر بإحباط شديد، فقد أرسل الرئيس ريغان مبعوثه الخاص إلى هنا، ومع احترامنا الشديد، فهو لم يلتق أحداً في مستواه منذ أن وصلنا، وجاء هذا مناقضاً لما كنّا نتوقع. لقد فهمنا أن السيد مكفرلين سيلتقي رئيس الوزراء موسوي أو الرئيس خامنئي أو رئيس مجلس الشورى رفسنجاني!

وظهرت أمارات الدهشة على وجه «الدكتور نو» وهو يسأل: من قال لكم هذه الأمور؟

فأجبنا: غوربانيفار!

فاكتفى الدكتور نو بالتنهّد، ولم يعد بإمكاننا منذ ذلك الوقت إخفاء الحقيقة وهي أن الجانبين حضرا هذا الاجتماع وهما يحملان آمالاً مختلفة كلياً. كنا نتوقع أن نجتمع مع مسؤولين رفيعي المستوى، وأن يكون إطلاق الرهائن مسألة تتعلق بمكالمة هاتفية. أما الإيرانيون فلم يتوقّعوا أن يحدث أي من هذه الأمور في الوقت القريب. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت لهم آمالهم أيضاً، ويبدو أنهم ظنّوا أننا أحضرنا معنا شحنة من قطع الغيار لصواريخ هوك المضادة للطائرات، والتي كانوا قد طلبوها ودفعوا ثمنها مسبقاً.

تتألف منظومة الصواريخ هوك من أجهزة تفتيش إلكترونية معقّدة وأجهزة تعارف وأجهزة لاكتشاف الأهداف وأجهزة توجيه، والصاروخ الموجّه نحو الطائرات المعادية كان قد بيع أصلاً إلى الشاه كوسيلة لحماية الأماكن الحساسة في إيران. لقد تعطّلت وتخرّبت المعدات الإلكترونية للمنظومة منذ استيلاء الخميني على السلطة، وكانت الحكومة الثورية

يائسة من إمكانية إعادة إصلاحها. والواقع أننا أحضرنا معنا أقل من ١٠٪ من طلبهم. كانت قطع الغيار لصواريخ هوك التي اشتراها الإيرانيون قد جمعت بصورة سرية من المخازن العسكرية الأميركية، وبترتيب من وزارة الدفاع الأميركية، ثم نقلت جواً إلى إسرائيل قبل وصولنا بوقت قصير، كان الجزء الأكبر من الشحنة قد حمل على متن طائرة ٧٠٧ إسرائيلية أخرى كانت تحط في مطار تل أبيب على أهبة الاستعداد للإقلاع والطيران إلى طهران حالما تتلقى إشارة منّا.

أكّد لنا الدكتور نو أنه يفعل كل ما في وسعه لإطلاق سراح الرهائن، وقال: لقد أرسلنا الآن رجلاً إلى لبنان، ونتوقع أن تصلنا أخبار منه غداً، وفي هذه الأثناء دعونا نتابع المحادثات. إلا أنه كرّر قوله: ولكن يجب أن يبقى حاضراً في ذهنكم أن أشخاصاً في حكومتنا لا ينظرون بعين الرضا إلى هذا الحوار، ولذا يجب أن نتحرك ببطء، عندما مات بريجينيف أرسلنا وفداً لحضور جنازته، ممّا أثار حفيظة الناس على القيادة احتجاجاً على هذا العمل.

بكلام آخر إنّ إيران ليست نظاماً دكتاتورياً. قلت في نفسي: طبعاً وأظن أن هناك جسراً في بروكلين تود أن تبيعني إياه. إلا أنّ الإيرانيين أيضاً أصيبوا بخيبة أمل. قال الدكتور نو: نتوقع عدداً أكبر من المعدات التي عثرنا عليها في طائرتكم. عندها شرحت له أن لدينا أوامر محددة من واشنطن، بأن لا نرسل الطائرة التالية حتى يطلق سراح الرهائن، والواقع أنه حتى القطع التي أحضرناها معنا كان يفترض أن تبقى داخل الطائرة حتى يفي الإيرانيون بتعهداتهم فيما يتعلق بالصفقة. وقد أُعطي طيارونا أوامر صارمة بأن يبقوا على متن الطائرة طوال الوقت ليس فقط لحراسة القطع، بل أيضاً لمنع المخربين من زرع أجهزة تنصّت أو ربما متفجّرات. إلّا أنه في الليلة الأولى التي أمضيناها في طهران حضر الطيارون إلى الفندق، وكان برفقتهم مجموعة من الحرس الثوري، قالوا لنا: نعرف الأوامر التي أُعطيت لنا ولم نكن نرغب في مغادرة الطائرة، ولكن ألا ترون هؤلاء الشبان وبنادقهم؟ لقد حدث تجاوز وهذا ما أغضبنا، كان هناك سوء تفاهم كبير، وكان الجميع يصيحون في وقت واحد ويلوّحون بأيديهم. لم أتمالك شعوري الغاضب الحانق أمام هذا الحدث الدراماتيكي وصحت بصوت عالٍ: يجب أن يبقى طيارونا على متن الطائرة وإلا سنرحل جميعنا الآن. ولم تلبث الاعتذارات أن تدفقت. قالوا لنا لقد حدث سوء تفاهم، ونحن آسفون فقد كنّا نظن أنهم سيكونون في راحة أوفر في الفندق، ثمّ أعيد الطيارون إلى المطار ولكن بعدما أفرغت الطائرة من حمولتها. وبينما كنا نتابع اجتماعاتنا مع الإيرانيين كان الطيارون يفتشون الطائرة شبراً شبراً للتأكد من عدم وقوع عمل تخريبي. في هذه

الأثناء كانت المحادثات في فندق هيلتون تؤتي ثمارها. حتى لو أن غورباتيفار لم يكذب على الجانبين فقد كان هناك فجوة ثقافية هائلة يجب ردمها. كان الدكتور نو يقول دائماً: «بإمكاننا أن نبدأ العملية، لكن يجب أن تفهموا أن هذه الأمور تتطلب وقتاً طويلاً». لم يكن هذا مجرد كلام، نحن في مجتمع تنكشف فيه الأمور بسرعة، وبالقياس إلى ما تعوّدنا عليه كانت الحركة في طهران بطيئة، والحقيقة أنها كانت دائماً غير سريعة، ولكن مع وصول الخميني إلى الحكم بدا كما لو أن البلد كله عاد إلى القرن الحادي عشر.

حاولت أن أنقذ شيئاً من هذه الزيارة، فقلت للإيرانيين إننا في أقل تقدير نرغب في استمرار الحوار، فهناك في حكومتنا أيضاً أشخاص يفضلون أن لا تكون لنا علاقة مع إيران، إلا أننا نعتقد أن تواصل العلاقة أمر مهم جداً لبلدينا. وحتى لو لم نتمكن من التوصل إلى اتفاق اليوم، فإن علينا أن نتابع المحادثات. ولكن حتى هذه الخطة ظهرت طموحة بالنسبة إلى مضيفينا، فقال الدكتور نو: لقد قمتم بعمل عظيم بمجيئكم، ولكن في الأمر سوء تفاهم، فعندما قبلنا بزيارتكم لم نقصد أن الحوار المباشر سيبدأ بين حكومتينا على الفور، إن مثل هذا الأمر يستغرق وقتاً طويلاً، وهناك مشاكل يجب حلها، وهناك مثل فارسي قديم يقول: «الصبر مفتاح الفرج»، بإمكاننا أن نتابع المحادثات ولكن من يضمن لنا أن بلادكم ستبقي الأمر سرّاً؟ فقلت له: إننا مستعدون أن نرسل إليهم جهاز اتصالات، عبر الأقمار الاصطناعية شبيهاً بالجهاز الذي كنا نستخدمه للاتصال مع واشنطن، وإننا مستعدون لأن نرسل معه فريق اتصالات لضمان سرعة وصولها وسلامتها بين حكومتينا. كان كايسي مهتماً بصورة خاصة بالتوصل إلى مثل هذا التدبير، فإذا وافق الإيرانيون فإن التقنيين الأميركيين الذي سيشغّلون الجهاز سيكونون أيضاً مصادر موثوقة للمعلومات السريّة التي يجمعها الأشخاص.

كان الموقف يائساً، ولكنّني قررت أن أجرِّب مرة أخرى، قلت: حالما تتمكّن حكومتكم من ترتيب إطلاق سراح الأميركيين المحتجزين في بيروت، سنرسل الطائرة الثانية المحملة بقطع غيار لصواريخ هوك، بعدها - كما ذكرت - سنرسل أيضاً وحدتي رادار ونوصلهما إلى ميناء بندر عبّاس، وبعدئذ يمكننا أن نتابع المحادثات عن حاجتكم العسكرية، أما إذا رحلنا دون أن نتجاوز العقبات، وكنت أقصد بذلك الإفراج عن الرهائن، فإن زيارتنا تكون قد أبرزت عقبات جديدة.

في اليوم الثالث انضم إلينا مكفرلين، إلا أنّ المحادثات لم تلبث أن تدهورت عندما أبلغنا الدكتور نو أنباءً وصلت من موفده إلى بيروت، ويبدو أنه تم التوصل إلى اتفاق ولكن محتجزي الرهائن قدّموا لائحة جديدة وموسّعة عن المطالب. أصغينا ونحن نكاد لا

نصـدق، بينما كـان الدكتـور نـو يعـدّد المـطالب: أن تنسحب إسرائيـل من جنـوبي لبنـان ومرتفعات الجـولان، وأن تطلق الكـويت سبعة عشر عضـواً من حزب الـدعوة مسجـونين لإقدامهم على تفجير سفارات وأبنية أخرى في مدينة الكويت عام ١٩٨٣. كنا سمعنا هذا الشرط الأخـير من قبل، ربما لأن أحد السجنـاء الذين حكم عليهم بـالإعدام كـان صهر عـماد مغنية زعيم «الجهـاد الإسلامي»، والمـظلة التنظيميـة التي تضم حزب الله المجمـوعة المسؤولة عن عمليات الخطف اللبنانية.

وكـأنّ هذين الشرطـين لم يكفيا لإثـارة الضحك، فقـد أُضيف شرط سخيف آخر، فقد ذكر الخاطفون أنهم يريدون منّا أن ندفع لهم النفقات، وعندما أشار مكفرلين إلى هذا الشرط في رسالته إلى پـواندكسـتر قال: ما رأيك بهذه الوقاحة؟

حاولنا وعلى الرغم من صعوبة المـوقف أن نبقى مهذبـين. من يظنّنـا هؤلاء الناس؟ شعرت وكأني زبون في محل لبيع السيارات المستعملة، حيث كان البائع يعود إليّ ويقـول: إسمع لقد ناقشت الموضوع مع المدير، فقال لي إنني أستطيـع أن أقدّم لـك عرضـاً خاصّـاً جداً، إذا كنت مستعدّاً أن تدفع نقداً فسنبيعك سيارة الفورد بـ ٥٠٠ ألف دولار.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم أبلغ الدكتور نو إلينا أن الخاطفين خفّفـوا مطالبهم، فما عادوا يطلبون انسحاب إسرائيل من جنوبي لبنان ومرتفعات الجـولان، ولا أن يُعوَّضـوا عن النفقات التي تكبدوها. وفجأة لم يبق إلاّ شرط وحيد وهو السجناء في الكويت.

بكلام آخر لقد ناقشت المـدير ووافق عـلى أن السعر الأول كـان مرتفعـاً، وهو الآن مستعـد لأن يبيعك السيـارة بـ ٢٠٠ ألف دولار، وأكثر من ذلـك فإننـا سنقدم لـك «طقماً جديداً» من العجلات.

كـان مكفرلـين يحاول كـظم غيظه بشجـاعة وهـو يقـول: إن التعليـمات التي لـديـه واضحة، فما لم يطلق سراح الرهائن من دون شروط إضافية فسنعود أدراجنا. وقال: حالما يطلق سراحهم ستحصلون على القطع الباقيـة في غضون عشر سـاعات. أمـا بالنسبـة إلى سجناء حزب الدعوة في الكويت فلا يمكننا أن نفعل شيئاً بشأنهم، هـذا الأمر بينكم وبـين الكويتيين، إلا أننا سنكون مستعدين للقيام بأي جهد ممكن لإقناع الكويتيين بإظهار الرحمة في محاكمتهم.

بعد بضع ساعات من «المماحكة» بدا أننا نحقق بعض التقدم. لقد وافقنا على خطة من ست نقاط طبعتها على الآلة الكـاتبة المـرفقة بجهـاز التشفير، مفـترضاً أن الـدكتور نـو يستطيع أن يسلِّم هذه الخطة إلى رؤسائه، فيؤمن الإيـرانيون إطـلاق سراح الرهـائن وجثة

وليم بكلي في اليوم التالي، وبعدها مباشرة تقلع الطائرة من إسرائيل محملة ببقية القطع التبديلية. ولكن إذا لم يطلق سراح الرهائن كما هو متفق عليه، فستعطى تعليمات للطائرة التالية بالعودة إلى إسرائيل. كان هناك أيضاً شروط لتسليم وحدتي رادار وجهاز اتصالات عبر الأقمار الاصطناعية مع عمال أميركيين.

عندما غادر الإيرانيون الفندق أخذت مكفرلين جانباً وقلت له: إذا توصّلنا في هذه الخطّة إلى نتيجة فإني آمل أن تقلع الطائرة الليلة، (هذه الطائرة المحملة بكمية زائدة من الوقود يجب أن تقلع قبل أن تجعل حرارة النهار الإقلاع مستحيلاً). أجابني: «حسناً ولكن لا تجعلها تجتاز نقطة اللاعودة، وبما أن الرحلة طويلة فعندما تجتاز الطائرة نقطة معينة لن يعود بإمكانها أن تعود أدراجها، وسوف تجبر على الهبوط في إيران. كانت هناك ساعات عديدة للتخطيط لهذه الطائرة، ولقد حاولنا أن نستبق الأمور بحيث لا نقع في أخطاء. ماذا لو فقدت الطائرة أحد المحركات؟ ماذا لو اضطرت إلى الهبوط الاضطراري في أي بلد آخر؟ ما هي موجة الراديو الاحتياطية التي سيستعملها الطيار؟ وبعد إذن مكفرلين أرسلت رسالة مشفّرة إلى ديك سيكورد الذي كان ينتظر التعليمات في تل أبيب: «انطلق الساعة ٤ صباحاً، وإذا لم أكلمك مرة ثانية حتى الساعة ٨,٠٠ عد أدراجك».

في صباح اليوم التالي عاد الإيرانيون وقالوا: «أعطونا مزيداً من الوقت، نعتقد أننا نستطيع أن نحرر لكم رهينتين، نحن لا نهتم بما وعدكم به غوربانيفار، ولقد أخبرناكم من قبل، نحن لنا بعض النفوذ ولكننا لا نسيطر على الأمور بأكملها في بيروت، نحن لا نستطيع أن نتحكم بالأحداث، ولا نستطيع تحرير جميع الرهائن، هذا أفضل ما يمكننا أن نفعله».

هذا ما كان يتخوّف منه مكفرلين بالضبط: أن يقدِّم الإيرانيون عرضاً جزئياً. وكان الأميرال پواندكستر قد توقّع ذلك قبل أسابيع، وأعطانا توجيهات بأن لا نتعامل معه*.

ولكن بعدما اشتركنا في هذه الاجتماعات الطويلة، لم أعد أعتقد بأن الإيرانيين كانوا يسعون نحو اتفاق أفضل. إنهم الآن يقدمون العرض الوحيد الذي يقدرون عليه. لقد تراجع الخيار فإمّا نصف الرغيف أو لا شيء. ذهبت إلى مكفرلين وقلت: «لأجل الله

* (كتب پواندكستر لنورث في ١٦ نيسان/ أبريل ١٩٨٦: «يمكنك أن تذهب، ولكني أريد أن أوضح لك بعض النقاط، لن تسلم أي قطع تبديلية قبل إطلاق سراح جميع الرهائن طبقاً للخطة التي عرضتها عليّ من قبل، لا تقبل بالنصف إما الجميع أو لا أحد... إذا أرادوا أن ينقذوا أنفسهم من السوفيات يجب أن يوافقوا).

يمكننا أن ننقذ اثنين منهم»، ولكنه لم يعر كلامي انتباهاً وقال: «الأوامر الوحيدة لديّ هي إمّا الجميع وإمّا لا أحد». رجوته «يا مكفرلين أنا أعرف أنه . . ولكن على الأقل أطلب. إن جهاز الاتصال يؤمن لنا اتصالاً مباشراً مع واشنطن، وأنا أعتقد أن مكفرلين لو عرض المأزق على پواندكستر فإنه كان سينقلها إلى الرئيس، وأن الرئيس رغبة منه في إنقاذ حياة الناس فسيقول نعم. لكن مكفرلين رفض حتى مجرد بحث الفكرة وقال لي: «إنسَ ذلك لقد تلقيت تعليماتي وأنت تلقيت تعليماتك. إن لهم فرصة».

لقد بدأنا المحادثة في الخارج وعلى الشرفة في جناحه، أما الآن فإننا نبحث ذلك بصوت عال وبوضوح في غرفة الجلوس، فلتذهب أجهزة التنصت الإيرانية إلى الجحيم.

قال: «أنا لا أحب هذا النوع من التعامل، إنه ليس صحيحاً».

بعد أن داهمنا الوقت ولم يعد هناك سوى وقت قليل للطائرة قبل أن تصل إلى نقطة اللاعودة، أصبحت عاطفياً وقلت: «نعم يا روبرت إن ذلك غير صحيح، ولكن هذا ليس الوقت الملائم كي تكون قدّيساً، دعنا لا نداعب أنفسنا، ماذا كنت تفكر أننا كنا نعمل طوال هذا الوقت؟ أنت بدأت هذه العملية ونحن نعمل من أجلها».

حسب المعلومات التي فهمتها (عند حدود معرفتي) فإن الرئيس ريغان وروبرت مكفرلين قرّرا مبادلة الأسلحة بالرهائن، والآن وبوجود البديل، رأيت أنَّ إنقاذ حياة شخصين مسكينين أفضل من أن نتقيد باتباع سياسة كنا قد بدأنا بمخالفتها.

توجّه نير إلى مكفرلين وتوسّل إليه أن يقبل بالاقتراح الإيراني، ولكنه نهره فوراً ثم أنّبني فيما بعد بسبب إرسال نير إليه. ولكني لم أرسل نير بالطبع، وعندما رأى نير أن كل شيء قد انهار ذُهل. وبسبب عدم سماعه أي شيء منّا حتى وصول الطائرة إلى منتصف الطريق إلى طهران فقد عادت الطائرة (بوينغ ٧٠٧) الثانية والمحملة بالقطع التبديلية أدراجها إلى إسرائيل. وبعد دقائق صرخ مكفرلين فاتحاً الباب بسرعة وقال: «إننا سنرحل، سنكون خارج هذا المكان في خمس دقائق».

إنّ سرعة مكفرلين في مغادرة المكان كانت مفاجئة لدرجة أنني ظننته يخدعنا، لكنه لم يكن يفعل ذلك. إنّ المصاعد لم تكن تعمل، ولم تكن السيارات جاهزة، وكان الإيرانيون بكل وضوح مذعورين لأن الصفقة بكاملها كانت على وشك الإلغاء. حاولوا أن يؤخرونا ولكن مكفرلين كان غاضباً، صرخ «نحن عائدون إلى بلادنا، حتى ولو اضطررنا إلى أن ننزل سيراً على السلالم ونأخذ سيارات تاكسي إلى المطار».

لم أكن أحبذ فكرة العودة إلى الوطن خالي الوفاض، كان بالإمكان إخلاء سبيل

رهينتين، بل كان يمكن أن نضع الأسس لتحقيق مكاسب أخرى، لقد أعطيتها اهتمامي الكبير، والآن حان الوقت لتنفيذ الأوامر.

هل كان ثمة فرق لو بقينا ساعات قليلة أخرى أو يوماً آخر أو يومين؟ أعتقد أنه كان يمكن إطلاق سراح الرهينتين. ولكن من يعلم؟ وإذا أخذنا بعين الاعتبار حقيقة أنهم لم يكونوا مستعدين لزيارتنا وغير مدركين لآمالنا وتوقعاتنا كان الإيرانيون يقفزون على الحواجز ليجعلوا الأمور تسير بشكل حسن. وحسب الأسلوب الأميركي الحقيقي أردنا أن نقوم بالأشياء «البارحة».

بينما كنا نحضّر لمغادرة الفندق تابعوا مناشدتنا «أعطونا ساعات قليلة وسوف نطلق سراح اثنين منهم». تلقى مقر قيادة وكالة المخابرات المركزية معلومات من قمر اصطناعي أن رفيق دوست نائب وزير الخارجية قد غادر إيران إلى دمشق، كما فعل في حالات سابقة عندما كان يطلق فعلاً سراح الرهائن. فيما بعد عندما أُطلق سراح الرهائن الفرنسيين وصل رفيق دوست مرة أخرى إلى دمشق، وهذا ما يشير إلى أن الذي يملك نفوذاً على الخاطفين في بيروت يحتمل أن لا يكون الإيرانيون وإنما السوريون.

قال جورج كايف للجنة تاور: «إن أخطر مشكلة واجهناها هي ما إذا كان الإيرانيون يتحكمون بالرهائن». لم يعتقد الفرنسيون أنهم كانوا كذلك، كانت هذه هي مشكلتنا الحقيقية، يمكن أن يكون الجانب الإيراني راغباً ولكنه لا يسيطر على الخاطفين.

أخيراً أقلعت السيارات من أمام الفندق وتوجهت بنا إلى المطار. ذهبت إلى ضابط الاتصال وطلبت منه أن يرسل رسالة إلى تل أبيب وواشنطن تبلغهم عن مغادرتنا. لقد صليت إلى الله أن يكون انطلاقنا مباشرة إلى سجن أمين.

وفي خارج الفندق توسّل إليّ الأسترالي أن أذهب معه، ثم صعدت أنا ونير معه في السيارة. قاد الأسترالي السيارة بنفسه، وعند كل تغيير سرعة كان يناشدنا البقاء بضع ساعات.

في المطار عندما ترجّلنا من السيارات ومشينا باتجاه الطائرة، ظلّ غوربانيفار يتوسل إلينا أن نعيد بحث الموضوع. سار الأسترالي باتجاه سلم الطائرة ليقدم لنا التماساً أخيراً والدموع تسيل من عينيه إلى أن قال مكفرلين: «أغلقوا الباب».

لقد ناشدت مكفرلين التريّث قبل الإقلاع، ما زال هناك وقت يمكنه فيه أن يتصل بواشنطن من هنا على المدرج، وكل ما كان عليه هو أن يخبر ضابط الاتصال أن يفتح حقيبته وفي أقل من دقيقة سيكون على اتصال مباشر معهم، ولكن مكفرلين لم يتحرك.

كانت رحلة العودة إلى تل أبيب هادئة جداً. كنا جميعاً مصابين بخيبة أمل. لقد أتينا إلى طهران ونحن نتوقع نجاحاً دراماتيكياً في مسألة الرهائن، كان هناك أشخاص ينتظرون في بيروت وقبرص لينسّقوا برنامج سفرهم إلى الوطن. والآن نحن عائدون بخيبة أمل.

كنّا مرتاحين جدّاً أكثر مما كنا نتوقّع لخروجنا من طهران. وفي خلال رحلة العودة الطويلة إلى تل أبيب ذكر جورج أنه في الصباح الباكر عندما كان في الفندق قلق من أن يقدم الإيرانيون، الذي أصيبوا بالإحباط من زيارتنا، على منعنا من مغادرة طهران. لم نكن نعلم وقتها مدى صحة ذلك، بعد تسعة أشهر ذكرت لجنة تاور أن مجموعة من الحرس الثوري قد حضرت إلى الفندق لإلقاء القبض علينا ولكن رجال حرسنا قد ردوهم.

وضعنا مخاوفنا جانباً خلال الأيام الأربعة الماضية عندما كنا منهمكين باجتماعاتنا، وعندما غادرنا الأجواء الإيرانية اعترفنا أن الأمور قد انتهت بأقل ضرر. قال لي كايسي فيما بعد عندما أعدت له الحبوب: «أنت محظوظ لأنك تعلم أن الراديكاليين في تلك الحكومة يمكن أن يقرروا بأن يضعوك أمام الحائط ويطلقوا النار عليك». الآن أنا لم أؤمن بالحظ ولكني أؤمن بالعناية الإلّهية. أنا مقتنع أن الله استجاب لصلاتي في ذلك الصباح، وأنقذنا من تجربة صعبة. كان توم همنغواي وهو صديقي من مشاة البحرية قد وضع عبارة على مكتبه «يا رب لا تعدنا برحلة جيدة بل بالهبوط سالمين» ثم هبطنا في تل أبيب فيما بعد في ذلك اليوم.

عندما ترجّلنا أعددنا جهاز الاتصالات عبر الأقمار الاصطناعية للعمل واتصلنا بواشنطن لنخبرهم أننا بأمان. ودّعنا نير وتوجه إلى منزله حيث تقطن عائلته، ثم طرنا إلى واشنطن في طائرة صغيرة حيث اضطررنا إلى التوقف ثلاث مرات للتزود بالوقود. وعندما هبطنا أخيراً في مطار دالس، توجهت أنا ومكفرلين وهوارد فوراً إلى البيت الأبيض لعقد اجتماع مع الرئيس. خلال هذا الاجتماع الذي جرى في المكتب البيضاوي لم أقل شيئاً عن الخلاف في وجهات النظر بيني وبين مكفرلين، ولكن فيما بعد قلت كل شيء للأميرال. وإلى هذا اليوم ما زلت غاضباً لأن مكفرلين لم يطلب إذناً لقبول العرض الإيراني بإطلاق سراح رهينتين. لم يلزم الأميرال نفسه بذلك، لكني كنت واثقاً وما زلت من أن الرئيس كان سيقول نعم.

قبل أن نقدم تقريرنا إلى الرئيس اتصلت بزوجتي بتسي من مكتبي لأخبرها أنني عدت. قالت لي: «منذ وقت ليس بقليل بعت المنزل وعليك أن توقع على الأوراق». لقد

أخبرت المشتري والعميل أن زوجها مسافر وأنها لا تعلم متى يعود، لم يكن من الواضح ما إذا كانا قد صدّقاها وأنها أجّلت إنهاء البيع مرتين، قالت لي على الهاتف: «هذه هي. سننهي البيع اليوم وإذا لم تحضر فإن الاتفاق سيلغى». لقد كنت تعباً من رحلة العودة، عدا عن خيبة الأمل، وكان من المناسب أن آخذ حماماً وأغيّر ملابسي.

في اليوم السابق بينما كنت أنا ومكفرلين واقفين في باحة مطار بن غوريون في تل أبيب كان لنا لحظة على انفراد لنناقش ما حدث في طهران. لقد اختلفنا حول العملية، ولكننا كنا مصابين بخيبة أمل من النتيجة. قلت وأنا أحاول أن أخفف عنه: إسمع يا روبرت إنها ليست خسارة كاملة، فإن النقطة المضيئة الوحيدة هي أن قسماً من هذه الأموال سوف يحوّل لمساعدة المقاومة النيكاراغوية.

نظر إليّ مكفرلين بجديّة ولم يطلب مني أن أتوسع..

(٤)
قادم من عصر

عندما أتحدث إلى أولادي عن فترة طفولتي أشعر أنهم يشكون في أنني أقول الحقيقة كاملة. ليس ذلك لأن حياتهم تختلف بشكل دراماتيكي عن حياتي، أو لأنهم لم يختبروا بعد أياماً صعبة. لقد كبر تايت وستيوارت وسارة ودورنين بفضل عناية الله بصحة جيدة، وهم يتمتعون بأخلاق عالية وبأصدقاء جيدين. كانوا جميعاً فعالين في كنيستنا وفي مجموعات دراسة الكتاب المقدس في عائلتنا، ولكنهم كانوا بالتأكيد يكبرون في عالم يختلف عن عالمنا.

خلال دراستي الثانوية كان هناك اثنان أو ثلاثة من الطلاب يشربون البيرة أو يدخنون السجائر، وعندما كنا نتحدث عن الفتيات لم يكن أحد بالتأكيد قد فعل شيئاً. لقد حافظت على بناتي الثلاث وابني، ولكنهم الآن جميعاً يصادقون مراهقات أجرين عملية إجهاض، وآخرين أوقفوا بجرم تعاطي المخدرات، وهناك أيضاً آخرون كانوا ضحايا العنف والخلافات الزوجية والانتحار، وكان ذلك كله في ضواحي فيرجينيا.

لقد ولدت في تكساس عام ١٩٤٣ في منتصف الحرب التي كسبتها أميركا من أجل العالم. سميت أوليفر لورنس نورث وكنت أدعى لاري إلى أن بلغت سن الثامنة عشرة وذلك كي أميّز عن والدي أوليفر كلاي نورث والذي كان يعرف بكلاي تمييزاً له عن والده. كان والدي ضابطاً في الجيش برتبة رائد، نشأ في فيلادلفيا، وكانت والدتي آن كلانسي مدرسة من أوسويغو في نيويورك.

عندما عاد والدي من الحرب عام ١٩٤٥ انتقلنا إلى فيلمونت في ولاية نيويورك، وهي قرية صغيرة على بعد ٣٥ ميلاً جنوبي الباني، حيث كان الناس لا يقفلون أبوابهم في الليل. يبدو ذلك غريباً لكن فيلمونت كانت نموذجاً لبلدة صغيرة في أميركا. كان هناك ملعب لكرة المضرب، وحقول شاسعة، وجداول وغابات عديدة، حيث كنا نلعب لعبة «خطف العلم» ولعبة «أبطال وحرامية» ولعبة «الكاوبوي والهندي»، وكل شيء يتطلع إلى خيال الطفولة. كان هناك شارع رئيسي هادىء ونظيف، وعلى جانبه محلات ومخازن مثل

مخزن كارني. كان محل السمانة يعمل بإدارة أكبر وأقدم شركة وهي شركة الشاي للباسفيكي والأطلسي العظيم. وكان في فيلمونت طبيب يحضر إلى المنازل للمعاينة، وقاعة سينما صغيرة حيث كنا نشاهد أفلام طرزان وبستر كراب بالأسود والأبيض وبعض المسلسلات بعد ظهر كل يوم سبت.

كل الناس في فيلمونت كانوا يعرفون بعضهم البعض، بحيث لا يمكنك أن تهرب من أي جريمة صبيانية ـ مثل رمي حبة بندورة على صبي في البناية المحاذية ـ لأن والديك سيعرفان عنها حتماً بعد ساعة. لم يكن هناك إغفال للأسماء، لقد كنا ٣٦ طالباً في صف التخرج، والسبب الوحيد لهذا العدد الكبير هو أن المدرسة كانت تستوعب طلاب المنطقة بكاملها.

لم أكن صبياً قبيحاً ما عدا تلك الفجوة في مقدمة أسناني. عندما كنت في الثانوية قال لي طبيب الأسنان: «أنت تعلم يا لاري يمكنك أن تقوم بشيء ما بالنسبة إلى الفراغ بين أسنانك ولكنك لا ترغب بالانزعاج، لا يبدو أنك تخطط حتى تكون نجماً سينمائياً أو تلفزيونياً، أليس ذلك صحيحاً؟» كنت أتعجّب بماذا كان يفكر الدكتور لينك في أثناء جلسات التحقيق بقضية إيران كونترا صيف ١٩٨٧ عندما قرر ملايين الأميركيين أنني ذكرتهم بالصورة الماضية.

كنت كبير أربعة أولاد، أنا ثمّ تبعني أخي جاك ثم تبعته شقيقتنا بات ثم شقيقنا الصغير تيم الذي ولد بعد بضع سنوات عندما كنت في الأكاديمية البحرية. كان الفرق بيني وبين جاك أقل من ١٨ شهراً، كنا أفضل صديقين لا نفترق عن بعضنا. كان على بات مع وجود شقيقين أكبر منها أن تتحمل الكثير من الإغاظة وقليلاً من الغيرة لأن لها غرفتها الخاصّة. ومثل جميع اليافعين في فيلمونت كانت لنا إدارة المكان. لم يكن هناك شيء أسوأ من الجيرة السيئين، وكنا نمشي مع بعضنا ونركب الدراجات الهوائية دائماً. كانت الدراجات الهوائية بمثابة الأوكسيجين لنا، وكنا دائماً نتحكم بالسرعات، ونضبط المقود. لم تكن الأم تقلق إلى أين أنت ذاهب بعد المدرسة، إلاّ إذا أخبرها أحد أنك تسرع في سويسايد هل أو شارع سميث حيث كنا نصرخ باتجاه الشارع الرئيسي، ولكن سويسايد هل لم تكن خطرة كما بدا إلى الآن، لأن الشارع الرئيسي لم يكن مجهزاً حتى بإشارات ضوئية. كانت والدتي تكره ما كانت تقوم به الأمهات الأخريات عندما كنّ يقفن عند العشاء ويصرخن بصوت عال: بيلي، بيتر لقد حان وقت العشاء.. كان للمرأة في الشارع المقابل فكرة أفضل: «صفرة» لمرتين عندما يحين وقت العودة. لقد اشترت والدتي صفارتها وكانت إشارتنا ثلاث «صفرات».

ومن أجل الإشارة كنا نركب فوق خط سكة الحديد على بعد ميل تقريباً من منزلنا في جادة مابل، وعندما لا يكون رجال شرطة سكة الحديد في المنطقة كنا نتسلل إلى محطة التبديل (والتي لا تقفل أبوابها أبداً) ونسرق منها بضع إشارات ضوئية ونضعها على خط السكة. كانت هذه إشارة طارئة للمهندس حتى يوقف القطار، ثم كنا نصعد إلى التلة وننتظر حتى يضغط على الكوابح (الفرامل)، فقط لنرى ما هي المسافة اللازمة حتى يتوقف القطار.

وفي يوم صيفي طويل بعد الظهر كنا نقفز إلى قطار الشحن عندما يخفف سرعته على المنحدر في شمالي فيلمونت، ثم نركب لمسافة ميلين ونقفز قرب منزل عائلة كنا نعرفها، ولكن الطريق إلى منزلنا كانت طويلة، ولذلك لم نكن نفعل هذا باستمرار، لم يكن أهلنا يعرفون شيئاً حول هذا الموضوع، ولكن عندما يقرأ أولادي ذلك دعني أوضح شيئاً: «لا نفكر في القيام بأي شيء مثل ذلك».

يمكن القول إن طفولتي كانت مثل لوحة لنورمان روكويل. كان لدي برنامج محدّد في يوم السبت، بعد أن أجمع المال من زبائني أذهب إلى بالن، حيث هناك دكان يبيع الأيسي كريم وأصرف أموالي على شراء الشوكولا والنابز وهي رقاق بالجبن وزبدة جوز الهند. في الطقس الدافىء كنا نذهب لصيد الأسماك، وكنّا نستعمل علب الشوربا الفارغة لنضع فيها الطعوم. لقد علّمني والدي كيف أفتح العلبة دون أن أزيل الغطاء، فإذا «طعجت» الغطاء قليلاً يمكنك أن تعلق العلبة على حزامك. كان ذلك بمثابة تكنولوجيا متقدمة في فيلمونت. لقد تعلّمت أنا وجاك الرماية ببندقية من عيارة ٢٢ قبل أن نتعلم قيادة السيارة، وبعد مضيّ فصل كنا نوفر المال اللازم للحصول على رخصة صيد السمك. اعتادت عائلتنا على استئجار كوخ صغير في بحيرة كوباك، وكنّا نذهب في الصباح الباكر في زورق صغير لجلب الفطور والذي كان يتألف من فتيلة السمك على الخبز المحمص. في الليل كنت أجلس على الأرض وأصغي إلى برامج الراديو مثل لون رانجر والظل والرقيب برستون وكلبه الذي يسمى «الملك». كانت كل حكاية عن الرقيب تنتهي بـ «حسناً أيها الملك هذه القضية قد انتهت»، بينما كان الملك ينبح موافقاً. كنت أجلس هناك وأدعي أنني سأصبح مونتي آخر عندما أكبر. كان من السهل عليّ أن أتصور كيف كان أبطال الراديو. بعد سنوات عندما رأيتهم على شاشة التلفزيون أصبت بالإحباط كثيراً لأنني رأيتهم عاديين جداً. . .

كانت بتسي تسألني أحياناً ما إذا كانت طفولتي كئيبة أم سعيدة كما أتذكرها. ربما كانت على حقّ، كان لدي طريقة خاصة في نسيان الأيام الصعبة، فأنا لا أذكر حتى

شجاري مع شقيقي مع أن كل الأشقاء يتشاجرون.

بعدما كبرت نوعاً ما اكتسبت عائلتنا عضواً جديداً. كنت في المنزل وفي إجازة من الأكاديمية البحرية عندما أعلنت والدتي للعائلة أنها حامل. كانت في الأربعينات وكان الحمل في هذه السن نادراً جداً. اعتقدت أن ذلك رائع، لم أذكر ردة فعل بات، ولكن جاك صعق، اعتقدنا أن والدتنا توقفت عن الإنجاب، لقد ولد تيم عام ١٩٦٣ عندما كنت في سن العشرين.

لم أدرك أهمية ما قامت به أمي من أجلنا إلّا عندما أصبحت والداً. وإني كوالد وزوج يمكنني أن أرى مدى انشغال زوجتي وارتباطها بمواعيد الأطفال، والأميال غير المعدودة التي تقطعها ومعها جمهرة من الأطفال في المقعد الخلفي. ربما لا يمكنك أن تقدّر تلك الأشياء حتى تصبح كبيراً. لقد كنّا سذّجاً وقليلي الاهتمام، لكننا لم نكن منعزلين عن العالم الخارجي كلياً. كان والداي يتتبعان نشرات الأخبار، وأنا أتذكر أنني سمعت عن تحقيقات مكارثي دون أن أتخيل بالطبع أنه بعد ٣٣ سنة سأمضي ٦ أيام في لجنة مجلس الشيوخ نفسها كضيف للجنة تحقيق أخرى في الكونغرس. إن والدتي كاثوليكية ورعة، وكانت عائلتنا تذهب كل يوم أحد إلى كنيسة القلب المقدس.

كنت الصبي الذي يعمل على مذبح الكنيسة، وفي بعض الأحيان كان الأب ديوير يدعوني للقيام بزيارات رعوية بصحبته. كان يقود سيارة بويك قديمة وكانت تعلق في الوحل والثلج، وكنت أشك في أن السبب الذي من أجله كان يطلب مني أن أرافقه هو أن أعينه على رفعها.

وكصبي يعمل على المذبح كان عليّ أن أحفظ الصلاة عن ظهر قلب في كل قدّاس باللغة اللاتينية طبعاً. كانت طريقة جيّدة لبداية النهار، وثابرت على الذهاب كل يوم إلى أن تخرجت من الأكاديمية البحرية. فيما بعد كان عليّ أن أتعلم القداس مرة ثانية وباللغة الإنكليزية هذه المرة. ما زلت أنسى القداس اللاتيني ولقد أعجبتني فكرة أن يكون القداس هو نفسه في جميع أنحاء العالم.

في كل يوم أحد بعد عودتنا من الكنيسة كان لنا غداء عائلي مع جدّتنا لأمنا التي كانت تعيش معنا، ومع جدّنا لأبينا الذي كان يحضر للعشاء كل ليلة بعدما توفيت جدتي عام ١٩٥٩.

كما أتذكر اليوم كانت وجبة الطعام نهار الأحد كما هي دائماً: لحم عجل مشوي مع بطاطا مسلوقة وفاصوليا خضراء وسجق، وأحاديث في السياسة والأحداث العالمية. من

النادر ما كان والداي يتشاجران، ولكنني أتذكر تماماً الهجوم الصيني على جزيرتي كوموي وماتسو عام ١٩٥٨، عندما أصرّت والدتي على إطفاء جهاز الراديو، بينما كان والدي يصر على الاستماع إلى نشرة الأخبار حتى وهو يتناول طعام العشاء. كان لهما خلاف سابق منذ سنتين عندما أسقطت طائرة فرنسيس غاري بورز من نوع يو٢ فوق الاتحاد السوفياتي. بالفعل كانت هذه الولائم الأسبوعية نسخة عن برامج التلفزيون لصباح الأحد.

كان والدي يملك مغزل صوف وكان جمهورياً مخلصاً. حاول بعض الناس أن يظهر عائلتنا بمظهر البطولة، ولكن في مدينة صغيرة في أميركا وفي الخمسينات، كان الجميع يؤمن بالله والوطن والأمومة. كانت والدتي ديموقراطية ولكنها تغيّرت فيما بعد وترشّحت كجمهورية إلى مجلس المدينة.

كنت قريباً جدّاً من والدي مع أنه كان هادئاً ومتمالكاً لنفسه، ولم تكن هناك مشكلة في العلاقة بيننا. عندما انتقلت من المنزل كنت أكتب إليه باستمرار من الأكاديمية البحرية ومن فيتنام وكنت أدرك أنه يتفهّم كل ما كنت أقول له.

كان يجب أن يقرأ لنا ولقد ترعرعت وأنا أستمع إلى حكايات الأطفال الكلاسيكية، حكايات كريم وجزيرة الكتر وروبين هود ومجموعات شعرية ونثرية لروديارد كيبلنغ. كان منزلنا مليئاً بالكتب والجرائد، وعندما ذهبنا إلى الجامعة وأقمنا هناك كان والدانا يرفضان إرسال أي مبلغ من المال إلا إذا كتبنا لهما باستمرار.

والدي كان رجلاً عسكرياً. كان يهتم بأزهار الحديقة ويحب الباليه، كان يجب أن يشاهد عروضاً للباليه في مدينة نيويورك في ساراتوني كل صيف. لم نكن بعيدين عن تانغلوود وهي المقر الصيفي لأوركسترا بوسطن السيمفونية، وفي فترات بعد الظهر كنا نجلس على المرج الأخضر ونستمع إلى تمارينهم. في بعض الأحيان كان والدي يأخذنا إلى نيويورك، كنت أحب ناطحات السحاب، ولكنها لا يمكن أن تقارن بأعظمها وهي هورن وهاردات أوتومات. كان والدي مولعاً بالتاريخ، ولذلك زرنا جميع المتاحف وساحات المعارك على الساحل الشرقي. كان أبطاله المحبوبون هم جنرالات حرب الاستقلال، وأنا أعتقد أننا زرنا جميع ساحات المعارك من ساراتوغا إلى يوركتاون. كان والدي دليلاً جيداً يشير بوضوح إلى المكان الذي جرح فيه بندكت أرنولد، ويشرح الأهمية الاستراتيجية لتلك التلة وذلك النهر.

عام ١٩٦٩ عندما كنت أنا وجاك نخدم في فيتنام، أخذ والدي على نفسه عهداً أن

يؤمن إعادة جمع شملنا، ودون أن يخبرنا كتب رسالة إلى ملفين ليرد وزير الدفاع، والذي لم يكن يعرفه، وأخبره أن ولديه الاثنين يخدمان في فيتنام، وأنه من حقهما أن يلتقيا مع بعضهما هناك.

بعد سنوات عديدة وجدت في ملفي جواب إدارة مشاة البحرية على هذا الطلب، والذي قرأته ببساطة «إن الملازم الثاني أوليفر نورث معين في وحدة قتالية في مشاة البحرية، وهو غير جاهز لزيارة كهذه في هذا الوقت» وبكلام آخر، كفى أيها الأب، إن لديه حرباً نخوضها. ولكن قيادة الجيش كانت متجاوبة أكثر من قيادة مشاة البحرية، فقد نقل جاك من وحدته إلى دانانغ ولم يخبره أحد لماذا. وبينما كان ينتقل من معسكرة بوساطة طائرة الهليكوبتر وأصيبت طائرته بإطلاق نار (كان ذلك من الحوادث التي نواجهها يومياً في فيتنام) لم يصب جاك بأذى ولكن بعد أشهر تحدث مع والدي في هذا الموضوع.

كان جواب والدي كلاسيكياً، قال بصوت هادىء: «حسناً كنتما هناك كلاكما ولم تشاهدا بعضكما منذ فترة، وكانت والدتكما ستسرّ فيما لو علمت أنكما مع بعضكما».

كان من الصعب عليه أن يدرك تأثير ذلك في أبنائه.

كان والدي عضواً فاعلاً في الحياة الاجتماعية وقداس نادي الروتاري المحلي، وكرئيس لهيئة إدارة المدرسة فقد عمل على تحسين مركزية التعليم وذلك للتوصل إلى مستوى أفضل للشباب الذين يدرسون في تلك المنطقة الريفية. في هذه الأيام يعتبر تعبير «الخدمة في المجتمع» بمثابة عقوبة، ولكن عندما نشأت كنت أعتقد أن ذلك مسؤولية وفضيلة.

لم أتطوع في مشاة البحرية لأن والدي كان عسكرياً، بل تطوّعت لأنه علّمنا أن كل من منحه الله نعمة العيش في هذه البلاد عليه أن يخدمها. لقد علّمنا ذلك جيداً لأن أبناءه الثلاثة خدموا في الجيش والبحرية ومشاة البحرية. كان يفضل لو أنني دخلت الجيش، ولكنه ذكر ذلك مرة: «أنا أعرف أن مشاة البحرية يريدون تطويع شباب جيدين، لكن تذكر فإن الجيش لديه الكثير من هؤلاء».

وكشخص مدنيّ لم يكن يجلس جانباً وينتقد بل كان يقول: «إذا لم تعجبك الأمور، لا تشتك بل إعمل على تحسينها». لقد كرّس وقته من أجل اللجان والقضايا وأعمال البر والإحسان، وكان كريماً جدّاً مع جيش الخلاص. كان يقوم بذلك في أثناء الحرب، لقد كان متطوعو مساعدة جيش الخلاص موجودين دائماً ليقدموا الفطير وكوب القهوة إلى كل جندي.

ومع كل مساهماتها المدنية وانشغالها فقد عرف والداي كيف يفرحان. لقد كانا

عضوين فاعلين في المسرح المحلي حيث كانت والدتي تمثل في معظم المسرحيات، وكان والدي يعمل في هندسة الأضواء وإدارة المسرح. في بعد ظهر أيام عطلة الأسبوع كانا يصطحباننا معهما إلى إجراء التجارب في قاعة د. آ. ر.

لقد آمن والداي بالنظام، واستناداً إلى قواعد اليوم، كانا صارمين، وإذا أساء أحدنا التصرّف فإنه سيخسر حظوة ما قبل الفاكهة. لم يؤمن والداي بإرسالنا إلى غرفنا لأنهما كانا يدركان بأننا سنجد وقتاً ممتعاً مع الكتب والألعاب مثل الطائرات الصغيرة وأجهزة الراديو القديمة.

لقد أصرّا على أن نعيش وفق الوصايا العشر، مع أني أتذكر التأكيد على الوصية الخامسة: «أكرم أباك وأمك». كان الله بعون أي من أخوتي إذا رفع صوته بوجه أمه، مع أن أخي جاك بقي مدة طويلة حتى فهم معنى ذلك. أتذكر مناسبة واحدة أقدم والدي فيها على ضربي، لقد نزع حزامه عن وسطه وضربني به لأني كنت فظّاً مع والدتي.

كان والدي يخدم في فرقة المشاة ٩٥ في الحرب العالمية الثانية، وكانت تابعة للجيش الثالث، الذي كان يقوده الجنرال باتون. عام ١٩٤٤ بعد اليوم «ي» مباشرة نزلت وحدته في فرنسا، وخدم والدي كضابط عمليات، وفيما بعد كضابط لوجستية في الجيش الثالث. عاد إلى الوطن مصطحباً معه نجمة فضية ونجمة برونزية، ولكنه نادراً ما كان يتحدث عن الحرب. وعندما كان يزوره أحد أصدقائه القدامى، كانا يجلسان ويتحدثان عن الأيام الماضية. كنت أنا وجاك نجلس على الدرج، على مقربة منهما ونصغي إليهما.

لقد حافظ على أوسمته ووضعها في الدرج الأسفل في خزانته، وبعدما مات وجدت الصندوق الأزرق والميداليات بداخله ونسخاً عن خطابات التهنئة التي تلقاها. لقد تلقى تهنئة بسبب أعمال بطولته في معركة ميتز وهي قلعة ألمانية حصينة. لقد وجدت أيضاً النشرة اليومية لوحدته، والتي وصفت التجربة القتالية الصعبة التي مر بها الرجال، لقد حرّروا معسكر اعتقال نازي وهذا ما لم يذكره والدي أمامي أبداً.

كنت أعرف دائماً أنه جزء من التاريخ، ولكنه كان يتحدث عن الحرب بشكل عام: «قامت الولايات المتحدة بهذا العمل وكانت وحدتنا مشتركة». كانت له صور بالبزة العسكرية في ألبوم العائلة، وكان ذلك جزءاً من هويته. ولكن الأشياء الأساسية التي تعلمتها من والدي هي: كيف تكون رجلاً وكيف يحبّ الرجل زوجته؟ لقد أخذت الهبة الأولى باكراً واستخدمتها بطريقة ترضيه، ولسوء الحظ تطلّبتُ وقتاً طويلاً لأكتسب الثانية.

بعد انتهاء الحرب بوقت قصير بدأ والدي يعمل مع والده في غزل الصوف، حيث

عمل معه حتى تقاعد عام ١٩٦٥، ثم بدأ بعدئذ هـدفاً ثـانياً «أعـطى دروساً في النقـل في كلية هدسون فالي في تروي. لقد وجد أخيراً ضالّته، فقد قال لـه والده وهـو على فـراش الموت: أنا أعتذر دائماً عن إلزامك بمهنة غزل الصـوف، لأني رأيت كم أنت سعيد عنـدما أصبحت معلّماً.

لقـد قـدم جـدي إلى هـذه البـلاد من إنكلترة عـام ١٨٩٥ في أوائـل العشرينـات، وأصبح ناجحاً جدّاً في مجال النسيج، وكان له خدم في منزلـه وسائق لسيـارته. لقـد خسر كل شيء تقريباً في الانهيار الكبير، لكنه عاد وتعافى وكان هذا درسـه لي: «أن تستطيـع أن تتلقى ضربة كبيرة وتستمر في الصمود». لم يتنـحَّ جدي جـانباً متـأسفاً عـلى وضعه منتـظراً منحة الحكومة، بل التقط نفسه مرة ثانية وبدأ من جديد.

كـان جدي نـورث رجلاً محـترماً لـه شعـر أبيض وشـاربـان وكـان يتحـدث بلهجـة بريطانية. ومثل جميع المهاجرين البريـطانيين إلى أمـيركا لم يكن مـرتاحـاً للطبيعة الحـرّة غير الرسمية في المجتمع الجديد، ولم يستطع أن يفهم كيف يستطيع الأمـيركيون أن يقـولوا عن رئيسهم بـطريقة غـير محترمـة مثل أيـزنهاور بدلاً من الـرئيس أيزنهاور، وانتقـل بعض هذا الشعور إليّ حتى اليوم، فأنا لا أرتاح عندما أذكر كبـار مسؤولي الحكومـة بأسـمائهم الأخيرة فقط.

كان نظيفاً ومرتّباً، وكان يرفض أن يتناول الـطعام في مـطعم لا توجـد فيه شراشف للطاولات. اصطحبه مرة والدي للعشاء، قال لهم عامل المطعم: رجاء احتفظوا بالشوكـات من أجل الفاكهة. فذهل وأجاب: أنا لن أفعل ذلك، وأنا متأكد أنه لم يدخل ذلك المكان مرة أخرى.

كان يعيش مع زوجته مابل في مزرعة قرب كنيت. لقد أمضيت أياماً سعيدة عندهما مع جاك وبات، وما زلت أحمل ذكريات جميلة عن مطاردة الإوز، لقـد كنت صغيراً جـداً لأن الإوزّة كانت بحجمي تقريباً.

وكما كنا في منزلنا كنت أعيش أنا وجاك في غرفة واحدة في المزرعة، حيث كنا نلعب بمجموعة ألعاب على شكل جنود كانت تخص والدي عنـدما كـان يافعـاً. كانت المجمـوعة مقسّمة إلى سرايا بـريطانيـة وسرايا ألمـانية من الحـرب العالميـة الأولى، وكنا نقيم المعـارك المسرحية على السرير المزدوج، وذلك بالاعتماد على مكعّبات خشبية. لقد حفظت المكعبات الخشبيـة والجنود في خـزانة خشبيـة ولأنها كانت تخص والـدي فلم يسمح بـإخـراجهـا من المزرعة مّما أعطى للمكان خصوصيته وحرمته.

وبسبب أنني كنت وجاك متقاربين في السن فإن هذا شكّل أفضل صداقة في المنزل. كنا نلعب مع بعضنا باستمرار، ونعمل مع بعضنا أيضاً في توزيع الصحف وقطع الأعشاب وإزالة الثلوج عن الأسطح وتقليم أوراق الشجر.

ولكن مع أننا نشأنا مع بعضنا فقد كنا مختلفي الطباع. كان جاك يحب الكلام والنقاش أكثر مني، ومثل العديد من الأخوة الأصغر سناً كان يعرف كيف يدافع عن نفسه. كانت لدينا قاعدة في عائلتنا: إذا لم تأكل جميع الخضروات فلن تحصل على الفاكهة. وعندما كان يحدث ذلك لجاك، كان يعلن بصوت عالٍ أنه عثر على «سوسة» في فاكهته ولذلك لن يأكلها، ولكن ذلك لم يوقفني لأنه كان أخي.

كان جاك يذهب باستمرار إلى مخزن كارني في الشارع الرئيسي ليشتري الأدوات التي تسبب الإزعاج، مثل الوسادات المضحكة والمواد المقيِّئة. من المدهش أن يكون لك أخ مستعد دائماً للمشاكل، وكنت أتمتع بألعابه تلك دون أن أدفع ثمنها.

دخل جاك إلى جامعة نياغارا، وبقيت قلقاً من أن يقدم على أن ينزل شلالات نياغارا وهو داخل برميل وذلك على سبيل السخرية منه. إن نزعة جاك للمغامرة أدت إلى تطوعه في الجيش، حيث انضم إلى وحدات المظليين والرانجر، ومن ثم أصبح ضابطاً في القوات الخاصة. لقد خدم ٢٠ سنة وهو يعمل الآن في نيوانغلاند كمهندس.

في صيف عام ١٩٨٤ بينما كان جاك ما يزال في الجيش وكنت أنا في مجلس الأمن القومي، أخذت صحة والدي تسوء وأصيب بداء انتفاخ الرئة. كنت في رحلة في إفريقية، ولدى وصولي إلى نيروبي في كينيا أبرق الصليب الأحمر إلى السفارة الأميركية ليعلمني أن نهايته أصبحت قريبة. عدت فوراً إلى الوطن، ووصلت قبيل عودة والدي من المستشفى إلى المنزل. كان يعرف أنه سيموت وطلب أن يمضي أيامه الأخيرة في فراشه.

أمضيت عطلة نهاية الأسبوع إلى جانبه. لقد كان نحيلاً جداً، بحيث أني حملته إلى الحمام حيث قمت «بتحميمه».

في صباح اليوم التالي تحسّنت صحته لدرجة أنني عدت إلى واشنطن ونظّمت تقريراً حول رحلتي إلى إفريقية. وفي صباح اليوم التالي اتصلت والدتي وقالت لي إنه توفي بينما كان نائماً. جاءت النهاية بسرعة وهدوء، وقد كنت ممتناً لأني كنت معه نهاية الأسبوع الفائت. والآن أنا مغتبط لأنه لم يقاس القلق الذي انتاب والدتي خلال تحقيقات إيران ـ كونترا.

كنت أعلم أنني سأذهب إلى الجامعة، والسؤال هو: أين يمكن قبولي؟ وماذا يمكنني

أن أتحمل؟ قال الصليب المقدس ونوتردام نعم، ولكن دون مساعدة مدرسية، وهكذا في خريف ١٩٦١ انتهيت في ولاية بروكبورت قرب روتشستر على بعد ٢٥ ميلاً من منزلي. كان عميد الطلاب الدكتور هارولد راكوف زميلاً لوالدتي في الجامعة، وكان والد راكوف مهاجراً من السوفيات اليهود، وقد حقّق ابنهم نجاحاً بفضل عمله الدؤوب وتصميمه. عندما رأى أنني لم أقرر بعد بشأن مستقبلي بحيث لم أكن أرغب بالتدريس، دفعني لأن أذهب إلى الأكاديمية البحرية أو إلى مدرسة الطب. لقد حثّني على أن أتفهم دروس الرياضيات والفيزياء والكيمياء، والتي تساعدني في تلك الأمكنة.

لقد شجعني أيضاً بالتفكير في مشاة البحرية. كان أستاذنا في الثانوية روس روبرتسون وبوب بوز أحد أساتذة التاريخ قد اقترحا عليّ الانضمام إلى مشاة البحرية عندما دخلت الجامعة. اقترح راكوف أن أدرس برنامج الترشيح لآمر فصيلة، والذي كان متاحاً لطلبة الجامعة، وكان يتطلب فصل صيف في مدرسة المرشحين لضباط مشاة البحرية في كوانتيكو ـ فرجينيا، وإذا أمضيت الصيفين بنجاح وتخرجت من الجامعة يتم تعيينك كضابط وتدخل المدرسة الأساسية كملازم. كان هناك شيء يجذبك إلى هؤلاء الرجال الذين خدموا في الحياة العسكرية، روبرتسون وراكوف ووالدي ـ والذين خدموا هناك ـ بدوا واثقين من أنفسهم ويتعاملون بحزم مع متطلبات الحياة. لطالما أعجبت بهؤلاء الرجال، وكنت أريد أن أتبع خطواتهم. وبعدما ناقشت الأمر مع روس روبرتسون والدكتور راكوف ووالدي انضممت إلى برنامج الترشيح لآمر فصيلة خلال سنتي الأولى في بروكبورت.

منذ اللحظة التي وصلت فيها إلى كوانتيكو أحببت المكان. كان ذلك أكبر تحدٍّ واجهته، وقد كنت محاطاً برجال مشاة جدّيين يعملون كثيراً. لم أكن ضعيفاً في الرياضة، ولكني تعلّمت في كوانتيكو بأنني أستطيع أن أنظّم نفسي أكثر مما توقعت. لقد أعجبت بالنظام، وأكثر من ذلك فقد أحببت العيش في بيئة حيث يستيقظ الجميع عند الصباح ويتوجّهون باتجاه واحد.

أخبرني راكوف: إذا لم تحب كوانتيكو فإنك حتماً لن تحب أنابوليس، وإذا أحببتها فسيساعدك هذا كثيراً.

بعد الصيف الأول أدركت أنني سأصبح من مشاة البحرية، خلال سنتي الثانية في بروكبورت أمضيت الأسابيع القليلة أعمل على طلب القبول في الأكاديمية البحرية، وكان ذلك أكبر تحد بيروقراطي واجهته. لقد ارتعشت عندما قبلت في الأكاديمية. وعندما وصلت إلى أنابوليس في حزيران/ يونيه ١٩٦٣ كان أول شيء قمت به بالاشتراك مع ألف طالب في صفي، هو حلاقة الشعر بسرعة وإلى أقصر ما يمكن. كم كان قصيراً؟ كم كان

سريعاً؟ في حوالى ١١ ثانية تصبح عملياً أصلع. وعلمت أيضاً أن تحيز العسكريين ضد المدنيين يبدأ هنا في صالون الحلاقة. لم يقل أحد ذلك بوضوح، ولكنك سريعاً ستعتبر أن معظم المدنيين كائنات دونك، والذين نتعرف عليهم من طول شعرهم وعدم لمعان أحذيتهم وعدم حلاقة أذقانهم ومنظرهم القذر المهمل.

لم أكن مرتاحاً للعجرفة العسكرية، ولكن لم تكن لديّ المناعة ضدها وكنت أصيح: «هل تريد أن تكون في مشاة البحرية أيها الجندي جونسون؟ أو تريد أن تكون مدنياً؟» إنه من السهل أن تنسى أن والدتك مدنية وكذلك زوجتك وأولادك.

تحت ظل هذه الغطرسة تكمن عجرفتي. هذا الموقف الواثق الذي يتأتى عن كونك واحداً من النخبة وعدم الصبر تجاه نظرات المدنيين إليك هذه الصفات كانت تكتسب في ساحات المعارك عبر العالم.

إنّ التكبّر كان ينشأ بسهولة. فمنذ أول يوم وصلنا فيه إلى الأكاديمية البحرية قيل لنا باستمرار إنه تم اختيارنا من بين آلاف المتقدمين. بالطبع لقد صدق معظمنا ذلك. فيما بعد وكمدرب في مشاة البحرية في كوانتيكو شاهدت مئات الخريجين في أنابوليس يأتون من خلال الدورة التأسيسية القاسية التي تحضر الملازمين الجدد للإمرة. عادة كان الرجال القادمون من أنابوليس إما من بين أفضل التلامذة أو من أسوئهم، كان الأسوء هم الذين تعلموا المداهنة والإطراء واقتنعوا أن ليس عليهم أن يعملوا بكد ونشاط.

في تلك الأيام عندما كنت في أنابوليس، كنت كمن يعيش في مخيم عمل لأحد السجون. ليس لأنه لا يوجد نساء حولنا، بل لأنك معزول عن العالم الخارجي، وواجباتك تستنفد نهارك وليلك، وكذلك متطلبات الأكاديمية الشديدة. كان ذلك صحيحاً بالنسبة إلى الأغرار. لم يسمح لنا بأي شيء مثل مشاهدة التلفزيون والاستماع إلى الراديو والخروج مع الفتيات وقيادة السيارات والذهاب إلى المدينة وتناول البيرة أو حتى تناول القهوة. لقد قيل غالباً إن الأكاديمية البحرية تأخذ منك كل النعم التي منحها الله لك ثم تعيدها إليك فيما بعد واحدة تلو الأخرى على شكل مكافآت.

وحتى بعد أن تمضي السنة الأولى فإنك لاتزال جزءاً من العالم المعزول، بحيث تستيقظ قبل الفجر ٦ أيام في الأسبوع على صوت الأجراس العالي في قاعة بانكروفت وهي أكبر مهجع في العالم.. وفي الوقت الذي يتوقف فيه الجرس عن الرنين يجب أن تكون خارج السرير على قدميك. كان صوت الجرس يحكم النهار بكامله والذي كان يحدّد موعد الدروس ووجبات الطعام وكل شيء. كنت تسرع دائماً من نشاط إلى آخر لأن

التأخر كان مخالفة جسيمة. كانت هناك أسباب عديدة تجعل الطالب يترك أنـابوليس، لكن الملل لم يكن واحداً منها.

إحدى نتائج هذه البيئة المعزولة هي أننا لم نكن نعلم بماذا يفكر بقيـة أبناء الـوطن، وإلى هذا الحد فإنك لا تعرف أي موقع آخر فقد يسهل عليـك أن تفترض أنـه غير مهم. في أنابوليس بدأت أعتقد أن الصحـافة كـانت تضخم الشعور المعـادي للحرب بـين أفراد الشعب الأميركي عندما ارتفعت حرارة حرب فيتنام. كان الأقرب هو معرفـة هذا الشعـور عندما كنا نسير في الملعب التذكاري للقيام بنشاطات رياضية، فعلى طريقنا إلى الملعب كنـا نمـر بالقـرب من كلية سـان جون، وبحلول ١٩٦٧ كـان لواؤنـا يتعرض لصراخ: مثـيري الحرب ولرمي البيض والبندورة.

كنا نعود من الملعب متفرّقين دون أن نواجه أي مشكلة في طـريق العودة. لقـد كان منظر الطابور هو الذي يثير الشعور العدائي، لأنه كان يمثل المؤسسة، كان ذلك قبل سنين عديدة من بدء المحتجين ضد الحرب بإهانتنا كأفراد. كانت الأكاديمية تضم شبـاباً من كـل مجتمع وكل طبقة وبضعة من الأقليـات الدينيـة والعرقيـة. ولكن حتى في أواخر الستينـات كان هناك مقدار من الغرور مقبول في أنابوليس. وقد أدرك ذلك بصورة خـاصة اثنـان من زملائي المقرّبين: جاي مارتن كوهين وكان يهودياً وفرانك سيمونر وكان أسود، ولقـد عانى كل منهما من المضايقات من زملائه.

بحلول حزيران/ يونيه ١٩٦٨ عندما تخرّجنا تـلاشت تلك المضايقـات، وكنت ترى فعلاً أناساً غيّروا مواقفهم وأصبحوا أكثر تسامحاً بعد أكـثر من سنتين من التـدريب والعيش المشترك فقد مشوا ذراعاً بذراع لمدة ٢٤ ساعة يومياً.

عـبر التاريـخ لم تستخدم المنـظمات العسكـريـة للقتـال فقط، بـل كـأدوات تعليميـة للمجتمع بأكمله. لم ينشىء لينين الجيش الأحمر من أجل الدفاع عن روسيا فقط، بل كان يـريد أن ينشيء مؤسسـات للثورة، وذلـك بانغـماس الشباب في فلسفـة الشيوعيـة. سوف يخدمون لسنوات عديدة، وبعد أن يتشربوا العقيدة يعودون إلى المجتمع ليقنعوا غيرهم من الناس بالعقيدة الشيوعية.

كان لحياتنـا العسكريـة أهداف متـوازية، فقـد كنا نعلم الشبـاب الأميركي مبـادىء الديموقراطية والتسامح والحاجة إلى الاتكال على أي شخص بغض النـظر عن لونـه أو دينه أو خلفيته. عام ١٩٤٧ وحّد الرئيس ترومان القوات المسلحة بمـوجب أمر تنفيـذي. لأول مرة كان الجندي الأبيض من جورجيا يستعمل المرحاض نفسـه وينام بـالغرفـة نفسها مثـل

الجندي الأسود من المسيسيبي. عام ١٩٥٤ عندما أصبح تشريع الحقوق المدنية قضية أساسية، كان من أسباب نجاحها أن عدداً كبيراً من المسؤولين البيض المنتخبين كان قد خدم في القوات المسلحة إلى جانب السود. لقد كان نضالاً طويلاً وبطيئاً، ولكن من دون العسكريين كان سيطول مدة أكثر. وكان مفاجأة أن الرئيس ترومان لم يتلق ترحيباً كبيراً وثناءً على هذا الإنجاز العظيم.

بغض النظر عن خلفيتك فلكي تكون في السنة الأولى في أنابوليس عليك أن تتحمل مضايقات كثيرة من طلاب الصف الأعلى. وبعدما أمضيت سنتين في بروكبورت وصيفاً في كوانتيكو كنت صاحب تجربة أعمق من زملائي، وربما أصبحت أعقل منهم وأكثر حكمة، وهذا ما جعل تجربة السنة الأولى أسهل. يمكن أن يكون أفراد الصف الأعلى في أنابوليس رحيمين، ولكن كنت قد تضايقت كثيراً في كوانتيكو على يد عناصر حقيقيين من مشاة البحرية، وكان لمضايقاتهم على الأقل هدف، بينما في أنابوليس يمكن أن يرسلك أحد ما في منتصف الليل لتلميع الكرة المعدنية لتمثال بيل والعنزة، أو يمكن أن تتلقى أمراً بأن تحضر كل شيء في غرفتك يمكن نقله، وهذا يعني أن عليك أن تفرغ كل محتويات غرفة المنامة بما فيها المحتويات العائدة إلى زملائك.

أنا لا آبه لهذه الأشياء في الصيف الأول قبل بدء السنة الأكاديمية، فإنها تساعد على ترويض بعض الطلاب الذين يمكن أن لا يتحملوا ضغط الأكاديمية القاسي، أو في ما بعد في أثناء القتال. هناك حسنة في تعلّم كيفية تحمل هذه الإزعاجات، لأنها تساعدك في تطوير بعض الصفات الواقية التي تعينك جيداً في الحرب وفي الحياة المدنية أيضاً. ولكني ما زلت أمتعض من أولئك الذين كانوا يأتون إلى الغرفة لا لسبب إلا ليطلبوا منك تنفيذ ٥٠ حركة تمرين للسواعد.

كان على جميع طلاب السنة الأولى أن يحفظوا عدداً من الأجوبة على أسئلة محددة من كتاب صغير عنوانه «العقبات». فإذا سألك أحد من أفراد الصف الأعلى: منذ متى أنت في البحرية؟ كان هناك جواب واحد مقبول: «كل حياتي مزدهرة والدتي كانت حورية الماء ووالدي كان الملك نبتون تمثال كبير يمثّل عنزة وهي رمز للحرية وهي تحارب الأرواح. لقد ولدت على ذروة الموجة وكنت أتأرجح نحو الأعماق، كانت ملابسي من أعشاب البحر وحيواناته، كل سن مني (من فمي) هو مخرز، وشعر رأسي خيوط القنب، كل عظمة في جسمي سارية علم، وعندما أبصق أبصق القار. أنا صعب أنا هو.. أنا أنا.. أنا نحن» وفي لحظة محددة يمكن أن يسأل طالب السنة الأولى أن يردد ما هي لائحة الطعام اليومية، أو أسماء الأفلام التي تعرض في صالات أنابوليس، أو بعد كم يوم تجري مباراة الجيش -

البحرية، أو العناوين الرئيسية لصحيفتي نيويورك تايمز وواشنطن بوست.

خلال تناول الطعام كنت تجلس على كرسيك دون انحناء ودون أن تنظر نحو الأسفل، ويمكن أن يسألك أحد «هل عيناك على الزورق؟» وهو يذكرك بأن تنظر إلى الأمام «نورث هل البقرة ثقيلة؟».

ـ كلا يا سيدي.

كنت تحمل نصف غالون من الحليب بيدك ويسألك الطالب من الصف الأعلى: كم يبقى من الحليب؟ فيقول: نورث كيف حال البقرة؟ وعليك أن تجيبه: سيدي إنها تمشي، إنها تتكلم، إنها مليئة بالطبشور، إن السائل اللبني المستخرج من أنثى الثور هو غزير بالدرجة الثالثة.. وبكلمات أخرى إن هناك حوالى ٣ أكواب من الحليب ما زالت في الغالون.

وكان أكثر ما يسرّنا هو أن يربح فريق البحرية لكرة القدم في مباراته مع فريق الجيش، والتي كانت تجري على أرض محايدة (عادة في فيلادلفيا). خلال أول نهاية أسبوع من شهر كانون الأول/ ديسمبر، عندما تربح البحرية ـ كما جرى عندما كنا في السنة الأولى ـ فإن طلاب السنة الأولى يعفون من المضايقات، وبإمكانهم أن يرتاحوا، ومنهم من يستطيع الكلام خلال تناول الطعام.

لكن المضايقات كانت أقل مشاكلي. خلال شهر شباط/ فبراير من سنتي الأولى كدت أن ألقى نهايتي عندما تعرّضت لحادث سير جسيم. وقع ذلك في عطلة ميلاد واشنطن عندما كان البعض منّا يقودون سياراتهم ويتجهون إلى ريف ولاية نيويورك لممارسة التزلج. كان ذلك في منتصف الليل وكان الثلج يتساقط بغزارة عندما وصلنا إلى تقاطع الطريق رقم ٢ مع الطريق رقم ١٥ قرب مدينة هورسهيد ـ نيويورك على مقربة من كورننغ،كان الجميع في السيارة قد نام ومن ضمنهم السائق، كنا قد توقفنا قبل ساعات لشراء الهامبرغر ولم يكن أحد منا يشرب الكحول. ما أزال أتذكر كيف كنت أفتح عينيّ وأرى أضواء الشاحنة التي كانت أمامنا، كان ذلك قبل حصول الاصطدام.

لم يكن أحد منّا قد ربط حزام الأمان وكانت أشلاؤنا مخيفة. قتل بوبي واغنر على الفور، وأصيب توم باركر بعاهة في دماغه. أما مايك كاتي فقد أصيب بكسر في حوضه وفي ساعده وبحروق.. بيلي مولتز أصيب بكسر في ظهره وهو ما يزال حتى اليوم مصاباً بشلل نصفي، وبالمقارنة مع رفاقي كنت نسبياً في وضع جيّد: جروح في الرأس، كسر في الأنف، كسر في الفك، كسر في القدم، وركبة محطمة، وكسر في إحدى الفقرات السفلى.

ما زلت أتذكر كيف زحفت خارجاً من السيارة على الثلج وأنا أسمع الأصوات: أولي لا تتحرك، كنت أرتعش على الرغم من أن أحدهم قد لفّني بمعطف. نقل المصابون الذين بقوا على قيد الحياة إلى مستشفى كورننغ. شكوت من أني لم أعد أشعر برجلي، ولم أعد أتحكم ببطني. شرح لي أحد الأطباء وبشكل رفيق أن هناك احتمالاً أن لا أستطيع المشي مرة ثانية. حتى في تلك اللحظات لم أدرك سوء الحالة التي كنت عليها إلى أن أخبرني والداي فيما بعد. لم أستطع حتى التحدث إليهما، وكنت أتألم كثيراً عندما أتنفس. لا أتذكر كثيراً ما جرى في مستشفى كورننغ، ما عدا أن إحدى الممرضات كان اسمها لولي، وأننا أخيراً عندما تعافينا غنينا لها من أسرتنا: هاي لولي لولي لولي: ثم مرة ثانية: هاي لولي لولي لولي.

في الأشهر القليلة اللاحقة كانت حياتي مليئة بالآلام والعمليات، وبعدما استقرت حالتنا نقلنا جواً إلى مستشفى بتسدا للبحرية، ثم نقلنا بعدها إلى مستشفى الأكاديمية البحرية والتي كانت تقع في منتصف مقبرة البحرية، مما هيّأ لنا حافزاً حتى نتحسّن. وبحلول الصيف أصبح بإمكاني أن أنتقل على كرسي لأجلس في الشمس.

من أطرف ما أتذكر حول تلك الفترة، هو أن بوب أيزنباخ صديقي المقرب كان يحضر لزيارتي كل يوم. كان حجم العمل في الأكاديمية مرهقاً، ولا أعرف كيف كان يستطيع أن يمضي وقتاً في زيارتي. عندما وقفت في المرة الأولى بدأت بالسير الخفيف. لقد وضعوني داخل مستوعب للعلاج الفيزيائي حتى أستطيع أن أحرك يدي ورجلي وكان ذلك مخيفاً. كان أخصائي العلاج الفيزيائي وهو أقسى رجل عرفته قد جعلني أتحرك، مع أن مفاصلي وعضلاتي كانت قد بدأت بالضمور. وبحلول الصيف تحسّنت حالتي وأصبح بإمكاني أن أذهب إلى منزلي في إجازة طبية. وبعد الفحوصات التي أجريت لي تم تصنيفي على أنني غير صالح للخدمة. كان من المفترض أن أعود إلى أنابوليس في أيلول/ سبتمبر من أجل العلاج الطبي فقط حتى تتحسن حالتي وأسرّح من الخدمة.

اقترح عليّ والدي أن أنام على فرشة في غرفة الجلوس بحيث لا أضطر إلى صعود السلم إلى غرفة النوم، ولكني رفضت. لقد عملت جاهداً حتى وصلت إلى أنابوليس وصممت على أن أعود. دعم والدي الدرابزون، وكنت أصعد وأنزل ببطء. خلال تلك الأشهر بدأت أفهم معنى الإصرار والمثابرة. وبمساعدة والدي ملأت عدداً كبيراً من الأوراق من أجل استئناف قرار وضعي خارج الخدمة. ما زلت أذكر كيف كنت أجلس في الباحة التي بنيتها مع والدي أنا وجاك، أنظر إليه وهو يقلم أزهاره المحبّبة.

لقد وصلت الرسالة: «الاستئناف مرفوض».

لكني رفضت أن أستسلم، ودعمني والدي من أجل أن أحارب هذا القرار وأعود إلى أنابوليس. لقد عمل معي في علاجي وساعدني على السير بالعكاز ثم بالعصا مع أن رجلي كانت نحيفة. كان أستاذي السابق روس روبرتسون، وهو من قدامى مشاة البحرية وكان قد جرح في رجله خلال الحرب العالمية الثانية، يزورني ليشجّعني.

لقد علّمني الحادث والجراحة والمعالجة في المستشفى الكثير حول ما يمكنني أن أتحمل.

لم يكن علاجي في المستشفى سارّاً لكنه لم يكن كذلك مليئاً بالمعاناة والآلام. كان هناك العديد منّا في جناح واحد، وكنا نتبادل الأحاديث ونتمتع بالأوقات الحلوة مع الممرضات. كان أحد زملائي المرضى في المستشفى روجر سوباخ، وهو من عناصر فريق كرة القدم، وقد أصيب بجروح في مباراة نوتردام، فيما بعد أصبح نجماً فنياً في مسلسل دالاس كاوبوي. وعندما كانت الممرضات يغادرن الجناح كان المرضى المقعدون على الكراسي يلعبون بالعصي والعكازات لعبة السيف والترس بحيث يجرون الكرسي إلى منتصف الجناح.

أخيراً صدرت الموافقة على قبولي في الأكاديمية بعد أن أخضع لامتحان، وعلى شرط أن أكون راغباً في أن أعيد السنة الأولى. أرغب، لقد كنت أتمنى العودة، وأخيراً عدت بعد سنة تقريباً من الحادث. صممت على بناء صحتي وإعادة قوتي. وفي كل صباح وبينما يكون الجميع نائمين في قاعة بانكروفت، كنت أركض حتى السور البحري، وعندما يستيقظ زملائي أكون أنا تحت الدوش في الحمّام.

لا أريد أن أكوّن انطباعاً على أنني كنت مولعاً بالأكاديمية البحرية. لقد كانت مكاناً للتحدي ولكنه محصور جداً. لقد أعدّت لتعطيك أكثر مما تتوقع تحقيقه مما يدفعك إلى أن تضع سلّم أولويات في عملك. يمكنك أن تكافح من أجل الكمال، ولكنك لا تملك الوقت الكافي لتحقيقه.

من البداية نظرت إلى الأكاديمية على أنها وسيلة للنهاية، وهي وظيفة في مشاة البحرية. منذ ذلك الصيف الذي أمضيته في كوانتيكو، صممت أن أكون من مشاة البحرية، ولكن بعد الحادث الذي تعرضت له أدركت أن علي أن أكافح كثيراً لأصل إلى هناك.

لقد كافحت، وعلى كل شخص في الأكاديمية أن يمارس رياضة معينة خلال الفصول الثلاثة في السنة الأكاديمية. وبسبب جراحي كانت لعبة كرة القدم ولعبة الكرة الأميركية،

ولعبة اللاكروس* خارج اختياري.

كان الملائم لي هو التجديف في الخريف والربيع، والملاكمة في الشتاء. لقد أحببت الملاكمة بشكل خاص لأنك تكون وحدك فيها، وإذا خسرت المباراة فلا يقع اللوم إلاّ عليك. كنت بعيداً عن المقاتل العادي، لكني كنت في وضع جيد بفضل الرياضة الصباحية. وهناك حكاية في أوساط الملاكمين تقول: إن أمرتسون سميث لخص الملاكمة بثلاث قواعد: أبق يديك عاليتين ورجليك تتحركان وظهرك بعيداً عن الحبال. كنت في وزن ولتر* وبعد سنتين من مخالفة وصية سميث الثالثة وصلت إلى بطولة اللواء. حوالى ٤٠٠ شخص - في قاعة مكدونو - بدأوا يحمسون اللاعبين المفضلين. كان خصمي في تلك الليلة جيم ويب وهو لاعب جيد والذي أصبح روائياً جيداً ووزيراً للبحرية.

عندما كنّا نصعد إلى الحلبة كانت الجوقة تصرخ: النظرة الحادة تتقدم. كنت أنا وويب نتبارى، وكانت يدي اليسرى جيدة، لكن ويب كان أعسر، وهذا ما لم يساعدني. كان سريعاً على قدميه، ولهذا كان هدفي أن أحشره في زاوية لأشل مهارته في السرعة. كان لعباً متعادلاً لقد بقينا حتى آخر جولة من المباراة لكني تفوقت عليه في عدد النقاط.

بعد سنة حضرت لجنة طبية لتقرر ما إذا كنت قد تعافيت من الحادث، وترى إمكانية قبولي في مشاة البحرية. تقدمت من أعضاء اللجنة قائلاً: لقد وظّفتم آلاف الدولارات لتدريبي، وأنا سأتخرج بدرجة شرف، لقد ربحت بطولة اللواء في الملاكمة، هل أنتم جادون في إعادتي إلى الحياة المدنية؟ سأكون ضابطاً ممتازاً في مشاة البحرية إذا ما أعطيتموني فرصة.

رأى سميث أن يعرض فيلماً يصوّر مباراتي مع ويب كدليل على لياقتي وحركتي، ولكني في تلك الحالة قدمت طلباً للتطوّع في وكالة المخابرات المركزية.

خلال صيفي الأخير كطالب في البحرية، ذهبت إلى مدرسة المظليين في فورت بننغ - جورجيا، وعندما أُجري لي الفحص الطبي لاحظ أحد الأطباء أن عدة عظام في وجهي وأنفي لم تلتئم تماماً بعد ثلاث سنوات على حادث السيارة، لم يكن عليّ أن أوقف الملاكمة فقط، بل يجب إجراء عملية جراحية إضافية لوجهي وأنفي إذا أردت أن أكون طياراً في البحرية، وهذا ما كنت أهدف إليه في ذلك الوقت.

ودون أن أترك مدرسة المظليين، أجّلت موعد الجراحة وتوجّهت إلى مركز التدريب

---

* لعبة يحاول المشتركون فيها تسديد الكرة بمضارب طويلة إلى مرمى الخصم. (المترجم).

* وزن لملاكم يتراوح بين ٦٥ و٧٢ كغ. (المترجم).

على الهبوط بالمظلة من الطائرة في جورجيا. خلال فترات الصيف الماضية ذهبت إلى مدرسة حب البقاء والنجاة والمقاومة والتخلّص في نيفادا، وإلى مدرسة الغطس في كاليفورنيا. لقد فاتتني فرص عديدة لكن هذه البرامج ساعدتني على التحضير لمشاة البحرية.

كانت السنة النهائية في أنابوليس هي الأفضل، ليس لأنك تلمح الضوء في نهاية النفق الطويل، بل لأنّه عليك أن تختار الاختصاص الذي تصبو إليه ومكان وحدتك الجديدة. بحلول ربيع ١٩٦٨ كانت فيتنام حملاً ثقيلاً، وقد صادف موعد اختيارنا مع هجوم تيت، وشاهدنا المزيد من أسماء وصور ضباط البحرية وضباط مشاة البحرية الذين كانوا في الأكاديمية قبلنا بسنة أو سنتين على مدخل قاعة بنكروفت.

كان قد سمح لكل طالب من طلاب الصف الأخير باقتناء سيارة وتوقيفها في الساحة، وكانت السيارة تسهل إمكانية الحصول على مواعيد، وإلا كان عليك أن تطلب ممن تأخذ منه موعداً أن يأتي بسيارته ويصطحبك، وهذا موقف حرج لرجل أميركي نموذجي في تلك البيئة.

كذلك سهلت السيارة رؤية الأهل والأصدقاء: كان خالي جون فينرمان، وهو رائد في البحرية، يعيش مع عائلته قرب الأكاديمية، واعتدت أن أمضي بعض عطل نهايات الأسبوع عنده. كانت ابنته كاتي طالبة في الجامعة، وكانت تعمل حسب دوام جزئي في مخازن هث. بعد عطلة الميلاد ذكرت كاتي أن عليّ أن ألتقي برئيستها في العمل، وهي شابة جذابة تدعى بتسي ستيوارت، ثم عرضت أمامي صورة لها مما شجّعني على لقائها.

في عطلة نهاية الأسبوع اللاحقة التقيت مع شقيقي جاك الذي أصبح ملازماً في الجيش في منزل فينرمان. شجّعني هو وكاتي على أن أذهب إلى قاعة مونتغمري حيث تعمل بتسي بحيث يمكنني أن ألقاها، عندها ذهبت أنا وجاك في سيارتي مسرعين. عند وصولنا ركبنا المصعد ثم اتجهنا إلى مكتبها، كانت بتسي تتكلم مع أحد المحاسبين، وعندما تبسّمت سحرتني. كانت طويلة القامة وعيناها زرقاوان وشعرها أشقر يتدلى منه ضفيرتان على ظهرها. أدركت على الفور أن هذه الزيارة القصيرة قد تم ترتيبها بحيث يمكنني أن أتفحّصها، وفجأة ارتبكت بشفافية هذا العمل. بدت بتسي وكأنها تتمتع بارتباكي الواضح، قلت: مرحباً، أنا قريب كاتي فينرمان، أنت حتماً بتسي ستيوارت.

ـ أجل أنا هي. لقد أخبرتني كاتي أنه يمكنك أن تحضر بعد ظهر هذا اليوم للتسوّق، ولكن هذا المكان بعيد عن أنابوليس، ألا يوجد محلات ومخازن هناك؟

ـ آه نعم، أنت ترى يا جاك، أوه إنه جاك أخي، أنت تعرفين أنه سيذهب إلى

فيتنام قريباً، وفكرنا أنه يمكننا أن نشتري بعض الحاجيات التي تهمه.

ـ طبعاً، لذلك حضرت إلى هنا حيث يوجد مواد تجميل للسيدات.

ـ حسناً، ليس هذا تماماً، ولكن حسناً، أنت تعرفين كنا ننظر في هذه الأنحاء، ثم قالت كاتي إنه يمكن أن تكوني هنا، و. . . هل تناولت طعام الغداء؟

ـ آه، نعم قبل حوالى ثلاث ساعات.

ـ طبعاً بالتأكيد، إنه تقريباً وقت العشاء! حسناً هناك الكثير لنقوم به في هذا التسوق، وكل شيء، يبدو أنك مشغولة كثيراً، إنه لمن السرور جدّاً أن نتعرّف إليك، هل يمكن أن أتصل بك فيما بعد؟

ـ إذا أردت، والآن بعد إذنكم، هناك بعض الزبائن أريد أن أهتم بهم.

كان ذلك مربكاً وفي أثناء العودة خارج المخزن ضرب جاك على كتفي وقال: حسناً أيها الأخ الأكبر، أنت بالتأكيد لك طريقة خاصة مع البنات! هل يعلمونك هذا التكتيك في الأكاديمية، أو أنّ هذا شيء اكتسبته من تلقاء نفسك؟ أنا آمل أن لا يكون وراثياً، ولكن أشعر أنك أخطأت في عدم طلب رقم الهاتف منها، لأنك لم تزعج نفسك فتعطيها اسمك!

أعطتني كاتي رقم هاتف بتسي، وخلال الأسابيع القليلة اللاحقة بدأت ألهب خطوط الهاتف بين أنابوليس وأناندال ـ فرجينيا، ولكن بتسي لم تكن موجودة في المنزل، وفي المرات القليلة التي كنت أتحدث معها كانت تظهر أنها مشغولة وعادة بموعد آخر. لقد توقفت عن الاتصال بزميلتها في المنزل دانا هاتشو، والتي كان لها صوت مميز، بحيث أني كنت مستعداً لأن أضرب لها موعداً، ولكنها كانت تشجعني دائماً على المحاولة. وهكذا تابعت الاتصال، وأخيراً وربما بسبب مثابرتي التي جعلتها تمل، ألغت بتسي أحد مواعيدها وكان علي أن أصطحبها إلى العشاء.

فيما بعد استنتج أصدقاؤنا أن بتسي سُحرت بالبزة العسكرية، ويقسم جاك أن السبب الوحيد الذي من أجله خرجت بتسي معي هو أنه كان يقف إلى جانبي عندما قابلناها. بعد سنوات أخبرتني بتسي الحقيقة، لم تكن متأثرة بالبزة العسكرية ولا بجاك أخي، بل كانت منجذبة إلى سيارتي فقط.

كانت بتسي ستيوارت أصغر ثلاث شقيقات، وكانت ابنة ريفية من غربي بنسلفانيا، ومثلي عاشت وترعرعت في بيئة ريفية نظيفة في بلدة صغيرة. كانت قد تخرجت حديثاً من جامعة ولاية بنسلفانيا وحصلت على ماجستير في تجارة البيع بالقطاعي، ومع أن

والدها جب كان يتحدر من عائلة الجنرال جب ستيوارت ضابط المدرّعات المعروف، فإن بتسي لم تكن لديها تجربة مع الألقاب العسكرية، لقد تزوجت شخصاً من مشاة البحرية بحس من البراءة، وظلت معه بضع سنوات لا تعرف الفرق بين الكولونيل والعريف.

كان موعدنا الأول في مطعم إيطالي يشرف على التمثال التذكاري لمشاة البحرية في أرلنغتون. لا بد وأني قمت بعمل صحيح، لأنه قبل وقت طويل كنا نتقابل كل نهاية أسبوع. في أحد أيام الآحاد الجميلة وقبل حوالى شهر من تخرّجنا انتصر الحب على الواجب. أمضيت النهار مع بتسي ونسيت الوقت، وعندما عدت إلى الأكاديمية كنت متأخراً نصف ساعة عن اجتماع العشاء. كان التأخر عن العشاء يعتبر فضيلة ولكن ليس في الأكاديمية البحرية، إن التأخر عشرين دقيقة دون عذر شرعي يعتبر مخالفة جسيمة من شأنها أن تعرض المخالف للعقوبة. كانت العقوبات تتضمن علامةَ سلوك سيئة، والحرمان من بعض المكتسبات، والأعمال الإضافية مثل أن تحمل البندقية وتدور في دوائر صغيرة لبضع ساعات، وفي بعض الأحيان كان التأخّر المتكرر يؤدي إلى الطرد.

عندما عدت إلى قاعة بنكروفت، حياني نقيب في مشاة البحرية كان قد تفقد سريتي ووجد أني غائب، لقد كنت آمر السرية لذلك لا يمكن إخفاء أو تجاهل غيابي.

ـ مرحباً بك يا مستر نورث أين كنت؟

ـ لقد كنت مع صديقتي يا سيدي.

ـ هل تعطلت سيارتك؟

ـ كلا يا سيدي.

ـ أنت تعلم ماذا يعني هذا؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ سأرفع تقريراً بك يا نورث.

كانت عقوبتي هي الحرمان منذ تلك اللحظة حتى أسبوع التخرج، وبعد تدخل من ضابط السرية الرائد ريد أولسون سمح لي بالاحتفاظ بالإمرة، كذلك دبر لي أولسون أمر العمل كمشرف على الأحداث الاجتماعية خلال أسبوع التخرج، وهذا ما سمح لي بأن أمضي وقتاً قليلاً مع بتسي.

في هذا الوقت بدأت أبحث معها أمر مستقبلنا.

بعد التخرج بوقت قليل كان عليّ أن أتابع الدورة التأسيسية كضابط في مشاة البحرية في كوانتيكو ـ فرجينيا. لكن ذلك لم يشكّل صعوبة أساسية، لأني سأبقى على

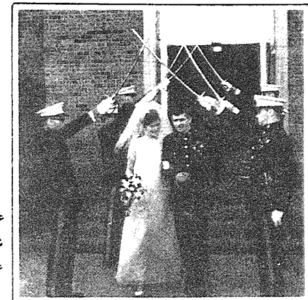
مسافة بضع ساعات من شقة بتسي في أنانـدال. وفي منتصف فترة الدورة في كوانتيكو، والتي كانت قد اختصرت بسبب الحرب، طلبت من بتسي الزواج. هناك تقليد في الأكاديمية وهو أن تعطي عروس المستقبل رسماً مصغّراً عن خاتم الصف. لقد كنت معجباً بهذه العادة، ولكني أردت أن أطبقها على طريقتي، ففي إحدى الليالي وقبل أن أصطحب بتسي إلى العشاء قدّمت لها زهرة وعلى عودها ربطت الخاتم بخيط رفيع بعناية، كذلك وضعت تاريخ ميلادها باللون الأزرق والأخضر على الخاتم.

وضعنا خطة للزواج يوم تخرجي من الدورة التأسيسية، وهنا أيضاً كان لا بد من اتباع قاعدة قاسية للبحرية. كان يوم التخرّج في أنابوليس مناسبة لسباق الزواج في الكنيسة، وفي حزيران/ يونيه وفي الأكاديمية ذهبت أنا وبتسي إلى ستة احتفالات في يوم واحد. .

تزوَّجنا في الكنيسة في كوانتيكو في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٨. كان والداي حاضرين وحدهما. كانت هناك عاصفة ثلجية في اليوم السابق حيث عادا إلى نيويورك ثم استقلا طائرة مع أخي الصغير توم الذي كان في الخامسة من عمره. لقد ملأت عائلة بتسي وأصدقاؤنا الكنيسة في كوانتيكو. أحد الحضور الذي كنت مسروراً لوجوده كان صديقي بوب ايزنباخ الذي كان قد أصيب بجراح بالغة في فيتنام في السنة الفائتة، لقد أصيب بوب في رأسه وفقد وعيه واعتبر بمثابة الميت، وعندما عاد إلى الوطن كان ما يزال غائباً عن الوعي وتعرض لعمليات جراحية متعددة في الدماغ، وفي أثناء حفل زواجنا كان مقعداً على الكرسي.

كانت بتسي ترتدي فستاناً أبيض مع شال، وارتديت أنا اللباس الأزرق. لقد حضرت جدّتانا لأمّينا حفل الزواج، وعندما انتهى الحفل شكل ثمانية من زملائي قوساً من السيوف يعبر من تحته عادة العريس والعروس. لقد أجرى مراسم الزواج القس بيتر جون كاري الكاثوليكي، ولا بد أن هذه الفكرة قد أعجبته لأنه تزوج أيضاً بعد بضع سنوات.

تلك الأسابيع الأخيرة في كوانتيكو كانت مليئة بالتكتيك والتمارين العملية في الميدان. وبعد أسابيع انتقل العديد منّا إلى مدرسة الطيران أو مدرسة المدفعية أو مدرسة المدرعات، ولكن بالنسبة إلى جميع ضباط المشاة فقد كانت المحطة التالية هي فيتنام.



عندما تـزوجت أنا وبتسي في كـوانتيكو
شكّـل زملاء صفي قـوساً من السيـوف
على مـدخل الكنيسة



أنا وبتسي وتايت
والمولود الجديد
ستيوارت
عام ١٩٧١



أفراد عائلة نورث:
تيم وبات
وجاك وأوليفر
في عيد الميلاد
عام ١٩٦٥.

(٥)
القتال

حصلت على إجازة لمدة ٣٠ يوماً قبل ذهابي إلى فيتنام، وذهبت أنا وبتسي في رحلة ترفيهية بالسيارة إلى المناطق الريفية بعد أن أمضينا شهر العسل في بورتوريكو. والآن لدينا فرصة لنمضي وقتاً حقيقياً مع بعضنا قبل أن ننفصل لمدة ثلاثة عشر شهراً. أحد الضباط برتبة عقيد كان يريد نقل عائلته إلى مدينة سان دييغو، وتطوّعنا لنقود سيارته إلى ولاية كاليفورنيا. لقد خطّطنا للرحلة، بحيث أنه عندما تنتهي الإجازة يمكنني أن أطير إلى سان فرانسيسكو وأكمل طريقي إلى قاعدة ترافيس الجوية بينما تعود بتسي إلى فرجينيا.

بعد فرزنا هدايا الزواج مع والديّ بتسي في بنسلفانيا، ذهبنا شمالاً لزيارة أقاربي، ثم اتجهنا غرباً نحو ميتشيغان لزيارة شقيقتي وزوجها. بعد ذلك اتجهنا نحو الجنوب وسرنا على الطريق القديم رقم ٦٦. كان ذلك في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر وسرعان ما وجدنا أنفسنا أمام سلسلة من العواصف الشتائية، ومن أجل أن نتجنب الثلج تخلّينا عن الطريق الذي كنا ننوي السير عليه، وتابعنا السير نحو الجنوب.

كان قد مضى على الرحلة أسبوع، وبينما كنّا نتهيأ للنزول في فندق في أماريلو في ولاية تكساس، لاحظت دورية للشرطة تتبعني. قال لي الشرطي:

ـ «عفواً هل أنت الملازم نورث من مشاة البحرية؟».

ـ نعم!

ـ إنه شيء عظيم أن نعثر عليك. إن جميع عناصر الدوريات في الولاية يبحثون عن سيارتك. لقد أعطانا والدك رقم اللوحة على أمل أن نعثر عليك ونطلب منك الاتصال بالمنزل. وهو يقول إن ذلك ضروري.

توجهت بسرعة إلى أحد مراكز الهاتف واتصلت بوالدي الذي قال لي: «أنباء سيئة، لقد تم تعديل الأوامر ويجب أن تلتحق بقاعدة ترافيس خلال ثلاثة أيام».

ثلاثة أيام؟ وكنت أنا وبتسي قد خطّطنا لثلاثة أسابيع.

اتصلت بقيادة مشاة البحرية كي أتحقق من الأمر، وقلت لهم إنني لست قريباً من أي مطار. قالوا لي: «من الأفضل أن تذهب إلى أي مطار يجب أن تكون على تلك الرحلة».

لم أرغب أن تقود بتسي وحدها إلى كاليفورنيا، لذلك عدت إلى السيارة واتجهنا نحو سان دييغو. كان ذلك مؤلماً، لقد بدأت بتسي بالبكاء وشعرت أنا بالإزعاج. كنت أعرف أنها ليست غلطتي، ولكني شعرت بالذنب لأني سأتركها قريباً. تبادلنا قيادة السيارة، وكنا نسير في عاصفة ثلجية بدت وكأنها تلاحقنا، لم نتوقف على الطريق وذهبنا عبر تكساس ونيومكسيكو وأريزونا إلى أن وصلنا إلى كاليفورنيا.

وصلنا إلى سان دييغو بينما كانت الشمس تشرق في عيد الشكر. لقد كنت تعباً بعد أن قدت السيارة طوال الليل وبجانبي بتسي على المقعد الأمامي. وكان من المقرر أن ألتحق بقاعدة ترافيس في تلك الليلة.

توقفنا قرب أحد المطاعم «دينز» لتناول الفطور، وبسبب العطلة لم يكن أحد في المكان. ويبدو أنّ تسريحة شعري كانت تميّزني، فقد أحضرت عاملة المطعم القهوة وسألتني:

ــ هل أنت في طريقك إلى فيتنام؟

ــ نعم.

ــ حسن، أظن أنك لن تنتظر عشاء يوم الشكر، دعني أحضر لك شيئاً منه.

أوصلتني بتسي إلى المطار حيث كان وداع طويل ومليء بالدموع. ذهبت جوّاً إلى سان فرانسيسكو ثم ركبت سيارة تاكسي إلى ترافيس. سلمت بتسي السيارة إلى أصحابها وعادت جوّاً إلى واشنطن. لم يكن قد مضى على زواجنا أكثر من ثلاثة أسابيع.

أول شيء تعلّمته عندما وصلت إلى ترافيس هو أن أتصرف كأني مغادر إلى مكان بعيد ولوقت طويل، كان هناك كمية كبيرة من الأوراق عليّ أن أملأها وكان آلاف الرجال يمرون من هناك يومياً. كان المكان منظّماً، ولكن كان الجلوس على الكراسي للاستماع إلى البلاغات لمدة ساعات يوحي باليأس، فقد كانوا يذيعون من جهاز قديم، يبدو أن توماس أديسون قد صنعه بنفسه، «من فضلكم الانتباه في الزوايا، من فضلكم الانتباه في الزوايا، تعلن قاعدة ترافيس الجوية عن إقلاع رحلتها العالمية رقم ٢٥ إلى دانانغ فيتنام. يطلب من المسافرين الاحتفاظ بنسخة عن أوامرهم، من فضلكم أطفئوا سجائركم الآن، لا يسمح بالتصوير خلال الرحلة، من فضلكم الانتباه في الزوايا، من فضلكم الانتباه في

الزوايا، تعلن قاعدة ترافيس الجوية..».

أخيراً سمعنا الإعلان عن رحلتنا، وبينما صعدت السلم ودخلت إلى الطائرة، لاحظت لوحة معدنية قرب الباب مطبوع عليها رسالة، وأذكر أني قرأت منها ما معناه:

«تشرف على عمل هذه الطائرة شركة الشرق الأقصى للطيران، وهي أجّرتها إلى الشركة الداخلية الأميركية كرهن على بنك باكستان الكبير لشرقي آسيا، بهدف نقل الخراف من بنوم بنه إلى طهران، الشركة لا تتحمل المسؤولية، لقد جرى آخر تفتيش على هذه الطائرة في ١٢ نيسان/ أبريل ١٩٥٩».

مهما كان نص هذه الرسالة فإنها لم تؤثر فيّ، وكذلك لم تؤثر في كبيرة المضيفين التي كانت تشبه الدب وكأنها لاعبة مصارعة. حالما تناولت الميكروفون علمنا أن هذه ليست رحلة عادية، لقد بدأت القول: استمعوا، لقد قمت بهذه الرحلة أربع عشرة مرة، ولا أريد منكم أي شيء أيها الشباب، مفهوم؟ كل واحد منكم يتحقق من سترة النجاة تحت مقعده، يمنع التدخين على هذه الطائرة حتى أسمح به، هناك أزرار للاتصال فوق المقعد، لا تفكروا حتى بالضغط عليها. ثم أضافت: هناك شيء آخر، كل من يزعجني سوف أخبر الضابط المسؤول عنه.

صرخ أحدهم: نعم، ماذا سيفعل؟ أيحلق لي شعر رأسي ويرسلني إلى والدتي؟

كنا مجموعة تتمتع بروح عالية، ومستعدين لاحتلال العالم، ولم يشك أحد منّا أننا بالنهاية سنرجع إلى بلادنا أحياء.

بدا وكأنه مضى أسبوع عندما أعلن الطيار أننا سنهبط: «أيها السادة سنلمس أرض دانانغ في فيتنام في حوالى ١٥ دقيقة. الساعة الآن الثانية عشرة والدقيقة الخامسة بالتوقيت المحلي، ودرجة الحرارة ١٠٢ فهرنهايت. يرجى إطفاء السجائر وشد الأحزمة. لقد سررنا بوجودكم معنا على الرحلة رقم ٢٥ في شركة الطيران العالمية، ونحن نأمل أن نلقاكم مرة ثانية في السنة القادمة لدى عودتكم إلى الوطن، وداعاً وحظاً سعيداً».

وفي دانانغ قادنا أحد الأدلّاء إلى بناية ضخمة مغطاة بأكياس الرمل. لقد عُيّنت في الغرفة الثالثة لمشاة البحرية. بعد بضع ساعات ركبنا طائرة نقل سي ١٣٠ في رحلة قصيرة نحو الشمال إلى دونغ ها في مقاطعة كوانغ تري، وهي القاعدة القتالية في شمالي فيتنام الجنوبية، والتي كانت تتمركز فيها قيادة الفرقة الثالثة لمشاة البحرية. أقلعنا بعد الظهر، وعندما وصلنا إلى دونغ ها هبط الطيار بسرعة وبدأت المحركات تعطي أصواتاً قوية. ما إن توقفت الطائرة عن المسير على المدرج حتى صرخ رئيس الملاحين: «الكل إلى الخارج»

وعندما ركضنا على المدرج طلب أحدهم منا ان نقفز إلى «دشمة» تعلوها أكياس الرمل قرب المدرج، وبعد لحظة عادت الطائرة فأقلعت، وبعد لحظة أيضاً سقط صاروخ وانفجر على الطرف البعيد للحقل المجاور.

«مرحباً بكم في فيتنام».

بعد أن نزلنا من طائرة «سي ١٣٠» نحو «الدشمة» المحصنة، انتظرنا عناصر من وحداتنا من المفترض أن يكونوا في استقبالنا.

بعد ساعة تقريباً حضرت سيارة جيب، أو على الأقل أظن أنها كانت «جيب»، كان من الصعب أن أقول ذلك لأنها دون زجاج أمامي ودون مقعد خلفي ودون رفراف أمامي.

كنت أنظر بعين الأسى إلى الجيب إلى أن لمحت العنصر الذي ينزل منه. كان طويل القامة هزيلاً، وكان وجهه قاسياً وذقنه غير حليقة، وكان غطاء خوذته ممزقاً وسترته مشقوقة. كان يحمل مسدساً غلافه مشقوق من الأسفل. كانت ثيابه القذرة تبدو كأنها لاصقت جسمه، أما عيناه فدمويتان وبدا بوضوح أنه لم يستحم منذ أسابيع.

قال: «ملازم نورث، آسف لقد تأخرت لأن الجسر قد فُجِّر والقافلة تعرضت لكمين». ثم أخذ خريطة من جيب سترته وأشار إلى «كون تيان» وهي أبعد قاعدة قتالية لمشاة البحرية نحو الشمال في فيتنام، وقال: «إلى هناك سنتجه.. على فكرة لقد نسيت أن أقدم نفسي.. أنا بوب بدنغفيلد.. أنا القسيس».

إذا كان هذا هو القسيس فهو حتماً من جيران جهنم!

قادني بدنغفيلد إلى قيادة الكتيبة الثالثة، ثم إلى بناية التموين حيث استلمت بعض المعدات ومن ضمنها غلاف للمسدس ٤٥ الذي أحضرته معي (كان هذا المسدس جائزة من الأكاديمية البحرية من أجل الاجتهاد الأكاديمي الذي أحرزته في السنوات الأربع والذي شهرني، وتلقيت من أجله الثناء). صعدت إلى المقعد الخلفي من الجيب وجلست وبقربي صندوق قنابل يدوية.

انضممنا إلى قافلة وغادرنا القاعدة، وعندما اجتزنا «كام لو» آخر نقطة تفتيش رئيسية، كانت الطريق كثيرة الحفر، وعلى بعد ميل تقريباً خارج كون تيان توقفت القافلة بكاملها. كان الظلام دامساً وكانت هناك غابة على كل جانب. نظر بدنغفيلد إلى ساعته وقال: يجب أن ننتظر هنا، لقد حان وقت هانوي اكسبرس. «كل مساء حوالى الساعة السادسة كانت العناصر المتمركزة شمالي نهر هانوي تطلق نيران الصواريخ والمدفعية على

كون تيان. يمكنك أن تحصيها. كانت منتظمة كنشرات الأخبار. بالتأكيد لا يمكن متابعة السير عندما يكون القصف جارياً.

كان مقر قيادة الكتيبة في كون تيان قد بناه الفرنسيون في الخمسينات، لقد أعدّ ليتسع لتشكيل واحد، ثم تم توسيعه من قبل عناصر مشاة البحرية وعناصر الهندسة في البحرية. بدا كأنه دائرة واسعة على قمة تلة، محاط بالأسلاك الشائكة ومراكز للرشاشات وحفر للدبابات والمدفعية وآلاف الألغام. أُلغيت المراكز الفرنسية الأساسية واستعيض عنها بنقاط استناد محصنة تتسع لغرف عمليات ومراكز للعناصر ونقاط مساندة. كانت هوائيات الراديو تعلو في كون تيان، وكان معظمها في نقط حصينة حيث كنا ننطلق منها لتنفيذ عمليات على الحدود الشمالية لفيتنام الجنوبية. في السنة التي تلت كنت أعتبرها بمثابة منزلي الجديد.

كانت كون تيان مركز مراقبة حيوي. على شمالنا كانت هناك بقعة قطعت منها الأشجار عُرفت «بالأثر»، وهي قطاع مكشوف من الأرض بعرض كلم واحد يمتد عبر المنطقة المنزوعة السلاح من الساحل شرقاً إلى أسفل الجبال في الغرب. ومن أبراج المراقبة الخشبية في كون تيان يمكن لمراقبي المدفعية والطيران أن يشاهدوا وحدات الجيش الفيتنامي الشمالي تتجه نحو الجنوب، كانت مهمتنا أن نمنع الوحدات القتالية ووحدات الإمداد من عبور خط العرض ١٧ إلى فيتنام الجنوبية.

كانت تلك منطقة مشاة البحرية وتعرف بساحة «لذرنيك» وهو اسم شعبي قديم يستعمله مشاة البحرية (في العصور القديمة كان عناصر البحرية يرتدون درعاً من الجلد تقيهم من سيوف الأعداء). لقد قتل العديد من مشاة البحرية وجرحوا في العمليات اليومية في المنطقة المحيطة بكون تيان أكثر من أي منطقة أخرى في فيتنام. لقد سمّاها الضباط ساحة «لذرنيك» بينما سمّاها العناصر «آلة فرم اللحم».

في هذا الوقت أدركت أن هناك فعلاً حربين في فيتنام. نحن الذين نقاتل على الحدود الشمالية لفيتنام الجنوبية كنا جزءاً من تجربة مختلفة عن معظم الوحدات الأميركية التي كانت تتمركز في الجنوب. كانت حربنا باتجاه الأمام: فإذا نصبنا كميناً وأطبقنا على العدو كان علينا أن نتأكد أنه كان فعلاً عدواً، لم يكن علينا أن نتعامل مع المشكلة الصعبة للمدنيين ولا مع عناصر الفيت كونغ الذين يهربون إلى الأرياف ويختفون. كنا نقاتل ضد الجيش النظامي لفيتنام الشمالية، وهي وحدات منظمة تتمتع بدعم خلفي، وعندما نكون في تماس مع هؤلاء نكون فعلاً في تماس حقيقي. كانت ساحة «لذرنيك» خالية من غير

المقاتلين، ما عدا الحطّابين وأفراد القبائل الجبلية*.

يمكن أن يكون هذا سبباً في عدم وجود أي مشاكل أخلاقية في ساحة لذرنيك. لم أسمع أحد يتعاطى المخدرات. أنا لا أقول إن ذلك لم يحدث وخصوصاً في المناطق الخلفية، ولكني متأكد أنني لم أر ذلك في الميدان بين هؤلاء الذين أعيش معهم. والشيء الآخر الذي لم أره كان إقدام الجنود على قتل ضباطهم، لم أسمع بذلك إلا عندما عدت إلى الولايات المتحدة. فالحرب في الشمال وفي منطقة المجموعة التكتيكية خاضها رجال مشاة البحرية الذين كانوا يفتخرون بتواضعهم. لقد تدربنا على أعمالنا بسرعة وبأقل خسارة ممكنة في الأرواح، فإذا أرسل الجيش تسع طائرات هليكوبتر كنا ننفّذ العملية نفسها بثلاث طائرات لأن عددنا كان قليلاً، وكنا نعتمد على المساندة النارية من الجو ومن المدفعية ومن سفن البحرية على الساحل.

كنا مجموعة فخورة تضم الكثير من المتبجحين. لم يكن من غير الشائع أن نرى أحداً وقد كتب على سترته: «نعم أنا أمشي على وادي ظلال الموت، أنا لا أخشى أي شر لأنني الأحقر في الوادي». لا يستطيع أحد أن ينتقدنا لأننا لم نتردد أبداً في السخرية والمزاح مع عناصرنا، كانت هناك رباطة جأش وزهو في حال تأخر الإمداد، أو عندما نفشل في تحقيق ما كنا نخطط له.

إن القتال من شأنه أن يثير روح الرفاقية في رجال الوحدة وفي فصيلتي أيضاً دون شك. بعد أن توليت الإمرة بوقت قصير، سمعت أحد آمري الحضائر يقول لرجاله إنّ الأزرق يريد كميناً ليلياً في مكان محدد. ودون أن أسأل آمر الحضيرة أمام رجاله، سألت جيم ليزت عامل اللاسلكي: من هو الأزرق؟

أجاب بتلبّك: إنه أنت يا سيدي.

سألت: ولماذا الأزرق؟

لأن ذلك هو الرمز على جهاز الراديو، فالأزرق هو الشمال، والرمادي الجنوب، والفضة الشرق، والذهب الغرب. وبما أن اسمي نورث (أي الشمال) فقد لقبت بالأزرق.

---

* معظم سكان الجبال في المناطق الشمالية هم قبيلة بدائية من شعوب الجبال. لقد عمل بعضهم كمرتزقة مع الفرنسيين، والعديد منهم كان يساعدنا خصوصاً في مجال الاستخبارات، لقد أحب هؤلاء أن يخرجوا معنا في الدوريات، وبعد كمين ناجح حضروا الاحتفال (النصر) حيث عرض رئيس القبيلة دماغ قرد قتل حديثاً. لم أشأ أن أحقّر المضيفين ولكني طلبت منهم وقف ذلك.

لقد ذاع اللقب وخلال بضعة أسابيع صار عناصر الفصيلة يسمون أنفسهم «أوغاد الأزرق».

عندما لا نكون في وضع قتالي حقيقي كنا نتحرك دائماً حاملين حقائب كثيرة على ظهورنا. وقد بنينا هذه العضلات القوية من جرّاء الحمل لمسافات طويلة. بعد أيام طويلة من الحمل يصعب عليك أن تحرك ساعديك وكتفيك، وعندما كان المطر ينهمر يصبح الحمل أثقل. حتى في الأيام التي لا تطلق فيها رصاصة واحدة كنّا نذهب إلى الجحيم، نتسلق التلال أو نتمايل في الحقول المليئة بالأعشاب الطويلة التي تلامس ذراعيك وركبتيك، بينما نحمل ٨٠ رطلاً من المعدات على ظهورنا. من المفترض أن تكون حمولة المشاة خفيفة وهذا ما كان يبدو لي مزحة ثقيلة.

بالإضافة إلى احتذاء «البوط» واعتمار خوذة فولاذية ثقيلة وسترة واقية، كان على كل رجل أن يحمل حزاماً مليئاً بالذخيرة وحقيبة ظهر فيها أكثر من عشر أدوات من ضمنها عدة الحفر: رفش أو معول لحفر مركز ومفتاح علب وسكين جيب لقطع الخيوط وإزالة الشظايا وتقطيع ما كانت تحتوي العلبة ممّا يسمونه لحماً! كانت وسيلة أكيدة للضحك أن تطلب من رفيق جديد أن يقرأ بصوت عالٍ لائحة المحتويات لإحدى هذه العلب.

كنا نحمل أيضاً فرشة هوائية، وحبوباً لتنقية المياه، وحبوباً ضد الملاريا، ومصابيح، وحبوباً حرارية تشعل لتسخين الطعام، ودواء طارداً للبرغش كان برائحة الموت ولكنه يحرق الجلد وفعال، وكذلك حبوب الملح لأننا كنا نعرق كثيراً. وإبرة وخيطاً لأننا كنا نمزق ثيابنا غالباً، وعلبة إسعاف أولي ومعطفاً واقياً من المطر، لأن الليالي كانت باردة حتى في الصيف، و١٥ مخزناً للبندقية «م١٦» مليئة بالطلقات، وست رمانات يدوية ومقلاة وأربع علب لأدوات المائدة، ونصف دزينة من حصص الطعام الفردية، وقذيفة هاون، ونصف حقيبة متفجرات من نوع البلاستيك.

كان الجميع يحمل رسائل من الوطن، ومعظم الرجال كانوا يصطحبون الكتاب المقدس بحجم الجيب مقدماً من القسيس بدنغفيلد. كان دان دون أطول رجل في الفصيلة والتي يبلغ عدد أفرادها ٤٣ شخصاً، يحمل منجلاً كبيراً ثقيلاً ولكنّه كان قوياً لدرجة أنه كان يعلّقه ويحمله معه إلى الغابات.

كان كل واحد يحمل أغراضه الشخصية: سجائر، دفاتر، ضفيرة من شعر الصديقة، صور، جوارب إضافية، كعك صنع أميركي. لقد كنت أحمل صوراً لبتسي ولوالدي وشقيقتي وإخوتي. لقد وضعت قلادة القديس فرنسيس التي أعطتني إياها جدتي كلانسي، وصليباً من والدي وساعة هاملتون التي حملها في الحرب العالمية الثانية.

استخدمت الساعة طيلة وجودي في فيتنام إلى أن تعرضت الزجاجة للكسر من جراء انفجار قذيفة هاون بالقرب من حفرتي، وذلك قبيل انتهاء خدمتي هناك. كما كنت أحمل ضوءاً لأشير إلى طائرات الهليكوبتر والغارات الجوية في الليل.

كان جيم لينرت وسميتي والآخرون من عمّال اللاسلكي يحمل كل منهم جهاز ٢٥ مع ثلاث أو أربع بطاريات إضافية، كل واحدة بحجم ووزن قرميدة. كان الممرّض يحمل حقيبة تمريض تدعى «الوحدة الأولى» تحتوي على مورفين ومحلول السالين لمعالجة الصدمات وحبوب ضد الملاريا وشرائط وحبوب مضادة للحيويات وأنبوب تنفس ولفّة من الشاش المطهر وإبرة طويلة. أما رماة الرشاش مثل راندي هيرود وإيرني توتن فكانوا يحملون الحمل الأساسي بالإضافة إلى رشاش «م٦٠» وذخيرته. أما رماة الرمانات من نوع «م٧٩» مثل إيف ويبل فقد كانوا يحملون ١٨ رطلاً من الذخيرة الإضافية في أعلى الحقيبة.

لا يوجد أي جندي سمين من مشاة البحرية، ليس بسبب هذه التمارين، بل لأننا لم نكن نأكل كثيراً. كنا نأكل مرتين في اليوم بشكل عام، لأنك إذا توقفت لتناول طعام الغداء فإنك لن تدرك العشاء. يمكن لأحدنا أن يقسّم وجباته على فترات الاستراحة شرط أن يبقى رفيقه شاهراً سلاحه. ويندل توماس وهو جندي مشاة نموذجي نقص وزنه ١٨ رطلاً خلال أسابيع، أما أنا فقد تراجع وزني إلى حوالى ١٤٠ رطلاً.

كان هناك أربعة أشياء نحملها دائماً: السلاح والذخيرة والرمّانات والصلصة الحرة. يمكن لرجل مشاة البحرية المجرّب أن يأخذ بضع علب من الأغذية الناشفة ويحولها إلى شيء ما صالح للأكل. كان الطعام مهمّاً جداً في فيتنام، وعندما كان الوقت يسمح كان البعض يمضي ٢٠ أو ٣٠ دقيقة وهو يحضر الوجبة. لقد أصبح هذا الوقت مثيراً للذة، يمكنك أن تأخذ بصلة من العلبة، وتهرسها جيداً بالسكين وتصب السائل في علبة اللحم وتضيف إليها الجبن والصلصة الحرة والبهار الأسود. وهاك تذوّق واحكم!

كان الحبش طعامي المحبب، وكان ذلك أحد بضعة أصناف تستطيع أن تأكلها باردة أو ساخنة. كانت فكرتي عن السماء والرحمة في فيتنام هي علبة حبش وزجاجة بيرة ساخنة (البيرة الباردة لم تكن واردة)، والأغلب أن تنتهي إلى طعام من لحم الخنزير والفاصوليا والذي يتطلب التسخين، وعلى العموم فإن الطعام لم يكن من النوعية الممتازة.

خلال بضعة أسابيع أصبحنا نحن الضباط الثلاثة في السرية ـ ريش أونيل وبيل هاسكل وأنا ـ أصدقاء حميمين. ومنذ وقت طويل أصبحت علاقتنا غير رسمية، ومن أسباب ذلك أن مركز إعادة التموين الذي كنا تابعين له كان مخيفاً. كنت أحمل بندقية سويدية بعد أن دهست دبابة على البندقية التي استلمتها. لقد أسرعت باستلام معدات

البحرية، وكان بعض الرفاق يرتدون سراويل البحرية. وبحلول كانون الثاني/ يناير كان لَدَي شاربان عريضان!

* * *

كان ذلك بعد ظهر أحد الأيام عندما كنت في جولة دورية. اتصل بي هاسكل على الراديو وقال: «يا أزرق من الأفضل أن تعود أدراجك فوراً».

عندما عدنا إلى المعسكر رأيت ضابطاً لم أكن قد شاهدته من قبل يخاطب بقية رجالي. كان حسن المظهر قويّ البنية أشقر الشعر، ولم يبد أنه من سكان المعسكرات. عندما تقدمت نحوه قليلاً لاحظت أنه برتبة نقيب، كان يمشي ذهاباً وإياباً ويلقي بعض المواعظ. وصلت قربه وحييته: نقيب، أنا الملازم نورث. أدار وجهه ببطء كما يحصل في الأفلام السينمائية، ثم حدّق بي وقال:

ــ من المحتمل أن لا تكون قد لاحظت ذلك، إنما أنا أكلم رجالي يا ملازم.

أجبته: «أنا أعتقد أنهم رجالي أيضاً».

قال لي: «تعال أيها الملازم. تمشّينا حول الطابور ثم نظر إليّ وقال: «اسمي غودوين وأنا آمر السرية الجديد. لديك ١٥ دقيقة لتقص شعرك وتستحم وتحلق ذقنك ثم ترافقني إلى مقري».

ــ أن أحلق ذقني؟

ــ والشاربين أيضاً يا ملازم.

في البدء أشمأززت أنا وأونيل وهاسكل من هذا الكلام الفظّ الذي وقع علينا، ولكن عندما رأينا غودوين يعمل غيّرنا رأينا بسرعة. فخلال يوم أو يومين وصلت الإمدادات التي كنا طلبناها منذ أسابيع: ألبسة جديدة، ذخائر، رمانات، أحذية، معدات الإسعاف الأولي. كان غودوين بالنسبة إلينا رجلاً يعرف ما لديه.

«أن تعرف ما عندك» هو أفضل إطراء توجهه إلى أي رفيق في الميدان. أنا لم أتكلم عن قدراته القتالية، ولكني تحدثت عن مهاراته اللوجستية والتقنية. يستطيع العديد من الرجال أن يقاتلوا، لكن غودوين وحده يستطيع أن يرتّب أمر التموين عندما نحتاج إليه، ويطلب مساندة جوية في الوقت المناسب، أو يطلب إسعافاً سريعاً لأحد الجرحى. لقد تعلّمت الكثير منه خصوصاً الانتباه المركز على التفاصيل. كيف تزرع حقل الألغام، كيف تحافظ على نظام عمل اللاسلكي، كيف تستخدم كل وقت احتياطي للتدريب. لقد أظهرتنا حرب فيتنام على أننا مؤهلون، ولكن الوحدات التي تعمل في الشمال حققت أهدافها بشكل جيد. مع غودوين أنت لا تجلس منتظراً الأمر التالي.

من ذكرياتي مع غودوين: كنّا في دورية روتينية نشق طريقنا ببطء نحو طريق جبلي. استراحت الفصيلة للحظة، ووقفت هناك أنزع الأوراق عن الأشجار، وأفكر بعمق حول الرسالة التي تلقيتها من بتسي. لقد أكد الطبيب أنها حامل.

منذ ذلك الوقت صرت أنا وغودوين صديقين حميمين. حضر إلي وقال: كيف تجري الأمور؟

ـ جيّدة.

ـ ما الجديد في الوطن؟

ـ الكثير، ثم تنهّدت دون أن أنظر عالياً وقلت: إن بتسي تنتظر مولوداً.

وضع غودوين يده على كتفي وقال: يمكنك معرفة ذلك من أوراق الشجر. إذا كنت أبدو أني أركّز على الجانب المضيء من تجربتي في الحرب فذلك لأن معظم ما قمنا به في فيتنام كان تمريناً على الإحباط. يمكن أن تحتل تلة وتتابع التقدم، وبعد ثلاثة أيام تقاتل مرة أخرى من أجل احتلالها، لأنه لم يكن هناك العدد الكافي للتمركز فيها. لم يكن الأمر كما كان في الحرب العالمية الثانية، حيث كان لكل معركة بداية محددة ونهاية. كان لهذه الحرب مفهومها الخاص في التحرك والتقدم: يبدأ عندما تهبط طائرتك في دانانغ وتنتهي عندما تغادر تلك البلاد، ويفضل أن لا تكون داخل تابوت.

كنا ناقمين على رجال السياسة في واشنطن الذين وضعوا هذه القواعد وجعلونا نجازف بحياتنا وهم يعرقلون مهماتنا الآن. كان أكبر إحباط أصبنا به هو المنطقة المنزوعة السلاح حول كل جانب من جانبي نهر بن هاي، والذي كان خط الحدود بين فيتنام الجنوبية وفيتنام الشمالية. على الرغم من اسمها فقد كانت أقل منطقة خالية من السلاح في كل فيتنام، وبما أنّها كانت تعجّ بجنود جيش فيتنام الشمالية فقد سمح لنا بأن نفتح النار عليهم في حال تعرضنا لإطلاق النار، وكان يسمح لنا أحياناً بمطاردة العدو إلى الداخل، ولكن ذلك كان من الصعوبة بمكان.

بعد أن وصلت إلى تلك البلاد بفترة قصيرة أصبح غودوين آمر السرية ونقلت وحداتنا إلى جنوبي أن هوا وهي قاعدة لمشاة البحرية قرب دانانغ. هنا كانت مهمتنا أن نقطع طريق إمداد العدو وهذه المرة في الجبال المحاذية للحدود اللاوسية. كانت القصة نفسها للمنطقة المنزوعة السلاح، كل ما كان على العدو أن يقوم به هو أن يتراجع عبر الحدود ولم يسمح لنا بمطاردته!

كانت هذه العملية التي تسمى تايلور تجري على أطراف طريق هوشي منه، التي لم

تكن وعلى الرغم من هذا الاسم أكثر من طريق عادية. كانت في الواقع شبكة من الطرقات وممرات للدراجات وطرق للمشاة وحتى أوتوسترادات. وعلى الرغم من الهجمات المستمرة بالقنابل لم نستطع أن ندمر إلّا قسماً صغيراً منها. وبغض النظر عن الأضرار التي سببتها طائراتنا، فقد تابع معظم الرجال والأسلحة والإمدادات التحرك نحو الجنوب. لقد استخدم العدو الرادارات السوفياتية الصنع بمهارة، وكذلك المدفعية المضادة للطائرات، ولتجنبها كان على طائراتنا أن تطير إما على ارتفاع عالٍ جداً أو على ارتفاع منخفض، وبسرعة كبيرة، وهذا ما جعل القصف أقل دقة وتركيز.

بدا الأمر بسيطاً، إذا أسقطنا كمية كافية من القنابل على طريق هوشي منه لن يستطيع جيش فيتنام الشمالية الاستمرار في الحرب. ولكن هناك شيء واحد لم يفهمه المواطنون الأميركيون، هو أن الفيتناميين الشماليين، مع الدعم الذي تلقوه من الكتلة السوفياتية، كان لديهم قوى دعم فاعلة تعد حوالى ٣٠٠ ألف رجل وامرأة، مهمتها إصلاح خط سكة الحديد والطرقات والجسور التي كانت تدمّر، فإذا دمرت طريق فإنهم يعيدون بناءها خلال ساعات، وإذا قصفنا خمس شاحنات خلال الليل، فإنهم يرفعونها إلى خارج الطريق بحيث تستطيع خمسون شاحنة أخرى متابعة طريقها.

في بعض الأحيان كنّا نسمع أصوات شاحنات جيش فيتنام الشمالية في الليل، ولكن كان من المستحيل علينا أن نوقفها، حتى إن قنبلة من عيار ٥٠٠ رطل أو من عيار ١٠٠٠ رطل والتي كانت تسقط على طريق هوشي منه كانت تحدث حفرة أكبر قليلاً من حجم السرير المزدوج، إنها تقطع بضع أشجار وتطيّر أوراقها، ثم بعد عشر دقائق يحضر حوالى ١٥ شخصاً مع رفوشهم ويردمون الحفرة وتتابع الشاحنات سيرها.

خلال عملية تايلور، كان كل هجوم يبدأ بقصف من قاذفات «ب٥٢» على المنطقة التي كنا نتحرك إليها، بعدها يتحرك فريق استطلاع ليتأكد من أن لا أحد يتمركز على التلة التي نستهدفها، ثم يترجل عناصر الوحدة التي تكون في الهليكوبتر ويبلغ عددهم ٧٠، ويحملون حقائبهم على ظهورهم والتي يبلغ وزن كل منها ٦٥ رطلاً.

كان أمامنا يومان من أجل تحضير منطقة الإنزال للوحدات التي تلينا. كنا نبدأ بمنشار ومطرقة، وحالما تجهز ساحة للهبوط نتصل بطائرات هليكوبتر س ـ ٥٣ التي تحمل بلدوزراً صغيراً. لقد جعلنا قمة التلة مستوية، وحفرنا على جوانبها مراكز للمدفعية وخنادق اتصال، كان عملاً صعباً وسريعاً، لأن هناك وحدة قادمة إلينا، وكانت تتكل علينا في الانتهاء من العمل قبل وصولها. وحالما ننتهي من أعمالنا تحضر طائرات هليكوبتر وتنقلنا إلى تلة أخرى للقيام بالعمل نفسه مرة أخرى من الناحية الغربية، وعندما نغادر

المكان نترك وراءنا إشارات كتب عليها: الآن وأنت هنا، هذه هي المؤخرة.

في البدء لم نلاحظ أي وجود للعدو، بعدئذ بدأت الأمطار تسبب ضباباً كثيفاً مثل السحاب، وكان علينا أن نعمل دون مساندة جوية أو دعم من طائرات الهليكوبتر، وهذا يعني أننا سنعاني نقصاً في الطعام والذخيرة والإمدادات الطبية. في إحدى المرات كان الوضع سيئاً بحيث أمضينا خمسة أيام ولم يكن بحوزتنا إلا بعض ألواح الشوكولاته والكعك. في اليوم الخامس نصب أحد الرجال «بيل هاسكل» كميناً واصطاد خنزيراً برياً، وعلى الرغم من الرياح الشديدة أشعلنا ناراً وطبخناه بينما كان المطر يتساقط رذاذاً، ولكن بينما كان اللحم يحل مشكلة الجوع، فإن الرائحة والدخان كشفا مراكزنا للعدو، ولم يكن هذا فقط. فقد أصيب بعض الرجال ومن ضمنهم هاسكل بالتريشينواز وتم نقلهم فيما بعد.

كنا بحاجة تقريباً إلى كلِّ شيء، ومن ضمن ذلك إلى ثياب جديدة، فقد تمزّقت ثيابنا عند الركبة والكوع، وكانت أحذيتنا بحاجة إلى شريط طبي لرتقها. ومرت بضعة أيام دون أن تسقط لنا الطائرات أيّاً من متطلباتنا. عندها نشأ وضع ينذر بالسوء وأحبطت معنوياتنا جميعاً. جون رابوانو، قائدنا في ذلك الوقت، بذل جهداً كبيراً، ولكنه لم يستطع لا هو ولا أي شخص آخر أن ينتقل في ذلك الطقس الممطر، كان التموين أمراً حيوياً بالنسبة إلينا، وفجأة بقينا وحدنا دون مساعدة.

في هذه الفترة العصيبة من عملية تايلور قتل جونسون. أنا لم أره في الحقيقة يصاب بإطلاق النار، لقد حدث ذلك في ظلام دامس ومربك عندما اشتبك مركز تنصت مع دورية لجيش فيتنام الشمالية في أعلى التلة، سمعت أزيز رصاص بندقية «م١٦»، ومن مكان أبعد قليلاً أزيز بندقية «الك٤٧»، كانت الأصوات أعلى من أصوات رشاشات «م٦٠»، وفي فترة إطلاق النار سمعت صراخاً مثل صراخ الحيوانات، لقد أصيب جونسون وتبع ذلك نداء لطلب الطبيب.

زحف الطبيب بضع دقائق نحو الأمام وقد خيّم صمت مرعب. لقد نزعوا سترة جونسون وثيابه، وكانت الطلقات قد أصابته في صدره وكتفه وكان ينزف. حاول الطبيب أن يوقف النزيف باستعمال المعطف الواقي من المطر، ثم استعمل الحركة الرابعة في الإسعافات الأولية المتعلقة بمعالجة الصدمة قبل أن يجري له معالجة أخرى، بعد برهة انسحب العدو نحو الغرب وترك الغابة تعجّ بأصوات الليل والظلام الدامس.

نقل جونسون إلى أقرب حفرة في المنطقة وهي حفرتي، كان الطبيب يعمل بجد على

إنقاذه، ثم أدار وجهه نحوي بإحباط كامل وقال: «يا ملازم، إذا لم تحضر فرقة الإخلاء الطبي سريعاً فإنه لن ينجو». عندما ذهبت إلى الراديو لأطلب النجدة بدأت تمطر مرة ثانية وكان مطراً غزيراً لأن السحب كانت منخفضة. اتصلت قيادة الكتيبة وقالت إن «العصفور سيحاول» مع أن الطقس لا يسمح، كان المطار موجوداً على بعد ٢٠ ميلاً نحو الشرق.

زحفت إلى حفرتي وأنا أدير ظهري إلى جهاز الراديو الذي كان على ظهر جيم لينرد. جلست ووضعت رأس جونسون بين يديّ. حاول الطيارون جهدهم لمدة نصف ساعة ولكن كان ذلك مستحيلاً. عندما اتصلوا على الراديو أبلغونا الأخبار السيئة، لعنتهم ولعنت المطر والسحب والعدو وكل شيء، وطلبت من الله أن ينقذ حياة جونسون.

مضت ساعة طويلة ثم مات جونسون في إحدى اللحظات. بدا وكأنه أفاق ونظر إليّ وارتعش لدقائق، غطيته بمعطفي لأدفئه، وضعت يدي على وجنته، وكنت أصفّر له لأشجّعه وأشجع نفسي وأقول له: «سنأخذك، وهذه تذكرة السفر إلى الوطن، والله لن يدعك تموت» لكنه مات.

عندما يموت رجل بين ذراعيك تشعر كأنك طفل صغير، إنّ الأطباء والقسيسين تعودوا على هذا الشعور، ولكني رأيت أنه من الصعب تخيل ذلك، عندما رأيت جونسون بمواجهتي دون تنفس ودون ضربات قلب ودون دموع ودون أي شيء يشعره بالحياة قمت بما لم يستطع القيام به: البكاء.

لقد مات على يديّ تحت المطر، كانت من أسوأ اللحظات في حياتي، كنت تقريباً مريضاً مع خوف وصدمة، ودون شك ممتناً إلى الله لأنه أنقذني.

لم يكن جونسون من فصيلتي، كان مركز التنصت الذي يتمركز فيه على خط نار رشاشاتنا. لقد التبس آمر السرية في الظلام الدامس ووضع مركز التنصت في مكان خاطىء. عندما سبر العدو مراكزنا كان جونسون على خط نار رشاشنا، كانت الرصاصات التي أصابت جونسون من صنع أميركي.. لقد أصيب بنيران الأصدقاء.

في بقية وقتي الذي أمضيته في فيتنام وفي مشاة البحرية، بقي الجندي جونسون في ذاكرتي، كنت أخبر الرتباء (وفيما بعد الضباط الأدنى مني رتبة): «إذا لم تكن مدركاً لما عليك القيام به إسأل فإن الحرب مربكة، وإذا ثابرت على إطلاعي عما تقوم به وأين تقوم بذلك وكيف يجري يمكننا إنجاز عملنا وتفادي الخسائر».

حملنا جثة جونسون في معطف مع بعض الجرحى الذين يجب نقلهم من هذا المكان، والذين نقلناهم في حمالات مصنوعة من جذوع الأشجار والمعاطف. كان من

المخيف أن تحمل الجريح - مخيف للجريح لأنه لا يتلقى المعالجة الصحيحة، ومخيف لبقية أفراد الوحدة لأنه يخفف من جهوزيتهم ويجعلهم أكثر تعرضاً لنيران العدو.

إن الشيء غير العادي في فيتنام هو سرعة تلقي الجريح المعالجة الطبية في معظم الأحيان. كان معظم رجال مشاة البحرية الذين أصيبوا يعالجون خلال دقائق، وتنفذ الحركة الرابعة من الإسعافات الأولية قبل وصول الهليكوبتر. كان أمراً عادياً أن يجد الجريح نفسه تحت عملية جراحية في أقل من نصف ساعة، ولأننا كنا جميعاً نعرف ذلك فقد ساعد هذا الأمر في رفع المعنويات. لقد قام الأطباء والممرضون بأعمال بطولية في فيتنام وأنقذوا العديد من الرجال الذين كانوا على شفير الموت أو الذين سيموتون في حروب أخرى*.

هذه الناحية كانت مثار إعجابي الشديد بجيش فيتنام الشمالية. فقد كان معظم مرضانا وجرحانا ينقلون خلال نصف ساعة أو ساعة، ولكن جنودهم كانوا ينتظرون أسابيع قبل تلقي العلاج الطبي، لقد بنوا داخل المنطقة المنزوعة السلاح نقاط استناد ودشماً ومراكز تحت الأرض محصنة بما فيها مستشفيات، لكنها لم تكن مجهزة من أجل العمليات الجراحية، وهي لم تكن وليدة مجتمع يتمتع بخدمات طبية متطورة.

ومع ذلك كانوا يقومون بكل شيء من أجل معالجة رجالهم. لا يمكنك إلا أن تعجب بشجاعتهم لأنهم كانوا يخوضون المعركة وهم مدركون أنه لا يمكنهم معالجة جرحاهم إلا خلال أسابيع، وأن العديد منهم سوف يموتون، حتى في أثناء الكمين وعنف النيران كان عناصر جيش فيتنام الشمالية يقومون بجهد عظيم من أجل سحب قتلاهم وجرحاهم من أرض المعركة.

عندما كنا نأسر الجرحى الأعداء كانوا يعالجون في المستشفى نفسه الذي نعالج فيه جرحانا. كان هناك بعض حالات الإساءة عندما يُسلّم سجناء فيتنام الشمالية إلى فيتنام الجنوبية، لكن تلك كانت استثناءات وليست قاعدة، كان الأسير يعطى حق الاختيار: إما البقاء في معسكر أسرى الحرب، أو أن ينضم إلينا ككشاف راصد. وقد قرر العديد منهم أن ينشقوا عن جيشهم وينضموا إلينا.

كان أحد الكشافين الفاعلين الماهرين عندنا يدعى فو، وهو عريف سابق في جيش

---

* بينما كنت أعمل في هذا الكتاب شاهدت ملاحم من سجلات الحرب الأهلية. لقد صعقت من عدد الجنود الذين ماتوا في الجانبين بسبب النقص في المعالجة الطبية. تقريباً كان كل من يصاب بأكثر من جرح سطحي خلال الحرب يسحب ويوضع في عربة ويترك حتى يموت.

فيتنام الشمالية. كان قد جرح وأسر قرب خي سان عام ١٩٦٧، لقد أمضى فو وقتاً طويلاً مع أفراد وحدتي وعلّمني الكثير عن عدونا. لم أكن أعرف مثلاً أن وحدات جيش فيتنام الشمالية عندما تعبر المنطقة المجردة من السلاح أو تعبر الحدود من لاوس، يُعلمها رؤساؤها بأنها دخلت فيتنام الجنوبية، وعلى حد علمها كانت فيتنام بلداً واحداً وأننا كنّا الغزاة.

عندما كنا نلقي القبض على أسير غالباً من كان فو يبدأ باستجوابه، وكنا نراقبه دائماً لأنه كان يميل إلى القساوة في استجوابه. كانت هناك أسئلة هامّة تطرح فوراً على الأسير: هل أنت وحدك؟ هل هناك مئتا عنصر أو أكثر في جيش فيتنام الشمالية على الجبال؟ هل هناك ألغام في المنطقة؟ هل هناك كمين بانتظارنا؟

لم أشهد أي معاملة قاسية للأسرى مع أنني متأكد أنها حصلت، ولكن ليس إلى حد كبير يجعل عناصر جيش فيتنام الشمالية يتخيّلون قصصاً مخيفة حول ما يحدث لهم إذا ما وقعوا في الأسر، وهذا ما كان يدفعهم إلى التعاون مباشرة.

عندما شارفت عملية تايلور على نهايتها، كنا نتلقى الأوامر لتنفيذ عمليات لدفع وحدات العدو التي كانت تتحرك إلى ساحة لذرنيك. بدأنا سلسلة أعمال استطلاع ودوريات قتالية لمراقبة العدو وقطع طرق التسلل عليه. كنا نذهب للبحث عن المشاكل وفي غالب الأحيان كنا نجدها بانتظارنا.

في إحدى الدوريات غادرت فصيلتي كون تيان مع دبابتين وأربع ناقلات جند «م١١١» أعارها لنا الجيش، وبعد ٥كلم، تعطلت عجلة إحدى الدبابات، لذلك تركت ناقلتي جند وبعض الجنود لحراستها، وتابعت بالدبابة الثانية وناقلتي الجند باتجاه الشرق. وبعد الظهر تلقينا أمراً بالعودة لأن هناك تحركات قوية للعدو، وكان الطقس يزداد سوءاً، عدنا أدراجنا مباشرة، كانت الدبابة في المقدمة وكنت أنا على ظهرها وكان وراءنا ناقلتا الجند وبقية العناصر.

فجأة ظهر جندي من جيش فيتنام الشمالية وبدأ يطلق النار على دبابتنا من بندقية ال ٤٧، لم يستطع الرجال الذين كانوا على ناقلتي الجند الرماية عليه، لأن ذلك يجعلنا في مرمى أسلحتهم. شهرت سلاحي وبدأت أطلق النار، عندها بدأ عشرات من الجنود الأعداء إطلاق النار بالأسلحة الخفيفة والصواريخ وأصابوا دبابتنا وناقلتي الجند أيضاً. لا أعتقد أنهم كانوا ينوون نصب الكمين هنا، ولكن عندما بدأ ذلك العنصر بإطلاق النار اشتركوا جميعاً معه، بعدها انفجر لغم في إحدى ناقلتي الجند وتوقفت.

من على ظهر الدبابة أمرت رجالي بإعداد دفاع دائري في الأجمة حول الآليات

المدرعة الثلاث. وبينما وقفت هناك أوجه العناصر وأحاول الاتصال بالراديو طالباً النجـدة، أصيبت مقدمة الدبابة بقذيفة آر بي جي. بسرعة قفز الرجلان اللذان كانا معي على الدبابة، كنت أعبىء ذخيرة في المخزن عندما دار البرج وقذفني إلى الجو مثل طابة البسبـول. وقعت في الغابة وما زالت سماعة جهاز الـراديو في يـدي وأصبت بأذى، ولسـوء الحظ كانت بقيـة أجزاء الراديو ما تزال على الدبابة.

كان الألم شديداً، لقد كُسِرت أربع أضلاع وامتـلأت رئتي اليسرى بالـدم. والشيء الآخر الذي عرفته هو أن الدكتـور كونكلين كـان معي يحاول أن ينـزع سترتي ليبحث عن مدخل الرصاصة، حاولت النهوض ولكن الطبيب دفعني إلى الأسفـل، وفي كل مـرة كنت أحاول الكلام كنت أرى الدم في فمي.

ظن الطبيب أنني أصبت بالشظايا، ولكنه لم يدرك أنني لم أصب ولم أستطع أن أقول له ذلك. وإلى جانب هذا كنا في خطر أن يسيطر علينا الشماليون الذين كانوا يطلقون النار بغـزارة. كان علـيّ أن أعود إلى الـدبابـة لأستعمل الـراديو، وتمكنت أخيـراً من استعـمالـه وطلبت مساندة مدفعية وجوية.

شكّلنا خطّ نار قويّاً واخترقنا الكمين، وبعد حوالى ٤٠ دقيقة انسحب العدو، لكننا أصبنـا بخسائـر فادحـة، قتل رجـلان وجرح اثنـا عشر من أصل ١٥. لكن في مثـل هذه الظروف كان أداء العناصر ممتازاً. كنا قد أجرينا تمارين حول ما يجب أن نفعله إذا تعرضنا لكمين، وقد تصرف العناصر كما لو أنهم كانوا يتدربـون بالفعـل. الشيء الوحيـد الذي لم نتدرب عليه هو: ماذا نفعل عندما يصبح الملازم عاجزاً من شدة الإصابة.

لقـد خسرت كمية كبـيرة من الدم، وكنت أتنقـل بين حـالـة الـوعي والغيـاب عن الـوعي. كان كـونكلين قلقاً إلى أن حضرت هليكـوبـتر للجيش ونقلتني. في هـذا الـوقت قلقت بشأن عناصري، لم أكن أحاول أن أصبح بطلاً، ولكن كانت هناك خسائـر أخرى، ولم أدرك تماماً جسامة إصابتي.

نقلت جوّاً إلى مركز طبي في دونغ هاو ومنه فـوراً إلى مركـز الفرز وهـو ساحـة كبيرة مسقـوفة، حيث كـان الأطباء والممـرضون يتخـذون قرارات الحيـاة والموت عنـدمـا ينـزل المصابون من الهليكوبتر. وبينما كنت ملقى على النقالة كنت أسمع الأطباء يقولون: «خذوا هذا الرفيق إلى غرفة الجراحة، أعطوا ذلك مورفيناً ولا تزعجوه». فجأة رأيت وجهاً مألوفـاً هو الأب جاك لابون الذي كان قسيساً لنا في أنابوليس، والذي اعتـاد على زيـارتي بعدمـا تعرضت لحادث السيارة.

أصبح الآن قسيساً للواء الثالث في مشاة البحرية.

قال لي: «إصغ أريد منك أن تبدو مرحاً». وتناول محرمة ومسح الدم عن وجهي. عندما حضر الطبيب لرؤيتي صرخ لابون: «يبدو جيّداً يا دكتور، ولكني أظن أنه يجب أن يفحص فوراً».

ـ «حسناً أدخلوه».

اعتاد لابون على ممازحتي فيما بعد، وقال إنه أنقذني من خطر أن أترك هناك حتى أتعفّن!

وبدلاً من إجراء عملية أدخل الأطباء إبرة بين رئتي والقفص الصدري، ثم علقوها بمضخة إلى أن بدأت الرئة تعمل، عندها ربطوني وأعطوني بعض الحبوب والأدوية لبضعة أيام.

هكذا رأيت نفسي في جناح مستشفى مستلقياً على السرير حيث الشراشف الحقيقية النظيفة. شراشف! مخدات! كان هناك مكيف هواء أيضاً. كانت هذه مستشفى ميدان قابلة للتوسع، وكانت تلك فكرة عظيمة إلا إذا توقف المولد عن العمل، وتداعى السقف عليك مثل البالون الذي يثقب. لقد نمت بشكل جيد في المستشفى، وأخذت حمامات ماء ساخن وتناولت طعاماً حقيقياً. يمكنك أن تشفى بسرعة إذا كنت شاباً وتواقاً إلى ذلك.

عدت إلى فصيلتي خلال أيام قليلة. عادة كانوا يرسلون الجرحى إلى الخطوط الخلفية، ولكن وحدتي كانت في المنطقة الأمنية على الحدود في كون تيان، ولم تكن عملية الانتقال منها شاقة أبداً.

«مُنح «لي شافي» الذي قتل في العملية وسام النجمة البرونزية بعد الوفاة، وذلك لأنه احتل مركز الرشاش على ناقلة الجند بعدما كان مصاباً، وأعطي الدكتور كونكلين وساماً لإنقاذه حياة العديد من العناصر، ومُنح بيت ريخ آمر فصيلة الدبابات وسام النجمة البرونزية، وكذلك أنا.

بعد وفاة شافي كان العديد من الرجال محبطين. كان لي محترماً وآمر حضيرة ممتازاً وشعرنا جميعاً بخسارته. بعد أيام قليلة من مقتله كان أحد الرجال يجلس هناك ويحدق نحو السماء، بينما كان اثنان يستلقيان على الأرض وحقيبتاهما مقابل الصناديق يتحدثان بنعومة ويلعبان بالحصى.

مشيت باتجاههم وقلت لهم: هل هناك من شيء؟ مع أني أعرف ما هناك.

ـ شافي، لا يوجد سبب آخر؟

كـان هؤلاء في حضيرتـه، لقد كـانوا يسـألون دائـماً: لماذا هـو بـالـذات؟ أرادوا أن يعرفوا؟ لماذا لم يكن غيره؟ لماذا لم يكن أي أحد آخر؟

قلت: «إنه في المكان الأفضل الآن».

كانت أسوأ معركة هي في الليلة التي قتـل فيها النقيب مـايك وينش. كـان ذلك في تموز/ يوليه وكنا في دورية مؤلّلة غربي كون تيان. كان الهواء بـارداً في الليل عنـدما أرسـل النقيب غـودوين الفصيلة الأولى لنصب كمين عـلى الـطريق المؤديـة إلى قمـة التلة. ذهبت الفصيلة الثالثة باتجاه الشمال، بينما كـانت مهمة فصيلتي إنشـاء دفاع دائـري حول دبـابات النقيب وينش.

بعد الساعة ٢,٣٠ فجراً أيقـظني أحد رجـالي وأفادني أن أحـد مراكـز التنصت أفاد عن تحركات. صعدت على الدبابة أنا ومـايك وينش ونـظرنا من خـلال منظار ليـلي ورأينا ستة عناصر من جيش فيتنام الشمالية يصعدون إلى الجانب الشمالي. هؤلاء الـذين استطعنـا أن نشاهدهم كانوا على بعد ٥ ياردات، وكان الآخرون دون شك عـلى مقربـة منهم، كان عليّ أن أنذر رجالي فوراً قبل أن يشنّ العدو هجومه.

لم أحـصل على الفـرصة، فـما إن ابتعدت قليـلاً عن مـايـك حتى أصـابت قـذيفـة آر. بي. جي برج الدبابة وانفجـرت. قتل مـايك عـلى الفور وقـذفني الانفجار بعيـداً عن الدبابة،ولو أني تأخرّت ثانية لكنت قد هلكت.

وكما حصل في الحادث السابق قذفني الانفجار ورماني حوالى ١٠ أقدام ومزّق سترتي وأصيبت قدماي بشظايا وكذلك رقبتي، وحتى أذني أصيبت بثقوب قليلة.

غبت عن الـوعي. وفي صباح اليـوم التالي علمت أن أحـداً مـا كـان يسحبني عـلى ظهري، إنه رانـدي هيرود آمـر رهط الرشـاش صعد من حفـرته وخـاطر بحيـاته وسحبني بأمان.

عـلى الـرغم من الانفجـارات التي كـانت تقـع حـولي، حيث كـانت السـماء تضيء بالطلقات الخطاطة الصفراء والليمـونية وأصـوات مدافـع الدبـابات والـرشاشـات من عيار ٥٠٠، بدا كل شيء حولي خافتاً. لقد ثقبت طبلة أذني والتي كانت قد شفيت من الإصابة الماضية. رماني هيرود إلى حفرته ووقف فوقي يرمي بالرشاش عندمـا مر عنـاصر من جيش فيتنام الشمالية خلف سد من نيران الهاون وقذائف آر. بي. جي. حاولت أن أدفعه بحيث أستطيع أن أصلح جهاز الراديو، والسبب الوحيد الذي مكنني من ذلك هو أن هيرود ترك الحفرة مرة ثانية ليبدل الرشاش «م٦٠» الذي أصيب بقذيفة.

كان الجو مليئاً بالدخان والنـار، وكانت اثنتـان من دبابـاتنا تحـترقان وكـانتا تضيئـان مراكزنا وكشف مراكز عناصر المشاة. وبوجود دبابتين معطلتين أصبحت الناحية الغربية من الدائرة معـرضة للخـطر والسبب الوحيـد الذي منـع من اختراقهـا هو صمـود هيرود عـلى الرشاش.

خـرجت من الحفرة وزحفت إلى خلف دبـابة القيـادة، كان جهـاز الـراديـو معـطّلاً ولـذلك هـرعت إلى الدبـابة الأخـرى ووصلت إلى هاتف المشـاة. أدار آمر الـدبابـة البرج وضبط نيرانه على جبهتنا وقضى على الموجة الأولى من هجوم عناصر جيش فيتنام الشمالية.

كان هناك هدوء مفاجىء بعدما أدى وابل الطلقات من مدفع الدبابة عمله، تـراجع العـدو في الحـال، وأعـاد تجميـع قـواتـه ثم أطلق رشقـة من نـيران الهـاون وقـذائف آر. بي. جي. انفجرت قذيفة بالقرب مني ورمتني في الهواء لمرة ثانية خلال نصف سـاعة، ترك هيرود حماية مركزه القتالي وسحبني بما تبقى من سترتي إلى مكان آمن.

تمَّ صدُّ الموجة الثانية من الهجوم بفضل نيران رشاش هيرود ونيران بقية الـدبابـات. زحفت مـرة ثانيـة ووجدت لينـرت وجهاز الـراديو صـالحاً لـلاستعمال، وبـدأت أحاول أن أضبط الدعم الجوي الـذي طلبه غـودوين للتو. ولأني لم أعـد أسمع شيئاً أوصل لينـرت التعليمات إلى الطائـرة ثم صرخ بي بينما كـان الطيـارون يمطرون قـذائف الموت من السـماء ليدمّروا الموجة الثالثة والأخيرة من الهجوم في تلك الليلة.

لقد انتهى كل ذلك قبيل الفجر. لقد حافظنا على خـطّنا بصعـوبة، كـانت الأشلاء مخيفة، تلقى عناصر الدبابات أكبر الخسائر، ولأنهم كانوا مقيّدين بدائرة محدّدة لم يستطيعوا المناورة. بالنسبة إلى العدو كانت الخسائر أسوأ، وعلى الرغم من إطباقهم العنيف فقد نجا منهم القليل، لقد ماتوا بالأكوام من تأثير نيران دباباتنا ورشاشاتنا، وقبل أن تشرق الشمس عـلى أرض المعركـة ذهب الناجـون ليموتـوا في مكان آخـر أو ليدفنـوا في قبور مجهـولـة أو ليحاربوا أياماً أخرى.

بعـد بزوغ أول ضـوء بقليل حضرت طـائرات الهليكـوبتر لتنقـل الجرحى والقتـلى. وضعنا بنادق القتلى من الجانبـين (ال ٤٧ وآر. بي. جي من الأعداء وم١٦ من جـانبنا)، ثم دفنّا الجنود الأعداء ووضعنا القذائف التالفة في الدبابات المعطلة وتركناها للصدأ...

طلبت وساماً لراندي هيرود وقد منح فيها بعد النجمة الفضيـة، ففي خلال الهجـوم أنقذ مركزنا بكامله وبدل أن يخفض رأسه في الحفرة بـدّل رشاش م٦٠ وأمضى بقيـة الليل يصدّ الهجمات المتتالية علينا.

كان هيرود طويل القامة من سكان أوكلاهوما وكان قائداً شجاعاً أنقذ حياتي مرتين في تلك الليلة، وأنا مدين له بذلك وآمل أن يكون لدي فرصة لردها قبل أن تنتهي الحرب.

لم تكن حرب فيتنام كلها اضطرابات ومذابح وصراخ من أجل النجدة، كانت هناك لحظات رائعة، وإحدى هذه اللحظات عندما كنا في شرقي بوندوك حين وصلت رسالة بالراديو: «تهانينا يا ملازم نورث، لقد أصبحت أباً لابنة وزنها ٧,٥ رطلاً». رتب غودوين أمر نقلي بطائرة هليكوبتر إلى المؤخرة كي أتصل ببتسي على الهاتف مارس*.

استغرق ذلك ساعات ولكني أخيراً حصلت على المكالمة. إنه لمن الغريب أن تتكلم مع زوجتك في هذا الوضع، لأنه مع كونك بعيداً عنها منذ أشهر فلم يكن هناك من خصوصيات. كان على عمال المقاسم أن يستمعوا، وأنا أراهن أن هؤلاء الرفاق قد استمعوا إلى أعمق المشاعر التي تم التعبير عنها بيننا.

كانت بتسي ما تزال في المستشفى، لأنه في تلك الأيام كان يسمح للوالدة أن تمكث بضع ساعات بعد الولادة. كانت المحادثة رسمية قليلاً، ليس بسبب عمال المقاسم فقط، بل بسبب أن علينا أن نقول «حوّل» عندما ننتهي من الكلام، ولهذا نعرف أن الإرسال قد توقف. في كل مرة كانت تقول فيها بتسي «حوّل» كانت تضحك كثيراً.

كانت أسعد أيامي في تلك الفترة، قبل نهاية خدمتي في فيتنام، خلال أسبوع إجازة مع بتسي في هاواي والذي كان أبعد مكان شرقاً يسمح للعسكريين بالسفر إليه. تركت بتسي ابنتنا الصغيرة عند شقيقتها، وكان لنا أكبر فاتورة تلفون في هونولولو، لأنها كانت تتصل كل يوم لتسأل عن تايت وهي العضو الجديد الذي انضمّ إلى عائلتنا والذي لم أره بعد. بكت بتسي ليلتين لأن ذلك كان أول انفصال لها عن تايت، لم أستطع في الحقيقة أن أتفهم دموعها، كانت بتسي أماً ولكني لم أكن أباً. في ذلك الوقت علمت ما الذي يعنيه الزوج، فلم يحصل أن أمضت بتسي من الوقت مع تايت أكثر مما أمضته معي.

وأعود إلى أسبوع الإجازة الرائع. أتذكر فيه جوز الهند والفطائر والحمامات والحليب والسباحة والخبز الحقيقي والخضار الطازجة والسلطة الحقيقية، المزيد من الحليب، والمزيد من الفواكه الطازجة والجوارب الجافة، والنوم في سرير حقيقي، جرائد، إذاعات، المزيد

* مارس هو مختصر لأربع كلمات: مؤسسة عسكرية لمحطات الراديو. وهي شبكة من عمال المحطات على أجهزة تعمل على الموجة القصيرة تبث الرسائل لمصلحة العسكريين.

من الحليب، حذاء بدلاً من البوط، لا ألبسة عسكرية، ثياب نظيفة، المزيد من الحليب، لا برغش، المزيد من الحليب.

أخبرني أحدهم فيما بعد أن الطقس في هاواي كان مخيفاً لكني لم ألحظ ذلك. لقد تمشينا على الشاطىء وتنزهنا بالسيارة وشاهدنا البركان، وكنا نتبادل الذكريات منذ وداعنا المليء بالدموع في سان دييغو إلى أن اجتمع شملنا في هذا الأسبوع. قرأت عدداً كبيراً من الرسائل من جميع أفراد عائلتي، ونظرت إلى الكثير من صور تايت. بدأت أخيراً أحس أنني صرت أباً. كنت قد تلقيت صوراً لتايت بالبريد، ولكن بتسي أحضرت معها المئات من الصور وقد أحيت هذه الصور بحديثها عنها. كذلك أحضرت صورة لبوب ايزنباخ الذي ما يزال يعالج من جراح الحرب، ويعتمر خوذة مماثلة للتي يعتمرها لاعبو كرة القدم وذلك لوقاية رأسه. كان يجلس في كرسي ذي مقعدين ويرتدي ثوب الحمام ويحمل ابنتي الصغيرة.

كان وقتاً رائعاً دون مكالمات هاتفية تطلب مني العودة، ولا خطط، ما عدا أن نبقى مع بعض نحاول أن نعوّض عمّا مضى في الأشهر القليلة الماضية. ولكن ما هذا اللقاء المليء بالدموع؟ كان شيئاً هاماً أن تذهب إلى الحرب وأنت لم تشهد القتال من قبل، أما أن تعود إليها بعدما شاهدت الرجال يموتون أمامك فقد كان ذلك صعباً.

عادة كانت جميع الاتصالات بين فيتنام والوطن تجري بوساطة البريد، ولذلك كنا نموت ونحيا من أجل رسائل أو طرود بريدية. كانت أعظم المناسبات في الميدان بالنسبة إلينا عندما تحضر مجموعات التموين حاملة معها ليس الطعام والذخيرة فقط بل تلك الحقائب الصفراء والحمراء. كان البريد صلة الوصل لنا مع الوطن وكنّا نعرف جميعاً قيمته.

اعتدت أن أقرأ كل رسالة خمس مرات على الأقل ولم يكن ذلك غير طبيعي. يمكنك أن تقرأ الرسالة مرة أخرى وفي جميع الأوقات، كنا نحاول أن نحصل على أي قطرة من المعلومات أو الأخبار، وحتى لو لم تكن الأخبار جيدة فإنّ البريد يعطيك على الأقل شيئاً ما تركز عليه غير الحذاء المبلّل. يمكن أن تكون الرسالة مليئة بالتفاصيل التافهة، ويمكن أن تعتذر منك زوجتك أو أمك أو أختك أو أخوك، لأنهم لم يجدوا شيئاً ممتعاً يقولونه لك، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا كم كان رائعاً تلقي الرسالة، أي رسالة، وأن تعرف أن أحداً ما في الوطن يفكر بك ويريدك أن ترجع سالماً.

كانت الرسائل حيوية لمعنويات العسكريين إلى درجة أنه إذا لم يكن أحد العناصر قد

تلقى رسائل بعد، كنّا نخبر القسيس عند إصابة أحد العناصر، فتذهب إلى سجل البريد ولن تفاجأ عندما تعود ومعك حقيبة مليئة بأربعين أو خمسين رسالة له.

كنا نرحّب كثيراً بالطرود البريدية. كانت بتسي ترسل إليّ ألواح الشوكولا، ولا أذكر أني كنت مولعاً بهذه الألواح قبل مجيئي إلى فيتنام، ولكني أحببتها منذ ذلك الوقت. أما الكعك الأميركي فقد كان جيّداً مع حلويات عيد الميلاد. كانت هذه الكعكات والحلويات تأتي في علبة واحدة، ولكن وبغض النظر عن حالتها كانت تختفي على الفور.

كان إرسال الرسائل مهماً مثل تلقيها، ليس لأننا كنّا بحاجة إلى تشجيع، لكنه كان شعوراً جيداً أن تكتب وتعرف أن رسالتك ستأخذ طريقها إلى محبيك. كنا نكتب الرسائل عادة بعد الظهر. كتبت رسائل عديدة وكان المعطف على رأسي، وذلك عندما كان ساعي البريد يحضر عند الصباح الباكر. معظم الأحيان تكون الورقة رطبة وعليك أن تكتب بهدوء كي لا تتمزق، وإذا لم يكن بحوزتك ورقة فيمكنك استعمال الجهة الخلفية للورقة الموجودة في علبة الطعام.

كانت رسائلنا إلى الوطن مليئة بالخطط لمرحلة ما بعد الحرب، وكانت طريقة نركّز فيها إلى أبعد من اهتماماتنا المباشرة مثل الطقس ووصول التموين في موعده، أو إذا ما كنا سنتعرض لكمين، أو ما إذا كنا سنبقى أحياء حتى يوم غد. كنت أكتب في غالب الأحيان إلى بتسي وإلى والدي، ومع ذلك لم أخبر بتسي عن جراحي المختلفة لأني لم أرد لها أن تقلق، وكانت تلك غلطة فادحة. كنا معتادين على أن نذكر الوطن بكلمة العالم مثل: «إنه يعود إلى العالم»، كنا كأننا نعيش على كوكب آخر وأفترض أننا كنا كذلك. كانت وحدتي في فيتنام خلال عام ١٩٦٩ عندما حصل إنزال أول إنسان على سطح القمر، وكنا بالتأكيد قد سمعنا الأخبار ولكني لم أهرع إلى التلفزيون لمشاهدة الصور إلّا بعد عشر سنوات خلال زيارة قمت بها إلى المتحف الفضائي في واشنطن.

كان شيئاً مضحكاً كل ما نتذكّره، أنا لا أصوّر نفسي مشتكياً أو خائفاً، ولكني كنت قد لاحظت مقدرتي القوية على تذكر الفترات الجيدة من الحياة وطمس الفترات المزعجة. ولكن في أثناء كتابة هذا الكتاب نظرت إلى بعض الرسائل التي أرسلتها إلى والدي من فيتنام عام ١٩٦٨ وعام ١٩٦٩ وبرزت أمامي هذه السطور:

- في الليلة الماضية انتظرت ست ساعات حتى يتوقف إطلاق النار. طبعاً كان ذلك رماية مدفعية معاكسة من عناصرنا. من كان الملازم الجديد ذو الوجه الأحمر؟
- أنا لا أعرف في الحقيقة كم يمكنني أن آخذ من أغراض جون واين. لقد قمت تقريباً بهذه الرحلة.

ـ قبل كل شيء أرغب لو أن سياسيينا يتخلون عن «مؤخراتهم» البدينة، ويحضرون إلى هنا من أجل أن يجدوا حلاً لهذه الورطة.

ـ لا تقلق لم أبدأ بعد بالكتابة.

ـ أكتب ذلك وأنا في كمين غربي كون تيان. من الغريب حقاً أن تجلس هنا في الغابة وتنتظر شارلي ليحضر بحيث يمكننا أن نقتله. وأنا أكتب لوالدي في فترة الانتظار.

ـ أرسلت إلى بتسي رسالة أشرح فيها العملية بأكملها. والشيء الوحيد الذي لم أذكره هو كم كان كل هذا الشيء مربكاً. لقد قتل اثنان منا وجرح خمسة ورفيقي الذي قتل كان إلى جانبي مباشرة، لم أصب بأي خدش.

ـ وفي الليلة الماضية قتل إثنان منا عندما خرجنا مع القوات الخاصة، إنه لشيء مؤلم، لأنهما كانا صبيين جيّدين، وكان هناك أشياء ملعونة أخرى يمكن القيام بها.

ـ صدّقني أنا أصلي كل يوم، ليس من أجل نفسي بل من أجل أن يعود هؤلاء العناصر من مشاة البحرية إلى وطنهم سالمين.

ـ لم نتلق أي رسائل منذ حوالى الأسبوعين، وأعتقد أنني أفهم كيف أنك وبتسي تشعران عندما تكون الرسائل متجهة في الاتجاه الآخر.

ـ أنا مسرور لأنني سأغادر. ليس بسبب الهروب من جحيم الحرب، ولكنه هروب من جحيم قضيّة هذه الحرب بصورة خاصة. هروب من عدم قرار محاربة عدو يسمح له بميناء آمن من قوة «عاصفتنا». هروب من نظرات الرجال الذين شاهدوا أصدقاء وأخوان يموتون لأنهم كانوا قد خذلوا جميعاً من التصرّفات السياسية ومن صانعي القرار الضعفاء. لكنها كانت حرباً ضخمة، وفي عودة إلى الماضي منذ مائتي سنة عندما خسرنا جميع المعارك وربحنا الحرب، فإننا هنا ربحنا جميع المعارك وخسرنا الحرب.

ـ ما هذا اللغط الآن. إنهم على بعد منتصف العالم. دعهم ينقذون أنفسهم. وعلى أي حال لقد أعطينا كلمتنا و٣٧ ألف حياة.

إن أكثر ما يخيف في القتال هو أن تكون تحت تأثير ما هو آت. عندما تُقصف بالأسلحة غير المباشرة: المدفعية والصواريخ والهواوين، فإنّ أول ما تسمعه هو صوت بعيد لشيء ما ينفجر داخل أسطوانة، وهذا يعني أنه من الأفضل أن تنبطح أرضاً بسرعة، ثم تسمع ششششش. . . بوم، إن الوقت ما بين أول صوت وش ش ش ش بوم تشعر أنه من أطول اللحظات في حياتك.

كل ما تفعله هو أن تنتظر لترى أين ستقع، وتصلي حتى لا تقع فوقك وأنت داخل الحفرة، تنزل ما أمكنك وتربط الخوذة جيّداً على رأسك، وتحاول أن تجعل من نفسك صغيراً جداً، بينما تصرخ على الراديو وأنت تطلب الرد بالنيران.

ذلك هو الخوف، ولهذا كنا نرتدي رباطين الأول حول عنقنا والثاني فوق الحذاء، بهذه الطريقة إذا انفصل رأسك عن جسدك يمكن تمييزك عن حذائك، وإذا فقدت قدمك يكون رأسك ما زال متصلاً بجسمك. ولكن حدث في مرات عديدة أن تعذر فيها تمييز جثة في الميدان، وكان عليك أن تنتظر حتى تقارن مع السجلات الطبية وسجلات الأسنان.

كان للقادة مخاوفهم. لا يمكنك أن تكون متأكداً من أنك، دون قصد، تقود رجالك إلى فخ أو إلى كمين. كنا نصطاد العدو ولكنهم كانوا أيضاً يصطادوننا. ولا تنسَ أن كل مناورة أو دورية يمكن أن تكون الأخيرة لأي من الرجال. وأسوأ ما يمكن أن يحدث للملازم في فيتنام أن يقتل جميع رجاله ويبقى هو على قيد الحياة..

لقد تعاملت مع مخاوفي من خلال إيماني. الثقة بالله لا تعني أن ترتكب مخاطر حمقاء، في كل مرة كان أحدهم يطلق النار عليّ كنت أخفض رأسي وأحتمي، عليك أن تعرف عواقب الإصابة بالرصاصة أو بانفجار المدفعية. ولكن هناك حقيقة في القول المأثور قديماً «إنه لا يوجد ملحد في وكر الثعالب».

كان مشاة البحرية كمجموعة وقحين جدّاً، مع أنه كان هناك عمق روحي للعديد منهم، وبالطبع ليس فقط عندما تتساقط القنابل.

أحد أعمالي كقائد هو أن أساعد رجالي في الفصل بين الدموع الحقيقية والدموع المصطنعة. في إحدى الليالي تلقيت مكالمة من آمر حضيرة حول كمين قال: «لدي إمكانية الحركة». أجبته: تعرف ما عليك أن تقوم به. بعد لحظات سمعنا أصوات طلقات البنادق والألغام والرشاشات والقذائف المضيئة، ثم خيّم صمت طويل، وبعده سمعنا صوتاً قادماً من الوادي: «يا للهراء اتصل بالملازم».

لقد قتلوا دبّاً وطلب منهم قائد الكتيبة إحضاره. قال إنه يريد الدليل، لكن جميع الرجال اعتقدوا أنه يريد أن يصنع منه فراء لزوجته. كانوا غاضبين من سحب الحيوان إلى القاعدة، ولذلك بقروا بطن الدب ودفنوا أحشاءه قرب دشمته وحفروا له بعمق إنش واحد وكانت الرائحة كريهة.

أكثر ما كنت فخوراً به في فيتنام ليس أوسمة البطولة بل حقيقة أني قدت سبعين

كميناً وأن معظم رجالي عادوا أحياء. كنت أقول للعناصر: «لي هدف واحد هنا هو أن أقوم بعملي وأن أعيدكم إلى الوطن سالمين».

إن مفتاح القيادة العسكرية هو أن تجعل رجالك يشعرون أنهم يعملون معك وليس أنهم يعملون لك. فعوضاً عن الجلوس وإصدار الأوامر، عليك أن تعرف كل عمل يقومون به. على الأقل، أن تكون مثلهم. لا يهم كم تبدو لهم وسيماً، لن يتبعك أحد من العسكريين إلا إذا كان مقتنعاً بأنك تدرك ما تتحدث عنه. كل عنصر من فصيلتك عليه أن يؤمن بأنه إذا نفّذ ما قلته له فإنه سوف ينجو من تجربة صعبة.

ولتحسين الأوضاع شدّدت على التفاصيل والنظام. لقد ألزمت رجالي بقص شعرهم مرات عديدة بحيث يكون لديهم فرصة أفضل من أجل التخلص من الطفيليات والبزّاق والحشرات. وأصريت على أن ينظفوا أسنانهم لأني لم أشأ أن يغيب عنصر من أجل مرض في أسنانه لمدة ٣ أيام. لقد كانوا يغسلون جواربهم مرة في الشهر فيما إذا كانت تحتاج إلى الغسيل أم لا. وكنّا عندما نصل إلى جدول نؤمن حراسة بحيث يستطيع الجميع أن يستحموا. كان الرجال في خطر كافٍ ولم يكونوا بحاجة إلى مرض... والشيء العظيم كان أن تعود إلى كون تيان حيث كان هناك حمام مؤلف من خرطوم مياه موصول إلى خزان يتسع لـ ٥٥ غالوناً، وبعد ثلاثين ثانية تشعر أنك إنسان جديد.

أصريت على أن يعتمر رجالي الخوذة والسترة الواقية في جميع العمليات، وعلى أن يكونوا على مقربة من سلاحهم حتى في أثناء وجودهم في القاعدة. كان بعض القادة يشعرون أن العناصر يمكنهم أن يتحركوا بسهولة أكثر دون أي «تدريع» ثقيل، وبرغم أن هذا كان صحيحاً فقد مات بعض هؤلاء الرجال. لقد أنقذت السترة الواقية حياتي عدة مرات عندما تساقطت القنابل وقذائف آر.بي.جي وقذائف الهاون بقربي. في فصيلتي عليك أن تنام وأنت تعتمر الخوذة على رأسك، وتلبس السترة الواقية. كانت حارّة وتعرّق الجسم ومزعجة، ولكنك تنجو بها..

على كل رجل أن يحمل أغراضه مرتبة بشكل موحّد: قذائف الهاون في الأعلى، والمطرات على المكان نفسه في الحزام، والرمانات في الجيب نفسه. كنت أفتش جميع العناصر قبل الانطلاق في كل دورية وإلى كل كمين، وإذا ما رأيت شيئاً غريباً في جيب أحد الرفاق فإني أخرجه من الصف، وكل من يخرج من الصف لأي سبب يمكن أن يصبح هدفاً للقناصين...

أين موسى الحلاقة، احصل على خوذة جديدة، ضع رماناتك على الحزام، ليس في

هـذه الفصيلة، الآن أنهينا العمليـة، نظّف بنـدقيتك، البقيـة توقفـوا، كـل عنصر ينـظف بندقيته بينما رفيقه يراقب.

كان التدريب مستمراً حتى عندما نعود إلى القاعدة، وبدلاً من أن نرتاح كان علينا أن نتدرب على ترتيبات القتـال أو على نـظام الكمين. الأمـيركيون ليسـوا صبورين، ويتـطلب التدريب انضباطاً غير عادي حتى يتمكّن أحدهم من أن يلقي بنفسه على الأرض لساعات في أثناء بقائه في حالة الإنذار.. في بعض الأحيان كان العـدو قريبـاً إلى درجة أني أمـرت الرجال بأن يغطوا عقـارب الساعـة المضيئة في أيـديهم. لا يهم ما إذا كـانوا ينفـذون ذلك بشكل جيد في الليل، ولكني كنت دائماً أعطي التعليمات وأضع القواعد.

في بعض الأحيان كنت أذهب بعيداً في طلبي الالتزام بنظام من رجـال لم يستطيعـوا أن يتعايشوا معه. في بعض المرات عاملت رجالي بشكل قاسٍ، وجعلتهم يمشون مسافات أبعـد، ويحفرون أعمق، ويحملون أكـثر مما كـان ضرورياً. وفي بعض الأحيـان كنت أشدد المراقبة عندما كنت أقود رجالي بصورة جنونية، وكنت أصر على أن هنـاك طريقـة صحيحة وأخرى خاطئة في فعل أي شيء.

اشتكى أحد الرفاق فقال لي: «إذا تعرّضت لخطأ فسوف تنتقد الـطريقة التي تسيـطر بها على نفسك يا نورث، كان يغالي ولكن ليس كثيراً.

لقـد وهبني الله نعمة قيـادة العناصر، وأمضيت سـاعات غـير معدودة في الاستشـارة والإقناع، كنت أتحدث إلى الرجال كل اثنين معاً، وكل ثلاثة معاً، وأحيانـاً إلى الجميع في وقت واحد، ليس لأنهم كانوا يتهربون بل لأني كنت أطلب منهم الكثير. كان أعظم إطراء تلقيتـه بعد قتـال شديـد، عندمـا تقدم أحـد الرجـال من النقيب غودوين وقـال: «سيدي النقيب كان عليك أن تشاهد ملازمي». كم كان رائعـاً. لم تكن كلمة رائـع تعني الكثير، بل الكثير هو أنّه لم يسمني الملازم أو الأزرق أو الملازم نورث بل قال: ملازمي. كان ذلك ربما أحسن شيء قيل عني.

لقد كنت حنوناً ومساعداً في حال تعرض أحدهم لأذى أو لمشكلة، ولكني ربّما كنت مزعجاً إذا خـالف أوامري أحـدهم. يمكن أن يكون جـونز قـد عمل ٢٠ سـاعة في ذلـك النهـار. لكن إذا كان من المفـترض أن يكون في خـدمة الحـرس في مركـزه الساعـة ٢ بعد منتصف الليـل فيجب أن يكون صـاحياً. إذا تسلّلت نـاحية رجـل نائم في حفـرته، أقف بجانبه وألامس خوذتي بخوذته ثم أسحب مديته. كان ذلك عادة على سبيل الخداع وكنت أقـول له: «يجب أن تكـون مسروراً لأني لست جنديـاً من جنود فيتنـام الشـماليـة». وكنت

أقول له عندما يتوقف عن الارتعاش: «لأنني كنت سأقطع حنجرتك».

وإذا كنت لم أشهد ذلك شخصياً، فمن المحتمل أن أواجه ذلك الرجل في اليوم التالي فأقول له: «يا صاحبي، أنا أفهم أنك استغرقت في النوم الليلة البارحة، فإذا تكرر ذلك يمكن أن يسقط أحدهم رمانة يدوية في حفرتك، ويكون علي أن أرسل رسالة إلى والدتك، أو أن يقدم أحد ما على رمي رمانة يدوية في حفرة جاكسون وتكون غلطتك، وستكون الرفيق الوحيد الذي سيكتب رسالة إلى والدته».

كان رتيب الرماية في السرية يتمتع بطريقة مختلفة في التصرّف إزاء هذه الأوضاع، فإذا ما وجد رجلاً نائماً في نطاق عمله، فإنه سوف يبوّل في حفرة الثعلب.

عندما يفيق الرفيق يقول: «هاي ماذا تفعلون؟».

وهذا ما ينتظره الرقيب فيجيبه: هل استيقظت؟

ــ نعم.

ــ إذاً أخبرني، هل يمكن لأي رفيق صاحٍ أن يسمح لأحد بأن يبوّل عليه؟

ــ كلا!

ــ حسن، إمّا أني لم أبوّل عليك أو أنك كنت نائماً. وإذا كنت نائماً فسأحيلك إلى المحكمة العسكرية وسوف تمضي ستة أشهر في السجن. والآن هل بوّلت عليك؟

ــ لا أعتقد أيها الرقيب.

من كل ذكرياتي في فيتنام هناك حادثة تبقى حيوية أكثر من أي حادثة أخرى.

كان ذلك بعد كمين ناجح قتلنا فيه ثلاثة جنود أعداء. كنا نفتش عن الجثث بسرعة فنأخذ الأسلحة وأجهزة الراديو ونبحث عن الوثائق ونجمع هويات العدو بحيث يستطيع الصليب الأحمر إبلاغ عائلاتهم، ثم نغادر تلك المنطقة.

هذه المرة صرخ أحد رجالي: «يا أزرق لدينا ضابط»، لقد عرفه من إشارته ومن كونه يحمل مسدساً، فتّشت الجثة بنفسي، كان الضباط غالباً يحملون الوثائق، وكنت أريد أن أتأكد من أننا وجدنا كل شيء.

كان شابّاً أسود الشعر حسن المظهر وعمره يقارب عمري. كان المسدس السوفياتي الصنع ما يزال في يده، وكان قد تلقى شظية حارقة في صدره قتلته على الفور. بالإضافة إلى الوثائق كان يحمل مجموعة مربوطة من الرسائل كما نفعل نحن. فيما بعد وفي ذلك النهار بعدما وضعت تقريراً كاملاً عن الكمين، نظرت إلى حقيبته، ومن بين أشياء كثيرة وجدت خريطة ودفتر ملاحظات مدوّن عليه أسماء عناصر وحدته.

خلال فصلي الأخير في أنابوليس اشتركت في دورة خاصة باللغة الفيتنامية، وكان زميلي في المدرسة التأسيسية ملازماً في مشاة البحرية الفيتنامية. استطعت أن أقرأ اللغة وفهمت أن العسكري الفيتنامي كان برتبة ملازم. كانت هناك رسائل من زوجته ووالديه، وصورة له في ثيابه العسكرية وهو يبتسم برفقة زوجته وولديه. كان يحمل أيضاً كتاباً يحتوي على رسوم قليلة كان قد أعدها لهم. لم يكن هناك أي مظهر للقتال، فقط صور جبال وعصافير وأشجار وأشعار كتبها.

لقد تخيّلت أن هذه الأشياء حدثت بصورة معاكسة قبل ساعات، وأنه كان سيفتش عن هذه الأشياء في حقيبتي وينظر إلى صور بتسي وطفلتنا. لقد أصبح واضحاً لي منذ تلك اللحظة أن عائلته لن تراه مرة ثانية، ومن المحتمل أن لا يعرفوا شيئاً عن ظروف موته.

فكّرت به مرات عديدة، ومع أني لا أتذكر أني بكيت في ذلك اليوم، فأنا ما أزال أعتبر أنه من الصعب عليّ أن أقصّ هذه الحكاية دون غصة في بلعومي. عندما كان يقتل واحد من رجالنا كان بقية العناصر يقولون إنه قد ضاع! ما هذه الكلمة الملائمة. هناك حقائق عميقة مدفونة في عاميات الحرب وكانت هذه واحدة منها.

لقد حاولت أن أحتفظ ببعض الأغراض من حقيبته ثم قررت أن لا أفعل، فمن الأفضل أن أتأكد من أنها ستعود كلها إلى زوجته. كتبت تقريراً عما حدث وأضفت تفاصيل أكثر من عادية على أمل أن يحملها الصليب الأحمر عندما يصل فتعلم عائلته أنه مات شجاعاً وبسرعة ودون ألم. لقد أعدت ترتيب جميع الأغراض في الحقيبة بتأن، ومن بينها رسالة كان قد بدأ بكتابتها إلى عائلته يصف فيها شوقه إليهم. كان بالإمكان أن أكتب هذه الرسالة بنفسي.

كنت دائماً أتعجب من أولئك الرجال الذين يمجّدون القتال، أو الذين يذهبون إلى الحرب من أجل المال أو المغامرة. إن أشجع الرجال العسكريين الذين عرفتهم يكرهون الحرب. لقد كان قائداً كبيراً وعظيماً ذاك الذي أطلق هذه الجملة الشهيرة: «الحرب هي جهنم». الحرب تغيّرك إلى الأبد، وأنا لا أعتقد أن أحداً خاض حرباً يتوق الآن إلى خوضها مرة ثانية.

(٦)
حياة جـديدة

بعد سنة في فيتنام عدت إلى كوانتيكو كمدرّب لمادة التكتيـك في المدرسـة التأسيسيـة حيث كنت طالباً منذ أكثر من سنة تقريباً. كنت أحضّر الضباط الشبـاب الذين سيـذهبون قريباً إلى فيتنام لقيادة فصائل كما فعلت أنا. كـان اختصاصي الـدوريات والتكتيـك المضاد للعصابات لوحدات المشاة الخفيفة ـ كل شيء بدءاً بترتيب قتال حضـيرة الرمـاة إلى الكمين على مستوى فصيلة ـ.

كنا نبدأ الدرس بدورة داخل قاعات قليلة تستخدم آلات الإسقـاط والأفلام واللوح الأسود من أجل شرح نظرية وحركة العمليات. ومن أجل التركيز عـلى عنصر المفاجـأة في المعركة، كنا ـ نحن المدربين ـ ندخـل الصفوف دون تحـذير، ونـرمي طلقات خلبيـة[1] من بندقية م ـ ١٦. كان هذا بمثابة عنصر تحذيري من أن هؤلاء الرجال سوف يقاتلون قريباً هم ووحداتهم، ويمكن أن يتعرضوا للنار في أي لحظة.

بعـد العمل التمهيـدي في القاعـة كنـا ننتقـل إلى العـرض الميـداني. كـانت حقـول التـدريب في كوانتيكـو شبيهة بـالأرض في فيتنام، ممّـا ساعـدنا عـلى إعداد أجـواء المعركـة الحقيقية، كما لاحظ الطلاب من أجهزة العرض كيفية تـنظيم وحدة من مشـاة البحريـة في ترتيب مناسب للقتال وللاستطلاع أو لنصب كمين للدوريات. ثم كنا نـأخذ الـطلاب إلى تمارين استعراضية، ونمشي في تلك المناورات. أنهينا بضعة أيـام من تمرين الميـدان، حيث اختبرنا الرجال في مهارات عديدة. كان التدريب في هذا المكان عملاً صعبـاً، ولكنه كـان المكان الوحيـد حيث يمكن للملازم أن يضغط عـلى عناصره دون أن يصـاب أحد منهم أو يتعرض للموت.

كان هدفي تحويل كل غلطة إلى تجربة تدريبية بناءة. كنت أبدأ بتعليق إيجابي: «لقـد

---

(١) طلقات فارغة غير محشوة.

قمت بعمل جيّد في تنفيذ أمر العمليات. لقد نشرت عناصرك بشكل جيد وكان استخدامك لأسلحة الدعم ممتازاً».

وعندما كان يحين وقت مراجعة الأخطاء كنت أغيّر التركيز ببطء وأتحول من اللهجة الإيجابية إلى اللهجة السلبية: «بشكل عام يا جونز لقد قمت بعمل جيد، ولكن في خلال التوجّه نحو الهدف النهائي كانت الحضيرة الأولى منتشرة بعيداً نحو اليسار، كان عليك أن تنقل قاعدة النيران إلى مكان أبعد نحو الجانب». كان الدرس الذي أردت أن يتذكره الطلاب هو: أن جونز لم يكن مخطئاً بل إنه كان يجب عليه نقل قاعدة النيران.

هذه التقنية في تخصيص المديح وترك الانتقاد والتخطيء تعلّمتها من والدي الذي كان يتكلم بالطريقة نفسها مع العمال في مصنع الصوف، وكذلك مع أولاده على طاولة الطعام. فيما بعد وعندما أصبح أستاذاً في الجامعة، تابع طريقته فكان يقول للطالب: أنت اهتممت بالفصل الأول بشكل ممتاز، ولكن انظر كيف نتعامل مع النهاية. «نحن» معناها وكأن الصف بكامله قد ارتكب الغلطة نفسها.

لقد أحببت التدريس وكنت أتمتع بالتعرّف على الطلاب. كان هناك مدربون في كوانتيكو يتقنون عملهم، ولكنهم لم يكلّفوا أنفسهم عناء معرفة أسماء طلاب صفوفهم. ما زلت لا أفهم إهمالهم هذا. الحياة العسكرية مليئة بالقادة الرائعين، ولكن لها أيضاً نصيبها من الفظاظة وتقنية الضمير الشخصي الإنساني في التعامل.

(وهكذا تعلمت منذ ذلك الوقت العمل والإدارة في الحكومة).

لقد خدمت مع بعض هؤلاء، ونادراً ما كانوا يوحون إليّ بأن أبذل جهدي في التدريب.

هناك الكثير ممّا يحققه المعلم بقليل من الجهد الشخصي. ففي نهاية نهار طويل وقبل أن أذهب إلى المنزل، كنت أحياناً أتمشى في مبنى منامة الضباط العازبين لألقي عليهم تحياتي: مرحباً أيها الرفاق كيف حالكم اليوم؟ يتجاوب الطلاب مع المدرب الذي يهتم بهم. إذا شعر أحد الطلاب بأنه يعرفك شخصياً، أو إذا أدرك أنك أزعجت نفسك وحفظت اسمه، فإنه سيبذل مزيداً من الجهد ويحقق تقدماً. كنت أدرب في ظروف مثالية، وجميع هؤلاء الرفاق كانوا متطوعين ومندفعين، وكان من السرور أن أعمل معهم. وبما أن جميع طلابنا تقريباً يذهبون إلى فيتنام، كنا نراقب آخر التطورات في الحرب. فإذا دخل سلاح جديد، أو اعتمد تكتيك حديث، كنا نعرف به خلال أيام، وذلك من قراءة تقارير «بعد العمل» والأحداث «من مجرى الحرب».

عدت إلى كوانتيكو لمدة ثلاثة أشهر عندما قرأت عن حادثة تتعلق باتهام أحد عناصر مشاة البحرية، وهو برتبة عريف، بقتل ١٦ مدنياً فيتنامياً في قرية قرب دانانغ. عندما قرأت إسم المعتدي أصبت بذهول، كان اسم المدعى عليه بتهمة القتل راندي هيرود رامي الرشاش الذي أنقذ حياتي في فيتنام. بدا كما لو أن هيرود لم تنقصه المشاكل، فقد جرت هذه الحادثة بعد وقت قصير من الكشف عن مجزرة ماي لاي المشهورة، مع تأثيرها في نظرة الرأي العام إلى القوات المسلحة الأميركية. كان قتل المدنيين الأبرياء عملاً فظيعاً، ولكن الذي كان يثير الرأي العام الأميركي حقيقة هو أن عدداً من ضباط الجيش الأميركي كانوا متهمين بتغطية هذا القتل العمد لأكثر من سنة ونصف حين نشرت الحادثة في الصحف. الحقيقة في قضية راندي هيرود كانت موضع شك، ولكن مع الضجة العالقة في أذهان الرأي العام حول حادثة ماي لاي لم تضع قيادة مشاة البحرية أي وقت وأعلنتها فوراً.

لم أستطع أن أصدق أن راندي مذنب، لسبب واحد هو أنني دربته بشكل أفضل من ذلك، ولسبب آخر هو أن الجبان فقط يستطيع أن يقتل مدنيين عزلاً. وراندي هيرود بالتأكيد ليس جباناً، لقد أثبت ذلك ولمرتين خلال معركة واحدة حين خاطر بحياته ليسحبني إلى مكان آمن.

ولكن حتى لو تصرف هيرود بشكل خاطىء، وهذا ما كنت أشك فيه، ما زلت أريد أن أساعده، راندي هيرود أنقذ حياتي وعليّ أن أقف إلى جانبه.

في رسالة إلى جين شايب محامي هيرود، شرحت له أنني كنت آمر فصيلة هيرود في فيتنام، وأنا أعرفه جندياً شجاعاً ومسؤولاً، وإذا اعتقد شايب وزملاؤه أن ذلك يساعد، فإني مستعد للعودة إلى فيتنام من أجل الشهادة في أثناء محاكمة هيرود.

اتصل شايب بي في الأسبوع التالي وقبل عرضي. لم يفرح بعض زملائي المدربين لأني كنت سأتركهم في وسط فترة تدريبية صعبة بل لأن أولئك الرفاق سيحلون مكاني في إعطاء الدروس. استدعاني قائد المدرسة التأسيسية وسألني عن أهمية هذه الرحلة، وعندما شرحت له الموقف قال: «حسناً إذا كنت مقتنعاً بأنّ ما تقوم به صحيح سأوافق عليها». (كنت بحاجة إلى إذن منه لأنه كان يمنع على العسكريين الذهاب إلى فيتنام من تلقاء أنفسهم).

لم تهتز مشاعر بتسي تماماً، بسبب أنها الآن حامل بطفلنا الثاني، ولسبب آخر هو أن زوجها عائد إلى الحرب على نفقته، وهو يستخدم وقت الإجازة من أجل ذلك. كل ذلك

لم يؤثر فيها كعمل إنساني مميز. كنا قد تزوّجنا منذ سنة ونصف، وقد أمضيت ثلثي هذا الوقت في فيتنام.

عندما عدت إلى فيتنام في آب/أغسطس ١٩٧٠ وجدت أن وضع هيرود كان أسوأ مما كنت أتوقع. لقد أصابت حادثة ماي لاي جميع العسكريين، وكان الحديث عنها يشمل كل القاعدة وكان لا يجوز تغطية أحد في تلك القضية. (لن تكون هذه المرة هي الأخيرة في حياتي عندما يتحرك الرجال الموجودون حولي بدوافع ليست من واقع الحال بل من الذكرى الصعبة للتغطية على هذه القضية).

اعتقد عدد من الضباط الذين التقيتهم أنني مجنون. «ماذا هل حقاً عدت إلى فيتنام بموجب مأذونية؟» وعندما شرحت لهم أنني طرت إلى هنا كي أشهد في محاكمة الجندي هيرود (كانت رتبته قد خفضت إلى جندي) ظهرت العداوة واضحة. وذات مساء أجريت استفتاء غير رسمي بين بعض الضباط، وتقريباً كل واحد قال لي الكلام نفسه: إن راندي هيرود ليس لديه فرصة. بعد بضعة أيام صعقت عندما قدمت هيئة الدفاع عن هيرود الاستفتاء غير الرسمي الذي أجريته كدليل على أن محاكمة جيدة غير ممكنة الإجراء. ولكن كما تبيّن لي أخيراً فإن المحامي الجيّد يقوم بأي عمل قانوني ليحمي موكّله.

عدا عن الذي تعلمته من المحكمة العسكرية في الدورة التأسيسية لم يكن لدي خبرة بالإجراءات القضائية، لكني أمضيت ساعات في كوخ أهرب من الحر وأنظر إلى ميناء دانانغ وأبحث قضية هيرود مع محاميه. أقنعتهم بالاعتراض على أي عضو يعين في المحكمة (وهي هيئة عسكرية تعادل هيئة المحلفين) لا يكون ضابطاً أو رتيباً مقاتلاً، لأن الرجال الذين خدموا في القتال فقط يمكنهم أن يقدروا الضغوط التي كان هيرود قد تعرّض لها. في النهاية كان كل عضو في هيئة المحكمة من عناصر مشاة البحرية المقاتلين والحائزين على أوسمة.

دون شك كانت هناك روايات مختلفة حول ما حصل ليلة ١٩ شباط/فبراير ١٩٧٠. واستناداً إلى هيرود، فإنه كان يقود كميناً صغيراً في قرية سونتانغ في القطاع الجنوبي للمنطقة التكتيكية الأولى والتي كانت تعرف بمنطقة تموين الفيتكونغ، عندما فتح العدو النار من رشاش «م٦٠» فأمر رجاله بالرد على النار، ووقع العديد من المدنيين في مرمى الأسلحة وأصيبوا عندما بدا أنهم يقتربون من مراكز الأسلحة.

شرحت لهيئة المحكمة في شهادتي أن تهم القتل الموجهة إلى هيرود كانت بعيدة جدّاً عن الصفات التي عهدتها فيه منذ أقل من سنة. كذلك أشرت إلى أنه كان مدرّباً في

حرب مختلفة. لقد رأينا بضعة مدنيين في القسم الشمالي من المنطقة التكتيكية الأولى حيث كانت الأوامر هي: (إما نحن أو جنود من جيش فيتنام الشمالية) إذا تحركوا في منطقة القتل للكمين افتح النار. في الكمين الليلي لم يكن أحد يطرح الأسئلة. لكني تذكرت أيضاً حادثة حول دورية نهارية عندما أمر هيرود عناصر رهطه بأن لا يطلقوا النار لأنه لم يكن متأكداً مائة بالمائة بأن الذين رآهم أعداء فعلاً.

شرحت لهم كيف أظهر هيرود شجاعته مرة أخرى وأخرى ووصفت تفاصيل المعركة التي منح على أثرها وسام النجمة الفضيّة، وبينت لهم أن قيادة مشاة البحرية لا تمنح وساماً إلى أي شخص إلاّ بعد مرور زمن طويل، ولكن هيرود حصل عليه، والآن فقد سحب منه إلى أن تظهر نتيجة المحاكمة.

عندما انتهيت من الإدلاء بشهادتي عدت جوّاً إلى كاليفورنيا، وعندما هبطت في سان فرانسيسكو علمت أن هيرود بُرّىء وأطلق سراحه.

بحلول هذا الوقت كان قطاع كبير من الرأي العام الأميركي قد تحوّل ضد الحرب في فيتنام. كنا نشعر بالعداوة كلما غادرنا الثكنة في كوانتيكو، وكانت أعمال الاستنكار أقوى في محيط واشنطن، ووصلت إلى وضع صعب عندما أصدر قائد المدرسة أمراً للضباط الذاهبين إلى خارج الثكنة بأن لا يرتدوا الزيّ العسكري. أما في أرلنغتون مقر قيادة مشاة البحرية الأميركية، فقد كانوا يرتدون اللباس المدني، في أثناء العمل. ولكن حتى بدون اللباس العسكري كان من الممكن تمييز صغار العسكريين، من عمرهم وقامتهم وتسريحة شعرهم ولباسهم، في عصر كان جميع معاصريهم يرتدون ثياباً ملونة ويسبلون شعورهم.

أخبرني بعض الطلاب أنهم تعرضوا لبصق الجمهور في واشنطن وخصوصاً في جورجتاون، لقد اعتادوا الذهاب إلى هناك في عطل نهايات الأسبوع على أمل الحصول على مواعيد مع الفتيات، لكن الشعور المعادي للحرب في معظم الجامعات المحلية كان قويّاً جداً إلى درجة أن العديد من أولئك الرفاق لم يتمكنوا من التحدث إلى امرأة. لقد شعرت بأسى تجاههم، وكنت أكبر منهم بسنين قليلة، لقد كان هناك شعور معادٍ للحرب عندما تخرجت من أنابوليس وقد ازداد بشكل كبير بين عامي ١٩٦٨ وأوائل العام ١٩٧٠.

في آذار/ مارس ١٩٧١ أصيبت سمعة العسكريين الأميركيين بضربة قاصمة عندما أُدين الملازم وليم كالي بمجزرة ماي لاي. من ردود الفعل في بعض الدوائر، كنت تظن أن هذا النوع من الأعمال كان روتينياً في فيتنام وليس منحرفاً أو شاذّاً. في كوانتيكو ووست بوينت وأنابوليس وكل المدارس العسكرية أمضى المدربون ساعات عديدة في شرح المعاملة

الصحيحة للمدنيين في الحرب. أتذكر أنني سئلت عن حادثة كالي في الصف، وأنني قلت للطلاب: «إذا كانت القصص التي نسمعها صحيحة، فإن كالي يستحق أقصى عقاب».

في صيف ١٩٧١ صدر كتاب لسيمور هيرش، وهو الصحافي الذي كان أول من كشف عن مجزرة ماي لاي، يتحدث فيه عن الحادثة ويظهر أن جرائم الحرب كانت شائعة في فيتنام. وبعدما ظهر هيرش في برنامج وليم بكلي «خط النار» كتب ثلاثة منا ممن كانوا يدربون في كوانتيكو ـ جون بندر ودون كاربنتر وأنا ـ رسالة إلى السيد بكلي عبّرنا فيها عن امتعاضنا من هذا التعرض الذي أهاننا.

لم يكتف بكلي بالرد علينا كتابياً بل دعانا إلى الظهور في برنامجه لبحث هذه المسألة. عرضنا رسالته على الكولونيل بيل دامنين وهو القائد المسؤول عنا، والذي حمل الرسالة إلى قائد الثكنة، والذي رفعها بدوره إلى قيادة مشاة البحرية فكان الجواب: حسناً ولِمَ لا؟

سجّلنا العرض في الجامعة الأميركية في واشنطن. لقد شدهت بمظهر بكلي، فقد استرخى بطريقة سيئة إلى درجة أنني اعتقدت أنه كان سيسقط عن كرسيه. لم أكن عصبياً أبداً في التحدث أمام الجمهور، ولم يكن يزعجني الظهور في أي برنامج تلفزيوني آخر، ولكن أن يجري وليم بكلي مقابلة معي كان أكثر من مخيف. هل كان عليّ أن أصطحب قاموساً معي؟ فأنا لم أذهب إلى جامعة يال ولم أكن أعرف أنني سوف أفهم التعابير المطولة التي كان يميل إلى استخدامها، وفي النهاية تدبّرت أمر فهم معظم تعابير بكلي وكذلك أسئلته.

على الهواء شرح ثلاثتنا أنه من غير العادل أن يكون كل من خدم في فيتنام وعاد إلى الوطن موضع شك في أن يكون «مجرم حرب». لم نكن هناك لندافع عن وليم كالي، أو لنقول إنه لم تكن هناك جرائم حرب، لكننا نحن الثلاثة خدمنا في فيتنام في وحدات مختلفة وفي قطاعات متفرقة، ولم يسمع أي منا عن أي شيء مثل هذا إلى أن عدنا إلى الوطن. في الحقيقة إن الأغلبية من الوحدات الأميركية اتخذت تدابير كثيرة من أجل عدم إيذاء المدنيين إلى درجة تعريض رجالها للخطر.

سجلنا الشريط أمام جمهور حاضر، وبينما كانت أسئلتهم قاسية فإن القليل منهم فقط كانوا معادين. كانت تجربة مفيدة جدّاً، لقد تمكّنا من عرض نظرة مختلفة عن رجال قواتنا المسلحة في الحرب، وساعدنا في الدفاع عن شرف العسكريين.

بعد سنتين فكرت جديّاً بأن أترك مشاة البحرية، وكنت قد تطوعت فيها بهدف أن أصبح طيّاراً، ولكن في كوانتيكو عام ١٩٦٨ تم اختياري في صفوف المشاة بحيث يمكنني أن أخدم في حرب فيتنام قبل أن تنتهي (ولم أكن أتصور كم سيدوم ذلك الصراع). ثم

تقدمت فيما بعد إلى مدرسة الطيران عام ١٩٧٣ وكانت الحرب قد شارفت على نهايتها، وأصبح الحد الأقصى لسن الطيارين الجدد أقل بسنتين مما كان عليه من قبل. والآن وبعدما أصبحت كبيراً في السن ولا أستطيع تحقيق ذلك الحلم بدأت أفتش عن فرص أخرى للعمل.

قدمت طلباً للحصول على وظيفة في شركة أي دي أس في تكساس والتي يرئسها روس بيرو . كان لهذه الشركة سمعة رائعة، وكان الناس يقولون عنها إنها أقرب شركة في القطاع الخاص للبيئة العسكرية. بعدما أعددت طلب الاستقالة من مشاة البحرية، تلقيت مكالمة من الكولونيل ديك شولز، والذي كان من قبل قائد كتيبتي في فيتنام، وهو الآن مساعد لوزير البحرية، قال لي: نحن لا نحب أن نخسرك، ولكني أفهم أنك مهتم بأي دي أس. إن روس بيرو سيحضر في الأسبوع المقبل لتناول طعام الغداء مع وزير البحرية، وأنا أريدك أن تنضم إلينا.

أتذكر أني سررت لأن شولز لم يضغط عليّ للبقاء في مشاة البحرية، أو أنني ظننته سيفعل ذلك.

في أثناء تناول طعام الغداء، جلس ديك شولز بابتسامة هادئة، بينما كان بيرو يعطيني موعظة لمدة ٣٠ دقيقة حول بقائي في مشاة البحرية.

لقد رمى أمامي بكل شيء: قيمة خدمة الوطن، البطولة، المثل، فطيرة التفاح*، العمل. رأيت أنه كان يدفعني إلى البقاء. كان بإمكانه أن يكون داعية تجنيد من الطراز الأول.

عندما أنهى كلامه التفت إليّ وقال: حسناً. . ماذا تريد أن تفعل؟

كنت حتى ذلك الوقت أشعر بأني أريد أن أترك، إلاّ أنني قلت: «أظن أنني سأبقى». قال: «حسناً ـ إذا كان هذا ما تشعر به». وهنا التفت بيرو إلى شولز الذي سلمه رسالة استقالتي. أعطاني بيرو الرسالة وقال لي: لماذا لا تمزّق هذه الرسالة؟ كان شولز قد أعد هذا اللقاء من أجل أن يبقيني في مشاة البحرية، وبدا ذلك جميلاً من جهته. عندما ألقي بنظرة على مسار عملي في مشاة البحرية، أرى أن أحد إنجازاتي التي افتخر بها ليس له علاقة بالقتال. ففي منتصف السبعينات عندما كنت أعمل في قيادة مشاة البحرية لعبت دوراً رئيسياً بالمساعدة على إلغاء برنامج الرحلات التي يحظر على العناصر اصطحاب العائلة فيها. وكان هذا البرنامج، الذي بموجبه يترك عناصر مشاة البحرية عائلاتهم لمدة

* فطيرة التفاح من الرموز الشعبية الأميركية (المترجم).

سنة كاملة ليخدموا في وحدات في غربي المحيط الهادىء، قد بدأ بعد الحرب العالمية الثانية كوسيلة لضمان جهوزية وحدات مشاة البحرية للانتشار في ما وراء البحار. بعد ثلاثين سنة ما زال هذا البرنامج جزءاً هاماً من نظام مشاة البحرية. لقد سمح لرجال في بقية الفروع العسكرية باصطحاب عائلاتهم في رحلات ما وراء البحار، لأنه كان من المفترض أن يكون مشاة البحرية أقصى من أي رجال فرع آخر وجاهزين دائماً للقتال، كذلك كان لدينا أعلى نسبة طلاق بين العسكريين.

في خلال حياته المهنية يمكن لعنصر مشاة البحرية أن يذهب أربع أو خمس رحلات من هذا النوع، وأي واحدة من هذه الرحلات يمكن أن تقضي على زواجه. لهذا السبب استحقت زوجات عناصر المشاة البحرية أوسمة خاصة. ولكن آلاف الزيجات انتهت، والعديد من الرجال، ومن ضمنهم ضباط ممتازون، تركوا الخدمة بسبب هذه الرحلات.

شهد زواجي رحلة «يحظر اصطحاب العائلة فيها» إلى أوكيناوا ولكن بصعوبة. عام ١٩٧١ رقّيت إلى رتبة نقيب، وفي أواخر ١٩٧٣ وضعت بتصرف منطقة التدريب الشمالية في أوكيناوا، وسرعان ما كنت ممتنّاً لروس بروت لأنني كنت سعيداً جدّاً في ذلك المكان، فبالإضافة إلى التحدي والمسؤولية التي كنت أتوق إليها، كان لدي الفرصة لأن أقوم بأعمال مثيرة كانت تظهرها قيادة مشاة البحرية في إعلانات التطوّع. لقد نفّذنا تدريباً على حرب الجبال، وعلى تكتيك حرب الغابات، وعلى الغارات الليلية البرمائية في زوارق مطاط تنطلق من سفن وغواصات، وعلى السقوط من الهليكوبتر، والهبوط بالمظلات بالاشتراك مع وحدات الاستطلاع في الجيش ومشاة البحرية. لقد تدرّبنا على مهارات «حب البقاء» الخاصة بالطيارين والطواقم، وأكلنا الأفاعي وبعض الأعشاب من أجل أن نعطي انطباعاً جيّداً للقادمين الجدد، وكان لنا وقت ممتع في عمل ذلك. كان هذا التدريب خطراً فعلاً، ولكنه من أمتع الأعمال التي قمت بها في حياتي في مشاة البحرية . في معظم الأوقات كنت مشغولاً جداً إلى درجة أني لم أفكر بالاشتياق إلى وطني. كانت مهمتنا أن ندرب الوحدات القتالية في أوكيناوا على مختلف المهارات القتالية التي يحتاجون إليها للعمل في غابات آسيا، ومع أن القوات الأميركية كانت تنسحب من فيتنام، كان عملنا هو تدريب العناصر الذين يمكن استدعاؤهم إلى فيتنام للقيام بعمليات إخلاء.

كانت مساحة منطقة التدريب الشمالية ستين ميلاً مربعاً، وهي بقعة من الأرض الجبلية الوعرة في الطرف الشمالي من الجزيرة وعلى بعد ٣٠ ميلاً من أقرب قاعدة، والطريق إليها وعرة جدّاً. كانت وحدة التدريب ـ والتي كنت في عدادها ـ تتمركز في معسكر صغير في أكواخ وفي ملاجىء بدائية في فسحات داخل الغابات. كانت جميع

الاتصالات تجري بوساطة الراديو. كل شيء حول المكان كان غائباً: الكهرباء، التموين، الخدمات البريدية. كان التدريب مستمراً دون انقطاع لمدة ٢٤ ساعة يومياً، وسبعة أيام في الأسبوع، وكانت فترة التقاط الأنفاس الوحيدة عندما لا يكون هناك عناصر للتدريب، وحتى في تلك الفترات كنا نمضي معظم الأوقات في إصلاح زوارق المطاط، وغيرها من الأعمال.

كان يساعدني عدد من المدربين، كل واحد منهم كان من النخبة في وحدته، وجميع الملازمين في أوكيناوا هم من الطلاب الذين دربتهم في المدرسة التأسيسية. كانت المنشآت الصعبة البعيدة لا يمكن الوصول إليها إلاّ بالهليكوبتر، وكنا من أشد العناصر في المنطقة. كانت هناك شكاوى قليلة حول الساعات الطوال أو الشروط القاسية لأننا كنا نقوم بالأعمال المحددة لنا في المقام الأول.

في أواخر الصيف كانت الأمور تجري بشكل حسن، وكنت قادراً على أن أحصل على إجازة. كان لدي فرصة لأن أطير إلى الوطن وأرى عائلتي ولكني لم أفكر بذلك. لقد شجّعت بتسي على أن تحضر إلى أوكيناوا بحيث نتمكّن من تمضية بعض الوقت في الجزيرة ثم بضعة أيام في طوكيو.

وصلت بتسي إلى أوكيناوا قبيل إعصار شديد، وهذا يعني أن علينا أن نؤجل رحلتنا إلى طوكيو وأن نختصرها، وعندما عدت إلى منطقة التدريب الشمالية للإشراف على إصلاح الأضرار الناتجة عن الإعصار حضرت معي وراقبت عن بعد كيف كنا ندرب الرجال على السقوط من الهليكوبتر على أرض جبلية، وهو تمرين يعلق حياتك على حبل من النايلون سماكته ٧/١٦ من الإنش. كان من الممتع أن ترى كيف يتحوّل رجل مشاة البحرية القاسي إلى كتلة هلامية مرتجفة معلقة على ارتفاع ١٢٠ قدماً في الهواء بحبل رفيع.

كان من مساعديّ بعض أفضل رتباء مشاة البحرية، وجميعهم كان يفتخر في الحقيقة في أننا نعيش في مكان ناءٍ غير مبالين بالخنازير البريّة ولا بالأفاعي السامة، نتسلق الجبال ونقفز من الهليكوبتر ونعيش في البرية.

إلى أن ظهرت تلك المرأة (زوجتي بتسي).

أقنع أحد الملازمين بتسي أن تتعلم السقوط من الهليكوبتر، علّمها إثنان من المدربين بأن تربط نفسها دون أن ترى كم هي مرتفعة، عندما وصلت إلى فوق التلة بدأ يحدثّها عن طريقة الهبوط، وعندما التفتت إلى جانبها نظرت إلى أسفل للمرة الأولى وقالت بصوت

هادىء: لا أريد القيام بذلك. لقد شرح لها الملازم فنس نوراكو أنها عندما تبدأ، فإن الاتجاه الوحيد لها هو نحو الأسفل. ولتأمين بعض التشجيع لها ربطت نفسي إلى جانبها وانزلقت معها.

لم يكن ذلك وقتاً مثالياً للتحدّث، ولكن بتسي تعجبت وقالت بصوت عالٍ «ما إذا كنت أفهم أنها أم لطفلين، وأنها امرأة لم تر زوجها منذ أشهر، وهل أنها حقّاً في إجازة مثالية، وهل أنا متأكد من أنها ستنجو عندما تقع على التلة؟».

أجبتُ بتسي مثلما أجبت معظم الرجال الذين كنت أدربهم: «كن واثقاً بالله واستعمل المعدات بصورة جيّدة».

عندما هبطنا قالت بتسي إنها وجدت أن تعليقي لم يكن مقنعاً، لأنها كانت تفكّر في كيفية ارتدادها عن الأرض إذا ما انزلقت عن الجبل وهلكت.. لا بد وأني كنت سأطيل عليها لو سألتها ما إذا كانت تريد المحاولة مرة ثانية، وعوضاً عن ذلك أكدت لها أنه حتى لو نزلت مرة واحدة فذلك يعتبر إنجازاً هامّاً. بعد سنوات كانت بتسي تروي تلك الحادثة وتقول: أنا لا أعتقد أنك ستدعني أقوم بذلك العمل مرة ثانية..

ولحسن الحظ كان أحد زملائي المدربين قد التقط صورة لبتسي وهي تهبط على التلة، ومنذ ذلك الوقت، وعندما يتعثر أحد المتدربين كنت أسحب الصورة وأريه إياها وأقول له: حسناً إذا كانت امرأة تستطيع أن تقوم بذلك فإنك تستطيع القيام به أيضاً...

عندما ذهبنا إلى طوكيو حللنا ضيفين على إحدى صديقات الطفولة لوالدة بتسي. لقد تشوقت إلى هذه الرحلة، وتخيّلت أنها ستكون مثل رحلة الاستجمام في هاواي حيث كنّا مختبئَيْن عن العالم. أقمنا في فندق سانو الذي كان سابقاً مقر القيادة للجنرال دوغلاس ماك آرثر خلال فترة الاحتلال العسكري لليابان، بعد الحرب أصبح الآن بناء سكنياً عسكرياً. ولكن جميع آمالنا بالراحة والهناء تلاشت بفضل مضيفتنا، وهي سيدة عجوز تبدو أقصى من رجال مشاة البحرية الذين تركتهم في أوكيناوا. ففي كل صباح كانت تأخذنا في جولة لمشاهدة المناظر الجميلة، ممّا حوّل إجازتنا إلى امتحان للتحمّل والجلد. لقد سافرت بتسي لمسافة طويلة تقرب من نصف العالم، ولم نفعل شيئاً سوى أننا قلنا لبعضنا: «الوداع».

خلال زيارة بتسي كنت منهمكاً بالوضع المتدهور في جنوبي شرقي آسيا. لقد بدا واضحاً أنه بدون تدخل الولايات المتحدة، كما كنّا وعدنا، فإن جمهورية فيتنام لن تتمكن من البقاء.

عودة إلى أوكيناوا فقد أعدنا النظر في برامج التدريب للتركيز على عمليات الإخلاء ومهارات حب البقاء والهرب والغزو. في ذلك الوقت كانت جميع الوحدات القتالية لمشاة البحرية قد سحبت من فيتنام مع مجموعة من وحدات الجيش، وفي خريف ١٩٧٤ كانت فرقة مشاة البحرية الثالثة تقوم بتحضيرات من أجل احتمال عودتنا إلى فيتنام.

لقد تلقيت أوامر باختيار فريق من الرجال من أجل التدريب مع القوات الخاصة في الجيش، ومع أن مدة خدمتي قد شارفت على الانتهاء فقد وضعت نفسي على الجدول. لقد كنت مشتاقاً لكي أرى عائلتي مرة ثانية ، ولكن كنت قلقاً أيضاً من التطورات في فيتنام. كانت وحدات فيتنامية بكاملها قد اكتُسحت، وأنباء إذاعة القوات المسلحة تنذر بالشؤم. كان يجري إخلاء المواطنين والموظفين الأميركيين من العاصمة سايغون.

وردت مكالمة من الكولونيل شاك هستر في الطرف الآخر للجزيرة. كان هستر على وشك أن يتولى قيادة الكتيبة الأولى (وهي وحدة الإنذار الأولى)، أي التي تهيأت للذهاب إلى فيتنام، وكان يبحث عن آمري سرايا إضافيين، وسألني عمّا إذا كنت أرغب في ذلك.

قلت: بالتأكيد، متى تريدني؟

قال: تعال إلى هنا بأسرع وقت.

بعد يومين قلت لرجالي في منطقة التدريب الشمالية وداعاً، والتحقت في معسكر في شمالي أوكيناوا. كنت الآن آمر السرية (أ) في الكتيبة الأولى من الفرقة الرابعة من مشاة البحرية. حالما وصلت جلست وكتبت رسالة إلى بتسي، وشرحت لها فيها أنني توليت الآن إمرة سرية رماة، وأن كتيبتنا سوف تكون جاهزة للانتقال جواً إلى فيتنام أو كمبوديا أو لاوس في أي لحظة. ومع أن فترة خدمتي كانت قد شارفت على الانتهاء، كتبت إليها أنني لا أعتقد أنه من الحسن أن يتولى قيادة هؤلاء العناصر ضابط ثم يتركهم عندما يواجهون القتال الحقيقي.

منذ سنة كنت قد ذهبت إلى أوكيناوا قبل أسبوعين من عيد الميلاد، والآن أنا أخبر بتسي بأنني لن أكون في الوطن هذا الميلاد أيضاً. كانت مراسلة مخلصة ومنتظمة ولكن مضى وقت طويل هذه المرة حتى تلقيت الرد، وعندما وصل قرأت هذا:

عزيزي لاري...

أنا أدرك الآن أن مشاة البحرية هي بالنسبة إليك أهم مني ومن أطفالنا. لقد عرفت ذلك خلال هذه السنين، ولم يكن عليّ أن أنتظر طويلاً حتى أراك. ابق عندك وقم بكل ما

تحتاج إليه، ولا تنس الاتصال بالأطفال، أما أنا فكفى. . أريد الطلاق، وهاك اسم محاميّ وعنوانه.

إن أسوأ ما في رسالة بتسي هو أني لم أتقبّلها، كنت أعتقد أن ما أقوم به كان أهم من عائلتي، كنت قلقاً على المائتي وعشرة رجال الذين كنت مسؤولاً عن حياتهم دون أن أذكر مصير العالم الحر، وعلى بتسي أن تنتظر فقط.

أبقيت نفسي مشغولاً خلال تلك الأسابيع، بحيث أني لم أفكر بها إلاّ قليلاً، وعندما كنت أفكر بها كان رد فعلي أن ذلك سيبقى معلّقاً حتى أعود، وسأهتم به لاحقاً.

في أوائل كانون الأول/ ديسمبر تعرضت لالتهاب حاد في الصدر. كنت مرة خلال الليل مع سريتي في الحقل نعمل كقوة مهاجمة لتمرين ميداني كبير، كان شاك هستور هناك كمقيّم، والتفت إليّ وقال: ماذا حلّ بك؟

ـ أنا لا شيء، أنا بأحسن حال.

ـ تباً لك، أنت مريض ويبدو عليك الإجهاد، متى تنتهي خدمتك هنا؟

ـ كان من المفترض أن أترك الأسبوع المقبل، ولكني قدمت طلب تمديد.

ـ ماذا عن عائلتك؟ ماذا سيقولون عن هذا؟

اغرورقت عيناي بالدموع، ولم أستطع أن أتكلم.

ـ «عد إلى الوطن يا أولي. . الأمر لا يستحق ذلك. أنت قلق على مصير هؤلاء الرفاق وأنا أقدر ذلك، ولكن لن يقدر هذا أي شخص آخر. لقد رمى السياسيون في واشنطن حياة العديد من الشباب بعيداً. لن يقلقوا إذا ما تحطّمت حياتك العائلية، أو إذا ما عاش أولادك دونك. الحرب شارفت على الانتهاء. بقيت مسألة وقف إطلاق النار. وإذا تخليت عن حياتك لن تغير أي شيء. عد إلى الوطن عد إلى عائلتك».

كنت أدرك بداخلي أنه على حق، لم أكن مستعداً لأن أقبل ذلك، ولكني قررت أخيراً أن آخذ بنصيحته وأعود إلى الولايات المتحدة، بعدما تحلق حولي صديقان قديمان من زملائي في المدرسة بيت ستينر وبوب ايرل ذات ليلة، وقالا لي: كم أنت مخدّر؟ لقد أقنعاني بسحب طلب التمديد، وتركت أوكيناوا بعد بضعة أيام.

في الوقت الذي هبطت فيه الطائرة في لوس انجلوس كنت مريضاً بالفعل. كنت أتناول علاج المضاد للحيويات، ولكني ما زلت أسعل والدم يتصاعد من فمي، وكان هناك دم في البول أيضاً.

عندما اتصلت ببتسي من المطار كنت أسمع الرجفة في صوتها، قالت: كنت أعني ما كتبت في تلك الرسالة، أنا آسفة، لكني لا أستطيع الاستمرار في حياة كهذه، إذا أردت أن ترى الأطفال اتصل بالمحامي.

كنت خائفاً، لقد عدت للتو بعد سنة قضيتها في أوكيناوا أدرّب بجهد كبير على إنقاذ الناس (أو كنت أظن ذلك) بينما كانت تتمتع هي بالحياة الآمنة في منزلنا الجميل في فيرجينيا. بعد فترة انهارت حكومة فيتنام وجيش جنوبي فيتنام، كل شيء كنت أحارب من أجله وأتعب لأجله قد تداعى، والآن هي تنتظر مني أن أبتعد عن رجالي في مشاة البحرية! حسناً لقد قمت بذلك فعلاً، لقد اتهمتها بأنها كانت ناكرة للنعمة، غير واقعية، وتتصرف من جانب واحد، ولكنها لم تتحرك.

قلت لها: «إذا كان ذلك ما تريدين بالفعل فإن ذلك لا يزعجني»، ثم قلت بعدها أغبى كلمة نطقت بها «أنا لا أبالي».

قالت بتسي: أنا أعلم. هذه هي النقطة الأساسية. أنت لا تبالي «انتهى كل شيء».

توجّهت إلى واشنطن جوّاً وكنت لا أزال مريضاً وأشعر بالأسى تجاه نفسي. كان الميلاد بعد بضعة أيام، وأنا لم أستطع حتى زيارة زوجتي وأولادي. تايت عمرها الآن ٥ سنوات وستيوارت ٤ سنوات، ولم يعلم أي منهما من أنا فعلاً؟ الحقيقة أنه حتى قبل أوكيناوا لم أمض وقتاً كافياً معهما. كنت أذهب في الصباح الباكر إلى العمل وأعود إلى منزلي متأخراً فأجدهما نائمين. لم أكن معهما في عطل نهايات الأسبوع أيضاً.

اتصلت بمحامي بتسي فقالت لي سكرتيرته: لقد غادر لتمضية عطلة الأعياد، لماذا لا تتصل في كانون الثاني/ يناير وتحاول أن تجد طريقة لترى أولادك، وبالمناسبة من هو محاميك؟

هذا ما صعقني عندما وجدت أن بتسي جدية في أمر الطلاق.

انتقلت إلى مبنى الضباط وهو المكان السكني الوحيد المتوفر للضباط في منطقة كوانتيكو، ومع اقتراب الميلاد كان المكان فارغاً حتى أصبح شبه معزول. كان هناك تلفزيون في غرفتي، وعندما كنت أشاهد الأخبار في الليلة الأولى كانت النشرة بكاملها حول انهيار فيتنام الجنوبية. لقد تم تجهيز مشاة البحرية، أي عناصري، من أجل الانتشار لتنفيذ عمليات إخلاء على سواحل جنوبي شرقي آسيا. خلال أيام انتشر الكولونيل شاك هستور وكتيبته التي كنت قد تركتها من أجل إنقاذ طاقم السفينة مياغيز الأميركية، والتي

خطفت على ساحل كمبوديا، وبدلاً من أن أكون معهم، كنت أجلس وحدي في فرجينيا مع ما بدا لي أنه زواج لا يمكن إنقاذه، وطفلين لن أتمكن من لقائهما في الميلاد. كان الطقس في الخارج بارداً قاتماً، وكنت أشعر بالشعور نفسه عندما قررت أن أترك أوكيناوا. أقنعت نفسي بأنني سأصحح كل شيء مع بتسي حالما أعود إلى الوطن، ولكنها لم ترض حتى بفكرة رؤيتي.

كان ذلك مدمّراً، وحتى الآن لم أفشل تماماً، فكل ما كنت أخطط لعمله كنت أحققه بالعمل الدؤوب والمثابرة، على الأقل هذا ما كنت أفكر به.

كم كنت أحمق عندما تركت إمرة سرية رماة من أجل أن أعود إلى الوطن فلا أجد شيئاً. كنت مربكاً وغاضباً ومصاباً بالأذى. صحياً كنت بوضع مأساوي مع سعال مزمن لا يتوقف وعدم شهية للطعام، ولأول مرة في حياتي لم أكن قادراً على النوم. منذ سنوات كنت أتدرب كثيراً كل يوم، ولكني اليوم بالكاد أقدر أن أسحب نفسي من السرير. أستطيع أن أتذكر الآن تلك الفترة وأدرك فعلاً أمارات الحزن والأسى. وفي العودة إلى الماضي لم أكن لأقبل بذلك حتى لو كنت أعرف حقيقته، فالرجال الحقيقيون لا يتعرضون لهذا النوع من المشاكل، وكنت أعلم أني رجل حقيقي.

بعد يوم أو يومين قررت أن أذهب إلى ماريلاند كي أزور بيل هاسكل صديقي القديم من فيتنام، والذي أصبح الآن موظفاً حكومياً. بينما كنت أقود على الأوتوستراد رقم ٩٥ خارج ولاية كوانتيكو، سيطر عليّ حسّ شديد من اليأس لم أشعر به من قبل. كنت أنا وبتسي قد سافرنا ذهاباً وإياباً مرات عديدة على هذه الطريق عندما كنا نتواعد. في يوم زواجنا سافرنا على هذه الطريق لنبدأ حياتنا الجديدة معاً، والآن أسافر وحدي كي أقابل صديقاً قديماً لنتحدث عن الأيام الماضية.

بينما كنت مسرعاً على الطريق انتابتني نوبة سعال حادة وجنحت قليلاً، ثم عدت إلى جانب الطريق وأوقفت السيارة وترجّلت منها. كان الهواء النقي قد خفّف من حدة سعالي والتقطت أنفاسي، كان عليّ أن أقوم بشيء ما لمكافحة هذا السعال، أدرت السيارة وعدت إلى كوانتيكو حيث اتجهت مباشرة إلى المستوصف.

التقيت هناك الكولونيل ديك شولز قائد كتيبتي سابقاً في فيتنام، والرجل الذي قدّمني إلى روس بروت. كان ديك قد ترقّى حديثاً إلى رتبة عميد، وكان في المستوصف لإجراء الفحوصات الطبية التي تتطلبها رتبته الجديدة. حيّاني بشوق ثم تقدّم نحوي وقال لي: يا أزرق أنت تبدو بوضع مزعج، ماذا ألمّ بك؟

سبّب سؤاله تساقط دموعي. لقد حدث هذا مرتين في شهر واحد، ولم أكن أبكي حتى عند حدوث أي أمر شخصي مؤلم.

عندما فتح الباب المؤدي إلى مكتب الطبيب الداخلي وضع شولز يده على كتفي وقال للطبيب: «قبل أن تفحصني، اكشف على هذا الزميل». بعد أن أجرى لي الطبيب فحصاً كاملاً قال لي: «أنت محطّم، ومن المحتمل أن يكون لديك طفيليات، إنك تعاني من فقر الدم، وهناك سائل في إحدى رئتيك، أريد أن أدخلك إلى المستشفى اليوم» قلت له: «ليس اليوم،لقد عدت للتو، وهناك مليون أمر أريد أن أقوم به». قال الطبيب: «كل ذلك يمكن تأجيله، إلى جانب أنك أخبرتني أن لا أحد ينتظرك».

بعد ظهر اليوم نفسه نقلني شولز إلى مستشفى بشسدا للبحرية وبقي معي بينما كنت أقوم بإجراءات الدخول. كان ديك شولز أحد أعظم القادة الذين يدخلون إلى أعماق نفوس رجالهم، وكان بعينيه الزرقاوين الحزينتين يشبه أبراهام لنكولن ولكن دون لحية. كل من تعامل معه أحبه. كان من النوع الذي يعاقب الجندي الذي يسيء في عمله فيخفّض رتبته ويحكم عليه بغرامة ٦ أشهر حسم، ثم يضعه لمدة شهر في السجن. ومع كل هذا يكون الجندي مسروراً. فكيف استطاع هذا الرجل أن ينجح في عمل عنيف كهذا؟ أنا أدرك أن هذا يناقض الصورة العامة عن الحياة العسكرية، ولكن أفضل القادة الذين عرفتهم كانوا رجالاً لطفاء.

أمضيت الأيام القليلة مستلقياً في السرير ومحاولاً أن أقرأ أي كتاب أعثر عليه، ولكني لم أستطع أن أركّز تفكيري. كنت أضع الكتاب بعد خمس دقائق دون أن أتذكر ما كنت أقرأ. لم أكن أشاهد التلفزيون كثيراً، لكني صرت أشاهده حتى في النهار ما دام يشكّل عنصراً منبهاً لي إذا ما كنت قادراً على الانتباه.

الشيء الوحيد الذي استطعت التركيز عليه كان أنباء فيتنام وكمبوديا وكلها كانت سيئة. عدا عن الأخبار حاولت يائساً أن أتجنب التفكير ببتسي أو الأولاد، مع أن عيد الميلاد بات قريباً.

رفضت أن أقبل فكرة انهياري، لقد كنت أعلم أني غاضب من بتسي وكنت مقتنعاً أن تلك كانت غلطتها، بالإضافة إلى ذلك كانت الحرب التي خضتها والتي كنت تدربت من أجلها ودرّبت الآخرين على القتال فيها تنتهي بشكل خاطىء، كنت في مأزق ولكني لم أعرف ما هو.

عندما حضر شولز لرؤيتي بعد بضعة أيام دخلنا إلى قاعة مفتوحة حيث قال لي: لقد

تكلمت مع الأطباء، أنت لا تعاني من التهاب الرئة، أو أي مرض في الكبد، أو أي شيء مثل هذا، لكنك ما زلت مريضاً، فأنت تعاني من السعال الشديد، وهناك دم في البول، لا يبدو أنك تتحسن. لقد قالوا لي إنك عصبي وسريع الغضب. بصراحة يبدو لهم وكأنك لا تهتم بشيء أبداً وبالتأكيد فأنت لا تهتم بالحفاظ على صحتك، ويعتقدون أنك بحاجة إلى مساعدة نفسية.

كنت أحب أن أرى نفسي هادئاً ومنضبطاً، ولكن عندما قال ديك شولز تلك الكلمات انفجرت بوجهه ـ وكان هذا منافياً لطبعي وكنت حتماً أبدو تافهاً ـ عندما جلست هناك وصرخت: أنا بأحسن حال، أنا لست مصاباً بشيء، أنا هادىء جداً، وأنا لا أريد هذا النوع من المساعدة. كل ما كنت أريده هو أن أخرج من هذا المكان.

منذ عشر سنوات أمضيت ١١ شهراً في المستشفى بعدما تعرضت لحادث سير كاد يقضي على حياتي. كنت أكره المستشفيات منذ اللحظة التي يوقظونك فيها عند الساعة الرابعة صباحاً إلى أن يتأكدوا من أنك نائم، ثم عندما يحضرون في الليل ليوقظوك ويعطوك حبة الدواء.

قال لي شولز: انتبه، لقد رأيتك في أثناء القتال تتحمل أسوأ ضغوط يمكن أن يتعرّض لها أيّ إنسان، لكنّ هذا مختلف. لقد وثقت بي في المعركة عندما كان الوضع أشد خطراً مما هو عليه الآن وعليك أن تثق بي في هذه اللحظة، أنا أشعر أنك بحاجة إلى علاج نفسي وكذلك الأطباء، ولكن ذلك لن يجري إلّا إذا وافقت.

كان ذلك مهيناً. . «أنا في العناية النفسية؟» الأطباء النفسيون يعالجون المجانين، ويمكن أن يكون لدي بعض المشاكل، ولكن يمكنني أن أحلها بنفسي، أنا بالتأكيد لا أحتاج إلى مساعدة من أي طبيب.

كنت أنا وشولز في جحيم المعركة معاً وها نحن نعود سوياً من جديد. لقد أحببت هذا الرجل، فكيف يقول هذا الكلام لي؟

قال: لا تقرِّر فوراً، فكّر بالموضوع بضع ساعات، سأعود فيها بعد، أنت تعرف أنني لا أقترح ذلك إلا إذا كنت متأكداً من أنه الشيء الصحيح الذي نقوم به.

في وسط غضبي وإحباطي بدأت أدرك أن شولز يمكن أن يكون محقاً، فربما كان العلاج الذي أحتاج إليه غير موجود في المضادات الحيوية.

عندما عاد شولز قلت له: حسناً قرّرت أن أخضع للعلاج.

قال: لقد تصورت أنك ستوافق، وقد قمت بالترتيبات اللازمة.

كان يزورني كل يوم خلال فترة الأحد عشر يوماً التي أمضيتها هناك. الآن أصبح الأمر شيئاً جديداً بالنسبة إليّ، فأنا لم أعرف ماذا كنت أتوقع، هل هي عقاقير أو علاج بالصدمات الكهربائية أو بالسترة الواقية.. أو غيرها.. ولكني لم أجد شيئاً من هذا القبيل، وبدلاً من ذلك وضعت في «أجواء المعالجة» وذلك بالاستماع إلى شروحات وجلسات مع العديد من الأطباء. لقد كرهت ذلك، كان مهيناً أن أكون هناك، كنت أراقب ما حولي باستمرار وأسأل نفسي: من هم هؤلاء الناس ولماذا أنا هنا؟ (كان هو السؤال نفسه الذي طرحته على نفسي عام ١٩٨٧ في أثناء جلسات التحقيق).

سألني الأطباء ما إذا كنت أعتبر نفسي مذنباً لأني لم أبق مع عناصر وحدتي. سألوني ما بدا أنه آلاف الأسئلة النفسية، مثل: هل تكره والدك؟ أمك؟ كيف تشعر تجاه زوجتك؟ أطفالك؟ مشاة البحرية؟ أصدقائك؟.. مع كل هذه الأسئلة كنت متأكداً من أن أجوبتي عكست شعوري العميق بأن ذلك ليس من شغلهم، وأتذكر أنني كنت عدائياً تجاههم ومستهزئاً بهم. كانت تلك غلطة، فهؤلاء الناس كانوا يحاولون مساعدتي، وقد ساعدوني بالفعل بعد ذلك.

خلال جلسات المعالجة سمعت قصصاً كثيرة. كان العديد من الرجال يصفون أعمال العنف في منازلهم وإدمانهم المفرط للشرب. لم أشاهد رجلاً يضرب امرأة وهو بحالة الغضب، وصدمت عندما ذكر أحد زملائي المرضى كيف كانت أمه تقسو عليه، وكم كان قاسياً على زوجته وأولاده. لم أتعجب ما إذا واجه هؤلاء الناس المشاكل، كنت أعتقد ذلك. لم تكن هناك من مقارنة بيني وبينهم، كان والدي دائماً يتناول الطعام في المنزل، وكان والداي يحبان بعضهما، وكم سأكون ضعيفاً إذا انزعجت من شيء تافه مثل انهيار زواجي. وهكذا توصلت إلى نتيجة هي أن مشاكلي لم تكن خطيرة وهذا ما كنت أميل إليه. كنت فخوراً ومتعجرفاً فلم أتقبل فكرة أنني على خطأ وأني بحاجة إلى مساعدة. لقد قبلت بتلك الفكرة على مستوى سطحي بالموافقة على أن أبقى في المستشفى، ولكني لم أكن مؤمناً بذلك فعلاً.

عندما اقترح أحد الأطباء أن نستشير أنا وبتسي مستشاراً لشؤون مشاكل الزواج ضحكت كثيراً. (كان كل اقتراح يرد من الأطباء النفسيين مسبوقاً بكلمة ممكن، وبما أنني خدمت أكثر من عشر سنوات في الحياة العسكرية المليئة بالقواعد البيضاء والسوداء والتأكيدات، وجدت أنه من الصعب عليّ أن أقبل فكرة أن الحياة هي مجموعة من الخيارات)، وإلى جانب ذلك فإن فكرة اعتماد مستشار الزواج لم تكن خياراً واقعياً، وحتى

لو قبلت بتسي بالفكرة (وهذا لم يكن محتملًا) فأنا لم أحبذ هذه الفكرة، فإذا كان هناك من مشكلة فعلاً فعلينا أن نعمل سوياً، على حلّها.

وكم كنت مغفلاً!

أخيراً أدخل أحد الأطباء الشباب الطمأنينة إلى روحي فقد كلّمني بلطف وإنسانية ومثابرة.. «لقد قلت لي في غالب الأحيان إنك لا تهتم.. مع أنك تهتم.. إنك تهتم كثيراً بما يجري لزوجتك وأطفالك، أنت لا تريد حقّاً هذا الطلاق، هل تريده؟».

ــ لقد قلت لك إني لا أهتم، وهي لا تهتم أيضاً.

ــ لِمَ أنت متأكد؟ هل حاولت الاستشارة؟ هل حاولت حل المشكلة؟

ــ إنها ليست مهتمة، لقد قلت لك ذلك، لقد أخبرتني بأن أتصل بمحاميها.

ــ ربما كانت غير مهتمة لأنكما غاضبان من بعضكما البعض إلى درجة أنك لا تستطيع شرح ذلك. لماذا لا أتصل أنا بها؟

ــ كلا لا أريدك أن تفعل ذلك، أنا أرفض الطلب والالتماس، إلى جانب أنني لا أريد البقاء هنا، أستطيع أن أترك في أي وقت.

ــ نعم، ولكن إلى أين تذهب؟

ــ إلى العمل، لقد تلقيت أوامري.

ــ يمكنك أن تترك في أي وقت ولكن لا أعتقد أنك مستعد لذلك. ما زلت غاضباً ومصاباً بالمرارة إلى درجة يصعب معها أن تتحمل أعباء العمل.

كان ماهراً جداً وقد ساومني دون هوادة، لكني أحببته وهذا ما أظهر الخلاف، وأخيراً عندما عرض فكرة استشارة شؤون الزواج للمرة الثالثة أو الرابعة أذعنت ووافقت على أن يتصل ببتسي. لم أكن مستعداً لتحمل أي مسؤولية عما يحدث، ولكن على الأقل كنت أعلم ما يجري.

قلت: لدي عدة أشياء تخبرها بها.

قال: لا يمكنك أن تخبرها أي شيء، لم يحن الوقت بعد، أولاً أريد أن أتكلم معها.

بعد أن اجتمع ببتسي عاد ليراني، قال لي: دعني أخبرك ما علمت، لقد كنت دائماً زوجاً مخلصاً وأباً رائعاً عندما كنت معهم. أنت مستعد لأن تقوم بأي شيء من أجلها ومن أجل الأولاد. لقد عملت جاهداً لتؤمن لهم راتب مشاة البحرية، والذي كسر قلب بتسي أن مشاة البحرية كانت أهم منها بالنسبة إليك.

عندما سمعت ذلك شعرت بدافع قوي إلى الكلام:

قال: أنا أعتقد أنك جاهز لمغادرة المستشفى، إن الجنرال شولز يعرف قسيساً في كوانتيكو، وهو مستشار زواج ممتاز، سأضعك على لائحة المرضى المعافين للخروج، وأطلب منك أن تتصل بي كل يوم وتخبرني عن أحوالك.

كنت ممتناً لما تعلمته من أطباء بشسدا، ولكني كنت ممتناً أكثر لأني خرجت منها. كانت الفترة أقل من أسبوعين ولكنها بدت طويلة، وأظن أني أظهرت تناقضاً في تصرفاتي عندما قلت تلك الأشياء التافهة في أثناء اتصالي اليوم، كنت أمزح وأقول: أنا أتكلم من المكسيك، لقد سرقنا المصرف، وكنت أمزح بالطبع.

كان هناك الكثير الذي لم يعجبني في الأطباء النفسيين في بشسدا ومن ذلك ما بدا أنه ميل كبير لجعل المريض يلوم الآخرين حول المشاكل التي تعرض لها وخصوصاً الأهل. بالنسبة إليّ كان ذلك تهرباً من المسؤولية، وهناك شيء آخر لم أهتم به هو طريقة بعض المعالجين. كانت المعالجة في المستشفى مساعدة ولكنها ليست فعّالة عن مثل مستشار الزواج، ولكن بالنسبة إليّ كانت خطوة حاسمة، وأنا أرتعد عندما أفكر: ماذا كان يمكن أن يحدث لي لو لم أذهب إلى المستشفى؟

خلال إقامتي في بشسدا اقتنعت أن معظم مشاكلي كانت بسبب حرب فيتنام. لقد شعرت بالغضب وأسفت لخسارة حياة الكثير من الناس الذين فقدناهم بينما كان زعماؤنا السياسيون يضعون القيود حول ردودنا. ما زلت أشعر بالطريقة نفسها ولكني اليوم أفهم أن ذلك لم يكن القضية الوحيدة المسببة لانهياري. لقد أرغمني دخولي إلى المستشفى على التفكير بأشياء كنت دائماً قادراً على تجنّبها مثلاً: حقيقة علاقتي مع بتسي، ففي الماضي كنت منشغلاً جداً وكنت قاسي الطبع لا أتطلع إلى داخلي، ولكني الآن عرفت ما كنت قد أنكرته في أوكيناوا في الأسابيع التي تلت عودتي من أنني أحببتها، وأنني أريد العودة إليها، وأن فقداني لها هو سبب انهياري. لقد ساعدني الأطباء في بشسدا لكي أدرك أنني أستطيع أن أعيش من دونها، أما الآن فأنا أريد العيش معها.

عندما تركت بشسدا كان واضحاً أنني وبتسي أصبحنا قادرين على العودة إلى بعضنا. لم أكن أدرك مدى تأثير استشفائي في وضعي في مشاة البحرية. لم يقف أحد ليعلن أن عنصر مشاة البحرية لا يمكنه أن يبحث عن معالجة نفسية، ولكن كان مفهوماً أن الضابط الناجح لم يجرب المشاكل العاطفية.

لم تكن وحدات مشاة البحرية وحدها متمسكة بهذه القواعد السيئة، فهناك اعتقاد

شائع في مجتمعنا مفاده أنك إذا عانيت مرة من الانهيار أو أي نـوع آخر من الألم العـاطفي فإنك لن تشفى منه. ليس من الصعب أن تحضر شخصاً ما إلى الطبيب من جراء إصابتـه بالتهاب في الصدر أو لإصابتـه بكسر في يده، ولكنـه من الصعب جداً أن تحضر الشخص نفسه لطلب العلاج من مشكلة عاطفية.

حتى هـذه الأيام كـانت الحكمة السـائدة في العـديد من المؤسسـات ـ وخصوصـاً في الأوسـاط الحكوميـة والعسكريـة ـ هي أن أي شخص خضع للعـلاج النفساني أو لمعالجة مستشار الزواج أو تغلب عـلى الإدمان هـو حتماً مـوضع شبهـة. في الثمانينـات بدأ السـماح لرجال مشاة البحرية بالدخول إلى المستشفى بسبب معـاناتهم من مشكلة شرب الكحـول، ثم يعودون بعد إنهاء العلاج إلى وحداتهم.

ونتيجة لتجربتي الخاصة أصبحت أكثر علماً بإشارات وعلامات المشاكل العاطفية عند بعض الناس. بعد سنوات نصحت الشباب في مشـاة البحريـة بالبحث عن عـلاج أو على الأقل بالتحدث إلى المستشارين. في الحياة العسكريـة يلعب القسيسون هـذا الدور، حيث كان القسيس الجيّد المدرّب يقدم ـ أشيـاء خاصّـة إلى الشخص المصاب ـ إدراكـاً بقوة الله ومحبته. وهذا مـا ساعـدني بالتـأكيد، فبينـما كنت في بشسدا بـدأت بزيـارة كنيسة المستشفى وكنت أتضرّع إلى الله طالباً مساعدتي: «أرجوك يا رب ساعدني لأخرج من هنا، وساعدني على إنقاذ زواجي».

في الـوقت الذي أنهيت فيـه أنا وبتسي عملنـا عند مستشـار الـزواج، ازددت تفهّـماً لكيفية شفاء المصلّي بسرعة سواء أكان المرضى أجساماً منهارة أم عقولاً أم زواجات. عندما خرجت من المستشفى أخذت أنـا وبتسي موعـداً مع لاري بـويت وهو قسيس في البحـرية يعمـل في كوانتيكـو. وصلت باكـراً إلى موعـدنا الأول، وبينـما جلست في غرفـة الانتـظار تناولت كتاباً عنوانه: «الجرأة على الانضباط» تـأليف جيمس دوبسون، وهـو أستاذ في طب الأطفـال في كلية الـطب في جامعـة كارولينـا الجنوبيـة. لم أكن قـد عـرفت من قبـل اسم دوبسون، ومن عنوان كتابه افترضت أن له علاقة ما بمشاة البحرية. كان كتاباً يحتوي على نصائح للأهل كما علمت، فعندما فتحت الكتاب قرأت في إحدى الصفحات ما يلي: «أنا آمـل أن أقدم مفتـاحاً ذهبيـاً صغيراً لابنتي في عيـد ميـلادهـا العـاشر»، ثم بعـده «يكـون موصولاً بسلسلة تربطها حول عنقها وتمثل مفتاح قلبها، فلربمـا أعطت هـذا المفتاح لـرجل واحد فقط ـ الرجل الوحيد الذي سيبادلها الحب في بقية حياتها ـ».

لقد كان وقع هذه الكلمات مثل هول البرق، فأنا لدي ابنة في المنزل مع أني لم أرها منـذ وقت طويـل، وإذا لم ينجح هـذا العلاج عنـد مستشار الـزواج، وإذا لم يستمر هـذا

الزواج، فأي نوع من الهدايا يمكنني أن أقدمه إلى ابنتي، والتي بالكاد أعرفها عندما تصبح في العاشرة؟ ما هو المثل الذي سأقدمه إليها عن الرجل الذي تريد أن تبحث عنه كشريك لحياتها؟ كيف يمكنني أن أقوم بعمل جميل كما فعل دوبسون وكتب عنه في كتابه؟؟. وللمرة الثالثة في هذا المأزق بكيت.

لم تكن بتسي قد وصلت عندما فتح القسيس لاري بويت الباب وانتهيت وأنا أحضر هذه الجلسة دونها. يبدو أنها كانت أكثر نفوراً مني بحضورها إلى هنا، ربما لأن بويت كان يرتدي الزي العسكري، وأن الجنرال شولز أوصى بالتعامل معه، وذلك يعني أنه أتى من عالمي أنا. عندما ظهرت بدت متحفّزة، قالت للقسيس: «سأحضر مرات قليلة، ولكني آمل أنك لن تحضر معك أغراض الله»، كان من الممكن أن يرد بعض القسيسين بعنف على هذا القول لكنّ لاري انحنى قليلاً وقال: «لا تقلقي يا بتسي إنه هنا».

لقد ساعدنا مستشار الزواج في نهاية الأمر، ولكن كان قد مضى وقت طويل قبل أن تتحسن الأمور. في إحدى جلساتنا الأولى، أعلنت بتسي صراحة أن السبب الوحيد الذي يزعجها هو أنها شعرت بأسى تجاهي، وذلك ما أثّر فيّ فعلاً. بعد أسابيع عدة من جلسات المستشار عدت إلى المنزل. استمرينا أنا وبتسي باللقاء ـ كل على انفراد ـ مع لاري (كانت مواعيدي مساء كل اثنين لأن القدر شاء أن لا أخسر ساعة عمل في مشاة البحرية..). ما زلت أتذكر الجلسة عندما أخبرت لاري أنني عدت إلى بتسي، لقد توقّعت منه أن يهنئني، ولكنه لم يظهر أي حماسة، كما أني أصبت بخيبة أمل من ردة فعله هذه، لكنه كان يعلم أن العمل ما يزال طويلاً أمامه، ولم يكن مهتماً بصورة خاصّة بالتغييرات السطحية.

بعد ظهر يوم الجمعة كنت أنا وبتسي نلتقي لاري سويّاً، ثم بدأنا نمضي ساعة أو ساعتين مع بعضنا، وفي بعض الأحيان كنا نتسوّق أو نذهب لتناول القهوة.

بدأت أتفهم أن زوجتي صديقة حنونة مساعدة، وهي لا تحضر حتى تتلقى الأوامر بل لتساعدني على حمل الأعباء. كان علينا أن نتعلم كيف نتكلّم مع بعضنا بوضوح ودون روح عدائية كالقول: إنه يؤذيني فعلاً أن أتصل بالمكتب فلا أتلقى مكالمة جوابي. سيقول لاري: لا تقل لها كيف تشعرين، بل أخبرها كيف تشعر أنت. لا تخبرا بعضكما بما تقومان به من أخطاء، وعوضاً عن ذلك أوضح ما تريد وما أنت بحاجة إليه، وبدلاً من القول: «أنت لم تأخذ المهملات لرميها» قل: «أريد مساعدة في نقل المهملات» أو «أشكرك فعلاً لو أخذت المهملات لرميها».

لم يكن الانفصال الطويل هو السبب الوحيد الذي أدى إلى كثرة الطلاق عند أفراد مشاة البحرية، بل هو التناقض بين الثقافة العسكرية ومتطلبات الزواج. كضابط في مشاة

البحرية تكون معتاداً على إعطاء الأوامر، والطلب إلى الناس الآخرين بأن يقوموا بما عليهم، بينما كان الزواج شراكة وليس فصيلة، وأن تكون أباً معناه أنّك مختلف كلياً عن كونك قائداً.

والأهم من ذلك أن بتسي تغيّرت كثيراً في خلال خدمتي سنة في فيتنام، ومرة أخرى عندما ذهبت إلى أوكيناوا. عدت من فيتنام وأنا أقول ما معناه: ها أنا عدت سنقوم بالأعباء معاً. لكن بتسي كانت تعيش وحيدة لمدة سنة، وكانت أماً وأباً ومدبرة منزل، بالإضافة إلى أنها كانت تعمل بدوام جزئي كمساعدة تنفيذية في دار للترجمة.

العديد من الأزواج العسكريين يمرون بهذه التجربة. فالزوجات، وبينما يكون أزواجهن بعيدين لفترات طويلة يتوجب عليهن أن يهتمّين بكل شيء، ليس بالأطفال فقط بل كذلك بالمنزل والسيارة والشؤون المالية والرهونات وغيرها. وعندما يعود الرجال ويتهيأون للعودة إلى دورهم التقليدي، يكتشفون أن كل شيء مختلف، وأن زوجاتهم قد أصبحن أقوى وأكثر استقلالاً. في حالتنا نحن كل ذلك جرى مقابل تغيّرات في أدوار وعلاقات الرجال مع النساء تغييرات عميقة اخترقت صميم حياتنا العسكرية.

وهناك شيء آخر بدأت أفهمه، فبالإضافة إلينا نحن الاثنين كان هناك عنصر ثالث ـ في العلاقة نفسها ـ يجب أن نرعاه. بدأت أمضي مزيداً من الوقت في المنزل، مع أن ميلي سابقاً كان إلى العمل، إلا أن بتسي أصبحت أكثر تسامحاً، ولم يعد الوقت الذي أمضيناه على فراق مصدر توتر بيننا.

بدأت أرى في بتسي زوجة وصديقة أيضاً. لم أفكر من قبل بأن المرأة يمكن أن تكون صديقاً حميماً، فعندما كنت أكبر كان جميع أصدقائي من الشبان فقط، أما البنات فكنّ من اللواتي نضرب المواعيد معهنّ.

تحدّث لاري بويت عن أسس المسؤولية، وكيف أنني لم أستطع أن أفي بالتزاماتي لبتسي والأطفال عندما لا أكون معهم، إما لأني صمّمت أن أكون ضابطاً متفوّقاً وغير عادي في مشاة البحرية، أو لأننا كنّا مطلقين. ثم تحدّث عن أطفالنا كهبات منحها الله لنا، وساعدنا على أن نفهم أنه عندما نكون فعلاً بحاجة إلى مساعدة، كان هناك مكان واحد يمكننا دائماً ودائماً أن نجده هو اللجوء إلى الله الذي خلقنا جميعاً.

استغرقت عملية الإنقاذ وقتاً طويلاً، بدأت منذ اللحظة التي عدت فيها من الأوتوستراد ٩٥ في ذلك اليوم من شهر كانون الأول/ ديسمبر وتطلبت مساعدة العديد من الناس. كان هناك تقدم وتراجع خلال الطريق، ولدى سقوط سايغون في نهاية نيسان/

أبريل، كنت قادراً على مشاهدة ذلك على شاشة التلفزيون مع بتسي. بكيت دون خجل ووضعت بتسي يدها على كتفي، شعرت أنها فهمت معنى ذلك.

بمساعدة الله والعمل الصعب الدؤوب أعدنا زواجنا إلى ما كان عليه تدريجياً. والآن بعد هذه التجربة أنا لا أوصي بأن إصلاح الزواج يجب أن يبدأ بالمعالجة النفسية، ولكن في حالتنا نحن كنت أعرف أنه لو لم أنته في المستشفى، ولم أذهب من هناك إلى مستشار الزواج، كنت أشك بنجاح زواجنا، كان بإمكاننا أن نرقّع الأمور بشكل مؤقت، ولكننا لم نكن لنصل إلى حل حقيقي.

بينما كنت أعمل على إصلاح علاقتي مع بتسي، كانت هناك علاقة أخرى يجب العمل على إصلاحها مع أني لم أدركها في ذلك الوقت. وهنا أيضاً ساعدني رجل يرتدي البزّة العسكرية. عندما تركت بشسدا عيّنت للعمل في «قسم العديد» في قيادة مشاة البحرية في أرلنغتون ـ فرجينيا، وكان ذلك أول عمل مكتبي ـ وكما تمنيت آخر عمل أيضاً ـ لي في مشاة البحرية. ولكن هذه الأعمال الإدارية كانت مهمة جدّاً للضباط المتطلعين نحو مستقبل أفضل. كان هناك القليل من الجاذبية في العمل في القيادة. كانت البناية عبارة عن مخزن قديم على الطريق المؤدي إلى مقبرة أرلنغتون، وكان يمكن للعناصر القديمة أن يمدوا أيديهم من الشبابيك ويشيروا بها قائلين للقادمين الجدد مثلي: «انظر إلى هذه القبور، إنها محجوزة لضباط البحرية».

كنت خلال هذه الفترة قد عملت على تغيير المهمات التي يحظر اصطحاب أفراد العائلة فيها، وابتكرت نظاماً جديداً هو خطة انتشار الوحدات. فبدلاً من إرسال عناصر من مشاة البحرية إلى ما وراء البحار لمدة ١٢ أو ١٣ شهراً (أو ١٨ شهراً عند العازبين)، صرنا نرسل وحدات بأكملها لمدة ستة أشهر. كانت المدة أقصر والمعنويات أفضل، وحافظنا على التكامل العضوي للوحدة، وأنقذنا العديد من الزيجات.

بعد سنة منحت وساماً عن عملي في هذا المشروع، ولم أكن أعلم من قبل أنه يمكن أن يمنح الوسام من أجل أعمال إدارية.

التقيت في قيادة مشاة البحرية برجل غيّر مجرى حياتي هو الرائد جون غرينالدز، وكنت في مكتب مجاور لمكتبه. كان خريجاً في مدرسة وست بوينت وحائزاً على أوسمة عديدة خلال رحلتين إلى فيتنام، ثم أصبح باحثاً ثم زميلاً في البيت الأبيض، وحاز بعد ذلك على الدكتوراه من جامعة هارفارد. كان محترماً جداً في مكتبه وعندما كان العمل يجري لاتخاذ قرار هام كان الرجال يسألون: ما هو رأي غرينالدز بذلك؟

كان شكله مخيفاً وهذا ما لم يكن موجوداً عند أي من عناصر القيادة. كان هناك عدد من الرجال البدينين في مشاة البحرية عام ١٩٧٥، وذلك بسبب القيادة، وكانوا يعرفون باسم «بوب السمين»، وكانت النكتة السائدة «أن اختبار اللياقة البدنية يتألف من ثلاث دورات حول بوب القديم».

كان جون غرينالدز متفوقاً على زملائه، فبينما كنا في مقر القيادة، كان جون قد اختير باكراً للترقية إلى رتبة مقدّم تقريباً، وفي الفترة نفسها تم اختياري للترقية إلى رتبة رائد، ولكن ذلك لم يكن الشيء الوحيد الذي جعل غرينالدز يختلف عن بقية الضباط، فبدلاً من كتب التدريب والإدارة التي كان يحتفظ بها معظم الضباط على مكاتبهم، كان جون يحتفظ بالكتاب المقدس، وكنت أراه بين وقت وآخر وهو يقرأه. عرفت عنه أنه مسيحي مولود من جديد، وهو تعبير لم أفهمه في ذلك الوقت، لكنه لم يكن من الذين يظهرون إيمانهم بشكل واضح. حتى بعد أن تعرفنا إلى بعضنا بشكل جيد في القيادة، فإن معظم الذي أخبرني عنه حول إيمانه الشخصي كان عبارة عن إشارة بيده إلى الكتاب المقدس وهو يقول: «عليك أن تعرف المزيد عنه».

عام ١٩٧٨ عندما عيّن جون قائداً لكتيبة في فرقة مشاة البحرية الثانية والتي كانت تتمركز في كامب لوجين، سألني ما إذا كنت أرغب في العمل كضابط عمليات في الكتيبة، لقد سررت بهذا العرض، ولكن قبل أن أنتقل أنا وبتسي إلى كارولينا الشمالية، ذهبنا إلى ذلك المعسكر لنرى ما كنت أتأمل أن يكون منزلنا الجديد. تركنا فرجينيا بعد ظهر يوم الجمعة نحو جاكسونفيل، وهي مدينة خارج المعسكر، ووصلناها حوالى منتصف الليل. كانت بتسي قد نامت، وعندما فتحت عينيها بدت وكأنها تنازع، فقالت لي: «قل لي إنه كابوس فقط»، لأن جاكسونفيل كانت عام ١٩٧٨ مثل أي مدينة خارج ثكنة عسكرية، كان الشارع الرئيسي مليئاً بالبارات ومطاعم الوجبات السريعة وصالات الرهان ومعارض السيارات المستعملة، كان له ضوء نيون مبهر، وبدت المدينة كأنها ساحة الرجال الفقراء. إنها اليوم أفضل، ولكنها في ذلك الوقت كانت مخيبة للآمال مثيرة للصدمة، وما زاد من حدة الأمر تناقضها مع المعسكر القريب.

عندما وصلنا إلى مخفر حرس كامب لوجين كان الفرق واضحاً ومثيراً. كانت الثكنة جميلة ومرتبة وفيها مسافة أميال من الغابات التي كانت تستخدم حقلاً للتدريب (٢٥ ألف رجل من مشاة البحرية كانوا هناك). اكتشفت بتسي أحد الأسرار العسكرية: يوجد في كامب لوجين شاطىء للاستحمام رفيع المستوى أمضينا عطلة نهاية الأسبوع هناك نتفرج

على المنزل الجديد، ثم عدنا إلى فرجينيا لنبيع منزلنا ونحزم أمتعتنا ونذهب إلى كارولينا الشمالية.

كان من الصعب أن ننتقل من منزل في ستافورد، ليس بسبب الأثاث الذي كان متراكماً، (في أول انتقال لي في حياتي العسكرية في أنابوليس إلى كوانتيكو عام ١٩٦٨ وضعت كل ما عندي على ظهر السيارة، والآن وبعد عشر سنوات وثلاثة أطفال صرت بحاجة إلى مقطورة بطول ٤٤ قدماً) بل هذا المنزل الذي كان مكاناً لذكريات جميلة، لقد شهد الطلاق القصير وإعادة بناء الزواج. أحضرنا سارة الصغيرة إلى هذا المنزل من مستشفى كوانتيكو حيث ولدت، وهنا أقامت تايت وستيوارت صداقات مع أطفال الجيران، هنا ضحكنا وأحببنا وبكينا وكانت مغادرته الأكثر تأثيراً فينا.

كضابط عمليات في الكتيبة الثالثة كنت مسؤولاً عن التدريب وتحضير وحدة يبلغ عدد أفرادها ألفي رجل، من أجل الانتشار في البحر الأبيض المتوسط أو عند الضرورة في الشرق الأوسط أو في المحيط الهادىء أيضاً. أحد مباهج هذه الوظيفة أنني استطعت أن أرى النتائج الأولى للسياسة الجديدة التي عملت على إقرارها في القيادة، لأن وحدات مشاة البحرية صارت تبقى مع بعضها فترة أطول، وكان هناك انخفاض لما كنا نسميه المشاكل الشخصية وتحسن ملحوظ في المعنويات والكفاءة.

ذات صباح وقبل أسبوعين من مغادرة وحدتنا للانتشار لفترة ستة أشهر في البحر الأبيض المتوسط، قفزت من على ظهر ناقلة جند برمائية وأصبت بجرح في ظهري، في المكان نفسه الذي أصبت فيه بكسر في حادث السيارة عام ١٩٦٤. كان هذا قد حدث مرة من قبل خلال حادث بالمظلة عام ١٩٧٣، والذي أدى بي إلى دخول المستشفى لمدة أسبوع، تلاه أسبوع استراحة في السرير، وكان ذلك أول يوم منذ حرب فيتنام أتخلف فيه عن العمل.

الآن أنا ملقى على الأرض أتألّم وأتعجّب: كيف سأشفى من جرحي في وقت ذهابي إلى البحر المتوسط مع وحدتي؟

لم يكن هذا انتشاراً روتينياً، كنا على وشك أن نصبح قوة إنزال للأسطول السادس - إحدى أخطر المهمات في مشاة البحرية - كنت ملقى هناك ولم أرد التفكير بالجلوس، بينما كانت كتيبتي التي تدرّبت معها لأشهر تنتشر من دوني.

هرع أحدهم للتفتيش عن قائد الكتيبة، وصل غرينالدز أولاً، ساعدني على الجلوس وركع إلى جانبي ووضع يديه على رجلي وقال: «أريد أن أصلي لك».

لم يكن هذا نوع المساعدة الذي أريد، فأنا ملقى هنا وأتعذب، وهو يريد أن يصلي. . يجب أن يكون هذا الرفيق أحمق.

ثم بدأ غرينالدز يصلي.

فجأة اختفى الألم، وببطء عاد الألم إلى رجلي، لم أدرِ ماذا أقول بعد كلمة شكراً. قال غرينالدز: «لا تشكرني، أشكر ربك. إنه هو الطبيب العظيم».

في بعض الأحيان، إذا كنت توجّه الرسالة في طريق أخرى يجب أن يضربك الله على رأسك مرتين، لقد أرسل الله هذه الرسالة لي من قبل ولكنني لم أنتبه. في حادث السيارة عام ١٩٦٤، كل من كان معي مات أو أصيب بجروح بالغة، أمّا أنا فلم أشف فقط، بل كسبت بطولة الملاكمة في أنابوليس وتخرجت وأصبحت ضابطاً في مشاة البحرية. عندما قال لي الأطباء إنه من المحتمل أن لا أتمكن من السير رفضت أن أصدقهم، كان هناك بعض الكبرياء في شفائي، وبكل مثابرتي وعملي الدؤوب كنت أريد أن أؤمن أنني قمت بذلك بنفسي فقط.

فيما بعد وفي فيتنام وفي مرات عديدة حدث أن جميع من كان بقربي قتل أو أصيب بجروح بالغة وخرجت من ذلك بسلام، وكنت أيضاً أعاني من الألم ثم أشفى وأعود إلى عملي.

ما أثر فيّ بقوة في صلاة جون غرينالدز وعتابه الشديد الذي وجهه لي وأنا على الأرض في كامب لوجين في ذلك الصباح، هو أنه منذ وقت طويل كنت أعتبر الصلاة خطأً. كنت قادراً على كل الأشياء التي أقوم بها في السنوات الماضية، ولكني لم أستحقها جميعاً. الرسالة التي كان يرسلها الله إليّ هي «آمن بي» وليس بنفسك ولا بالآخرين ولا بالأشياء على هذه الأرض ولكن «بي» فقط.

كان للإيمان العميق لجون غرينالدز تأثير كبير فيّ، أدركت الآن ما كان يعنيه الآخرون عندما كانو يصفون غرينالدز بأنه «ولد من جديد».

في أثناء صرفي من العمل في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ علمت أنه بعون الله، أستطيع أن أتحمل أي ضغط. وفي الأشهر التي تبعت صرفي عانيت من كثير من خيبات الأمل. لقد قيل عني أشياء مخيفة في العلن، بعض الناس الذين كنت أعتبرهم زملاء وشركاء مقربين وحتى أصدقاء أصبحوا مصادر لمقالات صحافية قبيحة وسخيفة وللاتهامات ووسائل الإعلام.

مع ذلك لم أشعر بالوحدة ولم أشك في أن النتيجة ستكون إيجابية، فبينما لم أكن

بحاجة إلى من يذكرني، كان لدي واحد على أي حـال. في ٧ تموز/ يـوليه ١٩٨٧ في أول شهادة صباحية للجنة الكونغرس المشتركة، خرجت امرأة عجوز من بين جمهور الصحافيين والمشاهدين. . ولم أكـن قد رأيتها من قبل، وشقّت طريقها من بين عنـاصر الأمن وسلمتني بطاقة صغيرة. خلال تلك الأيام لم يسمح لي محاميّ بقراءة أي شيء ما عدا بعض المـواد المتعلقة بالتحقيق، وسحب برندان سوليفان البطاقة مني حتى قبل أن أنظر إليها.

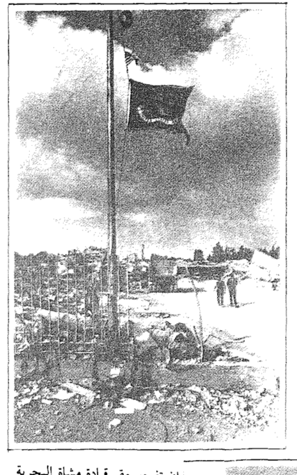
في الوقت الذي كنا نتمشى في غرفة الاستماع، كنت قد نسيت كل شيء يتعلق بها، ولكن قبل أن أجلس وضع برندان سوليفان البطاقة عـلى منبر المـذياع ووقف أمـامي، وفي كل مرة كنا نقف لنذهب إلى الإستراحة كان برندان يأخـذ البطاقـة معه وعنـدما كنـا نعود كان يحضرها. حاول الصحافيون الذين تجمهروا حولنا أن يحصلوا على لمحـة مما كتب عـلى البطاقة ولكن سوليفان لم يعطهم الفرصة أبداً.

أمّا البطاقة فكانت تحمل الكلمات التالية من الكتاب المقدس:

أولئك الذين ينتظرون عند الله
سوف تتجدد قوتهم
سوف يصعدون بالأجنحة مثل النسور
سوف يركضون ولن يكونوا مرهقين
سوف يمشون ولكن ليس بذبول

حزقيال. ٤ : ٣١

بينما كنت في تجربة غير عـادية وكـانت البلاد بـأسرها تـنظر إلى عملية التحقيقـات، كانت البطاقة أمامي في جميع الأوقات.





مجموعة القيادة للفصيلة الثانية السرية ك الفوج الثالث الفرقة الثالثة من مشاة البحرية، تقول اللافتة: «مرحباً. أنتم هنا إذاً هنا المؤخرة. على شرف أوغاد الأزرق».

إن تفجير مقر قيادة مشاة البحرية في بيروت في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من ذلك العام دفع الحكومة إلى إعادة النظر بسياساتنا.

بعد شهر من عملية غرانادا رُقّيت إلى رتبة مقدم. وضع مكفرلين وبتسي شارات الرتبة على كتفيّ.



بعد يومين من الهجوم على مشاة البحرية في بيروت، أمر الرئيس ريغان بعملية إنزال عسكرية في غرانادا. اشتركت خمس دول ديموقراطية في الكاريبي في هذه العملية، وحضر العديد من قادتها إلى واشنطن لإجراء مشاورات مع الرئيس ريغان،
تبدو في الصورة يوجينيا شارلز رئيسة وزراء الدومينيك تتحدث مع الرئيس ريغان في المكتب البيضاوي قبل أن تلتقي الصحافة.

(٧)
إلى البيت الأبيض

في كل حياتي كنت أكافح من أجل تحقيق التوازن بين عملي وعائلتي. لقد فشلت ولكني حققت ذلك في إحدى السنوات.

في عام ١٩٨٠ بعد خدمة سنتين في الفرقة الثانية، منها ستة أشهر انتشار في البحر المتوسط وفي كامب لوجين، كنت واحداً من عشرين ضابطاً في مشاة البحرية تم اختيارهم لتمضية سنة أكاديمية في كلية الحرب البحرية في نيوبورت في ولاية رود ايلاند يتبعوا خلالها دورة ركن وقيادة. كان هذا أفضل انتقال لعائلتي في حياتي العسكرية، كانت الدروس مثيرة وكان العرض ممتازاً وتقسيم أوقات العمل مريحاً تبدأ الدروس في الساعة الثامنة والنصف وتنتهي الساعة الثالثة بعد الظهر، وهكذا كنت أتناول طعام العشاء يومياً في المنزل.

لقد أمضيت وقتاً طويلاً مع عائلتي خلال هذه السنة، وكان أطول من الوقت الذي أمضيته معهم في فترة الثمانينات بكاملها. كنا نذهب في الشتاء لممارسة «السكي»، وذهبنا للسياحة في بوسطن ونيو انغلاند في الربيع والخريف، وقد شهدت أنا وبتسي معرضين في نيويورك. وعندما يكون الطقس جيداً كنّا نذهب لممارسة التجذيف بالقوارب. لقد تعلّمت التجذيف في أنابوليس في خليج شيسابيك، حيث كان قعر المياه صافياً، بحيث إنك تصل إلى اليابسة دون أن تدري، ولكن خليج ناراغانست قرب نيوبورت كان مليئاً بالصخور ويحتمل أن تلتطم بها عند رسوّك.

كنا خمسة عندما انتقلنا إلى نيوبورت، وصرنا ستة عندما تركناها. عندما أتذكر ولادة أطفالي يبدو وكأنني أمثل النزعة الاجتماعية الشائعة حول مساهمة الآباء العميقة في شؤون العائلة. كنت في فيتنام عندما ولدت تايت وذلك عام ١٩٦٩ ولم أرها إلّا بعد فترة طويلة. عام ١٩٧٠ وعندما ولد ستيوارت كنت أقرأ كتاباً في غرفة الانتظار في المستشفى، فتح الباب وخرجت الممرضة وقالت: تهانينا لقد ولد مولود ذكر بصحة جيدة، يمكنك أن تراه

من خلال النافذة في طرف القاعة، ويمكنك أن ترى زوجتك غداً (أي بمعنى آخر الزوجة المسكينة التي سببت أخطاؤك لها الشقاء والعذاب).

عام ١٩٧٦ عندما كانت بتسي حاملاً بسارة ذهبنا إلى لاماز في كوانتيكو. جاءها المخاض عندما كنّا نتناول طعام العشاء في مطعم مكدونالد وأسرعنا إلى المستشفى. عندما ولدت دورنين في ربيع عام ١٩٨١ كنت أنا وبتسي في المستشفى في نيوبورت، وبدا أنّ كل شيء يحدث مرة واحدة. صرخت طالباً المساعدة، فهبّ أحد الممرضين، وعندما وصل الأطباء كانت الابنة الثالثة بين يديّ.

عندما انتهت فترة السنة الأكاديمية في نيوبورت، كنت آمل أن أعود إلى قوى الأسطول ومن المفضل أن أعود إلى كامب لوجين، ولكن قيادة مشاة البحرية كانت لها خطط أخرى. ففي بعد ظهر يوم من شهر شباط استدعيت من قاعة الدرس، وطلب إليّ أن أذهب إلى واشنطن لإجراء عدد من المقابلات التي تتعلق بوظيفتي الجديدة ـ عضو في مجلس الأمن القومي. لم أكن أعرف أن العمل في مجلس الأمن القومي هو خيار، وعندما علمت بذلك أوضحت للجميع أنني لا أرغب، فأنا لا أرغب بوظيفة مكتبية أخرى، وبالتأكيد لا أريد وظيفة في واشنطن. ولكن في الحياة العسكرية عليك أن تتقيد بالأوامر وتنفذ ما أمرت به.

كانت إحدى المقابلات مع الجنرال روبرت بارو قائد مشاة البحرية. كان بارو طويلاً ونحيفاً، حدّق بي من على مكتبه حيث وقف ويداه وراء ظهره وقال بلهجة ولاية لويزيانا: ماجو (أي ماجور) لقد فهمت أنك لا ترغب بالانتقال إلى مجلس الأمن القومي؟

أجبته: يا سيدي أنا أذهب حيث ترسلوني، وبالطبع أفضل العودة إلى الأسطول.

قال: يا أخي نورث ليس مثلك من يئن ويشكو. نفّذ الأوامر.

مع أني تذمرت بسبب إرسالي إلى مجلس الأمن القومي، فقد شكرت هذه المجاملة. عندما تختارك قيادة مشاة البحرية من أجل الخدمة خارج وحداتها، سواء ما إذا كان العمل في الأركان المشتركة، أو في وكالة المخابرات المركزية، أو في البيت الأبيض، أو في السفارات، أو في أي مكان آخر تخدم فيه مع قوات أخرى، أو مع أجهزة مدنية، فإن هذا يعتبر تشريفاً لك. هذا صحيح في واشنطن لأن القرارات الرئيسية تتخذ هناك حول المهمات والميزانيات وقضايا تؤثر في مشاة البحرية بأكملها. وقد علمت فيما بعد أن السبب الآخر لاختياري في مجلس الأمن القومي كان جون ليمان وزير البحرية، والذي كان قد أعجب بدراسة أعددتها في كلية الحرب، ناقشت فيها أنه ما زال هناك دور للسفن القتالية في الحرب الحديثة.

مع ذلك فأنا لم أستلم الوظيفة في مجلس الأمن القومي لأنّ عملي في مشاة البحرية قد انتهى، بل بسبب تافه نسبياً، فقد انتخب رونالد ريغان لأنه وعد بتقليص حجم الحكومة الفدرالية، وسرعان ما اكتشف مستشاروه أن أسهل طريقة لتخفيض النفقات هو تسليم بعض الوظائف السياسية إلى ضباط عسكريين مفصولين من البحرية والجيش والقوات الجوية والذين يتقاضون رواتبهم أساساً من الحكومة ومن قياداتهم، ولذلك كنّا مصدراً ليد عاملة رخيصة.

كنت مشغولاً فوق العادة في مجلس الأمن القومي، ولم تكن المشكلة خلفيتي العسكرية لأنه كان هناك عدد كبير من الضباط، ولكن معظمهم كان حائزاً على شهادات في العلوم السياسية والدراسات في الشؤون الخارجية، بينما كانت خبرتي تقتصر على الوحدات العسكرية والتدريب القتالي. كنت مولعاً بتكتيك الميدان والاستخبارات، وكنت مؤمناً فعلاً بالأهداف والسياسات التي أعلنها رونالد ريغان في حملته الانتخابية عام ١٩٨٠، خصوصاً وعوده بإعادة بناء القوة العسكرية الأميركية وبالمحافظة على الثقة باقتصادنا، وكان رأيه يشبه رأيي: حكومة أصغر، وتشديد على الرأسمالية. وأميركا قوية.

لكن كل ذلك لم يفد ولم يساعدني عندما وصل الأمر إلى التعامل مع الكونغرس ووزارة الخارجية أو غيرها من البيروقراطيات في واشنطن، وإذا كنت في الوظائف السابقة مرتدياً الزيّ العسكري فهذا لا يعني أنك تلمّ بأمور الداخلية في وزارة الدفاع.

بدأت أعمل في آلاف الأوراق المتراكمة حول المتطلبات الواجبة للحصول على موافقة الكونغرس على بيع طائرات الإنذار المبكر من نوع أواكس إلى المملكة العربية السعودية - وهي الطائرات نفسها التي عملت بنجاح في حربنا مع العراق عام ١٩٩١ - لأنني لم أكن مجرباً ولا مهيّئاً، فإن الطريقة الوحيدة للتعامل في موضوع الأواكس أو الإرهاب أو إيران أو أميركا الوسطى كانت أن أقرأ كالمجنون، وأن أضع يدي على أي معلومات ممكنة من الكتب والمقالات وتقارير الاستخبارات والدراسات أو أي شيء آخر أعثر عليه. لقد أمضيت تقريباً كل ليلة وكل عطلة نهاية أسبوع أدرس وأتحدث إلى موظفين في وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية، والذين بإمكانهم أن يعلموني بعض الأشياء التي أنا بحاجة إلى أن أعرفها. كنت أصل إلى مكتبي الساعة السابعة صباحاً، أقرأ الصحف وبرقيات الاستخبارات وتقارير وزارة الخارجية، كنت أعمل كالكلب لغاية اليوم الذي صرفت فيه.

كان مجلس الأمن القومي قد أُنشيء عام ١٩٤٧ خلال إدارة الرئيس ترومان، وذلك لتقديم المشورة إلى الرئيس حول جميع المسائل المتعلقة بالأمن القومي. كانت النيّة أن

يكـون جهازاً للتنسيق عـلى المستوى الحكـومي، وجسراً بـين الأهـداف السيـاسيـة للرئيس ومختلف الأجهزة التنفيذية في الحكومـة، ومن ضمنها وزارات الخـارجية والـدفاع والتجـارة والمالية والعدل، وكذلك مع وكالة المخابرات المـركزيـة. كانت مهمـة مجلس الأمن القومي تنسيق عمل البيروقراطيات الفدرالية مـع أهداف الـرئيس في الأمن القومي، ومـع أن هذا يبـدو بسيطاً، فـإن التعقيد يـظهر عنـد التطبيق، لأنـه وبعكس نـظام الـوكـالات الكـبرى الضخمة في واشنطن، فإنّ أركان مجلس الأمن القومي كانـوا يعيّنون مـع كل إدارة جديدة وينتهي تعيينهم عنـد انتهاء مـدتها. ولـذلك ونـظراً إلى صغـر حجمـه (عشرات المـوظفـين وميزانية ٤ ملايين دولار ـ هكذا كانت عند وصولي ـ) كان مجلس الأمن القومي بشكل عام الأقرب إلى آراء الرئيس السياسية والأمنية، وفي هذا المجـال يختلف عن الوكـالات الكبيرة مثل وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية. هـذه الوكـالات كبيرة جـداً بطيئة بحيث لا تعكس التغييرات السياسية في فترة قصيرة، خصوصـاً عندمـا يكون التغيـير دراماتيكياً مثل الذي يحصل ما بين رئيس ديمقراطي ليبرالي وخليفتـه الجمهوري المحـافظ. إن البيروقراطيات الدائمة للحكومـة تميل إلى التغيـير البطيء، ومعتـادة على عقليـة النفس الطويل، إنهم لا يكنّون الاحترام الكثير للسياسيين، وقد بـدأت أفهم ذلك بشكـل أوضح في اليـوم الذي سمعت فيـه موظفـاً متوسـطاً في وزارة الخارجيـة ينبـذ الحكـومـة ويشبههـا بمساعدات عيد الميلاد.

هذا الموقف شائع بشكل خاص في وزارة الخـارجية، فقـد كان هنـاك احتكاك دائم بـين مجلس الأمن القومي ووزارة الخـارجية، ولكن هـذه الخلافـات كانت تـظهـر في ظـلّ الإدارة الجمهورية ربما لأن معظم المحافظين يعملون لمصلحة القطاع الخـاص. كانت وزارة الخارجية تميل إلى جذب الليبراليين، ومثل بقية البيروقراطيات في واشنطن فهي تتـألف من أغلبية ديموقراطية وحفنة من الجمهوريين، وكان ذلك واضحاً حتى في إدارة ريغان.

لم يكن ذلـك بالتـأكيد السبب الـوحيد الـذي من أجله لم يطل عهـد الكسندر هيـغ كوزير أول للخارجية في عهد الرئيس ريغان، إلا أن لهذا السبب عـلاقة مـا بذلـك، فقد ذكر هيغ في مذكراتـه: «لم أجد تشجيعـاً في وزارة الخارجيـة لإدارة ريغان». وقـد لاحظت الشيء نفسه، وكان ذلك جيّداً لأنه كان لدينا الشعور نفسه.

إن وزارة الخـارجية تعتـبر أداة لتنفيذ السيـاسة الخـارجية إلاّ أنها تحـوّلت إلى مؤسسة للعلاقات الخارجية. هذا التغيير مهم جـدّاً مع أنـه لا يوحي بـذلك. كـان موظفـو وزارة الخارجية الذين يتعاملون مع بلد ما مهتمين بنظرة ذلك البلد إلينا أكثر من سياستنا ونظرتنا إليـه. فيما بعـد عندمـا بدأت أسـاهم في تنفيذ سيـاسات الإدارة لمكـافحة الإرهـاب، كان

العمل مع وزارة الخارجية في الغالب كابوساً: فإذا كان لدينا مشكلة ما مع البلد «س» أو البلد «ع» كان الانطباع الأول في وزارة الخارجية أن لا نعلن وجهات نظرنا بل أن نتجنب مهاجمة الفريق الآخر. لقد وجدت ثقافة مشتركة ومميّزة في وزارة الخارجية، حيث كان معظم المسؤولين يؤمنون بمجموعة من القيم مع أنهم لم يصرّحوا عنها أو يناقشوها. وكان قسم منهم يميل إلى افتراض أن كلّ نزاع ينشب بين الولايات المتحدة وبلدان العالم الثالث، فإن العالم الثالث يكون على حق، ونكون نحن على خطإ. كانت القاعدة غير المعلنة والسائدة أن تعاملنا مع تلك البلاد كان معيباً، ولهذا كنّا نعطيهم حق الشك بمعاملتنا. كانت هناك نكتة شائعة هي أن ما كنّا بحاجة إليه فعلاً في وزارة الخارجية هو سفارة أميركية تعبر عن وجهة نظر الشعب الأميركي.

كانت هناك بالتأكيد وجهة نظر لوزارة الخارجية في إعادة النظر مرّة ثانية في السياسة تجاه إسرائيل، لم يقل أحد بهذا بصوت عال، ولكن بدا لي أن مسؤولين عديدين في وزارة الخارجية كانوا يعارضون بشكل آلي أي شيء تحبذه إسرائيل. كانت هناك بعض الأوقات التي يختلف فيها البيت الأبيض مع بعض السياسات الإسرائيلية المعنية، وبالتأكيد لم يكن الإسرائيليون مسرورين من طائرات الأواكس المتوجهة نحو المملكة العربية السعودية، وبدا أن هناك مجموعة في وزارة الخارجية كانت تسر عند نشوب أي خصومة بيننا وبين الإسرائيليين. وقد ظهر قسم من هذا الخلاف من الغطاء المؤيد وغير الظاهر للعرب في وزارة الخارجية، والذي كنت أوّل من لاحظه وبصعوبة*. وهناك شعور كبير طاغٍ هو نتيجة الخط المتواصل المعادي للسامية في حكومتنا. كان العديد من الموظفين متوسطي المستوى - ليس فقط في وزارة الخارجية - هم أبناء لعائلات أميركية عريقة كانت تحذر الطبقات الأرستقراطية من اليهود وتعمل على معاداتهم.

في أوائل عام ١٩٨٣ أرسل إليّ مسؤول حكومي كبير قصاصة غير عادية من مجلة تتحدث عن مؤامرة إسرائيلية للسيطرة على العالم، واقترح عليّ أن أقرأها وأدرسها، عندما ذهبت إليه لأقابله أخبرني عن دار النشر التي نشرت المجلة وهي «ليندون لاروش وأتباعه».

ومع أن هذه الحادثة لم تكن نموذجية في حكومتنا منذ لاحظت تحيّزاً كبيراً ضد إسرائيل في بعض الدوائر، فإن هذا الشعور كان ينمو عند وقوع حرب عربية - إسرائيلية

---

* يروي كلارك كليفورد في مذكراته التي نشرت حديثاً: هناك مجموعة من خبراء الشرق الأوسط الذين كان ينظر إليهم بشكل عام أنهم معادون للسامية. كان كليفورد يتكلم عن عام ١٩٤٨ ولكن الأشياء تتغير ببطء في واشنطن.

كـالتي حدثت عـام ١٩٧٣، والتي عـلى أثـرهـا لام العـديـد من الأمـيركـيـين (من ضمنهم المحافظون) إسرائيل لتسببها بحظر النفط العربي والانهيار الذي حـدث في اقتصادنـا. نمت هذه العداوة وبدت معلنة أكثر عام ١٩٨١ عـندما دمـرت الطائـرات الإسرائيلية منشـآت نـوويـة عـراقيـة ممّـا أخـاف وزارة الخـارجيـة، إلى أن كـان عـام ١٩٩١ عنـدمـا هُـوجم الإسرائيليـون بصواريـخ سكود العـراقية خـلال عملية عـاصفة الصحـراء فلم يـردّوا عـلى القصف وتمتعوا بدعم واسع في واشنطن.

لسوء الحظ ومن خلال هذا الوضـع ظهرت إسرائيـل ضحية ممّـا أبرز هـذا التغير. يبدو أن الرئيس ريغان لم يشارك في هذا التحيّز ولا فعـل ذلك نـائبه جـورج بوش، ولكن كان لوزير الدفـاع كسبار وينـبرغر نـظرة أخرى. بـدا أن وينبرغر خـرج عن خطه وبـدأ يعـارض إسرائيل في أيـة قضية ويلومهـا من أجل جميـع المشاكـل في الشرق الأوسط، وفي خـلال تخطيـطنا لعمليـات مكـافحـة الإرهـاب، تخـوّف وينـبرغـر من أنـه عنـدمـا نتعقب الفلسـطينيين سـوف نواجـه العرب وحكوماتهم، وخصـوصاً إذا كنـا نعمل بـالتعـاون مـع الإسرائيليين.

كان شعور وينبرغر المعادي لإسرائيل ظاهراً في أي مسـألة تتعلق بـالشرق الأوسط. لقد فسّر بعض الناس ذلك بالإشارة إلى سنواته السابقة التي أمضاها في شركة بكتـل (وهي شركة هندسة في سان فرانسيسكو لها عقود ومشـاريع في الـدول العربيـة)، ويقول البعض إن ذلك كان أكثر تعقيداً وإنه يتعلق بحساسيته حول نسبه اليهودي. وعلى الرغم من قربنا من الرئيس وكبار مسـاعديـه، كان مجلس الأمن القـومي بيروقـراطياً، وكـان معظم عملنـا روتينياً مملاً. في كل مرة كانت الولايات المتحدة تجري تمريناً عسكرياً (مشروعاً) أو انتشـاراً على حدود الاتحاد السوفياتي أو حلفائه، كنّا ننظّم تقريـراً يلخص رد فعل السـوفيات عـلى آخر تمرين، وماذا كنا نتوقّع من أن يكون الرد هذه المرة. وإذا أبحرت مدمـرة أميركيـة في البحر الأسود كـان ذلك يحتـاج إلى مذكـرة، وكنا نكتب رسـائل لا تحصى بـاسم الرئيس، ومذكرات إلى المستشار لشؤون الأمن القومي، ووزارتي الدفاع والخارجية، وبعض رؤسـاء الدول الأجنبية والكونغرس حول أي مسألة هامة تؤثر في أمننا القومي. كان اليوم العـادي يتألّف من سيل من المكالمات الهاتفية وقراءة مائتين أو ثلاثمائة صفحـة، وكتابـة حوالى عشر صفحات، أو القيام بثلاثة أو أربعـة اجتماعـات على الأقـل ابتداء من الاجتـماع الصباحي الساعة ٧,٣٠.

في صيف ١٩٨١ عندما أتيت إلى العمـل في مجلس الأمن القومي ذهلت بقـدم عهد هـذا المكان. كـان مبنى قيادة مشـاة البحريـة في أرلنغتون متخلّفـاً بضع سنـوات عن بقية

الأبنية العسكرية، ولكنّه بدا وكأنه من عصر الفضاء بالمقارنة مع بناية المكتب التنفيذي القديمة. كانت هذه البناية قد شيّدت بعد الحرب الأهلية مباشرة، وقيل عنها آنذاك إنها أكبر بناية مشيدة بحجر الغرانيت في العالم. لقد صممت على طراز عصر النهضة الفرنسي. وكان مظهرها الخارجي جميلاً مع أن بعض المكاتب كانت غير متينة. كان أحد زملائي يجلس على مقعده، وفجأة سقطت كتلة من الحصى وزنها ٢٠٠ رطل من السقف الذي يعلو ١٨ قدماً، وقعت على مكتبه ولم يصب بأذى.

يقسم بعض الأشخاص أن الأسلاك الكهربائية في تلك البناية قد جرى تمديدها من قبل اختراع الكهرباء، كانت الإنارة على نمط القرون الوسطى، وكان نظام التدفئة قديماً جداً إلى درجة أن بعض الموظفين كان يحضر معه مدافىء خاصة مما كان يؤدي في أحيان كثيرة إلى أعطال كهربائية.

كان هذا يشكّل من الناحية التقنية البيت الأبيض*. كانت وزارة الخارجية مجهزة بأحدث تجهيزات الاتصالات، ولكن كان لنا بالكاد خطوط اتصال آمنة. في البداية كانت سكرتيرات مجلس الأمن القومي يغادرن الساعة ٤,٣٠ ولكي تلزم السكرتيرة بالبقاء بعد ذلك الوقت كان عليك أن تستصدر مذكرة، ويفترض أن يكون أحد ما موجوداً حتى يطبعها. كان نصف الأثاث محطماً، وكانت الستائر تبدو وكأن دولي ماديسون قد علّقتها قبل سنة من إحراق البريطانيين لمدينة الحرب عام ١٨١٢.

لقد كانت الوكالات الحكومية الأخرى معجبة بقدم عهد بناء مجلس الأمن القومي، وبالتالي عدم فعاليته. منذ سنوات كانت وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية الوحيدة التي كانت على اتصال دائم وآني مع المؤسسات والقوات المسلحة الأميركية في جميع أنحاء العالم، ولكن عندما عين القاضي وليم كلارك مستشاراً لشؤون الأمن القومي في أوائل عام ١٩٨٢، اعتمد مخطط توم ريد والأميرال پواندكستر لجعل مجلس الأمن القومي على قدم المساواة مع الوكالات الكبرى.

دون أن أعرف، وبالتأكيد دون أن أنتبه، لعبت دوراً في رحيل ريتشارد آلن سلف وليم كلارك. عندما وصلت إلى مجلس الأمن القومي، خصص لي مكتب في الطابق الثالث من البناية، وكان يشاركني الغرفة إثنان من ضباط الجيش هما المقدم ديك شيلدرس والمقدم آلان مايز. تسلّمنا خزانة لنحفظ فيها الوثائق السرية، وفي أول مرة فتحناها دهشنا عندما رأينا بضع ساعات يد، وزجاجتي مشروب مربوطتين على شكل هدية، وظرفاً

---

* استناداً إلى السجل المحلي: كان هذا مكتب هنري كيسنجر قديماً.

يحتوي على عشر ورقات من فئة المائة دولار. كنت قد سمعت من قبل عن الهدايا الحكومية ولكن ذلك كان سخيفاً.

أخبرت ضابط الأمن في مجلس الأمن القومي جيري جننغر عمّا شاهدناه والذي أطلع فوراً مكتب التحقيق الفدرالي. حدّد المكتب أن محتويات الخزانة تعود لريتشارد آلن المستشار لشؤون الأمن القومي، ولم أكن أعلم أن هذا المكتب كان نفسه الذي كان يستخدمه ريتشارد آلن في الفترة الانتقالية ما بين انتخاب الرئيس ريغان وبدء ممارسة الصلاحية، وكانت الساعات والنقود هدية من الصحافيين اليابانيين الذين طلبوا ترتيب مقابلة مع نانسي ريغان، ومع أن آلن في النهاية كان بريئاً من أي خطإ، إلا أن الصحافة نشرت الموضوع وسرعان ما استبدل بوليم كلارك.

خدم كلارك وسط عاصفة من الخلافات، فقد هاجمته الصحافة بسبب نقص معلوماته في الشؤون الخارجية، وأظهرت حقيقة ذلك جلسات التثبيت السابقة حول تعيينه نائباً لوزير الخارجية، إذ لم يكن قادراً على أن يتذكر أسماء زعماء زمبابوي وجنوبي إفريقية. كان بيل كلارك رجلاً متواضعاً ولم يتظاهر بأنه خبير في السياسة الخارجية، لكنه كان مقرّباً جداً من رونالد ريغان وكان يفهم ماذا يريد الرئيس وكيف يحقق له ذلك.

كان القاضي كلارك طويل القامة نحيفاً ويتكلم بصوت ناعم، وصفه مايك ليدين، وهو موظف في مجلس الأمن القومي، بأنه جيمي ستيوارت* الإدارة الريغانية. ربما كان بيل كلارك لامعاً أكثر مما كان يقدّره الناس، لقد نجح في امتحان الكفاءة للمحامين في كاليفورنيا قبل أن يحصل على شهادة الحقوق، ثم أصبح فيها بعد قاضياً محترماً في المجلس الأعلى للقضاء في ولاية كاليفورنيا، وعندما أصبح رونالد ريغان رئيساً ترك كلارك الأيام الحلوة في كاليفورنيا وقدم إلى واشنطن ليعمل في خدمة رجل أحبه كثيراً.

كان كلارك شخصية غير عادية في واشنطن، إذ كان يعتمر قبعة الكاوبوي وينتعل البوط، لم يتقيد بالرسميات وكان يصرّ على أن يحضر من شقته إلى مركز عمله سيراً على الأقدام. كان يكره جميع مظاهر الأبّهة والتحدي، ولكني استطعت في النهاية أن أقنعه - على ضوء تهديدات الإرهابيين - بأن يأخذ بعين الاعتبار طريقة أكثر أمناً في الانتقال، وبمساعدة أد هيكي، رئيس المكتب العسكري في البيت الأبيض، أقنعته بأن اتخاذ سائق ومرافق مسلّح يعتبر من الأفكار الحديثة.

* * *

---

* ممثل أميركي مشهور بأفلام الكاوبوي (المترجم).

عودة إلى السبعينات عندما كنت أعمل في قيادة مشاة البحرية، كنت أنا وبتسي نقود السيارة في أحيان كثيرة إلى واشنطن لنحضر حفلة أو لنأخذ الأولاد إلى متاحف المدينة، ولكن عملي في مجلس الأمن القومي كان المرة الأولى التي أعمل فيها في واشنطن، وبالنسبة إلى رجل عسكري ينتقل إلى أجواء المدنيين، كان هناك الكثير ليتعوّد عليه.

كان العكس صحيحاً أيضاً، حيث كان عدد قليل من موظفي البيت الأبيض يملك فكرة بسيطة عن الحياة العسكرية. كانوا متأكدين حتماً من أن عناصر البحرية لديهم خبرة في الملاحة والسفن، وأن عناصر القوات الجوية يطيرون بطائرات معيّنة، وأن ضباط الجيش كانوا في مكان ما في أوروبا، لكن مشاة البحرية كانوا غامضين تماماً، ما عدا أنه مهما كانت الآراء، فإنه من المعروف أننا نشترك في أعمال عنف على درجة عالية.

في الحياة العسكرية كنا نضع إشارات الرتبة على البزة العسكرية. في البيت الأبيض كان الجميع يرتدون بزات عمل. في البدء كنت أعتقد أن الرتب لا تشكل أي فارق في الحياة المدنية. وهذا يماثل التفكير الساذج القائل بأن الناس الذين يعيشون في ظل النظام الشيوعي ليس لديهم رغبة في المال أو تناول المواضيع المادية. سرعان ما أدركت أن الرتبة كانت مهمة جدّاً في الحكومة، ما عدا واشنطن التي كانت هذه الأمور فيها معدة في سلسلة من الامتيازات وليس على البزة، فإذا كنت نافذاً حقاً يكن لك مكتب في الجناح الغربي في البيت الأبيض، والمستوى التالي كان مكتباً في بناية المكتب التنفيذي القديمة ولكن بمواجهة البيض الأبيض أيضاً، وإذا كنت مثلي تكن محظوظاً إذا كان لك شباك، وكان لي شباك فعلاً أتنفس من خلاله.

كانت رتبتك أيضاً تحدد طراز الهاتف، وقد تعلّمت سريعاً أن الضباط العسكريين في مجلس الأمن القومي قد شكّلوا رتبة خاصة ـ الهاتف الكولونيل. كانت سكرتيرة الكولونيل سميث تجيب على ٩ من أصل ١٠ مرات على الهاتف قائلة: مكتب الكولونيل سميث، وهكذا تعطي رئيسها رتبة فورية. دون أن أكذب كنت ألزم سكرتيراتي بالإجابة على الهاتف بثلاثة أحرف N.S.C. (مختصر لمجلس الأمن القومي)، وعندما كنت أجيب على الهاتف كنت أقول: أولي نورث.

الآن بعدما صرت عضواً في المستويات العليا في الحكومة، كان عليّ أن أتعلم الشكل الجديد للياقات الهاتف. عندما كانت سكرتيرتي تطلب أحداً ما كانت تحوّل الخط إليّ قبل أن يتكلّم هو. في واشنطن ـ كما تعلمت بسرعة ـ فإن التكلم مع السكرتيرة مباشرة يعتبر إهانة إلى معاون المساعد، لنائب مساعد، لمعاون مساعد السكرتاريا. كان الصغار يختلفون عن الكبار بأنهم يأتون أولاً على الخط، وكان السبب هو افتراض أن وقت الكبار

كان أكثر أهمية. لذلك عليك أن تعرف ما إذا كان نائب سكرتير «س» هو أدنى أو أعلى من نائب سكرتير «ع»، والويل لك إذا أخطأت لأن الناس تأخذ هذه الأمور على محمل الجدّ. لقد سلمت إلينا جميعاً لائحة بروتوكولية تبيّن مستويات الوظائف المختلفة في الإدارة، وكان الجميع يضعونها تحت زجاج المكتب بحيث يمكنهم الرجوع إليها فوراً عندما يدق جرس الهاتف.

عندما تتصل بالشخص الذي تطلبه تبدأ مشاكلك. عليك هنا أن تحاول كتابة شيء من اللغة الخاصة في واشنطن حيث لا أحد يصل مباشرة إلى معرفة ما يدور بينكما. فقط في مناسبات نادرة يمكن لأي شخص أن يعلن أو يصرح أنه هو (أو وكالته) يعترض خطة معينة أو اقتراحاً معيناً، وبدلاً من ذلك يقول: «نحن لا نلتقي». وإذا كان يعلم أنه سيسحق لكنه ما يزال يريد أن يسجل استياءه فإنه «يظهر عدم معارضته». يمكنك أن تتعايش مع هذا ولكن العبارة التي تريد معرفتها فعلاً كانت «نحن نلتقي»، بكلام آخر «مع أن تلك ليست فكرتنا فإننا نرغب في أن نعمل بها».

كانت بناية المكتب التنفيذي القديمة تعتبر جزءاً من مجمّع البيت الأبيض، ولأسباب أمنية فقد أعطي كل منا بطاقة موظف في البيت الأبيض زرقاء أو حمراء، والتي كان يضعها الجميع حول عنقهم بسلسلة*. كنت أحتفظ ببطاقتي في جيبي، ولكني لاحظت أن عدداً من زملائي كانوا يظهرون هذه البطاقة في أثناء وجودهم في المدينة وكأنهم يقولون «أنا مهم فأنا أعمل في البيت الأبيض».

كانت بطاقة الموظف في البيت الأبيض غير فعّالة، أما البطاقة الفعالة في الحقيقة فهي بطاقة المرور إلى الجادة الغربية المحاذية للجناح الغربي في البيت الأبيض. بعد ذلك فإن مكان الشرف الذي تطمح إليه هو أن تكون وزيراً للخارجية، لكن عندها لن تحتاج إلى بطاقة مرور لأنك لن تقود سيارتك بنفسك.

أما نحن «الكلاب الصغار» فكنّا نوقف سياراتنا على بعد نصف ميل، وحتى هناك على هذا البعد كنا بحاجة إلى بطاقة مرور خاصة بالبيت الأبيض تعلق على المرآة الخلفية. لكن هذه نعمة مربكة، ويمكنك أن تجد في بعض الأحيان أنّ أحداً ما يريد أن يعبّر عن حقوقه الدستورية، وذلك بتنفيس إطارات السيارة أو كسر الزجاج الأمامي لها. أحد زملائي ألفونسو سابيا بوش ترك المكتب متأخراً في الليل، ثم عاد بعد نصف ساعة وقال

* لم أستطع معرفة الأساس الذي يعطى بموجبه نوع البطاقة. كانت بطاقتي زرقاء، ولكن لماذا؟ هل كانت على أساس طول القامة؟ الوزن؟ أو البرج؟ ما زلت أتعجب!

إن سيارته (من نوع فولكسفاغن) مفقودة.

قلت له: «تعال لقد نسيت أين أوقفتها، كيف يمكن أن تسرق؟ هذه المنطقة يحرسها رجال الشرطة السرية والبوليس المحلي وبوليس الموقف، انظر مرة ثانية وأنا متأكد أنك ستجدها».

عثر على سيارة ألفونسو بعد بضعة أيام في بنسلفانيا.

كان هناك مواقف سيارات أقل من البطاقات الممنوحة، ولهذا يجب أن تحضر باكراً، ولا تجرؤ على إخراج سيارتك متى وصلت. وهذا بدوره أدى إلى امتياز آخر وهو استخدام سيارة للبيت الأبيض مع سائق. كان هذا الامتياز أرفع من مستواي، ولكن أد هكلي، رئيس المكتب العسكري في البيت الأبيض، والذي كان يشرف على مشغل سيارات البيت الأبيض، كان من عناصر مشاة البحرية وقد وضعني على اللائحة بحيث مكّنني أن أستخدم تلك السيارات التي كنت أستعملها لحضور اجتماعات في المدينة، أو لأذهب إلى قاعدة اندروز الجوية لأصل في موعد إقلاع الطائرة.

كان هناك ولع كبير بالامتيازات. هل دعيت إلى عشاء في وزارة الخارجية؟ (لم أدع أبداً). هل سافرت على متن طائرة الرئيس (القوات الجوية رقم ١؟) لقد سافرت مرتين وذلك يكفي.

شكراً: في ذلك الوقت كانت (القوات الجوية رقم ١) من نوع ٧٠٧ قديمة وتثير الضجيج وتعود إلى أيام كينيدي. ولكن كل شخص يركب متنها أو متن (القوات الجوية رقم ٢) يحصل على شهادة أنه كان فعلاً على متنها. هذه التذكارات كان لها قيمة عظيمة.

كذلك كانت الصور وأنت تصافح الرئيس أو نائب الرئيس وكذلك رسائل من مسؤولين رفيعي المستوى. معظم الموظفين علقوا على جدران مكاتبهم صوراً كهذه. كان حائط مكتبي مزيناً بصورة أفراد عائلتي ورسوم رسمها أبنائي وخرائط لأميركا الوسطى والشرق الأوسط وعدة لوحات. إحدى اللوحات تصور مقاتلاً من الكونترا يقول: «بـ ٥٣ سنتاً كل يوم يمكنك أن تطعم عنصراً من الكونترا». وكانت هناك صورة لإحدى الفتيات من المقاومة النيكاراغوية تحمل رشاشاً وقد كتب عليها بأحرف كبيرة: «هذه المقاتلة تحتذي بوطاً قتالياً»، واللوحة الثالثة كانت إعلاناً لفيلم عنوانه: عودة والتر مونديل والذي وعد أن يكون «مملاً أكثر من أي وقت آخر»، وكانت هناك صورة لي مع الرئيس علقتها في مكتبي، كانت فون قد التقطتها في الجناح الغربي للبيت الأبيض.

كذلك عرضت حفنة تذكارات كانت إلى حد ما غير عادية: فنجان معدني مصاب

بـطلقة في فيتنـام، ولفحة عنق ومـطرقـة ومنجـل كـانت مـع أحـد الثـوار الشيـوعيـين في السلفادور، وقبعة فرو مع نجمة حمراء من جيش التحرير الشعبي الصيني، وخـوذة كوبيـة عسكرية بداخلها ثقب لرصاصة، وهديـة من جونـاس سافيمبي وحـزام لضابط كـوبي من غرانادا.

هناك ظاهرة أخرى فاجأتني حول الحياة الحكومية هي الازدحام الذي ينتـاب مدينـة واشنطن بأكملها كل يوم. عند الظهر يكون السير مزدحماً مثل ساعات الصباح، ونـادراً ما كنت أتناول طعام الغداء، كنت أنتهز هـذا الوقت غالباً لأركض أو لأجري تمارين رياضية في قاعة الرياضة العائدة للشرطة السرية ـ وهذه من الامتيـازات التي منحني إياهـا هكلي ـ وعندما كنت أذهب لتناول الغداء كنت أقصد مطعم مكدونالد في الجادة ٧، أو أذهب إلى بنسلفانيا.

صرفت عـدة سكرتـيرات قبل أن أوظف فـون هال. كن جميعـاً مؤهلات للوظيفـة، ولكن سرعتي المحمـومة في العمـل وتأخـري الدائم، وعمـلي في معـظم نهايـات الأسبـوع أتعبهنّ. كـانت سكرتـيرتي الثالثـة تبدو مـرهقة مـع آخر النهـار، بحيث كنت ـ في غـالب الأحيان ـ أوصلها إلى منزلها، وعندما تركت العمل تقدم العديد من الآنسات للوظيفة.

كـانت شروطي سهلة: كنت أبحث عن واحدة يمكنهـا أن تطبـع بسرعة عـاليـة ولا تتضايق إذا ما عملت وقتاً إضافياً.

عندما حضرت فون لمقابلتي حول الوظيفـة الجديـدة، كانت تعمـل في مكتب رئيس العمليـات البحريـة. لقد فـاجأتني بكفـاءتها وبـرغبتها بـالعمل في أوقـات إضافيـة. كانت والـدتها ويلما هـال سكرتـيرة روبرت مكفـرلين، ولكن هنـاك شيء واحد أثـر فيّ هو أنها لم تستغل الوساطة من أجل الحصول على الوظيفة.

لم أسألها ما إذا كانت تعرف أن تتصرف بتواضع، وقد لاحـظت أنها كانت جـذابة. لم تكن بـالتأكيـد غلطة فون عنـدما أصبحت مشهـورة في الـوقت نفسـه مثـل دونـا رايس وجسيكا هان، كانت الصحافة تظهر أن أولئك النسوة كنّ جيّدات وعـلى المستوى نفسـه، ولكن ذلك لم يرق لفون. كانت تفهم الضرر الـلاحق بها، ولـذلك تضمّنت إفـادتها أمـام لجان الكونغرس، وفي أول كلمة وببساطة: «أنا أستطيع الطباعة»*.

بالتأكيد كانت تستطيع أن تقـول «تكلم فقط»، وبعد ست ثـوان من انتهاء كـلامي

* قالت في شهادتها: «لقد كـانت ساعـاتي طويلة وشـاقة ولكني كنت أتمّ واجبي، كنت سكـرتيرة مخلصـة وقمت بواجباتي بأسلوب مثالي، وأنا أؤكد ذلك».

تكون المذكرة قد انتهت وبشكلها الصحيح. كانت فون أحد أسباب نجاحي، كانت هائلة في محافظتها على الجدول المكدّس والتقيّد به. كانت تعرف دائماً كم يستغرق الاجتماع، ومن ثمّ كم من الوقت يلزم لأذهب إلى مكان ما وأعود. كانت جيدة في الرد على الهاتف ماهرة في حمايتي من المكالمات الهاتفية غير الضرورية.

ربما كانت هذه الصفات موروثة عن أمها التي كانت مساعدة تنفيذية من الطراز الأول. فقد كانت ويلما هال لامعة ومحبوبة والصديقة الموثوقة لمكفرلين. كانت قد التقت بروبرت عندما كان موظفاً في البيت الأبيض، وعلى مر السنين عملت لدى العديد من مستشاري الأمن القومي ومن ضمنهم كيسنجر. في جميع الأحوال وخصوصاً عند مكفرلين كانت تساعد على زيادة فعالية العمل.

لم تكن فون هال أكبر بكثير من ابنتي تايت، ومثل جميع الشابات كانت لها حيوية ظاهرة، بحيث أنها بعد اثنتي عشرة ساعة من العمل كانت تذهب إلى عملها الآخر في عرض الأزياء.

بعدما بدأت فون العمل معي لاحظت أن بعض الرجال من الذين تعرفت إليهم هاتفياً كانوا يحضرون إلى مكتبي، أحدهم أرثيرو كروز وهو شاب وسيم، كان والده من قادة المقاومة النيكاراغوية، وكان أرثيرو يظهر بين وقت وآخر وكان يتوقف في المكتب الخارجي ليتحدث مع فون. لم أدرك عمق علاقتها إلا عندما تلقيت تقريراً من وكالة المخابرات المركزية يفيد بأن فون شوهدت مع أرثيرو في ميامي.

استدعيتها وقلت لها: «اسمعي، عليك أن تتخذي قراراً، هذا الشخص أجنبي، وقد كان من قبل من أنصار الساندينيين، نحن نعتقد أننا نثق به ولكنه على علاقة بالمخابرات الكوبيّة، إننا في مجال عمل يتطلب الاحتياطات الأمنية وارتباطك به يثير الريبة، عليك أن تختاري بين هذا الرجل وعملك، وإذا كنت تحبينه حقيقة أعطني إشعاراً لمدة أسبوعين، ثم تزوجيه وانجبي عدداً من الأولاد».

ارتبكت فون عندما تحدثت معها عنه، وشعرت بالإحراج عندما تدخّلت في حياتها الشخصية، ولكن بعد بضعة أسابيع، وبعدما تلقيت اتصالاً - هذه المرة من مكتب التحقيق الفدرالي - كان عليّ أن أتكلم معها مرة ثانية. وفي النهاية أنهت فون علاقتها مع أرثيرو، ثم قدمتها إلى الرائد جيل مكلين، وهو شاب من مشاة البحرية كان قد عمل معي من قبل. كل شيء بدا جيداً بينهما إلى أن أرسل جيل إلى أوكيناوا، ولقد شرحت سابقاً نتيجة السفر في علاقة كهذه.

في الأشهر التي تلت صرفي، شاعت هناك قصص وروايات حول «الكولونيل الكاوبوي» وسكرتيرته الشقراء، والمكتب الذي كانا يتقاسمانه في البيت الأبيض، وظهرت لمحات من هذه القصص في أثناء التحقيقات. هذا النوع من القصص كان مستنداً إلى مصادر مجهولة، وكان هذا العمل روتينياً في واشنطن، ولكن في وضعي أنا بدا أنه لا حدود له، فاستناداً إلى إحدى الروايات لقد استخدمت أموال إيران ـ كونترا لأشتري لفون سيارتها وهي من نوع فيرو حمراء، وأن أدفع ثمن جزيرة في المحيط الهادىء كنا نخطط أنا وهي للهرب إليها.

لقد صعقتني هذه الروايات، وهرعت لمقابلة بنيت ويليامز، وهو مؤسس مكتب المحاماة الذي يرافع عني، وكان رجلاً كبيراً في السن عريقاً في القانون، ويؤمن كثيراً بـ «قضية اللاتعليق» عندما يصل الأمر إلى الأوساط الصحافية.

قلت له: أنا أعلم أنك لا تحب أن يتكلم الموكلون مع الصحفيين، ولكن يجب الرد على هذه الشائعات، إن زوجتي ستشاهد ذلك، وجميع أصدقائنا، وماذا عن أولادنا أيضاً؟

قال لي: اجلس يا أولي، أنت مثل الكلب الذي يطارد البراغيث، سوف تتخلص من البراغيث عندما تأخذ حماماً، ويا بنيّ سوف تأخذ حمامين، عليك أن تفهم أيضاً أن الناس الذين ينشرون هذه الروايات يعتقدون فعلاً أنها صحيحة.

صعقت كثيراً وسألته: كيف تقول ذلك؟

قال لي: اسمع، إذا كان الناس الذين تكتب عنهم هذه القصص وتنشر حولهم تلك الشائعات لديهم الفرصة بإساءة استعمال مراكزهم وسرقة ملايين الدولارات، وكان لهم شأن مع سكرتيرة جميلة، يمكن أن يقوموا بذلك، لذلك فهم يؤمنون بأنك قمت بذلك، وإلا لن يستطيعوا مواجهة أنفسهم عند الصباح.

لقد كلّفت بأول مهمة لي في مجلس الأمن القومي بطريقة غير عادية. ففي بعد ظهر يوم من فصل الخريف، وبعدما صوّت مجلس الشيوخ لمصلحة بيع طائرات أواكس للعربية السعودية، وصل إلى مكتبي عدة صناديق مليئة بالأوراق لدرس محتوياتها، ومن ضمنها مذكرة من الأميرال پواندكستر يطلب مني فيها أن أطلع على كل هذه الأوراق، وأن ألخصها له في الأسبوع المقبل. لم أعرف السبب الذي من أجله وصلت هذه الأوراق إلى مكتبي، ولكني بدأت بقراءة الأوراق والوثائق المختلفة والتي كانت خطيرة وسرية جداً.

خلال السنة الأخيرة من ولاية الرئيس كارتر، حاول الرئيس التوصل إلى اتفاقية رئيسية لنزع السلاح مع السوفيات، ولهذا جمع زبغنيو برجنسكي مستشاره لشؤون الأمن

القومي مجموعة من العلماء وكبار المسؤولين السابقين، لإعداد تصوّر عن الحرب والسلم، وعن نتائج ضربة نووية سوفياتية للولايات المتحدة. إحدى النتائج ستكون انبعاثاً قوياً للطاقة الكهراطيسية، والتي من شأنها أن تشل جميع وسائل الاتصالات الإلكترونية لدينا، وإذا حدث ذلك، طرح العلماء هذا السؤال: كيف نتأكد من أن الرئيس يستطيع قيادة البلاد ويمارس دوره كقائد أعلى إذا لم يستطع الاتصال بمواطنين آخرين، أو بالقيادات العسكرية. كنا نعلم أن للاتحاد السوفياتي خططاً لمواصلة عمل القيادة في الحرب النووية، وذلك من خلال شبكة في السراديب السرية تحت الأرض في موسكو. ولكن ماذا تفعل قيادتنا في مثل هذا الظروف؟

وضعت ملخصاً للأوراق، واستدعيت إلى المكتب البيضاوي لتقديم موجز إلى الرئيس وإلى مستشار الأمن القومي (كانت هذه المرة الأولى التي أعرض فيها موجزاً أمام الرئيس ريغان). كانت توصيتي واقتراحي أن عمل «مجموعة الحكماء»، كما كان أطلق على فريق المستشارين الخارجيين، كان مهماً بحيث يجب تحديد نشاط هذه المجموعة. طلب مني القاضي كلارك أن أتولى المهمّة، واستمريت بهذا العمل سنة ونصف، وعرف الأمر فيما بعد بـ «المشروع».

وبصفتي مدير المشروع (بالأمر الواقع) رتبت لقاءات مع مجموعة الحكماء وسجلت أفكارهم واقتراحاتهم. كان توم ريد في الأصل رئيساً للمشروع وهو وزير سابق للقوات الجوية ويحظى بثقة القاضي كلارك.

خلال تلك الاجتماعات جلست هناك متهيباً، بينما كان العديد من العلماء اللامعين يتناقشون حول النبضات الكهراطيسية ومواضيع علمية أخرى لم أكن أعرف شيئاً عنها. كنت قد تابعت دروساً في الهندسة في أنابوليس وأنهيت دورة في علم الأسلحة النووية في مشاة البحرية، ولكن هناك تعابير ذكرت في تلك الاجتماعات لم أسمع بها من قبل.

ونتيجة للعمل الذي قام به الحكماء، تم تشكيل مجموعة عمل حكومية دائمة لمواجهة المسائل الصعبة المتعلقة بالهجوم النووي المحتمل. فلنفترض مثلاً أن الرئيس لم ينجُ من الهجوم، وأن نائب الرئيس قتل في تحطم طائرة الهليكوبتر، ورئيس الكونغرس مات من جراء نوبة قلبية، ولنفترض أيضاً أن عضو الحكومة الرفيع المستوى الذي ما زال على قيد الحياة هو وزير المالية، وكان قد ذهب إلى ويسكونسين ليلقي خطاباً، فإن بقية أعضاء حكومتنا وأفراد الشعب الأميركي، وخصوصاً العسكريين، يجب إعلامهم بأن وزير المالية هو الرئيس حسب الدستور، ولكن الإعلان عن مكان وجوده يسبب المخاطر له. وبغياب قنوات الاتصال العادية كيف يمارس الرئيس الجديد صلاحياته؟ كيف يوقف الحرب أو

يستمر بها، أو يتخذ أي إجراءات أخرى يراها ضرورية؟

بعد سنوات بدأت تحقيقات إيران ـ كونترا، وظهرت مقالة جريئة في صحيفة ميامي هيرالد وبعض الصحف الأخرى جاء فيها: أنه خلال سنواتي في مجلس الأمن القومي، كنت مشتركاً في وضع خطط «لوقف العمل بالدستور لدى حدوث أزمة على صعيد الوطن مثل حرب نووية». لم تكن الرواية مخطئة فقط، بل كان فيها تهجم خطير. كانت النقطة الأساسية في المشروع هي حماية المنظومة الدستورية حتى في أسوأ ظروف يمكن أن نتخيّلها.

خلال عملي في المشروع كتبت مذكرات عديدة وقّعها الرئيس ريغان تأمر باتخاذ خطوات لضمان استمرار عمل الحكومة عند حصول هجوم معاد أو وقوع كارثة غير عادية. من هنا تعرفت إلى نائب الرئيس بوش، وكنائب للرئيس وهو الأول الذي يخلفه، كان له اهتمام خاص وفاعل في المشروع، كنت أعرض أمامه إيجازات عديدة، وكان يطرح أسئلة عميقة ومفصّلة حول كيفية سير الأمور والعمل على تحسين ذلك، كان من الواضح أن اهتمامه كان يتجاوز الشكليات. وبما أن المشروع كان على علاقة بالكونغرس ـ في مسألتي الخلافة والتمويل ـ فقد عرضت إيجازاً أمام اثنين من أقوى خصوم إدارة الرئيس ريغان وهما رئيس الكونغرس تيب أونيل والنائب أد بولاند.

حتى في مجلس الأمن القومي كانت حفنة قليلة من المواطنين تعرف عن المشروع، ولكن بالنسبة إليّ كنت مكتفياً بما أعرف. لقد مكّن المشروع الحكومة من إدارة محادثات الحدّ من انتشار الأسلحة مع الاتحاد السوفياتي، وذلك بضمان أن الولايات المتحدة لن يقطع رأسها.

عام ١٩٨٣ منحت فرصة أخرى رائعة، فعندما تم إنشاء لجنة كيسنجر لدراسة الوضع في أميركا الوسطى، طلب مني القاضي كلارك أن أعمل كضابط ارتباط في اللجنة. استدعت اللجنة ـ كجزء من عملها ـ الرؤساء الثلاثة السابقين للمثول أمامها، ليعرض كل منهم رأيه حول الموقف المتدهور في المنطقة. وكان من صلب عملي أن أتأكد من أن كل واحد منهم قد حصل على المعلومات السرية المناسبة. وسرعان ما اكتشفت أوجه الخلاف بين هؤلاء الرجال، لقد بدأنا مع الرئيس كارتر والذي لم يطلب إيجازاً من أحد، ولم يطلب أن يطلع على الوثائق التي أحضرناها له. قال لي في اتصال هاتفي: «لا تزعج نفسك، لدي مصادري الخاصة». وعندما مثل أمام اللجنة أحضر معه حوالى ٤٠ صفحة من الوثائق وقد عرضها بوتيرته المعهودة في ٢٠ دقيقة بدا معها أن أعضاء اللجنة بدأوا ينعسون، حتى إن الديموقراطيين كانوا يطقطقون بأسنانهم ويحاولون إخفاء تثاؤبهم.

تضمّن تحليل الرئيس كارتر نقداً لاذعاً لسياسة الإدارة في أميركا الوسطى، وعلى

الرغم من شكوكه حول الساندينيين فإنه لم يؤيد دعم الولايات المتحدة لحرب خفية ضدهم، ودون الاعتداد بفخر بما جرى في لقاءاته في كامب ديفيد مع مناحيم بيغن وأنور السادات، فقد نجح في واحدة من أصعب المفاوضات، وكان من الصعب أن نلومه لأنه كان يعتقد أن مشاكل نيكاراغوا يمكن ويجب حلّها بطريقة مماثلة.

أما الرئيس فورد فكان على العكس مبتهجاً لحضوره جلسة الإيجاز، وكنت قد توجهت إليه جواً أنا وموظف آخر إلى كولورادو لإحضاره بوساطة طائرة تابعة للبيت الأبيض. لقد أوجزنا له الأمر خلال رحلة الطائرة إلى واشنطن، وكان عرض الرئيس فورد شبيهاً بوجهة نظر الإدارة.

كان الرئيس نيكسون قصة مختلفة تماماً. قبل حوالى أسبوعين من مثوله بدأت أتحدث معه هاتفياً، وكذلك مع أحد مساعديه. كان يطلع بسرعة على المواد التي كنت أرسلها إليه، وذلك خلال يوم أو اثنين، وبعدها يتصل بي قائلاً: «الآن أرسل إليّ تحليلاً للوضع الاقتصادي بين كولومبيا وريوغراند ـ التجارة ـ العمالة ـ اللاجئين ـ كل شيء».

بعد الاتصال كنت أعد حقيبة وأرسلها بوساطة بريد البيت الأبيض. فيما بعد وفي اليوم نفسه كان يتصل بي مرة ثانية ليقول: «هل لديك شيء آخر؟ الرسالة الثانية التي أرسلتها لم تكن عميقة بشكل كاف».

قلت: «أنا آسف لسماع ذلك منك يا سيدي»، (لقد أهملت أن أذكر له أنني قد كتبت تلك الرسالة شخصياً).

«حسناً. . لا ترسل إليّ هذه التفاهات، أرسل لي تحليلاً مفصّلاً».

كان للرئيس نيكسون شهية للمعلومات وكانت أسئلته دائماً واضحة المعالم. عندما مثل أمام اللجنة انتزع ساعة اليد ووضعها أمامه على المنبر وقال: «لدي ساعة ونصف تماماً، سوف أتكلم ٤٥ دقيقة ثم أجيب على الأسئلة لمدة ٤٥ دقيقة قبل أن يأخذني الرائد نورث إلى المطار». عندئذ ودون أي دفتر ملاحظات أو مرجع سرد الوضع في أميركا الوسطى والجنوبية من ريوغراند إلى ليترا ديل فوغو. كان يعرف كل رئيس دولة وكل حركة سياسية وكل الاتجاهات الاقتصادية، ودون أن يضيّع أي دقيقة تكلم لمدة ٤٥ دقيقة تماماً ثم أجاب على الأسئلة، كان أداؤه رائعاً.

بينما كان الرئيس نيكسون يتكلّم، كنت أنظر إلى كيسنجر الذي كان يكشّر مثل القطة، ربما كان كيسنجر تلميذ نيكسون في الحقيقة، وفي ذلك اليوم بدا أن العقل المفكر الذي كان وراء سياسة نيكسون الخارجية هو نيكسون نفسه.

لقد تخلّفت كثيراً عن تناول طعام العشاء مع أفراد عائلتي خلال عملي في البيت الأبيض، ولكن على الرغم من ساعات العمل غير المعقولة، وعطل نهايات الأسبوع التي أمضيتها في المكتب، فقد تدبرت عائلتي أمر الذهاب في رحلات ومخيمات خلال العطل القصيرة إلى كارولينا الشمالية وفيرجينيا وماريلاند.

عام ١٩٨٦ أخذت الجميع إلى كوستاريكا حيث كنت أخطط للاجتماع بعدد من قادة الكونترا، ومع جو فرنانديز رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية، والذي كنت أعرفه في واشنطن قبل ذهابه إلى كوستاريكا. لقد زرنا السفير لو تامبز ومكثنا عند عائلة فرنانديز. وخلال نهاية الأسبوع كان أولادنا - بلغ عددهم جميعاً ١١ ولداً - يذهبون إلى منزل على شاطىء المحيط الهادىء جنوبي المطار السري الذي كان ديك سيكورد قد بناه في سانتا إيلينا.

واليوم وأنا أعود للتفكير في عملي في مجلس الأمن القومي كل ما أستطيع أن أراه وأتذكره هو العمل. ولكن كانت هناك بعض الامتيازات، كنّا نحضر أطفالنا للاحتفال بعيد الفصح في البيت الأبيض، وإلى حفلة عيد الميلاد الخاصة بالبيت الأبيض، حيث يتسنى لهم مشاهدة الرئيس والسيدة الأولى. وكنا نحصل أحياناً أنا وبتسي على تذاكر مجانية للدخول إلى مركز كينيدي. عندما كان الدبلوماسيون الأجانب يأتون إلى المدينة كان أحد موظفي البيت الأبيض يرافقهم إلى مركز كينيدي، حيث يجلس الجميع في جناح الرئيس، أحياناً كان مكفرلين يحصل على هذه التذاكر، وكانت سكرتيرته ويلما هال تتصل كل بضعة أشهر وتسأل ما إذا كنت أنا وبتسي قادرين على الذهاب، كان هذا يحدث عادة في آخر لحظة، ولكننا كنّا ننتهز الفرصة عندما كنا نستطيع.

نحن لا نتكلم عن مارغريت تاتشر ولا عن ميخائيل غورباتشوف فهؤلاء الضيوف المهمون كان يرافقهم مسؤولون رفيعو المستوى، وعندما كان يصل الأمر إليّ كان الاستقبال يتعلق ببعثات من بلدان لا يرغب أحد باستقبالها، أو هي في الحد الأدنى من الأبجدية الدبلوماسية أو من أسماء طويلة مقطعة، أو لحكومات صناعتها الرئيسية إصدار الطوابع البريدية الملوّنة.

كنا أنا وبتسي نرحّب بضيوفنا في غرفة قرب جناح الرئيس، وكمضيف ومضيفة كنا نصل إلى هناك باكراً كي نعد الهاتف للعمل، ولنتأكد من أن البراد الصغير مليء بشمبانيا كاليفورنيا من نادي البيت الأبيض. كانت هذه الزجاجات مختومة بخاتم البيت الأبيض، ومعظم ضيوفنا اصطحبوها معهم كتذكار.

أنا لا أمزح الآن، ولكننا - أنا وبتسي - رأينا أشياء عجيبة، والتقينا أناساً مذهلين

من بـلاد سمعنا عنهـا القليل. (سـوف أقوم ببحث بسيط حـول هذه الأمكنـة، بحيث لا أظهـر كأني جـاهل تمـاماً). قبـل إنزال الشـارة كان الحضـور يتطلعـون إلى جناح الـرئيس ويتعجبـون ممن كـان يجلس فيـه في تلك الليلة. قبـل بـدء العـرض كـانت هنـاك بعض البـلاغات: «سيـداتي سادتي يجلس في جنـاح الرئيس هـذه الليلة السفير زليغبـات وزوجته وايروكس من دكتاتورية ابيديرموس..».

لكن هـذه المداخـلات بين العمـل والعائلة كـانت نـادرة. طـالمـا كـان الأمـر يتعلق بأولادي كنت وكأني أعمل في كوكب آخر.

ـ لماذا لا تحضر إلى المنزل يا والدي؟.
ـ لأنّ لدي عملاً كثيراً يا عزيزي.
ـ مسكين والدي، كم يبدو وسيماً إذا تطلّب كل هذا الوقت الطويل لينجز عمله.

ولكن بينما كنت لا أستطيع أن أتكلم مع أطفالي حول تفـاصيل ذلـك العمل، كنـا نشرح قضايا عامة في السياسة الأميركية. كانت تايت وستيوارت في المدرسة الثانوية، ولقد زرت صفّهما لأتكلم وأعرض أفلاماً حول الوضع في أميركا الوسطى.

كـانت بتسي تعرف الخـطوط العامـة في عملي ولكن معـرفتها لم تتضمن التفـاصيل. كـانت تعلم أني أسافـر إلى أميركـا الوسـطى في مهمـة تتعلق بمجلس الأمن القـومي، وأن الإدارة كـانت تدعم المقـاومة النيكـاراغويـة، ولكنها لم تكن تعلم إلى أي بلد كنت أسـافر ولماذا؟. . خلال بعض الأوقات التي كنت فيها مشغولاً جداً كانت تلاقيني في المطار ومعها زوج من القمصان النظيفـة. وعندمـا كانت تسمـع ـ بشكل عـام ـ أني أعمل حـول قضية الرهائن لم تكن تعلم مع من أجتمع، أو أني قد ذهبت إلى طهران، فهي لم تعرف ذلك إلاّ خلال تحقيقات الكونغرس حيث علمت بتسي بالضبط أين كنت أمضي وقتي. عندما انتهى كل ذلك التفتت إليّ وقـالت: «أنا سعيـدة لأني أتيت. الآن أنا أعلم أين كنت تمضي تلك الليالي».



في طريقه إلى كامب ديفيد، الرئيس ريغان يثني على راهب كاثوليكي نيكاراغوي معارض للنظام الشيوعي في ماناغوا.

في ربيع ١٩٨٥ طلب الرئيس الاجتماع بزعماء المقاومة النيكاراغوية.
خلال هذا الاجتماع قدّم له أدولفو كاليرو شعار «أنا كونترا أيضاً».





التقط أحد عناصر مكافحة الإرهاب الإسرائيليين هذه الصورة بينما كنت أتصل بواشنطن لأعلمهم أننا وصلنا بأمان من طهران إلى تل أبيب.
آمي نير يقف قرب مكفرلين. كان علينا أن نغطي أوجه عناصر وكالة المخابرات المركزية ومعدات الاتصال أيضاً قبل السماح بإظهار الصورة.

إشارة طريق في طهران تقترح حلاً من الحكومة الإيرانية لمسألة السلام في الشرق الأوسط.

(٨)
الإقفـال

خلال عملي لفترة خمس سنوات ونصف في البيت الأبيض تكونت لدي نظرة فاحصة لعدد من كبار المسؤولين في إدارة الرئيس ريغان.

أنـا لا أدعي بأني أعـرف رونالـد ريغان جيّـداً، ويجب أن أقرّ بـأن شعوري السلبي تجاهه كان نتيجة ما حدث لي منـذ أن تركت البيت الأبيض عـام ١٩٨٦، قبل أن أصرف من الخـدمة التقيت بـه مرات عـديدة في فـترة عملي في مجلس الأمن القـومي والتي امتدت لخمس سنوات ونصف وكانت كافية لأخذ فكرة جيّدة عن هذا الرجل.

أول ما لاحظت هو أنه كان يعمل بكـدّ أكثر ممـا كان النـاس يقدرونـه. وبينما كـان يعـرف دون شك كيف يتمتـع بالحيـاة، كان واضحـاً أنه انغمس في أعـمال إدارية كبـيرة، وحضر اجتماعات لا حصر لها. كذلك وجدته رئيساً عـاملاً وفـاعلاً أكـثر مما كـانت تصوّره أجهزة الإعلام، وبينما كنت لا أعلم ما إذا كان ذلك صحيحاً بشكل عام، فقد كان ذلك أكيـداً في القضـايـا التي كنت أعمـل فيهـا ـ مكـافحـة الإرهـاب والـرهـائن والمقـاومـة النيكاراغوية ـ.

كان قصّاصاً من الدرجة الأولى وكانت النوادر التي يرويها، حسب خبرتي معه، غالباً ما كان لها صلة بالموضوع أو بالجو العام في الغرفـة. أحيانـاً كان يـروي بعض الذكـريات لكي يخفّف التوتر ويريح المشتركين في الاجتماع، وفي أحيان أخرى يستعمل المرح ليحصل على اتفاق الجمهوريين والديموقراطيين.

كان يستطيع أيضاً أن يضحك من نفسه، مع أنه كـان قائـداً لأقوى بلد في العـالم، وأعيد انتخابه بأغلبية ساحقة، فقد كـانت لديـه مواقف تحبّبـه إلى الناس. كـانت الممارسـة جزءاً من ذلك ولكن وراء الممارسة كان محبوباً ولطيفاً.

كان يعتمد الأسلوب نفسه مع كبـار الموظفـين. ففي تشرين الأول/ اكتوبـر ١٩٨٣

وفي أثناء عملية غرانادا عقد الرئيس سلسلة اجتماعات مع قيادات جزر الكاريبي التي اشتركت معنا في عملية الإنقاذ. كان أحد هؤلاء الزوار كومبتون رئيس الوزراء لجزيرة تيركس وكايكوس، وهي مستعمرة بريطانية سابقاً، والذي حضر مع زوجته الجميلة الجذابة. كانت الاجتماعات في المكتب البيضاوي تقتصر على العمل إلى أن قاطعت هذه الزوجة عملية الوداع لتقول إنها أحضرت رسالة من شعبها: «السيد الرئيس... يعتقد شعبنا أنك شجاع في ما قمت به في غرانادا، ويقولون إنك تملك ـ وهنا رفعت يديها ولفظت الكلمة ـ بيضتين كبيرتين..

في هذا الموقف وفي اللحظات التاريخية العديدة يمكنك أن تستمع إلى ضحكات مكبوتة، بينما كان كبار المسؤولين يجهدون لإخماد ردة فعلهم الضاحكة. بالنسبة إلى الرئيس فقد اكتفى بالابتسام واحمّر وجهه قليلاً وأخفض رأسه وقال بأسلوبه المحبّب: «حسناً حسناً».

لقد شرحت خيبة أملي الشخصية من إدارة ريغان. سياسياً كان أسفي أنه عوضاً عن تقوية مركز الرئاسة فقد أضعفه بالفعل.

لم يكن قوياً بشكل كافٍ عندما شجر وقت النزاع بشأن الامتيازات الدستورية للجناح التنفيذي. كان بإمكانه أن يعارض تعيين مدعٍ عام مختص، وبإمكانه تحدي «قرار سلطات الحرب» عندما قرر استخدام القوة العسكرية في غرانادا وليبيا، وعوضاً عن ذلك أذعن الرئيس بدعوته زعماء الكونغرس، وإعلامهم عن نواياه: إن «قرار سلطات الحرب» الذي أقر عام ١٩٧٣، على الرغم من ممارسة الرئيس نيكسون حق الفيتو، يمدّد سلطة الكونغرس على حساب الرئاسة، وعندما تعطى تلك الصلاحية من المستحيل أن تستعاد*.

وقد حدث الشيء نفسه بالنسبة إلى توصيات بولاند التي قيّدت بشكل قوي الدعم الأميركي للمقاومة النيكاراغوية. عندما بدأ الكونغرس بعرقلة سلطة الرئيس في تنفيذ السياسة الخارجية، كان عليه أن يقف أمامهم معلناً: «إذا أرسلتم إليّ قانوناً يتضمّن تلك التوصيات لن أوقعه، إنه غير دستوري، وإذا كان ضرورياً ستتعرض الحكومة إلى توقف مخيف، حتى ترسلوا إليّ قانوناً يمكن أن أوقعه».

---

* لم يحدث أن وقّع أي رئيس قانوناً يحدّ من السلطة الدستورية للرئيس بنشر القوات العسكرية. ولكن جميع الرؤساء اعتباراً من جيرالد فورد تقيّدوا بشروط «قرار سلطات الحرب» قبل إشراك القوات الأميركية. كان رونالد ريغان أول رئيس يتمتع بشعبية كافية لتحدي الكونغرس حول ما اعتبره بعض الخبراء قيوداً غير دستورية حول عمل الرئاسة. ولسوء الحظ فشل في ذلك أيضاً.

يمكن أن يكون الرؤساء في المستقبل مقيّدين بالكونغرس، لأن رونالد ريغان أحد أكثر الرؤساء شعبية في التاريخ الأميركي لم يطالب بالسلطات الأساسية لمركزه.

كان موقفي من الرئيس ريغان متأثراً أيضاً بالتصريحات التي صدرت عنه منذ أن ترك كلانا واشنطن.

وكما يعلم العالم بأسره اليوم فقد استشار الرئيس والسيدة الأولى المنجمين. بالنسبة إليّ، لا أستطيع أن أفهم كيف يؤمن رجل يدّعي المسيحية بهذه الخرافات. أنا أعلم أن ملايين الأميركيين يقولون إنهم يؤمنون بربّ الكون والنجوم، ولكن أن يستيقظ أحد ما عند الصباح ويدعي أنّ تفسير علم الفلكيات والنجوم يوجّه نهاره، فهذا خارج مفهومي.

في النهاية وعلى أي حال أفكر برونالد ريغان عبر أطفالي الأربعة ومستقبلهم، وهذا هو السبب الذي من أجله لم أغضب منه. أتذكر كيف كان العالم عام ١٩٨٠. إن الرجل الذي هزمه ريغان في تلك الانتخابات أحب أن يخبرنا أننا تجاوزنا أفضل أيامنا. كان الرئيس كارتر يعتقد أن الأمل الوحيد لأميركا يقع على عاتق حكومة أكبر، وأنه علينا أن نعيد النظر بآمالنا. لقد تركنا واقتصادنا فاشل ودفاعاتنا ضعيفة ومعنوياتنا منهارة.

ثم أتى رونالد ريغان وأظهر لنا طريقاً أخرى، وتجاوب معه الشعب الأميركي كثائر من أجل الحق، وقد رأى ذلك الناس الذين يعيشون في ظل الشيوعية أيضاً، فقد نظروا إلى رونالد ريغان كشخصية روحية تلهمهم رفض النظام الذي كانوا يعيشون في ظلّه ويكرهونه طوال حياتهم.

العالم الذي نعيش فيه اليوم هو أفضل مما كان عليه عام ١٩٨٠, لقد نسبت مجلة تايم الفضل لميخائيل غورباتشوف وأسمته «رجل العقد»، ولكن رونالد ريغان هو الذي غيّر العالم في الثمانينات. إنه هو الذي جعل التغييرات في ظل غورباتشوف ممكنة وضرورية. وإذا كان كارل ماركس هو العامل المحرك للثورة الروسية الأولى عام ١٩١٧، فإن رونالد ريغان هو الملهم في الثورة الثانية عام ١٩٩١.

كان هو الذي أعاد الحياة إلى القوة الأميركية والاقتصاد الأميركي، وقاد العالم بأكمله إلى مسافة خطوات قليلة من الحرية والازدهار.

وأنا أشكره دائماً للمستقبل الأفضل الذي قدّمه لأطفالي.

لسوء الحظ لم يكن الرجال المحيطون بالرئيس ريغان معه في جميع سياساته وفي بعض أولوياته من مثل مساعدة الكونترا وتقليص حجم أعضاء الحكومة. لا يمكن تحقيق هذه السياسات بوساطة رجل واحد، وبدا أن كبار مساعديه، مثل ريتشارد ويرتلين ومايك

ديغر، يهتمون كثيراً بشعبية ريغان أكثر من اهتماماتهم ببرامجه وسياساته.

يؤكد بعض الناس أن أعظم خطاب لرونالد ريغان كان على شاشة التلفزيون عام ١٩٦٤، عندما قدم باري غولدووتر ذلك الخطاب غيّر بالتأكيد حياة ريغان، ولكن على حد علمي فإن لحظاته العظيمة كرجل اتصالات سياسية لم تكن في الولايات المتحدة بل في الاتحاد السوفياتي.

في ٣١ أيار/ مايو ١٩٨٨ وقف تحت تمثال لينين العملاق وتكلم أمام طلاب جامعة موسكو عن المعنى الحقيقي للحرية: «الحرية هي حق السؤال والتغيير للطريقة المتبعة في القيام بأي عمل»، وأضاف «إنها الثورة المستمرة في عالم التجارة، إنه المفهوم الذي يسمح لنا بإدراك عيوبنا والبحث عن الحلول، إنه الحق بوضع أفكار معينة كان الخبراء قد سخروا منها، وأن ننظر إليها وهي تسري كالنار بين الناس، إنه حقنا في أن نحلم وأن نتبع حلمك وتشكك في وعيك حتى ولو كنت الوحيد في بحر المشكّكين».

إن عظمة ريغان لم تكن في أنه ألقى ذلك الخطاب الذي كان قد كتبه له جوش غيلدر، بل لأنه جعل من الممكن إلقاء هذا الخطاب في المكان المناسب الأول. وعلى حد علمي كانت تلك أروع لحظاته.

إن مأساة رونالد ريغان هي أن أحداً لن يتذكر خطابه في موسكو «وبدلاً من ذلك يعلق في أذهان الجمهور شريط الفيديو الذي عزل فيه پواندكستر عند محاكمة هذا الأخير عام ١٩٩٠. يستحق رونالد ريغان مكاناً مشرفاً في التاريخ العالمي، ولكن الملايين يفكرون فيه على أنه رجل عجوز مرتبك. كنت أفترض دائماً أن رونالد ريغان يملك أفضل المحامين، ولكني لم أفهم لماذا سمحوا له بأن يذيع ذلك الشريط*.

كان لدي اتصال مباشر قليل مع وزير الخارجية جورج شولتز ووزير الدفاع كسبار وينبرغر، ولكن مثل أي واحد في مجموعة الأمن القومي لم أستطع أن أعلم سبب النزاع الدائم والمستمر بينهما. أحد الأسباب كان يتصل بطبيعة عمل كل مؤسسة: ففي كل إدارة تمثل وزارة الدفاع للتشكيك بالاتحاد السوفياتي، بينما تميل وزارة الخارجية نحو التسويات والمصالحات. لكنّ ذلك النزاع كان شخصياً، وانتقلت الخصومة بين شولتز ووينبرغر إلى البيروقراطيات وقوّضت العلاقات بين المسؤولين التنفيذيين في كل من الوزارتين.

اعتدت على سماع جدالهما في أثناء اجتماعات مجموعة تخطيط الأمن القومي في غرفة

* إحدى أكثر العبارات غرابة في شهادة ريغان: «إلى اليوم ليس لدي معلومات أو معرفة.. في أنه كان هناك تحويل... وأنا ولغاية هذا اليوم لا أتذكر أنني سمعت أن هناك تحويلاً».

الأوضاع في البيت الأبيض. عندما كان شولتز يتكلم كان وينبرغر يجلس على كرسيه ويغلق عينيه، وعندما ينتهي شولتز من كلامه كان وينبرغر يتكلم معرباً عن عدم موافقته. في بعض الأحيان وعندما يكون الأمر متعلقاً بأميركا الوسطى كان وينبرغر يتكلم وكان شولتز يلزم الصمت.

كانا يتجاشران بشكل دائم أمام الرئيس في الاجتماعات ومن خلال تصريحاتهما العلنية. في بعض الأحيان تشعر أن أحدهما يتخذ موقفاً متطرفاً بهدف إزعاج الآخر فقط. كانت هذه المشاجرات متعددة دون أن يحفظ أي منهما مركزه، بحيث أني كنت أتعجب ما إذا كان شولتز ووينبرغر يكسبان شيئاً ما من جرّاء إعطاء الانطباع بأنهما لا يتوافقان.

كانا يهاجمان بعضهما كلامياً منذ سنوات، أي منذ عام ١٩٧٠ عندما كان وينبرغر يعمل في مكتب الرئيس نيكسون في الإدارة والموازنة. واستناداً إلى التقاليد السائدة استمر نزاعهما في شركة بكتل حيث كان شولتز رئيساً لمجلس الإدارة ووينبرغر مستشاراً عاماً.

لقد انعكس ذلك على سخصيتيهما المختلفتين. كان شولتز هو الأكثر إثارة، ففي التصريحات العلنية كان يحاول أن يصوّر نفسه أنه حذر ومنزوٍ خلف الأضواء يجاهد للبقاء في الظل، ولكنه صعقني في كونه عكس ما يصرح به: رجل يحب جذب انتباه الصحافة، ويريد أن يظهر أنه المسؤول عن السياسة الخارجية في الاجتماعات الخاصة، كان مشاكساً وخصوصاً مع وينبرغر وكايسي، وكان يتعارض معهما في أثناء الاجتماعات مع الرئيس.

كذلك صعقت منه لأنه الأكثر طموحاً، ففيما بعد وفي أثناء التحضير لمحاكمتي، علمت أن شولتز قد أسرّ إلى أحد مساعديه بأنه يأمل باستغلال فشل مبادرة إيران ـ كونترا ليصبح مستشاراً لشؤون الأمن القومي مع الاحتفاظ بمركزه كوزير للخارجية. عندما أفكر به أتذكر العنوان الرائع لكتاب جون دين حول ووترغيت: «الطموح الأعمى».

كان وينبرغر في الجانب المقابل مرتبكاً أمام أجهزة الإعلام حيث كان غالباً يتلعثم في المؤتمرات الصحافية. كان فاعلاً ومتكلماً في غرفة الأوضاع، حيث كانت وجهات نظره واضحة وموجزة. كان يعلم أنه من أجل مصداقية الولايات المتحدة، عليها أن تحتفظ بالقوة العسكرية. شولتز على أي حال لم يبد اهتماماً حول مسألة محددة في السياسة الخارجية، ما دام عليه أن يتفاوض بشأنها.

إنّ عدم وجود فلسفة واضحة عند شولتز ظهر عندما كان يتعامل مع السوفيات، حيث تحوّل إلى رجل اللامواجهة. لم يشأ أن يواجههم حول إمدادات السلاح التي أرسلوها إلى نيكاراغوا، وكان من المعلوم أن وزارة الخارجية أرادت أن تضحي بمبادرة

الدفاع الاستراتيجي من أجل التوصل إلى معاهدة نزع سلاح مع السوفيات.

الشيء الوحيد الذي اتفق عليه شولتز ووينبرغر أنهما كانا يعارضان بشدة تعاملنا مع إيران. قالا ذلك مرات عديدة وبأصوات عالية. كانت معارضتهما حقيقية ولكن في حالة شولتز أعتقد أنه كان يناور ليغطي كل قواعده، فإذا فشلت مبادرة إيران فإنه سيعلن أنه كان يعارضها. بعدما صرفت، أصر شولتز على أن تتولى وزارة الخارجية الاتصالات مع الإيرانيين، وإذا نجحت المبادرة فهو سيشارك في النجاح.

خلال العاصفة الإعلامية حول إيران ـ كونترا قيل إن شولتز هدّد بالاستقالة احتجاجاً على سياسة تبادل الرهائن بالأسلحة. أنا لا أعتقد ذلك، فأنا واثق أنه لو مشى إلى المكتب البيضاوي وقال بوضوح: «إمّا أن توقفوا أعمالكم في إيران أو أرحل» لكانت المبادرة بأكملها توقفت وماتت وهي في الطريق.

على الرغم من اهتمام الرئيس بالرهائن بعد رحيل هيغ، لم يستطع الرئيس أن يتحمل خسارة وزير آخر للخارجية، خصوصاً الوزير الذي كانت علاقته الشخصية مع شيفاردنادزه تظهر الود الذي كان يكنّه ريغان لغورباتشوف. وفي التحليل النهائي كان كل شيء في ساحة السياسة الخارجية يبدو ثانوياً أمام المسألة الرئيسية والتي كانت «العلاقات الأميركية السوفياتية».

لو كان شولتز ووينبرغر معارضين بقوة للمبادرة الإيرانية كما أعلنا في النهاية لما كان لها أن تستمر. كان وزير الدفاع وببساطة منع شحن المعدات العسكرية من مخازننا. فماذا كان سيحدث لو ذهب الرجلان لمقابلة الرئيس وقالا له: «يا رئيسنا.. أخيراً وجدنا شيئاً نتفق عليه، إما أن يتوقف هذا أو نرحل كلانا من هنا». بدلاً من ذلك وكما يفعل السياسيون البراغماتيون تركا خياراتهما مفتوحة.

ومع أن معاركه الرئيسية كانت مع وينبرغر، فقد كان لشولتز مشاكسات مع وليم كايسي. وكان الشعور متبادلاً، كان كايسي يعتقد أن شولتز يملك مفكرته الخاصة ويرى أن يعمل لصالح كل «الجنس الشولتزي».. قال لي كايسي: «إن شولتز يعتقد أن كل مشكلة يمكن التفاوض عليها، وعندما يتأتّى له ذلك فإنه لا يفاوض، إذا كان لشولتز أن يتبع طريقه هذه فلن نستطيع حل أي مشكلة، كل ما نفعل هو الاستمرار في المفاوضات».

لم يكن كايسي مجرد ساخر، بل كان يؤمن بإخلاص أن لديه حلولاً للمشاكل، ولكن شولتز كان مكتفياً بالتحدث عنها.

كانا يتجادلان كثيراً وخصوصاً حول نيكاراغوا، حيث كان شولتز يحبّذ مفاوضات

متعددة الأطراف، بينما كان كايسي يدعم المقاومة المسلّحة. لم يكن كايسي يرفض إنهاء النزاع بالمفاوضات أو أنه كان يفضل حلاً عسكرياً، لكنه كان مقتنعاً أن ضغط المقاومة النيكاراغوية ضروري لنجاح المفاوضات، وكان تقريباً على حق. كان الضغط العسكري هو الذي أجبر الساندينيين أخيراً على القبول بانتخابات حرة أدت إلى هزيمة دانييل أورتيغا عام ١٩٩٠.

كان النزاع بين كايسي وشولتز محترماً أكثر من التنافس بين شولتز ووينبرغر، وكان على خطوط التوتر التقليدية بين وزراء الخارجية والمستشارين لشؤون الأمن القومي. كانت نظرة شولتز إلى العالم يصعب إدراكها وتمييزها، بينما أعدّ كايسي ما عرف فيما بعد «بالعقيدة الريغانية» التي شجعت الدعم الأميركي الإيجابي للحركات المضادة للشيوعية في جميع أنحاء العالم. وقد أصبحت أفغانستان ونيكاراغوا وأنغولا من ضمن إنجازاته الحيوية.

لكن كايسي لم يكن مجرد شخص معاد للشيوعية، بل كان متحمساً للديموقراطية. وأحد الإحباطات الكبيرة التي أصيب بها هو أن القليل من الأميركيين كان يعرف أن كثيراً من الديموقراطيات انبثقت خلال عهد ريغان ومن ضمنها ديمقراطيات الأرجنتين والبرازيل والأكوادور والسلفادور وغرانادا وفنزويلا وكولومبيا والهندوراس وغواتيمالا والفيليبين وكوريا الجنوبية.

كان كايسي يشعر بالحاجة إلى تصحيح المفهوم السائد في العالم من أن الولايات المتحدة حليف لا يُتكل عليه وصديق في الأيام الحلوة فقط. لقد فهم لماذا كانت هذه الصورة شائعة، ويذكر العواقب للذين كانوا سُذّجاً بشكل كاف فصدقوا أميركا من خليج الخنازير إلى فيتنام وكمبوديا ولاوس إلى الشاه وإلى زعماء أميركا اللاتينية، الذين صدقوا الرئيس كارتر حين أكد لهم أن الساندينيين أفضل لهم من نظام سوموزا. وباختصار لقد صمم كايسي على إنقاذ مصداقيتنا بين دول العالم.

كنت معجباً كثيراً به وكنت أعرفه جيّداً. بعد وفاته في ربيع عام ١٩٨٧ كانت طبيعة مشاركتنا موضوعاً لتأويلات، واستناداً إلى بعض التقارير كنت مثل ابنه، بينما أقسم آخرون أنه بالكاد يعرفني.

كانت علاقتنا ودية ومع ذلك لم تكن شخصية. كنا نتكلم في غالب الأحيان على خطوط الهاتف الآمنة، وكنا نلتقي بشكل منتظم في أحد مكاتبه، وأحياناً في منزله في شمالي غربي واشنطن. كان لديه ثلاثة مكاتب كنت أعرفها، ولكن بعدما عرفت كايسي يمكن أن يكون له مكاتب أخرى لا أعرف مكانها.

كنت معجباً به وكان يعرف ذلك، لكني لم أكن أبداً تحت رعايته أو حمايته، ولا أعتقد أنه كان يراني مثل الابن الذي لم يكن لديه. لم نكن رفاق سلاح ولم يتصل بي على الهاتف ليقول: «تعال ودعنا نتناول كأساً هذه الليلة». كان لكايسي أصدقاء لم أعتبر نفسي واحداً منهم.

ومع ذلك كنّا أكثر من زملاء. كان من الأشخاص الذين أقول لهم: «ماذا يجري هنا؟» كنت أستطيع التحدث إليه حول العودة إلى مشاة البحرية، وغالباً ما كنت أطلب نصيحته. كان يسديها بتلهف: «هنا من يجب أن تتعامل معه حول نيكاراغوا، لكن ابق بعيداً عن كذا وكذا. إنه ليس جيّداً».

عندما أتيت إلى مجلس الأمن القومي لم أكن أعرف شيئاً عن العمليات السرية، ولكن كايسي علّمني الكثير. عام ١٩٨٤ عندما أخبرني مكفرلين أن أحد حلفائنا سوف يساهم بمبالغ مالية لدعم المقاومة النيكاراغوية وطلب مني أن أعد طريقة لتسليم الأموال، كان كايسي هو من أخبرني بالذي يجب أن أفعله. فيما بعد افترض الناس أن ضابطاً في مشاة البحرية كان يعرف أن يفتح حساباً في مصرف في ما وراء البحار، وأن يستقبل الودائع بالبرقيات، ولكن لم يكن لديه مفتاح اللغز. بالنسبة إليّ كان المصرف عبارة عن مكان تقدم فيه الحلوى حين تفتح حساب شكات وحيث تقدم طلباً للرهن، لم أكن قد سمعت عن تحويل الأموال برقياً، وبالتأكيد لم أكن أعلم شيئاً عن تلك الترتيبات. ولكن كايسي بالإضافة إلى أمور كثيرة كان عبقرياً في الأمور المالية. كان رئيساً لجهاز الأمن والتبادل خلال عهد الرئيس نيكسون، وقبل ذلك ابتكر مفهوم «ملجأ الغريبة» وربما هو الذي أطلق عليه هذا الاسم.

إن عادة كايسي في التمتمة في أثناء الكلام حجبت الحقيقة عنه في أنه رجل لامع كثير الاطلاع كان قد تمرّس كمحام وكان على ما يبدو محامياً جيّداً كما كان دائماً يذكر الناس. لقد رأى نفسه ذكياً منجذباً إلى الناس الذين يهتمون بالأفكار الكبرى وفي رسم صورة مشرقة. كان له إعجاب خاص بجين كيركباتريك، وفي مناسبتين منفصلتين - عندما ترك وليم كلارك منصبه في مجلس الأمن القومي، ومرة ثانية عندما استقال مكفرلين - جهد من أجل أن تحتل جين هذا المنصب، ومع أن كايسي ووينبرغر كانا يدعمانها فقد اصطدم تعيينها في المناسبتين بجورج شولتز. وأنا أعتقد أن السبب الذي من أجله لم يرد شولتز لها أن تصل إلى مرتبة أعلى من مندوبة في الأمم المتحدة هو أنها كانت تهدده بذكائها الخارق وآرائها المعادية للشيوعية.

لقد تسنى لي أن أعرفها جيّداً عندما عملت مع لجنة كيسنجر حول قضايا أميركا

الوسطى. كانت الاختيار الأول لبيل كلارك في عضوية اللجنة، وكانت تعرف بوضوح أكثر من غيرها ما يجري في المنطقة. لم يكن ذلك مجرد تعليم أو معرفة أكاديمية، لقد ذهبت إلى المنطقة وكانت تعرف عدداً من الزعماء شخصياً. لقد أدى استيعابها للمسألة وللشخصيات إلى عدم ارتياح بقية أعضاء اللجنة - حتى كيسنجر -. كانت في بعض الأحيان فظة في شرح عدم جدوى أي اقتراح أو فكرة معينة، والذين لم يقدّروا لها ذلك وجدوا أنها مزعجة. أنا أعتقد أنها رهيبة ولكنني الآن أستطيع أن أعرف لماذا كان كايسي معجباً بها.

كان عقل كايسي ينتج دائماً برامج جديدة. كان حذراً جداً وغالباً ما كان يقع تحت تأثير رشقات من الأسئلة: «لماذا؟ ما الذي يجعلك تؤمن بذلك؟ ما هو الإثبات؟ كيف تعرف؟».

كان لديّ شعور بأن تلك التمتمة كانت في قسم منها تمثيلاً، لأنه عندما يريد أن يتكلم بوضوح كان كلامه واضحاً ومفهوماً، وكان كلامه على الهاتف أسهل وأوضح وهذا ما أثار عجبي. في بعض الاجتماعات رفيعة المستوى والتي كنت أحضرها، بدا لي أن كايسي كان يتمتم ليرغم بعض أعضاء الحكومة الحاضرين على الانحناء نحو الأمام حتى يصغوا إليه. لم يتكلم بصوت عال ولكن كان لديه طريقة في إثارة الانتباه. كاسبار وينبرغر الذي كان ينتابه النعاس خلال هذه الاجتماعات (يقول الناس إن ذلك نتيجة معالجته من التهاب في المفاصل) كان يستيقظ دائماً ليستمع إلى كايسي.

كان كايسي يعرف تماماً كيف يتصرف وسط الجمهور. كنت أذهب أحياناً لإلقاء خطابات أمام ضباط جدد في وكالة المخابرات المركزية في مركز التدريب الخاص بالوكالة، كنت أفاجأ دائماً عندما يقول معظمهم إنهم قرروا تقديم طلبات للتطوع في وكالة المخابرات المركزية، بعدما سمعوا كايسي يلقي خطاباً في كليتهم أو في جامعتهم. كان كايسي يحب الشباب من أجل حيويتهم وحماستهم.

الكلمة الوحيدة التي لم يستطع أبداً أن يلفظها هي اسم البلد الذي كان دائماً بباله. كان يسميه نيكاووغ وا، وفي الاجتماعات حاول الناس أن يخرجوا عن الموضوع ليقوم بلفظها. لقد كان بعض زعماء الكونغرس الديموقراطيين يمزحون حين يقولون إنهم لن يصوتوا لمصلحة إزاحة حكومة بلد - أي بلد - لا يستطيع مدير وكالة المخابرات المركزية أن يلفظ اسمه. ومع ذلك كان كايسي يتكلم عدة لغات أجنبيه وينتبه للتفاصيل.

كان يقرأ دائماً، لقد رافقته في رحلة إلى باناما عندما رأيته يبدأ بغلاف كتاب «الأزمنة الحديثة» تأليف البريطاني بول جونسون. هذا الكتاب هو عبارة عن تاريخ العالم

منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى الثمانينات ويقع في حوالى ٨٠٠ صفحة. كنت أجلس خلفه وفي أثناء هبوط الطائرة التفت نحوي وقال: «هل قرأت هذا؟ إنه جيد فعلاً» ثم مرّره إليّ. كان كتاب الأزمنة الحديثة أحد أفضل الكتب التي قرأتها ولكن - عليك أن تنتبه - لقد بقيت أسابيع أتفحص فيه، ولكن كايسي التهمه خلال رحلة جوية.

في منزله العائلي فيماينول على شاطىء لونغ ايلاند كانت الكتب مرصوفة من الأرض إلى السقف، وحيثما سافر كان يطلب من الفريق السباق* أن يجد له شيئين: كنيسة كاثوليكية ومكتبة جيّدة. كان يشتري دائماً مزيداً من الكتب ثم يهديها. كان يقول: «هل قرأت هذا؟ هذا المؤلف يعرف عما يتحدث».

أحد الكتب التي تأثر بها هو «شبكة الإرهاب» تأليف كلير ستيرلنغ وهي صحافية أميركية تعيش في إيطاليا. وصفت ستيرلنغ الأخوة الإرهابية الدولية، وهي مجموعة تتلقى دعماً من السوفيات وحلفائهم في أوروبا الشرقية. جاء في الكتاب: لم يكن عمل المخابرات السوفياتية مسألة تخمين ولكنها حقيقة موثّقة. لقد شجبت بشدة الحكومات الغربية لرفضها الإقرار بهذه الحقيقة في مواجهة إثباتات دامغة.

كان كايسي متأثراً جداً بأعمال ستيرلنغ واستنتج أن لها مصادر عظيمة. ولكن مديحه لكلير ستيرلنغ لم يشارك به النخبة في واشنطن، فعندما نشر كتاب «شبكة الإرهاب» رفضه النقاد لأنه دعاية للجناح اليميني. ولكن بعد بضع سنوات عندما بدأت الشيوعية بالانهيار في أوروبا ثبتت اتهامات ستيرلنغ وادعاءات كايسي مرة أخرى، وفي الغالب من قبل المذنبين أنفسهم*.

لقد وجد كايسي الوقت ليكتب كتباً خاصة به ومن ضمنها كتاب عن تجسس الحلفاء

---

* فريق يسبق الوفد في زيارة لبلد ما للتحضير للزيارة. (المترجم).

* في ألمانيا الشرقية مثلاً كشف وزير الداخلية أن حكومته سمحت لأعضاء في منظمة التحرير الفلسطينية باستخدام بلدهم كقاعدة للعمل، وقد منحوا اللجوء لكارلوس أحد أشهر الإرهابيين في العالم. وأقرّت السلطات في برلين الشرقية أنها لم تتدخل عندما قامت مجموعة ليبية - فلسطينية بالتخطيط لتفجير محل ديسكو في برلين الغربية مما أدى إلى مقتل اثنين من العسكريين الأميركيين وجرح حوالى ٢٠٠ شخص وذلك في نيسان/ أبريل ١٩٨٦.
ثم كشفت وزارة الداخلية الهنغارية عام ١٩٩٠ أن بلادها قد أمنت اللجوء لكارلوس و٣٠ عنصراً من رجاله.
وقد أمن التشيكيون التدريب والمتفجرات لمجموعات مسلحة، بينما كانت يوغوسلافيا قاعدة أساسية لعمليات «أبو نضال» الزعيم الفلسطيني المسؤول عن المجازر في مطاري روما وفيينا. باختصار فإن معظم تهم ستيرلنغ تبين أنها صحيحة.

في الحرب العالمية الثانية (والتي كان يعرف عنها الكثير) وكتاب آخر عن التاريخ الأميركي.

كانت له طاقة ملحوظة وحتى عندما كان في السبعينات كان يعمل ١٢ ساعة في اليوم. كان يدرك أنه لن يعيش إلى الأبد، وصمّم على إنجاز كل شيء في الوقت المحدد. وعلى الرغم من كبر سنّه وتراكم أعماله، لم أتذكر أني شاهدت النعاس في عينيه حتى على متن الطائرة. كان أحد مساعديه يحضر له شيئاً ما للعمل ـ ملفاً ليطلع عليه أو كتاباً ليقرأه ـ وعندما كانت طائرته تعود إلى قاعدة أندروز الجوية، كان المساعدون المتعبون يذهبون إلى منازلهم توّاقين إلى الراحة والنوم، بينما يذهب كايسي مباشرة إلى مكتبه.

أدى انهماك كايسي في أعماله إلى نوع من الفظاظة، ومن النادر أن تسمع منه كلمة من فضلك أو شكراً. وإذا استطاع خلال تناول الطعام إنهاء بعض الأعمال الإدارية أو قراءة كتاب أو مقابلة شخص ما (أو أحياناً الأمور الثلاثة معاً) يكون ذلك هو الأفضل. قال أحدهم ذات مرة إنه عندما كان كايسي يأكل كان الطعام أو المرق يتساقط من فمه. إنه من غير اللائق الاستخفاف بآداب المائدة لدى الآخرين، ولكن في حالة كايسي لم يكن هناك شيء من هذا. فإذا دعاك إلى تناول طعام الغداء، لن يكون أمامك فرصة للتمتع بالطعام، سوف يلوك بعض اللقم بينما يكون يعطيك النصائح ويطرح الأسئلة، وخلال الغداء تراه يلهو بربطة العنق، وكان في بعض الأحيان يستعملها كمحرمة.

كان عصبياً دائماً ويداه تلوّحان بحركة دائمة، وكان يلهو بقصاصات الورق يطويها ويضعها بين أسنانه وبعد برهة يومىء برأسه مثل التمساح. كان يغمض إحدى عينيه ويفتح الأخرى قليلاً، ثم وعندما تظن أن الأخرى مغمضة تسمع صوته فجأة ويبدأ فكه بالتحرك ويطرح عليك الأسئلة: لماذا تظن ذلك؟ كيف عرفت ذلك؟ ما هي مصادرك؟

كان رجلاً اجتماعياً أكثر مما يظهر عليه، وعلى الرغم من ضخامة حجم عمله كان له بعض أوقات الفراغ لممارسة لعبة الغولف. كان يحب حضور الحفلات ويطرح الأفكار في بعض الأحيان ليرى ردود الفعل عليها.

كان يضحك دائماً وبسهولة حتى على حسابه الخاص، فعندما دمر الإعصار القوي منزله على الشاطىء في فلوريدا أرسلت إليه رسالة اعتذار ـ ظاهرياً ـ مما يسمى مكتب مراقبة الطقس في وكالة المخابرات المركزية. قلت له: «كان من المفترض أن تضرب العاصفة كوبا ولكن القمر الاصطناعي المكلّف بالمراقبة انحرف عن الهدف في آخر لحظة».

كان كايسي يحب أن ينال من أعضاء الكونغرس في نكاته، وكان يدرك تماماً هفواتهم

الخاصة، ومع أن أفضل مصادر الاستخبارات في العالم كانت بين يديه، عندما كان الأمر يتعلق بالحياة الخاصة للشيوخ ولأعضاء الكونغرس، فقد كان يتكّل على شبكة معلومات معبّرة وهي شائعات واشنطن.

كان يشمئز من الحالة التي وصل إليها الكونغرس ويؤمن أن المداولات التي كانت تجري في الكونغرس تعرض العمليات السرية للكشف. كان يكره المثول أمام لجان الكونغرس حيث ينتظرون منه أن يكشف عن التفاصيل الدقيقة للعمليات السرية، وذلك لمجرد إرضاء «تلهّفهم»، واعتقاداً منه أنه لا يمكن الوثوق بأعضاء الكونغرس لجهة المحافظة على الأسرار كان يخبرهم أقل ما يمكن.

توفي ربيع عام ١٩٨٧ في بداية تحقيقات الكونغرس، وأردت أن أشهد الدفن لكن حضوري كان سيربك الرئيس الذي كان يخطط للحضور. في الليلة التي سبقت المأتم وبناء على اقتراح أرملته صوفيا توجهت إلى نيويورك جوّاً مع عدد من زملائه المقربين وتناولنا مشروباً في لونغ ايلاند* في منزل كايسي. بينما كنا هناك أخبرتني إحدى قريباته أنه خلال أيامه الأخيرة كان ينظر إليها نحو الأعلى من على سريره ويقول: «لن يهرب بها»، كنت أتعجب دائماً ما إذا كان يعني الرئيس بكلامه.

كان روبرت مكفرلين يمثل غموضاً بالنسبة إليّ ـ لغزاً حقيقياً ـ وفي النهاية خيبة أمل. لكنّه لم يكن دائماً هكذا. بعد أن استلم مركزه في مجلس الأمن القومي سعى إلى صرفي لأنه كان يرى فيَّ بعضاً من ماضيه ـ شاب من مشاة البحرية خدم في فيتنام ووجد نفسه فيما بعد رائداً في البيت الأبيض. كنا قريبين من بعضنا وبقينا كذلك حتى عندما استقال. في حفلة وداعه في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥ وضع يده على كتفي وبكى، وكانت الدموع في عيني أيضاً.

مع أن مكفرلين كان يكبرني بست سنوات فقط بدا وكأنه من جيل آخر. ربما كان شعره الرمادي أو خبرته الطويلة في واشنطن جعلاه يبدو كبير السن، أو ربما لأنه أتى إلى مجلس الأمن القومي أوّلاً عام ١٩٧٣ عندما كانت الحرب ما زالت مستعرة في فيتنام. في بعض الليالي عندما كنت أعمل في غرفة الأوضاع وأحضّر الأعمال الإدارية لاجتماع في

* في اليوم الذي كنا نسهر فيه على جثة كايسي قبل دفنه كنت قد توصّلت إلى اقتناع بمقاومة استدعاء لهيئة المحلفين على أساس أن المدعي العام المختص ليس له صلاحية دستورية. أعطى القاضي أمراً بسجني عندما أعود من لونغ ايلاند، وعندما عدت إلى نيويورك نجح محاميّ في منع سجني حتى عرض القضية على محكمة الاستئناف.

اليـوم التالي، أو لـلإيجاز الصبـاحي للرئيس، كان مكفـرلين يتـوقف عندي ليقـول: «ليلة سعيدة»، أو كما يقول مشاة البحرية: «كيف تجري الأمور».

أحياناً كان يتصل بمكتبي الساعة ٨,٠٠ أو ٩,٠٠ مساء ويقول: «هل لديـك بضع دقائق» فأجيب: «بالتأكيد سأكون هناك».

لقد وقع شيء ما في العالم ويجب أن نكتب عنه، أو هناك تقرير استخبارات أراد أن يطلعني عليه.

مع أن أحداً لم يصفه بأنه اجتماعي فإنه لم يكن متحفظاً وصارماً في المجالس الخاصة كما كان يظهر في العلن. كـان يروي النكتـة السائـدة وكان يقلّد كيسنجـر بشكل نـاجح. كانت علاقاته مهنيّة وكان رئيسـاً يمكنني بحضوره أن أجلس عـلى الكرسي وأقـول له: «يـا ربّ ما هذه الورطة».

كان لطيفاً معي، ففي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣ عنـدما رقيت من رتبـة رائد إلى رتبة مقدم، قرر روبرت أن يعتبر ذلك حدثاً هاماً. قال لي: «البس بزتك العسكرية غداً، هذا يتطلب احتفـالاً بالـترقية، وسيكـون لدينـا غداً احتفـال، ودون أن يخبرني، طلب من سكرتيرته ويلما أن ترتب أمر وجود بتسي وأطفالنا هناك.

قلت له: «لا. يا روبـرت. . أنا مشغـول جداً وإلى جـانب ذلك ليس ضروريـاً أن نقيم الحفلة». أجاب: «لا تقل ذلك وأنا لا أهتم بما عندك من عمل فقط كن هناك».

أقيمت الحفلة في «قاعة المعاهدة الهنـدية» في بنـاية المكتب التنفيـذي القديمـة، وأدار مكفرلين أداء القسم وسمّعه من ذاكرته. كان رون هال زوج ويلما يلتقط الصور.

كانت تلك الترقية الخامسـة والنهائيـة. ما زلت أتـذكر الأولى عنـدما رقيت إلى رتبـة ملازم ثان بعد تخرّجي من أنابوليس. كما أذكـر تلك المرة الأخـيرة التي ترأسهـا مكفرلين. كانت بادرة كريمة حارة وقد تأثرت جداً لوجود عائلتي خصوصاً لأنهم ضحوا كثيراً في فـترة وجودي في مجلس الأمن القومي. وحفاظاً على التقاليد العظيمة لمشاة البحرية قام مكفرلـين بعد أداء القسم بوضع شارة الرتبة عـلى كتفي، ووضعت بتسي الشارة الأخـرى على كتفي الآخر ثم قبلتني أما مكفرلين فقد صافحني.

على الرغم من أنني ومكفرلين نموذجان مختلفان إلاّ أنّ هناك شبهاً في خلفيتينا. كـان مكفرلين مثلي خريجاً للأكاديمية البحرية حيث تخرج لصالح مشاة البحـرية واستمـر بالـترقية حتى وصل إلى رتبة مقـدم. كلانـا خدم في فيتنـام مع أنـه كان قبـلي بسنوات واشـترك في

عمليات الإنزال الأولى في دانانغ. وقد تذكر كلانا أن الانسحاب العسكري الأميركي من فيتنام كان مبنياً على افتراض خاطىء: إن الولايات المتحدة سوف تستمر في دعم الفيتناميين الجنوبيين حتى بعد انسحاب قواتنا.

كان تشابه هذه الأحداث والوضع في نيكاراغوا أمراً من الصعب أن ننكره، وشعر كلانا أنه لا يجوز تكرار مأساة فيتنام في أميركا الوسطى. وكما قال عنها مكفرلين: «إن الناس الذين كانوا في فيتنام عادوا بإحساس عميق هو أن على الحكومة أن لا تعطي كلمتها للشعوب التي تقف وتخسر حياة أبنائها، ثم تنكث بكلمتها».

بخلافي أنا، أتى مكفرلين إلى عمله وكانت لديه خبرة في الأعمال الحكومية والسياسة الخارجية. كان مساعداً عسكرياً لهنري كيسنجر عام ١٩٧٣، وعندما أصبح هنري كيسنجر وزيراً للخارجية بقي مكفرلين في مجلس الأمن القومي الذي كان برئاسة برنت سكوكروفت. فيما بعد عندما تقاعد من مشاة البحرية عمل مكفرلين في أركان لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ برئاسة السناتور جون تاور.

بعد انتخاب ريغان انطلق طموح مكفرلين، وعندما أصبح ألكسندر هيغ وزيراً للخارجية أتى بمكفرلين إلى وزارة الخارجية. كان مكفرلين أحد قادة الإدارة الذين ضغطوا للحصول على موافقة الكونغرس في صفقة بيع طائرات أواكس للعربية السعودية، وكان ذلك عندما التقيت به لأول مرة. بعد ذلك بفترة قصيرة عندما حلّ وليم كلارك مكان ريتشارد آلن في مجلس الأمن القومي، حضر مكفرلين من وزارة الخارجية ليكون المساعد الأول لكلارك. عام ١٩٨٣ عندما ترك كلارك ليصبح وزيراً للداخلية عيّن الرئيس مكفرلين مستشاراً لشؤون الأمن القومي.

بينما كان هناك مرشحون آخرون للمنصب، اعتقد معظم الناس أن مكفرلين هو الخيار الصحيح. كانت له سمعة حسنة كرجل لامع يعمل بكد وينجز أعماله دائماً، وكان معروفاً بعلاقته الحسنة مع الكونغرس، وهو ما كان مهماً جداً لإدارة الرئيس ريغان.

كنت أحترمه كثيراً وأعجب به، وقد رأى بعض الناس أنه كان طموحاً جداً، لكنه كان ماهراً في إخفاء غروره إلى درجة أني لم ألاحظ هذه الناحية فيه.

كان يبدي أحياناً رغبة في أن يصبح وزيراً للخارجية، ولكني أعتقد أن آماله كانت أبعد من ذلك، أعتقد أنه كان يريد أن يصبح رئيساً.

ومع ذلك لم يكن لدي انطباع، كما ذكر بعض المراقبين، من أنه يحاول أن يتفوق على هنري كيسنجر. وفي الجانب المقابل أنا لا أشك في أن مكفرلين تأثّر كثيراً بكيسنجر،

وأنه كان يأمل بأن يضاهي إنجازاته. لقي كيسنجر استحسان العالم عندما قام بزيارة سرية إلى الصين وأحدث الانفتاح التاريخي على ذلك البلد خلال عهد نيكسون. وأنا أعتقد أن مكفرلين كان يرى في رحلتنا إلى إيران فرصة له لتحقيق شيء ما.

لكن مكفرلين لم يكن كيسنجر، فمن اتصالاتي الشخصية مع كيسنجر الذي ترأس لجنة رئاسية حول أميركا الوسطى رأيت أنه رجل يتمتع بثقة كبيرة في نفسه. عندما أهين كيسنجر في اجتماع مع القيادة الساندينية في ماناغوا كان قوياً جداً إلى درجة أنه لم يجعل للأمر تأثيراً فيه. كان روبرت مكفرلين أقل ثقة وقوة، لقد خرج مرة من أحد الاجتماعات في هندوراس لأنه لاحظ غلطة في الترجمة. كانت هذه العادة تبرز في كل رحلات مكفرلين: «أنا روبرت مكفرلين مبعوث رئيس الولايات المتحدة وأنا لن أتحدث مع مسؤول بسيط». لقد ظهر هذا الموقف عدة مرات في طهران عندما لاحظ مكفرلين إهانات دبلوماسية ناتجة عن عدم كفاءة.

على عكس كيسنجر الذي كان مفكّراً استراتيجياً، كان مكفرلين مركّباً جيّداً لآراء الناس. شجّعه بعض من أركانه على أن يقف بوجه وينبرغر أو شولتز، ولكن طبيعته كانت تميل إلى تجنب المواجهة. كان يفتش عن طريقة للعمل مع الجميع، وأراد أن يحبه الناس ومعظمنا أحبه.

كان متحفظاً إلى درجة الغموض، أبقى على مستشاره الخاص فلم يستبدله وكان يفضل أن يجتمع مع أركانه كل على انفراد لبحث مجمل القضايا. كانت الاجتماعات الصباحية المنتظمة في غرفة الأوضاع والاجتماعات الأسبوعية لجميع أعضاء مجلس الأمن القومي أحداثاً روتينية. نادراً ما كنا نجتمع ـ كما كنت أتوقع عندما أتيت إلى مجلس الأمن القومي ـ حيث نجلس كمجموعة ونبحث الأوْلى في الخيارات المتعددة.

أدرك مكفرلين تماماً أنه ليس «أحد الأولاد» مما وضعه أمام خسارة حقيقية داخل الحلقة الضيّقة للرئيس ريغان. كان بقية مستشاري الرئيس إما أغنياء أو رجالاً عصاميين أو زملاء اجتماعيين، واحد أو اثنان هما دونالد ريغان وبيل كايسي كانا يحملان جميع هذه الصفات. ذكر مكفرلين في مناسبات عديدة أن الرئيس كان يفضل صداقة وصحبة هؤلاء الزملاء الأغنياء على النماذج المحافظة مثله في واشنطن. ومثل معظم السياسيين كان رونالد ريغان يكره البيروقراطيات الحكومية وكان الإحباط الأكبر لمكفرلين هو أنه كان ينظر إليه بهذه النظرة.

والنظرة هي كل شيء في واشنطن. بعض مسؤولي السياسة الخارجية مثل كيسنجر وبريجنسكي وكيركباتريك كانوا يُقوّمون على أنهم نوابغ أو خبراء أكاديميون، الآخرون مثل

هيغ ويـواندكستر كانوا يحترمون لأنهم ضباط عسكريون، ثم هناك النـاس العصاميـون مثل جورج شولتز وجيك بايكر وبيل كايسي. وهنـاك مجموعـة رابعة من الحلقـة الضيّقة تتـألف من «أصدقاء الملك» مثل بيل كلارك وإد ميز ومايك ديفر.

لم يتـلاءم مكفرلـين مع أي من هـذه الفئات وما كان يغيظه هـو أنه كـان يُعتـبر من المراتب المحتقرة من البـيروقراطيـين الأصليين. كـان يستحق أكثر من ذلـك، كان أكـاديمياً وضابطاً في مشاة البحريـة في الوقت نفسـه، وكتب الكثير ممـا كان يعـطي كيسنجر سمعـة حسنـة، ثم هناك عـدد كبير من مـواقف إدارة الرئيس ريغـان حـول المسـائـل الكـبرى في السياسة الخارجية ـ الحد من الأسلحة والعـلاقات الأمـيركية السـوفياتيـة والشرق الأوسط ـ انبثقت من قلم مكفرلين.

وبينما كان مكفـرلين كـاتباً جيّـداً فإنـه لم يكن ـ شخصياً ـ يحب التـظاهر والادعـاء، ويفترض أنك تفهم ما يقول. كان الجميع يروون النكات حول لغته المنحنية وغير المبـاشرة حتى بالنسبة إلى القواعد المتبعة في واشنطن. اعتقد بعض الناس أنـه كان يحـاول عمداً أن يكـون غير مفهـوم، وربما كـان أشهر مثـل على ذلـك هو مـا حدث لمكفـرلين عنـدما أدلى بشهادته، بعد القسم، أمام لجنة الشؤون الخارجيـة في مجلس النواب في ٨ كـانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٦، فقد أجاب على سؤال حول الدعم للمقاومة النيكاراغوية من بلد ثالث:

«إن الشخصية المعيّنة حول ذلك هي خارج مدى إدراكي»*.

ما زلت لا أعرف لماذا استقال مكفـرلين. قـال إنه يستقيـل من أجل أن يمضي وقتـاً أطـول مع عـائلته، ولكن لم يصـدق أحد في واشنـطن ذلك، لأنـه لا أحـد ـ تقـريبـاً ـ في واشنطت يمضي وقتاً طويلاً مع عائلته (وأنا أيضاً دون استثناء).

وبالإضافة إلى الصراع المستمر بين شولتز ووينبرغر كان لمكفـرلين بعض المشـاكسات مع دونالد ريغان الذي حوّل حياته بشكل عام إلى مأساة. ظنّ بعض النـاس أن مكفرلـين ترك مركزه حتى يترشح للكونغرس أو لعضوية مجلس الشيوخ (كان والده عضواً ديموقـراطياً في مجلس النواب عن ولاية تكساس) لكن مكفرلين عاش في واشنـطن ولا أعتقد أنـه كان يفكّر جدياً بذلك.

بعد أن استقال مكفـرلين كمستشـار لشؤون الأمن القومي استمـر في ممارسـة بعض التأثير في السياسة الخارجية، ومع أنه لم يعـد له أي عمـل في البيت الأبيض، فقد احتفظ

* هذه الإفادة كانت سبباً لاتهام مكفرلين بإخفاء معلومات عن الكونغرس.

بنظام هاتف آمن مع البيت الأبيض في منزله والذي كانت تؤمنه وكالة الاتصالات في البيت الأبيض، وتجري وقايته بوساطة جهاز أمن يركبه عناصر الخدمات السرية، واحتفظ بالبطاقة الزرقاء الصالحة لدخول البيت الأبيض والتي كانت تسمح له بالدخول والخروج متى أراد.

بعد استقالته بقينا على اتصال معه من خلال الهاتف الآمن وخط البيت الأبيض. بقي مهتماً بما كنت أقوم به حول مساعدة الكونترا، وكذلك تابع المبادرة نحو إيران. وفي وقت من الأوقات وافق على المشروعين معاً. في ربيع ١٩٨٦ اقترح عليّ أن أنضم إليه في مركزه الجديد في مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية، وهو مركز يضمّ مجموعة مفكرين محافظين في واشنطن*.

في ٨ شباط/ فبراير ١٩٨٧ وقبل اجتماعه الثالث مع لجنة تاور أخذ مكفرلين جرعة زائدة من الفاليوم في محاولة واضحة للانتحار، وعثر عليه غائباً عن الوعي ونقل على وجه السرعة إلى مستشفى بشسدا البحري. قال فيما بعد: أعتقد أنني أوصلت البلاد إلى الفشل.

سمعت ذلك من الإذاعات، وأصبت بصدمة كبيرة، ومنذ ذلك الوقت تعلمت أنني يجب أن أستشير محامي قبل القيام بأي عمل. طلبوا مني أن لا أزوره في المستشفى، وسمحوا لي بأن أكتب إليه رسالة. وقد قلت له في تلك الرسالة إنني أيضاً عانيت من اليأس، ولكني أعلم أن الله لا يحمّلنا أكثر من طاقتنا طالما كنّا نتكل عليه. بما أنني أمضيت معظم السنوات الخمس الماضية مع مكفرلين كنت أعتقد أنني أستطيع أن أقدم إليه بعض الأمل من أجل المستقبل.

كان لديه الكثير ليخسره وقد خسر كل شيء. كانت إيران ـ كونترا الخراب بالنسبة إليه ومحاولة انتحاره قضت عليه. عندما تركت البيت الأبيض كنت أتوقع أن يكون من بين الناس الذين بإمكانهم أن يدافعوا عني ضد الادعاءات السخيفة التي كنت بريئاً منها.

* في ١١ آذار/ مارس ١٩٨٦ أرسل مكفرلين رسالة إلى نورث عبر خط البيت الأبيض: بصراحة أنا أتوقع أن تعلو حرارة الكونغرس عليك في الصيف. نتيجة لهذا يبدو لي من الحكمة أن تترك البيت الأبيض، في الوقت نفسه لن يكون هناك أحد ليقوم بكل شيء (أو بقسم منه) كنت تقوم به، وإذا لم تقم بذلك فإن كل الجهد الذي بذلته في السنين الخمس سيذهب سدى. ما رأيك بهذا السيناريو. ١ ـ نورث يترك البيت الأبيض في أيار/مايو في إجازة لمدة ٣٠ يوماً. ٢ ـ في ١ تموز/ يوليه عيّن نورث زميلاً في مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية ليعمل في مكتب مكفرلين. ٣ ـ يستمر مكفرلين ونورث في العمل بالموضوع الإيراني، وكذلك في بناء إمكانيات سرية تحت الطلب هنا وهناك.

كـان مكفرلـين الأفضل ليقف ويقـول: «هذا سخيف. كـان أولي يقول لي كـل ما يفعله، وكنت دائـماً أطلب منه الاستمـرار». كنت آمل من الأمـيرال پـواندكسـتر أيضـاً أن يقـول ذلك، وقد قاله فعلاً، ولكني توقّعت ذلك من مكفرلين.

لكن مكفرلين الذي أدلى بشهادة في التحقيقات وللمرة الثانية في أثنـاء محاكمتي كـان رجلاً مختلفاً عن الذي كنت أعرفه. ولسخرية الأقدار اكتشفت آلاف النسخ عن الرسـائل التي كنـا نتبادلهـا أنا ومكفـرلين وپـوانـدكستر قبل دخـوله المستشفى. واستنـاداً إلى إحدى الفرضيات فـإنّ هذا الاكتشـاف أدى إلى تناولـه جرعـة كبيرة من الفـاليوم، ولكن مـع أن الملاحظات المـأخوذة من خط هـاتف البيت الأبيض، ومن المذكـرات التي كانت في مكتبي والتي استعملها محققو قضيـة إيران ـ كـونترا حصلت عـلى دليل يثبت أنـه وافق على جميـع أعمالي، فقد استمر مكفرلين بالتأكيـد على أنـه كان يعـرف القليل عـما كنت أقوم بـه بشأن المقاومة النيكاراغوية.

كان ذلك ما صرح به خلال التحقيقات، ولكن بعد سنة عندما مَثُلَ كشاهـد ادعاء في محاكمتي انكشفت موافقته على اشتراكي مع الكونترا من خلال أسئلة المحامي سوليفان. كـانت إفاداتـه مشوّشـة وغير متـماسكة إلى درجـة أن القاضي استـدعى المحامـين إلى قوس المحكمة وقال: هذا الرجل قال روايات عديدة منذ أن بدأ يتعرض للأسئلة إلى درجة أنـه لا توجد وسيلة لمعرفة ما يؤمن به أو ما يعرفـه. لا يمكن الاتكال عـلى هذا الشـاهد في كـل كلمة من شهادته*.

لقد شعرت أن مكفرلين خانني عندما سرد الأحداث، ولكن الأصعب من ذلك أنني شعرت بالأسف عليه.

عنـدما استقـال مكفرلـين من وظيفته كمستشـار لشؤون الأمن القومي حـل الأميرال جون پـواندكستر مكانه. كنت أحبه وما أزال. إنـه يذكـرني بمشهد سينـمائي عندمـا هوجم رقيب بريطاني ورجاله من قبل مقاتلي الزولو. وكانت الأجـواء مليئة بالأسهم والنبال، وبـدأ انهيار الخط الدفاعي، وضع عندئذ الرقيب عصاه تحت يده وأخذ يتمشى على خط الجبهة، ودون أن يظهر أي خوف أو قلق، كان يتجوّل على عناصره ويقول: «اصمدوا أيها الـرفاق اصمدوا..».

هذا ما أفكر به تجاه جون پـواندكسـتر ـ صامد دائماً ـ نحن الـذين تجذرنـا من الحياة

---

* أضاف القاضي جيسيل: «أنا غير متأكد على الإطلاق من أنه واثق بما يقول. أنا غير متأكد أيضـاً ما إذا كان ضحية، ضحية مادية، لما كان يقوم به. ولكن حقيقة الأمر أنه شاهد لا يتكل عليه».

العسكرية نحكم على الآخرين ما إذا كنا نقبل به زميلاً في القتال أم لا. إن جون بواندكستر هو بالضبط الرجل الذي أحب أن يبقى بجانبي عندما تتساقط القذائف.

كان بواندكستر من خريجي الأكاديمية البحرية، وقد عرف عنه أنه تخرَّج الأول على تسعمائة طالب (مع أنه لم يذكر لي ذلك)، كذلك كان قائد لواء بحري، وهو مركز مشرّف وتقدير لأهليته بالقيادة (إن الشخص الأخر الذي نال مكافآت مثله على حد علمي هو الجنرال دوغلاس ماك آرثر عندما كان طالباً في وست بوينت). حاز بواندكستر على دكتوراه في الفيزياء النووية من جامعة كاليفورنيا التكنولوجية. وفي العام ١٩٧٦ إلى ١٩٧٨ عمل مساعداً تنفيذياً لمدير العمليات البحرية، ورقي إلى رتبة أميرال عام ١٩٨٠. بعد سُنة انتقل إلى البيت الأبيض ليعمل كمساعد عسكري لريتشارد آلن. عام ١٩٨٣ أصبح نائباً لمكفرلين، وبعد أقل من سنتين عيّن مستشاراً لشؤون الأمن القومي.

عندما أوصى مكفرلين بتعيين بواندكستر قال للرئيس ريغان إنه عُرض على الأميرال وظيفة قائد الأسطول السادس. وافق الرئيس على مذكرة مكفرلين التي توصي بتعيينه مستشاراً لشؤون الأمن القومي وأضاف عليها بخط يده: «آمل ألاّ يضر ذلك بمستقبله العسكري».

وعلى عكس الأساطير الشعبية كان بواندكستر أكثر من رجل يعمل بصورة روتينية، متحفظاً، أصلع، يدخن الغليون، ويمتاز بانتقال سريع من الغضب إلى المرح، مع أنه لم يدم طويلاً في أي من الحالتين. كان يبقي على مشاعره لنفسه، وقد جعل مكفرلين يظهر ملوّناً.

وجد فيه بعض الناس إنساناً سكوتاً قليل الكلام بشكل لا يُحتمل، وبالتأكيد كان متحفظاً ورسمياً حتى في المجالس الخاصة، كان يذكر الرئيس ريغان بكلمة الرئيس. لم أذهب إلى منزله، ولكني كنت أعرف أن زوجته ليندا رُسمت قسيسة في الكنيسة، وأن لهما خمسة أولاد أربعة منهم في البحرية. واستناداً إلى قواعده في المخاطبة كنا نتحادث بالاسم الأول: أنا أقول له أميرال، وهو يقول لي أولي.

كان يدخن غليونه ويفكر ملياً قبل أن يتكلم. وكان يوازن بين وجهات نظر أركانه بينما يملأ غليونه بالتبغ، وعندما يمتلىء تتصاعد منه سحابة صغيرة من الدخان، وكانت تلك إشارة على أنه أوشك أن يعلن قراره.

عندما تأتي إليه في أثناء المواقف الصعبة يعطيك وقتاً طويلاً حيث ينظف غليونه ويملأه ثم يشعله، وإذا لم يعرض المشكلة واقتراحات الحلول خلال هذه الفترة والتي تنتهي

عند اختفاء سحابة الدخان، يمكن أن تذهب إلى مكتبك لتفكر بالموضوع بشكل أعمق.

كان لا يكلّ عن العمل، انطوائياً، مفكّراً، ومهتماً. فيما بعد وفي أثناء التحقيقات وصف نفسه بأنه «شخص منخفض المستوى». كانت هذه إفادة تصور الواقع أقل مما هو في الحقيقة. وكما قال ذات مرة: «أنا لا أشعر أني بحاجة إلى كثير من الشكر من أجل أن أحصل على أي كسب نفسي» هذا صحيح. كان جون بواندكستر رجلاً واضحاً في أعماله، كان وبكل بساطة يريد أن يخدم حيث يعيّن.

كان يكره السياسة، وعلى عكس مكفرلين الذي كانت له اتصالات ممتازة مع الكونغرس، لم يكن له أي صديق هناك ولا في الأوساط الإعلامية. كان منعزلاً، وكان ذلك غير عادي في الدوائر الحكومية العالية حيث يسعى الجميع إلى الظهور. في بعض الأيام كان يتناول وجبات الطعام الثلاث في مكتبه. سئل مرة لماذا يتناول طعام الفطور والغداء على مكتبه ثم ينتقل إلى طاولة في الزاوية يتناول عليها طعام العشاء، كان جوابه كلاسيكياً: «بسبب التنوع في نكهة الحياة». وكان يعني ذلك فعلاً.

بالإضافة إلى محبته لعائلته كان ولعه الثاني بالتكنولوجيا. ذات مرة وفي رحلة إلى أميركا الوسطى سألني عن هواياتي عندما كنت صغيراً، قلت له إنني كنت أصنع طائرة الورق وأطيّرها وتعلمت منها فضيلة الصبر. وعندما سألته عن هواياته ـ مفترضاً أن له الكثير ـ كانت الشائعة الرائجة في دوائر مجلس الأمن القومي أنه عدا عن ذهابه إلى الكنيسة وتمضية الوقت مع عائلته، كان بواندكستر يعمل في بقية الأوقات ـ فكر للحظة ثم قال إنه صنع في وقت فراغه أجهزة تلفزيون عديدة وكذلك أجهزة كومبيوتر شخصية.

لقد تأثرت كثيراً بذلك وقلت له: «أنت تصنعها من قطع العدة؟».

أجاب: «كلا بل أصنعها من القصاصات، إن تلك الطريقة أروع».

عام ١٩٨٢ عندما كان بواندكستر مساعداً عسكرياً للقاضي كلارك قام بتطوير إمكانياتنا في الاتصالات البُعدية. كان خط هاتف البيت الأبيض جزءاً من مشروعه والذي كان يعمل في إطار كومبيوتر رئيسي ركّبه في مجلس الأمن القومي عناصر من وكالة اتصالات البيت الأبيض. عندما تدخل إلى هذا النظام ـ وذلك باستخدام كلمة السر المخصصة لك ـ ومن الأفضل أن تكون صحيحة من المرة الأولى ـ تظهر رسالة تحذير على الشاشة تذكرك أن هذا النظام سري جداً. كان هذا النظام محمياً من البث الالكتروني المشوش.

كان نظام اتصالات البيت الأبيض نعمة إلهية، لأنه وفّر علينا ساعات كثيرة كنا

غضبها في الاجتماعات والاتصالات الهاتفية. وكان ذلك يعني أنه إذا تركت فون هال عند المساء وكان عليّ أن أبعث مذكرة إلى وزارة الخارجية كنت أكتبها وأرسلها مباشرة إلى خط الخارجية. في صباح اليوم التالي عندما تحضر تجد المذكرة بانتظارك لطبعها ووضعها في الشكل الملائم.

كان هذا النظام أكثر من كافٍ. لقد خفّف كثيراً من حجم الأوراق التي تطوف في أروقة مجلس الأمن القومي، والتي كان معظمها سرّياً وحساساً. إن الإقلال من الأوراق يعني الإقلال من الخروقات الأمنية.

بالنسبة إلى العديد منا كان نظام الاتصالات وسيلة حرة للاتصال مثل الهاتف الآمن، ليس لأنه خاص وسهل الاستعمال، ولكن لا أحد ولا حتى الأميرال شك في أن الرسائل كانت آمنة.

كنا دائماً تحت تأثير الانطباع من أنه عندما نشطب الرسالة في النظام فإنها تختفي إلى الأبد، لكن تبيّن فيما بعد أن زر الحذف لم يكن قوياً كما نظن، ويمكن أن تتسرب الرسائل من شاشاتنا ويحفظها الكومبيوتر في ذاكرته.

في أوائل عام ١٩٨٧ خلال تحقيقات لجنة تاور شكّك شاب تقني يعمل في وكالة اتصالات البيت الأبيض من أنه يمكن الحصول على نسخ من الرسائل المرسلة بوساطة نظام الاتصالات من الشرائط ومن الكومبيوتر الأساسي. يبدو أنه كان على حق، لقد سُرّ محامي بهذا الاكتشاف، لقد عرضت الرسائل الخطية المتبادلة بيني وبين مكفرلين وبواندكستر، ولكن حتى الآن كان المحامون بحاجة إلى ما يحتاج إليه كل محامٍ وهو الإثبات الخطي. إن ملاحظات نظام الاتصالات وملفاتي الشخصية التي اكتشفت قبل المحاكمة بوقت قصير أثبتت ادعائي من أن كل ما قمت به كان معروفاً وقد وافق عليه رؤسائي، ومع ذلك لم أتصور أن البيت الأبيض سوف يسمح بكشف ونشر وثائق سرية جداً...

على عكس مكفرلين الذي كانت له خبرة قوية في الشؤون الخارجية، فقد جاء جون بواندكستر إلى هذه الوظيفة دون أي خلفية مع المستويات العليا في الحكومة. ومع ذلك فقد قدم مساهمة حيوية لأمننا القومي وقليل من الناس يعرفون ذلك. لقد رافق بواندكستر الرئيس ريغان إلى قمة ريكجافيك في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٦ حيث كان الرئيس على وشك أن يقدم تنازلات في موضوع مبادرة الدفاع الاستراتيجي من أجل إحداث خرق في محادثات الحد من انتشار الأسلحة مع السوفيات. كان بواندكستر متواضعاً وعلى حد علمي كان المسؤول الوحيد الرفيع المستوى في تلك القمة الذي صمد في وجه ضغوط الكونغرس

ووزارة الخارجية والأوساط الإعلامية وأعضاء المجموعة العلمية الذين اعتبروا أن مبادرة الدفاع الاستراتيجي هي موضوع قابل للتفاوض.

كان السوفيات أكثر واقعية، لقد أدركوا أنهم متخلفون تكنولوجياً ببضع سنوات عن الولايات المتحدة ولن يستطيعوا اللحاق بنا. ولأن بواندكستر تمكن من إقناع الرئيس ريغان بأن مبادرة الدفاع الاستراتيجي غير قابلة للتفاوض فشلت القمة. ولكن بعد قمة ريكجافيك بوقت قصير وافق السوفيات على سحب صواريخهم المتوسطة المدى من أوروبا وعلى الانسحاب من أفغانستان والدخول في مفاوضات جدية حول تحديد الأسلحة النووية. حتى لو لم ينجز أي شيء آخر في أثناء خدمته كمستشار لشؤون الأمن القومي، فإنه يستحق وحده شكر أميركا كلها من أجل ذلك.

لقد خدم بلده بإخلاص ووفاء، وماذا كانت مكافأته؟ ثلاثة أحكام متداخلة لمدة ٦ أشهر. لقد أصبت بالمرض عندما سمعت الاتهام، ومرضت أكثر عندما صدر الحكم. لم يرتكب أي مخالفة وكان أبعد شيء في عقله هو مخالفة القانون.

لم أكن الوحيد الذي شعر نحوه بهذه الطريقة، فبينما كنت أجول في البلاد سمعت الناس يتساءلون «كيف حال الأميرال؟» إنهم يحترمونه ويعطفون عليه، وهو الذي خدم رئيسه وقام بواجباته، ثم عاقبه السياسيون الذين لم يتمكنوا من التعرض للرئيس. إن ما حصل لجون بواندكستر كان كارثة فعلاً.

(٩)
اصطدنـا الأوغاد

لقد رأيت الرئيس ريغـان يستشيط غضباً في منـاسبتين جـرت أحداثهـا في بيروت. المرة الأولى في ٢٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٣ بعد تفجير مقر قيادة مشاة البحـرية قـرب مطار بيروت. كان الرئيس في جورجيا في رحلة لممارسة رياضة الغولف، وعندمـا تبلّغ النبأ عاد إلى واشنطن على الفور. بدت عليه أمـارات الغضب ودخل إلى غـرفة الأوضـاع وكان متوتراً وقال: «سنجعلهم يدفعون الثمن» وكان يعني ما يقول.

وفي المرة الثانية في حزيران/ يونيه ١٩٨٥ عندما خطفت طائرة تابعة للخطوط الجوية العالمية على الرحلة رقم ٨٤٧ بـين أثينا ورومـا. لقد حـوّل الخاطفـون الطائـرة إلى بيروت حيث قتلوا روبرت ستيشم، وهو غطاس في البحرية الأميركية، وألقوا جثتـه على المـدرج. بقيت الطائرة مخطوفة مدة سبعة عشر يوماً، ولم ننس حتى الآن صورة الطيار وهو يلوّح من مقصـورته، بينـما أحد الخـاطفين كـان يحمل بندقيـة يـوجههـا إلى رأسـه وهـو يكشّر مثـل المجانين. لقد أرادوا أن يظهروا ضعفنا وبالتأكيد نجحوا في ذلك.

خلال الأزمة عقد الرئيس اجتماعات عديدة لمجموعة تخـطيط الأمن القومي في غـرفة الأوضاع، وبينما كنا نخرج من أحد هذه الاجتماعات قال بيل كايسي لروبـرت مكفرلـين: «عندي شيء أريد أن أعرضه عليـك، هل يمكننـا أن نتحدث؟» عنـدما وصلنـا إلى مكتب مكفرلين حاولت أن أتركهما، لكن كايسي قـال: «إذا كنت تريـد، أعتقد أن أولي يجب أن يحضر»، أومأ مكفرلين برأسه، وسلّمه كايسي ورقة كتب عليهـا الخطوط العـريضة لإنشـاء وحدة جديدة لمكافحة الإرهاب في وكالة المخابرات المركزية وقال: «لقد تحدثت مع وينبرغر بهذا الأمر وهو سيدعم إنشاء هذه الوحدة إذا وافقت أنت».

قرأ مكفرلين الاقتراح وسلمه إليّ وقال: «قم بإعداد تـوجيهات قـرار للأمن القـومي ومذكرة حول هذا الموضوع». أنهيت كتابة ثلاثة توجيهات قرار وأرسلتها ليوقعها الـرئيس. الأول إنشاء قوة عمـل برئـاسة نـائب الرئيس بـوش لتطويـر أفكار جـديدة، والثـاني يضع

خطوطاً عامة لتدابير أمن جديدة للطائرات المدنية الأميركية والطيران الداخلي، والثالث يشكل إطاراً للتعامل مع تهديد الإرهاب، وصادقت رسمياً على إنشاء هيئة مع صلاحيات لتنسق رد فعل الحكومة حول الإرهاب الدولي بشكل وقائي إذا كان ذلك ممكناً أو كردة فعل عند الضرورة. لقد كنت الرئيس الأول لهذه الهيئة والتي جعلت مني منسق مكافحة الإرهاب.

على الرغم من انهماكي في مبادرة إيران وفي نشاطات الكونترا، فقد أمضيت ساعات إضافية أنسّق لمكافحة الإرهاب أكثر من أي موضوع آخر. لم يعلن عن تعييني رئيساً للهيئة، ولكن عندما كان يحدث عمل إرهابي ـ وقد حدثت أعمال إرهابية صغيرة لم تذكرها الصحافة ـ كنت أنا من يتلقى الاتصالات.

لقد أنشأت قوة العمل كفرع من «مجموعة العمل حول حوادث الإرهاب»، وهي لجنة حكومية موسعة تشكلت عام ١٩٨٣، ولكن ونظراً لعدة أسباب لم تمارس هذه المجموعة نشاطها. من هذه الأسباب أنها كانت موسّعة جداً بشكل حدّ من فعاليتها. قال عنها الأميرال أرت مورو ممثل الأركان المشتركة قبل أن يتوقف عن حضور اجتماعاتها: «نمضي وقتاً طويلاً ولا ننجز أي عمل». كان الحجم الكبير لهذه المجموعة عائقاً أمام مصداقيتها، فغالباً ما كان يجلس ممثلو وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الفدرالي ووزارة الدفاع في هذه الاجتماعات مثل الدمى، لا يرغبون بمناقشة تفاصيل سرية حول إمكانياتهم في مكافحة الإرهاب، وذلك لتخوّفهم من تسرب المعلومات. لكن المشكلة الكبرى أمام رد فعّال هي أن الإرهاب يُنظر إليه على أنه مشكلة دولية، وهذا يتطلب خبراء في السياسة الخارجية، ولهذا السبب كانت وزارة الخارجية تستضيف وتترأس الاجتماعات. لكنّ هذه المجموعة التي كانت تجتمع في وزارة الخارجية رأى فيها ممثلو الوكالات الأخرى أنها تعمل لصالح وزارة الخارجية فقط، وكانت وزارة الخارجية بحد ذاتها واسعة جداً، بحيث أنه عند حدوث أي عمل إرهابي كبير كانت تجري معركة في بيروقراطيات الخارجية حول تحديد المكتب الذي سيكون له شرف إحباط أي رد فعل.. بعد إحدى الهجمات الفلسطينية التي قتل فيها أميركيون وأوروبيون وإسرائيليون، نشب خلاف لمدة ساعات حول من سيرئس الاجتماع، مكتب أوروبا أو مكتب الشرق الأوسط أو مكتب مكافحة الإرهاب، ومن ثم من يحضّر الرسالة أو البيان الصحافي.

عندما كان مسلحون يهاجمون سفارة أميركية، كانت المجموعة ترد على الهجوم باقتراح بناء سور عال حول مبنى السفارة ومراجعة إجراءات الأمن، ولم يبحث أبداً في موضوع ملاحقة الفاعلين والاقتصاص منهم.

استمرت هذه المجموعة في الوجود بعد إنشاء قوة العمل، ولكنّ ردود الفعل العملانية على تهديدات وهجمات الإرهابيين أصبحت الآن تنسّق في هذه اللجنة الصغيرة والتي تجتمع في البيض الأبيض. كان زملائي في قوة العمل نويل كوخ (وخلفه فيما بعد ريتشارد ارميتاج) من وزارة الدفاع، ديوي كلاريدج وشارلي آلن من وكالة المخابرات المركزية، وباك ريفيل وواين جيلبرت من مكتب التحقيق الفدرالي، وبوب أوكلي من وزارة الخارجية، وأرت مورو (خلفه فيما بعد الجنرال جاك فولرنغ) من الأركان المشتركة. كان هؤلاء ذوي رتب عالية وعلى اتصال مباشر مع رؤساء الوكالات. كانوا يعرفون كيف يتحركون بسرعة، وإذا عرض اقتراح غامض كانوا يستفسرون ويعلقون عليه، إذا كان خيالياً فإنهم لا يقفون ضده بسرعة، بسبب ظاهرة «غير مصنوع هنا» وهو مرض يتفشى في بيروقراطيات واشنطن.

زُوِّدنا بخطوط اتصال آمنة وبآلات فاكس وشبكة كومبيوتر، وكانت مهمّتنا توجيه الأعمال، وكان معظم وقتنا مكرّساً للتخطيط. أحد أول مشاريعنا كان البدء بتنظيم بيانات وجداول سريّة يمكن استخدامها في أثناء الأزمات. كانت هذه الجداول تتضمن المعلومات الضرورية لمعالجة حوادث الإرهاب في العالم، وتضمنت الفكرة أن تكون المعلومات متوفرة للذين يحتاجون إليها وفي اللحظة المناسبة.

ومع أن هذه الجداول كانت سرية فإن معظم المعلومات التي تضمّنتها كانت مُستقاة من مصادر مكشوفة ومعلنة. لكن أحد الأقسام الحسّاسة كان بياناً مفصّلاً عن نوع المعلومات التي يمكن الكشف عنها لعدد من الدول وتلك التي لا يمكن الكشف عنها.

قام بتنظيم هذه الجداول رود مكدانيل، وهو نقيب في البحرية أصبح فيما بعد السكرتير التنفيذي لمجلس الأمن القومي وقام بتنسيق الجهود مع الوكالات الملائمة في الحكومة. كان فريقه الصغير السري جداً يعمل وسط تدابير أمنية مشددة وفي مكان سري خلف مكتبي، وكان موصولاً بعدة كوابل ملقاة على الأرض. كان فريق مكدانيل ما يزال منهمكاً في هذه الأعمال وفي جمع المعلومات وترتيبها عندما صُرفت من الخدمة عام ١٩٨٦.

ما عدا أيام الأزمة التي كان لها زخمها الخاص كانت قوة العمل تجتمع ثلاث أو أربع مرات في الشهر لتبحث المبادرات السرية المتطورة بهدف إحباط أعمال الإرهابيين قبل أن تقع. وبناء على إلحاح باك ريفيل قمنا بإعداد تشريع جديد يوسّع من صلاحية وزارة العدل ويسمح بتوقيف الإرهابيين الدوليين الذين أصابوا مواطنين أميركيين بأذى، أو أملاكاً أميركية بأضرار في ما وراء البحار. ولكن العمليات من هذا النوع كانت تتطلب

وقتاً، وقد بدأت إحداها في منتصف عام ١٩٨٦ بهدف القبض على فواز يونس، وهو فلسطيني خطف إحدى الطائرات والذي أثار انتباهي في وكالة مكافحة المخدرات في أثناء جهودنا لإطلاق الرهائن. لقد نسقت قوة العمل جهداً فاعلاً بشكل ملحوظ بين وكالات الحكومة: مكتب مكافحة المخدرات ووكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الفدرالي، وفي النهاية ألقي القبض على يونس، ولسخرية الأقدار فقد حوكم في واشنطن في المحكمة نفسها والوقت نفسه الذي حوكمت فيه.

كنا ودون مبالغة نجتمع كثيراً، ولكن في مناسبات عديدة نجحنا في هدفنا النهائي في منع الهجمات الإرهابية قبل وقوعها، وفي بعض الأحيان كنا قادرين على أن «نهندس» حلاً فعّالاً لحادثة ما.

أشهر تلك الأحداث وبالتأكيد الأكثر نجاحاً هي التي تبعت خطف السفينة الإيطالية أكيلي لاورو.

بدا ذلك في ٧ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٥ وكان يوم اثنين ويوم ميلادي الثاني والأربعين. السفينة التي غادرت ميناء جنوى منذ أيام أنزلت معظم ركابها في ذلك الصباح في مدينة الإسكندرية المصرية حيث بدأوا رحلة بسيارة باص إلى الأهرام، وكان عليهم أن يركبوا السفينة مرة أخرى في بور سعيد في تلك الليلة ومن هناك كانوا سيبحرون باتجاه إسرائيل.

كانت أكيلي لاورو على بعد ٣٠ ميلاً من بور سعيد عندما سيطر عليها أربعة إرهابيين فلسطينيين كانوا قد صعدوا على متنها بجوازات سفر مزورة. كان قد مضى ٢٥ سنة على خطف آخر سفينة، ومثل معظم السفن السياحية لم يكن في أكيلي لاورو أي إجراءات أمن ولا جهاز كاشف للمعادن*، ونتيجة لذلك تمكن الإرهابيون من إحضار جميع أدواتهم التي كانوا يحتاجون إليها «أسلحة، ذخائر، رمّانات يدوية».

علمنا فيما بعد أنهم لم يهدفوا في الحقيقة إلى خطف السفينة، بل كانوا يخططون لتنفيذ هجوم على الأرض عندما ترسو السفينة أكيلي لاورو في مياه أشدود الإسرائيلي. ولكن عندما رآهم أحد الخدم في السفينة ينظّفون أسلحتهم في غرفتهم، أصيب الإرهابيون بالذعر فأسرعوا إلى مطعم السفينة واحتجزوا حوالى مائة راكب، وعندها طالبوا بإطلاق سراح خمسين إرهابياً فلسطينياً في السجون الإسرائيلية.

---

* جهاز يستخدم للبحث عن الأسلحة. (المترجم).

في اليوم التالي وبالقرب من الساحل السوري قتلوا مواطناً أميركياً مقعداً هو ليون كلينغهوفر، وأعلنوا عن وفاته للسوريين على أجهزة الراديو، وهدّدوا بقتل الركاب الآخرين، إذا لم تتحقّق مطالبهم.

وصلت إلى مكتبي في ذلك الصباح حيث اتصل بي كبير ضباط المراقبة في غرفة الأوضاع. لقد تلقّى بعض الإشارات من قيادة وكالة المخابرات المركزية ولكنّها لم تكن معلومات وافية. قال لي: «شيء ما يجري لسفينة ركاب إيطالية في مكان ما في البحر المتوسط، إنهم يرسلون إشارات استغاثة، يمكن أن يكونوا إرهابيين، سأتصل بك عندما أسمع المزيد».

اتصلت على الفور بشارلز آلن خبير الإرهاب في وكالة المخابرات المركزية. كان شارلز يعرف إسم السفينة، وقال لي إنه يوجد بعض الأميركيين على متنها، عندها قمنا معاً بما يعتبر اليوم إجراء روتينياً عند حدوث عمل إرهابي، وضعنا أجهزة الاتصال والإنذار في العمل. اتصل الأميرال عندما شاهد الإنذار الأول وقال: «لماذا لا تجتمع مجموعتكم وتصدر التوصيات؟» عندها وبسرعة طبعت رسالة على الكومبيوتر لأعضاء قوة العمل أدعوهم فيها إلى الاجتماع في غرفة الأوضاع في ذلك الصباح.

في ذلك الاجتماع وافقنا فوراً على أنه يجب أن يأمر الرئيس بإيفاد فريق قيادة عملانية مشتركة إلى البحر المتوسط. بالإضافة إلى مقر القيادة المتحرك، كان لهذه القيادة مجموعات قيادة متخصّصة، هذه الوحدات القليلة العدد العالية التدريب كانت تستخدم أحدث المعدات وتزود بأحدث أنواع التكنولوجيا. كان لديهم القدرة على الوصول إلى مسرح الأحداث بأحدث الوسائل، وكانوا قادرين على الانتشار في بقعة مضطربة بعد لحظات من إبلاغهم.

لم يكن من السهل أن نوصي الرئيس بإيفاد فريق قيادة عملانية مشتركة. كان ذلك يعني أن الولايات المتحدة هي على وشك أن تزجّ بقواتها العسكرية ضد عمل عدواني محتمل، ولكن من الضروري التخطيط لعملية عسكرية محتملة في حال لم تحل مسألة الخطف سلمياً. كان مزيد من المعلومات يرد، وبدأت المجموعة باستكشاف العديد من الخيارات، ومن ضمنها بعض الخيارات المستوحاة من قصص جيمس بوند وأخرى أقل غرابة.

كان التحدي الكبير الذي واجهه فريق القيادة هو كيفية الوصول إلى متن السفينة وإخضاع الخاطفين دون إيذاء المحتجزين، وبعد محادثات متعددة بين الأميرال آرت مورو

والجنرال كارل ستينر رئيس الفريق تم الاتفاق على تركيز مجموعة خاصة قرب مسرح الأحداث، بحيث يمكنها التحرك بسرعة نحو السفينة. وبحلول ظهر اليوم الأول علمنا أن الإرهابيين كانوا مزودين بأسلحة كثيرة، وقد أفاد قبطان السفينة عن وجود ٤ (ويمكن أن يكون قد قال ذلك والمسدس موجه إلى رأسه)، ويحتمل وجود عدد إضافي من الإرهابيين على متن السفينة لم يظهروا أنفسهم.

كان عدم تأكيد عدد الإرهابيين على السفينة سبباً في تأخير انتشار الفريق. كان بإمكانهم إنجاز هذه المهمة بالطرق المألوفة، ولكنهم أرادوا أن يتأكدوا أنهم حملوا معهم كل شيء يحتاجون إليه، وعندما يقلعون سيكونون على بعد ١٠ إلى ١٢ ساعة طيران عن قاعدتهم في الولايات المتحدة.

يمكنك أن تفكر في ذلك الوقت وبعد جميع الأعمال الإرهابية التي حدثت في الثمانينات، أنه كان على الولايات المتحدة أن تركز وحدات لمكافحة الإرهاب في ما وراء البحار تكون جاهزة للعمل، ولكننا لم نقم بذلك.

بذلنا وسعنا في فريق قوة العمل حتى نقوم بذلك لكننا لم ننجح. لقد رفضت وزارة الخارجية أن نركّز وحدات مكافحة الإرهاب في ما وراء البحار بصورة سرية لأن ذلك يثير غضب حلفائنا عندما يعلمون بذلك أخيراً. كذلك رفضت وكالة المخابرات المركزية والأركان المشتركة أن يكون ذلك بشكل مكشوف ليس من أجل أسباب أمنية بل لأن الحكومات المضيفة يمكن أن لا تسمح بهذه المهمات.

وهكذا لم يحدث شيء، وعلى الرغم من الحاجة الواضحة إلى التحرك بسرعة في أوقات الطوارىء لم ننجح في الحصول على موافقة السلطات العليا في وزارتي الدفاع والخارجية على هذه التحضيرات قبل نشوب الأزمات. كنت أتعجب.. فكم من الأميركيين يجب أن يموت قبل أن نقوم بعمل ما؟

عرض الإسرائيليون تقديم قواعدهم لمثل هذه العمليات، لكن وينبرغر لم يسمح بذلك. كانت وزارة الخارجية بمجملها غير متعاونة، مع أن شولتز كان أول من يشتكي عندما لا يكون لنا قوات مسلّحة قرب مسرح الأحداث، ولكن بهذه الطريقة يستطيع العالم بأسره أن يرى ماذا نفعل. وعندها ستتجمع الصحافة على طرف مدرج قاعدة بوب الجوية في كارولينا الشمالية تنتظر إقلاع الطائرات.

في منتصف ليل الاثنين أقلعت المجموعة الخاصة باتجاه البحر المتوسط. بعد برهة صار عمل قوة العمل البحث عن حلول أخرى. وفي أثناء العمل في مركز معالجة الأزمات

في بناية المكتب التنفيذي القديمة، أرسلنا سيلاً من البرقيات إلى سفاراتنا في مصر وسورية والجزائر واليونان وإلى الاتحاد السوفياتي أيضاً. وكانت مهمتي أن أنقل الرسائل من مكفرلين إلى زميله البريطاني.

لم يكن التحدي الكبير في هذه الرسائل هو تحريرها، بل كان تنسيق هذه الكلمات لأعضاء الحكومة الأميركية، حيث كان كل واحد بحاجة إلى أن يعرف ويعلّق. وبالمقارنة فإن تعاملي السابق مع الإيرانيين كان نسبياً أسهل، فالإيرانيون الذين كنا نجتمع معهم لم يقولوا الحقيقة ولكن على الأقل كان عددهم أقل.

بحلول بعد ظهر يوم الثلاثاء كانت أكيلي لاورو تقترب من مرفأ طرطوس في سورية حيث طلب المسلحون حق اللجوء السياسي. أعددنا مجموعة من الرسائل لوزارة الخارجية بغية إرسالها إلى سفارتنا في سورية، وأعطيت تعليمات للسفير الأميركي بأن يطلب فوراً من الحكومة السورية وبلهجة شديدة أن ترفض طلبات اللجوء هذه.

كان أن قتل ليون كلينغهوفر في الفترة التي كان السوريون يحضرون جوابهم. وعلمنا فيما بعد أن المسلحين أطلقوا النار عليه وأصابوه في رأسه، وطلبوا من اثنين من البحارة أن يرموه هو وكرسيه في البحر. كان كل ما كنّا نعرفه في ذلك الوقت هو ما يقوله المسلحون للسوريين على جهاز الراديو. لقد تباهوا بقتل مواطن أميركي، وهدّدوا بقتل ركاب إضافيين حتى يمنحوا اللجوء السياسي. ومع أنه لم يكن لدينا طريقة لنتأكد ما إذا كان الذي يقوله هؤلاء صحيحاً فقد ذهلنا عندما قرأنا تقارير القتل والتهديد بالقتل لمزيد من الركاب على متن السفينة. توجه آرت مورو إلى ضابط المراقبة في غرفة الأوضاع وتناول سماعة جهاز الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية وتحدث طويلاً مع الجنرال ستينر الذي كان على الأرض في قاعدة حليفة في البحر المتوسط. أنهى مورو حديثه بقوله «علينا أن نلقي القبض على هؤلاء الأوغاد».

رفض السوريون الاستجابة لمطالب الخاطفين، ليس بسبب عدم التعاطف معهم، ولكن لأن العالم كله كان يراقب الأحداث. شككنا أن الرئيس الأسد استغل هذه الفرصة ليعرّض بياسر عرفات، وكنا واثقين أنه على رغم إنكار عرفات الشديد فقد كان متورطاً في هذه العملية إلى ما فوق أذنيه.

عندما خذلهم السوريون أمر المسلحون قبطان السفينة بالعودة إلى مصر. حلّ الليل وكان الطقس يتغيّر بسرعة في شرقي البحر الأبيض المتوسط. وعندما قويت العاصفة فقدنا أثر السفينة. حتى الآن كانت وكالات الاستخبارات الأميركية تلاحق السفينة عبر الأقمار

الاصطناعية وطيران البحرية ورسائل السفينة بحد ذاتها. ولبرهة تابع القبطان الإعلان عن مكانه عبر نداءات إلى مركز قيادة السفينة الأم على الأرض، ولكن عندما انتبه المسلحون إلى ذلك توقف عن هذه النداءات.

على الرغم من التكنولوجيا المتطورة فإنه من الصعب أن نحدّد مكان سفينة صغيرة في بحر كبير، وخصوصاً عندما يكون الطقس سيئاً، وإذا اعتمدنا على السفن والطائرات من أجل المراقبة فهناك خطر من أن يلاحظ الخاطفون ذلك وينتقموا بقتل الركاب. بعد ساعات قلقة ومناقشات طويلة مع وكالة المخابرات المركزية ووكالات أخرى اتصلت بالجنرال يوري سيمهوني الملحق العسكري في السفارة الإسرائيلية في واشنطن.

عودة إلى حزيران/ يونيه الماضي، كنّا قد عملنا معاً في عملية خطف طائرة الخطوط الجوية العالمية على الرحلة رقم ٨٤٧ وكنا نثق ببعضنا. أعطيت سيمهوني آخر تحديد لمكان أكيلي لاورو وسألته ما إذا كان جماعته يساعدون. بعد نصف ساعة اتصل بي وأعطاني المكان المحدد الدقيق للسفينة. من جوابه القاطع تولّد لدي حدس بأن الإسرائيليين كانوا يتابعون السفينة منذ بداية الخطف. كانت إمكانية الإسرائيليين لجمع معلومات من الاستخبارات البشرية في الشرق الأوسط محترمة جداً، ولكن حكومتنا قلّلت من تقدير إمكانياتهم التقنية.

أمضينا ليلة في غرفة الأوضاع دون أن ننام، نراقب وننتظر إبحار السفينة عائدة إلى مصر. وفي صباح يوم الأربعاء فقدنا أثر السفينة مرة أخرى، وكذلك اتصلنا بسيمهوني فأرشدنا إلى مكانها بالتحديد.

بعد برهة وبعد الاطلاع على تقارير الاستخبارات لاحظ شارلز آلن أن «أبا العباس»، رئيس جبهة التحرير الفلسطينية وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، قد دخل فجأة وبشكل دبلوماسي إلى مصر. شارلز الذي لم يتوقف عن العمل في مركز معالجة الأزمات وغرفة الأوضاع منذ يوم الاثنين عاد إلى مكتبه ليبدّل ثيابه ويرتاح قليلاً. اتصل على الأنترفون وأشار إلى أن «أبا العباس» هو مفتاح مهم لعرفات، وله تاريخ حافل بتنفيذ الهجمات على المواطنين الإسرائيليين. قال: «دعونا نراقب هذا الشخص.. أنا لن أفاجأ إذا ما تبيّن أنه هو الذي خطط للعملية بكاملها».

حالما وصل أبو العباس إلى مصر بدأ يلعب دور المبعوث المحايد لياسر عرفات للمساعدة على حل مشكلة الخطف، ولكن عندما وصلت أكيلي لاورو إلى مدى الإرسال الراديوي للإسكندرية وبدأ أبو العباس «يفاوض» الإرهابيين حيّوه قائلين: «أيها القائد نحن سعداء لنستمع إلى صوتك».. وهنا علمنا أن شارلز كان على حق.

ولكن الذي لم نعرفه هو أن «أبا العباس» وعرفات كانا قد عقدا اتفاقاً مع الرئيس المصري حسني مبارك. شرح أبو العباس من على جهاز الراديو للمسلحين أنهم إذا استسلموا للسلطات المصرية فإنها سوف تسمح بخروجهم من مصر بأمان. وفي صباح يوم الأربعاء أبحر زورق من الميناء إلى داخل البحر وأحضر معه الخاطفين. عندما سمع آرت مورو والمخططون في فريق القيادة العملانية المشتركة هذه الأنباء سرّوا وأصيبوا بخيبة أمل في آن واحد. وفي صباح اليوم نفسه كان الرئيس قد وافق على خطة لوضع مجموعة عمل مختصة على السفينة في تلك الليلة.

بعد وصول أكيلي لاورو إلى شاطىء الإسكندرية وصل نيكولاس فيليوتيس سفيرنا في القاهرة إلى متن السفينة، وبمساعدة المصريين كان المسلحون قد تركوا قبل وصوله. بعد أن علم فيليوتيس من الركاب وطاقم السفينة عن اغتيال ليون كلينغهوفر كانت أول كلمة قالها على جهاز الراديو «أخبروا وزارة الخارجية أننا نطلب محاكمة أبناء الكلبة».

السفراء لا يتفوّهون عادة بهذا الكلام، وقد كانت هذه الكلمات بمثابة صدمة لنا نحن الذين كنا في قوة العمل، ولكنها كانت تنفساً لهواء نقي في ضباب الدبلوماسية.

بعدما تأكد مقتل مواطن أميركي أرسلنا رسائل عديدة إلى المصريين - إلى سفارتهم في واشنطن - ومن خلال دبلوماسيينا في القاهرة نطلب منهم تسليم الخاطفين. أعددت رسالة شخصية شديدة اللهجة أنا وجيم ستارك، وهو نقيب بحري في مجلس الأمن القومي، من الرئيس ريغان إلى الرئيس مبارك يطلب من المصريين تسليمنا الخاطفين أو على الأقل للإيطاليين. وبعد اتّباعها الطرق العادية ذهبت الرسالة من أركان مجلس الأمن القومي إلى مكفرلين، ثم وبعد موافقة وزارة الخارجية رفعت إلى الرئيس ومن ثمّ وصلت إلى مبارك.

بعدما وصل الخاطفون إلى البر بسلام، صمتت الحكومة المصرية فجأة، ولم يستطع فيليوتيس أن يسلّم الرسالة إلى وزير الخارجية المصري الذي كان مجتمعاً مع الرئيس مبارك ووزير الدفاع.

كنت قد تعبت جدّاً، وفي مساء الأربعاء ذهبت إلى منزلي لأول مرة منذ بداية عملية الخطف. أصبح الركاب بعيدين عن الخطر، وأصبح لدينا سبب لنأمل من مصر بأن تسمح بتسليم الخاطفين إلى الولايات المتحدة لمحاكمتهم على الجرائم التي ارتكبوها. لم يكن هذا قد حدث من قبل، ولذلك كان باك ريفيل يريد توسيع سلطة مكتب التحقيق الفدرالي في القانون الجديد لمكافحة الإرهاب. أما الآن فالأمر بيد الدبلوماسيين وانتهى دورنا نحن أو هكذا ظننا.

صباح الخميس وبعدما نمت ساعات قليلة عدت إلى البيت الأبيض، وللمرة الأولى منذ أيام كان مركز معالجة الأزمات هادئاً وخالياً. كانت أرجاء الغرفة مزروعة بأكواب القهوة الفارغة وأعقاب السجائر، وهو دليل على نشاط كثيف وتعب وإرهاق. حملت كوباً من القهوة ونزلت إلى غرفة الأوضاع لقراءة البرقيات الواردة في الليل قبل اجتماع الموظفين الصباحي. وجدت برقية تشير إلى أن الحكومة المصرية سمحت للخاطفين الأربعة بمغادرة مصر. كان هناك برقية أخرى تفيد عن تصريح للرئيس مبارك حول مغادرتهم. قال: «لا أعرف إلى أين ذهبوا، ربما إلى تونس، عندما وافقنا على استسلامهم لم نكن نعرف شيئاً عن الجريمة».

صعقت عندما قرأت أن الخاطفين غادروا مصر. قد يكون مبارك على غير علم بمقتل ليون كلينغهوفر عندما عقد اتفاقاً مع منظمة التحرير الفلسطينية، إلا أنه لا شك كان يعرف عن الجريمة عندما سمح للخاطفين بالمغادرة، وكان الرئيس ريغان قد رجاه وتوسل إليه بأن يحتجزهم.

من غرفة الأوضاع اتصلت بسيمهوني في السفارة الإسرائيلية، لم يكن قد وصل بعد، قلت لأحد زملائه إن الخاطفين غادروا مصر. قال: «لقد عرفت ذلك أيضاً إلا أنني لا أصدقه ويجب أن لا تصدقه أنت أيضاً».

فسألته: ماذا تقصد؟

ـ إنهم لا يزالون هناك.

ـ وكيف عرفت؟

ـ صدّقني إننا نعرف.

اتصلت بشارلز آلن فلم يستطع أن يؤكد ما إذا كان الخاطفون لا يزالون في مصر، إلا أنه قال إنه لم ير ما يدل على أنهم غادروها. قبل اجتماع الموظفين الصباحي بقليل أبلغت إلى مكفرلين ما سمعته من زميل سيمهوني، فقال لي: «لعلّه على حق، تأكد من صحة ذلك من مصادرنا جميعاً».

عندما انتهى الاجتماع الصباحي عدت إلى الهاتف واتصلت بالسفارة الإسرائيلية، كان سيمهوني هناك. قلت: «يا أوري أين هم الأشقياء الأربعة؟» فأجابني: «إنهم لا يزالون في مصر». وعلى الرغم من أنني كنت أظن أنهم يقولون ذلك تلقائياً، فقد قلت له: «أرجو أن تبقوهم تحت المراقبة».

بعد دقائق قليلة جاء جيم ستارك بتأكيدات جديدة من أن الخاطفين لا يزالون في

مصر، وقد علم أيضاً أن المصريين يعتزمون ترحيلهم جوّاً من البلد عند حلول الظلام. كان الوقت يقترب من نهاية بعد الظهر في مصر. اتصل جيم بآرت مورو وشارلز آلن بينما صعدت مسرعاً لأعثر على مكفرلين. كان مكفرلين يهم بالرحيل إلى شيكاغو مع الرئيس الذي كان في برنامجه إلقاء خطاب عن الإصلاح الضريبي. ظفرت به بينما كان يهم بالصعود إلى طائرة الهليكوبتر قاصداً قاعدة أندروز الجوية وكان معه الأميرال بواندكستر.

قلت له قبل أن أستعيد كامل أنفاسي من الركض على السلالم: «إن أصدقاءنا يقولون إن الخاطفين لا يزالون في مصر. لقد تأكّدنا من ذلك، وهم سيرحلون جوّاً هذه الليلة. هل تتذكر ياما موتو؟».

كان الأميرال اليسوكورو ياما موتو هو من قاد الهجوم الياباني على بيرل هاربور خلال الحرب العالمية الثانية، وقد علمت مخابراتنا بخطة طيرانه لزيارة قاعدة بحرية في جزر سليمان، عندها دمّرنا طائرته في الجو، وقد خطر لي أن نقوم بعمل مشابه لذلك.

قال بواندكستر: «لا يمكننا أن نسقط الطائرة بهذه البساطة يا أولي»! فقلت: «لا، ولكن بإمكاننا أن نعترضهم ونجبرهم على الهبوط في قاعدة صديقة، ثم ننقلهم إلى إحدى طائراتنا ونعود بهم جوّاً لإخضاعهم للمحاكمة». قال مكفرلين بينما كان يهم بالصعود إلى الطائرة: «مارين واحد» على حديقة البيت الأبيض: هذا احتمال وأضاف: «ادرس التفاصيل واتصل بي إلى شيكاغو».

خلال الساعات القليلة التالية كنا أنا وجيم ستارك على الهاتف نتصل بالإسرائيليين ووزارة الدفاع وأجهزة مخابراتنا، وبسرعة فائقة بدأ آرت مورو بوضع خطة تقضي بأن يعترض سلاح البحرية الخاطفين. وفي الوقت نفسه لم يبق إلا بضع ساعات لنعرف بالضبط مكان الخاطفين ومتى وكيف سيغادرون مصر.

عند منتصف النهار بتوقيت واشنطن علمنا أن المصريين يعدّون طائرة تجارية لتطير بالخاطفين إلى تونس في تلك الليلة. مرة أخرى تقدم الإسرائيليون وأعلمونا عن موعد إقلاع الطائرة ورقم ذيلها وهي من طراز ٧٣٧ تابعة لشركة مصر للطيران، بالإضافة إلى معلومات عن خطة طيران زائفة إلى الجزائر.

بينما كان جيم يتصل بالأميرال مورو الذي كان على اتصال بالأسطول السادس من خلال مركز اتصالات الأركان المشتركة، كنت أحضر مسوّدة رسالة من الرئيس ريغان إلى الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، تطلب منه عدم منح حق الهبوط للطائرة إذا اتجهت إلى تونس. وأعددت رسائل مماثلة إلى أثينا وبيروت، وجهزت غرفة الأوضاع الرسائل الثلاث

لإرسالها بعد أن تقلع الطائرة المصرية.

في البحر المتوسط تمكّن ضباط العمليات في الأسطول السادس الذين كانوا يعملون بصورة مباشرة مع الأميرال مورو من وضع خطة للاعتراض، في ذلك الوقت اتصل الإسرائيليون ليزوّدونا بأنباء مثيرة: إن «أبا العباس» العقل المدبّر للخطة كلها سيغادر مصر جوّاً بصحبة الخاطفين.

اتصل بواندكستر بمكفرلين في شيكاغو وعثر عليه في مؤسسة «سارة لي» في ديرفيلد بولاية ايلينوي حيث كان بصحبة الرئيس. كان مكفرلين قد أطلع الرئيس على خطة مورو: تقلع طائرات ف ١٤ توم كات من حاملة الطائرات ساراتوغا مدعومة بطائرتي إنذار وقيادة وسيطرة من نوع إ٢ لتعترض طائرة الإرهابيين وترغمها على الهبوط إما في أكرو ليتري وهي قاعدة بريطانية في قبرص، أو في قاعدة سيغونيلا المشتركة بين حلف الأطلسي وإيطاليا في صقلية. قال مكفرلين: «لقد أعجب الرئيس بهذه الخطة تابع العمل بها».

كنت أنا وستارك بكامل نشاطنا، ومع أنه ما زال هناك الكثير من التفاصيل يجب العمل على استيفائها، فقد كان لنا على الأقل فرصة للعمل.

لدى موافقته على الخطة أوضح الرئيس أنه لا يريد إلحاق الأذى بأناس أبرياء. كانت أوامر المجابهة صارمة، ولكن إذا رفض الطيار المصري الاستجابة لأوامرنا بالهبوط في سيغونيلا؟ لم يكن إسقاط الطائرة أحد خياراتنا، حتى لو لم يكن الخاطفون يستحقون الحياة كان هناك الطيار ومساعده، وربما بعض الركاب على متن الطائرة. يجب أن لا يموت أناس أبرياء من أجل معاقبة الخاطفين.

كان علينا أن نجعل الطيار يعتقد أن لا خيار لديه إلا الهبوط في سيغونيلا، ولذلك كانت إحدى قواعد المواجهة التي أعدها مورو تسمح لطائرات توم كات بإطلاق طلقات تحذيرية أمام الطائرة المصرية.

دهشت أنا وستارك من مقدرة مورو على تمرير خطة الاعتراض عبر وزارة الدفاع من دون معارضة كسبار وينبرغر، وعلمنا فيما بعد أن وينبرغر اعترض وحاول إقناع الرئيس بالتخلي عن العملية، لأنها قد تؤدي إلى المسّ بعلاقتنا مع مصر. إلا أن الرئيس لم يرق له هذا الكلام.

لا يحدث شيء في الحكومة دون أعمال إدارية، وبناء على طلب الأميرال مورو حضرت أنا وجيم مذكرة ليوقّعها الرئيس. هذه الوثيقة التي أرسلت بالفاكس إلى الطائرة «القوات الجوية ـ واحد» أمرت باعتراض الطائرة المصرية، وأعدّت قواعد المجابهة التي كان

قد اقترحها مورو. كان الرئيس ريغان على متن الطائرة عائداً إلى واشنطن، وعندما وقّع على المذكرة اتصل بوزير الدفاع وأخبره أنه أمر بالاعتراض. وينبرغر الذي كان في طريقه من أوتاوا إلى منزله الصيفي في ماين اتصل بالأميرال كرو في وزارة الدفاع وأكّد الأمر.

بينما كانت طائرات البحرية تقلع بصمت من على متن حاملة الطائرات ساراتوغا، كنا أنا ومورو وپواندكستروستراك نضع التفاصيل النهائية. كانت قواتنا التابعة للعمليات الخاصة قد طارت في طريق عودتها إلى الوطن فحوّلناها إلى سيغونيلا. لم نكن قد أطلعنا الحكومة الإيطالية على خططنا خشية تسرب المعلومات؛ إلاّ أننا ما زلنا بحاجة إلى إذن بالهبوط، وتمكنت بالتعاون مع سيمهوني من وضع خطة طوارىء بديلة: فإذا لم نتمكن من استعمال قاعدة سيغونيلا فإن الطائرة ستحوَّل إلى قاعدة عسكرية إسرائيلية.

أقلعت طائرة مصر للطيران عند الساعة الحادية عشرة والربع ليلاً بتوقيت القاهرة، وعند منتصف الليل كانت قد وصلت بالقرب من جزيرة كريت حيث كانت طائرات ف ١٤ بانتظارها لاعتراضها. أطفأ طيارو ف ١٤ أضواء طائراتهم وأقلعوا بسرعة لتعقب الطائرة المصرية المدنية. وعلى بعد حوالى مائة ميل كان الكوماندر رون سيمز (اسم مستعار) في طائرته من طراز إ ٢ سي، فعندما يحين وقت الاتصال مع الطائرة المصرية سيتولى سيمز التحدث إليها.

كان سيمز يصغي بينما كان الطيار المصري يطلب حق الهبوط في تونس، إلاّ أنه لم يمنح هذا الحق، حاول في أثينا وتلقى الجواب نفسه، وعندما لم يمنح حق الهبوط في أي مكان طلب الطيار، الذي لم يكن يعلم أنّ طائرتي ف ١٤ تحلّقان على جانبيه، الإذن بالعودة إلى القاهرة. عندئذ اتصل سيمز قائلاً: مصر للطيران ٢٨٤٣ هنا تايغرتيل حوِّل.

ـ لم يأت أي جواب.. كرّر سيمز الرسالة ثلاث مرات ثم تلقى الجواب: تايغرتيل ٦٠٣ هذه مصر للطيران ٢٨٤٣ تابع.

ـ مصر للطيران ٢٨٤٣ هناتايغرتيل ٦٠٣ خذوا علماً بمراقبة طائرتي ف ١٤ لكم، عليكم الهبوط فوراً في قاعدة سيغونيلا في صقلية ـ حوِّل.

ولا بد أن الطيار المصري أصيب بالذهول فقال: أعد ما قلت.. من المتحدث؟

هذا تايغرتيل ٦٠٣ إنني أعلمكم أن تهبطوا فوراً. تقدّموا حالاً إلى قاعدة سيغونيلا في صقلية، وترافقكم طائرتان معترضتان من سلاح البحرية الأميركية.

حاول الطيار أن يتصل بالقاهرة للإفادة، إلا أن آرت مورو وعناصر الأسطول

السادس في العمليات الذين كانوا يتوقعون ذلك، أشاروا على سيمز بالتشويش عليه فلم يبق له من وسيلة اتصال إلا مع سيمز.

قال سيمز: عليك أن تدور نحو ٢٨٠، اتجه نحو ٢٨٠ فوراً. أضاءت الطائرتان أنوارهما وحلّقتا إلى جانب الطائرة المصرية، وأخفضتا جناحيهما كإشارة طيران تعني «اتبعني» ولإظهار جدّيتهما شغّلتا الحارق الإضافي وأحدثتا دوياً قرب الطائرة المصرية.

تلقى الطيار الرسالة: «أنا أدور إلى اليمين باتجاه ٢٨٠».

ربما خاف هذا المسكين كثيراً فأضاف: «أنا أقول إنني أتبع أوامركما، أنا أقول إنكما اقتربتما كثيراً، لقد اقتربتما كثيراً أرجوكما».

قال سيمز: حسن... سوف نبتعد قليلاً. وبدا سيمز وكأنه هو الذي يقود إحدى الطائرتين بينما كان في الحقيقة على بعد أميال داخل طائرة ٢١ سي. في هذه الأثناء بدأت طائرات توم كات التي كانت تحلق منذ ساعات تعاني نقصاً في الوقود، وعلى الموجة الثانية طلب سيمز استبدالها بطائرات أخرى.

كان هناك عرض جوّي يتجه إلى صقلية، فبالإضافة إلى الطائرة المصرية، هناك طائرات توم كات الأربع وطائرة سيمز وطائرتان من نوع سي ١٤١ تحملان الجنرال ستينر ووحداته الخاصة.

عندما تهبط طائرة مصر للطيران على المدرج كان على طائراتنا أن تنقل «أبا العباس» والخاطفين الأربعة إلى طائرة ستينر سي ١٤١ حيث تتجه بهم إلى الولايات المتحدة.

أخيراً حان الوقت لطلب السماح بالهبوط في صقلية. كان كل شيء في مكانه المحدد، وكنت أنا وستارك ومورو وبواندكستر مقتنعين بأنّ كل شيء يجري تماماً. والآن كان علينا أن نعلم رئيس الوزراء كراكسي في إيطاليا، لم تتمكن سفارتنا في إيطاليا من تحديد مكانه، وأخيراً عثر عليه أحد مسؤولي سفارتنا في إيطاليا، ولكن لم يستطع أحد من وزارة الخارجية الحضور.

تذكرت أن مايكل ليدين وكراكسي كانا صديقين. اتصلت بمايكل في منزله وقلت له: «نريد مساعدتك»، ثم خرقت جميع الاحتياطات الأمنية وطلبت حضوره على وجه السرعة وقلت له: «عليك أن تمسك بكراكسي وإلاّ لن تستطيع هذه الطائرات الهبوط».

طلب ليدين من مقسم هاتف البيت الأبيض أن يوصله بفندق رافايل حيث كان كراكسي موجوداً، ردّ على الهاتف أحد مساعدي كراكسي وقال لليدين: إنه ليس هنا.

قـال ليدين بـاللغة الإيـطاليـة: «من الأفضـل أن تعـثر عليـه فـأنـا أتكلم من البيت الأبيض، وهناك حياة بعض الـناس في خطر، وإذا مـات أحد مـا بسبب عدم اتصـالي به فإن صورتك ستكون صباح الغد في الصفحة الأولى لجميع صحف العالم».

وعلى عكس بقية وكـالات حكومتنـا كان مـايك يعـرف الزر الـذي يجب أن يضغط عليه، وكان رئيس الوزراء كراكسي على الخط في أقل من دقيقة.

أراد كراكسي أن يعرف: لماذا صقلية؟

قال ليدين: حسناً. . وفكّر بسرعة وطلع بخاطرة سريعة وقال:

«لا يوجد أي مكان آخر في العالم يؤمن الطقس الجميـل والتراث والتقـاليد والمـطبخ الجميل في وقت واحد».

ضحـك كراكسي وقـال إنه سـيرتب أمر ذلـك. لكن الأمـر لم يكن بسيـطاً. لم تكن الاتصالات بين روما والقاعدة الجويّة في صقلية فعّالة، وتأخّر أمر كراكسي في الـوصول. لم يسمح المراقبون الجويون الإيطاليون للطائرات بالهبوط إلى أن أعلنت طائرات البحرية حالة طوارىء جوية، ثم تبعتها بسرعـة الطائـرة المصرية ٧٣٧، والأمـيركية سي ١٤١، وهبـطت جميعها على المدرج، وسرعان ما أحاط رجـال الوحـدات الخاصـة التابعـين للجنرال ستينـر بالطائرة المصرية التي كان أحد محركاتها ما يزال يعمل.

في البدء رفض الطيار أن يفتح الأبواب أو أن يطفىء المحرك.

عندها استعمل الجنرال ستينر سلّماً متحركاً، فوضع السلم على الطائرة وترك سلاحه وصعد على السلم وفتح الباب. (إن ستينر يعد من أشجع الرجال على هذا الكوكب). .

سرعان ما ظهر ضابط كوماندو مصري ووجّه رشاشه نحو الجنرال.

قال ستينر: أنا لا أريدك أنت. . أنا أريدهم. . أريد هؤلاء. .

بعـد لحـظات من الـتردد أنـزل الضـابط رشـاشـه ونـزل من الـطائـرة أبـو العبـاس والإرهابيون الأربعة.

كان يجب أن تنتهي القصة، عـلى هذا النحـو ولكن الأحداث نـادراً ما تنتهي حيث خـطّط لها. فبينـما كان رجـال ستينر يحيـطون بالـطائرة طـوّقهم أيضاً عنـاصر من الشرطـة الإيطالية الوطنية المعروفين بـ «كارابينيري» وطلبوا توقيف أبي العباس والإرهابيين.

من غرفة الأوضـاع كنا نستمـع على الهـواء إلى مجرى الأحـداث في سيغونيـلا، ومن ضمن ذلك المواجهة بين رجال ستينر والشرطة الإيطالية. ثم اتخذ بواندكستر القرار الممكن والوحيد: لا تخاطروا باشتباك مع الإيطاليين.

وخلال الساعات التالية أكدت حكومة كراكسي لنا أنها أوقفت الإرهابيين وأنها سوف تحاكمهم. أمّا نحن فقد كنا نطالب بتسليمهم إلى الولايات المتحدة، واستمرينا بالضغط في هذا الاتجاه. أرسل البيت الأبيض رسالة شديدة اللهجة إلى كراكسي وذكّره بمعاهدة تبادل المجرمين بين الولايات المتحدة وإيطاليا والتي تنص على أنه يمكن توقيف الإرهابي لمدة ٤٥ يوماً حتى تجمع الأدلة ضدّه.

انتهت حادثة أكيلي لاورو بتقهقرٍ كبير، فمن أجل إحالة الإرهابيين على المحكمة طلب الإيطاليون إثباتات للجريمة. منذ ثلاثة أيام وقوة العمل في هذه العملية تعمل بجهد كبير، وقد نجحت تماماً، ولكن المعركة القانونية بدأت الآن.

حضر وزير العدل أدوين ميز بصحبة مسؤول من مكتب التحقيق الفدرالي إلى غرفة الأوضاع لمساعدتنا على تحضير الأوراق اللازمة من أجل إعداد مذكرة بحث وتحرٍّ. أرادت وزارة العدل أن تعرض على قاضٍ فدرالي بأن هناك دليلاً كافياً ضد الإرهابيين من أجل إقامة دعوى ضدهم، ولكن معظم الأدلة كانت عبارة عن معلومات استخبارات حساسة تم جمعها من قبل وكالات الاستخبارات الأميركية وكذلك الإسرائيلية. كان الإسرائيليون يرغبون بمساعدتنا بمختلف الطرق العملية، ولكنهم لم يرغبوا بكشف مصادرهم وأساليبهم، ولم نكن نرغب نحن بذلك أيضاً.

ولكن بمساعدة الإسرائيليين كنا نستطيع أن نجمع دلائل كافية نعرضها على القاضي، وخلال جمع هذه الدلائل من أجل استرداد الإرهابيين كنت على اتصال وثيق مع أميرام نير مستشار رئيس الحكومة الإسرائيلية شيمون بيريز لمكافحة الإرهاب، (خلال الشهور الأربعة عشر اللاحقة سوف أتعرف أكثر وأكثر على نير).

لم يكن أحد مسروراً من النتيجة أكثر مما كنّا نحن في قوة العمل. كان جورج شولتز غاضباً من الضرر الذي لحق بعلاقتنا بكل من إيطاليا ومصر، وعلى الرغم من استيائه كانت وزارة الخارجية متعاونة في إعداد طلب الاسترداد، وبحلول صباح اليوم التالي كانت الأوراق جاهزة، ومع أن الموقف كان بحاجة إلى السرعة فقد عملنا على أن نتقيّد بحرفية وروح القانونين الأميركي والإيطالي.

لكننا لم ننجح في النهاية، لقد حوكم الإرهابيون الأربعة وأدينوا في إيطاليا، مع أن المدعي العام طلب بشجاعة إنزال حكم الإعدام بهم، ونال الإرهابيون أحكاماً من ٢٠ إلى ٣٠ سنة. كان يوسف ملكي الذي اعترف بقتل ليون كلينغهوفر ممتناً من القاضي إلى درجة أنه صرخ في قاعة المحكمة: «عاشت العدالة الإيطالية ـ عاشت فلسطين». وماذا

عن أبي العباس؟ لقد ساعده الإيطاليون في الهرب بعد إحضار الرجال الخمسة إلى روما، فصلوه عن الأربعة وارتدى زيّ طيار ووضعوه داخل طائرة وطار إلى يوغوسلافيا. حضّرنا على الفور ملف استرداد لنستخدمه في بلغراد، وهنا خسرنا المعركة أيضاً لأن يوغوسلافيا كان لها علاقات دبلوماسية مع منظمة التحرير الفلسطينية، وكان أبو العباس يتمتع بالحصانة الدبلوماسية. في الأيام التالية تتّبعناه بينما انتقل من بلغراد إلى بغداد حيث نزل ضيفاً دائماً وعلى حد علمي فإنه ما يزال هناك.

لا يوجد أدنى شك في أن المحاكمة أظهرت أن أبا العباس هو من خطط للعملية بكاملها، لقد حوكم هو وثلاثة من مساعديه غيابياً.

ولكنّ السمكة الكبيرة هربت، فبالمقارنة مع أبي العباس كان الإرهابيون الأربعة الذين نفذوا عملية الخطف والقتل جنوداً صغاراً. كنا ندرك أننا لن نفتح ثغرة في عالم الإرهاب الدولي بإلقاء القبض على منفذين صغار، كان يجب أن نقبض على القادرة الكبار منهم.

كان مخيفاً أن نضيّع أبا العباس على الرغم من نجاح هذه العملية الدراماتيكية، ولم نستطع أن نقنع الإيطاليين بتسليمنا المجرم الرئيسي لمحاكمته، أو أن يحاكموه هم بأنفسهم. كان الإيطاليون يدركون تماماً أن أبا العباس كان العقل المدبر للعملية بأكملها، ولكن بدا أنهم يريدون أن يصدق العالم أنه صادف وجوده على رحلة غير مُجَدْوَلة لشركة مصر للطيران.

لقد كانت خيانة ولكن بالمقابل لم تكن مفاجأة، فالإيطاليون مثل المصريين كانوا بحاجة إلى قرار لمحاربة الإرهاب، لأنهم يتخوّفون من عواقب احتجاز ومحاكمة الزعماء الإرهابيين، ومع أننا لم نستطع تأكيد ذلك، فإني أعتقد أن الحكومتين قد تعهدتا لمنظمة التحرير الفلسطينية بإطلاق سراح أبي العباس، وبذلك لا يمكن أن تنسب العملية مباشرة إلى ياسر عرفات.

بعد ٥ سنوات ظهر أبو العباس مرة أخرى. . ففي ربيع عام ١٩٩٠ خطّط لعملية قام بموجبها عناصر كوماندو فلسطينيون بالنزول على شاطىء تل أبيب وكان من المفروض أن يطلقوا النار على كل من يشاهدون، ولكن الإسرائيليين ألقوا القبض عليهم ولم يصب أي مدني بأذى.

في آذار/مارس ١٩٩١ وردت أخبار أخرى عن إرهابيي أكيلي لاورو: عبدالرحيم خالد، أحد مساعدي أبي العباس، أوقف في اليونان بتهمة التخطيط لحادثة إرهابية في

أثينا، كان خالد أساساً على متن أكيلي لاورو، ولكنه ترك السفينة في الإسكندرية قبل أن يحتجزها رفاقه، وعندما كشفت هويته الحقيقية طلبت الحكومة الإيطالية من الحكومة اليونانية تسليمها إياه.

مع أننا أصبنا بخيبة أمل لإفلات أبي العباس فقد ابتهج الشعب الأميركي عندما أعلن عن اعتراض الطائرة. كتبت صحيفة نيويورك ديلي نيوز في عنوانها الرئيسي: لقد اصطدنا الأوغاد. وفي حادثة طريفة: كنت في مكتب بات بوكانان أعمل معه في ترتيب تصريح للرئيس من أنه قد أُلقي القبض على الإرهابيين، وردت مكالمة من نيل لاثام وهو محرر في صحيفة نيويورك بوست. قال نيل: نريد عنواناً عظيماً، نريد أن نستخدم «أنت تستطيع الركض ولكنك لا تستطيع الاختباء» وإذا جعلتم الرئيس يستخدم هذا التعبير فإننا سنضع السطر بكامله بين مزدوجين. كان ذلك غير طبيعي وغير مألوف أن يقترح أحد الصحافيين لغة أو نصاً على الرئيس، ولكن علي أنا وبات أن نقرّ بأنّ هذا السطر كان أفضل من التقارير التي كتبناها، وقد استخدم الرئيس السطر الجديد وكان رد الفعل رهيباً، ظل نيل يخبر هذه القصة لسنوات، وربما يصدقه الناس الآن.

الكثير من الناس أشادوا بي وبدوري في نجاح عملية أكيلي لاورو. أنا فخور بأن أكون مشاركاً بها، ولكن الثناء يجب أن يوجّه إلى مخطّطي الطلعات الجوية في البحرية وإلى الطيارين وعدد آخر من المخططين. يجب أن يشكر مكفرلين لأنه أعطى الأوامر بالتخطيط لعملية الاعتراض وفي إقناع الرئيس بتجاوز اعتراضات وينبرغر. ولكن الفضل الكبير يعود إلى آرت مورو، كان يكره البيروقراطية في واشنطن، ولكنه كان سيّداً في اختراقها. بعد أشهر تم تعيينه قائداً للقوات البحرية في البحر الأبيض المتوسط، وحالما وصل أصبح هدفاً للألوية الحمراء وللمجموعات الإرهابية الفلسطينية. لقد أمضى هو وزوجته سنة كاملة تحت حراسة مشدّدة، وقد توفي آرت مورو على أثر نوبة قلبية في السنة التالية دون تقدير لجهوده في مساهمته من أجل مكافحة الإرهاب.

لكن كما يقول المثل القديم: لا يذهب الجميل دون مكافأة. لقد ارتفعت أصوات غاضبة في مصر حيث تعرّض مبارك لهجوم من قبل المعتدلين الذين رأوا أنه كان عليه أن يحتجز الإرهابيين، ومن قبل المسلمين الأصوليين الذين كانوا مقتنعين أنه تواطأ معنا لإنجاح عملية القبض على الإرهابيين. وفي إيطاليا عانى التحالف الحاكم الذي كان يرئسه كراكسي مصير الحكومات السابقة: لقد انهارت الحكومة.

مع كل هذا السقوط الدبلوماسي شعر شولتز وزير الخارجية بالضغط.

في بعد ظهر أحد الأيام وبعد سقوط تحالف كراكسي بوقت قليل كان شولتز يغادر

مكتب مكفرلين وكنت أدخل أنا إليه. نظر وحدّق بي وأخذ يتمتم «ها. . ها هو الرجل الذي أسقط الحكومة الإيطالية».

أجبته بابتسامة: «مساء الخير سعادة الوزير. . ».

في الكونغرس اعترض الآخرون، فالسناتور ديف دورنبرغر، وهو جمهوري ورئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، أصيب بخيبة أمل لأن الرئيس خالف «قرار سلطة الحرب». بعض الأعضاء تخوّفوا لأننا لم نتشاور معهم قبل زج وحداتنا الخاصة. . وحتى لو استشرناهم فإننا ما نزال نبحث عن قتلة ليون كلينغهوفر.

لكن هذه الاعتراضات كانت استثنائية، ففي جميع أنحاء أميركا كان رد الفعل السائد إيجابياً، وكان التعاون رائعاً ضمن أجنحة الحكومة المختلفة ووكالات الاستخبارات، وبيننا وبين الإسرائيليين.

على الرغم من نجاحها لم تنه عملية أكيلي لاورو مشكلة الإرهاب. ليبيا لم تظهر أي ميل للتوقف عن الإرهاب، وعلى العكس، عندما أقفل الداعمون للإرهاب مخيمات التدريب تحرك القذافي ليملأ هذا الفراغ.

في أواخر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥ كان القذافي على علاقة بهجمات «أبو نضال» الإرهابية القاتلة في مطاري روما وفيينا. وعلى مرّ الشتاء كنا نراقبه بينما كان يخطّط لأحداث إرهابية تستهدف مصالح الولايات المتحدة. وفي داخل الإدارة الأميركية كان ينمو شعور لمصلحة ضربة عسكرية ضد ليبيا.

في آذار/ مارس ١٩٨٦ دعا القذافي في تصريح له الشعب العربي «لأن يهاجم أي شيء له علاقة بالولايات المتحدة سواء أكان مصالح، أو بضائع، أو سفناً أو طائرات أو أشخاصاً». وفي الوقت نفسه تقريباً التقطت وكالات استخباراتنا تعليمات من طرابلس الغرب للمكاتب الشعبية الليبية ـ وهي المعادلة الليبية للسفارات ـ من أجل تحضير الأعمال. لم نكن نعرف أي هدف كان يدور ببالهم، ولكن هذه التعليمات كانت من الأنواع نفسها التي أعطيت للمكاتب الليبية في الخارج قبل عمليات اغتيال المعارضين الليبيين في لندن عام ١٩٨٤.

بعد بضعة أيام في ٥ نيسان/ أبريل ١٩٨٦ انفجرت قنبلة في ديسكو لايتل في برلين الغربية، وهو مكان شعبي يجتمع فيه العسكريون الأميركيون، ومع أنه كان لدينا إثبات جازم عن اشتراك ليبيا في الجريمة إلّا أنه لم يكن هناك مجال للكشف عن الإثباتات دون كشف تفاصيل حسّاسة حول عمليات جمع معلومات الاستخبارات، إنهم منتقدو الإدارة

الذين ادعوا أننـا كنّا نخـترع الدور الليبي، ولكن بعـد بضع سنـوات وبعد سقـوط جدار بـرلين اعـترف الألمان الشرقيـون بمـا كنـا نعلن عنـه دائـماً: إن أوامـر التفجـير جـاءت من طرابلس.

في ١٤ نيسان/ أبريل ردت الطائرات الأميركيـة بقصف أهـداف تتعلق بالإرهـاب في ليبيـا. وكما حصـل في حادثـة أكيلي لاورو، قـامت قوة العمـل بتنسيق جميع الاحتيـاطـات البيروقراطية للغارة. ولكن ولأن هذا العمل بـدا أنه قـد تم التخطيط لـه منذ وقت أطـول فقد تولى رئـاسة المجمـوعة، بـدلاً من مكفرلـين، دون فورتيـه الذي كـان نائب مستشـار شؤون الأمن القومي. كانت الضربة أحد الخيارات الممكنة التي درسناها ضد ليبيا، لكنها لم تكن الخيار الأول، ولسوء الحظ لم يـرغب حلفاؤنـا بدعمنـا في اتخاذ تـدابير أخـرى ضد القذافي.

كـان العمل ضـد ليبيا ضروريـاً في كفاحنـا ضد الإرهـابيين، ولكن العمـل لم يكن سهلاً. كانت هناك مناقشات عديدة حول أهداف القصف، واتخذنا جميع الجهود من أجل تجنب ضحايا بريئة بين المدنيين، ولكننا كنا ندرك أن الخسائر بين المدنيـين أمر لا يمكن أن نتجنبه. كانت «الضربة الجراحية» اقتراحاً جيداً، لكنها يمكن أن تجري في ظروف حيث لا أحد يطلق النار عليك، ونـادراً ما تنجـح عندمـا تكون الأجـواء مليئة بـالأسلحة المضـادة للطائرات. عندما يتهرب الطيار من نيران الأسلحة المضادة للطائرات، ويطير بسرعة ٦٠٠ ميل بالساعة يصبح الحديث عن الدقة وهماً لا محالة.

في الأيام الماضية كان يمكن للولايات المتحدة أن تجد طريقة لاغتيال القـذافي، ولكن على الرغم مما أعلنه سيمور هيرش وصحافيون آخرون لم يكن قتله جزءاً من مخططاتنا. في الجانب الآخر لم نقم بأي محاولة لنحميه من قنابلنا، لم نستـطع أن نستهدفـه بدقـة، ولكن إذا صادف وجود القذافي في أنحاء ثكنة العزيزية في مدينة طرابلس حيث تساقطت القنابل فلن يذرف أحد الدموع عليه.

مع علمنا بأنّ أي ضربة عسكرية منفردة لن تتمكن من إنهاء مشكلة الإرهاب، فقد دمرت غارتنا على ليبيا مركز قيادة القذافي ومركـز اتصالاتـه، وكان مفعـولها النفسي كبيـراً، فقد سارع القذافي إلى الاختباء في الصحراء، وأوقف الأعمال الإرهابية حـوالى سنة، ومـع أنه ما يزال يأمل بأن يحوز على جائزة نوبل للسلام لكن يبدو أن الغارة على طـرابلس لقنته درساً قاسياً.

(١٠)
الكونترا

نادراً ما قابلت أحد عناصر الكونترا ولم أحبه. كانت المرة الأولى التي ألتقي واحداً منهم في عام ١٩٨٣ عندما تعرفت على جوان.

كان جوان ضابطاً ساندينياً سابقاً مثل جميع عناصر المقاومة النيكاراغوية، وقاتل لمدة سنوات ضد نظام سوموزا الكريه، وهذه هي القصة التي أخبرني إياها حول ظروف انضمامه إلى المقاومة.

في تموز/ يوليه ١٩٨٠ وفي الذكرى الأولى لاستيلاء الساندينيين على السلطة، أُقيم عرض عسكري كبير في ماناغوا، وعلى شرف المناسبة، زُيّنت الكنيسة القديمة والساحة المحيطة بها باللونين الأحمر والأسود وهما لونا الساندينيين، كما رفعت شعارات المطرقة والمنجل محاطة بصور لماركس ولينين وكاسترو واوغستينو سيزار ساندينو القائد الأسطوري الذي قاتل ضد مشاة البحرية الأميركية في العشرينات وأوائل الثلاثينات.

كان جوان يسير في العرض مع رجاله وذهل لما رآه، بعد كل ذلك كان الساندينيون ينكرون دائماً أنهم شيوعيون، التفت إلى الضابط المسؤول عنه وقال له:

ــ ما هذا؟

ــ أجابه: إنها الحقيقة؟

ــ فقال جوان: «ليس عليّ».

في تلك الليلة ذهب جوان وأحد عشر رجلاً من وحدته سيراً على الأقدام باتجاه الشمال إلى الهندوراس وانضموا إلى المقاومة.

لقد أصبح جوان واحداً من آلاف سماهم الساندينيون معادين للثورة أو كونترا. لم يرق هذا الاسم للثوار لأنه يوحي بأنهم يريدون استعادة نظام سوموزا القديم، كانوا فقط لا يرغبون بالعيش في المجتمع التوليتاري الذي سعى الساندينيون إلى بنائه.

ولكن الاسم غلب عليهم وكان أحد الانتصارات العديدة في المجال الإعلامي للساندينيين. فضّلت الإدارة أن تسميهم المقاتلين من أجل الحرية، ولكن الكونترا كان الاسم الشائع الذي استعمله الجميع حتى أنصارهم.

حتى اليوم ما زلت أسمع أن الكونترا قد أنشأتها وكالة المخابرات المركزية، هذا ليس صحيحاً، وبالتأكيد لم أنشئها أنا ولا ديك سيكورد ولا ديوي كلاريدج، لقد كان الساندينيون هم الذين أنشأوها.

استولى الساندينيون على السلطة بدعم من الولايات المتحدة، فقد كانت إدارة كارتر مهتمة بالتخلّص من نظام سوموزا الوحشي ـ وكان ذلك هدفاً قيّماً ـ إلى درجة أن لا أحد أراد أن يتطلع بدقة إلى كيفية القيام بذلك ومن يقوم به أو إلى أين يؤدي.

وصل الساندينيون إلى السلطة بادعاءات كبيرة حول الحرية والديموقراطية. لقد وعدوا بمشاريع كبرى حرة وانتخابات حرة وصحافة حرة وبحرية الأديان وكل ما كانت تحب أن تسمعه الولايات المتحدة. بدورها أصبحت حكومتنا المصدر الأساسي لدعمهم، خلال الأشهر الأولى للنظام الجديد أرسلنا إلى نيكاراغوا مساعدات غذائية طارئة بقيمة ٣٩ مليون دولار، وهو رقم مرتفع لدولة يبلغ عدد سكانها ٣ ملايين نسمة. قلنا لهم ابتعدوا عن السلفادور فقط ونحن سنستمر بالمساعدات. في عام ١٩٨٠ بلغت قيمة مساعداتنا لنيكاراغوا ٧٥ مليون دولار.

عندما وصل الساندينيون إلى السلطة أخذوا ينكثون بوعودهم، فخلال أشهر فقط أطيح على مستوى القيادة بكل من ليس «اشتراكياً علمياً». نحن نعلم اليوم أن الساندينيين لم تكن لهم النية في إنشاء مجتمع حر، بل كانت نيّتهم محاولة الإطاحة بحكومتي السلفادور والهندوراس.

عندما رأى الإثبات الدامغ غيّر الرئيس كارتر أفكاره حول الساندينيين، وفي الأسابيع الأخيرة من فترة ولايته الرئاسية أوقف المساعدات الأميركية لنيكاراغوا، واستأنف الدعم لحكومة السلفادور التي أصبحت الآن تقاتل من أجل بقائها.

عندما بدأت العمل في قضايا أميركا الوسطى، ذهلت في الوقت الطويل الذي استغرقناه لكي ندرك حقيقة الساندينيين. في تموز/ يوليه ١٩٨٠ وفي احتفال الذكرى السنوية الأولى لاستيلائهم على السلطة كان ضيوف نيكاراغوا: فيديل كاسترو وياسر عرفات ووفود من الدول المحبة للسلام وفيتنام وكوريا وألمانيا الشرقية، وبعد برهة تحوّلت الوعود بالحرية إلى غبار.

بدلاً من التغيير الموعود بدأ الساندينيون ينظمون نيكاراغوا بالطريقة نفسها التي اعتمدتها كوبا، حتى إن الرئيس دانييل أورتيغا عيّن شقيقه الأصغر أمبرتو وزيراً للدفاع كما فعل كاسترو مع شقيقه راوول. ومثل الكوبيين بدأ الساندينيون يبحثون عن الفرص لتصدير ما كانوا يسمونه «الثورة دون حدود».

منذ أن استبدلوا دكتاتورية سوموزا اليمينية بدكتاتوريتهم اليسارية، سيطروا على محطات الإذاعة والتلفزيون، وضعوا المزارع تحت إدارة الدولة، وأنشأوا نظاماً للتجسس على المنازل، أداروا صحيفة لابرنسا وهي الأوسع انتشاراً في البلاد، وأقفلوا محطة الإذاعة الكاثوليكية، حاربوا الكنيسة ومنعوا نقل القداس على الإذاعة والتلفزيون، أنشأوا بوليساً سرياً وبدأوا بمصادرة الملكية الفردية. لقد قتلوا، وسجنوا، ونفوا المعارضين السياسيين، وقاموا بحملة تطويع وطنية وضمّوا الأطفال إلى منظمات الشباب، وأرسلوا النخبة منهم لمتابعة دورات على العقيدة في الاتحاد السوفياتي وكوبا وبلغاريا وألمانيا الشرقية.

ومثل بقية الدكتاتوريات الشيوعية، خصّص الحكام الجدد أنفسهم بأفضل المنازل وخزّنوا فيها أفضل أنواع النبيذ الفرنسي والكافيار الروسي. كانت تلك المظاهر ولكنها تختلف عن الواقع: إن أكبر الرأسماليين لا يستطيع أن يباري الشهوات المادية للمحظيين من الشيوعيين.

في أول رحلة لي إلى ماناغوا، روى أحد المعارضين السياسيين للنظام طرفة شائعة عن توماس بورج، وهو ابن عائلة من الفلاحين، والذي أصبح وزيراً للداخلية، ومثل العديد من رفاقه الساندينيين خصص لنفسه منزلاً كان لأحد المسؤولين السابقين في نظام سوموزا، عندما حضرت والدته لزيارته أخذ يريها وبكل فخر حوض السباحة والمطابخ الكبيرة وصالة الضيوف والحدائق الواسعة والخدم وغيرها، وفي أثناء الجولة التفتت الأم إلى ابنها والدموع تنهمر من عينيها:

قال: ماما ماذا حل بك؟

فأجابته: أوه يا توماس إنه جميل جداً، ولكن قل لي ما هو مصير كل هذا عندما تحدث الثورة؟

عندما أصبح رونالد ريغان رئيساً عام ١٩٨١ عرض على الساندينيين فرصة أخيرة من أجل سحب دعمهم للثوار في السلفادور والقيام بالإصلاحات الديموقراطية التي وعدوا بها. لم يبد الساندينيون أي تجاوب، وبدأوا يتلقون الدعم من قائمة طويلة من الحكومات: كوبا والاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشيوعية في أوروبا الشرقية وإيران وحتى

فرنسا ولا ننسى ليبيا. خلال عهد أورتيغا أعطى الليبيون عدة مئات من ملايين الدولارات كمساعدة اقتصادية لنيكاراغوا بالإضافة إلى المساعدات التكنولوجية والأسلحة والمساعدات العسكرية.

في آذار/مارس ١٩٨١ سمح الرئيس ريغان لوكالة المخابرات المركزية بأن تدعم الثوار النيكاراغويين الذين كانوا في الهندوراس يعارضون النظام الساندينى. وقد وافق الكونغرس على التمويل حتى يتمكن أولئك المقاتلون من اعتراض الأسلحة والإمدادات القادمة من نيكاراغوا إلى ثوار السلفادور.

في صيف عام ١٩٨١ عين كايسي دوان كليردج، وهو ضابط متمرس في الأعمال السرّية ورئيس محطة سابق في وكالة المخابرات المركزية، ليكون صلة الوصل مع رجال المقاومة. رسمياً كانت صفة كليردج الجديدة رئيس فرقة أميركا اللاتينية في وكالة المخابرات المركزية.

قال لي كليردج فيما بعد: «لقد قلت لكايسي، إن هذا جيد، ثم تناولت الأطلس وبحثت في الخرائط عن الدول التي نتحدث عنها».

كان كليردج جاسوساً مثالياً عمل تقريباً في كل مكان، استلم وظائف عديدة ونفّذ مهمات كبيرة. كانت خبرته في الأعمال السرية عالية جداً، وأشيع أن سجله الشخصي كان يتألف من اسمه وثلاث صفحات بيضاء.. كان له أسلوب رائع وكان مشهوراً في واشنطن بملابسه الأنيقة. في إحدى المرات القليلة التي شاهدت فيها كليردج غاضباً كانت عندما قال عنه أحد الصحافيين إنه مَثُل أمام الكونغرس وهو يرتدي بزّة «بوليستر»، غضب وكأنّ أحداً قال عنه إنه شيوعي..

كان كليردج وكايسي يشتركان في الكثير من الصفات ومن ضمنها عدم الاهتمام بالكونغرس. ولكن وعلى العكس من معظم الناس الذين كان عليهم أن يقوّموا شهاداتهم أمام لجان الكونغرس، لم يحاول كليردج أن يخفي مواقفه، لقد كنت معه في مناسبات عديدة عندما سأله الشيوخ والنواب والموظفون أسئلة تافهة مبنيّة على قصص صحافية عن أعمال منسوبة إلى وكالة المخابرات المركزية.

في واشنطن ـ وهي تعتبر مدينة اللياقات ـ كان الجواب اللائق: «شكراً لسؤالك أيها السناتور، ليس لديّ علم عن ذلك، ولكن يمكنني أن أؤكد لك يا سيدي أني سأبحث الأمر بعمق لدى عودتي إلى مكتبي، أنا متأكد من أنني سأقدم إليك تقريراً كاملاً صباح الغد، فليكن لديك ثقة تامة بأننا في وكالة المخابرات المركزية نشاركك القلق حول هذا الموضوع».

كانت إجابات كليردج موجزة جداً. «هذا مجرّد هراء».

في صيف ١٩٨١ طلب كايسي من كليردج أن يقدم بعض التوصيات بشأن الوضع في أميركا الوسطى. قال دوان: يمكننا أن نحاول منع إمدادات السلاح من نكياراغوا إلى السلفادور، ولكننا لا نستطيع قطعها كلياً، أمّا إذا استطاعت المقاومة أن تشغل الساندينيين فعندئذٍ يصعب عليهم أن يركزوا كل اهتمامهم على السلفادور، وبكلمات أخرى يجب أن ننقل الحرب إلى داخل نيكاراغوا.

عندما سمع كايسي ذلك أدرك أنه وجد الرجل المناسب.

في ذلك الوقت كانت المقاومة المعادية للساندينيين على الحدود بين الهندوراس ونيكاراغوا تتلقّى الدعم من ضباط أرجنتينيين وعدد من المتطوعين. كان العسكريون الأرجنتينيون قد قاتلوا في حرب ضارية ضد ثوار المونتينيرو الشيوعيين، وقد لجأ بعض هؤلاء الثوار إلى نيكاراغوا التي سرعان ما أصبحت ملاذاً لجميع الإرهابيين على سطح الكرة الأرضية: الألوية الحمراء من إيطاليا وم ١٩ من كولومبيا وعصابة بادرماينهوف من ألمانيا والليبيون وشينشينرو من الهندوراس وسندرو لومينوسو من البيرو والجيش الجمهوري الإيرلندي وعدة أجنحة من منظمة التحرير الفلسطينية، وكنت قد قرأت في أحد التقارير عن نيكاراغوا وصفاً لاشتباك بالأسلحة النارية بين مجموعتين فلسطينيتين..

اجتمع كايسي مع الجنرال ليوبولدو غاليتري، رئيس المجلس العسكري الحاكم في الأرجنتين، واقترح عليه أن تساهم الولايات المتحدة في دعم نشاطات الثوار المعادين للشيوعية. سرّ غالتيري بذلك، ولكنّه كان حذراً من سمعة الأميركيين في التخلي عن أصدقائهم وأعطى كايسي تحذيراً: لا تتورّطوا في ذلك إلا إذا جهّزتم أنفسكم للمضيّ في هذا الطريق.

بعد شهر وقّع الرئيس مذكرة سريّة للغاية سمحت لوكالة المخابرات المركزية أن تبدأ بمساعدة الثوار مباشرة. عام ١٩٨٣ وبسبب الحرب في الفوكلاند أوقفت الأرجنتين دعمها، ومنذ ذلك الوقت أصبحت المقاومة النيكاراغوية في أيدي وكالة المخابرات المركزية.

ومع هذا لم يكن أحد من أعضاء حكومتنا يأمل بالكثير من المقاومة النيكاراغوية. كانت القوة العسكرية الساندينية أكبر من جميع الجيوش في أميركا الوسطى مجتمعة، وقد جهّزها السوفيات بالدبابات وطائرات الهليكوبتر الهجومية والمدفعية بعيدة المدى وناقلات الجند المدرّعة وأجهزة اتصالات متطورة.

فيما بعد وبعد أن نمت المقاومة نمت أهداف الإدارة الأميركية معها إلى درجة اعتقدنا

معها أنه بإمكانها الضغط على ماناغوا لتحقيق تغييرات ديموقراطية، وفي النهاية هذا ما حدث في نيكاراغوا.

بدأت مشاركتي في أعمال أميركا الوسطى في ربيع عام ١٩٨٢ عندما طلب منّي روجيه فونتين، رئيس قسم أميركا اللاتينية في مجلس الأمن القومي، أن أعدّ الجانب العسكري في تقرير لمجلس الأمن القومي عن سياستنا في أميركا الوسطى. أعجب كلارك بالنتائج، وطلب منّي أن أبدأ بحضور ندوة صباح كل سبت عن أميركا الوسطى. هذه الاجتماعات ـ غير الرسمية ـ كانت تعقد في وكالة المخابرات المركزية، وكان يستضيفها وليم كايسي في قاعة الاجتماعات في الطابق السابع من مبنى قيادة الوكالة. كانت جين كيركباتريك تحضر عادة مع كليردج وفريد أيكل والجنرال بول غورمان وتوم أندرز من وزارة الخارجية وبضعة آخرين. عندما وصلت إلى مجلس الأمن القومي كنت أعرف القليل عن أميركا الوسطى، ولكني كنت أقرأ مثل المجنون وأنتبه كثيراً إلى خطابات وكتابات جين كيركباتريك والآخرين. وكنت كلّما تعلمت أكثر كلّما وجدت مزيداً من الأسباب التي ترغمنا على التدخل.

لم أكن خجولاً وفي لقاءات السبت بدأت أطرح الأسئلة وأقدم التعليقات بين وقت وآخر. لقيت بعض أفكاري استحساناً، وسرعان ما دعيت إلى اجتماعات أخرى، ومن ضمنها حلقات دراسية في وكالة المخابرات المركزية حول تدريب حركات المقاومة المناهضة للشيوعية.

في أوائل عام ١٩٨٣ عندما قرّر البابا يوحنا بولس الثاني زيارة أميركا الوسطى، طُلب إليّ أن أعمل كضابط ارتباط من قبل حكومتنا لجمع المعلومات حول التهديدات التي أشيعت عن محاولة قتله، لم يتعرض البابا لأي أذى في نيكاراغوا، ولكن عندما تكلم أمام جمهور في ماناغوا تصدّت له مظاهرات صاخبة وأوقفته عن الكلام. لقد تحوّل الأمر إلى كارثة على الساندينيين على الصعيد المحلّي وعلى صعيد العلاقات الدولية.

أدت الأحداث المشابهة لمعاملة الساندينيين للبابا إلى اقتناع كايسي وكيركباتريك وكلارك ووينبرغر أن الوضع في أميركا الوسطى يحتاج إلى جهد كبير من الولايات المتحدة أكثر من مجرد الاحتواء. كان واضحاً أن السوفيات والكوبيين يستعملون نيكاراغوا كقاعدة آمنة للانطلاق في الهجوم على هدفهم التالي: السلفادور.

وكان واضحاً أيضاً أن استراتيجية استخدام المقاومة لقلب المكاسب الشيوعية في نكياراغوا سوف تأخذ وقتاً طويلاً. في هذه الفترة كانت السلفادور تعاني من خطر الانهيار. لذلك طلب مني القاضي كلارك أن أحضّر مذكرات على مختلف الأصعدة، وطلبات

للسلطة التشريعية لدعم زيادة الوجود العسكري الأميركي في المنطقة وخصوصاً في السلفادور.

في ذلك الوقت كانت السلفادور محصورة بين الثوار الشيوعيين من اليسار وحضائر الموت المتوحشين من اليمين، وتحت ستار العداء للشيوعية أرهبت حضائر الموت البلاد بأكملها فاغتالت الراهبات والمعلمين والنقابيين والمعارضين السياسيين وآلاف المدنيين. بعض المسؤولين في واشنطن وفي سان سلفادور فضّلوا أن يمسحوا تلك المأساة بخرقة، وحاولوا نفي التقارير المتعلّقة بحضائر الموت، ولكن قسماً كبيراً منها كان صحيحاً.

قمت برحلات عديدة إلى السلفادور، وفي صيف ١٩٨٣ كتبت تقريراً عن حضائر الموت. من خلال حديثي مع سفيرنا ومع عناصر مركز الارتباط العسكري الأميركي وعناصر وكالة المخابرات المركزية الذين كانوا يعرفون المنطقة، بدا واضحاً أنّ الاتهامات بالقتل كانت تنسب إلى قائد التحالف الوطني الجمهوري اليميني المعروف أرينا.

عند عودتي إلى واشنطن التقيت بأولئك الذين كانوا يحثّون الكونغرس على دعم السلفادور. قلت لهم: ابحثوا عن هذا الشخص وعن جماعته، لا تحاولوا إخفاء المشكلة، إن حضائر الموت حقيقة واقعة ويجب وقف نشاطها. نعم يجب أن ندعم المقاتلين ضد الشيوعية، ولكن هدفنا النهائي ليس فقط أن نمنع أميركا الوسطى من أن تكون شيوعية، بل أن نساعد تلك البلدان على أن تصبح ديموقراطية حقاً. لقد عرضت النقطة ذاتها بإيجاز أمام أعضاء الكونغرس وأمام موظفيهم. كان معظمهم منفتحاً على الإثباتات مع أن اثنين أو ثلاثة من الموظفين قالوا لأعضاء الكونغرس الذين يعملون لديهم إنني متهاون أمام الشيوعية، ولقد قيل عني الكثير ولكن ذلك كان أول ما قيل.

كان الرأي السائد في الكونغرس أن الطريقة اللازمة لمحاربة حضائر الموت هي سحب الوجود العسكري الأميركي من السلفادور والذي كان عبارة عن ٥٥ مستشاراً عسكرياً. لم أوافق على ذلك، كنت دائماً أستاء من النظرة السائدة من أنّ العسكريين الأميركيين يتورّطون في أجواء من أعمال العنف والإرهاب. هل عرف عن العسكريين الأميركيين اشتراكهم في أعمال إجرامية ضد مدنيي إحدى الدول؟ هل الولايات المتحدة مليئة بمخالفي حقوق الإنسان إلى درجة أن جنودنا يشكلون تهديداً مزعجاً للدول الأخرى؟

في أماكن مثل السلفادور كان المستشارون العسكريون الأميركيون يمارسون نفوذاً معتدلاً. كانت هناك طرق عديدة للقضاء على الثورة الشيوعية دون قتل أناس أبرياء، ولكنّ العسكريين السلفادوريين كانت تنقصهم الخبرة والانضباط. في ذلك الوقت كان

هـذا الجيش قد أعـدّ لتنفيذ أحـد أمرين: السـير في الاستعراضـات العسكريـة في الأعياد الوطنية، وتنظيم الانقلابـات العسكريـة. كانت وحـدة الكشّاف التي ينتمي إليهـا ابني قد نفّذت مخيمات تدريب على الطبيعة أكثر من هؤلاء العسكريين.

قال معارضو الإدارة في الكونغرس إنه يجب أن لا ندرب العسكريـين السلفادوريـين لأنهم كانوا عديمي الانضباط، ولكنّ السبب الوحيد في عـدم انضباطهم هـو أنه لم يسمـح لنا بتدريبهم.

في كانون الأول/ ديسمـبر ١٩٨٣ عيّنت ممثـلاً لمجلس الأمن القــومي في رحلة إلى السلفادور قام بها بوش نائب الرئيس. بـدا واضحاً أنـه إذا لم يجر شيء مـا لوقف حضـائر الموت عند حدّها لضمان الفترة الانتقالية نحو الحكم الديموقراطي فـإنه يجب إنهاء المسـاعدة العسكرية الأميركية للسلفادور في أقرب وقت.

لقد كُلِّف نائب الرئيس بوش بعمل لا يحسد عليه وهو تسليم هـذه الرسـالة، وقـد عينت أنا وطوني موتلي مساعد وزيـر الخارجيـة لشؤون أميركـا اللاتينيـة. أقلعنا من قـاعدة أندروز الجوية نحو الأرجنتين لحضور حفل الخطاب الـذي سيلقيه الرئيس ألفونسين الذي انتخب بطريقة ديموقراطية، ثم اتجهنا نحو الشمال إلى أميركا الوسطى. خلال فترة الـطيران طبعت أنا وموتلي نقاط المحادثات المقرّرة لنائب الرئيس مع رئيس السلفادور ألفارو مـانيا، وقدّمنا إيجازاً لنائب الرئيس عن الوضع هناك. وفي طريقنا إلى السلفـادور توقّفنـا في بانـاما حيث عقد بوش اجتماعاً في المطار مع الرئيس دي لا اسبريـلا والجنرال مـانويـل نوريبغـا. ذكر نائب الرئيس بوش نوريبغا أنـه عائـد للتوّ من حفـل انتقال ديمـوقراطي في الأرجنتـين وحثّ على أن يحدث الشيء نفسه في باناما.

جلس نوريبغا هنـاك صامتـاً مثل أبي الهـول، وفي استعادة لـلأحداث المـاضية كـان واضحاً أنه لم يتلق الرسالة.

كنت قد التقيت مع نوريبغا من قبل ثم اجتمعت معه مرات عديدة.. عندمـا كنت أصطحب زائراً رفيع المستوى إلى المنطقة، كايسي أو وينبرغر أو أي مسؤول كبير آخر، كنا نتوقف دائماً في باناما للاجتماع مع نوريبغا. كانت الرسـالة من جـانبنا هي دائـماً: يجب أن تسود الديموقراطية في باناما.

اجتمعت به مرة في لندن بعد أن أبلغني أحد الوسطاء أنه يـريد أن يسـاعد المقـاومة النيكـاراغـويـة، ولكن ذلـك الاجتـماع لم يؤد إلى نتيجـة، كنـا نبحث عن دعم ملمـوس للكونترا، بينما كان مهتماً بأشياء أخرى مثل الرشاوى والاغتيالات. عندما كنـا جالسـين في

صالون أحد فنادق لندن قلت له: على الرغم من كرهنا للقيادة الساندينية فإننا لا نريد التورط في الاغتيالات. ولكن إذا كان نورييغا يرغب في المساعدة على تدريب وحدات الكونترا ويؤمن لهم الدعم اللوجستي ويسمح لهم باستخدام إمكانياته من أجل تدمير أهداف ساندينية في ماناغوا فإننا بالتأكيد سوف نعوّضه عن جهوده.

خلال ترتيب هذا الاجتماع أكد لي الوسيط أن نورييغا أراد مساعدتنا من أجل «تحسين صورته»، ولكنّي كنت فظّاً معه. كانت هناك تقارير تفيد أنه متورط في تهريب المخدرات والاغتيالات، وأن له علاقات مع شركات كوبية تعمل في باناما. يجب أن يتوقف كل هذا، قلت له إن أفضل شيء يقوم به هو أن يتراجع ويسمح لديموقراطية حقيقية أن تولد في بلاده، لكنه لم يصغ إليّ ولا إلى أي أحد آخر يحمل الرسالة نفسها.

بالنسبة إليّ كان أحد أبشع المظاهر في قضية كونترا - إيران هو أن البعض كانوا يصفون طريقتي في الاجتماع بنورييغا بأننا كنّا نشكل نوعاً من التحالف. لكننا لم نكن كذلك، كان نورييغا أحقر شخصية كان عليّ أن أتعامل معها، وبعد كل اجتماع معه كان عليّ أن أذهب إلى المنزل وآخذ حماماً.

بعد الاجتماع مع نورييغا أقلعت طائرة نائب الرئيس إلى سان سلفادور حيث هبطت بعد عاصفة ممطرة. كان الهواء ساخناً والرطوبة ١٥٠٪. وقفنا متأهبين نتصبب عرقاً بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف ما بدا أنه مائتي مقطع من النشيد الوطني السلفادوري، ثم توجّهنا إلى منزل الرئيس حيث كانت غرفة الاجتماعات تشبه قاعة السينما بسقفها العالي ومراوحها البطيئة.

في بداية اجتماعه مع نائب الرئيس بوش سأله الرئيس مانيا ما إذا كان يعترض على توجيه رسالة الرئيس ريغان حول حقوق الإنسان مباشرة إلى القادة الميدانيين في السلفادور فوافق نائب الرئيس على اقتراحه.

خلال الاستراحة توجّهنا جميعاً - ما عدا القادة الاثنين - نحو الطابق الأعلى حيث شربنا زجاجات من الكوكا كولا مع الليمون، بعد برهة اجتمع نائب الرئيس على انفراد مع مانيا، وكان هذا من عادة بوش قبل أن يصل إلى الرئاسة بوقت طويل فقد كان لديه ميل إلى تطوير علاقة شخصية فاعلة مع القادة الأجانب.

بينما كان الرجلان يتحادثان في غرفة الاجتماعات سمعنا هرجاً في الباحة السفلى، كنت أقف إلى جانب الأميرال دان مورفي رئيس أركان نائب الرئيس عندما حضر رئيس الجهاز السرّي وهو يركض على الدرج قائلاً: «القادة هنا وهم مسلحون، لا يمكن أن

نسمح لهم بأن يدخلوا مع أسلحتهم!».

كان عميل الجهاز السرّي على حق في قلقه، لم تكن أميركا اللاتينية أكثر الأمكنة استقراراً على الأرض، وكان نائب الرئيس الأميركي جورج بوش على وشك أن يعقد اجتماعاً غير مبرمج، كان هناك حوالى ثلاثين قائداً مسلحاً، ومن المحتمل أن يكون لأحد هؤلاء القادة علاقة مع حضائر الموت، وأنهم لن يكونوا سعداء بالرسالة التي كان بوش على وشك أن يوجهها إليهم.

تصاعد الضجيج من حول قاعة الاجتماعات إلى درجة أن خرج بوش وقال: «ما هي المشكلة؟ نحن نحاول أن نتكلم هنا».

قال مورفي: «هؤلاء الناس لديهم أسلحة سيكون من الخطر أن يعقد الاجتماع هنا».

قال بوش: «انظر، هذا الاجتماع ضروري جدّاً، والرئيس مانيا يريد أن نعقده، ونحن نريد أن نعقده بالطريقة التي يريدون».

تكلم نائب الرئيس بطريقة فظّة دون ملاحظات ودون لياقات دبلوماسية، وأوضح أنه إذا كانت السلفادور مهتمة بالحصول على المزيد من المساعدات الأميركية، فإنه يجب وقف عمل حضائر الموت، ويجب معاقبة قتلة الراهبات الأميركيات وقادة النقابات. كان الجو متوتّراً في تلك القاعة عندما كان بوش يوجه الرسالة إلاّ أنه تكلم بهدوء وقوة وتصميم. كان بعض القادة الذين التقاهم بوش غاضبين، لقد شعروا بالإهانة لأن مسؤولاً أميركياً كبيراً يقول لهم ما هو الخطأ في بلادهم، لم يتوقعوا سماع ذلك.

كانت عملية غرانادا قد حصلت منذ أسابيع، وكان بعض هؤلاء يأمل بأن القوات الأميركية سوف تشترك معهم في محاربة الثوار أو عرابيهم الساندينيين. ولكن رسالة بوش كانت مختلفة: سوف ينتهي كل شيء إذا لم تنظّفوا صفوفكم.

في ما بعد وخلال الحملة الانتخابية الرئاسية عام ١٩٨٨ وعندما سمي جورج بوش «المتطفل» كنت أستعيد تلك اللحظة، فأنا أعرف «المتطفّل» عندما أراه، ولكن جورج بوش لم يكن «متطفلاً».

كانت نتيجة زيارة بوش للسلفادور غير مثمرة، فحضائر الموت لم توقف عملها بشكل كامل، وقد بدأت وزارة الخارجية ببرنامج إصلاحات قضائية من أجل تدريب وحماية القضاة والمدعين العامين والمحققين.

فتحت تحقيقات بصدد عددٍ من حوادث القتل الماضية، وربما كان الأكثر أهمية هو

إجـراء الانتخابـات كما كـان مخطّطاً لهـا. اشترك في التصويت أكثر من ٨٠٪ من السكـان وأصبح نابليون دوارت الرئيس المنتخب ديموقراطياً في السلفادور.

بـدأت العمـل في قضـايـا أمـيركـا الـوسـطى عـام ١٩٨٢، وازداد تـورّطي بشكـل دراماتيكي في السنة الـلاحقة، عنـدما طلب مني كـلارك أن أعمل كضـابط ارتباط لمجلس الأمن القـومي في لجنة كيسنجـر*. كان واضحـاً أنه يحـترم إمكانيـاتي، ولكن أحد أسبـاب اختياري هو أنّ موظفي مجلس الأمن القومي لم يكونوا راغبـين أو متهافتين عـلى العمل في قضايا أميركا الوسطى. إنها مسألة غير رابحة لأن الحكومة كانت منقسمة بعمق حول كيفية مساعدة شعوب أميركا الوسـطى للتحرك نحـو الديمـوقراطيـة. في خضم هذه البلبلة وحتى حلول العـام ١٩٨٣ كان هنـاك شيء واضـح وصريـح: رونـالـد ريغـان يـدعم المقـاومـة النيكاراغوية.

ترأس هنري كيسنجر اللجنة الرئاسية حول أميركا الوسطى، وكانت مواجهتي الأولى معه مربكة. في أحد الاجتماعات الأولى التي عقـدت في مجلس الأمن القومي طلب منّي أن أقـدم إيجازاً عن حـركات المقـاومة المعـادية للشيـوعية في العـالم. كنت غالبـاً أستخدم آلـة الإسقاط لعرض صور ومخططات من أجل تقوية الإيجاز، ومن أجل تحضير ذلك كان عـليّ أن أتناول علبة أفلام والتي لم تكن فارغة تماماً.

عندما بدأت بعرض الأفلام كنت أقدّم عرضي دون أن أدير وجهي إلى الشاشة، كل شيء كان يجري بشكل ممتاز، إلى أن سمعت صوتاً جهورياً بلهجة ألمانيـة يعلو من الخلف في تلك القاعة المظلمة.

قال الصوت: رائد نورث.. لم أكن أعلم عن حركات مقاومة معادية للسـوفيات في النرويج؟

قلت: آه.. عفواً يا سيّدي إنه فيلم خطأ.

لقد سامحني الحضور لأنه عندما سافرت لجنة كيسنجر إلى أميركا الوسطى والمكسيـك

---

* بالإضافة إلى الدكتور كيسنجر الذي ترأسها ضمت اللجنة جين كيركباتريـك وجيم رايت، وهو عضـو ديمـوقراطي في الكـونغـرس في ولايـة تكسـاس والـذي أصبح فيـما بعـد رئيس مجلس النـواب، وبيت دومنسيني، سناتور جمهوري من أريزونا، وميشال بارنر، عضو ديموقـراطي من ولاية مـاريلانـد، وعضو الكـونغرس الجمهـوري جاك كمبـا، وجون سيلبر رئيس جـامعة بـوسطن، ووليم والش رئيس مشروع الأمـل، وبيل كليمنش حـاكم ولاية تكسـاس سابقـاً (ولاحقاً)، وروبـرت شتراوس من زعـماء الحـزب الديموقراطي، وبوتر ستيوارت عضو متقاعد في مجلس القضاء الأعلى وآخرين..

ذهبت معهم وساعدت على ترتيب اجتماعات مع قادة المعارضة. كان أحد توقفاتنا في ماناغوا والتي كانت في ذلك الوقت مكاناً مزعجاً، فبعد ٤٠ سنة من القمع في ظل سوموزا، وبعد هزة أرضية عنيفة، وأربع سنوات من حكم الساندينيين، أصبحت نيكاراغوا ثاني أفقر بلد في نصف الكرة الغربي، بل كانت هايتي فقط أسوأ منها.

كانت اجتماعاتنا مع الساندينيين مضيعة للوقت، كانوا يتكلّمون ساعات عن شكواهم منّا، وكنّا نسألهم أسئلة محرجة حول حقوق الإنسان والحرية، وعن دعمهم للثوار في الدول المجاورة في الهندوراس والسلفادور. لقد ازداد بغضنا لبعضنا البعض ولم نتفق حتى على عدم الاتفاق.

خلال أحد هذه الاجتماعات شرح وزير الخارجية النيكاراغوية ميغيل ديسكوتو، وهو راهب كاثوليكي سابق، بشكل مطوّل عن الجرائم التي ارتكبتها الولايات المتحدة ضد نيكاراغوا وبقية العالم الثالث، قال إن نيكاراغوا بلد محب للسلام ـ لا أذكر بالضبط كيف قال ذلك لأنني توقفت عن الانتباه له ـ عندها قفز السناتور دومنسيني الذي كان يجلس إلى جانب كيسنجر على رجليه بسرعة بحيث وقعت الكرسي وصرخ: «أنت تكذب» مما أيقظ عدداً من أعضاء اللجنة. وأضاف: «عندما أتيت لتراني عام ١٩٧٨ كنت تلبس لفّة عنق، قلت لي إنك راهب مضطهد واصطحبتك لمقابلة زملائي، وأنت أقسمت أنك وزملاءك أردتم التخلص من سوموزا فقط، لقد ساعدناك، والآن انظر ماذا فعلت أنت تحتجز معارضيك وتهدّد جيرانك، أنت تبني جيشاً قوياً، أنت لست سوى مهرطق، أنت كذبت في ذلك الوقت وأنت تكذب الآن». صمت ديسكوتو واصفرّ لونه وجلس ووضع يده على صدره وبدا وكأنّه تعرض لنوبة قلبية، وظل كذلك إلى أن غادر دومنسيني القاعة حيث بدء يستعيد لونه.

كانت نورا استورغا تجلس خلف ديسكوتو عندما بدأ دومنسيني بالسباب والشتائم ولم تحرك جفناً. كانت بطلة واسماً معروفاً في نيكاراغوا عند الساندينيين نظراً لدورها في مقتل أحد كبار الجنرالات في نظام سوموزا، لقد استدرجته إلى غرفة نومها حيث كان يكمن له بعض الساندينيين الذين قتلوه بوحشية، واستناداً إلى هذه القصة، قطعوا لسانه ثم قطعوا عضوه التناسلي ووضعوه داخل فمه. لقد اقترح تعيينها سفيرة في الولايات المتحدة لكن إدارة ريغان رفضت أن تقبل أوراق اعتمادها، ولقد أصبح ذلك موضوع ضحكٍ بين عدد من داعمي الساندينيين في مجلس الشيوخ الذين كانوا على علاقة وثيقة مع نورا استورغا، والتي أصبحت ممثلة نيكاراغوا في لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان في الأمم المتحدة.

وقد اجتمعنا مع داني بوي* نفسه والذي سرد لنا شكواه حول شرور الأمبريالية الأميركية. بدا لي أورتيغا وكأنّه موظف إداري بليد وجاف، ومنهمك بأعماله الإدارية عندما كان يتحدث مستعملاً النصّ المحضّر مسبقاً، كان من الصعب أن يتخيل أنه كان زعيماً ثورياً، لقد ذكّرني بالطرفة التي تقول: «عندما يدخل ذلك الرفيق إلى الغرفة تشعر كأن ثلاثة قد غادروها». ولكنه بالتأكيد كان يعرف كيف يتصرّف وسط الجماهير، عندما يكون أتباعه في الخارج ينشدون «أورتيغا. أورتيغا» يتحوّل إلى رجل فخور واثق من نفسه وعلى قدر المسؤولية.

لقد تقربت إدارة ريغان بشكل صحيح من نيكاراغوا وقمنا بعمل جيّد لنبيعهم هذا التقرب. وفي ضوء التزام الرئيس الصلب بمساعدة الكونترا لماذا لم نستطع إقناع الجميع بذلك؟ لسبب واحد، هو أنه لم يتفق الجميع في الإدارة مع آراء الرئيس. كان جورج شولتز يعتقد أنه يمكن حل المسألة بالمفاوضات، ورأى ريتشارد ويرتلين، وهو من أركان البيت الأبيض، أن نيكاراغوا قضية خاسرة وشجّع مستشاري الرئيس أن يتركوها وشأنها. باستثناء كايسي وكلارك رأى معظم عناصر الحلقة الداخلية للرئيس أن الكونترا مسؤولية سياسية وقد كانت كذلك فعلاً، ولم يعتقد الآخرون أن نيكاراغوا هي تهديد جدي على الرغم من أن السوفيات كانوا يمدونها بمساعدات عسكرية تبلغ قيمتها ٢,٥ بليون دولار.

في وزارة الخارجية كان هناك بعض المسؤولين الذين لم يتخلوا عن تعاطفهم مع الساندينيين ورفضوا الاعتراف بأنّ الساندينيين شيوعيون، واستمروا بالإصرار على أن الحكام الجدد لنيكاراغوا كانوا مجرد ديموقراطيين اشتراكيين وإصلاحيين، حتى بعد ظهور الدلائل الواضحة. لقد شعروا أن أي حكومة في نيكاراغوا كانت أفضل من النظام الفاسد الذي أطاح به الساندينيون، لقد كانوا على حق ـ تقريباً أي حكومة ـ ولكن ليس هذه الحكومة.

وكان الأمر كذلك بالنسبة إلى العديد من الأميركيين. كان الرئيس بوش على حقّ عندما صرح على أثر الحرب مع العراق في أوائل عام ١٩٩١ بأنّ ظاهرة فيتنام قد انتهت. كان مشهد فيتنام مؤثّراً خلال سنوات ريغان، إلى درجة أن العديد ـ ومن ضمنهم بعض مسؤولي الإدارة ـ كانوا يعتقدون أن أي مساعدة نقدمها للمقاومة النيكاراغوية سوف تقرّبنا من مرحلة إرسال قوات إلى حروب في الأدغال.

كان معارضو المقاومة يتخوفون من ذلك ويتحدثون عن فيتنام في كل مناسبة،

---

* داني بوي: لقب الشاب الوسيم، والمقصود به أورتيغا (المترجم).

وصرّحوا بأن ليس لنا مصلحة بالتدخل في البلدان الأخرى (يبلغ عدد سكان نيكاراغوا ٣ ملايين نسمة فكيف تشكل تهديداً للولايات المتحدة؟) حتى إنّ مساعدة صغيرة للكونترا كانت تعتبر خطراً، وتذكروا هكذا بدأنا نتورط في حرب فيتنام.

كانت هذه كلمات تحمل معنى الخوف ولكنها لم تكن صحيحة، على العكس كان دعم الكونترا الضمان الأفضل لعدم إرسال وحدات أميركية إلى أميركا الوسطى. قال الفونسو روبيلو، أحد قادة المقاومة، ذلك بشكل أفضل عندما قابل الرئيس ريغان في البيت الأبيض «كل ما نريد هو مساعدتكم، إنها بلدنا ونحن نقاتل من أجلها ونريد أن نضحي بدمائنا من أجل استعادتها». لم يطلب معظم عناصر الكونترا منا إرسال قوات، ولم يفكر أيّ أحد من إدارة ريغان بذلك*، ولكن كان هناك بعض اليمينيين الذين اقترحوا أنه من الأفضل أن ندع الساندينيين يسيطرون بحيث نلوم اليسار على فقدان أميركا الوسطى، وعندها فقط نضطر إلى إرسال مشاة البحرية.

أما اليساريون فقد توصّلوا إلى استنتاج مشابه بطريقة أخرى: يجب أن لا نساعد الكونترا، إنهم لا يستحقون ذلك، وإذا ساءت الأمور هناك أكثر يمكننا أن نرسل مشاة البحرية.

ليس المهم من أي جهة كانت هذه الأفكار تأتي، المهم أنّي كنت متخوّفاً من هذه المواقف: إرسال مشاة البحرية؟ لقد كنت من مشاة البحرية، وبدا ذلك جنونياً بالنسبة إليّ، إذا كانت الحرب هي البديل الوحيد فأرسلوني.. أنا أتقنها.. ولكن طالما أن النيكاراغويين أنفسهم كانوا يرغبون بالمخاطرة بحياتهم بالهجوم على الساندينيين، وكل ما كانوا يطلبونه منا هو الدعم، ألم يكن ذلك خياراً أفضل؟

اليوم يقتصر دعم الماركسية على بضعة دول فقيرة وبعض أساتذة الجامعات الأميركية، من الصعب أن نفهم شعبية الساندينيين بين قادة الرأي في أميركا. ولكن في بعض الدوائر كانت المعادلة واضحة وبسيطة: إذا كانت حكومة الولايات المتحدة تعارض الساندينيين إذاً يجب أن يكون الساندينيون جيدين، والأكثر من ذلك لقد كان الساندينيون ثوريين. لقد ظهروا على أنهم مثاليون، بعضهم كان في سجون نظام سوموزا وقد عومل

---

* ولم يفكر الرئيس بذلك أيضاً على الرغم من اعتقاد العديد من الديموقراطيين في الكونغرس بأن ريغان كان يفتش عن سبب لغزو نيكاراغوا، ففي مؤتمر صحافي في شباط/ فبراير ١٩٨٢ سئل الرئيس عن احتمال إرسال وحدات أميركية إلى أميركا الوسطى فأجاب: «ربما إذا أسقطوا قنابلهم على البيت الأبيض عندها أصبح مجنوناً».

بوحشية بالغة، وكان العديد منهم وسيمين ومعظمهم كانوا من الشباب، كان لهم تألق ظاهر ورشاقة جسدية. خلال زيارتهم للولايات المتحدة كان المسؤولون الساندينيون، وخصوصاً أورتيغا، يحبون السفر والسياحة، وكان الرئيس أورتيغا يتسوّق في شارع روديو وفي الجادة الخامسة ويشتري أفضل حاجيات الثوار وهي - النظارات الشمسية -.

تلقى الساندينيون معاملة لطيفة غير عادية من الصحافة الأميركية مع بعض الاستثناءات. القليل من الصحافيين أزعجوا أنفسهم وبحثوا في صحة ادعاءات الساندينيين، خصوصاً حول خرق ثوار الكونترا لحقوق الإنسان. بالتأكيد كان هناك بعض الخرق كما يحصل في كل حرب، ولكن الساندينيين اختلقوا روايات نقلها عنهم الصحافيون - الذين كانوا موضع شك بأمرهم - كما لو كانت صحيحة.

كان يمكن أن يبدو الجهد الإعلامي لمصلحة المقاومة أكثر نجاحاً لو كان للكونترا قيادات وسيمة (مع لحية أو شاربين) كالذين يشبهون هوشي منه أو فيديل كاسترو أو تشي المناوىء للشيوعية. . عرفت المقاومة عدة مرشحين ممن كانوا مقاتلين شجعان وقادة رائعين، ولكن لم يستطع أي منهم قيادة عدد كبير من الأتباع. كان أحدهم مايك ليما قائداً مقاتلاً قويّاً جرح ٦ مرات، كان شاباً وسيماً، وبمساعدة أحد الصحافيين في الهندوراس تمكّنا من عرض مؤتمر صحافي له.

كان السؤال الأول عادياً: «متى انضممت إلى المقاومة؟».

أجاب مايك: «حسناً. . عندما كنت في «أكاديمية الحرس الوطني».

خطأ: كان مايك ليما يقاتل الساندينيين منذ خمس سنوات، وتلك كانت نهايته على الصعيد الإعلامي.

كان أكبر مأخذ ضد الكونترا هو أنهم كانوا يتألفون من أعضاء سابقين في الحرس الوطني لنظام سوموزا. في الأيام الأولى للمقاومة، كان هذا صحيحاً إلى حد ما، فعندما انهار نظام سوموزا فر ما بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ عنصر من الحرس إلى الهندوراس حيث شكلوا حكومة في المنفى لم يعترف بها أحد، ثم أصبحت هذه المجموعة نواة المقاومة وتلقت دعماً من الأرجنتين.

بالتأكيد كان هناك عناصر سيئة في الحرس مثل الدكتاتور الذي كانوا يدعمونه، ولكن ليس الجميع هكذا، كان هناك بعض الضباط الشباب في الحرس، ومن بينهم من تخرّج من وست بوينت وبعض المدارس العسكرية الأميركية ممن كانوا يهتمون بالديموقراطية ويؤمنون بها.

إلى جانب ذلك كان رجال الحرس السابقون قسماً من المقاومة.

في أوائل عام ١٩٨٣ كـان هناك حـوالى ١٠ آلاف عنصر من الكونـترا، مما يعني أن عناصر الحرس الوطني لم يكونوا أكثر من ١٥٪ من مجموع الكونترا. لقد زاد عـدد المنشقين عن السـاندينيـين وصاروا الأكـثرية، مثـل جوان الـذي أحضر معه وحـدتـه بكـاملهـا إلى الهندوراس ليقاتل ضد رفاقه السابقين. كان معظم رجال الكونترا مزارعين بسطاء وشـباباً فرّوا من الشيوعية وأرادوا الحرية لأنفسهم ولعائلاتهم، وفي نهاية عام ١٩٨٤ أصبحوا أكـبر جيش للفلاحين في أميركا اللاتينية منذ الثورة المكسيكية.

يمكن أن يكون الرأي العام الأميركي غير مكترث بنيكاراغوا والكونترا، ولكنها كانت قضيـة ساخنـة في الكونغـرس خلال عهـد الرئيس ريغـان. كان ذلـك صحيحـاً في مجلس النواب حيث يشكل الديموقراطيون أغلبية قـوية، ولهم آراء غـريبة حـول تمويـل حركـات المقاومة المعادية للشيوعية، فكلما كانت الثورة بعيدة زادت رغبة الكونغرس بتمويلها. كـان من السـهل نسبياً الحصول على دعم لقوات المقاومة في كمبوديا أو أفغانسـتـان التي كانت في نصف الكـرة المقابـل، كانت أنغـولا أقرب ولـذلك كـانت تثير مشـاكل أكـثر، أما أمـيركا الوسطى فهي قرب الباب وكان هذا شبه مستحيل.

في خريف عام ١٩٨٣ بعد مناقشات طويلة أقرّ الكونغرس تخصيص مبلغ ٢٤ مليون دولار لوكالة المخابـرات المركـزية لتنفقهـا على المقـاومة النيكـاراغويـة، ولكن هذا المبلغ لم يذهب بكامله إلى المقـاومة ـ عـلى حد علمي ـ بـل ذهب إلى الوكـالة بحـد ذاتها كـرواتب ونفقـات سفـر ومعيشـة للمـدربـين والتقنيـين وعنـاصر الاتصـالات والعنـاصر اللوجستيـة والموظفين الآخرين الذين كانوا يشتركون في المقاومة.

بعد فترة امتلأت مخيمات الكونترا على حدود الهندوراس بالمتطوعين، وكان ذلك فوق طاقة وكالة المخابرات المركزية من ناحية التمويل، ونادراً مـا كان هؤلاء المتـطوعون يـأتون وحدهم، كانوا يحضرون غالباً مع جميع أفراد عائلتهم: زوجة، ثـلاثة أولاد، الجـد والجدة والعم، واثنان من أبناء العم. الجميع بحاجة إلى طعام ولباس وعناية صحية، وهـذا يعني المزيد من صرف المال ثمناً للطعام والملاجىء والثياب والحرامات والأدوية وأغذية الأطفـال والتدريب، ولم يبق المال الكافي لشراء الأسلحة والذخيرة.

في أوائل عام ١٩٨٤ طلبت الإدارة من الكونغرس مساعدة إضافية، وفي هذه الفترة تقريباً، جاء ديوي كليردج بفكرة تلغيم الموانىء النيكاراغويـة. كانت الكـونترا قـد ضربت بعض المخازن والجسور ومنشآت النفط ومحطات توليد الطاقة، ولكن ذلك لم يسبب الضرر للاقتصاد النيكاراغوي كما سبب به الساندينيـون من جرّاء سياساتهم الخـاصة. كـان رأي

كليردج زيادة الضغط على الساندينيين وخصوصاً البنى التحتية لاقتصادهم، ولكن ومع زيادة عدد المتطوعين لم يعد هناك أموال كافية لأعمال الثورة.

كان تلغيم الموانىء فكرة كليردج في الحصول على ضربة مدوية، وقد خطرت هذه الفكرة في ذهنه ذات ليلة عندما كان يقرأ كتاباً عن الحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥، لقد حقق اليابانيون نجاحاً في تلغيم بعض الموانىء الروسية، وافترض كليردج أنه بإمكان وكالة المخابرات المركزية أن تفعل الشيء نفسه مع نيكاراغوا، ما عدا أنه بدلاً من حملة تلغيم مدينة قد تؤدي إلى إصابات في الأرواح وإصابات بين الأجانب، اقترح كليردج استخدام «ألغام مفرقعات» والتي تحدث انفجاراً كبيراً ولكنّها تسبب ضرراً قليلاً، وكنا نأمل أن تتوقف شركة لويدز في لندن وبقية شركات التأمين عن ضمان السفن المتوجهة نحو نيكاراغوا، مما يجعل من الصعب على الساندينيين أن يتلقوا إمدادات النفط والمواد الضرورية الأخرى الحيوية من أجل بقاء جيشهم.

أعجب كايسي بالفكرة وكذلك الرئيس، حتى جورج شولتز وافق عليها، وكان أن توجه كايسي وكليردج إلى الكونغرس للاجتماع باللجان المختصّة حيث ذكروا خطة التلغيم كجزء من العمليات السريّة في نيكاراغوا.

لقد حقق برنامج التلغيم نجاحاً محدوداً في إحداث الضرر بالاقتصاد النيكاراغوي، ولكن الأضرار السياسية في واشنطن كانت بالغة. عندما كشفت صحيفة وول ستريت جورنال عن تفاصيل التلغيم توتر الوضع في الكونغرس. عادة عندما يوقّع الرئيس مذكرة بالسماح بعملية سرية يجري تقديم إيجاز عنها إلى لجان الكونغرس خلال أيام، لكن معظم أعضاء اللجان أقسموا أنهم لا يعرفون شيئاً عن التلغيم. كانت ذاكرتهم متحفظة إلى درجة أن السناتور باتريك ليهي، من ولاية فيرمونت ولم يكن صديقاً للمقاومة، لام زملاءه لمكرهم وخداعهم. أحد التقارير السرية الواردة إلى لجنة الاستخبارات ذكر ذلك بلغة واضحة: تم تركيز ألغام مغناطيسية في ميناء «البلوف» على المحيط الهادىء وكذلك على ميناء نقل النفط في بورتو ساندينو.

لم يكن جيّداً أن يذهب كايسي إلى الكونغرس ليعتذر إلى أعضاء استخبارات مجلس الشيوخ، كان عليه أن يعاتبهم، ولكنه كان يقوم بأي شيء من أجل حماية وكالة المخابرات المركزية. قال له السناتور جاك غارن من ولاية يوتا: «يجب أن لا تحضر إلى هنا حتى تعتذر إلينا، علينا أن نعتذر إليك لأننا تظاهرنا بأننا لم نعلم بذلك»، وعندما ترك كايسي القاعة انفجر غارن في وجه زملائه مستخدماً تعابير محليّة بلهجة أهالي مدينة سولت ليك سيتي.

أدّى التلغيم إلى إجراء تحقيقات في الكونغرس، فاستدعي موتلي إلى لجنة ستخبارات مجلس النواب للإجابة على أسئلة تتعلق بالتلغيم، هجم عليه الأعضاء وقال له أحدهم: «هذا رهيب أنتم متورطون في أعمال غير قانونية وأعمال سرية، نحن نقتل بحارة أبرياء من بلدان أخرى». أجاب طوني: «دقيقة من فضلك دعني أوضح لك الأمور، لقد قتل عدد من الناس من جرّاء الألغام أقل مما مات في شاباكيديك».

ربما كان هذا هو السبب الذي من أجله لم يعمر موتلي طويلاً في وظيفته، فمهما كنت جيّداً لا يمكنك التكلم بهذه اللهجة والاستمرار طويلاً في وزارة الخارجية.

بالنسبة إلى العديد من أعضاء الكونغرس كان تلغيم الموانىء القشّة الأخيرة.

وبدلاً من تأمين أموال إضافية للمقاومة، أعطانا مجلس النواب توصية جديدة مماثلة لتوصية بولاند.

في الإجمال كان هناك خمس توصيات سميت توصيات بولاند أقرّها مجلس النواب ما بين عام ١٩٨٢ و١٩٨٦، ثم أصبحت هذه عادة في كل صيف في واشنطن، فكلما أزهرت أشجار الكرز تطلب الإدارة تمويلاً إضافياً للمقاومة، وكان الكونغرس يرد عليها بتوصية بولاند أخرى.

أخذت توصيات بولاند اسمها من اسم مقترحها إدوارد بولاند رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس النواب. كانت كل توصية تختلف عن الأخرى، إلّا أنها جميعها كانت تفرض قيوداً على استخدام الأموال المخصصة. لم تتضمن أي من توصيات بولاند جرماً مدنياً أو جزائياً، وعلى الرغم مما أعلنه بعض الديموقراطيين ـ حتى مكفرلين نفسه ـ لم تطبق أي منها على الرئيس أو على أركانه في مجلس الأمن القومي.

قبل صدور توصية بولاند الأولى بوقت قليل، حاول بعض أعضاء الكونغرس فرض قيود على المساعدات للكونترا من أي جناح من أجنحة الحكومة ومن ضمنها البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي، اقترح هذه التوصية عضو الكونغرس توم هاركين وهو ديموقراطي من ولاية أيوا الذي طالب بمنع أي وكالة حكومية «من القيام بأي نشاط عسكري في نيكاراغوا أو ضدها»، كان هذا مختلفاً عن نص توصيات بولاند وخصوصاً توصية بولاند الأولى*.

---

* توصية بولاند الأولى غطت الفترة الممتدة ما بين كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢ إلى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣، ومنعت وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع من استخدام المال من أجل الإطاحة بحكومة نيكاراغوا.

عندما سمعت الإدارة باقتراح هاركين ضربت رأسها بالسقف. . كان ذلك بوضوح غير دستوري لأنه لم يكن للكونغرس أي حق بتحديد سلطة الرئيس في تنفيذ السياسة الخارجية. **أعلم الرئيس جميع الأعضاء أنه إذا وافق الكونغرس على توصية هاركين، والذي** كان بعيد الاحتمال، فإنه سيمارس حق الفيتو. عندها عرض بولاند توصية تسوية. لقد وصف بولاند نفسه توصية هاركين بأنها «غير ضرورية» و«سابقة سيئة». فيما بعد حدثت خلافات عديدة حول المعنى الحقيقي لتوصيات بولاند. أنا لا أتظاهر بأني أمثل سلطة قانونية، ولكن حسي يقول لي إنه إذا كان الكونغرس المعروف بانقساماته العميقة حول هذه المسألة قد صوّت لمصلحة توصية بولاند الأولى: ٤١١ صوتاً ضد لا أحد، فإنه لا يمكن أن يفهم من هذه التوصية بأنها تمنع جميع المساعدات عن الكونترا. لم يكن الجميع سعداء بتوصية بولاند الأولى، لقد جرى انتقادها في مجلس الشيوخ ليس من قبل مؤيدي الكونترا بل من قبل السناتور كريستوفر دود الذي شكا من أنها أعطت الضوء الأخضر لدعم مستمر للمقاومة ـ وفي الحقيقة كانت تعني ذلك ـ.

لقد خلّفت لنا عمليات التلغيم في نيكاراغوا توصية بولاند الثالثة التي أجبرت وكالة المخابرات المركزية سحب دعمها للمقاومة. «إذا كان لإدارة ريغان أن تتابع تمويل الكونترا فإن علينا أن نفتش عن طريقة أخرى».

توصية بولاند الثانية غطت الفترة الممتدة ما بين كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ إلى حزيران ١٩٨٤، أكدت أنه لا يمكن استعمال أكثر من ٢٤ مليون دولار «من قبل وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع وأي وكالة أو هيئة حكومية في الولايات المتحدة تساهم في نشاطات استخبارية» لدعم العمليات العسكرية في نيكاراغوا.

توصية بولاند الثالثة غطت الفترة الممتدة ما بين تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٤ وكانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥، كانت جازمة أكثر، لقد حدّدت أنه «لا توضع أي مخصّصات مالية» في وكالة المخابرات المركزية أو وزارة الدفاع «أو أي وكالة أو هيئة حكومية في الولايات المتحدة تساهم في نشاطات استخبارية» يمكن أن تنفق لدعم مباشر أو غير مباشر لعمليات عسكرية أو شبه عسكرية في نيكاراغوا من قبل أي دولة أو منظمة أو جماعة أو حركة أو فرد.

توصية بولاند الرابعة غطت الفترة الممتدة ما بين آب/ أغسطس ١٩٨٥ إلى آذار/ مارس ١٩٨٦، حدّدت القيود نفسها على المساعدات العسكرية ولكنها سمحت بـ ٢٧ مليون دولار «مساعدات إنسانية ودعم لوسائل الاتصال وأعمال الاستخبارات».

توصية بولاند الخامسة استمرت حتى تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٦، سمحت للمقاومة النيكاراغوية بتلقي دعم محدود من وكالة المخابرات المركزية، وخوّلت وزارة الخارجية طلب المساعدات الإنسانية للمقاومة من دول أخرى.

(١١)
جسد وروح

عندما قطع الكونغرس المعونات عن الكونترا توقع الكثيرون أن تنهار المقاومة، لكن الرئيس ريغان لم ينو التخلي عن الكونترا، وأظهر ذلك في تصاريحه العلنية وفي أعماله. لقد قارنهم بالآباء المؤسسين للمقاومة الفرنسية. لقد استقبل زعماءهم في البيت الأبيض. وأورد في مذكراته أنه قال لهم: «أنا من الكونترا أيضاً، أريد من الكونترا أن تؤكد نفسها كقوة إلى أقصى حد مشروع، حتى أستطيع أن أقنع الكونغرس بتخصيص دعم مالي للمقاتلين من أجل الحرية».

داخل الإدارة لم يكن هناك أدنى شك بوجوب الاستمرار في دعم المقاومة، والسؤال الوحيد المطروح هو: كيف؟

في الفترة ما قبل ربيع ١٩٨٤ عندما توقفت مخصصات الكونغرس للكونترا، كانت هناك أبحاث عديدة داخل الإدارة وحتى في الكونغرس أيضاً حول الطلب من حكومات أجنبية دعم الكونترا. فيما بعد عرفت هذه السياسة بدبلوماسية «كأس القصدير»، لكن كايسي ومكفرلين وآخرين رأوا فيها طريقة منطقية لتوسيع التحالف المعادي للشيوعية. أما العقيدة الريغانية فقد ذهبت إلى ما وراء «الاحتواء»، كانت تريد تجنيد المساعدات من حلفائنا، ليس ضد الشيوعية فقط بل ضد العالم الشيوعي بأكمله، وهذا ما جرى في أفغانستان عندما ساهمت بضع حكومات بسريّة وهدوء في دعم الثوار. كان كايسي يعتقد أن المقاومة النيكاراغوية تستحق جهداً مماثلاً.

بالعودة إلى خريف عام ١٩٨٣، طلب مني مكفرلين أن أعدّ له لائحة بأسماء الدول التي يمكن طرح الموضوع عليها، وقد تضمّنت لائحتي: المملكة المتحدة وألمانيا الغربية وتايوان وسنغافورة والعربية السعودية وإسرائيل، ولكن عندما أعطيت اللائحة إلى مكفرلين طلب مني أن أحذف إسرائيل وكذلك كل بلد يتلقى مساعدات أميركية، فإذا التفتت إحدى الدول التي تتلقى المساعدات منّا إلى الخلف، وأرسلت الأموال إلى الكونترا، فهذا

يعني أننا نغسل أموال المساعدات الأجنبية°. إلى جانب ذلك كانت إسرائيل تساعد الكونترا بطريقة مختلفة جداً دون أن يعرف أحد.

كانت عملية «ثيد كاتل» فكرة كايسي. عام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٣ استولت إسرائيل على كميات ضخمة من أسلحة منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، وكان معظم هذه الأسلحة من صنع دول الكتلة السوفياتية، وكانت معدّة لجيش ثوري ولم يكن الإسرائيليون بحاجة إليها، ولكن إذا أمكن وصول هذه الأسلحة إلى الكونترا، فإنها بالفعل تكون نعمة من الله.

أرسلت وزارة الدفاع فريقاً إلى إسرائيل لفحص الأسلحة والقيام بالترتيبات الملائمة. سحب الإسرائيليون دفعتين في أيار/ مايو ١٩٨٣ ودفعة في السنة اللاحقة تضمنت مئات الأطنان من أسلحة منظمة التحرير الفلسطينية إلى مخازن وزارة الدفاع، ومن هناك حُوّل معظمها إلى وكالة المخابرات المركزية، ووزعت على ثوار الكونترا وعلى حركات المقاومة ضد الشيوعية في بلدان أخرى.

نفّذت هذه العملية دون تسريب أو تعليق، ومن أسباب نجاحها أن الشخص المكلّف بها من وزارة الدفاع كان يعرف ماذا يفعل. كان جنرالاً في القوات الجويّة وله خبرة واسعة في العمليات السرية، كان اسمه ريتشارد سيكورد.

بعدما طلب مني مكفرلين إعداد لائحة بالدول الداعمة، لم أكن أعلم إلا القليل عن هذه الفكرة. لا بد أن مكفرلين كان يبحث الموضوع مع كايسي، لأنه في أواخر آذار/ مارس ١٩٨٤ أرسل كايسي مذكّرة سرية وشخصيّة إلى مكفرلين يخبره فيها أنه «موافق تماماً» على أن يبحث مكفرلين مع الإسرائيليين عن بدائل للتمويل وربما مع دول أخرى.

بعدما تلقى مكفرلين رسالة كايسي بوقت قصير قلّت زياراته إلى مكتبي، وعندما كنت أقف لأحييه، كان يدخل ويغلق الباب بهدوء، ثم كان يجلس على الكرسي المحاذي لطاولة القهوة مقابل طاولة المكتب. قال مكفرلين: أريد منك أن تفتح حساباً للمقاومة في مصرف خارج الولايات المتحدة، بحيث يستطيع المساهمون الأجانب وضع إيداعاتهم المالية مباشرة في الحساب. في الحقيقة تعجّبت وتساءلت عمّن تكون هذه الحكومات الأجنبية المساهمة! لكن مكفرلين كان واضحاً، إنه لا يريد أن يخبرني، كان يعلم أنني سأطلب

---

* علمت فيما بعد أن مكفرلين طلب من زميلي هوارد ثايشر أن يطرح الموضوع على الإسرائيليين لكنهم رفضوا.

- غسل الأموال تعبير يستخدم في توظيف وإنفاق الأموال الناتجة عن أرباح تجارة المخدرات (المترجم).

نصيحة كايسي في كيفية إعداد ذلك، وأنا أفترض أنه لم يرغب بوضع مدير المخابرات المركزية في موقف حرج. كان كايسي يُستدعى بشكل مستمر إلى الكونغرس للإجابة على أسئلة الأعضاء وسيكون من الأفضل له إذا لم يعرف هذه المعلومات.

ذهبت إلى مكتب كايسي في الغرفة ٣٤٥ في بناية المكتب التنفيذي القديمة، وقلت له: «لقد طلب مني أن أفتح حساباً مصرفياً للمقاومة خارج الولايات المتحدة، وأن أطلب المساعدة في ذلك».

انحنى كايسي على كرسيّه، وأخذ يقضم بأسنانه قلم رصاص وسألني: «هل هم السعوديون؟».

أجبته: «أنا لا أعرف».
ـ دعك من هذا الهراء، إنهم السعوديون إليس ذلك صحيحاً؟
ـ بكل صدق لا أعرف.
تبسّم كايسي وقال «حسناً إنهم هم، كم هو المبلغ؟!».
ـ لا أعرف ذلك أيضاً.

حدّق بي بحذر من وراء نظارتيه ثم تناول الهاتف الآمن وطلب رقماً، وعندما ردّ عليه شخص آخر سأله كايسي: «إذا أراد فريق ثالث أن يدعم أصدقاءنا في الجنوب فكيف نثق بتسليم الأموال؟». ثم أقفل كايسي الخط ونظر إليّ وقال: «إن رجلك هو كاليرو»

كان كاليرو شخصية بارزة في المقاومة، وكنت قد اجتمعت به مرتين من قبل. قال كايسي: «اذهب وقابل كاليرو، سوف يفتح حساباً خارج الولايات المتحدة إذا لم يكن قد فتح حتى الآن، يجب أن لا تحول الأموال كلها دفعة واحدة، اجعلها تصل على دفعات منتظمة، أي كل شهر، فهذا يؤمن لنا سيطرة أكثر».

وقف كايسي وطلب مني أن أنضم إليه للجلوس في الصالون، وهناك بدأ يتحدث وكأنه أستاذ في مدرسته. قال: «هذا ما عليك أن تفعله». تناولت دفتر الملاحظات، قال: «ضع ذلك جانباً، إذا كنت تكتب كل شيء فإنك لست من أهل هذه المهنة. يجب أن يحوّل المال من حساب في الخارج إلى حساب كاليرو خارج الولايات المتحدة، يجب أن لا يدخل إلى بلادنا أبداً، استعمل التحويل الهاتفي».

سألته: ما هو التحويل الهاتفي بالتحديد؟
تنهّد كايسي قبل أن يبدأ بالشرح، لقد أمضى معظم حياته في عالم المال، وكان رئيساً

لجهاز أمن التبادل. كان سؤالي عن معنى التحويل الهاتفي، وكأنك تسأل آينشتاين: «أيها البروفوسور ما هو الجذر التربيعي؟».

سألته: لماذا يجب أن يكون الحساب خارج الولايات المتحدة؟

أجاب: لسببين، أولاً: لقد تم تجميد جميع حسابات نيكاراغوا داخل الأمم المتحدة، ثانياً: إن وزارة المال تراقب التحويلات الكبيرة من وإلى المصارف الأميركية، ويمكن أن يلاحظ أحد هذه الصفقة ويبدأ بطرح الأسئلة.

لم أعرف إلّا بعد بضعة أشهر أن كايسي كان على حق فيما قاله عن العربية السعودية. في بعد ظهر يوم ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٨٤ اجتمع الرئيس مع كبار مساعديه الأمنيين في غرفة الأوضاع لبحث الوسائل اللازمة من أجل المحافظة على حياة المقاومة. تحدث كايسي عن طلب المساهمة من دول أخرى، عارض شولتز ذلك ثم اقترح أن يرى وزير العدل ما إذا كان ذلك قانونياً. وافق ميز على أن يبحث الموضوع في وزارة العدل، ووافق الجميع على أن هذه المسألة يجب أن تولى أهمية كبيرة، وقال الرئيس ريغان في نهاية الاجتماع: «إذا تسربت هذه القصة سوف نعلق بأصابعنا على مدخل البيت الأبيض حتى نعرف من سرّبها»*.

لم يعرف شولتز ذلك ولا أنا، ولكن الرئيس كان قد سمح لمكفرلين بمقابلة الأمير بندر بن سلطان السفير السعودي في واشنطن لطلب مساهمة حكومته. وصل أول إيداع بمبلغ مليون دولار في أوائل تموز/ يوليه، وعلى مرّ الأشهر السبعة اللاحقة تابع السعوديون دعم الكونترا بمعدل مليون دولار كل شهر، لم يكن ذلك كافياً لتغطية احتياجات الجيش، لكنه ساعد على شراء المواد الغذائية والألبسة والأسلحة والذخائر، بكلمات أخرى كان ذلك كافياً للقيام بما طلبه الرئيس من مكفرلين، أي الإمساك بالمقاومة جسداً وروحاً حتى يقتنع الكونغرس بتغيير رأيه، ويسمح لوكالة المخابرات المركزية بدعم المقاومة.

في شباط/ فبراير ١٩٨٥ وصل الملك فهد إلى واشنطن في زيارة رسمية، وخلال اجتماعه مع الرئيس ريغان في البيت الأبيض وافق على تمويل إضافي للمقاومة. لم أكن هناك، لكن مكفرلين قال فيما بعد إنه أعطى الرئيس بطاقة ملاحظة حول هذه المسألة، وإدراكاً منه لشعور الرئيس نحو المقاومة لم أشك في أنه كان يطلب من الملك فهد زيادة التحويل.

فيما بعد كان هناك من استنتج أن الكرم السعودي جاء ردّاً على السرعة في استلام

* من نص اجتماع مجموعة تخطيط الأمن القومي في ٢٥ حزيران/ يونيه ١٩٨٤ صفحة ١٤.

صواريخ ستينغر المضادة للطائرات، والتي كان الكونغرس قد أوقفها. كانت الصواريخ تبرّر هذا العمل مما يدحض المزاعم عن المحبة المخلصة التي يكنّها السعوديون والعديد من حلفائنا للرئيس ريغان. كانوا يحبونه حقاً، ويحبون مواقفه خصوصاً بعد أربع سنوات من عهد جيمي كارتر، وعندما كان رونالد ريغان يهتم بدعم الكونترا كانوا سعداء في تقديم المساعدات.

بالإضافة إلى ذلك كان السعوديون دائماً معادين بشدة للشيوعية، وكانوا يدركون معنى الوجود الشيوعي في المنطقة، وهذا هو سبب دعمهم للمقاومة الأفغانية بمئات الملايين من الدولارات.

بناء على تعليمات مكفرلين ونصيحة كايسي توجهت إلى تيغوسيكالبا عاصمة الهندوراس للاجتماع بأدولفو كاليرو.

كان كاليرو، الذي بدا مثل الدب الأبيض، أبرز قائد في المقاومة. كان حائزاً على إجازة في الحقوق ورجل أعمال ناجحاً في ماناغوا حيث كان يدير أعمال شركة كوكا كولا. كانت له علاقة خاصة مع الأميركيين وهو خريج إحدى الجامعات في الولايات المتحدة وهي جامعة نوتردام. بعد تخرجه عاد إلى نيكاراغوا والتزم بالاقتصاد الحر والديموقراطية على الطريقة الأميركية. سببت له آراؤه السياسية مشاكل مع نظام سوموزا ودخل السجن مرتين. وعندما تسلم الساندينيون السلطة لم تشفع له معارضته لنظام سوموزا وقامت الحكومة الجديدة بمصادرة أملاكه ونفته إلى خارج البلاد.

كنت أظن أن رحلة جبل الفضاء في «ديزني لاند» هي أفضل رحلة في العالم إلى أن توجهت جواً إلى تيغوسيكالبا. كان المدرج الوحيد للمطار محصوراً بين جبل في مقدمته وتلة في آخره، ومن أجل الهبوط كان على الطيّار أن يحلّق فوق الجبل ثم ينقض فجأة وبعمق ويندفع عندما يلامس المدرج. كان عليه أن يضغط على الكوابح (الفرامل) حتى يتصاعد الدخان منها، ثم تجد نفسك وأنت تصلّي من أجل أن تتمكن الطائرة من التوقف قبل أن تصطدم بالتلة، أو تصل إلى الوادي الضيّق المليء بحطام الطائرات التي لم تتوقف في الوقت المناسب.

لم أتوقف عن الارتباك والرجفة إلّا عندما وصلت إلى منزل آمن لعناصر الكونترا، والذي كان يقع في إحدى المناطق السكنية المجاورة للمدينة. كان بانتظاري حوالى عشرة من كبار قادة المقاومة ومن بينهم أنريك برموديز الذي كان يرتدي بزّة العمل. لقد بدا واضحاً من الطريقة التي استقبلوني بها ماذا كانت تعني لهم زيارة مسؤول كبير في البيت الأبيض. قدّم لنا أدولفو الفاصوليا السوداء والرز والدجاج المشوي، وتركّز معظم الحديث

على المائدة عن عمليات اجتياز الحدود التي يقوم بها الساندينيون، وعن الموضوع الذي لا يمكن تجنبه عند أي بحث عن الكونترا وهو الأوضاع المزرية في المخيّمات. عندما انتهينا من الطعام تكلمت مع المجموعة بمساعدة مترجم ونقلت إليهم رسالة من مكفرلين: «إن أهدافنا وأهدافكم واحدة، ونحن، مثلكم، نريد أن نرى نيكاراغوا الديموقراطية، ومع أن الكونغرس قطع المساعدات عن وكالة المخابرات المركزية، فإن الرئيس ريغان يريد منكم أن تدركوا أننا نفتش عن طريقة لمساعدتكم. أنا أستطيع أن أعدكم بأنّنا لن نتخلى عنكم».

انتهينا من العشاء حوالى الساعة العاشرة مساء، وعندما غادر معظم الحضور طلب مني كاليرو أن نتحدث على الشرفة، حاول أن يخفي خيبة أمله لكنها كانت ظاهرة عليه.

قال لي: «كولونيل، لقد ظننت أنك ستحضر معك شيئاً ما غير الوعود؟» قلت له: «نعم.. ولكني لا أستطيع أن أتحدث عنه أمام الآخرين، هناك محسن كريم».

من هو؟

لا أستطيع أن أبوح باسمه لقد طُلب مني أن أبلغك بأن تفتح حساباً مصرفياً خارج الولايات المتحدة، وأنا بحاجة إلى رقم الحساب ورمز التلكس وعنوان التحويل الهاتفي.

سألني: كم سيضع في الحساب.

- مليون دولار كل شهر.

صمت أدولفو دقيقة، ولم أكن متأكّداً ما إذا كان مسروراً بذلك أم مصاباً بخيبة أمل، وأخيراً قال: نعم إن ذلك يساعد.

لا يمكنك أن تدع أحداً آخر يعرف أنني مساهم بذلك، ونريد أيضاً سجلّات رسمية حول طريقة إنفاق الأموال.

تحدثنا لبرهة، وبينما كنت أهم بالخروج قال أدولفو: نحن نقدّر تلك المساعدة، سوف أحضر قريباً المعلومات المطلوبة، وفي يوم ما سوف أشكر الرئيس ريغان شخصياً.

أمضيت تلك الليلة في منزل السفير، وعدت إلى واشنطن في اليوم التالي.

حضر كاليرو إلى واشنطن بعد أسبوع، وكان مكفرلين خائفاً من أن يعرف أحد بالترتيبات، ولذلك بدلاً من أن يحضر أدولفو إلى البيت الأبيض التقيت به في منزل في حيّ لافاييت. أعطاني المعلومات المطلوبة: كان الحساب باسم أستر مورال وهو عضو في قيادة المقاومة. كان الرقم ٥٤١.٤٨ في فرع ميامي لبنك أميركا الوسطى، وهو بنك دولي في جزر كايمان، وبينما كنت منهمكاً بالتفاصيل، لاحظت أن أدولفو يبتسم، لقد ذهل من

هـذا الأميركي والـذي يفترض بـه أن يكون خبيـراً في العمليات السريـة وهو يسجـل كل التفاصيل.

عاد كاليرو إلى فندقه، وعدت إلى مكتبي حيث طبعت المعلومات على بطاقة وقدمتها لمكفرلين، ثم اتصلت به لأعلمه أن المعلومـات التي ينتظرهـا أصبحت جاهـزة، وأضفت: «بما أن أدولفو في المدينة هنا، هل ترغب بالاجتماع به؟»

ــ بالتأكيد وإنما ليس هنا.

ــ لمـاذا لا أقود السيـارة العسكريـة الخاصـة بالمكتب حيث يمكنكـما أن تتحـدثـا في الخلف وأنا أقود السيارة، (كان بإمكاني أن أستعمل سيارتي لكنهـا كانت متـوقفة عـلى بعد ميل، إلى جانب ذلك لا أريد أن أتخلى عن موقف السيارة).

رتّبت أمر ذهاب مكفرلين عن طريق المبنى الغربي، ثم انحرفت يميناً نحـو بنسلفانيـا حيث كان كالـيرو ينتظر أمـام وزارة المال. بينـما كنت أقود بهـما في جولـة على آثـار ومعالم المدينة، كان مكفرلين وكاليرو يتحدثان في الخلف. بدا أن مكفـرلين كـان مستاءً من هـذه الطريقة في الاجتماع، لم يكن ذلك مغامرة بالضبط، إنما كانت تشبه استراحة من اجتماعات مضنية وأعمال إدارية. قال لأدولفو: إن الدفعـات الشهريـة من المحسن الكريم هي جسر للمحافظة على المقاومة، إلى أن يغيّر الكونغرس رأيـه ويستأنف تمـويل الكـونترا. ثم شـدّد على الحاجة إلى محاسبة منتظمة وعلى السرية التامـة، وذكر لـه أنه لا يجـوز أن يعرف أحد في وكالة المخابرات المركزية أو في وزارة الخارجية أو في أي مكان آخر في الحكومة الأميركية بتفاصيل هذه الترتيبات.

عنـدما بـدأ المال السعـودي بالـوصول، أخـذ كالـيرو يشتري الأسلحـة والإمدادات للمقـاومة، كـان يتصل بي غـالبـاً من أجـل طلب النصح مما أدّى إلى تعميق الثقـة بيننـا. وبمرور الوقت أخـذنا نجتمـع ونتحادث حـول شؤون المقاومـة، ومن أين يشتري الكـونترا صواريخ أرض ـ جو، والحاجة إلى مزيد من أطباء التوليد في المخيّمات.

ذات يوم بعد الظهر اتصل بي كايسي من مكتبه في بنايـة المجموعـة الاستخباريـة في شارع F وقال لي: هل تستطيع أن تحضر الآن لمقابلتي؟

لبست معـطفي وأسرعت إلى شـارع F واستقليت المصعـد وتـوجهت إلى مكتب كايسي. كانت هذه البناية القديمة، بسقفها العالي ودهانها الشـاحب، تبدو وكـأنها من آثار العصـور البائـدة. في كل مـرة أدخل إليهـا أتذكّـر المكاتب التي يستعملهـا جورج سـمايـلي وزملاؤه في لندن في روايات جون لوكاريه.

كان كايسي وحيداً في مكتبه، عندما جلست قال لي: «أنت تتكلم كثيراً».
قلت له: ماذا تعني؟
ــ كم مرة تتحدث مع صديقك في الهندوراس على الهاتف؟ ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع؟

ــ شيء من هذا القبيل.
ــ وهل يجري الحديث على الخط العادي؟
ــ نعم!
ــ حسناً، يجب أن توقف ذلك، لقد علمت الآن أن وكالات الاستخبارات الأميركية والأجنبية أمضت وقتاً طويلاً تراقب بعضها البعض. أكد كايسي أن مكالماتي الهاتفية الواضحة سمحت للمخابرات السوڤياتية بأن تسمع وتطّلع على محادثاتي مع كاليرو.

سلّمني كتاباً صغيراً أسود وقال: «هل استخدمت ذلك من قبل؟».
فتحته ووجدت داخله سلسلة من الجيوب!
قلت: لا كيف يعمل؟
هزّ برأسه وكأنه يقول: «هل عليّ أن أشرح كل ذلك؟».

قال لي: إنه كتاب الرموز، وهذه نسخة لك ونسخة له، غيّر رقم الرمز في أوقات متفق عليها، والآن يمكنكما أن تتحدثا مع بعضكما دون أن تنكشفا.

وكان ذلك بسيطاً، أي آلة ترميز وفك الرموز، كل ما كان عليّ هو أن أُدخل الكلمات الدالّة مثل هندوراس ونيكاراغوا وأسلحة وذخيرة وطائرات وأدوية وغيرها، ثم أضعها على أرقام الرموز والتي تتغير يومياً. كانت تقنيتها بسيطة لكنّها فعالة، وإذا كان أحد ما يصغي إلى الحديث فهو لن يتمكن من معرفة موضوعه.

كانت هذه الكتب السوداء أولى الجهود التي قام بها كايسي من أجل ضمان سلامة اتصالاتنا مع المقاومة. فيما بعد وعندما اشترك العديد اتصل بي وقال: ماذا حلّ بالأمن؟ إن تدابير أمن اتصالاتك تتراجع؟

كان كايسي قلقاً من قدرة السوڤيات على التقاط الاتصالات الهاتفية من مركز التنصّت في لوردز في كوبا. إن ما بدأ كعلاقة شخصية بيني وبين أدولفو تحوّل إلى اتصالات مع عشرات الأشخاص وعبر قارتين على الأقل. كنت أستعمل كتاب الرموز أنا وأدولفو، ولكن ذلك لم يحم بقية الجماعة. اقترح كايسي استعمال آلة الترميز الأوروبية

الصنع من طراز فيليبس ب أكس ١٠٠٠، ولكن عندما تبيّن أنها لا تفي بالغرض أوصى باستعمال آلة أميركية الصنع تنتجها شركة ر ڤ وتسمى ك ل٤٣. لم أكن أعلم بوجود هذه الآلات إلّا عندما أرسل كايسي عدداً منها إلى مكتبي.

كانت آلة ك ل ٤٣ تشبه ما سمي في ما بعد «كومبيوتر لابتوب» ما عدا أنها مجهّزة بأسطوانة للترميز، فأنت تطبع رسالتك التي تظهر على الشاشة بلغة واضحة، وبعد مراجعة ما كتبته، تضغط على زر الترميز حيث يتحول كل ما على الشاشة إلى كلام غامض، ثم تتصل بالشخص الذي تريد إرسال الرسالة إليه، بعدما تتأكد من أنك تستخدم الرمز نفسه الذي يستخدمه، تضع آلة الهاتف على آلة الترميز وعندما تسمع صوتاً في الآلة تضغط على زر «إرسال» ثم تسمع صوتاً آخر ثم تقفل الآلتين على بعضهما. بعد ثوان، يكون الطرف الآخر قد تلقى الرسالة المرمّزة، ومن أجل زيادة الأمان يمكنه أن يعلّق عمل آلة الهاتف قبل بدء الترميز بوساطة الضغط على الزر.

في المحادثات المكشوفة كنا نرجع إلى هذه الآلات، لأنه يمكن لضابط الاستخبارات أن يعد شريطاً كاملاً في فترة شهر، وكل يوم يتلف الرمز السابق ويعتمد رمزاً جديداً. إذا وقعت آلة ك ل ٤٣ بأيدٍ معادية، يكون الخطر قليلاً، ومن الممكن إبطال استعمال الرمز خلال ساعات.

كانت ك ل ٤٣ مع طابعتها الصغيرة قابلة للحمل، ونادراً ما كنت أغادر منزلي دون أن أحملها معي.

كانت كتب الترميز وأجهزة أمان الاتصالات تساعد على منع السوڤيات والكوبيين من معرفة تفاصيل ما كنت أقوم به في مجال دعم المقاومة، ولكنها لم تساعد على منع انتشار هذا السرّ في أوساط حكومتنا. مع مرور الوقت توسعت دائرة العارفين بالموضوع وأصبحت تضم أشخاصاً غير كايسي ومكفرلين وپواندكستر والرئيس، كان ذلك بسبب مجموعة العمل الداخلي التي تعمل كهيئة تنسيق للنشاطات الدبلوماسية والعسكرية والسرية في أميركا الوسطى، وخصوصاً التدابير التي كنا نتّخذها بشأن التهديد الصادر عن الساندينيين. كان يرئس هذه المجموعة معاون وزير الخارجية لشؤون أميركا اللاتينية، والذي كان يراجع الأعمال السرية التي تقترحها وكالة المخابرات المركزية ومن ضمنها تلغيم الموانىء والهجمات على الأهداف الاستراتيجية داخل نيكاراغوا، وتدابير لتحسين الدعم الذي كانت تتلقاه الكونترا من الحكومات المجاورة.

كانت العملية تجري بشكل طبيعي حتى أواخر العام ١٩٨٤ عندما تعرضت

المجموعة لانتقادات شديدة من الجمهور في أحد الاحتفالات في واشنطن. في أواسط عام ١٩٨٥ خلف طوني موتلي في رئاسة المجموعة أليوت أبرامز، وحلّ آلان فيرز من وكالة المخابرات المركزية مكان ديوي كليردج، وأخيراً حلّ الجنرال جون مولرنغ، من الأركان المشتركة، مكان الأميرال آرت مورو. خلال هذا الوقت بقيت ممثلاً لمجلس الأمن القومي في المجموعة.

أصبح أبرامز وفيرز لاعبين أساسيين في جهود الإدارة من أجل دعم المقاومة، كانا متحمسين للمحافظة على الضغط العسكري على النظام الساندينى، وكان كل منهما قريباً من رئيسه. كنا نجتمع دائماً ونسافر مع بعضنا إلى المنطقة ونتحدث يومياً على الهاتف.

أصبح أليوت أبرامز رجل المواجهة للمقاومة، يتكلم بقوّة أمام الكونغرس والأوساط الإعلامية وداخل الإدارة. كان فيرز، بعيداً جداً عن الأنظار ومفيداً جداً. كان الرجلان يعرفان تماماً ما كنت أقوم به من أجل دعم المقاومة، كلٌّ من خلال وكالته التي يتلقى منها تقارير منتظمة من قنواتها في أميركا الوسطى. لقد أصبحا حليفين لي في النضال، واستمرا كذلك إلى حين صرفي من الوظيفة.

إن تغيير أعضاء المجموعة يعني زيادة احتمال انكشاف الأعمال التي تقوم بها. بالإجمال كان هناك أكثر من مائة شخص في حكومتنا (في وزارة الخارجية والدفاع ووكالة المخابرات المركزية والكونغرس) يعرفون بعض ما كنا نقوم به لدعم المقاومة النيكاراغوية، وفي الوقت الذي خفّفت فيه وكالة المخابرات المركزية تورّطها، صرت أنا النقطة المركزية بالنسبة إلى المقاومة. حاولنا أن نضيِّق تلك الدائرة لكننا لم نتمكن من ذلك بشكل تام.

بحلول العام ١٩٨٦ بدأ عدد من الأشخاص، من داخل وخارج الحكومة، يطلب مني المساعدة والنصح ويطرح الأسئلة أو يطلب تقديم المساعدات لجناح أو لآخر في المقاومة. حتى السناتور جيسي هلمز على تقديم المزيد من المساعدات لإيدن باستورا وجماعته، وطلب عضو الكونغرس ديف مكردي مساعدات إضافية لهنود ساحل الأطلسي، واقترح برني أرونشن، الذي حلّ مكان أليوت أبرامز كمعاون لوزير الخارجية لشؤون أميركا اللاتينية، تعيين عدد من القادة الجدد للمقاومة، واقترح دون غريغ، مستشار نائب الرئيس لشؤون الأمن القومي، تعيين فيليكس رودريغز عنصراً للاتصال في السفادور.

بالنسبة إلى الأعمال السرية، عرف بها الكثيرون وخصوصاً عندما ضرب الطاعون واشنطن في خريف عام ١٩٨٦.

سرعان ما بدا واضحاً للجميع أن استبدال تمويل وكالة المخابرات الأميركية لا

يكفي لدعم أعمال المقاومة، والسبب هو أن المساعدة السعودية الأولية كانت متواضعة، وهناك سبب آخر هو أن وكالة المخابرات المركزية كانت تؤمّن للمقاومة أشياء أهم وأبعد من المال، لقد كانوا يشترون الأسلحة ويسلمونها إليهم، وأمنوا التدريب والاتصالات ومعلومات المخابرات والقيادة والسيطرة والعديد من الخدمات الإدارية.

قال منتقدو المقاومة إنه عندما انسحبت وكالة المخابرات المركزية كان على الكونترا أن يدبّروا أنفسهم ذاتياً. من وجهة النظر المثالية يبدو هذا الكلام صحيحاً، لكن وكالة المخابرات المركزية لم تكن متحمّسة أو تواقة لتعليم الكونترا، أو أي مقاومة أخرى، هذه المهارات، لأن الوكالة وبوساطة تأمين بعض الخدمات الضرورية والدعم، تمكّنت من إحكام سيطرتها، وشجعت المحافظة على وحدة الأجنحة المتصارعة في المقاومة، وكما قال لي أحد ضباط العمليات السرية في هندوراس: «لقد علمتهم كل ما يعرفونه، لكني لن أعلمهم كل ما أعرف».

بعد خروج وكالة المخابرات المركزية من اللعبة، كان على الكونترا أن يتعلموا كيف يديرون شؤونهم، ولكن وفي ذلك الوقت كانوا بحاجة إلى من يدير أعمالهم. كان التدريب يتم بطريقة ـ تدريب في أثناء الوظيفة ـ وهي طريقة ممتازة للتدريب في أثناء الحرب، ولكنها أيضاً طريقة ممتازة للموت!

عندما بدأت وكالة المخابرات المركزية بالانسحاب، أدرك عناصر الكونترا والمؤيدون لهم في واشنطن قيمة وأهمية أعمال الوكالة. لقد كانت تؤمن كل شيء، من تقنيات الدعاية والإعلام مثل تشغيل محطة إذاعة أو إلقاء مناشير، إلى الأعمال الأخرى مثل تأمين الارتباط بين المقاومة وحكومات الدول المجاورة. كانت هذه الحكومات ترغب في تقديم المساعدات بشكل مكتوم، لأنها مهددة من الساندينيين، وكانت تنكر تقديم أي مساعدة علناً.

عندما انسحبت وكالة المخابرات المركزية بدأ كاليرو وبعض قادة المقاومة الاتصال بي حول كل شيء، الاستخبارات والاتصالات والأسلحة والارتباط مع الحكومات المجاورة. لم يكن صعباً على الكونترا أن تشتري جميع حاجياتها غير العسكرية مثل الطعام والألبسة وبعض الأدوية، ولكنها، ومن دون وكالة المخابرات المركزية، لم يكن لديها الاتصالات الضرورية لشراء الأسلحة والذخائر السوڤياتية الصنع.

في حرب العصابات من الأفضل للثوار أن يستخدموا الأسلحة نفسها التي يستخدمها عناصر النظام الذي يقاتلونه، إن أي تدبير آخر قد يؤدي إلى مشاكل لوجستية، ويمنع الثوار من استخدام الأسلحة والذخيرة التي يستولون عليها في الحرب.

في نهاية صيف ١٩٨٤ شعرت أني أمشي في وادٍ، في جانب منه، كانت المقاومة تتوسع باستمرار وتتطلب المزيد، وفي جانب آخر كانت وكالة المخابرات المركزية تسحب دعمها. كان الوادي يتسع كل يوم، ومن دون أن أقدم المساعدة وفي وقت قريب كنت سأسقط حتماً.

لكن كايسي استطاع أن يعي ما يجري ويدرك خطورته، وطلب مني أن أحضر إلى لانغلي صباح أحد أيام السبت لبحث وضع المقاومة. كان يرتدي ثياب الغولف، ولم يبد أنيقاً في كنزته الصفراء.

عرضت لائحة المشاكل الطويلة التي كانت تكبر مع رحيل وكالة المخابرات المركزية. قلت له: «المال وحده لا يكفي».

أومأ برأسه: «أنا أدرك ذلك، وسيصبح الأمر أسوأ في تشرين الأول/ اكتوبر عندما يذهب الجميع*، عندها ستحتاج إلى أحد ما ليساعدك».

أحنى ظهره قليلاً وحدّق نحو الأعلى وكأنما الجواب مكتوب على السقف، عندما كان يقوم بذلك كنت أمسك نفسي عن النظر نحو الأعلى.

قال لي: هل تعرف ديك سيكورد؟

أجبته: الجنرال في القوات الجوية؟ أنا أعرف من هو. لقد تحدثت معه مرتين خلال مشروع الأواكس.

قال كايسي: ذلك هو الرجل المطلوب، إن لديه الخبرة الضرورية لهذا النوع من العمليات، إنه يعرف الأشخاص المختصين، وهو ينجز الأمور ويبقي فمه مقفلاً، لماذا لا تتصل به؟

في ذلك الوقت كان كل ما أعرفه عن سيكورد أنه كان جنرالاً في القوات الجوية ومعاون مساعد وزير الدفاع وعنصراً فاعلاً في تمرير صفقة الأواكس في الكونغرس. في الحقيقة كانت له شهرة أكثر مما كنت أعرف، وكان معروفاً بأنه خبير في الحرب غير التقليدية وقدير في العمليات السريّة.

في أوائل الستينات كان سيكورد عنصراً فاعلاً في الحرب السرية التي خاضتها وكالة المخابرات المركزية في لاوس. قال عنه الناس إن الماء المثلج يسري في عروقه، وبعدما

---

* أي جميع موظفي الإدارة. (المترجم).

قرأت عن بطولاته كنت أتصوره يقود سرباً من الطائرات خلال مجنبات العدو دون أن يعرق.

فيما بعد ادعى جميع الناس أن سيكورد كان شنيعاً وبغيضاً وغير أخلاقي وأنه على الرغم من مركزه العالي في وزارة الدفاع كان إلى حد ما في دائرة الظل، ولكني متأكد أنني في ذلك الوقت لم أسمع شيئاً من ذلك. لم يكن كايسي هو الذي أوصى به وحده، بل إن مكفرلين نفسه كان سعيداً جداً لاشتراكه، وكما أتذكر إن الشخص الوحيد الذي اعترض على سيكورد كان كلير جورج معاون كايسي لشؤون العمليات.

سألني مرة فقال: من أجل أي شيء تستخدمونه؟

أجبته: «لأن المدير أوصى به».

فيما بعد أظهرت الصحافة اشتراك سيكورد مع أدوين ويلسون المشهور، وهو ضابط خائن من وكالة المخابرات المركزية سجن لأنه باع أسلحة للقذافي. لكن سيكورد لم يتهم بأي خطأ، حتى إنّ كايسي الذي كان يكره القذافي أكثر من أي شخص آخر لم يبد عليه أنه تأثّر بذلك. ولكن كما تعلمت أخيراً عندما تكون موضع شكّ فإن الإثباتات لا تنقذك، وإذا كنت في الحكومة واعتقد أحد ما أنك مذنب فما عليك إلّا أن تقول للوظيفة وداعاً.

تقاعد سيكورد في ربيع عام ١٩٨٣ متخلياً عن طموحاته العسكرية، وعمل لدى ألبرت حكيم وهو رجل أعمال كان يعرف سيكورد عندما كان هذا الأخير يخدم في إيران، وكان حكيم يملك شركة تجارية (مجموعة ستانفورد التكنولوجية التجارية الدولية).

عندما التقيت للمرة الأولى مع سيكورد طلبت منه المساهمة في موضوع الكونترا فلم يبد حماساً، وعندما وافق في النهاية أوضح أن الطريقة الوحيدة التي يستطيع فيها المساعدة هي في وقف أعماله التجارية الأخرى.

وافق كايسي ومكفرلين وكذلك أنا على تعويضه عن الأعمال التي تخلّى عنها، كان لديه اتصالات عديدة وعندما يطلب من عناصره مساعدة الكونترا يجب أن يدفع لهم أجورهم.

دعني أوضح هذه النقطة: في الوقت الذي أقحمنا سيكورد في موضوع مساعدة الكونترا كان رجل أعمال، وقد قبل على هذا الأساس، وكان يعرف أنه ليس متطوّعاً في سبيل قضية المقاومة النيكاراغوية، لقد فهم الجميع أنه يريد تحقيق أرباح فقط.

لم أعلم كم كسب سيكورد، وما زلت لا أعلم حتى الساعة، ولكني أعرف هذا:

كـان يقوم بكـل ما نـطلب منه، ومقـابل ذلـك كنت أتفق أنا وسيكـورد على أجـر لذلـك العمـل. لم يبحث بالتفصيـل عن التعويض العـادل الـذي يستحقـه لأن ذلـك يسبب لنـا مشاكل في آخر الأمر.

عندما توقف نشاط إيـران ـ كونـترا، أشار منتقـدو العملية إلى هـذا الفشل الإداري واعتبروه تقصيراً هاماً من قبـلي، ولقد كـان كذلـك بالفعـل. فلو كانت وكـالة المخـابرات المركزية ما تزال تدير الأعمال، وانضم ديـك سيكورد لكـانوا أعـدّوا له محـاسبين ومحـامين وعناصر اتصال أي أركان للعمل. لم يكن لـدينا هـذا النوع من المسـاعدة، ولأنـا ملزمون بالتقيّد بالسريّة والوقت والموازنة، كان أمامي خياران، إما أن أسـاعد الكـونترا بشكـل غير كامل، أو لا أساعدهم أبداً. بالنسبة إليّ كان الجواب واضحاً*.

ربما كان عليّ أن أذهب إلى مكفرلين وأقول له: «انظر ـ إما أن يوضع معي خمسة أو ستة أشخاص للمساعدة أو علينا أن نتوقف. الله يعلم أنه لم يكن لديّ سـاعات كـافية في اليوم من أجل أن أقوم بجميع الأعمال الضرورية للإشراف على ذلك».

لكني كنت ضابطاً صغيـراً ومن المفترض أن تكـون الحلقة ضيقـة، ولم يشأ أحـد أن ينشىء هيكلاً بيروقراطياً سرعـان ما نلغيـه عندمـا يعيد الكـونغرس مـوافقته عـلى التمويـل وتتولى وكالة المخابرات المركزيةالعمل، إلى جانب ذلـك كنت أحب العمل عـلى الرغم من إرهـاقه. كنت دائـماً على الهـاتف مع مكفـرلين وسيكـورد وكايسي وكـاليرو وعـدد من قادة الكونترا، وكذلك مع وزارة الخارجية ومع سفـرائنا في أميركا الوسطى وأصدقائنا عبر العالم. كل هذا بالإضافة إلى مشاريع مكافحة الإرهاب في قـوة العمل، والبـدء في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥ بالمبادرة نحو إيران.

كان لديّ بعض التحفّـظات على المبـادرة نحو إيـران كما شرحت من قبـل، ولكني لم أتخوف من القيام بأي عمل من أجل أن أدعم التزامي بالمقاومة النيكاراغوية.

بعدما وافق ديك سيكورد على مساعدة الكونـترا، أرسل رافـايل كـوينتيرو المعـروف «تشي تشي»، وهو مقاتل كوبي سابق من أجل الحـرية، عمـل مرة لـدى وكالـة المخابـرات

* مرّت أوقات انهمكت فيها بالعمل. في ١٠ حزيران/ يونيه ١٩٨٦ أرسلت رسالـة على جهـاز اتصالات البيت الأبيض إلى الأميرال بواندكستر عبّرت فيها عن إحباطي لأنني لم أستطع إنجاز كل ما كانت تقـوم به وكالة المخابرات المركزية للمقـاومـة. لقد قمت بعمل جيّد كبير، ولكنّ المال ليس هو ما نحتـاج إليه كثيراً في هذه النقطة، إنّ الحاجة الماسة هي أن تتولى وكالة المخابرات المركزية هذا النشاط بحيث تتولاه بشكل أفضل من كولونيل مرتبك في مشاة البحرية.

المركزية، إلى الهندوراس للاجتماع بقادة الكونترا. زار كوينتيرو مخيّمات الكونترا وكتب تحليلاً مفصّلاً عن حاجات الثوار وأعد تقريراً إلى سيكورد.

بينما أخذت مساهمة سيكورد تزداد، بدأ يشغّل مزيداً من الأشخاص. بالإضافة إلى كوينتيرو أحضر عدداً من الرجال الذين كانوا قد عملوا معه في جنوبي شرقي آسيا: توم كلينز وريتشارد غاد وبوب دوتون، ومعهم حضر طيارون وملاحون وعناصر للصيانة وفنيون ولوجستيون من أجل الإسقاطات الجوية في نيكاراغوا.

كان سيكورد يتّبع أسلوب وكالة المخابرات المركزية في تغطية الأعمال السرية، وقد أعد شركات وهمية للتغطية في البرتغال وسويسرا وباناما وأمكنة عديدة، وباستخدام الأموال التي كانت ترد من السعوديين إلى كاليرو اشترى الأسلحة والطائرات والذخيرة وكل ما كانت تحتاج إليه المقاومة، ثم استأجر طيارين واشترى طائرات ودفع أموالاً لعملاء أجانب، وبنى مخازن ومدارج للطائرات وكل ذلك في بلدان عديدة.

كان معظم هذا النشاط وببساطة محاولة لتكرار ما كانت تقوم به وكالة المخابرات المركزية منذ عام ١٩٨١، كان بعضها مضيعة للوقت وفاشلاً، لأن وكالة المخابرات المركزية كانت قد بنت منشآت لم يسمح لرجال سيكورد بأن يستخدموها. كان العديد من المخازن والمنشآت في المنطقة فارغة ومليئة بالغبار، ولكن وبسبب توصية بولاند تقرر إعادة بناء كل المنشآت الخاصّة بدعم المقاومة، ولقد حاول سيكورد وزملاؤه، في مجال عملهم كقطاع خاص، تكوين صورة حقيقية عن بداية أعمال الوكالة في دعم المقاومة.

في الحقيقة لم يستطيعوا القيام بالعمل كاملاً، وأحد الأعمال التي لم يستطيعوا القيام بها هو الارتباط والتنسيق الضروريين مع حكومات الدول المجاورة فقد كان هذا العمل من مهماتي. ومن أجل تركيز طائرات سيكورد المحمّلة بالمساعدات في قاعدة جوّية سلفادورية في إيلوبانغو اجتمعت مع الرئيس دوارت وحصلت على إذن منه. وقد أجريت لقاءات مماثلة مع عدد من القادة في تلك المنطقة.

كانت إيلو بانغو مكاناً خطراً للقيام بعمليات كهذه، لأن مسؤولين أميركيين كانوا يدخلون ويخرجون منها، وكانت الطائرات التي تدعم المقاومة والمخازن ومنشآت الصيانة تربض هناك تحت نظرهم. فيما بعد وعندما بدأت تحقيقات الكونغرس كان فقدان الذاكرة مذهلاً. فجأة لم يتذكر أحد أن طائرات المقاومة كانت مركزة في إيلوبانغو. لقد نسي جميع المسؤولين الأميركيين في المنطقة أنني كنت أذهب إلى هناك، مع أني كنت أمكث في منازل البعض منهم وأجتمع هناك مع قادة المقاومة. الاستثناء الوحيد كان لويس تامبز، لقد

تعرفنا على بعضنا في مجلس الأمن القومي، وبقينا على اتصال بعد أن عين سفيراً في كولومبيا، وبعدما تلقى تهديداً بالاغتيال نقل إلى كوستاريكا، وكنت أتحدث معه، قبل أن ينتقل إلى سان جوزيه، عن الحاجة إلى جبهة جنوبية ضد الساندينيين.

كان لويس تامبز يؤمن بالمقاومة ويؤمن بقوة الصلاة، وأصر على أن يحيطه جو فرنانديز، رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية، علماً بجميع مهمات الإمداد. كان تامبز يضيء شمعة في مقام صغير في مبنى السفارة في كل يوم تجري رحلة لطائرة إلى نيكاراغوا من أجل نجاح المهمة وسلامة الطاقم، لقد استجيبت صلواته ما عدا مرة واحدة.

بمرور الوقت طلبنا أنا وقادة المقاومة من سيكورد القيام بالمزيد. عندما كان قادة المقاومة يحضرون إليّ ومعهم طلباتهم، كنت أتصل بديك سيكورد الذي كان يشتري لهم الأسلحة من تجار في جميع أنحاء العالم. بحلول العام ١٩٨٦ كان لأعماله قوات جوية للإمداد وسفينة تدعى إيريا للنقل عبر البحار وشركة بناء تبني مدرجاً سرياً في كوستاريكا ومخازن في السلفادور والهندوراس ومنشآت للاتصالات والصيانة في المنطقة. لولا سيكورد لواجهت المقاومة خطر الزوال.

لم يكن ديك سيكورد الجنرال المتقاعد الوحيد الذي ساعد المقاومة، لقد حضر الجنرال سينغلوب* إليّ عدة مرات وسألني عمّا يمكن أن يفعله للكونترا!، وعندما وصفت له بعض المشاكل التي يعانون منها، اتصل سينغلوب بمهرب أسلحة أوروبي، وأحضر بضعة آلاف من بنادق أ.ك ٤٧ البولونية الصنع مع ذخيرتها. كان السعر زهيداً جداً وأقل بكثير من أسعار سيكورد، لكن كايسي كان خائفاً من الضجّة التي أثارتها الصفقة. بالنسبة إلى كايسي كانت السرية والسيطرة أهم من السعر، وبناء على توجيهاته أنهيت كل أعمالي مع سينغلوب.

خلال تلك الفترة كنت أطلع مكفرلين على كل شيء لأتأكد من أنه كان مرتاحاً من مهماتي الواسعة ومن ازدياد مشاركة سيكورد في تأمين الأسلحة والخدمات للمقاومة. وقد أوضح لي في مناسبات عديدة أنه هو والرئيس راضيان عن النتائج.

---

* كان جون سينغلوب جنرالاً متقاعداً في الجيش، قصير القامة حاد الكلمات، وهو من أبطال الحرب العالمية الثانية وحرب كوريا. كان قائداً للقوات الأميركية في كوريا إلى أن قرر الرئيس كارتر سحب قواتنا. صرح سينغلوب في إحدى جلسات لجان الكونغرس ما معناه أن خطة الرئيس هي أغبى فكرة سمع بها في حياته. لم يظن الرئيس كارتر أن الفكرة غبيّة مع أنه غيّر رأيه، ثم قرر سينغلوب التقاعد. عام ١٩٨٤ سحب الكونغرس الغطاء من تحت الكونترا وتخوّف سينغلوب من ذلك. كان يشعر بضرورة الوفاء بالتزاماتنا نحو المقاومة وتطوّع للقيام بأي عمل من شأنه عدم التخلي عنهم.

لم يكن شراء الأسلحة للكونترا عملية صعبة بل كان تسليم هذه الأسلحة إلى قوات المقاومة داخل نيكاراغوا. بعد انسحاب وكالة المخابرات المركزية كانت القوات الجوية للكونترا عبارة عن ست طائرات نقل قديمة يقودها طيارون كانوا سابقاً في الحرس الوطني. لم يكن لديهم التدريب الكافي ولا التجهيزات الكافية لإجراء عمليات إسقاط ليلية، وهي عمليات هامة وضرورية في حروب كهذه. كان ذلك في مجال اختصاص سيكورد، ولكن حل هذه المشكلة لم يكن سهلاً.

كانت الطائرات التي أحضرها سيكورد من الطراز نفسه الذي استعمله سابقاً في لاوس، وهي طائرات قديمة من نوع س ٧ وس ١٢٣، واستمر العمل عدة أشهر للعثور على الأجزاء الضرورية لإعادة الطائرات إلى شكلها، وكذلك تأمين الطيارين لقيادتها. لقد تطلب كل شيء وقتاً أطول وكلفة أكثر مما كنا نتوقع، ولكني لم أشأ انتقاد جنرال معروف في القوات الجوية وله خبرة واسعة في هذا المجال.

كان الوضع وكأنّ سيكورد شكّل فريق دعم جوي يخوض حربه الأخيرة دون بنية تحتية قوية، مثل تلك التي أمّنتها لهم وكالة المخابرات المركزية في لاوس، والتي لا يستطيع أحد، حتى سيكورد نفسه، أن يبني مثلها.

برزت بعض المشاكل ففي خلال رحلة إلى السلفادور تعرضت إحدى الطائرات، من نوع س - ٧، إلى مشاكل في المحرّك، وأخذت تنخفض وبدأ طاقمها يقذف كلّ ما هو غير حيّ منها. كان المشهد غريباً، فقد رمى الطاقم الحقائب والصناديق وحتى البراد من الطائرة، ثم قامت الطائرة بهبوط اضطراري على طريق عادية وبقيت هناك عدة أيام حتى حضر من يصلحها. لم يصب أحد بأذى ولكن الجميع علم بهذه الطرفة التي أثارت ضحكهم.

نفذ فريق سيكورد مهمات خطيرة أخرى وعدداً كبيراً من الإسقاطات فوق وحدات المقاومة، إنه من السهل لنا أن نتمعّن في المشكلة وأن نعثر على الحلول، ولكن إذا كان عليّ أن أقوم بذلك مرة ثانية فإن سيكورد هو الشخص المناسب الذي أعمل معه.

كانت عمليات الإسقاط صعبة وخصوصاً في الليل، فإذا أسقطنا ثمانية صناديق فإننا نكون محظوظين إذا سلم منها ستة. كانت الطائرة تحلق في دوائر والطيار يفتش عن النيران التي يشعلها المقاتلون على الأرض للإشارة، ولكن إذا كانت الأرض رطبة أو الطائرة مرتفعة نصف ميل فلا يمكن الإسقاط أبداً. لم يكن لدى الكونترا معدات إلكترونية معقّدة من شأنها أن تجعل هذه العملية أسهل، كما أن الإسقاط الجوي لا يجري دائماً بسهولة.

قبل أن يحضر سيكورد، كانت وكالة المخابرات المركزية تقوم بكل ذلك، حتى الوكالة تعثرت في عملها عدة مرّات، في إحدى المرات كانت الشحنة تتألف من محارم صحية والتي كان يستعملها الكونترا لباس ميدان في تلك الأدغال.

يذكرني هذا بقصة استمعت إليها من أحد مسؤولي وكالة المخابرات المركزية عقد لقاء استراتيجياً مع بعض قيادات المقاومة في فلوريدا. حجزت الوكالة جناحاً في فندق في كورال غابلز وكان الدفع نقداً، عندما حضر الجميع قرّروا طلب طعام الغداء من حساب خدمة الغرف، تناول أحد ضباط وكالة المخابرات المركزية الهاتف واتصل بالمطعم وقال: **«ما هذا؟ لا خدمة غرف؟ ماذا؟ لأننا في وكالة المخابرات المركزية؟ أنت تمزح معي أليس كذلك؟»**.

وفي هذا الوقت كان كل شخص في القاعة يقف ويضع الوثائق في حقيبته ويتجه نحو الباب.

قال الضابط: انتظروا دقيقة.. ارجعوا.. لقد أخبروني للتوّ أن وكالة المخابرات المركزية لا تدفع مسبقاً.

كان التحدي العسكري الكبير للكونترا هو طائرات الهليكوبتر السوفياتية من نوع هايند، وهي طائرات هجومية مسلحة بمدافع رشاشة وصواريخ وأجهزة إشعار تعمل بالأشعة دون الحمراء تستطيع أن تكشف التحركات الأرضية، وقد استخدمها السوفيات في أفغانستان وكان الثوار يسمونها الدبابات الطائرة.

إن طائرة الهليكوبتر العادية معرضة للأذى إذا أصابتها نيران الأسلحة الخفيفة الأرضية، ولكن طائرة الهايند المصفّحة كانت صعبة التدمير. لقد طوّرنا خططاً عديدة للتعامل معها، وطبعنا مناشير ووزّعناها في جميع أنحاء نيكاراغوا، وأعلنا فيها عن تقديم مكافأة مليون دولار لأي طيار يفرّ بإحداها إلى باناما حيث تأخذها وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع وتطّلع عليها.

اقترح ضابط سابق في قوات الخدمات الجوية الخاصة البريطانية، والذي أدّى خدمات عديدة لحكومة صاحبة الجلالة، معالجة لموضوع الهايند وقال إن أفضل حل هو مهاجمة هذه الطائرات وهي رابضة على الأرض.

أخيراً وافقنا على خطّة لمهاجمة قاعدة جوية عسكرية تتجمع فيها طائرات الهليكوبتر، لكن ذلك تطلب منا ترتيبات معقدة، ولم نكن نعلم بجميع التفاصيل. لم يكن صعباً علينا أن نرسل مجموعة من الكوماندو لتنفيذ هذا العمل، ولكن استعادة هذه المجموعة هي قصة أخرى!

سلم السوڤيات المزيد من هذه الطائرات إلى نيكاراغوا، وتوسل إلينا الكونترا لتزويدهم بصواريخ أرض ـ جو. كان لدينا ثلاثة حلول: الصاروخ ستينغر الأميركي الصنع، أو رد آي الأميركي الصنع أيضاً، وبلوبايب البريطاني، أو سام ٧ السوڤياتي. كانت الصواريخ الأميركية غير واردة وذلك لأسباب سياسية، ويمكن أن ينتقم الساندينيون ويزودوا ثوار السلفادور بصواريخ سوڤياتية مضادة للطائرات. بعد جهد عقيم للحصول على بلوبايب، استقر الرأي على صواريخ سام ٧ التي اشتريناها أخيراً من الصين.

رسمياً كانت الصواريخ تشحن من الصين إلى غواتيمالا، وكنت أتوجه إلى غواتيمالا وأجري الترتيبات اللازمة لاستلامها (طالب الصينيون بشهادات استخدام من غواتيمالا من أجل إمكانية الإنكار فيما بعد).

عودة إلى واشنطن، اجتمعت مع ضابط صيني من عناصر السفارة الصينية لتشجيعهم على التعاون. قبل الاجتماع تأكدت من أن مكتب التحقيقات الفدرالي يعلم بأن مستشار شؤون الأمن القومي وافق على الاجتماع، وآخر شيء يخطر ببالي هو أن يتعجب أحد ممّا إذا كان الصينيون يحاولون أن يجنّدوني كجاسوس لهم.

كان الضابط الصيني رجلاً قصير القامة رمادي الشعر، وكان استناداً إلى سجلاتنا قد قاتل ضد مشاة البحرية الأميركية في حرب كوريا. والآن بدلاً من أن نلتقي على تلة محايدة كأخصام متحاربين، فقد تناولنا طعام الغداء في مطعم نادي كوزموس في قلب مدينة واشنطن. تركز معظم الحديث عن المخططات السوڤياتية للسيطرة على العالم الثالث، وهو أحد مواضيع قليلة تمكنّا من الاتفاق عليها.

من الغريب أن الحكومة الساندينية لم تقم علاقات دبلوماسية مع الصين على الرغم من عقيدتهم الثورية، فقد أبقوا على علاقات نظام سوموزا مع تايوان. ربما كان هناك تفسير لذلك، فإني أستبعد أن يكون السبب سياسياً أو أيديولوجياً بل هو نوع من العبث البيروقراطي.

ظاهرياً كان من الغريب أن نطلب من حكومة شيوعية أن تساعدنا في دعم مقاومة معادية للشيوعية، لكن بالنسبة إلى الصينيين كانت هذه طريقة أخرى لمقارعة الاتحاد السوڤياتي. لقد كانت صفقة الصواريخ تحقق لهم مكسبين: الأول تحقيق علاقات أفضل مع الولايات المتحدة ومزيداً من العلاقات السيئة مع الاتحاد السوڤياتي. لم يجروا حتماً وراء المال الذي كان في هذه الحالة شيئاً تافهاً.

استغرقت شحنة الصواريخ وقتاً طويلاً حتى تصل إلى غواتيمالا إلى درجة أن كاليرو

كـان يصفها بـالزورق البـطيء القادم من الصـين. ومثل أي عمليـة سريّـة تستغرق وقتـاً طويلاً، بدأت تظهر معلومات عنها في تقاريـر وكالـة المخابـرات المركـزية. ذكـرت تقاريـر عديدة عن دور لريتشارد سيكورد في العملية، ولدى ورود الكثير من التقارير طلب كايسي من محطات وكالة المخابرات المركزية التوقف عن إرسال التقارير المتعلّقة بهذه الشحنة.

عنـدما وصلت الصنـاديق التي تحوي الصـواريخ وأجهـزة الإطـلاق إلى مينـاء سـان جوزيه كان تشي تشي كوينتيرو في استقبالها. عبرت القافلة المؤلفة من ٢٠ شـاحنة غـواتيمالا بحـماية قـوة من الجيش وطائـرات الهليكوبـتر لحراستهـا من أي كمـين قـد يقـوم بـه ثـوار السلفادور، وتصوّر بعد كل ذلـك كيف يكون المشهـد عندمـا تقع شحنـة سلاح من بلد شيوعي في أيدي الشيوعيين؟!

ولكن من بـين العديـد من المساعـدات للمقاومـة، وما كـان يجب أن يكون الأسهل أصبح المهمّة الأصعب، فعندما وصلت الشحنـة إلى الهندوراس، حيث كـان من المفترض أن يسلمها الجيش الهندوراسي إلى المقاومة، حوّلوها إلى قاعـدة عسكريـة ورفضوا تسليمهـا إلى الثوار.

كان هذا مثلاً على القيود التي خلّفها الصراع على نيكاراغوا للحكومة الهندوراسيـة. لقد كانوا يؤيدون المقاومة ويدعمونها عاطفياً وسياسياً، ولكنهم كانوا خـائفين من إغضـاب الساندينيين الذين كانوا يعبرون الحدود لضرب المقاومة. عندما كان يحدث ذلك كان يؤدي إلى مقتل بعض المدنيين من الهندوراس، وهكـذا وبصورة رسميـة كانت الهنـدوراس تعلن دائماً أن لا وجود للكونترا على أراضيها.

ولأن دعم الهندوراس كان حرجاً بالنسبة إلى المقاومة، فقـد تطلّب ذلـك اجتماعـات عديدة مع الرئيس روبرتو سوازو كوردوبا. كان سوازو سياسياً معروفاً بخدمـاته الـطبية في أرياف الهندوراس وبعدائه الشديد للشيـوعية. كـان رجلاً بـديناً يبـدو لك أن وزنـه يزيـد وأنت تنظر إليه، عـلى الرغم من كـونه طبيبـاً من المفترض أن يـدرك خطر البـدانة. كـان يتمتع بشهية هائلة ولم يتردد في إطـلاق العنان لهـا، وما زلت أتصـوره بشكله الضخم وهو يجلس على الشرفة رافعاً رجليه ويداه ممدودتان على بطنه.

عندما وصلت الصـواريخ الصينيـة إلى بلادهم ارتبـك العسكريـون الهندوراسيـون، قالوا: منذ سنوات ونحن نتوسّل إليكم أن تـزودونا بصـواريخ أرض ـ جـو، ـ العالم بـأسره يعرف أنكم تزوّدون المقاومة الأفغانية بهذه الصواريـخ، والآن أنتم ترسلونها إلى الكـونترا، لماذا لا تعطونا شيئاً منها؟

لقد قطعت شحنة الصواريخ مسافة نصف الكرة، وهي الآن محتجزة على مسافة قريبة من مخيمات الكونترا. كان لا بد من عمل ما وبسرعة. كتبت مذكرة إلى مكفرلين لحث الرئيس ريغان على الاتصال بسوازو في الهندوراس والطلب منه الإفراج عن الشحنة في الحال.

أجرى الرئيس ريغان المكالمة في بعد ظهر اليوم نفسه، وتابعت الحديث من غرفة الأوضاع في البيت الأبيض. تم الإفراج عن الأسلحة والذخائر في اليوم نفسه لتسلم إلى الكونترا.

طلب الهندوراسيون ثمناً من أجل السماح للكونترا بالبقاء في بلادهم، وفي عام ١٩٨٥ وافقت إدارة ريغان على عدة حوافز: الإفراج عن ٣٥ مليون دولار كمساعدة اقتصادية، وتسليم مساعدات عسكرية تتضمن شاحنات وأسلحة وأجهزة اتصال راديوية وأحذية، كما وافقنا على إكمال برامج محطة وكالة المخابرات المركزية في الهندوراس.

عام ١٩٨٩ عندما وردت بعض هذه التفاصيل في تقارير قدمت في أثناء محاكمتي، كان هناك ادعاءات وادعاءات مضادة مثل ما إذا كان هناك أي تعويضات من أجل المساعدة الهندوراسية. لا يوجد أدنى شك في ذلك. قبل اجتماع الرئيس ريغان مع الرئيس سوازو في ٢١ أيار/ مايو ١٩٨٥، قدمت مذكرة روتينية من مجلس الأمن القومي إلى الرئيس تضمّنت المقطع التالي: في اجتماعك سيكون من المهم أن تكرّر لسوازو الاهتمام الذي نعلّقه على تعاونه المستمر في إبقاء الكونترا كعامل ضغط فاعل على الساندينيين، ودون أي ارتباط أو غموض سيكون من المفيد أن نذكّر سوازو أنه بالعودة إلى مساعدتنا ـ بشكل ضمانات أمنية ومساعدات ـ نتوقع منه التعاون لتحقيق أهدافنا المشتركة. في هذا المجال يمكنك أن تشدّد على جدية التزاماتنا الأمنية. «والتي يبدو أن الهندوراسيين ينظرون إليها على أنها تعويض عن تعاونهم مع المقاومة»*.

فيما بعد وفي أثناء محاكمتي أصبحت قصة الجهود الأميركية لحث الهندوراس على تقديم المساعدات للكونترا عنصراً هاماً في الدفاع عني، وبعد انكشاف عملية إيران ـ كونترا وصفني الناس بأنني كالمدفع الذي يعمل وحده. بينما كنت أقوم بواجبي كانت التقارير تبالغ كثيراً عن مدى صلاحياتي. ومن الواضح أنني لم أكن أستطيع أن أنقل تلك الصواريخ، من الصين وطوال الطريق إلى أن تصل إلى المقاومة النيكاراغوية، دون علم ومساعدة قوية من كبار المسؤولين في الحكومة الأميركية. في إحدى المراحل بينما كان

* هذه الجملة غير واردة في النص الأصلي وأضافها المؤلف في الكتاب.

الصينيون يتباطأون في تسليم الشحنة، طُلب من رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال فيسي أن يشجعهم على السرعة وهذا ما حصل. كانت قصة الصواريخ الصينية والتقارير المكثفة التي وردت عنها وجهود الإدارة في دعم الكونترا أكثر من كافية لتحطيم الأسطورة التي تقول إني كنت وحيداً وأعمل من تلقاء نفسي.

على الرغم من حجم العمل الكبير كانت جهودي لمصلحة الكونترا مرضية. كان المشروع الأساسي يسير كما هو مرسوم، وبدأت أعد الأشهر حتى أتمكن من أن أترك مجلس الأمن القومي وأعود إلى مشاة البحرية. ولكن عندما بدأت العمل مع المقاومة شعرت بأنني أقدم شيئاً، سواء إذا كانت مراقبة سيكورد وهو يجمع الأسلحة السوفياتية المناسبة لقوات المقاومة، أو ترتيب تسليم الإمدادات الطبية لمخيمات الكونترا. كان يتنامى لدي شعور بأني أحقق إنجازاً هاماً. أخيراً كنت أقوم بأشياء أكثر نفعاً من إحالة ورقة من مكتب إلى آخر.

كان هناك على أي حال ثمن غالٍ علي أن أدفعه، ومع أني أمضيتُ جميع أوقات الراحة مع عائلتي إلاّ أنه لم يكن بشكل كاف أو مريح. كان جرس الهاتف يرنّ في معظم ساعات الليل، في بعض الأحيان كانت ترد اتصالات من البيت الأبيض حول هجوم إرهابي، وفي أحيان أخرى كان أدولفو أو سيكورد أو أحد عناصرنا في أميركا الوسطى يتصل ليبحث مشاكل عملانية، أو يتصل أميرام نير من إسرائيل والذي لم يستطع أن يتذكر أن تل أبيب وفرجينيا تقعان في منطقتين بعيدتين عن بعضهما. كان أمي ضابطاً برتبة نقيب في المدرعات، وفي إحدى الليالي وخلال محادثات حسّاسة مع الإيرانيين اتصل بي من دبابته، لقد انتقل ببساطة إلى عمود الهاتف وعلّق السلك على الخط وأجرى المكالمة.

عند أول قدوم إلى مجلس الأمن القومي كانت آلة الهاتف إلى جانب السرير من ناحية زوجتي بتسي، ولكن إزاء المقاطعات والإزعاجات المتزايدة، ضربت رجلها على الأرض وقالت: «أنا أعرف أنك تحب النوم في ذلك الجانب، ولكن إذا اتصل بك أصدقاؤك في منتصف الليل فعليك أن تجيب عليهم بنفسك. وبعد خمس عشرة سنة من الزواج بدأت أنام على الجانب الآخر من السرير، يبدو أن ذلك كان تافهاً، ولكني لم أتعود على هذا التغيير الطفيف إلاّ بعد أشهر.

(١٢)
عملية التصوّر

ما أزال أتذكر رائحة الدخان في قواعد الكونترا وخيماتها في الغابات. كانت الحرائق تشتعل باستمرار، ليس من أجل طهي الطعام فقط، ولكن من أجل التدفئة وخصوصاً عند الصباح في تلك الجبال. لقد زرت المخيّمات في مناسبات عديدة، وهي ياماليس ولاس فيغاس ولاس تروجيس وبوكاي وسيفونتيس ولاس مانوس وأل باريسو وراس راس أغواكات، وعلمت ما كان يجري هناك وما كان الناس بحاجة إليه. وبالعودة إلى الماضي، هذه الزيارات هي التي دفعتني من أجل بذل المزيد من الجهود لدعم المقاومة. لا يمكن لأحد إلا أن يتأثر لمأزق هؤلاء الناس الذين تركوا منازلهم ومزارعهم المتواضعة والأرض التي ولدوا عليها، من أجل هذه الرحلة الشاقة نحو الشمال إلى الهندوراس.

كانت المخيمات خلال النهار في نشاط دائم، وكان الرجال يتدربون على أعمال الإغارة، والنساء يغسلن الملابس في النهر ويجمعن الحطب من أجل إشعاله وينقلن المياه من مراكز التصفية. وكنّ أيضاً يحضّرن الطعام ـ الفاصولياء السوداء والرز عند الصباح، وللتغيير، الرز والفاصولياء السوداء في المساء، كانت غرفة الطعام عبارة عن خيمة مسقوفة بالبلاستيك لوقايتها من الأمطار، وفي نهاية النهار تراهنّ متعبات من العمل المرهق.

في أحسن الأوقات كان الجنود ينتعلون الجزمات. كنا نرى البعض حفاة أو ينتعلون الأحذية المطّاطة أو الصنادل. كان المقاتلون يرتدون الزي العسكري المنوّع والذي يتألف من بزة عمل من الهندوراس ولباس كاكي من غواتيمالا ومعدات تمويه من الولايات المتحدة وبزات عسكرية كوبية الصنع تمّ الاستيلاء عليها من مخزن في نيكاراغوا. كان كاليرو قد اشترى بعض البزات الكحلية من مخازن سيرز* الأميركية، وقد اختارها من اللائحة.

كان العديد من سكان المخيمات يرتدون ألبسة حصلوا عليها كهبات من المنظمات

---

* محلات كبرى لصنع الألبسة في الولايات المتحدة. (المترجم).

الإنسانية الأميركية، وكنت أرى الأطفال يرتدون ألبسة من نوع «ت شيرت» كتب عليها «سجن الكاتراز» و«مينوسوتا تونرو» و«أسبريت» و«جامعة هارفرد» و«قبّلني أنا إيرلندي».

لا يهم عدد المرات التي زرت فيها المخيّمات، ولكني لاحظت أن مقاتلي المقاومة صغيرو السن أكثر مما كنت أتوقع. التقيت في «مالز» وهو أكبر المخيمات بفتى عمره حوالى عشر سنوات، عيناه سوداوان يدعى توماس كان قد وصل إلى المخيم مع شقيقه الأكبر، قالا: إن والديهما مفقودان وربما كانت تحتجزهما السلطات النيكاراغوية. كان توماس يتوق إلى معرفة ما يفعله شقيقه الأكبر، وعندما أصرّ على أن يقاتل الساندينيين هو أيضاً، سمح له الضباط بأن يرافق شقيقه خلال التدريب. كان منظره وهو يحمل البندقية أ ك ٤٧ التي تساويه في الحجم طريفاً!

عندما غادرت وحدة شقيقه المخيم متجهة إلى نيكاراغوا، مُنع توماس من مرافقتهم، لقد صُدم فقد كان قريبه الوحيد في العالم يغادر المخيم، وسرعان ما فرَّ توماس إلى أن عثر عليه صباح اليوم التالي وكان ما يزال متخوّفاً لأن شقيقه غادر دون أن يصطحبه.

كان توماس محظوظاً في هذا المجال، فهو على الأقل، كان يقاتل مع شقيقه في جانب واحد، لأنه وكما في أي حرب أهلية، كان هناك أخوة يقاتلون بعضهم البعض!

قام البيت الأبيض والمكتب الإعلامي في وزارة الخارجية بكل ما بوسعهم لشرح وضع المخيمات للشعب الأميركي. عام ١٩٩١، عندما بدأ الأكراد يفرّون من العراق، تذكّرت كيف كانت مخيّمات الكونترا. إن الأميركيين شعب كريم، نحن نرسل المساعدات، إلى ضحايا الزلازل واللاجئين في جميع أنحاء العالم، لكن الكونترا ومعظمهم لاجئون من الاضطهاد الساندينى كانوا متجاهلين تماماً.

ساد هذا التجاهل أيضاً بين صانعي القرار في واشنطن، إذ إنهم أنكروا الحجم الحقيقي لحركة المقاومة. انطلاقاً من حفنة من الحرس الوطني عام ١٩٨٠ بدأت المقاومة بالنمو، وعندما توقفت مساعدات الحكومة الأميركية عام ١٩٨٤، بلغ عددهم الآلاف وانتشروا في ستة مخيمات على الحدود الهندوراسية ـ النيكاراغوية. ومنذ ذلك الوقت تركّزت مجموعة من المقاومة على الجبهة الجنوبية على حدود كوستاريكا.

في معظم الحروب الثورية، إذا ذهب عشرة رجال في عملية خاطفة، يمكن أن تعتبرهم محظوظين إذا عاد منهم تسعة أحياء. في الكونترا، كانت إحدى المجموعات مثلاً تختفي في نيكاراغوا، وبعد شهرين يعودون ومعهم عنصرين جديدين. لم يبذلوا

جهـوداً صعبة من أجـل تجنيد المتـطوعين، فعنـدما كـانت وحدة من الكـونـترا تتحـرك إلى المنطقة، يكتشفها بسرعة بعض النيكاراغويين المستائين من الوضع وينضمون إليها.

لكن وعلى الرغم من تضارب الأقوال حول العدد الحقيقي للكـونترا، لم يكن هنـاك أدنى شك في أنها كانت تقوم بعمليات على مستوى كبير في عمق نيكاراغوا. لقد أثـار بقاء المقـاومة وصمـودها الجميـع، وخصوصـاً بعدمـا قطعت عنهـا المساعـدات بموجب تـوصيـة بولاند، وتساءل البعض عن مصـدر هذا الـدعم؟ كان الـدعم السعودي الـذي بدأ عـام ١٩٨٤ سرّاً خفياً، وكذلك منحـة المليوني دولار التي طلبهـا الجنرال سينغلوب من حكـومة تايوان*.

ساهم الدعم غير المنظور للمقاومة في حل معظم المشـاكل الضـاغطة وأهمهـا مشكلة حياة أفراد المقاومة. كـان الناس في المخيـمات جائعـين، لكن لم تحدث قطّ مجـاعة، وكـان الثوار بحاجة إلى مزيـد من الأسلحة ومن النـوع المتطوّر، لكن كـان لديهم بنـادق وبعض الـذخيرة، كـانت القوات الجـوية في الكـونترا مهـزلة مضحكـة، ولكن كان لـديهـا ثـلاث طائرات على الأقل.

كان السؤال المطروح في الكونغرس وفي وسائل الإعلام: من يدفـع ثمن كل هـذا؟ رأى البعض أنه دعم من فريق ثـالث، ووردت تقاريـر عن تبرعـات من إسرائيل وجنـوبي إفريقية وغيرها، وسرت إشاعات أن السعوديين متـورطون في تقديم المساعـدات كما كـانوا فعلاً.

استنتج بعض معارضي الكونترا أن المقاومة كـانت تتلقى دعماً من تجـارة المخدرات. قـال البعض: «إنهم لا يتلقـون أي مسـاعـدة يمكن أن نـراهـا، من المحتمـل أنهم كـانـوا يعملون على ترويج المخدرات».

سمعنا هذه القصص كثيراً وفتّشنا عن مروّجيها ومصادرها وتعـاملنا معهم بـالطريقـة

---

* تلقت المقاومة فيها بعد دعماً أجنبياً ثالثاً لكنه لم يصل فعلاً إليها. ففي صيف عـام ١٩٨٦ بعدمـا تقرّبت وزارة الخارجية من سلطان بروني تبرع بعشرة ملايين دولار للمقـاومة. وفي غلطة نـادرة، أخطأت فـون هال مصادفـة في رقمين من رقم الحسـاب عندمـا كانت تـطبعه لصـالح بنـك لاك رسورس في جنيف، ذهب المـال إلى الحسـاب رقم ١ ـ ٢٢ ـ ٤٣٠ ـ ٣٦٨ بـدلاً من ١ ـ ٢٢ ـ ٤٣٠ ـ ٣٨٦ ولم يصـل إلى الحساب المطلوب. في ذلك الوقت كان للكونترا مصدران إضافيان للدخـل: أموال خـاصة من مؤسسـة المحافظة على الحرية التي كان يرئسها سبيـتز شانيـل، وهو أحد المحافـظينَ النشيطين و«سر داخـل سر» أرباح بيع الأسلحة إلى إيران.

المناسبة، وعندما تبينّ لوكالة المخابرات المركزية أنّ شريكين لايدن باستورا قائد الجبهة الجنوبية لديهما روابط مع تجار المخدرات، أوقفت التعامل معهما. إلى جانب ذلك لم نجد أي دليل على أي علاقة أو ارتباط مع تجار المخدرات، كان هناك إجماع بين أجنحة الكونترا، هناك تمويل من تجار المخدرات، إذاً لا بدّ أنّ أحداً ما سوف ينفخ في البوق! يعتقد وليم كايسي أن إشاعات المخدرات تشكل نموذجاً لحالة من الجهل، كان مقتنعاً أن هذه القصص قد تم تأليفها في كوبا وانتقلت من هافانا إلى مكسيكو ثم إلى الكونغرس حيث انتشرت بسرعة في أوساط المعارضين للمقاومة. كان هناك دليل قاطع على أن الكوبيين أنفسهم متورطون في تجارة المخدرات، وأن أفضل طريقة لديهم للتعامل مع هذه القضية هي تركيز الأضواء على فريق آخر.

كان الساندينيون متورطين في تجارة المخدرات. عام ١٩٨٤ ساهمت في تنسيق عملية داخلية تتعلق بأحد عملاء المخدرات يدعى باري سيل كان مداناً بهذه التهمة. وافق سيل على التعاون مع مكتب مكافحة المخدرات لقاء تخفيض الحكم عليه. وكان من ضمن مهمته أن يطير من كولومبيا إلى نيكاراغوا في طائرة خاصة مجهّزة بكاميرات وميكروفونات مخفيّة. في نيسان/ أبريل حلّق بطائرته ثم هبط في مطار شمالي ماناغوا واجتمع مع فيديريكو فوغان أحد مساعدي توماس بورج وزير الداخلية النيكاراغوي. ساعد فوغان سيل في تحميل ٧٥ كلغ من الكوكايين. سجّلت هذه العملية في مجموعة من الصور الحية بالأسود والأبيض. وفي تموز/ يوليو عاد سيل إلى نيكاراغوا واجتمع مرة ثانية مع فوغان الذي وافق على إعداد مركز لتصنيع الكوكايين في نيكاراغوا.

بناء على مصادر ومعلومات استخبارية عديدة كنا نعتقد أن الساندينيين يعدون برنامجاً من أجل صناعة الكوكايين الكولومبي في نيكاراغوا وشحنه إلى عملاء تجارة المخدرات في الولايات المتحدة. كان دور النظام السانديني هو تأمين الأمن والعناصر والمطارات ووسائل النقل.

كنّا نأمل في أن نستخدم سيل وقتاً يكفي لإلقاء القبض على بابلو اسكوبار وهو زعيم تجارة المخدرات في كولومبيا (استسلم فيما بعد إلى السلطات الكولومبية بعد أن تلقى تأكيدات بعدم تسليمه إلى الولايات المتحدة) وأي سانديني آخر يتعامل معه. لكننا أوقفنا مهمتنا فوراً عندما ظهرت مقالة في صحيفة واشنطن تايمز حول هذه العملية، وحول تورّط الساندينيين مع تجار المخدرات الكولومبيين.

أضحى باري سيل بعد ذلك شاهداً للحكومة ضد عملاء المخدرات الذين كانوا يتلقون الشحنات منه من قبل. رفض سيل قبول الحماية الفدرالية التي تمنح عادة للشهود

في القضايا الحسّاسة، وفي شباط/ فبراير ١٩٨٦ تعرّض لكمين خارج منزله في ولاية لويزيانا وقتل من جراء إصابته بوابل من طلقات الرصاص، واعتقل القتلة وعددهم ثلاثة وحوكموا بالسجن المؤبد. أما طائرة الـ س ١٢٣ التي كان يطير بها سيل في مهماته السريّة إلى نيكاراغوا، فقد اشتراها الجنرال سيكورد واستخدمها في أعمال مساعدة الكونترا. وبعد أن نزعت منها أجهزة المراقبة أسقطت بنيران الساندينيين في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٦ وكان على متنها يوجين هازنفوس.

مهما كانت الطريقة التي حاولنا بها دحض الشائعات حول تورّط الكونترا بالمخدرات، لم تذهب القصص والشائعات بعيداً في هذا المجال، وما زال بعضها يدور حتى اليوم، وعلى الرغم من أننا ساعدنا جميعاً ثوار الكونترا فقد بذلنا وسعنا لتحديد أي مخالف.

لم يزعجني شيء في حياتي أكثر من الادعاءات بأني أنا، أو أي شخص آخر يدعم المقاومة، كنت على اتصال مع مهربي المخدرات. إني أكره أن أذكر ذلك، ولكن منذ عام ١٩٨٦ أنفق مكتب المدّعي العام المختص عشرات ملايين الدولارات في التحقيق معنا ـ ومعي بالتحديد ـ ولو كانت هناك ذرة من الحقيقة لظهرت حتماً في هذه التحقيقات.

وفي خطوة لتوحيد المقاومة النيكاراغوية، طلب مني كايسي أن أجمع الأجنحة المختلفة تحت مظلّة منظمة واحدة. اقترح أدولفو الاسم: المقاومة النيكاراغوية المتحدة. واختصارها U N O (ولحسن الحظ كان لهذا الاختصار المعنى نفسه في اللغة الإسبانية).

ومن أجل المساعدة على تحقيق الـ U N O أراد كايسي أن يُوسّع دور سيكورد. حتى الآن كان سيكورد يعمل كمشترٍ للأسلحة الأجنبية والذخيرة والمعدات العسكرية والتي لم تستطع المقاومة شراءها من الأسواق المحلية. أراد كايسي أن يكون سيكورد الوحيد الذي يؤمن الإمدادات إلى جميع الأجنحة لا إلى جناح كاليرو فقط. وبالمقابل، كان علينا أن نسلك هذا الطريق منذ البداية بدلاً من إلقاء كل الأحمال على عاتق أدولفو. كان من الأسهل لنا أن نؤمن توحيد الجهود ممّا يمنع من أن يصبح أدولفو هدفاً لشائعات قاسية.

خلال اجتماع استغرق ليلة كاملة في ميامي مع أدولفو وأنريك برموديز وديك وآخرين، اتفقنا على الحاجة إلى ترحيل ثلاثين أو أربعين جندياً أميركياً كان وجودهم المشكوك بأمره غير مقبول في الحكومة الهندوراسية. كذلك بحثنا الحاجة إلى إنهاء مساهمة عدد من تجار الأسلحة في أميركا الوسطى، والذين كانوا يبيعون الأسلحة للكونترا. مع أن أسعارهم كانت جيّدة، وأحياناً جيّدة جداً، فقد كان لمعظم هؤلاء التجار سمعة سيئة،

وكان أحدهم موضع شك من قبل وكالة المخابرات المركزية حول نقـل تكنولـوجيا أمـيركية سريّة إلى السوڤيات.

من الآن وصاعداً سيصبح سيكورد المصدر الوحيـد للسلاح. قـال لي كايسي: «قـل للمقاومة أن يوقفوا تعاملهم مع هؤلاء، إن لهم مشاكل كافية، وليسوا بحاجـة إلى المزيـد، أعطيتك اسم الرجل الثقة. . استخدمه».

وهكذا انغمس سيكورد في دور كبـير. لم يعد الآن مكلّفاً بشراء الأسلحة فقط بـل بجميع أعمال التموين. فيما بعد قالت لجان التحقيق في الكونغرس والصحافة عن ذلك إنه المشروع الكبير، بينما كنا نعرفه بمشروع الديموقراطية. كان هذا المشروع يتألف من طائرات وسفينة ومخازن وأطقم للطيران، وكـان الجانب المـالي من هذا المشروع، بـإدارة شركة لاك رسورسيز، ويسيطر على هذه الشركة ديك سيكورد وألـبرت حكيم. عندمـا كانت الأمـوال الخاصة ترد إلى المقاومة كانت ترسل إلى تلك الشركة.

نتيجة ذلك الاجتماع أنشأ سيكـورد خطوط نقـل جوي يمكنهـا تسليم الإمدادات إلى وحدات المقاومة داخل نيكاراغوا، بغض النظر عن أي جناح ينتمون إليه.

في الوقت الذي لا أكون فيه مسافراً في مهمة تتعلق بالكونترا أو بالمبادرة الإيـرانية أو بمشـاريع مكـافحة الإرهـاب، كنت أقـدم عـدداً من الإيجـازات حـول أمـيركـا الـوسطى. كـانت هذه الإيجـازات تعقد في الغـرفة ٤٥٠ في بنـاية المكتب التنفيـذي القديمـة ويتخللها عرض الصور عـلى آلة الإسـقاط حيث ارتفع عـدد الحضور من حفنـة إلى بضع مئـات، وكان هذا الحضور يتألف من مجموعات كنائسية أو منظمات سياسية.

كنت أكشف بالمقدار المسموح لي عن دور الاتحاد السوڤياتي وتورط الكتلة السوڤيـاتية في أميركا الوسطى. لقد وصفت للحضور كيف كان السوڤيات وحلفاؤهم الكوبيون يثيرون الاضـطرابات في الحـوض الكاريبي، وذلـك لننحرف بـانتبـاهنـا عن حلف الأطلسي وعن المناطق المضطربة في العالم الثالث. لقد أشرت إلى أن السوڤيات كان ينفقون أكثر منا بنسبة ٤ إلى واحد في منطقتنا.

في بداية الإيجاز كنت أعرض عدداً من الصور على آلة الإسقاط حيث كنا نستعرض حركة السلاح الفردي وقاذف الصواريخ الخفيفة الصيني الصنع. خلال حرب ڤيتنام أرسله الصينيون إلى ڤيتنام حيث ختم بطابع جيش ڤيتنام الشمالية. استولت القوات الأميركية على هذا السلاح في ڤيتنام ثم تركته عندما تركت سايغون في ربيـع ١٩٧٥. وعاد القـاذف مرة أخرى إلى أيدي الڤيتنـاميين، ومن ڤيتنـام أرسل القـاذف إلى كوبـا ومن كوبـا إلى مخزن في

غرانادا، ومن غرانادا إلى الساندينيين في نيكاراغوا والذين بدورهم أرسلوه إلى ثوار السلفادور، وأخيراً استولى الجيش السلفادوري على هذا القاذف الذي عاد ووصل إلى أيدينا بدوره.

كان الأميركيون «المعقّدون» معتادين على الاستهزاء بالمؤامرة الشيوعية الدولية، ولكن الوثائق التي عُثر عليها في غرانادا، وكذلك تقارير استخباراتنا، أوضحت أن العديد من الأسلحة، مثل قاذف آر بي جي، كان يروّج في المنطقة.

في هذه الإيجازات كنت أعطي وصفاً لعملية الإنقاذ في غرانادا. كانت جزيرة صغيرة في وسط الكاريبي، حيث اكتشفنا وجود بنادق تكفي لتسليح ثلاثة أضعاف جميع الرجال والنساء والأطفال فيها، وعثرنا أيضاً على أرشيف من الوثائق أحضرناها إلى واشنطن من أجل تحليلها. لقد تضمنت أول التحاليل دراسة مفصّلة لسيطرة السوفيات على بلد آخر. كان مايكل ليدين، أحد الخبراء المعيّنين لدرس هذه الوثائق، وهنا تعرّفت عليه. ومن ضمن أشياء كثيرة كشفت وثائق غرانادا برنامجاً عقائدياً لجميع سكان الجزيرة. لقد أرسل أشخاص مختارون من غرانادا للدراسة والتدريب في الأمبراطورية السوفياتية: موسكو، برلين الشرقية، مدينة هوشي منه، براغ، صوفيا، هافانا، فهل يستطيع أحد أن يناقش و«بشرف» أنه لا يوجد أي دليل على تنظيم الشيوعية الدولية؟

وتضمنت وثائق غرانادا فقرة لم يسمح لي مكفرلين بالكشف عنها، ليس لأنها سرّية ـ لأنّها لم تكن سرية ـ ولكن مكفرلين لم يشأ أن يخاطر باستعداء الكونغرس. كانت الوثيقة رسالة من أحد كبار مساعدي عضو الكونغرس رون ديلومز، من كاليفورنيا، إلى رئيس وزراء غرانادا موريس بيشوب. (كان بيشوب من أتباع كاسترو وقد اغتيل عام ١٩٨٣ على يد مجموعة متطرفة سبقت عملية الإنقاذ الأميركية). قال مساعد ديلومز: «إنه معجب بك كشخص ومعجب بك أكثر كقائد. صدقني إنه لا يقول ذلك لأحد، والشخص الوحيد الآخر الذي أعرف أنه يكنّ له الشعور نفسه هو فيديل».

عام ١٩٩١ عيّن النائب ديلومز عضواً في لجنة استخبارات مجلس النواب.

لم تكن هذه المعلومة هي الوحيدة التي لم أستطع تقديمها في الإيجازات. كان لدينا أيضاً دلائل حول الاتصالات المزعجة بين بعض موظفي الحكومة الأميركية وبعض زعماء الحركة الشيوعية في أميركا الوسطى. أحد هؤلاء كان كبير مساعدي أحد الأعضاء النافذين في الكونغرس، كان لدى كايسي معلومات موثوقة من أن هذا الشخص كان يقدم النصائح للساندينيين، وعملياً يعلمهم على الطريقة التي تحسن لهم صورتهم ووضعهم في

الكونغرس. لكن مكفرلين لم يدع كايسي يواجه أحداً في الكونغرس بهذه المعلومات، وطلب مني أن لا أذكرها في إيجازاتي.

أخيراً كانت إيجازاتي تتضمّن كيف كان الساندينيون يشكّلون تهديداً - ليس فقط لأميركا الوسطى بل كذلك للولايات المتحدة - كان موظفو مجلس الأمن القومي يفكّرون بالاحتمالات بينما كنت أعرض السيناريو لأسوأ الحالات، فإذا نجح النظام الشيوعي في ماناغوا في تصدير «الثورة بلا حدود» فإن المنطقة بكاملها ستتحول إلى فيض من الناس يهربون باتجاه الشمال.

تاريخياً وعندما كان الشيوعيون يسيطرون على بلد ما كان جميع القادرين على الفرار يهربون تقريباً. لقد حدث ذلك في كوبا وڤيتنام وكمبوديا ومرة أخرى في أفغانستان، حيث فر أكثر من ٢٥٪ من السكان إلى باكستان والهند وإيران. وكان الشيء نفسه يجري الآن في نيكاراغوا، وهي البلد الوحيد في أميركا اللاتينية الذي كان عدد السكان فيه يتناقص باستمرار. نزح أربعمائة ألف شخص - أكثر من ١٠٪ من السكان - إلى هندوراس وكوستاريكا وغواتيمالا وباناما. البعض غادر بعيداً إلى المكسيك والبعض الآخر مشى أو استقل السيارات العابرة إلى تكساس وفلوريدا.

قلت إنه إذا نجح الساندينيون وسيطرت الشيوعية في المنطقة، فإن فيض الناس المتجهة شمالاً سوف يتعاظم. كان من المعروف أن ملايين اللاجئين سيصلون إلى حدودنا على أمل الدخول إلى أراضينا. وتصوّروا ما هي تكاليف إطعامهم ولباسهم وإيوائهم، والمعالجة الطبية لخمسة أو عشرة ملايين لاجىء؟

فيما بعد اتهمتُ بأني أستعمل هذه الإيجازات من أجل الحصول على المزيد من المساعدات المالية. لقد قدّمت إيجازات مماثلة إلى أعضاء أثرياء في منظمة المحافظة على الحرية، وهي مؤسسة لا تهدف إلى الربح، تدعم برنامج الرئيس ريغان، وكان يرئسها كارل شانيل المعروف «سبيتنر» وهو سياسي نشيط محافظ مخضرم. لكنّي كنت واعياً ومهتماً بعدم طلب مساهمتهم، وكنت أغادر القاعة قبل أن يطرح سبيتنر موضوع المال. طلب مني مكفرلين أن لا أطلب مساهمة من أحد، ولذلك لم أطلب. (افترضت أنني كموظف في الحكومة فإني ببساطة لا يحق لي التماس المساعدات المالية من المواطنين، وقد علمت فيما بعد أن ذلك ليس صحيحاً).

حدث أن تطوّع بعض الناس لتقديم المساعدات إلى الكونترا، ففي ذات يوم بعد الظهر كان جوزيف كورز، مدير شركة بيرة، يجلس عند صديقه القديم وليم كايسي في بناية المكتب التنفيذي القديمة، ويسأله كيف يمكنه أن يساعد المقاومة النيكاراغوية. قال له

كايسي: «إن الرجل الذي عليك أن تراه هو أوليڤر نورث ومكتبه في الطابق الأسفل».

كان كورز رجلاً طويلاً، وهو بالتأكيد لم يتلاءم مع تصوري للمليونير الكبير. عندما سأل عن المبلغ المطلوب لشراء مواد للمقاومة، وصفت له الطائرة مول م ـ ٧، وهي طائرة صغيرة بأربعة مقاعدة كان يستخدمها عادة عمال النفط وطيارو مسح الغابات. كان سيكورد قد اشترى لتوه طائرتين واستخدمهما للتموين والإخلاء الطبي. كانت طائرة مول من نوع (إقلاع وهبوط على مدارج صغيرة) وبمحرك واحد، ولا تحتاج إلى مدرج للإنزال، وكل ما كانت تحتاج إليه في الواقع هو امتداد مستقيم لطريق عادي.

بعد يومين أرسل جو كورز شيكاً بقيمة ٦٥ ألف دولار، استخدمها ديك سيكورد لشراء طائرة مول أخرى، واستمرت طيلة أيام الحرب وكانت تطير وعليها علامة كورز.

أصبح «مشروع الديموقراطية» يملك الآن سبع طائرات، وهي ثلاث من نوع مول واثنتان من نوع سي ١٢٣ واثنتان من نوع س ٧. فيما بعد وخلال التحقيقات كان أحد الأسئلة القليلة التي لم يطرحها أحد هو: ماذا حدث لهذه الطائرات؟

لقد علمت الجواب فيما بعد، فبعد حادثة هازنفوس وعندما طلب منّا كايسي أن نوقف برنامج إمداد الكونترا، عاد جميع الطيارين وعمال الصيانة والفنيون الذين استأجرهم سيكورد إلى بلادهم على رحلات للطيران التجاري، وتركوا وراءهم الطائرات ومعداتها.

فيما بعد وفي عملية جهد من أجل ضبط «مشروع الديموقراطية» وتفادي انحلاله، قامت وكالة المخابرات المركزية بعملية غير عادية، فقد نقلت الطائرات إلى مطار بعيد، ثم حفرت حفرة كبيرة بوساطة الجرافات ووضعت الطائرات في الحفرة، ووضع بداخلها متفرجات ثم فجّرت، أما بقية الحطام فقد رُشَّ عليه الوقود وتمّ إحراقه، وقد استمرت النار مشتعلة طيلة أيام.

عندما انتهى الحريق تم دفن البقايا، لقد كانت المرة الأولى التي تجري فيها مراسم دفن قوات جوّية.

حوالى نهاية العام ١٩٨٤ توجهت لمقابلة كايسي لبحث موضوع التمويل وازدياد نشاط المقاومة. لقد طلب إليَّ أن أعد حساباً عملانياً أديره من مكتبي، وأعطاني دفتراً كبيراً ودفتر ملاحظات للمحاسبة، وطلب مني أن أُسجّل كل المال الذي أتلقاه من كالـيرو (وفيما بعد من سيكورد) وكل ما أدفعه لمصلحة المقاومة. قال لي: «حافظ على هذه السجلات بصورة جيّدة، عليك أن تكون قادراً على الإجابة عن وجهة صرف كل سنت».

لقد قمت بما طلب إليّ، واعتنيت بالسجلات بما فيها الرقم المتسلسل لكل شيك سياحي. احتفظت بالدفتر الكبير في خزانة مكتبي ومعه الأموال والشيكات، بعض الأموال أنفق في حالات طارئة، فمثلاً عندما قال لي أيدن باستورا إنه مفلس وقدم إليّ فاتورة بتكاليف إقامته لمدة خمسة أيام في فندق فورسينزونز، أحد أغلى الفنادق في واشنطن، أو عندما اتصل بي ذات صباح أحد أعضاء الكونغرس وأخبرني أن عدة أعضاء من المقاومة الهندية النيكاراغوية موجودون في المدينة ولم يستطيعوا تسديد فواتير الفندق، كنت أذهب أنا وروب أوين وجوناثان ميلر إلى المصارف المجاورة والمحلات من أجل صرف الشيكات السياحية للهنود. كان بوب يلتقي معهم في تقاطع الشارع ١٧ مع شارع بنسلفانيا ويسلمهم المال*.

فون هال أيضاً صرفت بعض الشيكات، ومرة في إحدى عطل نهاية الأسبوع، عندما كانت المصارف مقفلة، طلبت مني أن أقرضها ٦٠ دولاراً فأعطيتها ٣ شيكات سياحية قيمة كل منها ٢٠ دولاراً وأعادت المال يوم الاثنين.

في الوقت نفسه تقريباً كان مكفرلين يبدو عصبياً من جرّاء كثرة أسفاري. كان العديد من رحلاتي سرياً، ولم يشأ مكفرلين أن يسجل أي منها في مجلس الأمن القومي. إلى جانب ذلك كنت أسافر في أوقات عديدة، بحيث كنت أستخدم معظم ميزانية مجلس الأمن القومي المخصّصة للسفر. كانت وكالة المخابرات المركزية تملك حسابات من أجل هذه الرحلات، ولكن لم يكن لمجلس الأمن القومي هذه المخصّصات. لقد سمح مكفرلين، وكذلك بواندكستر من بعده، لي باستعمال حساب كاليرو في رحلاتي إلى أميركا الوسطى وأوروبا وفي دعم جهود إنقاذ الرهائن، وقد حصلت على موافقة كاليرو لذلك.

في بعض الأحيان، عندما لا يكون معي شيكات سياحية، كنت أستعمل مالي الخاص من أجل السفر، وفي المرة التالية حين ترد الأموال من كاليرو كنت أدفع لنفسي تماماً كما كنت أدفع لقادة المقاومة فواتير الفندق. كان ذلك السبب الذي صرفت من أجله الشيكات في سوبر ماركت جيانت فود ومخازن أخرى قرب منزلي. أحد الشيكات قدمته لمخزن يسمى باركلان هوسيري، والذي أصبح موضوع مدّ وجزر خلال التحقيقات إلى أن ذكّرتني بتسي أنه كان المكان الذي اشترت منه ثياب الرقص لبناتنا.

بالإجمال مرّ في الحساب العملاني ما قيمته ١٠٠ ألف دولار من الشيكات السياحية،

* في خلال التحقيقات كان جوناثان ميلر يعمل في البيت الأبيض. عندما ورد اسمه كأحد الأشخاص الذين صرفوا شيكات سياحية، صرف فوراً من العمل وطلب منه مغادرة المبنى في خلال ساعة.

ومثل أي شيء آخر يتعلق بعملي في تمويل الكونترا أو إطلاق الرهائن، كان الحساب العملاني سرياً. بالتأكيد كان بإمكاننا أن نقوم بالكثير من أجل إلحاق الضرر بالاقتصاد السانديني، على الرغم من أنهم كانوا في حالة حرب مع جيرانهم، فقد كانت وزارة الخارجية تعارض أي قيود اقتصادية أكثر من قطع كوتا القهوة. لقد رأوا أنها خطر اقتصادي جدي يؤدي إلى مصاعب للشعب النيكاراغوي. ومع أن هذا كان صحيحاً، فقد كان البعض، ومن ضمنهم كايسي ووينبرغر وراي بورغارت في مجلس الأمن القومي، يعتقد أن حملة دعائية جيّدة ستمكننا من أن نظهر لشعب نيكاراغوا أن مشاكلهم الاقتصادية هي نتيجة خطأ سياسة حكومتهم.

انتشرت هذه المناقشات داخل الإدارة، حيث أدرك الجميع أنه إذا مارس الرئيس صلاحياته وفرض حظراً، فإن ذلك سوف يغيظ الكونغرس. أخيراً حث دون فورتييه الشخص رقم ٣ في مجلس الأمن القومي راي بورغارت وحثني أيضاً على الجلوس وإعداد أمر تنفيذي يحتاج إلى توقيع الرئيس تجمّد بموجبه جميع الحسابات المصرفية لنيكاراغوا، ويفرض حصاراً اقتصادياً واسع النطاق. بعد موافقة مكفرلين أرسلنا نسخاً إلى وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية ووزارة العدل ووزارة التجارة ووزارة المالية، وطلب إلى كل وكالة إعداد رأيها فوراً، لأن مسودة الأمر التنفيذي أرسلت إلى الرئيس في الليلة نفسها. هذه الوكالات كلها وافقت أو لم «تبد اعتراضاً»، ولكن لم يرد شيء من وزارة الخارجية. فيما بعد وعند المساء في إحدى المناسبات النادرة، عندما كان يرغب في مواجهة وزارة الخارجية، أرسل مكفرلين مسوّدة الأمر التنفيذي إلى الرئيس في كامب ديفيد، وقّعها الرئيس في اليوم التالي وبدأ الحظر.

ولكن بعض مؤيدي المقاومة لم يعتبروا ذلك كافياً، ولم يفهموا لماذا نبقي على علاقات دبلوماسية مع نيكاراغوا. لقد لاموا وزارة الخارجية، ولكن وزارة الخارجية لم تكن مذنبة هذه المرّة. صحيح أن للسفارة النيكاراغوية في واشنطن حصتها من الجواسيس، وصحيح أن مسؤولين رسميين من هذه السفارة اجتمعوا مع معارضين لمساعدة الكونترا ومن الكونغرس، ولكن ـ للتوازن ـ يبدو أنه لمصلحتنا المحافظة على وجودنا في ماناغوا، بالإضافة إلى أنها علامة مميزة للحرية فقد كانت سفارتنا مصدراً حيوياً للمعلومات الموثوقة.

كانت السفارة الأميركية في ماناغوا محمية جداً، ومع أنها كانت غالباً هدفاً لمظاهرات غاضبة ضد الولايات المتحدة، فقد كانت الحكومة تسيطر تماماً على هذه الاحتجاجات. في الحقيقة كانت نيكاراغوا البلد الوحيد في أميركا الوسطى التي لم يكن دبلوماسيّونا بحاجة إلى حراس فيها، فإذا ما تعثّر السفير في الطريق كان هناك ثلاثة ساندينيين لالتقاطه قبل أن

يسقط أرضاً. بالتأكيد كانت سفارتنا هناك أكثر أمناً من سفارتنا في السلفادور التي كانت تتعرض بين وقت وآخر إلى قصف بالصواريخ، أو سفارتينا في الهندوراس وكوستاريكا واللتين كانتا تتعرضان أحياناً لنيران الأسلحة الرشاشة والهواوين. كان الساندينيون مهتمين بعدم حدوث أي عمل يسبب القيام بعمل مباشر ضدهم.

لقد بحثنا خطة واحدة، لكنّها لم تنفذ، وهي احتمال تشكيل حكومة نيكاراغوية في المنفى. خلال الحرب العالمية الثانية شكل عدد من الدول، ومن بينها فرنسا وبولونيا ويوغوسلافيا، حكومات حرّة في بريطانيا. وفي عام ١٩٩٠ بعدما غزا العراق الكويت شكلت القيادة الكويتية حكومة في المنفى في العربية السعودية.

في حالة نيكاراغوا كانت هناك عقبات كبيرة، فعلى عكس ما جرى إبّان الحرب العالمية الثانية أو الكويت عام ١٩٩٠، لم يكن هناك رئيس دولة على قيد الحياة ليقود هذه الحكومة، ولم يكن هناك أي بلد في أميركا الوسطى مستعداً لاستضافتها. قال جيران نيكاراغوا عن الخطّة: فكرة رهيبة، ولكن نرجوكم ليس في بلدنا.. لماذا لا تركزوها في كوستاريكا مثلاً؟

كان لهذه البلدان أسباب كثيرة للرفض، لأن هناك جيشاً ساندينياً قوياً وقريباً جداً، كان لا بد لأي دولة في المنطقة من تناول جرعة كبيرة من هرمونات الخصية قبل السماح لمقاومة رسمية بالتمركز ضمن حدودها.

كان هناك مكان آخر محتمل لمقر حكومة في المنفى وهو ميامي والذي كان آمناً ومريحاً،ولكن ميامي سياسياً كانت فكرة رهيبة، فإذا تركزت حكومة نيكاراغوا الحرة في فلوريدا فسوف ينظر إليها العالم على أنها رهينة في يد الولايات المتحدة.

لم يكن من الملائم تشكيل حكومة في المنفى، وكان هناك احتمال آخر بأن يتم هذا العمل داخل نيكاراغوا في القسم الذي قد تسيطر عليه المقاومة. لقد نظرنا في الواقع إلى احتمال سيطرة الكونترا على جزيرة أو اثنتين على ساحل المحيط الأطلسي أو ربما على القسم الشمالي الشرقي من نيكاراغوا، والذي يتضمن مرفأ بورتوكابيزاس، حيث كان الساندينيون ضعفاء في تلك المنطقة. رأى الرئيس الهندوراسي سوازو أن هذه فكرة رائعة، مفترضاً أن الولايات المتحدة سوف تعترف فوراً بالحكومة الجديدة وتدعمها، وفي السلفادور قال لي الرئيس دوارت الكلام نفسه.

لقد كتبت تقريراً حول كيفية القيام بهذا العمل، وتمّ بحث الفكرة داخل المجموعة السرية الداخلية. رأى مكفرلين أنه يجب متابعة الموضوع، ولكن هناك حواجز عديدة:

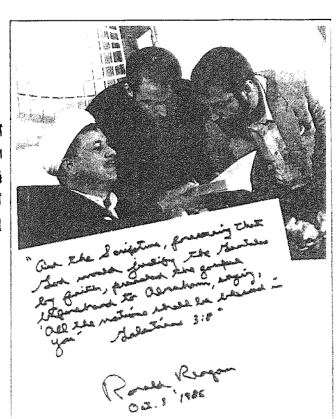
فهل تعترف حكومات أخرى بالحكومة الجديدة وتدعمها؟ من أجل ذلك هـل نستطيع أن نؤكد أن الولايات المتحدة سوف تعترف بالحكومـة الجديـدة؟ ومن سيرئس هـذه الحكومـة؟ بالطبع كان كـل من القادة الثلاثة في المعـارضة النيكـاراغويـة المتحدة يـرى نفسه المرشح المثالي، فهل كان من المحتمل أن يتقاسموا الأضواء؟

عسكرياً كان يمكن أن تعمل، إذا سيطرت قوات الكونترا على قطاع في شمال شرقي نيكاراغوا فإنه من الصعب على الساندينيين أن يزيحوهم. والخطر هو أن خطوة كهذه يمكنها أن تؤدي إلى تدخل الكوبيين، والذي بدوره يؤدي إلى إرسـال قوات أمـيركية. كـان الأمر سيتطور إلى وضع خطير، فبعد غرانادا كان من المتوقع أن يتطلع الكـوبيون نحـو مواجهـة عسكرية جديدة مع القوات الأميركية.

طـرأت فكرة أخـرى لكنها لم تتجسـد في الواقـع، وذلك في شبـاط/ فبرايـر ١٩٨٥ عنـدما أعلمتني وكـالة المخـابرات المـركزيـة عن سفينة شحن أسلحـة نيكاراغـويـة تسمى مونيمبو، والتي كـانت منذ سنـوات تذهب إلى دول الكتلة السـوفيـاتيـة وتحمـل المـدفعيـة وصواريخ أرض ـ جو والألغام والذخيرة وأسلحة أخرى للساندينيين. كانت السفينـة محملة بإمدادات عسكرية يمكن أن تكون مفيدة جداً للمقاومة، وعلى أثـر ذلك أرسلت مـذكرة إلى مكفـرلين أقـترح فيها عـدة وسائـل يمكننـا أن نعـترض فيهـا مونيمبو، ومن ضمن ذلـك الاستيلاء عليها في أعالي البحار ونقل حمولتها. وإذا لم يكن ذلك ممكنـاً كان هنـاك وسائـل أخرى لمنع وصول هذه الأسلحة إلى الساندينيين.

تلقيت إذناً من بواندكستر للبحث في إمكانية منـع مونيمبو من الوصـول إلى هدفهـا المحدد. لقد وضع بواندكستر الجواب في كتابته: «نحن بحاجة إلى أن نقوم بعمـل لنتأكـد من أن السفينة لن تصل إلى نيكاراغوا»، وذكر ذلك في أسفل المذكرة.

وفي النهـاية لم يبـد من الممكن الاستيلاء عـلى السفينة، ولكن من الغـرابة أيضـاً أن تصل مونيمبو إلى ساحل نيكاراغوا حيث أتلفت مياه البحر حمولتها!



أهدى الرئيس ريغان هذه النسخة من الكتاب المقدس التي أعطيتها إلى الوسيط في ألمانيا. بعد عدة أسابيع أعلن رفسنجاني أن مكفرلين أحضر معه الكتاب المقدس إلى طهران.

الرئيس ريغان يرحب بالملك فهد، عاهل المملكة العربية السعودية في إحدى زياراته لواشنطن.

(١٣)
القناة الثانية

عندما عاد مكفرلين والوفد المرافق له من طهران في ربيع عام ١٩٨٦ تأكّد لنا أنّه على غوربانيفار أن يرحل، فمع أنه ساعدنا في بدء اتصالاتنا مع الإيرانيين ولعب دوراً أساسياً في إطلاق سراح رهينتين، إلّا أنه أثبت أنه لا يمكن الوثوق به، عندما بدأ اجتماع طهران كان من الواضح لنا أنه يخبر كل فريق عن رغبات الفريق الآخر بشكل مضخّم. والآن تبدو مسألة إيجاد البديل مهمة جداً.

كان البديل ألبرت حكيم وهو شريك سيكورد الذي أمّن اتصالاً مع الرجل الذي خلف غوربانيفار وأصبح معروفاً بالقناة الثانية. كان حكيم وسيكورد زميلين غريبين، فقد كان سيكورد رجلاً عسكرياً صارماً هجومياً يدخل في أحاديثه فوراً إلى الموضوع، بينما كان ألبرت هادئاً دمثاً، وهو يهودي إيراني فرّ من إيران قبل سيطرة الخميني على السلطة. كانا قد التقيا في طهران في أواسط السبعينات عندما كان سيكورد يعمل في طهران كرئيس لبرامج القوات الجويّة.

جرى أول لقاء لي مع ألبرت في ظروف ساخرة. في شباط/ فبراير ١٩٨٦ كنت أنا وسيكورد في فرانكفورت لعقد اجتماع مع غوربانيفار والمسؤول الإيراني الحكومي المعروف بالأسترالي الذي لعب دوراً رئيسياً في لقاءات طهران فيما بعد. عقد هذا الاجتماع في فندق شيراتون المطار وكان أول اتصال مباشر بين ممثلين عن الولايات المتحدة وإيران منذ سنوات.

جرى اللقاء بسرعة، ولم يكن ممثل وكالة المخابرات المركزية الذي حضر اللقاء معنا يجيد اللغة الفارسية، ولم تستطع الوكالة تأمين مترجم عن الفارسية في تلك المهلة القليلة من الوقت. كان يمكن لغوربانيفار القيام بالعمل لكنّنا، وبعد خبرة طويلة معه، أدركنا أنه لا يمكن الاتكال عليه والوثوق به. فاقترح سيكورد أن يحضر شريكه ألبرت حكيم (كان سيكورد يتكلم الفارسية ولكن ليس بطلاقة تمكّنه من العمل كمترجم).

عندما علم غوربانيفار أن «حكيم» هو المترجم تخوّف من ذلـك وقال: «نحن نعلم من هو، حكيم هو عدو الدولة، إنه معارض للثورة ولا يمكن أن نقبل به»!

كان حكيم خيارنـا الوحيـد، ولكن ما العمـل إذا تعرف إليـه غوربـانيفار؟ ومـا العمل إذا ما تعرف إليه الأسترالي؟ لم نكن قد التقينا بالأسترالي ولم نكن نعلم من هو بالضبط. كـان ذلك أحد الإحباطات الكبـيرة في العمل مـع الإيرانيـين. في أي دولة في العـالم يمكنك أن تفـترض أن أحد شبـاب اليوم قـد يصبح من قـادة الغد. عنـدما وصـل غوربـاتشوف إلى السلطة في الاتحاد السوڤياتي فوجىء العـالم بأسره، ولكنـه كان، عـلى الأقل، من الـتركيبة السياسية.

كانت إيران دولة مختلفة، لقد أدّت ثورة الخميني إلى وصـول حكومـة دون خبرة إلى السلطة، ونظام يقوده رجال يفتقرون إلى الخبرة السياسيـة. فإذا افـترضنا أن الأسـترالي هو مسؤول حكومي رفيع المستوى، كما قال لنا غوربانيفار فإنـه يمكن أن نفترض أنـه ربما كـان حـلاقاً لحكيم أو ميكـانيكياً، وفي الحقيقـة تبـينّ أنـه كـان خيـاطـاً (لكنّـه لم يكن خيـاطـاً لحكيم!).

عنـدمـا عـرض المـوضـوع عـلى حكيم قـال: «هكـذا. . أنـا أجلس هنـاك وأقول للجماعة. . بالتأكيد أنا أذكر غوربانيفار ولا يوجد أي سبب يمنعه من أن يتذكّـرني، لذلـك لماذا تريدون مني أن أنضم إلى هذا الاجتماع؟».

عندها التفت الجميع إلى مسؤول وكالة المخابرات المركـزية وقـالوا لـه: هل تعـرف أحداً يمكنه أن يغـيّر شكل ألـبرت؟ أجاب المسؤول: إن البـيروقراطيـة والروتـين لا يحلّان المشكلة. عنـدها قلت لـه: لقد سمعت من سيكـورد أنـك ثـري فلماذا لا تغـيّر شكلك؟ عندها ترك حكيم الفندق ونزل إلى البهو وسـأل البواب عن مكـان يبيع شعـراً اصطنـاعياً لوالده. استقل سيارة تاكسي وتوجّه إلى العنوان الذي أُعطي لـه، وأخذ يتنقـل بين أروقـة المحل وعرضت عليه البائعة عدة أصناف فاختـار أحدهـا، ثم توجّـه إلى حلاق وقـال له: «أريد أن يصبح (موديل) شعري بهذا الشكل». ثم أعدّ لـه الحلاق شكـلاً للشعر بحيث لم يعد يشبه نفسه. بعد ذلـك وضع ألـبرت نظارات، وهـو لا يضعها في الأحـوال العاديـة، وعاد إلى الفندق، ولـما شاهـده رفاقـه دهشوا وقـالوا إنـه لا يوجـد أي فرصـة لغوربـانيفار للتعرف عليه.

كان حكيم أصلع بشكل جزئي، ولو لم أعـرف مسبقاً أنـه وضع شعـراً مستعاراً لـما استطعت التعرف إليه. عندما بدأنا الاجتماع مع الإيرانيين عرفنا عنه إبراهيم إبـراهيميان ـ

تركي من أصل أرمني ـ يجيد اللغة الفارسية ـ ولم يعد هناك أي مؤشر يدلهم على حقيقة هويته. سئلت فيما بعد عما إذا كان حكيم قد قام بعمله كمترجم بشكل جيد أم لا، أعتقد أنه كان جيداً، ولكن كيف كان لي أن أعرف في ذلك الوقت؟

بعد أشهر من رحلتنا إلى طهران قام اثنان من شركاء حكيم ـ في التجارة ـ بتأمين اتصال له مع ابن شقيقة هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس الشورى الإيراني ـ وسميناه الشاب ـ وقد أصبح يعرف بالقناة الثانية وحلّ مكان غوربانيفار في الاجتماعات.

في أواخر آب/ أغسطس ١٩٨٦ وصل الشاب إلى بروكسيل لمقابلة سيكورد وحكيم، اتصل بي سيكورد على الفور، ولأول مرة منذ أشهر بدا لي متحمساً حول مبادرتنا نحو إيران. لقد اقتنع أننا تخلّصنا من الخداع وأعجب بالشاب لأنّه كان صادقاً عندما أقرّ بأنّ إيران لا تتحكم بعناصر حزب الله الذين يحتجزون الرهائن في بيروت، وكان الذين ذهبوا إلى طهران قد سمعوا الكلام نفسه، إلا أن سيكورد رأى في ذلك علامة إيجابية.

في واشنطن، كان الاقتناع السائد هو أن إيران تتحكم بمحتجزي الرهائن، وشجّعنا غوربانيفار على أن نفكر بهذا الشكل. في البدء كنت أعتقد ذلك أيضاً، ولكن عندما قرأت المزيد من تقارير الاستخبارات ازدادت قناعتي بأن العلاقة بين المجموعتين هي مسألة نفوذ أكثر منها تحكم وسيطرة، وخصوصاً في القضايا الدينية والمالية. وبقي السؤال مطروحاً، ولم يكن الأمر بسيطاً مثل أن يرسل قائد فرقة في طهران أوامره إلى ضباطه في بيروت!

قبل أشهر من ظهور القناة الثانية، أخبرنا غوربانيفار أن قسماً من المال الناتج عن صفقات الأسلحة دفع إلى مسؤولي حزب الله في لبنان، وقال الشاب الكلام نفسه، وأضاف أن الإيرانيين لا يستطيعون عملياً إعطاء أوامر لإطلاق سراح الرهائن، لكنهم استطاعوا رشوة زعماء حزب الله من أجل إطلاق سراح جنكو وويير. وعلى عكس غوربانيفار أقر الشاب أن اتصالاته لا تستطيع تحقيق ما كنّا نطلبه وهو إطلاق سراح جميع الرهائن.

كان الشاب وفي جميع المناسبات محبباً ولطيفاً بعكس غوربانيفار. كان هذا الأخير بديناً يعيش في باريس، بينما كان الشاب ربّ عائلة يعيش في إيران التي تعاني من ويلات الحرب، وكان قد رزق حديثاً بمولود جديد. كانت له اتصالات جيّدة مع أنه لم يكن من أعضاء الحكومة. وكان قد قاتل في صفوف الحرس الثوري في الحرب ضد العراق، ودهشنا أنا وسيكورد عندما سمعناه يقول إنه يريد أن يحسّن أوضاع بلاده من أجل أن

يعيش الأطفال حياة أفضل بسلام واطمئنان. باختصار كان مثالياً وهـذه صفة لم ألاحـظها في غوربانيفار.

لم يخفِ غوربانيفار أنه كان يسعى وراء المال (ومع ذلك حاول أن يكتم أرباحه) إلاّ أن الشـاب لم تظهـر عليه أيـة بواعث مـادية، عـلى الأقل كـان ذلك انـطبـاعي عنـه. من المحتمـل أن يكون حكيم قـد حذره بعـدم ذكر المـال في حضوري، كـان ألـبرت يعلم أن اهتمامي ينحصر بإطـلاق سراح الرهـائن ومحاولـة فتح اتصـال مع الإيـرانيين. كـان ألبرت يرغب في الوصول إلى هذه النتائج، لكنه في الأساس رجل أعمال اعتبر هذه المبادرة فرصـة لتحقيق الأرباح.

بعد وقت قصير اكتشف غوربانيفار أننا نحـاول أن نفتح «قنـاة ثانيـة» مع إيـران مما يؤدي إلى إقصائه جانباً. ودون أن نفاجأ تخوّف من ذلك وبدأ اندفـاعه يـتراجع. لقـد كان يتعامل مع الفرنسيـين ويحاول التعـامل مـع البريـطانيين ويـأمل بـالتعاون مـع الإيرلنـديين والجميـع كان لهم رهـائن في بيروت. كـان غاضبـاً منّا لأننـا لم نسلّم الشحنـة الثـانيـة من الأسلحة المتفق عليها في زيارتنا إلى طهران في أيار/ مايو المـاضي، وأكّد أنّـه سيدفـع ثمنها من مـاله الخـاص، ولهذا سيقـع تحت ثقل الـديون. قـال إنه سيحصـل على المـال بشكل قروض قصيرة الأجل من عدة مصادر، فقد كان يعمل لعقد عدة اتفـاقات مـع حكومـات أخرى تبدأ من فول الصويا إلى آبار النفط! وادعى أنه استدان المـال من جهات متعـددة، ومن ضمنها رجل الأعمال السعودي عدنان خاشقجي.

بينما كنا ننتـظر نتيجة القنـاة الثانيـة العملية، بقي شـارلز آلن من وكـالة المخـابرات المركزية على اتصال مع غوربانيفار. اتصل شـارلز بـي وحذّرني أنـه إذا تركنـا غوربـانيفار دون إعطائه مـا دفعه، أو عـلى الأقل إمـداده بمبلغ ٤ أو ٥ ملايـين من الدولارات، فـإننا نتجه نحو خطر الكشف عن المبادرة بكاملها.

كان شارلز على حق، وكان علينا أن نأخذ تحذيره على محمل الجد، لكن المشكلة مع شخص مثل غوربـانيفار هـو أنك لا تكـون جاهـزاً دائماً لتلقّي ضربتـه. بالمقـابل ثبت أن غوربانيفار قال لنا شيئين صحيحين ودقيقين: حذّرنا أننا إذا لم نعامله بشكل صحيح، فإن المبادرة نحو إيران قد تنهار بأكملها، ووعدنـا أنه طـالما بقي مشـاركاً في المبـادرة لن يخطف المزيد من الأجانب.

كان علينا أن نعير انتباهاً أكثر لهذا الكلام. بعدما أجرى سيكورد الاتصال مع القناة الشـانية، اختـطف اثنان من الـرعايـا الأميركيـين في بيروت: فـرانك ريـد، وهـو أستـاذ،

وجوزيف سيسيبيو، وهو محاسب في الجامعة الأميركية في بيروت. لقد هزّني الأمر وأصابني بالمرض. خلال مبادرتنا نحو إيران كنا نخاف أن يرسل حزب الله شرائط فيديو تظهر عملية إعدام الرهائن، وتخوفنا أيضاً من احتجاز المزيد من الرهائن، والآن حدث ما تخوّفنا منه، كان الإيرانيون غير قادرين على إطلاق سراح جميع الرهائن، لكنهم كانوا يحثون على وقف المزيد من أعمال الخطف.

أدّت أعمال الخطف الجديدة إلى عقد سلسلة من الاجتماعات في واشنطن. تمّ فيها بحث إنهاء الموضوع برمته. ولكن ومع أن استمرار المبادرة يشكل خطراً، فقد كان توقفها أيضاً لا يخلو من الخطر. لقد قررنا الاستمرار فيها.

ساورني شك بأن يكون الأسترالي قد دبّر إحدى عمليتي الخطف، لأنه حتماً خاف كثيراً هو وجماعته من فتح القناة الثانية وتهميش دوره في المبادرة. كانوا يعلمون طبعاً أن الشاب حصل على إذن بمغادرة إيران من أجل الاجتماع بنا، وقد أكّد لي الشاب فيما بعد ما كنت أشك به.

بعد أن عاد سيكورد من اجتماعه مع الشاب بوقت قصير، دعوناه إلى واشنطن للاجتماع بي وبكايف وسيكورد وحكيم. كانت هذه طريقة سريعة لمعرفة حقيقة القناة الثانية: إذا سمح له الإيرانيون بزيارة أرض الشيطان الأكبر، فإنهم يظهرون بذلك نيتهم بالعمل، وإلى جانب ذلك لقد ذهبنا إلى طهران ولسنا مشتاقين للذهاب مرة ثانية.

في ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٦ وصل الشاب إلى مطار دالس ومعه مرافقان اثنان، أحدهما كان رجل الاتصال مع حكيم الذي مهّد للموضوع، والثاني كان مرافقه الخاص، وهو حارس ومفوض سياسي. كانت السلطات الدينية في إيران هي مرجع المفوضين السياسيين وليس رؤساؤهم، وذلك خلافاً لما يحصل في العالم الشيوعي.

عندما وصل الإيرانيون استقبلهم مسؤولون في وكالة المخابرات المركزية، وأشرفوا على تيسير معاملاتهم في دائرة الهجرة والجمارك، ثم أوصلوهم إلى الفندق. في اليوم السابق كنت أقوم بجولة في واشنطن للحصول على الموافقات الضرورية لمراقبتهم في أثناء وجودهم في الولايات المتحدة. إنّ هذه الأمور لا تجري بسهولة، فمراقبة الأجانب في الولايات المتحدة تحتاج إلى موافقة على مستوى عال، ويجب أن يخضع الطلب لموافقة أربعة رؤساء هيئات حكومية أو من ينوب عنهم، وهم رئيس مكتب التحقيق الفدرالي ومدير وكالة المخابرات المركزية ووزير العدل ومستشار شؤون الأمن القومي. بعد جمع التواقيع الضرورية حملت الأوراق بكاملها للمصادقة النهائية عليها.

كانت المراقبة مؤمنة في أثناء وجودهم، تماماً مثلما راقبونا في أثناء وجودنا في إيران: إن أي جميل يجب ردّه بجميل آخر.

لقد أحببت الشاب منذ أن التقيته، كان ودياً وضحوكاً، وبدا عليه أن وزنه قد نقص عندما كان على جبهة البصرة، لقد فقد الكثير من أصدقائه في الحرب مع العراق، وكان مشمئزاً مما سببت الحرب لبلاده.

على الرغم من أن غوربانيفار كان يحضر معه الكافيار الإيراني، إلّا أن المحادثات مع القناة الثانية كانت سارّة وممتازة أكثر مما كانت معه. لم تكن المواضيع جديدة، لقد تغير الممثلون وبقي النص على حاله. ولسوء الحظ لم يتحرك القناة الثانية بأسرع من القناة الأولى، لقد استغرقت هذه الاجتماعات ساعات وامتدت على فترات متقطعة لمدة أشهر. كانت مفاوضاتنا مع المجموعتين الإيرانيتين محبطة ومضجرة إلى درجة أتعبتني أنا وموظفي وزارة الخارجية.

فيما بعد لم يفهم الناس الذين سمعوا عن مبادرتنا نحو إيران، أو قرأوا عنها، لماذا أمضينا هذا الوقت الطويل للحصول على إنجازات قليلة. إنه سؤال جيد وله عدة أجوبة.

أولاً: كانت أهدافنا طموحة جداً، ليس في استعادة الرهائن فقط ـ وكان ذلك صعباً جداً ـ وإنما إعادة العلاقات مع مجتمع مغلق ومعادٍ لنا.

ثانياً: كانت هناك سنوات من الجفاء وأجواء من عدم الثقة كان علينا أن نتغلب عليها.

ثالثاً: كان كل شيء يجري من خلال مترجمين.

رابعاً: كان للإيرانيين مفهوم خاص حول الوقت، والحياة عندهم تتحرك ببطء. أخيراً من الواضح أن هناك فجوة كبيرة بين ما يريده كل جانب وبين ما يمكن تحقيقه. طلبوا منّا بكل بساطة أن نفتح حنفية المساعدات الأميركية، وطلبنا منهم أن يعضوا على أصابعهم ويطلقوا سراح الرهائن، ولم تكن هذه المطالب ممكنة لأيٍّ من الجانبين.

خلال زيارة الشاب إلى واشنطن، والتي دامت ثلاثة أيام، اجتمعنا في مكتبي في بناية المكتب التنفيذي القديمة وفي مكتب سيكورد في ضاحية فرجينيا، وأمضينا وقتاً طويلاً في بحث موضوع الرهائن. شرحت له أن مشكلة الرهائن يجب أن تحل قبل أن تعود العلاقات الطبيعية بين بلدينا، وهي حاجز يجب أن نزيله قبل انتقالنا إلى بحث القضايا الكبرى.

في الوقت نفسه لم أشأ أن أظهر له أن الرهائن مهمون كثيراً فقلت له: «نريد إطلاق سراحهم، ولكن دعني أوضح هذه النقطة، في الولايات المتحدة يموت كل سنة ٥٢ ألف شخص في حوادث السير على الطرقات والأوتوسترادات، ويموت أكثر من ١٠٠ ألف بسبب سرطان الرئة، إن خمسة رهائن لا يشكلون رقماً كبيراً في هذا البلد، ولكن الشعب الأميركي سوف يشمئز إذا منح الرئيس ريغان مساعدات إلى إيران دون إزالة هذا العائق».

في الحقيقة كان الرهائن في ذهني أكثر من أي وقت مضى. في الوقت الذي بدأنا اتصالاتنا مع القناة الثانية، عقدت اجتماعات عديدة مع عائلات الرهائن (كانت مشكلة الرهائن تحت عنوان مكافحة الإرهاب. وطلب مني مكفرلين أن أجتمع مع عائلات الرهائن المحتجزين في بيروت). كان بعض أفراد عائلات الرهائن مثل بيغي ساي شقيقة تيري أندرسون وأريك وبول جاكوبسون ابني ديفيد جاكوبسون يحضرون إلى مكتبي في أوقات منتظمة.

كانت هذه الزيارات تزيد عندما تكون هناك أنباء جديدة عن المحتجزين مهما كان نوع هذه الأنباء. من وقت إلى آخر كان محتجزو الرهائن يرسلون رسائل أو شرائط فيديو إلى وسائل الإعلام، وذلك لفرض مزيد من الضغط على حكومتنا. لا يمكنني الكلام عن بقية الأجهزة الحكومية، لكنهم بالتأكيد كانوا يتكلون عليّ في هذا الأمر.

ذات مرة أحضر ابنا جاكوبسون رسالة من والدهما كان المحتجزون قد سمحوا بتهريبها. على الرغم من الظروف المزرية وأجواء الخوف التي كان يعاني منها، كانت رسالته مليئة بتعابير الحب لعائلته والقلق إزاء وضعه، وقد اغرورقت عيناي بالدموع قبل أن أنتهي من قراءتها. كما أرسل المحتجزون أيضاً صوراً للرهائن وهم يحملون صحيفة تظهر أنهم على قيد الحياة في وقت صدورها. كانت هذه الصور ترد من مصادر مختلفة، ولكننا لم نعلن عنها إلا عندما كانت ترد إلى الصحافة.

كانت الصور المتعاقبة لأندرسون والأب جنكوووير وجاكوبسون تعبّر عن الضغط النفسي وسوء التغذية والنقص في التعرض لأشعة الشمس والوهن العام التي سببها لهم محتجزوهم. كانت هذه الصور بالنسبة إليّ حافزاً لمزيد من الاهتمام بغض النظر عن الإرهاق أو اليأس الذي كنت أشعر به.

عندما اجتمع بي أفراد عائلات الرهائن، وكذلك مع مسؤولين حكوميين آخرين، أظهروا غضبهم وعدم صبرهم. لقد طلبوا أجوبة: ماذا سمعتم؟ ماذا تفعلون لإطلاق

سراحهم؟ كانوا يستميتون ليعرفوا ما ننـوي أن نقوم بـه، ولكني لم أكن قادراً عـلى كشف أي شيء لهم، لقد اتفقت بشكل جزئي معهم.

لقد كانت حكومتنا تقوم بجهد كبير أكثر مما كانت تعلن عنه. هناك أبطال مجهولـون في هذا المجال، ضباط من وكالة المخابرات المركـزية، وبعض مـوظفي سفارتنـا في بيروت، خاطروا بحياتهم من أجل إطلاق سراح الرهائن. كانت مبادرتنا نحو إيران سـراً لا يعرفـه أحد، ولم نستطع أن نكشف عنها لذوي الرهائن، وبعـد فترة عمـل البيت الأبيض ووزارة الخارجية من خلال أقنية متعددة للوصول إلى محتجزي الرهائن.

عقدت أنا وبواندكستر اجتماعات مع دبلومـاسيين أجـانب في واشنطن وفي أوروبـا، وطلبنا مساعدتهم باسم الرئيس. سافرنا إلى فرنسا وإلى بـريطانيـا لنرى مـا إذا كان هنـاك طرق أخرى للتحرك. كان لحكومتنا مبادرات دبلوماسية عديدة، وكان هنـاك أربعة رؤسـاء دول على الأقل يحاولون المساعدة، وكذلك الفاتيكان والكنيسة الأنغليكانية. لقد كـانت هذه المساعي مرهقة واستغرقت وقتاً طويلاً ولم تنجح.

كانت هذه الحكومات تعمل في هذه المبادرة من أجل مصالحها الخاصة، فالحكومـات مؤلفة من أشخاص وهي تتصرف كما يتصرف أي شخص. عادة إذا صنعت جميـلاً فإنـك تتوقع أن يرد إليك هذا الجميل. مثلاً إذا أعارني هاري آلة جز العشب اليوم، فلن أفـاجأ إذا طلب استعـارة البيك آب يـوم السبت التالي. تمـاماً إذا طلبت حكـومتنـا من حكـومـة أخرى مساعدتها في موضوع الرهائن، فلن يفاجأ أحد إذا طلبت أن نصوّت معها في الأمم المتحدة أو إذا طلبت معدات عسكرية، أو حتى مساعدات اقتصادية. هذه الأمـور لا تذكـر صراحة ولا تحدد وتبقى موضوعاً للتفاوض، ولكنّ الفواتير تقدم دائماً في النهاية.

تبـينّ لنا أن الشـاب كان يعـرف تمامـاً ما حـدث مع القنـاة الأولى، وقد وصـل إلى واشنطن مصطحباً معه لائحة طويلة بالمعدات العسكرية المطلوبة. لم تكن المدافع وحدها في اللائحة، بل طلب أيضاً تجهيزات وإمدادات طبيّة للجنود الإيرانيين والمـدنيين المصـابين في الحـرب. كان متلهفـاً للحصول عـلى معدات تـطهـير آثـار الأسلحـة الكيميـائيـة، وذلـك لاستخدامها عـلى جبهة البصرة، حيث كـان العراقيـون يستخدمـون الأسلحة الكيميـائية. ومثل القناة الأولى طلب مساعدتنا من أجل إطلاق سراح ١٧ سجيناً من حزب الدعـوة في الكويت.

كان هناك موضوع آخر على جدول المباحثات، وهو غوربانيفار الذي كان يشكو من أنه غرق تحت ديون بقيمة بضعة ملايين من الدولارات، كان بعضْ الأحيان يقول إنها ١٥ مليون دولار، وأحياناً أخرى ٤ مـلايين، وإنـه لم يعد يتحمـل الفوائـد الناتجة عنها. كنـا

نعتقد أن المبلغ مضخّم، إلّا أننا حثثنا الشاب بأن يدفع له ويضمن سكوته. كنا نفترض أننا لسنا الوحيدين الذين يطلبون إرضاء غوربانيفار، لقد كان الإيرانيون أيضاً خائفين من انكشاف المبادرة. خلال أحد الاجتماعات في واشنطن طرح الشاب موضوعاً جديداً: التخلص من صدام حسين، وإني أتأسف لأنه لم يهتم أحد في حكومتنا بذلك. لقد قلت له بصراحة إننا لا يمكننا أن نلتزم بشيء فيما يتعلق بصدام حسين، ولكنه طرح الموضوع مرة أخرى في اليوم التالي. قال: «يمكن للدول العربية أن تقوم بذلك ويمكن أن تستخدم الولايات المتحدة نفوذها في هذا الأمر».

في اجتماعات لاحقة أكّدتُ للشاب أن الولايات المتحدة تقرّ بأنّ صدام حسين هو المشكلة الحقيقية في المنطقة.

لسوء الحظ كان كل ما قلته للشاب حول موقفنا من صدام كذبة، أقول لسوء الحظ، ليس لأني كذبت على الإيرانيين فقط، بل لأني كنت أكذب لأنّ ذلك كان لمصلحتنا، ولأنّ موقفنا من صدام حسين كان يجب أن يكون ضمن الخطوط التي ذكرتها.

على الرغم من إعلاننا الحياد في النزاع العراقي الإيراني، فقد كانت حكومتنا تميل بهدوء إلى العراق. لم يكن ذلك مجرد ميل دبلوماسي، لقد قمنا بخطوات إيجابية لنضمن أن لا يخسر العراق الحرب التي بدأها. كانت عملية «ستونش» عبارة عن جهد دبلوماسي لوقف تدفق الأسلحة على إيران، وقد كانت فعّالة تماماً باستثناء مبادرتنا نحو إيران. أما العراق فقد تلقى إمدادات الأسلحة من السوفيات والفرنسيين والصينيين وغيرهم. لقد ساعد الكويتيون العراق وذلك بدفع ثمن الأسلحة التي اشتراها من الأسواق الدولية وقد أسفوا لهذا العمل فيما بعد.

عندما تبيّن أن عملية «ستونش» غير كافية سمح الرئيس لأجهزة الاستخبارات الأميركية بتمرير معلومات عسكرية للعراقيين. حتى بعد انتهاء الحرب استمرت ميولنا نحو العراق، وفي صيف ١٩٩٠ وقبل أيام قليلة من غزو العراق للكويت كانت وزارة الخارجية تحاول إقناع الكونغرس بمنح اعتمادات مالية ومساعدات أخرى للعراق.

لقد كان الميل الأميركي إلى العراق والشعور بالكراهية نحو إيران أمرين من ضمن أمور قليلة اتفق عليها شولتز ووينبرغر. قال جورج شولتز لإحدى المجلات عام ١٩٨٤: «لا نريد أن نرى نصراً إيرانياً ولذلك نعمل لتحسين علاقتنا مع العراق.. نحن نتعاون مع العراقيين إلى حد ما»*.

---

* مجلة US News and World Report عدد ١٢ آذار/ مارس ١٩٨٤.

كان ذلك صحيحاً وكان مبنياً على أمور كثيرة سابقة، فبالعودة إلى العام ١٩٨٢ أعطى شولتز توجيهات إلى قسم الشرق الأدنى في وزارة الخارجية، وإلى سفارتنا في بغداد من أجل تقديم «حوافز» إذا وقف صدام ضد الإرهاب. أعلم صدام وزارة الخارجية أنه طرد «أبو نضال» وذلك حبّاً منه للحصول على تكنولوجيا الكومبيوتر ومعدات أخرى محظورة على العراق. في الواقع انتقل أبو نضال وجماعته للعمل عند رئيس آخر هو معمر القذافي. لقد تم حذف اسم العراق عن لائحة الدول التي تساند الإرهاب، على رغم اعتراض مكتب مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية والعديد من عناصر مجلس الأمن القومي وتغلب رأي قسم الشرق الأدنى في وزارة الخارجية.

أظهر وينبرغر ميلاً مماثلاً، ففي أواخر أيامه في وزارة الدفاع قال لأحد الصحافيين في مقابلة تلفزيونية إنه يتطلع إلى «حكومة مختلفة كلياً»* في إيران ووصف نظام الخميني أنه «متعصب» و«غير عقلاني».

إنّ ما أزعجني في وينبرغر وشولتز هو أنهما لم يخطئا فيما يتعلق بإيران ولكنهما أخطأا تماماً فيما يتعلق بالعراق.

كتب وينبرغر في مذكراته: «شعرت في ذلك الوقت، وما زلت أشعر اليوم، أن سلوك إيران عندما احتلت سفارتنا قد أبعدها عن صفات وقيم العالم المتحضر»**.

إنه مضحك فعلاً.. لكني لا أذكر أن وينبرغر قال شيئاً مثل هذا عن ياسر عرفات أو عن صدام حسين الذي استخدم الأسلحة الكيميائية ضد شعبه وهو الذي أطلق «بالخطأ» صاروخ اكزوست على السفينة الأميركية الحربية ستارك، والذي على رغم إنكاره استمر بدعم معظم المنظمات الإرهابية في العالم!

أنا بالتأكيد لا أتسامح مع احتلال إيران لسفارتنا في طهران عام ١٩٧٩، لكنّ كل إدارة أميركية جديدة تحضر معها ذكريات أسوأ الكوارث التي أثّرت في الحكومة السابقة لها. كان وينبرغر وشولتز يفكّران دائماً كيف أذلّتنا إيران في ظل إدارة كارتر إلى درجة أنهم تجاهلوا أخطاء العراق والتي كانت أقل ظهوراً لكنها أسوأ بكثير من أخطاء إيران.

بينما يأخذ هذا الكتاب طريقه إلى المطبعة ترتكبُ الإدارة الأميركية خطأ جديد بالتودد إلى سورية. فالرئيس الأسد لا يختلف عن صدام، إضافة إلى أنه يتخيل نفسا (صلاح الدين) العصر الحديث.

---

* برنامج هذا الأسبوع مع ديفيد برنكلي ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٧.
** كاسبار وينبرغر: القتال من أجل السلام، نيويورك ١٩٩٠ صفحة ٣٥٤.

في أحد اجتماعاتنا عرض الشاب اقتراحاً دراماتيكياً لإطلاق سراح الرهائن، سوف يحدد مكان وجود الرهائن في بيروت بدقة ثم يخبرنا بذلك، ونحن بدورنا لنا الحرية لتنفيذ عملية إنقاذ لتحريرهم. تذكرت عملية «الصحراء واحد» عندما تحوّلت محاولة الرئيس كارتر لإنقاذهم إلى غبار وأدت إلى موت العديد.

كان سيكورد أكثر تفاؤلاً وقال: «فكر بها يا أولي»، إنهم يقدمون لنا هدية، تخيل مدى تأثير نجاح هذه الغارة على العالم، إذا استطعنا أن نحصل على معلومات إضافية فإن بيروت تعتبر مكاناً جميلاً لعمل مثل هذا، وهي مثالية بالنسبة إلى الهليكوبتر وخصوصاً في الليل.

استناداً إلى واجبي الوظيفي مرّرت الاقتراح إلى قوة العمل، ولكنه جوبِه بحماسة قليلة. حتى إنّ الجنرال كارل ستينر، بطل عملية أكيلي لاورو، قال: «آنس ذلك يا أولي إنها لن تنجح». أنا لا أكره ركوب المخاطر ولكني اتفقت في هذا مع ستينر.

طلب مني كايسي ويواندكستر المحافظة على حيويّة الفكرة مع القناة الثانية لنرى ما يمكن أن ينتج عنها. أدركت فيما بعد أن هذه الغارة مستبعدة، لأنه لم يرغب أحد في أن يقع عناصر الإنقاذ في الفخ، ولم يكن هناك طريقة أكيدة لإزالة هذا التهديد.

عندها اقترح نير تغييراً ماكراً: إذا لم تشأ الولايات المتحدة أن تجازف فربما يقبل الإسرائيليون بالمجازفة. اقترح نير خطة مضمونة: فمن أجل تسهيل خطة الإنقاذ الإسرائيلية والتي تتضمن أيضاً الإسرائيليين المحتجزين سوف يدبّر نير خطف الشاب وعدد من المسؤولين الإيرانيين الرسميين الذين يتجولون في أوروبا من قبل عملاء الاستخبارات الإسرائيلية، وسوف يتم احتجازهم كتدبير احترازي حتى تنتهي عملية الإنقاذ.

قال كايسي: هذا كلام.. ولا عجب. إذا حصل خطأ فإن اللوم سيوجه إلى الإسرائيليين. لكن فكرة غارة مسلحة على بيروت لم تتجاوز مرحلة الكلام، كان الشاب لطيفاً ورقيقاً ويصعب رميه في زنزانة! إلى جانب ذلك لن يعرف أحد كيف سيكون شعور خاله رفسنجاني.

كان الشاب يطلب استراحات قصيرة في أوقات عديدة في خلال زيارته إلى واشنطن وذلك ليصلي. لم يحضر معه «سجادة صلاة» وهكذا قدم أحد زملائي إليه منشفة ملونة. كل هذه الصلوات أدت بي إلى الاعتقاد بأن هناك عدة مراجع لإبراهيم: الأب التوراتي للديانات الكبرى الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. كنت أشدد أيضاً على أن الرئيس ريغان هو رجل مؤمن.. ولكني كنت أبتعد عن التعليقات الدينية.

في إحدى المرات أخذ مرافق الشاب سيكورد جانباً واشتكى مني قـائلاً: «يـا جنرال ما خطب هذا الرجل؟ لقد غادرنا للتو بلدنا المليء برجال الدين.. وها إني أجد هنا رجل دين آخر».

ربما كان أحد أعضاء الوفد يتطلّع إلى الخروج من البيئة المتديّنة الصارمة في طهران، لأنه في تلك الليلة وعندما عاد الإيرانيون إلى الفندق بذلـوا جهداً من أجـل إحضار بعض النساء للمجالسة من بعض الأماكن المحليـة. قام بعضهم بعشرات المحـاولات لكنها أدّت إلى بقاء سيدات الليالي وحدهن، ليس لأنّ الفنـدق بعيد عن قلب المـدينة فقط، بـل لأن الإيرانيين لا يتكلمون الإنكليزيـة جيّداً، لـذلك ذهبت هـذه الجهود سـدى وأمضى زائرنـا الليلة وحيداً.

في الليلة التـالية اصـطحبت الشاب في جـولة في البيت الأبيض وكـان معنـا ألـبرت حكيم مترجماً. فيـما بعد تعجب النـاس كيف أني أحضرت رجل الاتصـال السري الإيراني إلى البيت الأبيض وكان هذا يمس بالأمن القومي. لكن ذلك لم يكن مختلفاً عن اصطحاب أقاربي من أوسويغو، أو رجال الإطفاء الزائـرين والقادمـين من أوشكوش، أو زمـلاء صفي في أنابوليس. لقد اصطحبت عشرات الزوّار إلى البيت الأبيض ومن بينهم والدي وإخـوتي وشقيقتي وأولادي وحتى ابن عم السكرتيرة التي تعمل في القاعة. في المساء وعنـدما يكـون الرئيس خارج المدينة، كانت هذه الزيارات مشجّعة، وكان الجناح الغربي يعجّ بالمـوظفين. بـالنسبة إلى موضـوع السريّـة فأنـا لم أهتم لأي شخص يتعجب ويتساءل من هم الـذين معي.

كان الزوار الأجانب جزءاً من الجو العام. بنـاء على طلب أحـد الزمـلاء من وكالـة المخابرات المركزية، أخذت مجموعة من المقاتلين الأفغان في رحلة إلى البيت الأبيض، ومع ذلك لا أظن أنه كان لديهم أي فكرة عن المكان الذي كانوا فيه. بعد ساعـات وفي عطل نهايات الأسبوع، وعندما يكون الرئيس والسيـدة الأولى في كامب ديڤيـد، كان هنـاك زوّار يتجوّلون في البيت الأبيض من جميع الكواكب في المجموعة الشمسية.

أحضر الشاب معه آلة تصويـر وطلب مني ومن ألبرت أن نلتقط لـه صوراً في البيت الأبيض، ربما ليقول للنـاس في وطنه إن الصغـير قد وصـل إلى أعلى المستـويات. في تلك الليلة أخذته إلى الجناح الغربي وإلى غرفة الصحافة وقاعة الحكـومة وإلى الممشى المؤدي إلى المكتب البيضاوي، والذي يقع تحت حراسـة سريّـة مشدّدة ويقفـل عادة بحبـل عندمـا لا يكون الرئيس موجوداً. كنت أريد أن أريه جائزة نـوبل التي حصـل عليها الـرئيس تيودور روزفلت وهي معروضة في قاعة روزفلت. قلت له: هذه جائزة نوبل للسـلام، إنها الأولى

التي يحصل عليها أميركي، لقد منحت للرئيس روزفلت لنجاحه في إنهاء الحرب بين روسيا واليابان عام ١٩٠٥، مع أن تلك الحرب لم يكن لها تأثير مباشر في الولايات المتحدة فقد دارت على بعد آلاف الأميال من هنا، لقد أحضر الرئيس روزفلت قادة الدولتين إلى قاعدة بورتسماوث في نيوهامشير حيث تفاوضا على إنهاء القتال.

أضفت: إن الرئيس ريغان يشعر الشعور نفسه حول الحرب بين بلدكم والعراق، إنه يريد أن يبذل كل ما بوسعه من أجل تحقيق السلام.

قبل أن يغادر الشاب واشنطن طلب إصدار بعض الإشارات العلنية من الولايات المتحدة لتثبت صحة اتصالاته في طهران، ومن أنه اجتمع حقاً بمسؤولين كبار. طبعاً لا يمكن أن نطلب من الرئيس ريغان أو وزير الخارجية شولتز أن يقف أي منهما ويدلي بتصريح جيد حول إيران، كل ما كنا نحتاج إليه هو بيان أميركي يرضي الإيرانيين ولا ينتبه له أي مواطن في بلدنا.

مرة أخرى جاء الجواب عبر خبرة التاريخ، تذكرت أنه خلال الحرب العالمية الثانية كانت إذاعة حكومة فرنسا الحرة في لندن تبث رسائل مشفرة إلى المقاومة الفرنسية في الأرض المحتلة، وذلك بإدخال جمل متفق عليها في البيانات الروتينية. تساءلت ما إذا كنا نستطيع إجراء عمل كهذا في إذاعة صوت أميركا. ربما أمكن أن تشكر الولايات المتحدة إيران على جهودها من أجل حل مسألة خطف الطائرة العائدة لشركة بان أم. (كانت المساعدة الإيرانية هي عدم السماح للطائرة بالهبوط في طهران، وهذا كان موضع تقدير). اتفقت أنا والشاب على الكلمات وكتبناها، وبعد إذن من الأميرال بواندكستر طلبت من إذاعة صوت أميركا بث البيان الصغير في نشرتهم باللغة الفارسية، ووافقوا على ذلك. بعد أن عاد الشاب إلى طهران بوقت قصير استخدمت الجملة في الإذاعة الأميركية.

عندما ترك الشاب واشنطن أرسلت ملخّصاً عن محادثاتنا إلى الأميرال بواندكستر الذي قال وبحماسة في رسالة إلى مكفرلين على جهاز اتصال البيت الأبيض: «لقد أثمرت رحلتك إلى طهران، لقد وصلت إلى القمة، إنهم يلعبون معنا على الخط نفسه، إنهم قلقون من السوفيات ومن أفغانستان ومن اقتصادهم. لقد أدركوا أن الرهائن عائق أمام أي علاقة متميزة بيننا، إنهم يريدون إزالة هذا العائق... إذا حصل ذلك يمكن أن أطلب منك جولة أخرى بعد عودة الرهائن، احفظ أصابعك على الموضوع».

في اليوم التالي ٤ تشرين الأول/ اكتوبر أجاب مكفرلين بلطافة: «إذا كنت تعتبر أن لذلك قيمة، يمكنني أن آخذ إجازة لمدة شهرين للعمل في الموضوع، لا أريد ضمانات ولا

مصاريف مالية (ما عدا نفقات السفر والفنادق) ولكني قادر على أن أبدأ شيئاً ما. . فكّر بذلك».

أعلن مكفرلين فيما بعد أنه بعد رحلة عام ١٩٨٦ إلى طهران أراد أن لا يقوم بأي عمل يتعلق بالمبادرة نحو إيران، ولكن في خريف ١٩٨٦ شاركنا الاعتقاد بأن الانفتاح الاستراتيجي على إيران كان مهماً وممكناً. كان الأميرال بواندكستر يقترح جولة ثانية ـ أي رحلة أخرى إلى إيران ـ بعد إطلاق سراح الرهائن. في الحقيقة لقد احتجبت أهدافنا مع إيران وراء مشكلة الرهائن.

كان الشعور بالتفاؤل الذي عبر عنه مكفرلين وبواندكستر واضحاً أيضاً في إيران. بعد سماع إذاعة صوت أميركا وافق الإيرانيون على اجتماع الشاب بنا مرة ثانية بعد ثلاثة أسابيع في فرانكفورت.

كنّا نسجل دائماً جميع اجتماعاتنا، وكنت أقوم بهذه الأعمال بنفسي، لأننا لم نستطع وضع أجهزة تسجيل في غرف الفنادق، بالإضافة إلى آلة الشيفرة ك ل ٤٣ كنت أصطحب معي في أثناء سفري آلة تسجيل مخبأة ضمن حقيبة، وكاميرا ڤيديو مخبّأة في حقيبة رياضة (كانت الآلتان تعملان على بطاريات طويلة الأمد وكذلك شرائط تسجيل طويلة). كنت أتأكد من تسجيل جميع اجتماعاتنا، كنّا نعد الإيرانيين بأكثر مما كنّا نحضر لتسليمهم، وكنت أخبرهم أشياء غير صحيحة، كنت أريد أن يعرف رؤسائي وكل من يريد أيضاً ما قاله كل جانب بالضبط. حثّني سيكورد على تشغيل آلة التسجيل حتى لو كانت الغرفة مجهزة بأدوات استراق السمع، لم أشاركه القلق وإنما لبيت طلبه.

بعد أن بدأت مبادرتنا نحو إيران بوقت قصير، طلب مني كايسي الحصول على هويّة باسم مستعار لتأمين المزيد من الحيطة. كنت قد حصلت على جواز سفر دبلوماسي أسود، لكنه كان قلقاً من أن إسمي أصبح معروفاً، وأن الاسم المستعار يؤمن التغطية والنكران في حال انكشاف مهمتي، وهكذا منحت جواز سفر عادياً أزرق وعليه صورتي واسم وليم پ. غود، وهكذا أصبحت رجل أعمال.

لتأكيد صحة هوية السيد غود زوّدت بمفكرة جيب بداخلها بطاقات عمل وإيصالات وبطاقات اعتماد. لم تستخدم بطاقات الاعتماد لدفع أي مبلغ لكن بطاقات العمل كانت مفيدة. كان رقم الهاتف المسجّل عليها من المفترض أن يرن ـ في حال طُلب ـ في مكان ما في واشنطن حيث يرد شخص ما يثبت أن السيد غود هو في الحقيقة من يُدعى بهذا الاسم.

ومثلي كان السيد غود يعمل في NSC، فبينما كان NSC* الذي أعمل فيه هـو مجلس الأمن القومي، كان NSC الذي يعمل له السيد غـود شركة الأمن القـومي**. عندمـا كان أحد يسأل كان السيد غود يجيب بأنه باع معدات من أجهزة الأمان إلى شركات في أوروبـا كـانت بحـاجـة إلى معـدات خـاصـة من أجـل حمـايـة عملهـا السري في مجـال الـدفـاع الاستراتيجي، وكان ذلك يفسّر وجود آلتي تسجيل معي.

كان أسفي الوحيد أن وليم غود لم يزعج نفسه ويوقـع على بـرنامـج رحلات جـوية عديدة، عندما كنت أفكر بالأماكن التي كان بـإمكانـه أن يصطحب زوجتـه وأطفالـه إليها مفترضاً أن لديه الوقت اللازم لذلك.

في كل مرة كنت أغادر فيها دالس كنت أحمل آلتي التسجيل وآلـة التشفير ك ل ٤٣. ومن المفـارقات أن آلتي التسجيـل كانتـا تمران عـبر الأشعـة السينيـة (أشعة أكس) دون أن تظهرا أي شيء غير عادي، بالطبع كان لديّ قصة ملفّقة جاهزة لكن أحداً لم يسـألني، ما عدا مرّة واحدة حين لم يكف ما كان في مفكـرة الجيب ولا أوراق الهويـة المزوّرة ولا قصتي الملفّقة لإقناع سلطات مطار هيثرو في لندن. عندما كنت أصل إلى مطار في ما وراء البحار كـان يوافيني ممثـل عن السفارة الأمـيركية يتـولى أمر معـاملاتي في الجـمارك، ولكن في هـذه الـرحلة وصلت باكـراً، وخلال مـروري إلى الجمارك أوقفني المسؤولـون البريـطانيون ـ وهم جـديون ودقيقـون ـ وطلبوا مني أن أشرح وأن أدلّ عـلى جميـع المعـدات الإلكـترونيـة التي أصطحبها معي، والتي من المفترض أن أعرضهـا للبيع. كـان جورج كـايف، الذي ذهب في خط آخر، ينتظرني على بعد عـدة ياردات ويحـاول عبثاً أن يكبت ضحكـة عندمـا كنت أتحدث بتلك الطريقة.

دهش موظفو الجـمارك بجميع هـذه المعدات غـير العاديـة، شعرت أنهم أدركـوا أنّي مسؤول حكومي أميركي يحاول أن يدخل بصفة رجل أعمال، وقد أصرّوا على سـماع قصتي الملفّقة بكاملهـا عدة مـرات: لماذا أنـا هنا؟ مـع من سأجتمـع؟ ما هي هـذه الأجهزة التي أحضرتها معي؟ وكيف تعمل؟ بـالضبط ما هي شركـة الأمن القومي؟ مـا هي التجهيزات التي تصنعها شركتكم؟

كـان ذلك مخيفـاً وقد حفـظت القصة بكـاملهـا عن ظهـر قلب، ولكن سرعـان مـا

* NSC اختصار لكلمات ثلاث «مجلس الأمن القومي» National Security Concil. (المترجم).

** NSC اختصـار ـ أيضـاً ـ لكلمات ثـلاث «شركـة الأمن القـومي» National Security Company (المترجم).

تصببت عرقاً، وشعرت كأني ممثل على مسرح حيث كان بقية الممثلين يعملون مع بعضهم منذ سنوات، مع أن أداء السيد غود لم يكن جيّداً مثل اسمه. بعد حوالى ٢٠ دقيقة من المرح وصل زميلنا من السفارة وسمحوا لي بالذهاب. ذهبت أنا وجورج جوّاً إلى فرانكفورت حيث التقينا بأحد موظفي سفارتنا في بون في الوقت المناسب وتفادينا تمثيل السيد غود* العديم الخبرة!

ظهر الشاب في فرانكفورت مع مرافق آخر كنّا قد التقيناه أنا وكايف في طهران، ومع أننا لم نتأكد من ذلك فقد كنّا نعتقد أنه ضابط استخبارات في الحرس الثوري، لكننا لم نعلم من هو بالضبط وما هي السلطة التي يتمتع بها.

كان هناك شيء ما واضح: المرافق الجديد أهم من الذي كان في واشنطن، وكان أيضاً أقل ودّاً وتجاوباً تجاهنا. لقد أسميناه أنا وسيكورد «الوحش» بسبب مظهره القاسي والمتوتر والطريقة التي كان ينظر بها إلينا، أما حكيم فقد أسماه «الآلة» لأنه كان قادراً على تحريك الأشياء.

قبل اجتماع فرانكفورت قال لنا الشاب إنه يريد أن يحضر معه نسخة من القرآن الكريم هدية للرئيس ريغان، وبالمقابل أحضرت معي نسخة من الكتاب المقدس مغلّفة بالجلد هدية لرئيس مجلس الشورى رفسنجاني. لقد فكرت أنه من المناسب أن يكتب الرئيس مقطعاً من الكتاب المقدس بخط يده بالإضافة إلى توقيع الكتاب، إدراكاً مني بتحامل الحكومة الإيرانية ليس على إسرائيل فقط بل على اليهود بشكل عام. اخترت مقطعاً من العهد الجديد وبمساعدة الفهرس عدت إلى «الرسالة إلى أهل غلاطية» التي تتضمن أن إبراهيم هو أبو الديانات الثلاث. لقد اخترت الإصحاح الثالث الآية الثامنة التي تقول: «والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر بإبراهيم إن فيك تتبارك جميع الأمم»* ثم طلبت من الأميرال بواندكستر أن يحصل على توقيع الرئيس على نسخة الكتاب المقدس وكتابة هذا المقطع، وقد قام بذلك.

عندما قدمت الكتاب المقدس إلى الإيرانيين قلت لهم إن الرئيس ريغان كلّفني أن أخبرهم أن الولايات المتحدة تقبّلت ثورتهم. في خلال محادثاتنا مع الإيرانيين بدا لنا أنه من المهم جداً أن يسمعوا هذا الكلام. لقد أوضحنا ذلك في طهران، وكنت أعلم أنه منذ وصول الخميني إلى السلطة كانت الولايات المتحدة وإيران تتفاوضان في محكمة العدل

* Good تعني جيد، اي لم يكن أداؤه جيداً. (المترجم).
* أخذت الترجمة من الكتاب المقدس النسخة العربية. (المترجم).

الدولية في هيغ حول ملكية الأرصدة الإيرانية المجمّدة. لم يكن لهؤلاء المسؤولين أي خبرة سابقة في العمل الحكومي، وشعروا بعدم الثقة بأنفسهم في وظائفهم الجديدة، ومهما كان السبب يجب أن يسمعوا عن قبولنا لهم ولثورتهم مرات عديدة.

لم يحضر الشاب القرآن الذي حدّثني عنه، ولكن في اجتماعنا اللاحق قدّم لي سجادة عجمية حمراء تبلغ أبعادها ١٥ قدماً بعرض ١٠ أقدام قال لي: «أريد أن أقدم إليك هذه السجادة، أنا أعتقد أنك مخلص وأنك تريد أن تساعد بلادك، أنا أعرف أنك رجل عسكري وأنك لا تقبل شيئاً كهذا».

لقد كان على حقّ، ولكن لم يكن هناك أي مجال لقبول هذه الهديّة وحاولت أن أشرح ذلك بكل تهذيب.

ـ سألت جورج كايف فيما بعد: كيف استطاع الشاب أن يخرج هذه السجادة الكبيرة من طهران؟

ـ أجاب جورج: إنه يحتمل أنها خرجت منذ سنين طويلة، وأضاف إنه بعد الثورة بوقت قصير نقلت الحكومة الجديدة بعض المحتويات الثمينة ـ سجاد، ذهب، فضة، لوحات، ثريات ـ من قصور الشاه في إيران وشحنتها إلى مخازن في فرانكفورت. وبين وقت وآخر كان الإيرانيون يبيعون بعضها من أجل الحصول على العملة الصعبة.

في نهاية اليوم الأول في فرانكفورت بدا وكأن القناة الثانية يريد أن يتحرّك في موضوع الرهائن. ولكن ما لم أكن أعرفه هو أنه على بعد آلاف الأميال كانت مبادرتنا نحو الكونترا تتهاوى.

لم أعلم بذلك إلاّ بعد الانتهاء من العشاء. ذهبت إلى غرفتي وأدرت جهاز التلفزيون على محطة CNN حيث شاهدت شخصاً أميركياً أشعث الشعر بالقرب من حطام طائرة نقل من نوع سي ١٢٣. كانت يداه مقيدتين وراء ظهره وكان يحرسه جندي سانديني، ونظر مباشرة نحو الكاميرا وقال: اسمي يوجين هازنفوس وقد أتيت من مدينة مارنيت في ولاية وسيكونسين.

توقف قلبي.. لم أعرف الاسم ولكنّي أدركت معنى هذا. اتصلت على الفور بمكتبي حيث أجاب بوب إيرل مستخدماً آلة ك ل ٤٣، أكد لي بوب كلّ ما قالته شبكة CNN، وأعطاني تفاصيل إضافية. كانت هذه الرحلة جزءاً من «مشروع الديموقراطية» لنقل الإمدادات إلى المقاومة في عمق نيكاراغوا. لقد قتل ثلاثة أشخاص آخرون كانوا على متن

الطائرة، ومن بينهم باز سوير الذي كنت أعرفه شخصياً ومعجباً بـه، وبيل كـوبر الـطيار الأساسي الذي كنت قد التقيت به من قبل، ولكني لم أتعرف عـلى الرجـل الثالث والـذي كان عنصر اتصال ولوجستية من المقاومة. كان هازنفوس أحد عناصر الطاقم الذين يرمون الأحمال بالمظلات، وكان قد جنّده سيكورد هو والأميركيين الآخرين.

كانت طائرتهم قد أقلعت من الوبانغو في السلفادور، وكانت تحمل عـلى متنها حمـولة للمقاومة: بنادق، رمانات، قاذفات قنابل، أدوية، ألبسـة، أحذيـة. في الساعـة ١٢,٤٥ بعـد ظهر يـوم السبت أصيبت بصاروخ سـانديني مضـاد للطائرات وانفجـرت وتحولت إلى كتلة لهب. كان هازنفوس الوحيد المجهّز بمظلة وشاهـد الطائـرة وهي تتحطم وتحـترق بينما كان يهبط إلى الأرض. لا بد أنها كانت تجربة رهيبة، وأنا لا ألومه لأنه تكلّم بعد أن ألقي القبض عليه فقد ظنّ أن كل شيء قد انتهى.

لقد أعطت الحادثة للساندينيين ما كانوا يطلبونه.. إثبات دامغ أن المرتزقة الأميركيين يطيرون فوق نيكاراغوا.. كانوا يدّعون منـذ أشهر أن الـطائرات الأمـيركية تسقط القنـابل فوق بلادهم، لقد كانوا مخطئين فيما يتعلق بإسقاط القنابل لكن الباقي كان صحيحاً.

تركت فرانكفورت فوراً وعدت إلى واشنطن، وذهبت مع سيكورد أيضاً للتعامل مع هذه العاصفة. كان كايف قد عاد أيضاً إلى الـولايات المتحـدة لأنه كـانت لديـه أوامر من وكالة المخابرات المركزية بأن لا يجري أي مباحثات مع الإيرانيين من دوني، وهذا ما أبقى حكيم وحده مع الإيرانيين، وكانت تلك غلطة كبيرة.

لم نترك حكيم حتى يتفاوض بل ليبقى مع القنـاة الثانيـة ممسكاً بـالملف ريثما أعـود. عنـدما تـركت فرانكفـورت كنت أعتقد أنني سـأعود بعـد يومـين، لم تكن لديّ فكـرة عما ينتظرني في واشنطن، وأمضيت ثلاثة أسابيع قبل أن آخذ طريق العودة إلى فرانكفورت.

تابع حكيم المفاوضات وخلال اليومين التاليين قدم تنازلات لم يكن أحد منا ليقدمها لو كان موجوداً. لقد وعد، ومن ضمن أشيـاء كثيرة، الإيـرانيين بـأن نسعى لدى حكـومة الكويت لإطلاق سراح سجناء حزب الدعوة، ووافق أيضاً على بيع ٥٠٠ صاروخ توأخرى إلى إيران وبحسم على الأسعار الماضية.

عندما علم نير بذلك قال: «هذا يجعلنا نبدو رهيبين» وهو يقصد بذلك حكـومته.. ثمّ ماذا سيكون موقف غوربانيفار؟

لم يكن أحـد مسروراً بمفـاوضـات حكيم، ولكنهـا لم تكن صفقـة كبـيرة، في ذلــك الوقت، ولم يستطع أحد منا معرفة تـأثير ذلـك في الكونغـرس بعد تسعـة أشهر أي خـلال

التحقيقات. لقد وافقت على اتفاقات حكيم مع أني لم أُعجب بها أبداً لأني كنت أريد أن أعد الإيرانيين بأي شيء من أجل تحرير المزيد من الرهائن: «تريد أن تركب في الرحلة التالية على المكوك الفضائي؟ إنها لك يا حبيبي».

فيما بعد وفي منتصف التحقيقات سئلت عما إذا كان لديّ أيُّ ندم أو تأنيب ضمير لأني كذبت على الإيرانيين. كان الجواب لا.. كان تحفّظي الوحيد هو أن إحدى كذباتي يمكن أن تنكشف، ويمكن أن يدفع الرهائن ثمن ذلك. لقد كذبت عليهم ليس لأنهم إيرانيون بل لأن حياة البعض كانت في خطر*.

حالما عدت من فرانكفورت طلب مني كايسي أن أحضر إلى مكتبه في لانغلي من أجل محادثات طويلة وجديّة. كانت الإدارة الأميركية تنكر أي علاقة برحلة طائرة هازنفوس، ولكن عاجلاً أم آجلاً ستنكشف القصة الحقيقية. قال لي كايسي: «لقد انتهى، وهو يقصد «مشروع الديموقراطية»، أغلق الموضوع ونظفه، أعد كل الناس إلى أوطانهم ونحن سنرجع أيضاً».

لحسن حظ الكونترا وافق الكونغرس أخيراً على تخصيص مبلغ ١٠٠ مليون دولار لوكالة المخابرات المركزية لاستئناف المساعدات للمقاومة وقريباً ستتدفّق الأموال. لقد جرت رحلة هازنفوس قبل أقل من أسبوعين من استئناف وكالة المخابرات المركزية دعمها للمقاومة. لم تكن نيكاراغوا الشيء الوحيد في عقل كايسي، قال إنه أجرى محادثات مزعجة مع صديق قديم يدعى روي فورمارك. كان فورمارك شريكاً لعدنان خاشقجي، وقال لكايسي إن غوربانيفار وقع تحت دين كبير لخاشقجي ولرجلي أعمال كنديين. هدّد غوربانيفار بكشف كل شيء: المبادرة نحو إيران، والتحويل، إلاّ إذا استعاد خسائره. لكن غوربانيفار كان قسماً من المشكلة، لم يكن كايسي سعيداً وهو يسمع فورمارك، وهو من خارج الأجهزة، يروي معلومات مفصّلة حول لاك ريسورسز واستعمال ما تبقى من الأموال واشتراكي في كل ذلك.

إن كلمة كايسي الملفتة «نظفه» تعني أكثر من إعادة الطيارين والآخرين الذين عملوا مع سيكورد. بين مشكلة هازنفوس وفورمارك كنا نواجه احتمالاً قوياً بانكشاف قريب لكل العملية بما فيها الجهود لإطلاق سراح الرهائن. كان مكتبي مليئاً بالملفّات والوثائق التي إذا ما انكشفت تعرض حياة العديد ممن عملوا معنا في نيكاراغوا وأوروبا وإيران

---

* في الكتاب المقدس في سفر يشوع الفصل الثاني تكذب راحاب على السلطات من أجل إنقاذ حياة جاسوسين من بني إسرائيل. لا أتذكر أني قرأت عن محاكمتها.

للخطر. كان لدي بيانات مالية مفصّلة من أدولفو تظهر كيف أنفق المال السعودي، ومن ضمن ذلك دفعات حسّاسة لبعض العناصر داخل نيكاراغوا. إذا تسرب شيء ما من هذا فإن الخطر سيكون جدياً.

وهكذا بدأت أمزّق أوراقاً في مكتبي أكثر من الحالات العادية. إن آلة تمزيق الأوراق هي من التجهيزات الضرورية لأي مكتب يتعامل في الأمور السرية، لا يمكن رمي هذه الأوراق في سلة المهملات العادية، يجب إتلافها من أجل المحافظة على الأسرار. لقد أثار تحذير كايسي انتباهي، فكنت أمزق الأوراق يومياً، لكني مزقت خلال أسابيعي الأخيرة في مجلس الأمن القومي أكثر من أي وقت مضى.

حاولت أن أمزق جميع الوثائق التي تذكر التحويل أو أسماء الأشخاص الذين يمكن أن يتعرضوا للخطر، كما أني أتلفت الدفتر الذي أعطاني إياه كايسي في السنة الماضية، والذي سجلت فيه كل الأموال والشيكات السياحية التي تصدر من مكتبي أو ترد إليه. كان الدفتر مليئاً بأسماء أشخاص ومنظمات لو كشفت لسبّبت كارثة كبرى.

مضى ثلاثة أسابيع قبل استئناف محادثات فرانكفورت مع الشاب. اجتمعنا مرة أخرى في ٢٩ تشرين الأول/ اكتوبر في ماينز، وهي مدينة جامعية خارج فرانكفورت، وصلت في حالة تفاؤلية، لقد انكشفت خيوط مشروع الكونترا، لكنّنا حافظنا على المقاومة إلى حين عودة وكالة المخابرات المركزية إلى اللعبة. والآن بدا أن القناة الثانية يقودنا إلى مكان ما: إننا نقترب من عقد صفقة تؤدي إلى إطلاق سراح رهينة أخرى في بيروت.

لكن الشاب والوحش وصلا إلى ماينز مع أنباء منذرة خطرة. لقد وُزّعت مناشير في مساجد طهران وقم كشفت عن صفقات السلاح ورحلة مكفرلين إلى طهران. كانت التفاصيل الأساسية حول الرحلة صحيحة، لكننا أصبنا بالذعر عندما علمنا أن أنباء الزيارة كانت تبحث علناً.

استناداً إلى الشاب، كان أحد الأجنحة المنافسة في الحكومة، والذي يريد وقف المبادرة، وراء توزيع المناشير. إن مصدر المناشير ليس مهماً، فبغض النظر عن مصدر المناشير، كنا نعيش في وقت مستعار. لقد تصورنا أنه يلزم حوالى الشهر حتى تصل الأنباء الرائجة في طهران إلى الولايات المتحدة، ولكنّ الأمر استغرق أسبوعاً فقط.

على الفور أرسلت رسالة على الألة ك ل ٤٣ إلى الأميرال بواندكستر أعلمه فيها عن الأنباء الجديدة، وأوصي بأن نضغط بأي شيء ممكن لإطلاق سراح المزيد من الرهائن قبل

أن تلاقي المبادرة مصير مشروع الديموقراطية نفسه. وافق الأميرال في جوابه على اقتراحي الذي سيشكل الصفقة الأخيرة.

لقد ادعى البعض فيما بعد أن محاولاتي السريعة في أواخر تشرين الأول/ اكتوبر وأوائل تشرين الثاني/ نوفمبر من أجل إطلاق سراح بقية الرهائن كانت لها علاقة بالانتخابات القادمة. نعم كان هناك علاقة، لكن ذلك لم يكن كما ظهر. لم يطلب مني أحد في واشنطن أن أخرج الرهائن يوم الانتخابات. هل كانت هذه انتخابات رئاسية بحيث يمكن أن يؤثر إطلاقهم فيها إلى حد ما؟ كانت هذه انتخابات لمجلس النواب ومجلس الشيوخ ومنصب الحاكم ولن يتأثر الوضع بإطلاق سراح أي رهينة.

لقد رأى الإيرانيون ذلك بطريقة مختلفة، لقد افترضوا، ولهم ما يبرر ذلك، أن الإمساك بالرهائن في سفارتنا في طهران هو الذي أدى إلى هزيمة الرئيس كارتر عام ١٩٨٠، واعتبروا أن رهائننا في لبنان ستكون لهم الأهمية نفسها في الحملة الانتخابية. إذا كان هناك شيء ما يجب أن يحصل، فإنه يجب أن يحصل قريباً، وذلك بسبب حادثة هازنفوس ومناشير طهران. لقد استبقت افتراضاتهم وأصريت على إطلاق سراح الرهائن قبل يوم الانتخابات أي في ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر.

قلت لهم: «علينا أن نتحرك بسرعة، إذا فاز الديموقراطيون بأغلبية كبيرة يوم الثلاثاء، فإننا لن نستطيع إرسال المزيد من شحنات السلاح إليكم».

يمكن أن تكون الانتخابات هي التي حركتهم، ويمكن أن تكون المناشير، أو أي شيء آخر، ولكن قبل أن نغادر ماينز وعدنا الشاب أنه في نهاية الأسبوع ورداً على وصول ٥٠٠ صاروخ تو فإنه سيطلق سراح رهينتين أو ثلاث في بيروت.

أبلغت هذه الأنباء الجيّدة إلى بواندكستر الذي طلب مني الذهاب إلى قبرص للقيام بالترتيبات الضرورية مع سفارتنا، لذلك عدت إلى واشنطن لأنتظر كلمة من الإيرانيين.

بعد ظهر يوم الجمعة سمعت من حكيم أن إطلاق سراح أحد الرهائن بات وشيكاً. أكد لي شارلز ألن من وكالة المخابرات المركزية أن أحد الرهائن سيطلق يوم الأحد، وعلى الفور توجّهت إلى لندن حيث استقليت، بصفتي وليم غود، طائرة وتوجّهت إلى قبرص.

لم أتمكن من الذهاب مباشرة إلى بيروت (يقع مطار بيروت في المنطقة الغربية، وهي القطاع المسلم من المدينة، وكان قد خطف من تبقى من رعايا الدول الغربية من عدة أمكنة فيها). كانت خطتي أن أطير إلى قبرص ومنها أكمل رحلتي إلى بيروت بوساطة طائرة

هليكوبتر للجيش الأميركي، لم تكن رحلة الهليكوبتر الطويلة فوق البحر إلى مدينة مليئة بنيران المدافع فكرتي، لكنها كانت أكثر أمناً من الطيران إلى مطار بيروت.

ليل يوم السبت عندما هبطت في مطار لارنكا في قبرص كان المكان مكتظاً. فتشت عن هاري، وهو ضابط الاتصال من وكالة المخابرات المركزية المعين معي، فلم أجده. وقفت في الصف من أجل الحصول على قطع نقود معدنية كي أجري مكالمة هاتفية، ولاحظت هاري يقف قرب المدخل فأومأ إليّ برأسه وتبعته إلى السيارة.

عندما خرجت كان هاري قد أصبح داخل السيارة، قال لي بصوت عال: أسرع أدخل. نظرت حولي فرأيت ثلاثة رجال يركضون نحونا، كانوا يحملون شيئاً ما ولكني لم أعرف ما كان ذلك. هرعت نحو السيارة، وقفت هناك محاولاً أن أفتح الباب الخلفي الأيمن، في الوقت الذي كان السائق يفتح لي قفل السيارة كنت أحاول فتحها، وللحظة طويلة لم يفتح الباب لأن كلانا كان يفتح في الوقت نفسه، وعندما فتح في النهاية دخلت إلى السيارة بينما كان السائق يدوس على البنزين.

عندما اندفعنا بعيداً نظرت إلى الخلف نحو الرجال الذين كانوا قادمين نحوي، لم يكونوا فريق قتل، بل كانوا مصوّرين صحافيين وكانت الكاميرا ما تزال معهم وهي تصوّر.

فيما بعد في تلك الليلة، أدار هاري التلفزيون ليستمع إلى نشرة الأخبار المحلية. يا للهول.. رأيت نفسي وأنا أندفع نحو السيارة مثل الأرنب الخائف. كان هاري قد وضع يديه على وجهه. قال: «أنا لا يمكن أن أصدق ذلك، لقد حدّدوا أنك من وكالة المخابرات المركزية وقالوا إنك تعمل لإطلاق سراح الرهائن!».

على الفور كتبت تقريراً مفصلاً عن الحادث وأرسلته إلى الأميرال بواندكستر على الآلة ك ل ٤٣. ما زلت أجهل كيف عرف فريق المصورين أنني قادم. علمنا فيما بعد أنهم كانوا تابعين لوكالة أنباء لمنظمة التحرير الفلسطينية. كانت هناك شائعات في بيروت عن قرب إطلاق سراح أحد الرهائن، وافترضت أنا وهاري أن فريق المصورين كان ينتظرنا ببساطة في المطار، لكن ذلك لا يفسر لماذا ركّزوا عليّ؟ هل طاردوا سيارة هاري؟ هل كان هناك تسريب في اتصالاتنا؟

في تلك الليلة اتصلت بجون كيلي سفيرنا في بيروت لأخبره بأننا نتوقع إطلاق سراح أحد الرهائن في بيروت في اليوم التالي، ولا نعرف بعد من هو أو كم عدد الرهائن! طلبت منه أن يرتب أمر نقلهم وإجراء فحص طبي سريع لهم وأن لا يخبر أحداً حتى

وزارة الخارجية. كانت تلك تعليمات بواندكستر.

أمضيت تلك الليلة في منزل هاري. وفي صباح يوم الأحد تكلمت مع آمي نير في تل أبيب، وكان هو أيضاً قد شاهد الفيلم عمّا جرى في مطار قبرص. قال لي: «أنت رائع يا نورث.. حقيقة أنت رائع».

في ذلك الصباح تلقيت «الكلمة» من بوب دوتون، وهو رجل سيكورد في بيروت، من أنه قد أطلق سراح ديڤيد جاكوبسون.

لقد عمل «القناة الثانية» فعلاً.

قلت لدوتون: «أبق عينيك عليهم، التزم بالهدوء، إذا أعلن عن إطلاق سراح جاكوبسون باكراً، فإن ذلك يمنع خروج بقية الرهائن الذين نتوقع إطلاق سراحهم».

أمضيت ذلك النهار أتمشى في غرفة في فندق غولدن باي خارج لارنكا، وكنت أنتظر أنا وتشي تشي كوينتيرو مزيداً من الأخبار الجيّدة. بينما مرت الساعات بدا واضحاً أنه كان جاكوبسون وجاكوبسون فقط. عدت إلى السفارة واتصلت بالأميرال وأخبرته بما حصل. قال بواندكستر: «حسناً إذهب وأحضره».

فجر يوم الاثنين صعدت على متن طائرة هليكوبتر عسكرية أميركية في رحلة إلى بيروت. كان الطقس بارداً والرياح قوية على المدرج، حقّاً كانت رحلة مزعجة. كان الطقس سيئاً إلى درجة أن طائرتي الهليكوبتر لم تتمكنا من رؤية بعضهما البعض، وكانت الطائرة الخلفية ملزمة على الابتعاد مخافة أن يحصل اصطدام. كان طيارنا وهو مؤهل* في الجيش قد وجّه البوصلة وحلق باتجاه بيروت التي كانت على مسافة قريبة خلف السحب.

هبطنا قرب المقر المؤقت للسفارة الأميركية في التلال المشرفة على بيروت الشرقية، ولحسن الحظ لم تكن نيران المدفعية في استقبالنا مع أن ذلك كان محتملاً في بيروت. عندما هبطت الطائرة أسرع رجال الأمن إلى قطاع الهبوط وهو مشهد يذكر بڤيتنام. عندما وصلنا بأمان تعرفت إلى الرجل الذي عمل جاهداً من أجل أن يستعيد نشاطه.

كان ديفيد جاكوبسون نحيلاً وشاحباً لكنه بدا في صحة معقولة. كان ممتناً كثيراً لحصوله على حريته، وبينما كانت الهليكوبتر تتزوّد بالوقود أخبرني كيف أطلق سراحه في اليوم السابق. حوالى الساعة التاسعة أصعده حراسه إلى سيارة وأخذوه عبر شوارع بيروت الغربية إلى قرب مبنى السفارة الأميركية القديم الذي أُخلي عام ١٩٨٣ على أثر انفجار

* مؤهل: رتبة عسكرية. (المترجم).

سيـارة مفخّخة أدت إلى تـدمير قسم منـه. اعتذرت منـه لأني جعلتـه ينتـظر يـومـاً آخـر، وشرحت له أننا كنا نتوقع إطلاق سراح رهينة أخرى. تقبل ذلك.. ولم يتوقف عن مديـح المتـطوعين من السفـارة الذين تـوجّهوا إلى بـيروت الغـربيـة وجـازفـوا بحيـاتهم من أجـل إحضاره.

كانت غرفة الجلوس الصغيرة مكتظة بالرجال الذين صلّوا مع جـاكوبسـون من أجل هذه اللحظة: السفير جون كيـلي الذي استلم المـركز الـذي لا يرغبـه موظفـو الخارجيـة، ونائب رئيس البعثة الذي قاد قـافلة السيارات التي تـوجهت لإحضار جـاكوبسـون، وبوب دوتون الذي طار إلى بيروت قبل يومين، وتيري ويت مبعوث رئيس أساقفة كانتربري. لقد جازف تيري لإنقاذ حياة الرهائن، ولكن في كـانون الثـاني/ ينايـر ١٩٨٧ أصبح هـو أيضاً رهينة في أيدي الخاطفين.

حالما أصبحت طائرة الهليكـوبتر جـاهزة صعـدنا إلى متنهـا. كان ديفيـد مستميتاً من أجل الكلام، ولكن كان هناك ضجة كبيرة تمنعه من ذلك. كتب ملاحظة أوضح فيها أنـه على الرغم من كل ما حدث له فهو ما يزال يحتفظ بروح المرح.

لم تكن رحلة العودة إلى لارنكا أسهل من رحلة الذهاب إلى بيروت بالرغم من أننـا كنا نطير في النهار. عندما هبطت الطائرة تلقى جاكوبسون تحيات وفـد أميركي، وبقيت في الهليكوبتر لأني كنت موضع تركيز الصحافيين، والتقى ويت وجاكوبسون وسفيرنا في قبرص مـع الصحافـة. عندمـا بدأت الكـاميرات تصـوّر المؤتمر الصحـافي خرجت من الهليكـوبـتر وصعدت إلى الطائرة التي كان سيكورد قد استأجرها. بعد دقائق أقلعنا باتجاه فيسبـادن في ألمانيا الغربية حيث ستجري الفحوصات الطبيـة لجاكـوبسون والاستـماع إلى أقوالـه، وكان إبناه سيلتقيانه هناك ولم يستطع الانتظار.

كنت أستمع إلى المؤتمر الصحافي لجاكـوبسون، عنـدما وصف كيف كـان يرتـاح إلى المزمور ٢٧، فتحت الكتاب المقدس ونظرت فيه، كنت أعتمر قبعة البيسبول، نزعتهـا عن رأسي وكتبت مقـطعاًمن المـزمور عـلى ورقة: «سـوف أرى حسنة الـرب في أرض الحياة». عندما صعد جاكوبسون إلى الطائرة أعطيته القبعة.

أخيراً.. كان لنا فرصة التحدث في أثناء رحلتنا إلى فيسبـادن. كان المسكـين متلهّفاً من أجل أن يتكلم إلى درجة أن الكلمات تدفّقت منه بشكـل سريع. كـان غاضبـاً جداً من الخاطفين، وكان ممتناً جداً لحصوله على الحرية، ثم تقبّل الحقيقة من أنه لا يمكنه أن يعرف التفاصيل التي أدّت إلى إطلاق سراحه.

أخبرني القصة بكاملها، والتي كررها أكثر من مرة في فيسبادن. في ٢٨ أيار/مايو ١٩٨٥ خطف وأُلقي داخل سيارة ڤان. لقد ظن أنه سيقتل، عوضاً عن ذلك ساقه خاطفوه إلى ملجأ بناية حيث قيّدوه بالسلاسل وعصبوا عينيه.

في خلال السنة والنصف التي أمضاها في الاحتجاز، نقل ديفيد عدة مرات إلى أمكنة متعددة. لم تكن تلك سجوناً عادية، فقد حدث عدة مرات أن الحرس لم يسمحوا لهم باستعمال الحمام. في إحدى المرّات أرغموه على تسجيل شريط فيديو وضربوه بقساوة، وذلك بعدما قال أحد مقدمي البرامج في التلفزيون الأميركي أن ديفيد يمكن أن ينتهز الفرصة لإرسال رسائل مشفّرة، ولم يكن كذلك. في مناسبات عديدة أخبره خاطفوه أنهم على وشك إطلاق سراحه، لقد تألمنا عندما علمنا أنه في أثناء زيارتنا إلى طهران أُخبر أنه سيطلق سراحه.

قال لي إنه تجاوز المحن والعذاب بإيمانه. لقد أعطوه نسخة من الكتاب المقدس حيث كان يرتاح كثيراً لرسالة الصبر في سفر الجامعة في العهد القديم، وفي النشيد ٧٢ ومطلعه: الرب نوري وخلاصي ومِمّن أخاف؟

لقد وصف بعض التمارين الذهنية التي ساعدته على تمضية الوقت والحفاظ على سلامة عقله. كان يتخيل كيف يقود سيارته من هنتغتون بيتش في كاليفورنيا وهي مدينته، أخذ يتذكّر كل محل تجاري، وكل تقاطع للشوارع. أمضى ساعات يفكر بماضيه وأيامه القليلة كمدير لمستشفى الجامعة الأميركية في بيروت.

فيما بعد، وفي أثناء الأسر، وضع في غرفة مع بعض الرهائن الأميركيين. لقد صلّوا معاً وتحدثوا وتناقشوا، وغالباً ما كانوا ينفّسون عن غضبهم وإحباطهم. كان هناك أيضاً لحظات من الدعابة والخفّة، مثل اليوم الذي ألفوا فيه كتاباً للمسافرين إلى لبنان ومن العبارات التي أوردوها:

● أنا مسرور لأن أقبل دعوتك اللطيفة بأن ألقي بنفسي على الأرض وأضع يديّ فوق رأسي ورجلاي متباعدتان.

● شكراً. إنه لطف غير عادي منك، أن تسمح لي بأن أصعد إلى صندوق سيارة المرسيدس، إنه أفضل من أي صندوق سيارة آخر سبق أن صعدت إليه.

على عكس بنجامين وير كان جاكوبسون تواقاً لإعلامنا عن أي معلومات يتذكرها ويمكن أن تساعدنا لمعرفة المزيد عن وضع الرهائن. لقد أصيب بخيبة أمل قوية عندما قلت له إن وير رفض الإجابة على أسئلتنا. لقد أشار بغضب إلى أنه هو والرهائن

الآخرين وضعوا في مكان واحد لمدة ٢٩ يوماً، وذلك بعد إطلاق سراح وير. كان قلقاً على مصير بقية الرهائن وصمّم أن لا يقول شيئاً للصحافة قد يؤدي إلى المساس بهم.

في ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر، أي بعد الانتخابات بثلاثة أيام، وصل ديڤيد جاكوبسون إلى البيت الأبيض للقاء الرئيس ريغان. أحضرته إلى المكتب البيضاوي حيث جرى لقاء عاطفي حميم بينهما. أراد الرئيس أن يعرف كيف كانت تلك التجربة ووصف ديڤيد احتجازه بالتفصيل. كان من المثير جداً أن ترى هذين الرجلين يتحدثان مع بعضهما هذا الوقت الطويل. كان وير وجنكو قد التقيا الرئيس لكن اللقاء لم يكن مثل هذا طويلاً عندما اصطحب الرئيس ريغان جاكوبسون إلى حديقة الزهور لأخذ الصورة التذكارية، كانت الصحافة في هياج. كانت قصة زيارة مكفرلين إلى طهران قد ظهرت في الصحافة الأميركية بعدما نشرتها مجلة الشراع في بيروت. على الرغم من ذلك كانت الطريقة التي اندفعوا بها نحو جاكوبسون لا تُصدَّق. كان الصحافيون يصرخون به على الرغم من أنه عانى من تجربة طويلة، وكذلك على الرئيس ريغان ويطلبون الإجابة على أسئلتهم. بقيت في المكتب البيضاوي أراقب من النافذة عندما بدأ هجوم الصحافيين: كيف أخرجته يا سيادة الرئيس؟ ما هي حقيقة القصص الواردة من لبنان؟

سأل أحد الصحافيين: «لماذا لا تصرف هذا الحضور وذلك بإبلاغنا ما حدث بالضبط يا سيدي؟».

أجاب الرئيس: «لأن ذلك سيحدث مرة أخرى وأخرى وأخرى حتى نستعيدهم جميعاً».

هذا المشهد بكامله أخاف جاكوبسون. كان يدرك أن هذا العرض يسبب الأذى للرهائن، وناشد الصحافيين أن يضبطوا أنفسهم. عندما سأله أحد الصحافيين سؤالاً حول تفاصيل إطلاق سراحه أجاب جاكوبسون: «إن هذا السؤال لا ينم عن أي شعور بالمسؤولية وقد يؤدي إلى هلاكي، أنت تعرّض حياة المحتجزين للخطر، أنا لا أريد أن يحدث ذلك، ولا أظن أنك تريد ذلك بوعيك، وهكذا وباسم الله ومن فضلك كن مسؤولاً وتوقف عن ذلك».

أنا لا أشك أن ديڤيد كان يتكلم باسم الرئيس أيضاً، لقد كان يتكلم باسمي أنا أيضاً.

عندما عاد الرجلان إلى المكتب البيضاوي، كان جاكوبسون مرتاباً وقال للرئيس: «إنهم حقيقة لا يكترثون أليس كذلك؟».

أجاب الرئيس ريغان بهزّة رأسه المعهودة «حسناً. . ثم توقّف». أنا أعلم كيف كان يريد أن يكمل جملته.

كان ديفيد غاضباً من الصحافة إلى درجة أنني أوصيت بأن نخرج من الباب الأرضي إلى الجناح الغربي ونعرج على مكتبي ثم يخرج الصحافيون من البوابة الشمالية الغربية. كان لدي شيء أخير وهو أن أقدمه إلى الموظفين الذين عملوا كثيراً من أجل إطلاق سراحه: بوب إيرل وكريغ كوي وفون هال وبربارة براون، عملوا ساعات طويلة لمدة أشهر، وهنا وأخيراً كان جاكوبسون يقدر جهودهم بنفسه، لقد كانت تجربة سارة لنا جميعاً.

بعد الظهر تحدثت أنا والأميرال عن احتمال الاستمرار بالمبادرة. أكّد رفسنجاني تفاصيل زيارة مكفرلين إلى إيران، وأضاف بعض التحريفات من عنده، وعلى رغم ذلك أوضح الشاب أنه يريد أن يجتمع معنا مرّة أخرى.

في صباح اليوم التالي غادرت إلى جنيف، كنت غاضباً من الشاب لأنه لم يسلّمنا ما وعد به، إلاّ أني كنت آمل بشيء آخر.

سألته: ماذا حدث؟

قال: من فضلك لقد فعلنا ما بوسعنا، أنت تعلم أننا لا نتحكم بهؤلاء الناس، لقد عرضنا أن نحدّد لكم مكان احتجاز الرهائن.

ــ إذاً أخبرنا أين هم؟

لكنه لم يقل!

ناشدته: أخرجهم الآن.

قال: سنفعل كل ما نستطيع.

لم يكن لدي أي فكرة عما إذا كان يقول الحقيقة.

انتهى الاجتماع دون نتيجة وبوعود من الجانبين، لكن لم يصدر أي تقرير. عدت إلى واشنطن لمواجهة الضجة، ولم أشاهد الشاب بعد ذلك.

في كانون الأول/ ديسمبر وبعد عدة أسابيع من صرفي من الوظيفة جرى لقاء أخير في فرانكفورت بين مفاوضين أميركيين والقناة الثانية. مثّل الولايات المتحدة شارلز دنبار وهو مسؤول في وزارة الخارجية، وجورج كايف، ومثّل إيران «الوحش» لكن الشاب لم يظهر. عندما تكلم الوحش عن اتفاقات حكيم أجاب دنبار بأنّ الولايات المتحدة لم تعد راغبة في بيع الأسلحة إلى إيران.

وهكذا انتهت مبادرتنا نحو إيران.

(١٤)
نهاية اللعبة

عندما عدت من اجتماعي الأخير مع القناة الثانية في تشرين الثاني/ نوفمبر كانت واشنطن في هياج. كان خبر حطام طائرة هازنفوس التي أسقطت قد انتشر وحجب مشاكل استعادة جثث العناصر الثلاثة الذين ضحّوا بحياتهم، وكذلك المفاوضات لإطلاق سراح هازنفوس. في الكونغرس كانت القيادة الديموقراطية تولول على الدم المهدور، وفي السلفادور زُوّد الصحافيون ـ يعتقد كايسي أن ذلك تم بمساعدة المخابرات الكوبية ـ بتسجيلات هاتفية تربط بين المنزل الذي كان يعيش فيه طاقم الطائرة في سان سلفادور ومحطة وكالة المخابرات المركزية في كوستاريكا ومكتبي في بناية المكتب التنفيذي القديمة ومكتب سيكورد في فرجينيا.

بعد فترة بدأ مكتب التحقيق الفدرالي وإدارة الجمارك باستجواب شركة النقل الجوّي الجنوبية، وهي شركة تتخذ من ميامي مقراً لها، وكانت تتولى صيانة الطائرات التابعة لمشروع الديموقراطية. قبل سنوات كانت هذه الشركة ملكاً لوكالة المخابرات المركزية، وما تزال تؤمن خدمات للعديد من الأجهزة الحكومية ولعمليات ديك سيكورد. والآن طرحت الأسئلة حول ما إذا كانت الشركة تشحن الأسلحة من الولايات المتحدة إلى الكونترا كما ذكرت أجهزة الإعلام. ولو أنهم لم يقوموا بذلك فإنهم نقلوا صواريخ تو من مستودعات الجيش الأميركي إلى تل أبيب حيث كانت تحوّل إلى الطائرات الإسرائيلية، وترسل إلى إيران. كنّا نأمل عدم انكشاف هذا الاتصال.

بحلول منتصف شهر تشرين الثاني/ نوفمبر كانت الصحافة تمتلىء بالقصص والتسريبات والمزايدات، ليس فقط في موضوع الكونترا بل في موضوع المبادرة الإيرانية أيضاً. بدأ اسمي يظهر شيئاً فشيئاً، وعلمت أني وقعت في ورطة عندما سمتني شبكة A B C التلفزيونية شخص الأسبوع. لم أشاهد النشرة ولكن ابنتي دورنين البالغة من العمر خمس سنوات أخبرتني عن ذلك بإثارة عظيمة «أبي. . رأيتك على شاشة التلفزيون. . أنت رجل الأسبوع».

كانت سارة في العاشرة وتقرأ الصحف، وقد ارتبكت أيضاً، وعندما قرأت مقالة عن النزاعات الدينية في لبنان قالت: «يا والدي.. ما هو الفرق بين السنّة والشيعة؟».

أصبح كشف مجلة الشراع لاجتماعاتنا في طهران أكثر إثارة عندما عقد رفسنجاني مؤتمراً صحافياً في طهران ليشرح زيارة مكفرلين. اعترف أن الوفد الأميركي قد وصل فعلاً إلى طهران، لكن روايته للمرحلة ـ كانت ملونة ـ مثل السجادة العجمية الإيرانية.

ذكر رفسنجاني أنَّ مكفرلين ومعه أربعة أميركيين وصلوا جواً إلى طهران بصورة غير مشروعة متخفين بزيّ طاقم الطائرة وأضاف أن الخمسة وضعوا في فندق وتم إبقاؤهم فيه بينما كنّا استشرنا آية الله عن الذي سنفعله بهم قال: «أعطانا الإمام الخميني توجيهات بعدم التحدث مع الأميركيين وعدم قبول هداياهم» وأضاف إن هذه الهدايا كانت قطعة حلوى مزينة بمفتاح وهو رمز الانفتاح على إيران. وقال إنه لحسن الحظ فقد أكل رجال الأمن الحلوى، كذلك عرض رفسنجاني نسخة من الكتاب المقدس مهداة من الرئيس ريغان (هي التي كنت قد أعطيتها للشاب منذ شهر في فرانكفورت) وادعى أيضاً أنها أحضرت مع الوفد الأميركي، وقال إن الزيارة انتهت عندما طرد الحرس الثوري الأميركيين الذين دخلوا عنوة.

في واشنطن قامت الإدارة بجهود من أجل إضفاء إشارات إيجابية على زيارة مكفرلين. فقد أجرى عدد من كبار المسؤولين مقابلات مُسجّلة مع كبار الصحافيين، وبناء على طلب بواندكستر أجريت ذلك أيضاً. وفي ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر وبعد خطاب للرئيس ريغان ظهر مكفرلين على برنامج شبكة A B C مع تيد كوبيل. وعلى العكس من رواية رفسنجاني قال مكفرلين إن زيارة إيران «تضمّنت أربعة أيام من المحادثات الجيدة». وأضاف: «لقد جرى استقبالنا بحفاوة وعوملنا بالطريقة نفسها المعتمدة في اجتماعات كهذه».

ـ سأله كوبل: هل أحضرتم الحلوى؟

ـ أجاب مكفرلين: ليس لدي أي شيء يتعلق بالحلوى.

الحقيقة إن الحلوى كانت لوالدة غوربانيفار. ومن المحتمل أن لا يكون مكفرلين على علم بها.

ـ الكتاب المقدس؟

ـ لم نحضر الكتاب المقدس.

ـ المسدسات؟

ـ أنا لا أعمل بهذه الطريقة يا تيد.

يمكن أن يكـون مكفرلـين قد نسي المسـدسات، أما بقيـة مـا جـاء في حـديثـه من توضيحات فهي صحيحة ودقيقة. أظن أنه من المحزن أن الصحافة الأميركية كانت ترغب في تصديق رفسنجاني أكثر من المستشار السـابق لشؤون الأمن القومي، ولكن هـذه المرة لم أستطع أن ألومهم، فابتداءً بالرئيس ونزولاً كانت الإدارة تروي عدة روايات حول المبـادرة الإيرانية إلى درجة أن لا أحد كان يعرف ماذا سيحدث فيما بعد.

بعد أسبوع على تصريحات رفسنجاني، قام سفير إيران في الأمم المتحدة بدعم مـوقف الرئيس ريغان وذلك بأن أنكر بأن بلاده قد اشتركت في أي اتفاقيـة مع الـولايات المتحـدة لمبادلة السلاح بالرهائن.

بعـد فترة وجيـزة تولى وزيـر الخارجيـة جورج شـولتز شخصيـاً الإعلان عن المبـادرة الإيرانية عندما ظهر على التلفزيون في برنامـج «واجه الأمـة». لم يكن ذلك الـوقت ملائـماً لكسر الجرّة مع الـرئيس وتخوّف زمـلاء شولـتز في الحكومـة من ذلك. سرت إشـاعات أن شولتز قد يستقيل، وأن وظيفته ستسلم إلى أحد آل بايكر والأرجـح جيمس وربّما هـوارد. وسـارت الأمور نحـو الأسوأ عنـدما أكّـد المتحـدث الصحـافي بـاسم البيت الأبيض لاري سبيكس للصحافة أن الرئيس لم يطلب من شولتز الاستقالة.

كان وينبرغر الذي عارض المبادرة لائقاً فلم يتلكم أبداً، لكنه كان في موقف حرج، لأن وزارته هي التي شحنت الأسلحة وباعتها إلى وكالة المخابرات المركزية بهدف واضـح، وهو أن تبيعها الوكالة مرة ثانية من خلال أقنية خاصة إلى طهران.

كان كايسي خائفاً واعتقـد أن شولـتز غير مـوالٍ للرئيس. بعد عـدة أيام من ظهـور شولتز على التلفزيـون أرسل كـايسي رسالـة شخصية إلى الـرئسي أوصى بها بـإقالـة شولـتز وتعيين جين كيركباتريك مكانه. كتب يقـول: «عزيـزي السيد الـرئيس... أمضيت يـوم الجمعة خمس ساعات أشرح وأجيب على الأسئلة في لجنتي الاستخبـارات في مجلسي النواب والشيوخ حول جهودنا لتـطوير العـلاقات مـع بعض العناصر المهمـة في إيران. إنّ تجهّم شولتز أمام الجمهور وفشل وزارة الخارجية في دعم ما قمنا به قد ضخّم الضجة حول هذه القضيـة. وإذا كنا جميعاً نقف مـع بعضنـا ونتكلّم فـإني أعتقـد أننـا نتجـاوز كـل هـذا بسرعة». ثم أنهى كايسي كلامه: «السيد الرئيس.. أنت بحاجة إلى رامٍ جديد».

لكن شولتز لم تكن لديه النيّة في ترك اللعبة، ففي الواقـع، وكما علمت حـين كنت أتحضر للمحاكمة، كـان وزير الخـارجية يـأمل في لعب دورين في آن واحـد: لقد أراد أن يخلف بواندكستر في مجلس الأمن القومي مع الاحتفاظ بوظيفته في الخارجية.

في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ظهر الرئيس ريغان على شاشة التلفزيون ليسرد روايته. على أثر التسريبات والمصادر غير الصحيحة فقد وعد بأن يخبر القصة بكاملها. وعد: «أنتم ستسمعون الحقائق من مصدر في البيت الأبيض. . وأنتم تعرفون اسمي».

ثم تابع الرئيس: «التهمة التي وجهت إلى الولايات المتحدة هي أنها شحنت الأسلحة إلى إيران كفدية من أجل إطلاق سراح الرهائن المحتجزين في لبنان، وأن الولايات المتحدة تضارب على حلفائها وتخالف سرّاً السياسة الأميركية في التعامل مع الإرهابيين».

هذه التهم باطلة كلياً، لم تقدم الولايات المتحدة تنازلات لأولئك الذين يحتجزون مواطنينا في لبنان ولن تقدم. لم تقايض الولايات المتحدة حمولات سفن أو حمولات طائرات من الأسلحة الأميركية بإطلاق سراح الرهائن ولن تقوم بذلك.

نحن لم. . وكرّر. . نحن لم نتاجر بالسلاح أو أي شيء آخر من أجل الرهائن ولن نقوم بذلك.

وكما شرحت من قبل لم يكن الرئيس ريغان يكذب، ولكنه لم يقل الحقيقة. لقد آمن بما قاله وما يزال يعتقد أننا لم نبادل الأسلحة بالرهائن، بعد كل ذلك أدرك أن الذين كنا نتعامل معهم هم الإيرانيون وليسوا محتجزي الرهائن أنفسهم، وتقنياً كان ذلك صحيحاً.

أصر الرئيس في خطابه على أن الأسلحة التي شحنت إلى إيران تقع بمجملها في حمولة طائرة واحدة. لقد شعر بحرارة عالية في هذه الملاحظة ولكنها لم تكن مخطئة. قبل خطابه طلب مني الأميرال بواندكستر أن أحدد ما إذا كان ما شحنّاه في الحقيقة يتسع لطائرة واحدة. اتصلت بوزارة الدفاع لأتحقق من حجم ووزن ٢٥٠٠ صاروخ تو مع القطع الإلكترونية وحسبت ذلك، نعم إنه يقع في حمولة لطائرة الشحن س ٥ أ وهي أكبر طائرة شحن في قواتنا الجوية، وبغض النظر عن ما قيل عنها فإنها ليست كمية كبيرة من الأسلحة.

إن معرفة الحادثة بعد وقوعها ليس سهلاً. ولكني ما زلت أتعجب من كيفية سير الأمور لو وضع الرئيس الجهود القائمة لإطلاق سراح الرهائن جانباً وألقى خطاباً للأمة، فإن الخطاب لا شك سيكون مختلفاً ذلك المساء - والذي كان من الممكن أن يكون على الشكل التالي:

أصدقائي الأميركيين. . . لقد وجهت التهمة إلى الولايات المتحدة على أنها شحنت

الأسلحة إلى إيران كفدية لإطلاق سراح الرهائن الأميركيين في لبنان. دعوني أشرح لكم الذي قمنا به ولماذا؟

في جهد لإقامة علاقة مع الحكومة الثورية في إيران، بعنا ألفي صاروخ تو وبعض المعدات الإلكترونية إلى طهران. كانت لنا أسباب لنعتقد أن هناك معتدلين أو براغماتيين في الحكومة الإيرانية والذين لم يكونوا أعداء للولايات المتحدة. وفي جهد للوصول إلى هؤلاء الناس عملنا سراً من خلال قناتين مختلفتين. كذلك عملنا من أجل تحرير الرهائن الأميركيين في لبنان وقد أُطلق سراح ثلاثة منهم فعلاً. لقد عارض عضوان في حكومتي هذه المبادرة، ولكنهما كانا يرغبان في رؤية نتيجة هذا العمل. أدرك الجميع أن هناك مغامرة ومخاطرة لكنا آمنا أنه يجب أن نركب هذه المخاطرة.

كما تعلمون الآن. . . لم ينجح جهدنا في إقامة علاقة مع الحكومة الحالية في إيران. هذه الليلة أدعو حكومة إيران أن تبدأ بالحوار مع الولايات المتحدة ـ وهو حوار قد يؤدي إلى علاقة أفضل بين بلدينا، ويحتمل أن ينهي الحرب غير المجدية بين العراق وإيران.

نحن نعلم أن حكومة إيران لها بعض النفوذ على محتجزي الرهائن الأميركيين والغربيين في بيروت، أدعو إيران إلى استخدام نفوذها هذا من أجل إطلاق سراح الرهائن.

بكلمات أخرى كان يمكن للرئيس ريغان أن يحاول القيام بمعروف غير ضروري.

مع أن ذلك كان صحيحاً، حتى هذا الخطاب لم يكشف القصة بأكملها، فهو لم يذكر التحويل مثلاً أو الدور الأميركي في شحنة الهوك من إسرائيل إلى إيران عام ١٩٨٥. كان من المحتمل أن يكشف هذا الخطاب المعلومات الكافية لاحتواء الأضرار، وكما جرت الأمور لم نقم بأي عمل مختلف في تلك الأيام بل جعلنا الأمور تتجه نحو الأسوأ.

بعد الذي كشفته الشراع بفترة قصيرة طلب الأميرال بواندكستر جدولاً زمنياً للمبادرة الإيرانية. كلّف مكتبي بهذه المهمة وأعطاني تعليمات بالعمل مع وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع وأي شخص آخر يمكن أن يساعدنا في إعداد هذا الجدول.

ولأن مساهمتي العملانية في المبادرة الإيرانية لم تبدأ إلا عندما سمعت من رابين في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥، فقد اتكلت على مايكل ليدين وروبرت مكفرلين وآمي نير من أجل بعض التفاصيل عن بداية المبادرة.

الناس تتذكر الأشياء بشكل مختلف، وكان هناك تناقضات عديدة بين رواياتهم التي سردوها. بدأ الجدول الزمني بصفحتين وسرعان ما توسع إلى عشرين صفحة.

يوم الثلاثاء في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر حوالى الساعة ٨,٠٠ مساء حضر مكفرلين إلى مكتبي ليساعدني في إعداد مسوّدة لملاحظات الرئيس من أجل استخدامها في مؤتمر صحافي تقرّر عقده في الليلة التالية. في رسالة عبر خط اتصال البيت الأبيض إلى الأميرال بواندكستر اقترح عدة تغييرات في النص، ومن ضمن ذلك إنكار أن تكون الولايات المتحدة قد وافقت على أي شحنة أسلحة إلى إيران قبل مذكرة عام ١٩٨٦. عندما انتهى من العمل حول ملاحظات الرئيس التفت مكفرلين إلى الجدول الزمني وأجرى التغييرات نفسها على مسوّدتي.

في ذلك الوقت اجتمع الرئيس ريغان والأميرال بواندكستر ودونالد ريغان مع مختلف الوفود من الكونغرس لبحث المبادرة الإيرانية، وجميعهم تجنّبوا أي ذكر لمشاركتنا في شحنات عام ١٩٨٥. في ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر عندما اجتمع الرئيس ريغان وكبار مستشاريه للشؤون الخارجية مع قيادات الكونغرس في البيت الأبيض لم يذكر الرئيس أي موافقة على شحنات إسرائيل لصواريخ تو في صيف ١٩٨٥ أو لمذكرته الصادرة في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥ والتي تسمح بالمبادرة نحو إيران. ومع أن كبار المسؤولين الحاضرين كانوا على علم بها، لم يذكر أحد منهم مساهمتنا في شحنة صواريخ هوك في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥.

منذ ذلك الوقت التزم الرئيس وكبار معاونيه هذا السرد للأحداث، ولم يذكر الرئيس في خطابه إلى الأمة، الذي ألقاه من المكتب البيضاوي في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر موافقة الحكومة الأميركية أو مساهمتها بتلك الشحنات.

في الوقت الذي جلس فيه مكفرلين إلى جهاز الكومبيوتر المخصّص لي من أجل أن يطبع سرده لأحداث ١٩٨٥، تطابقت روايته مع رواية الرئيس في وصفه لشحنة صواريخ هوك من إسرائيل إلى إيران. لقد بدّل مكفرلين الحقائق كلياً حول تسليم الأسلحة، وحول دورنا في تسهيل ذلك، وأظهر الأمر على أننا لم نعرف بالموضوع في ذلك الوقت.

حتى هذه الأيام ما زلت أجهل الأسباب التي دعت مكفرلين إلى القيام بهذه التغييرات. كان لديّ بعض الأسباب وكانت في ذلك الوقت كافية، لقد علمنا من استخباراتنا وقت اجتماعاتنا مع الإيرانيين أن شحنة الهوك التي أرسلت في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥ قد أثارت غضبهم لقد توقّعوا أن نرسل إليهم منظومات صواريخ بعيدة المدى يمكنها أن تسقط الطائرات السوفياتية والعراقية التي تحلق على ارتفاع عالٍ. لكن منظومة هوك كانت مخصّصة للطائرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضة ولمسافات قريبة.

وممّا جعل الأمور تزداد سوءاً هو وجود كتابات إسرائيلية على الصواريخ لدى وصولها إلى إيران.

عندما واجهنا الإيرانيون بهذه المشاكل أكّدنا لهم أننا لم نستطع القيام بأي شيء بالنسبة إلى تلك الشحنة. وبعد موافقة الإسرائيليين قلنا للإيرانيين: «تعاملوا معنا من الآن وصاعداً، يمكنكم إعادة هذه الصواريخ ونحن سنساعدكم للحصول على ما تحتاجون إليه».

الآن في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ ما زلت لا أريد أن أكشف عن دورنا في شحنة ١٩٨٥. كنت قلقاً من أنه إذا ما أوضحت الولايات المتحدة أن لها دوراً في هذه الصفقة فيمكن عندها أن ينصبّ غضب محتجزي الرهائن في بيروت على الرهائن الأميركيين، وكما أخبرني ديفيد جاكوبسون في أوائل هذا الشهر كانت هذه الأمور تحدث فعلاً. كما قلقنا من إمكانية احتجاز المزيد من الرهائن، ولقد حدث ذلك عندما غيّرنا الاتصال من القناة الأولى إلى القناة الثانية، وهذا ما أثار غضب البعض في الحكومة الإيرانية.

كنّا قلقين أيضاً من أن أي كشف لشحنة ١٩٨٥ قد يؤذي الشاب، ويمكن أن ينظر إليه في طهران على أنه مغفّل، خصوصاً إذا ما تبيّن أن معظم شحنات الأسلحة التي وصلت حديثاً إلى طهران كانت تمر عبر إسرائيل. ومع أني في ذلك الوقت كنت أتوقع أن أفقد وظيفتي في مجلس الأمن القومي، فقد كان لديّ تطلعات وآمال في مشاة البحرية، ويحتمل أن يصبح الشاب في موقف صعب، ففي إيران لا تستعمل كلمة «صرف من الخدمة» بل كلمة الإعدام رمياً بالرصاص.

وهناك سبب آخر يدعو إلى عدم الكشف عن الدور الأميركي في شحنة الأسلحة الإسرائيلية إلى إيران عام ١٩٨٥، هو أن المذكرة الرئاسية التي كان ريغان قد وقّعها في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥، والتي تسمح بشحن الأسلحة سرّاً إلى إيران، قد صيغت بطريقة تظهر المبادرة نحو إيران على أنها ليست أكثر من تبادل الرهائن بالأسلحة.

الموضوع: إنقاذ الرهائن ـ الشرق الأوسط

اتخاذ التدابير من قبل وكالة المخابرات المركزية لمساعدة بعض الهيئات الخاصّة لتأمين إطلاق سراح الرهائن المحتجزين في الشرق الأوسط. تتضمن هذه المساعدة النقل والاتصال وأي دعم ضروري، ويمكن تزويد الحكومة الإيرانية (كجزءٍ من هذه الجهود) ببعض المعدات والذخائر الأجنبية مما يساهم في تسهيل إطلاق سراح الرهائن الأميركيين.

إنّ أي كشف عن هذه المذكرة من شأنه أن يربك الإدارة، خصوصاً أن الرئيس أصرّ في خطابه واستمر في الإصرار على أن المبادرة نحو إيران لم تكن مبادلة الرهائن بالأسلحة.

بعد ظهر يوم ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر بحثت الموضوع أنا وبواندكستر في مكتبه. وفي كانون الثاني/ أيار ١٩٨٦ وقّع الرئيس مذكرة أخرى أوضحت أن المبادرة نحو إيران هي أوسع بكثير من مبادلة الرهائن بالأسلحة. لقد حددت هذه المذكرة أهداف الرئيس، وهي: التوصّل إلى الانفتاح على إيران، والمساعدة على التوصل إلى نهاية للحرب العراقية الإيرانية، وإطلاق سراح الرهائن. كان رأي الأميرال أن وضوح المذكرة الثانية قد حجب ضعف الصياغة في المذكرة الأولى. وإذا كشف النقاب عن المذكرة الأولى، يتعرض الرئيس للإهانة. طلب الأميرال من محاميه بول تومسون أن يحضر النسخة الأصلية لمذكرة عام ١٩٨٥ ثم مزقها إلى نصفين ورماها على طاولة القهوة، كانت تلك إحدى التهم التي أُدين بها الأميرال وحوكم من أجلها.

لقد اتخذ بواندكستر ومكفرلين خطوة هامة للمحافظة على حياة بعض الناس وحماية الرئيس، وذلك بتغيير التسلسل الزمني للأحداث، وبتمزيق المذكرة الأولى. ولكن بقي هناك مسائل أخرى لم نشأ أن يعلم أحد بها. لم يرد في أي رواية أو تسلسل زمني «السرّ داخل السرّ». كنا نحاول أن نتجنّب الانفجار السياسي الذي من الممكن أن يحدثه الكشف، وكنّا فعلاً على حق في ذلك. كنا ندرك أيضاً أن الإيرانيين سيغضبون من كشف الموضوع. لقد لجأوا إلى تجار الأسلحة ودفعوا ثمنها مبالغ مالية تكفي لتمويل المقاومة النيكاراغوية ومشاريع أخرى. وإذا كشف أن هذه الأموال كانت تستخدم لدعم الكونترا فيحتمل أن يفقدوا صوابهم. لقد كانوا يدعمون الساندينيين. لم تكن الحكومة الإيرانية متعاطفة مع الشيوعيين، لكنها رأت أن الساندينيين ينطبق عليهم المثل «الشرق أوسطي» القديم: إن عدوّ عدوّي هو صديقي.

بعد فترة وفي مكتبي ليلة ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر: عندما انتهى مكفرلين من وضع التغييرات على خطاب الرئيس، وعلى التسلسل الزمني للحوادث، قام من وراء جهاز الكومبيوتر ثمّ وقف وقال لي: ماذا فعلت بوثائق مجلس الأمن القومي؟ كان يعني الرسالة التي أرسلتها على خط اتصال البيت الأبيض قبل أيام، والتي عبّر فيها عن أمله في التخلص من ملفّات مجلس الأمن القومي المتعلقة بالمبادرة نحو إيران. بدا أن مكفرلين يؤمن أنه يمكن إعادة كتابة التاريخ بالتحريف والتبديل. عندما شرحت له أن هذه الملفات

موجودة في أجهزة حكومية متعدّدة ويصعب استعادتها غيّر الموضوع وقال لي: «هل لك أن تهتم بالوثائق الأخرى؟».

ـ الوثائق الأخرى؟

ـ ماذا فعلت بتلك؟ وأشار إلى الكومبيوتر. لقد سُجل داخل الكومبيوتر لائحة من ٦ أرقام لوثائق من مجلس الأمن القومي كان مكفرلين قد أعطاني إياها منذ أكثر من سنة، وكانت هذه الأرقام تعود إلى مذكرات كتبتُها لمكفرلين عامي ١٩٨٤ و١٩٨٥، أطلب فيها الموافقة على بعض الجهود التي أقوم بها من أجل دعم المقاومة النيكاراغوية. في خريف عام ١٩٨٥ أعطاني مكفرلين توجيهات من أجل تغيير هذه المذكرات وحذف أي شيء يشير إلى دعم نشاطاتي وعلمه بها، ولكني لم أقم بذلك.

في صيف ١٩٨٥ وبعد أن ظهرت في الصحافة أنباء وقصص حول دعم سرّي للمقاومة النيكاراغوية، سأل اثنان من الأعضاء البارزين في الكونغرس عن دور مجلس الأمن القومي في المقاومة. كان عضو الكونغرس مايكل بارنز، رئيس اللجنة الفرعية لنصف الكرة الغربي في لجنة الشؤون الخارجية، يعارض سياسة الرئيس في أميركا الوسطى، وكان عضو الكونغرس لي هاملتون، رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس النواب، أقل معارضة من بارنز لكنه كان يعارض أي دعم عسكري للمقاومة.

بعد ظهور الأنباء الصحافية كتب كل من بارنز وهاملتون إلى مكفرلين يسألاه عما إذا كان مجلس الأمن القومي يدعم المقاومة فعلاً. وورد في رسالة بارنز سؤال محدّد حول تقارير صحافية عن اتصالات بيني وبين زعماء الكونترا.

هناك طريقتان لحفظ السر عندما يسألك أحد عنه بشكل مباشر: الأولى هي عدم الإجابة، والثانية الكذب.

كنت أفضل الطريقة الأولى، وناقشت مع مكفرلين أن لا يجيب على هذه الرسائل. كان ذلك، حسب رأيي، نوعاً من المواقف التي من أجلها أُعطيت الامتيازات للسلطة التنفيذية، لم يكن الجناح التنفيذي مجبراً على الإجابة على أي سؤال يتلقّاه من الكونغرس.

لم يوافق مكفرلين، قال إنه تحدث مع الرئيس في الموضوع وإن طريقتي هي تصادمية، ورفض مداخلتي، وبدلاً من ذلك استخدم امتيازاته بطريقته الخاصة: لقد كذب. وفي رسالة إلى بارنز أنكر بوضوح مشاركة مجلس الأمن القومي بشكل عام وأوليفر نورث بشكل خاص في هذه النشاطات. فقد كتب إلى بارنز*: عزيزي رئيس اللجنة:

---

* بسبب هذه الرسائل أُعلن أن مكفرلين مذنب بسبب كتم معلومات عن الكونغرس.

يمكنني أن أعبّر عن اقتناعي العميق أنه لم يحصل أن خالف أحد من أركان مجلس الأمن القومي أو أنا، في أي وقت من الأوقات، نصّ القانون أو روحه، لم نشجع في أي وقت على النشاطات العسكرية، ولم نخصص الأموال أو أي دعم آخر للنشاطات العسكرية أو شبه العسكرية، لا من الأميركيين ولا من أي فريق آخر».

خلال التحقيقات وصف مكفرلين هذه الإجابات بأنها «مبرمجة جداً» وبهذا يخفف من حدّتها.

في ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥ كتب بارنز مرة ثانية إلى مكفرلين، وفي هذه المرة طلب إليه بالتحديد أن يطلع على وثائق مجلس الأمن القومي. واقترحت مرة ثانية على أن نقول لبارنز إننا لن نجيب على أسئلة ولن نلبي طلباته. ذهبت إلى المكتبة القانونية في الطابق الأخير في بناية المكتب التنفيذي القديمة للبحث في تاريخ الامتيازات الممنوحة للسلطة التنفيذية، وعندما عدت إلى مكتبي أعددت رسالة إلى مكفرلين هي:

«هذه الوثائق الداخلية هي في نطاق المسؤولية المحددة للجناح التنفيذي، والتي تلتزم بتعهداتها لحكومات أخرى بعدم إجراء أي تسوية تتعلق بالمعلومات الحسّاسة. لا يمكن للجناح التنفيذي أن يحيل هذه المسؤولية إلى الكونغرس، وهو يحافظ على مصداقيته مع حكام الدول الأجنبية، إن حقّ السلطة التنفيذية بالمحافظة على الثقة بالمعلومات مهم جداً لسير عمل سياستنا الخارجية.

يعود هذا المبدأ إلى أيام رئيسنا الأول عندما رفض أن يطرح أمام مجلس النواب التعليمات والمراسلات والوثائق المتعلقة بالمفاوضات التي أدت إلى معاهدة جاي. هذا المبدأ القديم اعتمده القضاء الأعلى في عدد من القضايا، ومن ضمنها دعوى الولايات المتحدة ضد شركة كورتيس رايت للتصدير»*.

رفع مكفرلين رسالتي إلى فريد فيلدنغ، المستشار في البيت الأبيض، من أجل أن يكتب ملاحظاته عليها، ولم أعلم ما إذا كان يقصد بهذا أن يسترضيني أم أن يقصد الحصول على رأي آخر من رجل قانون. ولكن فيلدنغ أيضاً فضّل عدم مواجهة الكونغرس، وعلى حدّ علمي لم تصل الرسالة إلى الرئيس، وهو الشخص الوحيد الذي يستطيع ممارسة حق الامتياز للسلطة التنفيذية.

أدرك مكفرلين أن بارنز وحلفاءه لن يتوقّفوا عن حملاتهم، وكان قلقاً من أن ينجح

* اتخذ قرار بشأن قضية كورتيس - رايت عام ١٩٣٦ عندما دعم القضاء الأعلى حق الرئيس بمنع شحن الأسلحة إلى بوليفيا وباناما.

الكونغرس في وضع يده على وثائقنا. عندما وصلت الرسائل الأولى من بارنز وهاملتون قام أحـد ضبـاط الأمن في مجلس الأمن القـومي بجمـع السجلّات والملفّـات التي تتعلق بمسـاعدات الكـونترا وسلمهـا إلى مكتب مكفرلـين. الآن وبعد أشهـر كان بـارنـز يـطلب الاطلاع عليها، وثقة منه بأن بارنز كانت تعوزه الإمكانيات للقيام بالأعمال الصعبة بنفسه، دعاه مكفرلين إلى مكتبه. وفي المكتب دعـاه لإلقاء نـظرة على كـومة من المـذكرات. رفض بارنز ذلك وطلب إرسال نسخٍ عنها إلى أركانه من أجل مراجعتهـا. كان ذلـك غير وارد، كان لنا تحفظات وقلق من أن بعض أركان بـارنز كـانوا قـريبين من الساندينيين، ولم يكن هناك أي نية لدى مكفرلين للسماح بإخراج هذه الأوراق من مكتبه.

بعدما جدّد بارنز طلبه بالاطلاع على الوثائق، استدعاني مكفرلين وقال لي: «أولي يجب أن تدبّر أمر بعض هذه». أوضح مكفرلين أن المذكرات التي أرسلتها إليه لا تتفق مع مـا قاله وما كتبه للكونغرس، وأنها كـانت مثيرة للمشـاكل. سلّمني ورقـة صغيرة كتب عليهـا أرقام ست وثائق من مجلس الأمن القومي*، وذكر كذلك وثـائق أخرى كتب أرقـامها عـلى الصفحة الخلفية للورقة نفسها. في مجال تدبير أمر الوثائق قال لي: إنه عـليّ أن أحذف أي مـرجـع أو ذكـر لأي دور عمـلاني لي، وأن أجعـل الـوثـائق تتـوافق مـع مـا كتب وقـال للكونغرس.

لو وصلت هذه المذكّرات إلى الكـونغرس لانتهى أمـر المقاومـة، وسوف نفقـد الأمل باستعادة التمويل الذي كانت تقدمه وكالة المخابرات المركزية للكونترا، ونعرض العمليـات الحسـاسة للخـطر. كنا نعـرف أن الكونغـرس له طـريقتان في التعـامل مـع الأمور التي لا يحبها. يمكنه أن يصدر تشريعاً ضدها، ومع توصيات بولاند فإنهم ذهبـوا بذلـك إلى أقصى مـا يمكنهم - أو في حالـة العمليـة السريـة يمكنهم تسريبهـا. ومـا زلت أجهـل لمـاذا اختـار مكفرلين بعض المذكرات في الـوقت الذي كتبت فيـه عشرات المذكـرات وهي جميعها تثـير المشاكل.

قال لي مكفرلين وهو يعـرض عليّ وثيقـة انتهى من تعديلهـا: «فقط اهتم بهـا، ومن الآن وصـاعداً لا تكتب مـذكرات مفصّلة كثيـراً، ولا ترسـل ملاحـظات عن طـريق خط اتصال البيت الأبيض».

---

* إحـدى هذه الـوثـائق وصفت اجتـماعي في واشنـطن مـع المسؤول الصيني الـرسمي في نـطاق جهـودنـا للحصول على صواريخ مضادة للطائرات للمقاومة النيكاراغوية، وأخرى حدّدت اقتراحاتي لاتخاذ تـدابير ضد سفينة شحن الأسلحة السـاندينية «مـونيمبو». والبقيـة تتعلق بنشاطـات محدّدة للمقـاومة وعمليـات معيّنة والدعم الذي كنا نقدمه إليهم.

أنـا لا أمـاطـل الآن، ولكن إلى حـين حضـور مكفـرلـين إلى مكتبي في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمـبر ١٩٨٦ لم أراجع هـذه الأوراق. لم أستطع أن أعـرف الهدف بـالضبط على الـرغم من الاطـلاع عـلى مـذكـرات أخـرى من مجلس الأمن القـومي تتضمن معلومـات مشابهة! ولكن ليلة ذلك الثلاثاء عندمـا طرح مكفـرلين الموضوع مـرة أخرى قمت بتغيـير المذكرات، وجعلتها تبدو أكثر اعتدالاً، وبـالتحديـد حذفت أي ذكـر لدوري العمـلاني أو لمعرفة مكفرلين به تماماً كما قال لي.

لكنّ ذلك جاء متـأخراً. كنت مـا أزال أعمل في هـذه الأوراق عـنـدما صرفت من الخدمة. فيـما بعد نشرت هـذه الوثـائق، واطلع عليها العـالم بأسره، وكـانت هذه طـريقة غريبة في إسدال الستار على عملية سرية.

لم أفهم إلا عام ١٩٨٩، وفي أثناء محاكمتي، لماذا اختار مكفرلين تلك الوثائق. كان مكفـرلين يعلم أن هـذه الوثـائق الست تكشف بـالتفصيل عن علمـه وموافقتـه عـلى جميـع النشاطات، وربما أيضاً تكشف عن طريقته في التفكير وطريقة الرئيس أيضاً.

في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ كنت قد تـأخرت كثيـراً ولم يعد بـاستطاعتي إخفـاء دوري. في ذلـك الوقت كـان السفراء وبعض ضبـاط الجيش ومسؤولو وكـالة المخـابـرات المركزية وأعضاء من الكونغرس وشخصيات من الحكومات الأجنبية يعلمون ما كنت أقـوم به، ولكن في تلك الليلة عندما طلب مني مكفرلين أن أغيّر المذكرات غيّرتها فعلاً.

كانت هذه المرة الثالثة ـ خلال سنة ونصف ـ يكون فيها مجلس الأمن القومي بشكل عام وأنا بشكل خاص محط أنظار المراقبين. إنّ الدفعة الأولى من التقاريـر الصحافيـة التي أثارت تساؤلات أعضـاء الكونغـرس، والرسـائل المتتـابعة التي تلقـاها مكفـرلين من بـارنز وهاملتون وآخرين، أدّت إلـى إعطائي توجيهات بأن أغيّر ست مذكرات.

كانت المرة الثـالثة هي الأكـثر خطورة نـظراً إلى التشويش والإربـاك اللذين حصلا. وكان هناك أيضاً جولة أخرى مع الصحافـة والكونغـرس في صيف ١٩٨٦ أي بعد أشهـر من استقـالة مكفـرلين. بعـد مـوجـة من الأخبـار الصحـافيـة حـول مجلس الأمن القـومي والكونترا، اتخذ مجلس النواب الخطوة غير العادية في إعداد صيغة سؤال يطلب من الرئيس أن يطلع الكونغرس على ما كان يقوم به الكولونيل أوليفر نـورث لمصلحة المقـاومة. وعـلى حد علمي كان هذا القرارهو الوحيد في تاريخ الولايـات المتحدة الـذي يطلب من القـائد الأعلى للقوات المسلحة القيام بشيء ما يتعلق بضابط برتبة كولونيل.

تقـدّم بمشروع قرار السؤال النـائب رون كولمـان، وهـو من ولايـة تكسـاس، ولكن

سرعان ما نشرت إشاعات بأن المعدّ الحقيقي هو زميله مايكل بارنز والذي كان يحاول وبشكل واضح إخفاء دوره.

ومثل جميع التشريعات المقترحة عرض هذا الاقتراح على لجنة التشريع في مجلس النواب لوضع ملاحظاتها عليه. عندما قال لي رون سابل، وهو مدير الشؤون القانونية في مجلس الأمن القومي، إنه ليس متأكداً مما ستقوم به الإدارة فيما يتعلق بالقرار، أصبت بالذهول. ذهبت إلى الأميرال وقلت له: «أنا آمل بالتأكيد أن نعارضه، وبما أنني المستهدف شخصياً يجب أن تدعني أحضّر الردّ».

قال لي بواندكستر: «تعال يا أولي.. أنا أعرف ماذا ستقول في ردّك، كل العالم يعرف كيف تشعر تجاه هذا، سوف تتمسك بامتياز السلطة التنفيذية وتقول لهم اذهبوا إلى الجحيم».

كان كلامه صحيحاً تماماً.

ثم أضاف: «حسناً.. هذا لن يجري، إذا بدأنا بوضع الحواجز فإن ذلك من شأنه أن يزيد في صعوبة الأمور». وتبين فيما بعد أن الأميرال كان على حق. في ذلك الوقت لم نكن نعلم أن أحد أركان الكونغرس كتب مذكّرة يشرح فيها أن قرار السؤال قد تم إعداده فقط من أجل إرباك الإدارة، وذلك بإرغام الرئيس على استخدام حق الامتياز، لكننا لم نعلم بذلك إلّا بعد مضيّ ثلاث سنوات أي خلال التحضيرات التي سبقت محاكمتي.

بعد عدّة أيام من المشاحنات البيروقراطية، أعدّ مكتب سابل رسائل من أجل أن يوقّع عليها بواندكستر يخبر فيها رئيس اللجنة المناسبة أن الإدارة تعارض قرار السؤال. ولسوء الحظ كتب سابل أن الأميرال يحيلهم على إجابات مكفرلين لأسئلة بارنز وهاملتون عام ١٩٨٥. فيما بعد اتهم الأميرال ثم أُدين لتوقيعه هذه الرسائل والتي كانت تستند على رسائل مكفرلين. وكان هذا يجري للمرة الأولى: مكفرلين أرسل رسالتين إلى الكونغرس وأدين رجلان آخران لما ورد في رسالتيه، إنّ العدالة غريبة فعلاً.

كان الكونغرس أقل اقتناعاً برسائل بواندكستر. في تموز/ يوليه ١٩٨٦ اتصل عضو الكونغرس هاملتون بالأميرال وقال: «أنا أريد أن أتكلم مع نورث حول قرار السؤال».

قال له بواندكستر: «هذا لن يحصل، إن البيت الأبيض ليس في وارد إرسال موظفيه للشهادة، ونحن لا نريد أن نبدأ الآن».

لكنّ هاملتون أصرّ على أنه يمكن إجراء ذلك بشكل غير رسمي، وعوضاً عن المثول

أمام لجنة في الكونغرس، يمكنني - وبكل بساطة - أن أجلس مع بعض أعضاء لجنة الاستخبارات وأجيب على أسئلتهم خلال لقاء غير رسمي وغير مسجل في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض.

كان من المستساغ أكثر أن يسمّى ذلك اجتماعاً بدلاً من مثول أمام اللجنة وبذلك تنتقل الأمور إلى ساحتنا. وهكذا كانت الحقيقة وكما فهمت فإنه في الوقت الذي التقينا فيه كان قرار السؤال قد أصبح ميتاً، لأن لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب صوّتت ضده. لكن ما زلت لا أعتقد أنها كانت فكرة جيّدة، وقلت ذلك للأميرال. كنا نعرف - كلانا - أن هناك كمية هائلة من المعلومات لا يمكن البوح بها ومن بينها التبرّعات السعودية للمقاومة، ودوري في تسليم الإمدادات العسكرية، وبالطبع فإن آية الله كان في ذلك الوقت يساعدنا في تمويل المقاومة النيكاراغوية من دون قصد.

قال الأميرال: يمكنك الاهتمام بها.

جرى الاجتماع في غرفة الأوضاع صباح يوم السادس من شهر آب/ أغسطس ١٩٨٦. كان الرئيس في كاليفورنيا وكان الأميرال في إجازة. لم يكن الكونغرس في دورة انعقاد في آب/ أغسطس، ولكن ولسوء الحظ كان هناك عدد من أعضاء لجنة الاستخبارات موجودين في مدينة واشنطن وحضروا الاجتماع مع عدد من أركانهم.

كانت هذه المرة الأولى التي يحضر فيها بعض الأعضاء إلى غرفة الأوضاع، وكنت أراهم يتطلّعون فيما حولهم بتعجب تماماً مثلما فعلت عندما حضرت في المرة الأولى. عندما دخلت أول مرة كنت أتوقع أن أرى غرفة متطوّرة وحديثة جداً، وفيها تقنيات معقّدة تماماً مثل غرف الأوضاع التي تظهر في الأفلام السينمائية، وقد أصبت بخيبة أمل عندما رأيتها عادية جداً. وقد ظننت للوهلة الأولى أنها ليست غرفة الأوضاع وربما كانت هذه الغرفة هي عبارة عن مصعد كبير حيث يضغط أحد ما على الزر الموجود في الحائط فينزل بنا إلى غرفة الأوضاع الحقيقية في الطابق السابع على عمق مئات الأقدام تحت الأرض، فإذا كان ذلك ما توقعه عضو الكونغرس فإنه حتماً سيصاب بخيبة أمل. وأنا أيضاً خاب أملي ذلك الصباح. كنت آمل من أعضاء اللجنة الذين يؤيدون الكونترا أن يبتعدوا عن الأسئلة القاسية، ولكني كنت مخطئاً.

سألني أحدهم ما إذا كنت قد قدمت نصيحة عسكرية للمقاومة النيكاراغوية. كان جوابي مثلاً: «انظر إن انريك بورموديز كولونيل وأنا أيضاً كولونيل، وإنه من غير المعقول أن تظن أن رجلين عسكريين يجلسان مع بعضهما ويتحدثان حول شؤون الحرب ولا يتطرقان إلى الأمور العسكرية. ولكن ليس معنى هذا أنني أعطيه نصائح عسكرية حول

العمليات وكل يوم؟ وحتى لو اعتقدت أن بإمكاني ذلك، فإننا نعرف جميعاً أنه لا يمكن قيادة هذه الحرب من واشنطن، إن هذه الحرب يجري تخطيطها وخوضها في المنطقة نفسها».

لم يكن ذلك جواباً، إنه مراوغة. صحيح أن هذه الحرب، مثل حروب العصابات، يجري تخطيطها وخوضها على مستوى وحدات صغرى. إلا أنّها ليست الحقيقة بكاملها. في الواقع لقد قدمت للمقاومة جميع أنواع النصائح.

في ذلك الصباح وفي غرفة الأوضاع حاولت أن أتجنب الكذب المفضوح، لكني وبالتأكيد لم أقل الحقيقة. كنت أعلم أن الإجابات الصادقة الكاملة من شأنها أن تدمّر المقاومة النيكاراغوية، وكان بعض أعضاء الكونغرس يدركون ذلك أيضاً.

في الوقت الذي انعقد في هذا الاجتماع وافق مجلس النواب ومجلس الشيوخ على تخصيص مائة مليون دولار لوكالة المخابرات المركزية كدعم للكونترا. كنا ندرك أنه بعد وقت قليل سوف يجري رئيس المجلس أونيل مشاورات تتعلق بهذه الموافقة، ولم يرغب أحد في الإدارة ـ وخصوصاً أنا ـ في إغراق هذا المركب. كذلك أردت ـ أنا والأميرال ـ أن نتجنب العاصفة السياسية التي يمكن أن تضربنا بقوة بعد أقل من أربعة أشهر.

على الرغم من قلقي فقد كان اجتماع غرفة الأوضاع ودّياً وبصورة مفاجئة، ربما لأني لم أكن الوحيد الذي يعلم أنني أتجنب الإجابات المباشرة على الأسئلة. لقد أجريت من قبل إيجازاً حول المقاومة لعدد من هؤلاء الرجال ولعشرات الأعضاء من الكونغرس. كان العديد منهم قد زار المنطقة والمخيمات واجتمع مع قادة المقاومة، وشاهد المباني القريبة من قاعدة ألوبانغو الجوية، حيث كانت تتمركز طائرات المقاومة. منذ سنوات كانوا يطلبون من وكالة المخابرات المركزية إيجازاً حول دعم الكونترا، ويبدو أنهم قبلوا ادعاءات الوكالة بالإنكار. أحد أعضاء اللجنة ديف مكردي، وهو من ولاية أوكلاهوما، اتصل بي في الليلة نفسها وطلب مني تأمين الإمدادات للهنود على ساحل الأطلسي. لقد نفّذت له طلبه. كنت متأكداً أن مكردي لم يشأ أن أتحدث حول هذا الموضوع وبالفعل لم أتطرق إلى ذلك.

والآن وأنا أنظر إلى ذلك الاجتماع، أدركت أن ما قمت به كان خطأ. لم أعط أجوبة قاطعة على الأسئلة التي طُرحت عليّ. عندما أرسل لي الأميرال رسالة على خط البيت الأبيض بعد يوم أو يومين من هذا الاجتماع قال ببساطة: «حسناً فعلت». لكنني لم أشعر بذلك في ذلك الوقت ولا أشعر به الآن أيضاً.

أنا أعرف الفرق بين الصواب والخطأ، وأستطيع أن أميّز بين الجيّد والرديء. ولكني

أعرف أيضاً أن القرارات الأكثر صعوبة هي الاختيار بين الجيد، والأفضل، والأصعب، والأقسى هو الاختيار بين السيّىء والأسوأ. كان ذلك هو الخيار الذي واجهته في ٦ آب/ أغسطس في غرفة الأوضاع. اتهمت فيما بعد بالكذب على الكونغرس في ذلك الاجتماع، ومع أني اعترفت بما قمت به وبشكل صريح في التحقيقات ومرة ثانية في أثناء المحاكمة إلاّ أنه لم تجر إدانتي.

وأظن أنه بسبب المشاحنات التي بدأت منذ مائتي عام بين الكونغرس والجناح التنفيذي حول التحكم بالسياسة الخارجية، لم يتهم أحد من قبل «بجرعة» كهذه. وإلى حين حضور المدعين العامين المختصين كانت هذه المبادلات غير الرسمية بين الكونغرس والجناح التنفيذي تعامل على أنها جزء من العملية السياسية. وبغض النظر عما إذا كان ذلك صحيحاً أو خطأ ـ وأنا أعرف أنه كان خطأ ـ فإني بالتأكيد لم أتصور أن أي شيء أقوم به يمكن أن يكون «جرعة».

عودة إلى ذلك اليوم، فمن الواضح لي أن أفضل شيء يمكن أن أقوم به هو أن لا أذهب إلى ذلك الاجتماع. كان عليّ أن أقول «سيدي الأميرال... أنا لا أستطيع القيام بذلك، أنت تعلم وأنا أعلم أن هؤلاء الأشخاص يريدون أن يطرحوا أسئلة، ونحن نعلم أيضاً أنني لا أستطيع أن أجيب على الأسئلة دون أن أدمّر المقاومة».

لكني لم أقل ذلك للأميرال، وأنا لا ألومه على ما حدث.

عندما ترك مكفرلين مكتبي عشية الثلاثاء تشرين الثاني/ نوفمبر بقي لدي أقل من أسبوع في مجلس الأمن القومي. لم أكن أعلم بذلك، ولكني كنت أعرف إلى أين تتجه الأمور. بدأت أسرع في العملية التي كنت قد بدأتها في تشرين الأول/ اكتوبر في «تنظيف كل شيء» وفي كل مساء من ذلك الأسبوع كنت أطلع على المزيد من ملفاتي الشخصية. لقد بقيت أياماً وأنا أفتش عن مذكرة هنا ورسالة هناك وملاحظات عديدة قد تعرّض بعض الناس للخطر. إن الوثائق التي أتلفتها من ملفاتي تتضمن أسماء وعناوين وأرقام هواتف وفي بعض الأحيان أرقام حسابات لأشخاص كانوا يتعاملون مع حكومتنا في موضوع مبادرة الرهائن ومشروع دعم الكونترا. في عدد من الحالات كانت هناك أسماء لبعض الأشخاص الذين تلقوا أموالاً مني من أجل هذه الجهود.

كان هؤلاء أشخاصاً وضعوا ثقتهم بنا وبي بشكل خاص، وذلك من أجل أن نحافظ على سريّة أسمائهم وهوياتهم. لقد مزقت هذه الأوراق ومزقت معها رسائل وتقارير كنت قد تلقيتها منهم تفصل ما كان يجري في كل حادثة أو عملية. وعلى الرغم من الاتهامات والدعايات فقد كانت الكمية التي مزقتها أقلّ بكثير مما تخيّله البعض.

فيما بعد سأل المحققون عما إذا كانت الأخطار التي أتحدّث عنها تتضمن أخطاراً سياسية، ولم أستطع أن أنكر أنني حاولت أن أعثر على وثائق مثل مذكرة التحويل، والتي لا تشكل خطراً على حياة البعض فقط، بل تشكل خطراً على الرئيس نفسه، لكن لم يكن هناك جهد شامل من أجل إتلاف كل شيء. كنت أعلم أنه حتى لو أردت أن أقوم بذلك فإنني لن أقدر على تغيير السجل بكامله.

خلال أسابيع بدأ الذين نجوا من انفجار تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ حملة من أجل كشف جميع الملفات في مكتبي، وبينما أخذت لجنة تاور وهيئات الكونغرس والمدعي العام المختص يضغطون جميعهم بأسئلتهم، أصبح كل شيء في مكتبي تقريباً معروضاً أمام الجميع. لقد نظرت برعب شديد عندما نَشرت مذكرة رئاسية سريّة جداً في عشرات الصحف الأميركية. إن نشر نص الوثائق السرية كان سيئاً، ولكن في وضع مثل هذه المذكرة أو وثائق عديدة أخرى لم ينشر النص فقط، بل نُشرت صور كشفت عن شكل هذه الوثائق، وهذا ما يسمح للمخابرات السوفياتية أو أي خصم آخر أن يعرف كيف تكون المذكرة الرئاسية السريّة. من الآن وصاعداً يمكن لأي شخص أن يعد مذكرة رئاسية ويستخدمها كدليل على أن حكومة الولايات المتحدة متورطة في أعمال غير مشروعة أو غير ذلك.

بعد مضي أسبوع زاد تركيز الصحافة وتوسّع حول شحنات الأسلحة إلى إيران وكيف جرت ولماذا أرسلت. في مناسبات عديدة تحدثت مع آمي نير وأكدنا أن الحكومتين كلتيهما، وكما وافقنا من قبل، لن ينشرا أي تعليق حول تعاون الولايات المتحدة وإسرائيل في المبادرة الإيرانية. أكد نير أنه يجب حماية دور الولايات المتحدة في شحنة صواريخ هوك لعام ١٩٨٥، لأن ذلك قد يؤذي الرهائن المحتجزين في بيروت، وبالتأكيد فهو ما زال قلقاً على مصير الجنديين الإسرائيليين.

بعد ظهر يوم الخميس في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر جلس العديد منا مع بيل كايسي في مكتب الأميرال لنبحث في الشهادة القادمة بشأن المبادرة الإيرانية. كان أركانه في وكالة المخابرات المركزية يعدّون مسودات متنوعة لما يمكن أن يقول: ولكن، ومثل العادة، أصرّ كايسي، والذي كان عائداً من زيارة إلى أميركا الوسطى، على تحضير شهادته شخصياً.

بعد الاجتماع الذي جرى في مكتب بواندكستر عدت أنا وكايسي إلى بناية المكتب التنفيذي القديمة، وبينما كنا نصعد الدرج المؤدي إلى البناية قال لي: «لقد انتهى.. أنت تعلم أليس كذلك؟».

أومأت برأسي، وعندما وصلنا إلى مكتبه تحدثنا بضع دقائق عن الشهادة التي سيدلي بها في اليوم التالي حول المبادرة نحو إيران. وبينما كنت أهم بالخروج قال لي: «سيكون كل شيء على ما يرام هناك».

نظرت إليه بحيرة.

أنت تعلم نيكاوغوا*، لقد قمت بعمل جيد، سنعود إلى هناك، لكنك حافظت عليهم. مع أني رأيته لفترة قصيرة فيما بعد في ذلك الأسبوع فقد كان ذلك آخر حديث يجري بيننا.

في يوم الجمعة ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر اجتمع كايسي والأميرال مع عدد من أعضاء لجنة الاستخبارات. كان الأميرال في أثناء اجتماعه مع حفنة من القانونيين في البيت الأبيض قد عبّر عن مفاجأته من القصة الملفقة التي أعدّتها الإدارة حول الأسابيع الماضية. إن الولايات المتحدة لم تعرف عن شحنة صواريخ هوك الإسرائيلية إلى إيران التي جرت عام ١٩٨٥ إلّا في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦. صرح كايسي في شهادته في الكونغرس أن وكالة المخابرات المركزية لم تعرف أن شركة الطيران التي تعمل لصالحها قد نقلت الصواريخ من إسرائيل إلى إيران إلا في وقت ما عام ١٩٨٦. لم تكن هذه المعلومات صحيحة بالطبع.

ما كان صحيحاً هو عدة أمور ذكرها كايسي في أثناء إدلائه بشهادته. مع أن تلك التحقيقات كانت تتعلق بالمبادرة نحو إيران فقد اقترح كايسي ثلاث مرات أن «اللجنة يمكن أن تسرّ حين تعلم أن أوليفر نورث كان يقوم بدور عملاني لمساعدة المقاومة النيكاراغوية». عندما ذكر ذلك كان كايسي ينفذ ما بحثته أنا وإياه: «إنه كان جاهزاً ليرميني من السفينة على أمل أن يتمكن بقية الناس في الإدارة من البقاء على متن السفينة وهي عائمة، ولكن في ذلك الوقت لم تكن اللجنة مهتمة بذلك.

بسبب هذه القصص المؤذية، طلب الرئيس من إدميز بأن يضع جميع الحقائق مع بعضها، وأن يعدّ سرداً متجانساً لكل ما حدث ومتى حدث في المبادرة نحو إيران. أخبرني الأميرال بواندكستر عن مهمة ميز بعد ظهر يوم الجمعة، وذكر أن دونالد ريغان أراد هذه المعلومات بعد ظهر الاثنين، وأن عدداً من رجال إد سوف يحضرون يوم السبت. فهل يمكنني أن أحضر إلى مكتبي لأساعدهم؟

أكّدت له أنه بإمكاني ترتيب ذلك.

---

* كانت هذه الطريقة التي يلفظ بها كايسي كلمة نيكاراغوا (المترجم).

عندما وصلت إلى مكتبي يوم السبت كان رجلان من عناصر مكتب ميز داخل مكتبي وهما ـ وليم رينولدز وجون ريتشاردسون ـ ينظران إلى ملف أحمر كنت قد تركته أنا وبوب إيرل. شرحت لهما عن كيفية عمل آلة النسخ، وتابعا القراءة في الوثائق، وأخذا ينسخان بعضها. عدت إلى عملي.. أتلقى مكالمات هاتفية وأجري أخرى.. أقرأ البرقيات وأهتم ببعض شؤون عملي. وعدة مرات قمت ومزّقت بعض الأوراق التي انتهيت منها. فيما بعد اتهمت الصحافة رجال ميز بعدم الكفاءة وبأسوأ من ذلك أي بالسماح لي باستعمال آلة التمزيق في أثناء وجودهم. لم يكن ذلك جيداً. كان تمزيق الأوراق جزءاً من عملنا الروتيني، إلى جانب ذلك لم أكن متهماً بشيء، كانوا يقومون بمهمتهم وكنت أقوم بمهمتي.

قبل الساعة الثانية بوقت قليل ترك رينولدز وريتشاردسون المكتب لتناول طعام الغداء، حيث التقيا ميز وشارلز كوبر، أحد مساعدي ميز، في مطعم أبيت غريل في الشارع الخامس عشر. ذهبت إلى مكتب الأميرال حيث وجدت كايسي والأميرال يتناولان طعام الغداء، عندما ذكرت لهما أن اثنين من مكتب ميز كانا يفتشان في ملفاتي قال كايسي: «هذا ليس سيئاً كثيراً، لدينا أركان من الكونغرس في كل المكان يبحثون في أشياء ليست من اختصاصهم».

عاد ريتشاردسون ورينولدز إلى مكتبي حوالى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين، وافترضت أنهما يريدان طرح بعض الأسئلة، لكنهما أرادا أن يراجعا بعض الوثائق. مع أني لم أعرف في ذلك الوقت، فقد عدت ورأيتهما مرة ثانية بعد ظهر اليوم التالي عندما ذهبت لمقابلة ميز.

وصلت إلى مكتب ميز في وزارة العدل حوالى الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأحد، كان معه رينولدز وكوبر وريتشاردسون. افتتح إد الاجتماع بأن طلب مني أن أتذكر كل شيء يتعلق بالمبادرة نحو إيران وقال: «لا تهتم بحماية الرئيس أو أي شخص آخر فقط أخبرني القصة».

قد يبدو ذلك غريباً في ضوء ما حدث في ذلك الاجتماع، ولكن لهجة الحديث كانت ودية. كنت أعرف إد منذ أكثر من خمس سنوات، التقيت به أول مرة في إحدى مراحل المشروع الحساسة في بداية جولتي. لقد عملنا معاً في مكافحة الإرهاب في مناطق عديدة. لقد عين لي عميلين من أجل المساعدة في جهودنا لإنقاذ الرهائن وعندما كنت أعمل لمراقبة الأجانب وتأمين التنصّت عليهم من قبل مكتب التحقيق الفدرالي كنت أتصل به.

لم أتوقع أن يكون هذا الاجتماع دراماتيكياً، كنت أعتقد أننا ما زلنا نحاول أن نظهر

الأمور بأحسن صورة ممكنة، أي أن نكشف بقدرٍ يكفي لاقتناع الكونغرس والصحافة ولا يعرض الرهائن للخطر.

بعد ساعة من الاجتماع قال ميز: «هل هناك أي شيء آخر يمكن أن يعضّ الرئيس في مؤخرته؟».

أجبته: «أنا لا أفكر بذلك».

قال: «ما رأيك بهذا؟ وسلمني وثيقة من تسع صفحات. كانت مذكرة يعود تاريخها إلى شهر نيسان/ أبريل ١٩٨٦ مرفوعة مني إلى الأميرال بواندكستر، والتي تتضمن تفاصيل مخطط إحدى شحنات الأسلحة إلى إيران، وتذكر بالتحديد أنه يبقى مبلغ ١٢ مليون دولار من مبيعات الأسلحة، وأن هذا المبلغ سوف يحوّل إلى المقاومة النيكاراغوية*.

فكرت وقلت لنفسي: «ما هذا الهراء؟».

كانت هذه هي الوثيقة التي مزقتها، أو التي اعتقدت أنني مزّقتها!

سألته: من أين أتيت بهذه الوثيقة؟

قال ميز: هذا ليس مهماً.. هل جرى ذلك؟

ـ «لا.. هذه الشحنة بالتحديد لم تحصل».. (كان ذلك صحيحاً) ولكن السؤال التالي لم يكن تجنبه ممكناً.

حسناً.. لكن هل حصل شيء مثل هذا؟

توقفت.. كان هذا سراً ضمن سر، ولا يفترض أبداً أن يكشف عنه. بعد وقت بدا أنه طويل جداً قلت: نعم.

لم يصرخ أحد، ولم تهتز الأرض ولم تسقط الجدران، ولم يقع أحد من على كرسيه. لم يقل أحد: هاتوا السلاسل المعدنية لنقيده بها، فقد خالف هذا الرجل توصيات بولاند.

---

* ينص القسم الهام من المذكرة على ما يلي:

استخدام مبلغ ٢ مليون دولار لشراء ٥٠٨ صواريخ تو تعوض لإسرائيل عن الكمية نفسها التي قدمتها إلى إيران لقاء إطلاق سراح بنجامين وير. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي وجدنا أنها تنفذ تعهداتنا لاستكمال الترسانة الإسرائيلية.

استخدام مبلغ ١٢ مليون دولار لشراء الإمدادات الضرورية لقوات المقاومة الديموقراطية النيكاراغوية. هذه المواد ضرورية لسد النقص في مخازن المقاومة والناتج عن عمليات الهجوم التي قاموا بها، وعمليات ضد الهجمات المعاكسة الساندينية، ولاستمرار المساعدة في الفترة الممتدة من الآن وإلى حين موافقة الكونغرس على تخصيص المساعدة الضرورية (حوالى ٢٥ مليون دولار للأسلحة الدفاعية).

كان إدميز بالتأكيد مسروراً، ولكن لم تبدُ أية ملامح في ردة فعله عن ما سيحدث بعد يومين، أي في المؤتمر الصحافي الذي عقد في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر.

سألته: هل كان هناك مذكرة تغطية؟ يمكن أن تبين مذكرة التغطية ما إذا كانت هذه الوثيقة بالتحديد قد عرضت على الرئيس. وما زلت حتى الآن أجهل أين وجدت هذه المذكرة!

قال رينولدز: كلا.. لا يوجد مذكرة تغطية.

قال ميز: هل كان يجب أن نعثر على مذكرة تغطية؟

قلت: ليس بالضرورة إنما كنت أتساءل.

سأل ميز ومعاونوه عدداً آخر من الأسئلة: هل سبق وأن بحثت هذه الترتيبات مع الرئيس ريغان؟ قلت: لا.. ولكن إذا كان أحد ما قد بحثها فإنه الأميرال بواندكستر.

انتهى الاجتماع قبل الساعة السادسة بقليل، وعندها ذهب ميز ليحضر زوجته من المطار، وبينما كان يغادر عبّرت له عن قلقي لوضع الرهائن وقلت له: آمل أن لا يعلن كل ذلك؟

بعد الاجتماع توجهت إلى البيت الأبيض لأبحث عن الأميرال بواندكستر. لم يكن في مكتبه ولا في منزله، أخبرني ضابط الدوام في غرفة الأوضاع أنه موجود في ملعب ر.ف.ك حيث كان يشاهد عرضاً لرعاة البقر من تكساس. سألني الضابط: هل تريد أن أزعجه فأستأذن لك؟ قلت له: «حسناً.. يمكنني أن أنتظر»، وفكرتُ أنني بذلك أفسح له في المجال بأن يعود إلى منزله قبل أن يسمع الأنباء السيئة.

عندما توصلت أخيراً إلى الأميرال في منزله في ذلك المساء، قلت له إن ميز ورجاله عرضوا عليّ مذكرة تعود إلى شهر نيسان/ أبريل تظهر بوضوح موضوع «التحويل»، بدا أن الأميرال صمت لوقت طويل وقال: «حسناً ماذا قلت لهم؟ أجبته: أخبرتهم بالحقيقة. قلت لهم إن هذه الصفقة بالتحديد لم تجر ولكن جرت صفقات أخرى».

وأطبق صمت طويل آخر، ثم قال: «لقد قمت بالعمل الصحيح».

بقيت في مكتبي إلى ساعة متأخرة من الليل، أدركت أن إقامتي لن تطول هنا، وأن عليّ أن أسوّي بعض الأمور قبل أن أغادر. كذلك كتبت رسالة وداع للأميرال بواندكستر كنت قد حضّرتها من قبل.

هناك عرف قديم هو أنّه لا يمكنك أن تصرفني، ولكني أريد أن أجعل من الأمور

رسمية وقانونية، بحيث أنك تدرك أنني كنت أعني ما كنت أقوله لك في الأسابيع الصعبة الماضية، أنا جاهز لأترك في الوقت الذي تقرر فيه أنت والرئيس أنه الأفضل لمصلحة الرئاسة ومصلحة البلاد.

أنا أتشرف بأني خدمت الرئيس وخدمتك أنت ومن سبقك في السنوات الخمس والنصف السابقة، وأنا أتأسف لأنه كان يجب أن أعمل بطريقة أفضل. أصلي كي لا يتأثر الرئيس بما حصل، وبأن لا يتعرض الرهائن للأذى نتيجة لما نقوم به الآن. أخيراً إني ما أزال مقتنعاً بأن ما حاولنا إنجازه يساوي المخاطر التي تعرضنا لها، لقد نجحنا تقريباً.. آمل أنه عندما تنتهي هذه التصفيات السياسية سوف نجد آخرين وفي لحظات هادئة يوافقون على ما قمنا به.

مع أحرّ التحيات.. وبكل إخلاص أوليفر نورث.
أرسلت الرسالة يوم الاثنين.. ويوم الثلاثاء رحلت.



اعتباراً من تشرين الثاني ١٩٨٦ وضعت مجلة نيوزويك تايم، وجميع الصحف الأميركية تقريباً مسألة إيران كونترا في مركز اهتمامها لمدة أشهر.

(١٥)
أضواء وكاميرات

من عـادتي أن أستيقظ باكـراً. في اليوم الـذي تلا صرفي من الخـدمة غـادرت منزلي كالعادة في الساعة السادسة، وتركت الباب الأمامي مفتوحـاً بحيث يمكن لكلبنا مـاكس أن يخـرج للقيام بنـزهته الصبـاحية. كـانت العتمة مـا زالت مسدلـة ولم ألاحظ أي شيء غير عادي. ولكن ما إن أغلقت البـاب خلفي أحسست وكأن جهنم قـد أفلتت علي: أضـواء أنارت الباحة بكاملها، وظهرت ومضات الكاميرات، وأخذ عشرات الصحافيين يصرخـون من على السياج المقابل لمنزلي.

لم يفـرح ماكس بـذلك، كـان كلباً قـاسياً لكنـه في الحقيقة هـادئاً، لم يكن يعـترض عندما كانت دورنين تصعد على ظهره وتركب عليه وتمتطيه كالحصـان، لكن لماكس مـوهبة عظيمة: نباح شديد يتنافى مع جبنه الواضح.

في ذلـك الصباح وفي الـوقت الذي تسلطت فيـه الأضواء، أفلت ماكس، وأصيب الصحافيون بالرعب. «اهرب يا بـوب. . إنه كلب هجـومي». أُقفلت أبواب السيـارات، وأُنزلت الأضواء عن قـواعدهـا، وهرع الصحـافيون إلى سيـاراتهم. وقف ماكس المسكـين يرتعش بخوف وذيله بين رجليه ولكنه كان ينبح مثل المجنون، وسرعان مـا أدركوا حقيقـة هذا الكلب وزال تخوفهم منه.

منذ ٢٦ تشرين الثاني/ نـوفمبر ١٩٨٦ حتى نهايـة التحقيقات في تمـوز/ يوليـو التالي كان الصحافيـون يحضرون إلى قرب منـزلنا السـاعة الخـامسة من صبـاح كل يـوم. كانـوا يحضرون أيام الآحاد، وحضروا في يوم الشكر، لقد حضروا حتى في عيد الميلاد.

عيد الميلاد! لقـد هزّني ذلـك فعلاً، كنـا نستيقظ صباحـاً يوم عيـد الميلاد ثم نلتقط الصور للأطفال وهم يجلسون عـلى الكراسي، ثم ننشـد أغنية «الليلة الصـامتة». بعـد أن يفتح الأطفال علب هـدايا الميـلاد، يدخـل الجميع إلى المـطبخ حيث كـان والدي يصنـع الحلوى. عنـدما ننتهي من تنـاول طعام الفـطور نتجمّـع حـول الشجـرة لتسليم واستـلام

الهدايا، وهناك لاحظت أن ابنتنا دورنين البالغة من العمر ٥ سنوات غير موجودة.

عندها فتح الباب الأمامي وجاءت دورنين.
سألتها: أين كنت لقد حان وقت توزيع الهدايا؟
قال دورنين: ذهبت إلى الخارج لأعطي الصحافيين بعض الكعك.
قلت لها: لقد قلت لك أن لا تتحدثي إليهم!
قالت: لكن يا والدي إنه عيد الميلاد، وهم يشعرون بالبرد!
بعد عدة أشهر وعندما تذكرت هذه الحادثة، تبيّن لي أن روح الميلاد عند دورنين أفضل مما هي عندي. أدركت أن هؤلاء المراسلين والمصورين قد أرسلهم رؤساء التحرير والمنتجون، وأنا متأكد أنهم لم يختاروا أن يمضوا صباح عيد الميلاد واقفين خارج منزلنا، وعلى الأقل آمل ذلك.

حتى اليوم وبعد ٥ سنوات تقريباً لم أعرف لماذا حضر الصحافيون صباح عيد الميلاد؟ لقد حضروا أيضاً في عيد الفصح، وغابوا عنا فقط يوم رأس السنة، فهل كانت تلك عطلتهم الدينية؟

شكراً لزياراتهم اليومية، لا بد أني أفضل من أخذ صوراً في أميركا، ولا بد أن أي أحد في التلفزيون كان يعتقد أني أقطن في سيارتي. وسرعان ما كان جوني كارسون* يقوم بأعمال روتينية حيث ارتدى الزيّ العسكري وأخذ يجيب على الأسئلة من خلال شباك السيارة.

الصحافي: سيّدي الكولونيل نورث، هل صحيح أنك بعت السلاح سراً إلى إيران واستخدمت المال لمساعدة المقاومة النيكاراغوية؟

كارسون: «وهو ينظر إلى السائل».. قل هل لك شعر طويل ينمو في خياشيم أنفك؟

منذ ذلك الوقت لم أعد أذهب إلى البيت الأبيض. وفي الليلة التي صرفت فيها تلقيت مكالمة من الجنرال كيلي، قائد مشاة البحرية، قال لي: «لقد تمّت إعادة تعيينك.. ارتد بزّتك العسكرية والتحق بالقيادة غداً صباحاً».

لقد عيّنني الجنرال كيلي في فرقة التخطيط والسياسة في القيادة، ولقد قدّرت ثقته بي. كان بإمكانه أن يعيّنني في وظيفة مغمورة، أو يطلب مني الاستقالة، بدلاً من ذلك أراد أن

---

* جوني كارسون ممثل أميركي. (المترجم).

أعمل في القاعة الواقعة تحت مكتبه مباشرة. عرضت أن أترك الخدمة لكنه رفض الاستماع إلى العرض، قال: «تعال غداً وإذا استاء أحد من ذلك فليتكلم معي».

في ساعة متأخرة من تلك الليلة، أخذت بزّتي العسكرية ونفضت الغبار عنها، لم أستعملها كثيراً في أثناء خدمتي في مجلس الأمن القومي، وربما ارتديتها حوالى ست مرات خلال خمس سنوات ونصف. ذات مرة قرر أحد مسؤولي البيت الأبيض أن على جميع العسكريين العاملين ارتداء البزّة العسكرية كل يوم أربعاء. استمر ذلك التدبير لمدة شهر، وبدأ بعض المدنيين يتعجبون «يا إلّهي هناك الكثير منهم». وفعلاً كان هناك الكثير، ثم سرعان ما عدنا إلى ارتداء البزّة المدنية.

صباح أول يوم بعد صرفي من الخدمة طاردني الصحافيون طوال الطريق إلى مقر قيادة مشاة البحرية في ارلنغتون، ولحقوا بي بالسيارات ـ سيارات فان ودراجات نارية ـ وبعدها كان الصحافيون ينتظرون صباح كل يوم أمام منزلي.

لقد هجموا علينا مثل الجراد بهدف الانقضاض على حياتنا الخاصة، وتجوّلوا في المنطقة المجاورة بحثاً عن أي معلومات عن عائلتنا. لم نستطع أن نذهب إلى أي دكان أو إلى الكنيسة أو إلى محطة البنزين دون مراقبتهم، كذلك لم نستطع أن نحضر البريد أو الصحف أو نغسل السيارة أو نقطع العشب دون مراقبة أو تصوير بالكاميرات أو بكاميرات الفيديو أو تسجيل أصواتنا أو كتابة ملاحظات عنّا. لقد لحقوا بي إلى مكان عملي، وإلى منزل حاضنة الأولاد. لقد طاردوا أولادنا إلى موقف الباص وانهالوا عليهم بالأسئلة. وعندما بدأت أنا وبتسي نقلّهم بسيارتنا أخذوا يسألون أبناء الجيران، وفي مرّة ثقب إطار البيك أب عندما كنت عائداً من مرمى النفايات في أحد أيام السبت، توقفوا وقفزوا من سياراتهم التي يطاردوني بها ـ ليس من أجل مساعدتي على تغيير الإطار بل ليصوروني وأنا أقوم بتغييره.

سرعان ما أصبح لدينا روتين صباحي: أذهب إلى سيارتي وعندما أقودها باتجاه الطريق العام أرى سيلاً من المراسلين والمصورين يعترضون الطريق، كنت أشير إليهم بابتسامة وهم يهزون رؤوسهم. كنت أقلع ببطء وأحفظ ببالي نصيحة محامي برندان سوليفان «مهما تفعل لا تهرب منهم». كانوا يومئون إليّ بأن أنزل الشباك، وعندما أقوم بذلك يطرحون الأسئلة بصوت عال: كولونيل نورث ما رأيك بالتقارير الصحافية التي تقول إنك بعت تحفاً وفضيّات من البيت الأبيض وذلك لتمويل الكونترا؟

كان برندان سوليفان وزملاؤه قد أعطوني أوامر صارمة بأن أبقى صامتاً مهما كانت الأسئلة مثيرة. وقد بذلت كل جهد كي أنصاع لهذا الأمر. ومع أني كنت غاضباً من هذه

التدابير، لكني كنت أعلم أن هناك أسباباً وجيهة لها عندما تواجه هذا النوع من الأسئلة، فإن أي شيء تقوله للصحافة سوف يستخدم ضدك. وعلى عكس بعض المحامين الذين رافعوا في قضية إيران - كونترا، فقد حافظ محاميّ على صمت مطبق، ولم يتحدثوا عن القضية مع أي أحد، وكانوا يتوقعون مني أن لا أتكلم أيضاً.

كان برندان يتلقى سيلاً من أسئلة الصحافيين لكنه لم يتصل بأحد، وعندما كان يحضر إلى مركز عمله أو يغادره كان الصحافيون يسألونه دائماً، ولكنه كان يرفض أن يؤكد أو ينفي أي شيء مهما كان الادعاء واضحاً.

ـ كيف تجري الأمور هذا الصباح يا سيد سوليفان؟

ـ لا تعليق.

ـ هل أنت متخوّف من القضية؟

ـ لا تعليق.

ـ كيف حال الطقس اليوم؟

ـ لا تعليق.

لم تكن لديّ قوة احتمال كافية فاستسلمت مرتين. ذات صباح سألني مراسل من شبكة C B S كيف أشعر تجاه أناس مثل مورين ريغان الذي قال صراحة إنه عليّ أن أتوقف عن الاختباء وراء المادة الخامسة وأن أقول الحقيقة؟ قلت: «لا أعتقد أن الرئيس يريدني أن أتخلّى عن حقّي الممنوح لي دستورياً. كم واحد منكم يريد أن يتخلى عن حقوقه بموجب المادة الخامسة؟».

عندها سأل أحدهم: ما هو شعورك حول الأشياء التي يقولها عنك أصدقاؤك؟ أجبت: بالنسبة إلى هذا.. أريدك أن ترجع إلى المزمور السابع، الإصحاح الأول.

صرخ أحدهم عالياً بينما كنت أهم بالإقلاع بالسيارة: ماذا يقول؟!

صرخت: انظر إليه.. سيكون ذلك جيداً بالنسبة إليك.

في تلك الليلة وفي نشرة أخبار شبكة A B C قرأ بيتر جننغز المقطع وهو يقول:

أيها الرب إلهي أنا ألجأ إليك.

خلّصني من كل من يلاحقني.

وإلاّ مزقوني مثل الأسود.

وقطّعوني إرباً إرباً ورموني حيث لا ينقذني أحد.

حسناً.. إنها ليست كارثة.. على الأقل تمكنت من إرغامهم على قراءة الكتاب المقدس في نشرة الأخبار.

على الرغم من كل شيء حاولت أن أحافظ على روتين الصباح، والذي يتضمن عادة قراءة عدة مقاطع من الكتاب المقدس قبل أن أذهب إلى العمل. أحياناً أصادف سطراً مناسباً فأضع علامة تحته. حاول المراسلون أن يغيظوني لهذا، وفي بعض الأحيان كنت أرد إليهم الإغاظة، كنت أقول لهم: أحاول أن أقرأ شيئين كل صباح: الكتاب المقدس وصحيفة الواشنطن بوست، وبهذا أعرف كيف يفكر الطرفان.

توفي والدي عام ١٩٨٤، ولكن والدتي التي تعيش وحدها في ريف ولاية نيويورك أُحيطت بالصحافيين أيضاً. اعتاد الصحافيون الضغط على جميع الأزرار في البناية التي تقطن فيها حتى يفتح لهم أحد ما، لقد وقف مصوّرو التلفزيون طويلاً خارج باب شقتها، ومرت أيام لم تجرؤ فيها على الخروج من الشقة. إلا أنهم بدأوا بجيرانها: «هل تعرفون السيدة نورث؟ أخبرونا كم مرة يزورها ابنها؟ هل لها عادات غريبة؟»

لقد حاولت أن أحضر عائلتي عندما شعرت أن أمراً ما على وشك الحدوث، ولكن لم يتخيّل أي منّا أن يتّخذ الموضوع هذا الشكل الضاغط. في الليلة التي صرفت فيها اجتمعنا في غرفة الجلوس حيث كنا نلعب الـ«سكرابل». قلت: لقد أعيد تعييني في مشاة البحرية، ومع أني لم أرتكب أي خطأ، كان هناك العديد من القصص التي نشرت في الصحافة والتلفزيون عنّي، لم أدخل في التفاصيل ولم أستطع أن أتنبأ درجة القساوة التي ستصل إليها الأمور.

في عودة إلى الوراء، يمكنني أن أرى كم من الأمور أدخل هذا الصرف على حياة أطفالي. فبالإضافة إلى المضايقات والأسئلة والإشاعات والادعاءات القاسية، لقد عانوا من أمور أساسية. لم يُسمح لهم بأن يكونوا فقط تايت نورث أو ستيوارت نورث أو سارة نورث أو دورنين نورث، فمن الآن وصاعداً ينظر إليهم الناس على أنهم أبناء أوليفر نورث. حتى اليوم وأينما ذهبوا يكونون إما كباراً، وإما صغاراً في أعين الناس حسب نظرة الناس إليّ. ومهما أنهوا من إنجازات شخصية فإنه لا يمكنهم مجاراة شهرة أبيهم أو سمعته، إنهم لا يستحقون ذلك وأنا أشعر بالإنزعاج من أجل ذلك.

كان لكل طفل ردّة فعل خاصّة على الضغوط التي يتعرض لها تايت التي كانت في الثانوية ورئيسة شرف في المجتمع كانت خائفة حين صرفت. لقد لامت الرئيس وكل الإدارة، ورأت أن رونالد ريغان تخلّى عنّي بعد كل ما قمت به من أجل سياساته، وحتى هذا اليوم ما زالت مستاءة منه. لقد تبادلت الحديث معها حول إيران ـ كونترا ودوري بها، وحاولت أن أضع موقفي في إطار أكبر. قلت لها: «احفظي ذلك في عقلك، في العديد من البلدان الأخرى إذا حدث شيء مثل هذا يمكن أن يذهب والدك إلى عمله

صباحاً ولن تسمعي عنه شيئاً بعد ذلك».

وستيوارت الذي كان في الثانوية أجاب على الأسئلة. كنت أستطيع الإجابة على بعض هذه الأسئلة، لكن معظم المعلومات كانت إما سرية أو خارج الحدود التي رسمها لي المحامي. كان ذلك صعباً على ستيوارت. حاول أن تقول لابنك الذي يبلغ السادسة عشرة من العمر: «آسف.. لكني لا أستطيع أن أحدثك حول هذا الموضوع». سيقول لك حتماً: «ماذا تعني.. أنا ابنك!» فهو يقرأ الصحف ويشاهد التلفزيون ويقول: «يا والدي ماذا أقول عندما يسألني طلاب صفي عن هذا الموضوع؟» قلت له: «قل لهم إن والدي مسيحي مؤمن.. ولا يمكن أن يخالف القانون».

لحسن الحظ كان ستيوارت في بيئة محمية نوعاً ما في مدرسة وود بري فورست في أورانج فيرجينيا حيث كان محاطاً بأصدقاء ومعلمين مؤيدين. ولكن ذراع التحقيق الطويلة وصلت إلى هناك عندما جاء عملاء مكتب التحقيق الفدرالي ليروا كيف تدفع نفقات التعليم (كان يستفيد من منحة دراسية). كان ستيوارت يعرف ما كان يجري بشكل عام، ولكن المدير أميت رايت بذل جميع الجهود ليحجب عنه ذلك.

سارة، والتي كانت في سن العاشرة، قاست أكثر من الجميع. لقد أصيبت بطفح جلدي في يديها من جراء الحكاك بشكل عصبي. لقد تعرضت لمضايقات في المدرسة ليس من طلاب صفها فقط بل من بعض المعلمين أيضاً. سألت مرة أحد المعلمين ماذا تفعل بورقة كتبت عليها؟ أجاب المعلم: لماذا لا تمزّقينها وإذا كنت لا تعرفين اسألي أباك... فهو خبير في ذلك.

ولكن معظم معلميها كانوا مؤيدين. أحد المعلمين أعطى لبتسي ورقتي ملاحظات كان قد صادرهما من سارة وأحد أصدقائها في الصف. ملاحظة سارة تدمي القلب، كتبت: يقول دينيس إن والدك سيدخل السجن وأنا أقول لا. أنا أتمنى أن يكون والدي رجلاً عادياً.. أنت تعلم ماذا أعني؟» ولكن حتى في هذا كان هناك شعاع من أشعة الشمس. كان جواب صديقتها سيندي: «كلا لن يدخل السجن الله لا يريد أن يحدث ذلك».

كانت دورنين في الخامسة من عمرها ولحسن الحظ كانت صغيرة جداً ولم تهضم ما قيل وكتب حول أبيها. اتخذنا قراراً في العائلة بعدم مشاهدة أخبار التلفزيون، ولكن في بعض الأحيان كانت دورنين تحب أن ترى وجهي على شاشة التلفزيون، كانت تسرع نحو بتسي وتقول: ماما هذا بابا على التلفزيون مرة أخرى. وكانت بتسي تقول: «سدّي أذنيك أيتها الطفلة.. وأوقفي ذلك الجهاز عن العمل».

هذا الانهيار الإعلامي قرّب بين البنتين الصغيرتين.

مع أن وظيفتي الجديدة لم تأخذ كل وقتي مثل الوظيفة السابقة، إلّا أني لم أجد الوقت الكافي لأمضيه مع عائلتي. كان عليّ أن أكون في مركز عملي في مقر قيادة مشاة البحرية الساعة ٧,١٥، وأن أغادر الساعة الرابعة متوجهاً إلى مكتب وليامز وكونولي لأمضي بين ٦ و٨ ساعات مع المحامين. كان ذلك وكأني أعمل في وظيفتين.

لو لم تكن بتسي قوية وتخاف الله لكنت أرتعش ممّا قد يحصل لعائلتي. لكنها تدبّرت أمر المحافظة على سلامتنا كعائلة وكان هذا بحد ذاته عملاً هاماً. كانت تذهب صباح كل يوم إلى البريد، وتقطع جميع المقالات التي تتعلّق بي وبمشاكلي القانونية من الصحف بحيث لا يراها الأولاد.

خلال تلك الأشهر الصعبة دخلت أنا وبتسي في مرحلة عاطفية حارة، كانت تدعمني وتؤيّدني إلى حد كبير، ولكن كانت هناك لحظات حيث تعرض كلانا لإجهاد كبير.

قالت لي ذات مرة: ماذا فعلت لأطفالي؟

قلت: مهلك أطفالك؟

وبوضوح لم تنته المحادثة عند هذا الحد، فقد كانت بعض القصص في الصحافة هزلية، منها أني أنا وفون هال قد خطّطنا للفرار إلى إحدى الجزر، ومنها أيضاً أن طائرة خاصة كانت تنتظر طوال العام ١٩٨٦ لتقلّني إلى أي مكان أريد وذلك خلال لحظات، وأني متورط في ترويج المخدرات للكونترا، وأني كنت وراء محاولة اغتيال إيدن باستورا، وأني كنت كذّاباً، والأكثر من ذلك أني كنت مدفعاً خارجاً عن سيطرة الدولة.

لقد خرجت بعض التسريبات من البيت الأبيض، وبينما أكد محامي بعدم الردّ على أي ادعاء مهما كان، بدا أن بعض الأشخاص عملوا كثيراً في محاولة لتحويل الانتباه عن البيت الأبيض وعن مسؤولين آخرين في الإدارة والذين كانوا مشتركين في نشاطاتي أو على الأقل يعلمون بها. قصة وراء قصة أخذت تروي تفاصيل العمليات التي قمت بها من تلقاء نفسي. مصادر «طلبت عدم الكشف عن أسمائها» قامت بجهود كبيرة لإظهاري على أني مرتد لا يمكن الركون إليه، والتقطت الصحافة ذلك، ولم تتوقف عن السؤال كيف تمكنت من القيام بكل ذلك من تلقاء نفسي؟ حتى الآن يعتقد العديد من الأميركيين أني بعت الأسلحة إلى الإيرانيين بنفسي، وأن لا أحد في الإدارة الأميركية كان يعلم ما يحدث في أميركا الوسطى. أعتقد أن العديد من هذه القصص أتت من أركان دونالد ريغان، ويظهر أنه هو الذي قال إنه يجب القضاء على مصداقيتي، وإنه يجب أن أصوّر على أني

رجل متوحش محتال. (بهذه الطريقة لن يصدقني أحد إذا ما أقحمت الرئيس في الأمر). وللغرابة لم أسمع بهذه الاتهامات قبل صرفي، وفي الحقيقة إن بعض المصادر كان يحضر إليّ ويقول لي: «ما هذا العمل العظيم الذي تقوم به».

كان العديد من القصص السلبية التي رُويت مبنياً على حوادث حقيقية، لكنها صُوّرت لتظهر بشكل شنيع. كنت فقط أدعم المقاومة وأجتمع مع الإيرانيين، واستخدمت الشيكات السياحية العائدة للكونترا في السوبر ماركت وفي شراء فساتين فرح لبناتي من محلات باركلاين. ولهذا فقد تولّد انطباع بأني خالفت أنظمة تصدير السلاح، وخرقت قوانين الحياد وسرقت الأموال، وكان لي علاقة مع فون هال. كانت هناك قصص حول دخولي إلى مستشفى بشسدا، ومنها تقرير يفيد بأنه عثر عليّ وأنا أركض عارياً وأنا ألوّح بمسدس.

كانت جميع هذه المقالات والأخبار تقريباً تنسب إلى مصدر يطلب عدم إعلان اسمه، ومعظمهم من داخل الحكومة، لكن وسائل الإعلام وبناء على ما تتطلبه واجباتها أخذت تحاورهم. كان هناك عقلية غوغائية تحريضية، وقال بعض الناس كلاماً عني أسفوا له فيما بعد، واثنان منهم اعتذرا إليّ لاحقاً.

بالتأكيد كان لديّ أخطاء، لكني كنت ضابط ركن ممتازاً وكنت مخلصاً للرئيس ولسياساته، ونفيت الادعاءات التي تتهمني بعدم الإخلاص. عملت في مجلس الأمن القومي وكنت أحيط جميع رؤسائي علماً بكل خطوة أقوم بها.

بالنسبة إليّ كان أكبر اتهام وجّه إليّ هو أنني كنت أعتبر نفسي فوق القانون، أو أني «خرقت الدستور»، وأني كنت مؤذياً جداً، وأني تنكّرت للمثل التي ربيت عليها وتعلّمت منها، ولم أتذكر أي شيء تعلمته في أنابوليس وفي مشاة البحرية. في كل مرة كنت أرقى فيها لرتبة أعلى، كنت أقسم للدفاع عن دستور الولايات المتحدة، وكنت أعني هذه الكلمات وأطيعها «النمر لا يغيّر خطه».

ربما كانت أكثر القصص إزعاجاً تلك التي ظهرت في ٢٠ شباط/ فبراير ١٩٨٧ عندما قالت الواشنطن بوست إنني أعطيت الإيرانيين معلومات استخبارية سريّة للغاية دون إذن من رؤسائي. جاء في المقالة: «إذا كان يتصرّف من تلقاء نفسه فإنه يكون قد خالف القوانين الفدرالية المتعلّقة بالتجسّس، والتي إذا أُدين بها العسكريون في أيام السلم ينالون حكم الإعدام».

في الحقيقة جميع المعلومات التي أعطيناها للإيرانيين قد تمّ تحضيرها خصيصاً لهذا

الغرض من قبل وكالة المخابرات المركزية، وأعطيت للإيرانيين بعد موافقة كبار المسؤولين الحكوميين.

في صباح يوم سبت وبعد يومين من ظهور هذه المقالة، ذهبت أنا وسارة في البيك آب لنحضر الحطب. صرخ أحد الصحافيين: كولونيل نورث كيف تشعر تجاه المقالة التي نشرت في الواشنطن بوست، والتي تقول إنك يمكن أن تنال حكم الإعدام لخيانتك؟ أجبت: إذا كان هناك من إعدام فإنه يجب أن يجري في الملعب الأميركي، وبهذه الطريقة نبيع جميع التذاكر ونرسل العائدات إلى الكونترا.

وبينما كنت أصرخ من الشباك لم أنتبه إلى الصدمة والدموع على وجه سارة، ولم ألاحظ أنها تبكي إلاّ في منتصف طريقنا إلى التلة.

حضنتها ووضعت يدي على رأسها وقلت لها: «لا تقلقي يا حبيبتي كل شيء سيكون على ما يرام».

قالت: «يا والدي لا يمكنهم أن يحكموا عليك بالإعدام، إن ذلك يخالف الدستور!».

لقد سرّب بعض القصص السيئة المحققون في الكونغرس و«مكتب المستشار المستقل»، حيث بدأ المحامون وعملاؤهم يسبرون جميع مظاهر حياتي. كان المحققون مهتمين بالوضع المالي بصورة خاصة، ولم يتركوا حجراً دون أن يرموه. لقد أرسلوا عملاء إلى كاليفورنيا لإجراء مقابلة مع صديق ابني ستيوارت الذي ساعد في طلاء السياج، وكنت كتبت له شيكاً بقيمة ٣٠ دولاراً. اتصل بي والده ذات ليلة وقال: جميل أن نعرف أن لك أصدقاء في واشنطن يهتمون بك بشكل كافٍ ويقطعون كل هذه المسافة ليحضروا إلى هنا ويحدثونا عنك.

لقد لاحق محققو الكونغرس والمدعي العام المختص كل عمل وكل شخص كتبت له شيكاً، وأجروا مقابلة مع حاضنة الأطفال!

ذات يوم سبت بعد الظهر ذهبت إلى محطة البنزين لأعبىء خزان سيارة البيك آب، حدّق بي صاحب المحطة وقال: «حسناً لقد كان زملاؤك هنا هذا الأسبوع».

ـ ماذا تعني؟

ـ أنت تعلم.. رجال الحكومة.. لقد أخذوا سجلاّت العمل وسجلات الضرائب وكل شيء.

وقد حدث الشيء نفسه في المنشرة حيث كنت أشتري نشارة الخشب لاستخدامه في الفرن، ومرّة أخرى في الدكان القريب. لقد ذهبوا إلى الكهربائي الذي أتعامل معه، وكذلك إلى البنّاء. لقد أرسلوا عملاء إلى كنتكي، لأن مرتجعات الضريبة تضمنت بضع مئات من الدولارات من أملاك والد بتسي.

لم يكن هناك حدود لأي شيء. لقد حاولوا إجراء مقابلة مع القسيس حول اشتراكنا في الكنيسة. قال لهم: «أنا لست متآلفاً بما فيه الكفاية مع القانون ولكن ألا يوجد حصانة للقسيس؟» عندها ذهب العملاء دون أن يتلقوا الأجوبة.

إذا أحبك جيرانك ـ وكان جيراننا يحبوننا كثيراً ـ فإن بضع زيارات للمحققين كانت كافية لتضع العصي في الدواليب. إنها تجعل الناس تتعجّب: إذا كانوا مهتمين كثيراً بذلك الشخص، فلا بد أن هناك شيئاً مهماً به... يمكن أن تكون ردّة فعلي مماثلة لهم، فعندما يقرع بابك عميل فدرالي ويظهر لك بطاقته، فإن لذلك تأثيراً. لقد رأينا ذلك جميعاً على التلفزيون: إن رجال الشرطة الفدرالية جيّدون أليس ذلك صحيحاً. وهكذا يفكر الناس ويتساءلون: إنه كتوم نوعاً ما.. ربما هناك شيء ما خطأ..؟.

قبل انتهاء التحقيقات، أُجريت مقابلات واستدعاءات لجميع أصدقائنا وجيراننا من قبل محققي الكونغرس ومكتب المستشار المستقل. وإني أتفاجأ كيف لم يختلطوا بعضهم ببعض عندما كانوا يطرحون الأسئلة. هل كان آل نورث يقاتلون؟ هل كانوا يذهبون في رحلات؟ وقد سُئلت شقيقة بتسي؟ ما هي تكاليف إطعام الأحصنة والكلاب والقطط عندما يكون آل نورث خارج المنزل؟ فيما بعد ذهبوا وراء بتسي وأخذوا بصمات أصابعها وأقدامها ونموذجاً عن خط يدها وكل شيء.. كان ذلك مخيفاً.

كان موقفاً غريباً من حكومة عملت من أجلها سنوات عديدة، وهي تستعمل الآن سلطاتها البيروقراطية ضدي. اتصل المحققون وأرادوا إرسال ثلاثة عملاء إلى منزلي لمدة ثلاثة أو أربعة أيام لإجراء دراسة ميدانية. كان لدي أشياء أفضل يجب أن أقوم بها، ولكني كدت أن أقول لهم: «بالتأكيد تعالوا ليس لدي شيء أخبئه!».

في ذلك الوقت علمت الكثير وصار لزاماً عليّ أن أستشير برندان. قال لي: ليس على حساب حياتك، لا تسمح لأي شخص من أي وكالة حكومية بأن يأتي إلى منزلك أو أملاكك، لا تعطيهم أي شيء، قل لهم أن يتصلوا بي.

لم يكن محققو الكونغرس أو المدعي العام المختص الوحيدين الذين كانوا يطاردونني. ففي أوائل ١٩٨٧ علم مكتب التحقيق الفدرالي أن بعض الليبيين الموجودين

في الولايات المتحدة كانوا يجمعون معلومات عن مكان إقامتي، والطرق التي أنتقل عبرها وأوقات ذهابي إلى العمل، وذلك بهدف شن اعتداء أو محاولة اغتيال لي أو لأحد أفراد عائلتي. ولكن عندما اتصل مكتب التحقيق الفدرالي ببرندان لم تكن التوقعات وشيكة، وقد كنت موجوداً في أثناء المحادثة التي جرت على الشكل التالي:

المكتب: لدينا معلومات أن موكِّلك الكولونيل نورث يحتمل أن يواجه بعض الأخطار.

سوليفان: أنت تخبرني ذلك؟

المكتب: ليس لهذا علاقة بتحقيقات الكونغرس أو بالمستشار المستقل. لدينا معلومات عن احتمال إقدام أحدهم على محاولة قتله.

سوليفان: ومن يحتمل أن يكون ذلك؟

المكتب: لا أستطيع أن أعطيك المعلومات.

سوليفان: إذاً لماذا تتصل بي؟

المكتب: لأنه يجب تأمين بعض الحماية للكولونيل نورث.

سوليفان: أنا أوافق، هل أستطيع أن أتكل عليك من أجل ذلك؟

المكتب: إن تأمين الحماية ليس من مهامنا، كل ما نفعله هو أن نخبره بذلك.

سوليفان: بالتحديد ما هو التهديد؟

المكتب: آسف لا أستطيع أن أخبرك.

سوليفان: هذا شيء عظيم. ما المفترض أن نقوم به؟

المكتب: أقترح أن تتصل بوزارة الدفاع، فإن موكلك عسكري، ولديهم الأشخاص الذين يتعاملون مع هذا النوع من المشاكل.

سوليفان: هل يمكنك أن تخبرهم بهذا الأمر؟

المكتب: نعم إذا كان لديهم الصلاحية.

سوليفان: حسناً، دعني أتكلم بوضوح، إن نورث هدف لمحاولة قتل، يمكنك أن تقول لنا متى وأين أو من أو أي شيء آخر، ونحن من المفترض أن نمسك بالشخص المناسب في وزارة الدفاع الذي يمكنه أن يحصل على مزيد من المعلومات منك.

المكتب: لك ذلك.

بعد الظهر ذهب برندان إلى المسؤولين في قسم التحقيق في القوات البحرية، وسرعان ما علمنا أن مجموعة تسمّي نفسها «اللجنة الشعبية للطلاب الليبيين» ومركزها في فرجينيا كانوا يخططون لإحياء ذكرى الغارة الأميركية المضادة للإرهاب على ليبيا في نيسان/ أبريل ١٩٨٦. بعد أن اشتركت في هذه العملية هدّدني «أبو نضال» بالموت، وهو أحد

أخطر الإرهابيين في العالم. لكن يبدو أن «أبا نضال» لم يكن يتحرك بسرعة، لأن أحد رجال القذافي كان يحاول أن يعجّل بالموضوع.

في ذلك المساء أقام قسم التحقيق في القوات البحرية تدابير وقائية قرب منزلي، ونسّقوا ذلك مع شرطة المقاطعة وشرطة الولاية ومكتب شريف لودون. لم يقل أحد ذلك بشكل مباشر، ولكن كان لديّ شعور أنهم كانوا يأملون بإلقاء القبض على أولئك العناصر وهم يرتكبون جريمتهم (لو كنت مكانهم لقمت بالشيء نفسه).

ذات صباح وبعد تنفيذ التدابير الأمنية بوقت قليل، صمّمت أن أمر بمدرسة تايت في أثناء ذهابي إلى مركز عملي. وعندما غادرت المنزل تفحّص العميل الذي كان يرافقني أرقام السيارات المتوقفة في الشارع وكان معظمها يعود لسيارات الصحافيين. وعندما كنت في المدرسة حضر أحد المراسلين الصحافيين وقال إن إحدى السيارات التي كانت متوقفة أمام منزلنا قد سرقت. أثار ذلك قلق العميل الذي كان يرافقني لأنه لاحظ أن المرأة التي كانتُ تقود تلك السيارة لها ملامح عربية. وعلى الفور أنذر الشرطة المحليّة وقال لي: أسرع.. يجب أن نخرجك من هذا المكان.

سألته: إلى أين نذهب؟

إلى مقر قيادة مشاة البحرية، ستكون آمناً هناك.

قلت: كلا لن أذهب.. وإذا كان هناك مشكلة أمام المنزل، فإننا سنذهب إلى المنزل.

اتصلت من السيارة بجهاز التلفون المحمول إلى منزلي محاولاً التكلم مع بتسي إلا أنه لم يجب أحد.

عدنا بسرعة إلى المنزل، كانت السيارة الحمراء قد ذهبت، ولكن كانت هناك سيارتان للشرطة على الطريق وثالثة متوقفة في الشارع. كانت بتسي في المطبخ وكان يقف أمامها أحد عناصر الشرطة. بعد أن تركت المنزل كانت بتسي قد ذهبت إلى الإسطبل لتطعم الأحصنة، وكانت تضع معطفها على ثياب النوم عندما وصل العملاء، وعندما سمعوا حركة في الاسطبل شهروا مسدساتهم وصرخوا: أنت هناك قف دون حركة!

ذُهلت من ذلك وقلت للعملاء: هذه زوجتي.. أرجوكم ارحلوا.. استدعوا طائرات الهليكوبتر والكلاب البوليسية وسيارات الشرطة.. إنها ليست غلطتكم.. وأنا ممتن جداً لأن لا أحد منكم ارتجف عندما كان يسدّد مسدسه إلى زوجتي.. ولكن أيها السادة.. وداعاً.

تبيّن أن السيارة الحمراء الغامضة كانت تقودها مراسلة صحفية من فيلادلفيا، وهي سيارة صديقها ولم تكن مسروقة. وقد أخطأ أحدهم في كتابة رقم اللوحة مما يدل أنه ليس من الضروري أن تعمل في مجلس الأمن القومي حتى ترتكب هذه الغلطة.

عندما عدت أخيراً إلى عملي وجدت ورقة على مكتبي كتب عليها أنه يجب أن أتقدم من الجنرال توم مورغان مساعد قائد مشاة البحرية.

سألني: ماذا حدث هذا الصباح؟

وأخبرته القصة كاملة.

ذكّرني الجنرال أن تدابير الحماية قد اتخذتها الحكومة، ولم يكن هناك أي أحد يرغب في اغتيالي! وافق على أن تجري بعض التغييرات وقال لي إنها يجب أن تجري بخروج عائلتي بهدوء من المنطقة إلى حين اتخاذ تدابير أمنية أفضل. كان عليّ أن ألتحق في كامب لوجين خلال ٢٤ ساعة حيث فُصلت لبضعة أيام. لم يكن هذا اقتراحاً أو طلباً.. كان أمراً.

كان يمكن أن يجري الأسوأ، فقد اقترح أحدهم في وزارة الدفاع أن أنقل بشكل دائم إلى منطقة عسكرية آمنة في جزر ألوتيان على ساحل ألاسكا! قال برندان إنه من الصعب عليه أن يدافع عن موكل وهو يبعد عنه ٤ آلاف ميل، ووافق الجنرال مورغان وأوقف أمر النقل.

في صباح اليوم التالي حمّلنا السيارة وذهبنا إلى كارولينا الشمالية ترافقنا قوة أمنية، حالما غادرنا حضر عملاء من قسم تحقيقات مشاة البحرية إلى منزلنا وزرعوا معدات مراقبة وأمن في المنزل.. فيما بعد اتهمت بأنني قبلت زرع أجهزة أمان ومراقبة في منزلي بقيمة ١٣ ألف دولار عام ١٩٨٦، وبهذا السعر لم تكن من النوع الجيد. لقد أنفقت الحكومة الفدرالية حوالى المليون دولار على حمايتي أنا وعائلتي من شباط/ فبراير ١٩٨٧ إلى تشرين الأول/ اكتوبر من السنة نفسها، عندما توقفت هذه التدابير بناء على ضغط من عدد من أعضاء الكونغرس.

في كامب لوجين عزلنا في منزل على الشاطىء في طرف المعسكر. ولسوء الحظ لم يسمح لنا فصل الشتاء في كارولينا الشمالية بالتمتع على الشاطىء. قرأت القصص لسارة ودورنين وكنت ألعب مع الأولاد. بقي ستيوارت في المدرسة ومكثت تايت عند صديقة لها بحيث لا تغيب عن المدرسة. أمضينا وقتاً جميلاً وشعرت كأني أسد محجوز في قفص!

بعدما جهّز قسم تحقيقات البحرية منزلنا بأجهزة الأمن عدنا إلى وضع مختلف كلياً. كنا تحت حراسة ثلاثين رجلاً مسلحاً وفق ثلاث نوبات متتالية كل منها ٨ ساعات..

وأقول ثلاثين رجلاً. إني أعتبر نفسي غير متحضّر عندما يصل الأمر إلى قبول نساء للعمل مكان الرجال في أعمال تقليدية، ولكن كرجل متزوج وله ثلاث بنات، بدا أن فريق الأمن لم يكن متوازناً بالنسبة إليّ، فأنا أعرف كيف يفكر الشباب. بينما كانت تايت تصعد إلى السيارة كان بعض هؤلاء الشباب يراقبونها عوضاً عن مراقبة الطريق، ولقد أخذ الأمر يتجه نحو مزيد من السخرية، فعندما كان البنات يذهبن للتسوق كان يتبعهن خمسة شباب أينما تجوّلن.

قلت للجنرال مورغان: هل يمكنكم أن ترسلوا حراساً من الإناث؟ وبعد خمسة أيام وصل خمس نساء جميلات وانضممن إلى فريق الأمن. أعجب ستيوارت بالوضع، ولسوء الحظ أخذ اهتمام الشبّان من عناصر الأمن يتحول، ولكن نتج عن هذا التحوّل شيء جميل، وهوأن إثنين من عناصر فريق الأمن اللذين التقيا في منزلي تزوجا فيما بعد.

اعتدت على وجود الحراس حول منزلي، لقد أحببت هؤلاء الناس. كانوا محترفين ويجيدون عملهم، وقد شكرتهم للحماية التي قدموها لبتسي والأطفال. كانوا لبقين جداً. عندما كنت أذهب إلى الدكان القريب لشراء غالون حليب، أو إلى المصبغة لأحضر الثياب كان أحد الحراس يتطوع ليقوم بالعمل عني. «أرجوك أيها الكولونيل لا تزعج نفسك ابق هنا، أنا أهتم بذلك». لقد كنت غير مرتاح لكن هؤلاء الأشخاص كانوا دائماً أمام منزلي.

في البدء افترضت أنهم كانوا يقومون بالمعروف ربما بوحي من «قلب الخادم»، وبما أني كنت تحت الحراسة الأمنية لم أفهم إلّا بعد فترة ما كان يجري. لم يكن الأمر أن لا أحد في فريق الأمن يريد ـ بصورة خاصة ـ أن لا يحدث شيء لي، إنما كانوا يريدون أن لا يحدث شيء في أثناء مراقبتهم لي فقط.

عودة إلى الوراء. كنت أضحك من ردّة فعلي على الحملة الدعائية التي انتشرت بعد صرفي. عندما بدأت التحقيقات كل ما حدث بدا تافهاً. وبعدما كنت أظهر على شاشة التلفزيون ٦ أيام في الأسبوع صرت وجهاً مألوفاً. ورد في عدد ٩ تموز/ يوليو في صحيفة الواشنطن بوست ٢٣ صورة لي. سرعان ما شاهدت قمصاناً كتب عليها أوليفر نورث، وأزراراً أيضاً، وكان هناك دمى أوليفر نورث. أخبرني أحدهم فيما بعد عندما توقف بيع الدمى، أن صاحب المصنع استبدل الرأس واستبدل زيّ مشاة البحرية ببزّة إيطالية.. وها هي دمية ميخائيل غورباتشوف!

كان هناك ندوات حول أوليفر نورث.. في مجلة بيبول (الشعب) شرح أحد أطباء الأسنان في مقالة وضع أسناني، وعلى شاشة التلفزيون شرح أخصائي في الجراحة التجميلية كيف يمكن أن أقوّم أنفي المكسور، وأعيد أذني إلى الخلف بحيث لا أعود أشبه

هاودي دودي (والشيء المروع هو أن أطفالي لم تكن لديهم أية فكـرة حول من هـو هاودي دودي). كان هناك بطاقات وشرائط فيديو ومئات الرسـوم الكاريكـاتوريـة، حتى إنّ هناك من ابتكر طبقاً من الطعام أسماه أوليبرغر! يتألف من لحم مقطع وفوقه خس مقطع وجبنـة مقطّعة (نسبة إلى تقطيـع أو تمزيق الأوراق)، وقـد اقترح بعضهم أن أعمـل بائعـاً جـوّالاً لأجهزة الإنذار!

أما مجلة نيوزويك، والتي لم تكتب أي موضـوع جيد يتعلق بي، فقـد نشرت إعلانـاً يصـوّرني في أثنـاء التحقيقـات وعنـوانـه «هنـاك أشيـاء قليلة مثيرة في حيـاتـك مثـل مجلة نيوزويك». ونشرت الشركة التي صنعت إطار نظاراتي إعلاناً يصوّرني وأنا أضع النـظارات بعنوان: «لقد وضعت الإطار». كذلك نشر أحد المصارف البريطانية إعلاناً بصفحـة كاملة في صحيفة في لندن وعليـه صورتي وعنـوان: «لا أحد يمكنـه أن يحوّل أمـوالك عـبر العالم أفضل منا».

وأخيراً اضمحل هذا الجو التهريجي، ولكن الذاكرة ما زالت تحفظه. وحتى اليوم مـا زلت معروفاً لدى الناس.

سيقول البعض: أنت تبدو مخيفاً مثل أوليفر نورث..
وأجيب: الناس يقولون لي ذلك دائماً.
أحياناً.. أهرب من هذا الـواقع، ولكن النـاس يقولـون لي عادة «هـل أنت حقيقة أوليفر نورث؟».

معـظم الناس لـديهم فكرة مسبقـة عنّي وهم لا يخجلون من القول «كنت أتـوقعـك أطول قامة»، أو يمكن أن يأتي غريب فيقـول لي: لقد زاد وزنك يا كولـونيل. في البـداية ظننت ببسـاطة أنـه يمكنني أن أتجنب الشـهرة. عنـدما ذهبت مـع عائلتي إلى «عـالم ديزني» وضعت زوجـاً من النظارات الشمسيـة وقبعـة كبيرة، وكنت أخفض رأسي بحيث لا يـرى الناس وجهي. كان هذا التخفي يعمل لمدة ١٠ دقائق.. كنا عائـدين من «جبل الفضـاء» عندما صرخت امرأة كانت تقف في الطابور: انظر إنه أوليفر نورث.. مرحباً أولي ما هذه القبعـة المضحكة والنـظارات السخيفـة؟ وهكـذا أمضيت ٤٠ دقيقـة أوقـع عـلى بـطاقـات وأوتوغرافات بينما كانت بتسي والأطفال يركبون «جبل الفضاء».

في صيف عـام ١٩٩٠ وبعد رحلة بحـرية مـع برنـدان ظهـرت في بـرمـودا بشعـر طـويـل ولحيـة طويلة وكنت سعيـداً لأن أحداً لن يعـرفني. ولكن عندمـا ذهبت إلى الفندق صرخ أحـدهم: هذا أوليفـر نـورث.. إنها لحيـة جميلة يـا أولي. ذات مـرة أردت أن أذهب إلى مكتب المحامي دون أن يتعرف عليّ المتظاهرون المعادون للكونترا، والذين كانـوا يتجمّعون

أمام المبنى. وضعت شعراً اصطناعياً رمادياً كانت تستعمله والدة بتسي، وارتديت جاكيت جلد وسروال جينز، لم يتعرف عليّ أحد، حتى المحامي، وعندما ذهبت إلى مكتب المحامي باري سايمون صرخ وقال: كيف وصلت إلى هنا؟

أفظع عواقب الشهرة هي أن يطول الأمر أكثر من اللازم. إذا كنت في الكنيسة أو عند الحلاق أو كنت أتفرج على ستيوارت وهو يلعب كرة القدم كان الناس يقتربون نحوي ويسلمون عليّ ويلتقطون الصور ويأخذون توقيعي، ووصل الأمر إلى درجة أن بدأت بتسي تطلب مني ألاّ أظهر حتى لا نمضي وقتاً طويلاً.

في بعض الأحيان عندما كنّا نخرج معاً، كانت بتسي تذكرني بأن أكون لطيفاً مع الناس الذين يقتربون نحوي، قد يطلب البعض توقيعي عندما أكون أتحدث مع شخص آخر، وكنت أقول له: أنا آسف ليس لديّ شيء أكتب عليه. كانت بتسي تنهرني وتقول لي: خذ هذه البطاقة! ثم كانت تقول لي: «أنا أدرك صعوبة الأمر ولكن الناس الذين يطلبون توقيعك ليس لديهم أي فكرة من أنك توقفت ١٥ مرة في الساعة الماضية» طبعاً كانت بتسي على حق.

كنت أفاجأ بأن كل من يتقدم نحوي كان مؤيداً ولطيفاً. أنا أدرك طبعاً أن العديد من الأميركيين يستنكرون كل شيء قمت به، أو على الأقل يعتقدون أني قمت به، ولكن منذ اليوم الذي صرفت فيه، باستثناء بعض أعضاء الكونغرس والمدعين العامين، كان أكثر من ستة أميركيين فقط غير لائقين وقالوا أشياء كريهة أمامي. كنت أواجه هذه العداوة عندما كنت ألقي الخطابات خصوصاً في المناسبات السياسية، ولكن بشكل عام حتى عندما كان الناس لا يؤيدونني فقد كانوا مهذبين.

في بعض الأحيان.. في الشوارع أو في المطار.. كانوا يقولون: «لقد شاهدت عرضك» وكأنّ التحقيقات نوع من الأوبرا، أو «لقد شاهدت محاكمتك». ومع أن المحاكمة التي جرت بعد سنتين من التحقيقات لم تظهر على التلفزيون، لكني أفهم أنه بسبب أن التحقيقات كانت تشبه المحاكمة كان بعض الناس يقولون لي: لقد قرأنا كتابك مع أني لم أكتب أي شيء في ذلك الوقت.

عندما كانت أجهزة الإعلام تحضر إلى منزلي صباح كل يوم، استطاعت أن تحصل على بعض المعلومات عن حياتي العائلية في منزلي في ضاحية فرجينيا؟ الذهاب إلى العمل، قطع الأعشاب، الذهاب لشراء شجرة الميلاد. كان الناس الذين يشاهدون هذه المشاهد على شاشة التلفزيون يعتقدون أننا عائلة تلفزيونية ويشعرون كأنهم يعرفوننا. إنه شعور

مـربك أن يـأتي شخص غريب ويسـألني عن بتسي أو عن أحـد الأولاد بـالاسم. مـا زال البعض يسألني ما إذا كانت بتسي تحتفظ بالثـوب الأسود والأبيض الـذي كانت تـرتديـه في أثناء التحقيقات. لقد دعانا أناس كثيرون لم نعرفهم من قبل إلى منازلهم، ربمـا كنت أشعر بشكل مختلف لو كنت نجماً موسيقياً أو رجلاً سياسياً، ومـع أنني كنت بالتـأكيد أقـدّر هذا الدعم إلاّ أنني لم أكن مرتاحاً لكل هذا التركيز الإعلامي.

وقد حدث ذلك في الكنيسة أيضاً، لقد حضر العديد من الناس إلى الكنيسة بهـدف التحدث إليّ. وبالعودة إلى سنين مضت لم أكن متعاطفاً مع الرئيس ريغان عندمـا قال إنـه توقف هو ونانسي عن الذهاب إلى الكنيسة، لأن وجودهما كـان يعطل القـداس. ولكن في هذه الأيام، وبعدما رأيت من تعطيل القداس على مستواي، فهمت ما قاله ريغان.

لقـد افتقـدت التحـادث الـطبيعي الحـرّ مـع أشخـاص لا أعـرفهم، كنت أتمتـع بـالتحدث إلى من يجلس بجـانبي في الطائـرة. ولكن في هـذه الأيـام يسـأل النـاس أسئلة أو يـدلون بتعليقات حول نشاطاتي، وعندما لا يقـومون بـأي شيء من هذا فلأنهم يريدون أن يعاملوني بشكل طبيعي.

حتى هذا اليوم ما زالت عائلتي تتلقى كميات هائلة من رسائل البريد من أشخـاص لم نلتق بهم من قبل، ومن الذين يرسلون بطاقات المعايدة وخصوصاً في عيد الميلاد. كانت بعض هذه البطاقات تحمل توقيع: مواطن أميركي عادي، وبعضها تـوقيع واسم المـرسل. كل شهر كـانون أول/ ديسمـبر كنت أبحث أنا وبتسي في البـطاقات عن تلك الـواردة من أنـاس أعرفهم. أرسـل العديـد صوراً لمنـزلنا في فيلمـونت حيث ربيت، أو صوراً لمصنـع الصـوف الذي كـان يملكه والـدي، وأرسل لنـا بعض الناس الكعـك والحلوى وقد منعنـا فريق الأمن من أكله لأسباب أمنية.

دعني أضيـف، أن للشهرة بعض المنافع، وإحدى أفضل هذه المنافع هي أنها أعادت اتصالي بالعديد من الرجال الـذين كنت أخدم معهم في ڤيتنـام. لقد كتبـوا إليّ الرسـائل، وبعضهم حضر خطاباتي. لقد أيدوني بصـلابة، وكـانوا يعـرفون أن مـا كـانـوا يقرأونـه في الصحف ويشاهدونه على شاشات التلفزيون لم يكن صحيحاً.

إنه لمن العظيم أن أرى هؤلاء الشبـاب مجدداً وفي آخـر مرة التقينـا بها منـذ عشرين سنة كنت في سن الخامسـة والعشرين وكانـوا في سن التاسعـة عشرة. ومنذ ذلـك الوقت، صرنا جميعاً أكـبر في السن وأسمن وأصبح البعض أصلع. لم يـظهروا بـاللياقـة التي كانـوا عليهـا، وكنت لا أحب أن أفكر كيف أبـدو بالنسبـة إليهم. مع ذلـك أنه لمن العـظيم أن

ألقاهم مرة أخرى وأن ألتقي بعائلاتهم، كنّا نلتقي كثيراً لكننا لم نتحدث في الحرب وشؤونها

وهناك حسنة أخرى للشهرة، وهي أنه عندما أشعر بإحساس ما تجاه موضوع محدد فإني سرعان ما أظهر رأيي. لقد تحدثت عن العديد من القضايا، ومنها الحاجة إلى تحديد عدد الدورات لأعضاء الكونغرس. معظم أعضاء الكونغرس يأتون إلى واشنطن بنوايا طيّبة، لا يرغبون بإساءة استعمال ثقتهم أو سلب الأموال العامة، ولكنهم سرعان ما يتحوّلون إلى سياسيين محترفين يحصرون همهم في إعادة انتخابهم مرات ومرات. إن مدّة الرئاسة محدودة ولذلك أعتقد أننا يجب أن نضع تحديداً مماثلاً لمدة العضوية في الكونغرس.

ومن الحسنات الأخرى أيضاً تقوية أواصري العائلية. لقد مررنا بأيام صعبة لكنّا خرجنا من تلك التجارب بروابط أوثق من أي وقت آخر.

كنت أتناول غالباً طعام العشاء في المنزل، وقد أمضيت وقتاً أكثر مع أطفالي، مما جعلني أدرك كم من الوقت ضاع ولم أكن موجوداً مع الاثنين الكبيرين.

أخيراً هناك فوائد مالية للشهرة، أنا لا أتكلم عن عائدات الخطابات والتي ذهب معظمها لتغطية النفقات القانونية والأمنية، بل كان في عقلي شيء آخر أكثر تواضعاً. ففي هذه الأيام عندما أكتب شيكاً صغيراً، هناك فرصة من أن الشخص الذي يأخذ الشيك لا يصرفه بل يحتفظ به كتذكار. وهذا حصل في حسابي المصرفي عدة مرات.

(١٦)
سيركوس مكسيموس

لقد فوجئت كثيراً بهذه الضجة، فبعد أن شاهدت تحقيقات إيران ـ كونترا على شاشة التلفزيون لمدة سبعة أسابيع، وقبل أن أدلي بشهادتي، كنت أظن أنني أعرف ما سيحدث. ولكن عندما وصلت إلى قاعة مجلس الشيوخ كان المشهد أشد قساوة وأكثر صخباً من الهدوء والنظام اللذين يبدوان على شاشة التلفزيون.

كان أمامي مباشرة مجال ضيق بين طاولة الشهود ومحققي الكونغرس، وكان أكثر من ١٠ مصورين ومراسلين يصرخون مثل المجانين، وبعد عدة أشهر من تركيز الصحافة على «كبش الفداء» كما قال أحدهم، تعجبت لأن الجميع ما زالوا يريدون التقاط الصور. ولكن في الصباح الأوّل استمرت الكاميرات المحمولة تعمل دون توقف لمدة نصف ساعة، وأخيراً هدأ المصورون، ولكن في كل مرة كنت أحكّ أذني أو أزيح الكرسي، كنت كمن يعبث بعش حشرات. وفي إحدى المرات ارتفع الضوضاء إلى درجة أني لم أستطع سماع الأسئلة المطروحة عليّ.

جلس ٢٦ عضواً من لجنة إيران ـ كونترا على منصة عالية خلف المصورين، وعدد كبير من أركانهم كانوا يحدقون بي، وقد بدوا أقرب كثيراً مما كان يظهر على شاشة التلفزيون. كانت الوجوه في حركة دائمة: شيوخ، نواب، أركان، يمشون هنا وهناك يصفّرون لبعضهم ويقلّبون الأوراق ويمررون الملاحظات.

جلس خلفي مباشرة على طاولة كبيرة عدد من المراسلين والمعلقين مثل قطيع الثعالب التي تنتظر اللحم على الطريق. كانوا يتحدثون دائماً عن كل شيء من حالة الطقس إلى لعبة البيسبول إلى آرائهم حول آخر جواب لي، وكان هناك خلفهم أربعة صفوف من الكراسي لمسؤولين من الجناح التنفيذي ولحفنة من المواطنين الأميركيين الذين كان يجري كل ذلك باسمهم.

من مشاهدة الشاهد الأول، كنت أعتقد أن قاعة التحقيق تشبه المسرح حيث

الجميع ينتبهون وينظرون إلى جهة واحـدة، لكنّ الأمر هنـا كان مثـل جمهور يحضر مبـاراة رياضية، والشيء الوحيد الناقص هو باعة «الهوت دوغ» والتذكـارات التي تكون عـادة على مداخل الملاعب، ومع ذلك قيل لي إنه يمكنني أن أجد كل ذلك في بناية مجـاورة في شارع محاذٍ يدعى شارع الدستور.

سيركوس ماكسيموس، وهي قاعة التحقيق، كانت تبدو على شاشـة التلفزيـون أكبر ممـا هي عليه، وكـانت تذكّـرني بالقفص الصغـير الذي تحـتجز فيه الأسـود. كان أعضـاء اللجنة يجلسون هناك بكل زهو مثل الأباطرة الـرومان، وكـانوا ينـظرون من تحت أنوفهم، إلى مصارع وحيد، بينما كان الجمهور ينتظر طقوس الذبح!

لقد سال الكثير من الدم السيـاسي في هذه القـاعة. عـام ١٩١٢ جرت التحقيقـات حـول غرق السفينـة تيتانيـك تحت تلك الثريـات. وكـذلـك تحقيقـات تيبـوت دوم، ولجنـة مكارثي للتحقيقات المتعلقـة بالجيش وتحقيقـات ووترغيت. جميعهـا سمعتها هـذه الجدران. منـذ سنة لـو قال أحـدهم أنني سأنتهي هنـا لأدلي بشهادتي لكنت سـألته: من أي كـوكب أتيت؟

عندما دخلت إلى الحلبة صباح يوم الثلاثاء في ٧ تموز/يوليو ١٩٨٧ كان لديّ تفكـير حول: من هـم هؤلاء الناس؟ وماذا أفعل هنا؟ وعندما أخذت مكاني على طاولة الشهود في ذلك الصباح، كنت أدرك أن أمي كانت تتفرج على التلفزيـون، ومن المحتمل أن يشـاهد ذلـك أطفالنـا ـ على الأقـل في نشرة أخبار المسـاء أو في الصحف. (في الحلبـة الأولى كـان ملايين الأميركيين يشاهدون الوقائع على التلفزيون). كنت مرتاحاً لأن عائلتنا تمتعت بعطلة ٤ تموز/ يوليو مجتمعة: ذهبنا في زورق نحن وعائلة برندان سوليفان حيث كان ذلك أجمـل من الجلوس في غـرفة اجتـماعاتـه وتقليب الوثـائق، ولكني كنت أدرك قليلاً أن حيـاتنـا لن تكون متشابهة.

حتى اليوم وأينما ذهبت، ألتقي دائماً أشخاصاً يعرفونني من مشاهدة التحقيقات عـلى شاشة التلفزيون، كانوا يفاجأون بأني إنسان حقيقي وشاب يضحك، وأني أبـدو مختلفاً عن ضابط مشاة البحرية الجدّي والتصادمي الـذي شاهـدوه على الشـاشة، بعـد ستة أيـام من الإدلاء بالشهادات، افترض معظم الناس أن هذا شكلي الطبيعي العادي.

في الـواقع أنـا لست كـذلـك، فمنـذ أشهـر لم أسمـع إلا الأكـاذيب والتحـريفـات والتعرض لي ولنشاطاتي، دون عجب لقد غضبت من ذلك كله.

كنت أدرك أن بعض أعضـاء اللجنة كـانوا مقتنعين بـأني سـافـل، أو كـما وصفتني

النيوزويك في حكمة ملوّنة: «رامبو الدبلوماسية الطائش الذي يدير سياسة خارجية خاصة به من الطابق الأرضي في البيت الأبيض».

إذا كانوا يعتقدون الأسوأ نحوي فإن ذلك جيد لأني لم أكن متعلقاً أو معجباً بهم. بالنسبة إليّ كان العديد من أعضاء الكونغرس وأركانهم، ودون شعور بالعار، قد تخلوا عن المقاومة وتركوا الكونترا في الميدان مكشوفة ومعرضة لهجوم من جيش كبير مسلح، وها هم الآن يريدون إهانتي لأني قمت بما كان عليهم أن يقوموا به.

لكن خلافاتنا كانت أوسع من ذلك، فالعديد من هؤلاء الناس لم يقم بشيء في حياته أكثر من إدارة مكتب سياسي. من المفترض أن يكونوا خدام الشعب، ولكن العديد منهم ـ برأيي ـ كانوا يديرون آلات إعادة الانتخاب! لقد حوّلوا الكونغرس إلى مكان يتقاعد فيه السياسيون المحترمون.

لسوء الحظ ظهرت ملامح من مواقفي في إجاباتي. في نهاية التحقيقات قال أحد الأعضاء إني أبديت قلة احترام للكونغرس، لم أكن كذلك، إني أحترم الكونغرس كثيراً كمؤسسة وإني أعترف بحقها في جمع المعلومات بأسلوب جيّد وشريف.

ولكن هذا ما حصل خلال التحقيقات، وصل بعض الأعضاء إلى القاعة بعقل مفتوح، وطرحوا بعض الأسئلة لتوضيح المعلومات، وعلى الرغم من كل هذه المظاهر لم يكن كل هذا ندوة للبحث عن الحقيقة.

هذه هي السياسة، وإذا نظرت إليها بمنظار أكبر ترى أن هذه المعركة هي واحدة من ضمن صراع عمره أكثر من مائتي سنة بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية حول السيطرة على السياسة الخارجية الأميركية. كانت تحقيقات الكونغرس وسيلة يستخدمها الكونغرس للنيل من الرئاسة وحتى لإهانة رئيس محدّد. ولكن إرغام الشهود على الإدلاء بشهادة علنية إضافة إلى المثول أمام مدع عام مختص أحدث تناقضاً وابتعاداً. لقد كانت التحقيقات والمدعي العام المختص وسيلةً لكل من السلطتين التشريعية والتنفيذية لتجنّب حل المسائل الكبيرة التي تحدد سياستنا الخارجية. في صيف ١٩٨٧ كان البيت الأبيض يرغب في التخلي عن أي أحد أو أي شيء من أجل بقاء السلطات العليا في الإدارة. وبسماحها بإضفاء الصفة الجرمية على بعض أعمال الموظفين الذين خدموها، وجدت الإدارة نفسها بعيدة جداً عن القضايا الحقيقية التي تورطت فيها. كان ذلك جيداً للكونغرس وبمثابة أفضل هدية للصحافة.

في التحقيقات كما في وسائل الإعلام كان السؤال نفسه يطرح بأشكال عديدة: ما الذي يعرفه الرئيس؟ ومتى عرف ذلك؟ ولكن حتى لو كان ذلك خدعة أو رياء، كان

أعضاء اللجنة يعرفون الجواب قبل أن أبدأ شهادتي العلنية. وافق برنـدان على أن تسـألني اللجنة سؤالاً في جلسة خاصة دون حضـور وسائـل الإعلام قبـل تقديم شهـادتي العلنية، ودون مفاجأة كـان سؤالهم المحرق والملحّ هـو ما إذا كنت أخبرت الرئيس حـول موضـوع «التحويل». لقد شرحت أنني لم أبحث هذا الموضوع مـع الرئيس ريغـان، ومع ذلـك كنت أفترض أنه يعرف ما يجري، وأنه وافق على ذلك من خلال رؤسائي.

استمر ولع اللجنة «بالتحويل» خلال التحقيقات، ولقد ساعـد هذا الأمـر في صرف الانتباه عن أشياء كثيرة ـ كان الرئيس و«الإدارة» قد قاموا بها من أجل دعم الكونترا خلال فترة توصيات بولاند التي حظّرت دعم الكونترا، وتركت الانتباه مـركّزاً عـليّ ـ مما أظهـر ما كانت اللجنة والإدارة تريده. لقد كانت علاقة حميمـة استمرت لفـترة طويلة، وأدى ذلـك إلى تركي أنا وجون بواندكستر في العراء.

منـذ أيام لجنـة تاور وخـلال التحقيقات وفيـما بعد خـلال المحاكمـة، كانت سيـاسة الإدارة تقضي بإعطاء المحققين كل شيء يطلبونه. سلّم البيت الأبيض عشرات الآلاف من المـلاحظات والسجـلات والملفات التي كنت كتبتهـا خلال عمـلي إلى اللجنة وإلى المـدعين العـامين، ولكنهـا لم تقدم شيئـاً إلى محامي. وكـان هناك ميـل مزعـج من الإدارة ومن قبل الكونغرس والمـدعي العام المختص، وذلـك للكشف عن تفاصيـل العمليات السريـة التي قامت بها حكومتنا، في الوقت الذي كانت صحافة العالم بـأسره تطلع عليها، لم يظهـر أي اهتمام بأن حياة بعض الناس كانت في خطر.

كان أحد ضحايا هـذه العملية الجنـرال غوستـافو ألفـاريز، القـائد السـابق للقوات المسلحـة الهندوراسيـة، الذي كـان يساعـد حكومتنـا في دعم الكونـترا، في كانـون الثاني/ ينـاير ١٩٨٩ اغتيل قرب تيغـوسيكالبـا. طبعاً لقـد علم بعض مواطنيـه عن علاقتـه بحكومتنـا، ولكنه كان بأمان إلى أن أعلن عن دعمه لتدابير حكومتنا في مساعدة الكونترا.

لم يكن ألفاريز الضحية الوحيدة، لقد تعرض أشخاص كثيرون للازدراء والمضايقات والصرف من الوظيفة بسبب ظهور أرقام هواتفهم، لقد تعرض بنجامين بيزا، وزيـر الأمن الداخلي في كوستاريكا، للتهديد بالعنف والتهديد بإجراءات قـانونيـة ضده لأنـه سمح لنـا بأن نبني مطاراً سرياً.. في إسرائيل صرف أمـيرام نير من عمله في مكتب رئيس الـوزراء، والذي كان قد خاطر بحياته عندما رافقنا في رحلتنـا إلى طهران، والجنـرال رافايـل باستلو قائد القوات الجوية السلفادورية، الذي أُهين من قبل المـدعي العام المختص عنـدما أُلقي القبض عليه ومثل أمام هيئة المحلفين لدى وصوله إلى الولايات المتحدة من أجل المعـالجة الطبيّة.

لقد أُنذرت من قبل برغبة اللجنة في كشف الأسرار. لقد كان المحققون يعلمون أنني أُوفدت في مناسبات عديدة إلى أميركا الوسطى لإجراء مباحثات مع بعض رؤساء الدول وبعض كبار المسؤولين من أجل دعم الكونترا. لقد وعدت هؤلاء الأشخاص بأن أحمي هويتهم وأن لا أبوح لأحد بأنهم دعموا الكونترا. لم يثقوا تماماً بأن الولايات المتحدة تحفظ الأسرار، ولكننا كنا نؤكد لهم باستمرار أنهم بإمكانهم الاتكال علينا.

لقد سخرت التحقيقات من هذه الوعود، وحدث ما يشبه كما لو أنك أخذت أرشيف مجلس الأمن القومي ورميته في الشارع!

تساءل الناس ما إذا كنت خائفاً في أثناء التحقيقات، لقد كنت بالتأكيد غاضباً ومشمئزاً ومرتبكاً، وأحياناً مشاكساً، ولكني لم أكن خائفاً. كانت المرة الأولى التي جرّبت فيها الخوف هي في ڤيتنام، وهذا ما يفسّر عدم خوفي في غرفة تحقيق الكونغرس. عندما تصاب بطلقات نارية في أثناء القتال، يصبح كل شيء صغيراً بالمقارنة مع هذه التجربة. ما هو أسوأ ما يفعله بي هؤلاء الناس؟ وحسب ما أرى لا أحد منهم يحمل أي قنبلة! لم أكن أراهن على التمتع بهذه الأيام في تلك القاعة، ولكنني توقعت أن أتعايش مع هذه التجربة.

لقد كان السؤال الافتتاحي من جون نيلدز وهو كبير مستشاري أعضاء لجنة الكونغرس شعره طويل ومتعجرف.

نيلدز: كولونيل نورث هل تورطت في إجراءات بيع الأسلحة إلى إيران بهدف مساعدة الكونترا في نيكاراغوا؟

[كان الجواب نعم طبعاً. . ولكن أولاً كان هناك مقدمات وطقوس يجب أن تجريها أولاً].

نورث: بناء على نصيحة مستشاري إني بكل احترام أتمنّع عن الإجابة على هذا السؤال وذلك استناداً إلى المادة الخامسة من الدستور.

انطلقت همهمات القلق في القاعة التي تعني: انتظر. . هل هذا يعني أنه بعد سبعة أشهر من الصمت، والبلاد كلها تشاهد ما يحدث على التلفزيون، لن يتكلم ذلك الشاب؟

قبل أشهر ذهلت عندما قال لي محاميّ إنه عليّ الالتزام بالمادة الخامسة. قلت لهم: عمّاذا تتكلمون؟ إن المادة الخامسة معدّة للمجرمين. . إنها للجبناء. . إنها مشابهة لإعلان الذنب. لقد شاهدت نماذج من المافيا يلتزمون بالمادة الخامسة على التلفزيون. ليس لدي

شيء أخفيه. . سوف أذهب، إلى هناك وأخبرهم بكل شيء. أنا فخور بما قمت به.

أجاب برندان: أنا أعلم أنك. . ولكن ليس هذا ما نقوم به.

ثم تابع: اصغ. . إذا كنت أنا وإياك في طائرة وتحطمت في غابة خلف خطوط العدو، وقد حالفنا الحظ بالنجاة، فإني أتكل عليك حتى نخرج من هناك على قيد الحياة. حسناً. . . أنت الآن في غابة مختلفة ومن نوع آخر، وعليك أن تتكل عليّ. يمكن أن لا تحب كل ما أقوله لك «ولكن طالما أني محاميك فهذه هي الطريقة التي سنتبعها».

ما زلت غير مرتاح من استخدام حقي في المادة الخامسة، ولكن كالعادة كان برندان على حق. منذ البداية كان هو وزملاؤه يتوقعون احتمال محاكمة جنائية. أرادوا أن يتأكدوا أنه إذا ما أرغمني الكونغرس على الشهادة، فإنه يجب أن لا تستخدم إجاباتي ضدي في المحكمة إذا ما وجهت إليّ تهمة جرمية فيما بعد. وقد حصل ذلك. هذه الترتيبات تسمّى «استخدام المناعة» ومن أجل تنفيذها كان عليّ أن أبدأ بالإعلان عن حقوقي الدستورية علناً وبشكل رسمي حتى أتفادى تجريمي.

بعدها أعلن السناتور أنوي، وهو رئيس اللجنة المشتركة، حقيقة الأمر: إنك هنا لأنك استدعيت من قبل لجنتي مجلس النواب ومجلس الشيوخ، وإنه عليك أن تدلي بشهادتك، وإنه «لن يستخدم أي إثبات أو معلومات تمّ الحصول عليها مباشرة وغير مباشرة من هذه الوقائع ضدك في أي ملاحقة جرمية».

كان عليّ أن أعرف أكثر، لكنّي صدقته. فيما بعد وفي أثناء المحاكمة كان أول الشهود لي هاملتون رئيس اللجنة المشتركة في قضية إيران ـ كونترا. ولكن كل ذلك قد حدث، والآن اكتملت الشكليات واستمرت التحقيقات. لم تكن المادة الخامسة الموضوع الوحيد الذي اختلفت فيه مع المحامين، فقد حدث جدل بيننا حول ما إذا كان عليّ أن أرتدي الزيّ العسكري في أثناء التحقيقات أم لا؟ كنت معارضاً لذلك، كنت شخصاً غير معروف في الكونغرس، فإذا ارتديت بزة مشاة البحرية فلربّما أتخيل أن الكونغرس قد يعدّل موازنة مشاة البحرية!

لقد رأى المحامون ذلك بشكل مختلف؛ «أنت ما زلت في مشاة البحرية، وأنت تمضي كل يوم في قيادة مشاة البحرية وترتدي البزّة العسكرية ويجب أن ترتديها في أثناء التحقيقات».

عندما أصريت. . حثّني برندان على أن أسأل الجنرال كيلي قائد مشاة البحرية عن رأيه. قال لي الجنرال: «عندما أذهب للإدلاء بشهادتي عليّ أن أرتدي دائماً الزيّ

العسكري. . كل رجال مشاة البحرية يقومون بذلك وأنت عليك أيضاً التقيّد بذلك».

لقد حُسم الأمر. وهنا تبيّن أن برندان على حق، كنت أعتقد أن التحقيقات هي سياسية بالضرورة وقد كانت كذلك إلى حد كبير، ولكنهم كانوا أيضاً على مقربة من شيء معيّن أكبر من ذلك.

التلفزيون.

فيما بعد سيحضر الناس لتهنئتي أو لإظهار الإعجاب بالمحامي من أجل «نقل التحقيقات على التلفزيون». في بعض المجالات كانت تغطية التلفزيون لمصلحتي، وساعدتني في الحصول على المال من أجل الدفاع. وفي جانب آخر سهّلت التغطية لمكتب المدعي العام المختص باستخدام الشهادة ذات المناعة ضدي، لأن العديد من الناس سمعوها ورأوها، ولكن بغض النظر عما إذا كان ذلك قد ساعد أم تسبب بالأذى، فإنه لم يكن قراري، كان ذلك قرار اللجنة وليس قرارنا.

منذ البداية كان رأي برندان أنه بسبب إجراء تحقيق من قبل المدعي العام المختص واحتمال توجيه تهم جرمية إليّ، يجب ألاّ أشهد أمام الكونغرس أبداً. ومع أنه كان يدرك أنّ بإمكان الكونغرس أن يرغمني على الإدلاء بشهادتي، فقد أخبرهم في مطالعة مؤلفة من ٢٧ صفحة أن ليس لديهم سلطة قانونية لإرغامي على الإدلاء بشهادتي أكثر من مرة واحدة. قال للجنة: «لكم الخيار، يمكنكم أن تستجوبوا الكولونيل نورث في جلسة مغلقة أو علنية، وهذا يعود إليكم».

اختارت اللجنة المشتركة لإيران ـ كونترا أن أدلي بشهادتي أمام الكاميرات، وهو قرار أسفوا له فيما بعد*. لقد كان لذلك مغزى من وجهة نظرهم، لأني لم أحضر للشهادة، ولم أجر أي مقابلة صحافية، إنما الذي كان هو الاهتمام الشعبي بما كنت أقوله. كان الظهور أمام عشرات الملايين من الناس وعلى شاشة التلفزيون بالنسبة إلى أعضاء اللجنة أمراً لا يمكن مقاومته. لقد تذكّروا جميعاً ووترغيت، عندما برز بعض السياسيين الذين كانوا مغمورين، ومنهم هوارد بيكر ولويل ويكر وبيتر رودينو وسام ايرفين وبالطبع دانيل أنوي. لا يمكنك شراء هذا النوع من الدعاية، ولهذا جرى تنافس حاد على عضوية لجنة إيران ـ كونترا.

* لقد شاهد ثلاثة أرباع الأمة تقريباً قسماً من الشهادة على شاشة التلفزيون. واستناداً إلى إحصاء نيويورك تايمز وسي بي أس، فقد كان ٤٣٪ من الجمهور لمصلحتي في نهاية الأسبوع الأول من التحقيقات. وفي إحصاء مماثل أجري في آذار/ مارس كان ٦٪ فقط من الجمهور لمصلحتي.

في آذار/ مارس عندما اجتمعت اللجنتان في هيئة مشتركة للتحقيقات، تم تعيين ٢٦ عضواً، وفي الوقت الذي اتفق جميع أعضاء الكونغرس على أن عدد أعضاء هذه اللجنة بات كبيراً، لم يتطوع أي عضو بالتنحي عنها.

كان هدفهم «مواجهة الزمن»، أي فرصة الظهور أمام الكاميرات. لم يشأ أعضاء اللجنة في الواقع أن يطرحوا أسئلة، لقد فضّلوا إلقاء الخطابات، ولهذا تركوا الأسئلة التفصيلية لاثنين من «الرماة المعينين» وهما جون نيلدز وآرثر ليمان.

احتفظ السناتور أنوي بدوره كرئيس للجنة، ولكنّه تحوّل ضدنا في كل الجولات، ورأى معظم الأميركيين أنه غير عادل. ولم تساعده التحقيقات على تحقيق أهدافه، فقد هزمه السناتور جورج ميتشل، الذي بدا أكثر عقلانية منه، في الانتخابات لترؤس الأغلبية.

لم يكن ذلك سهلاً بالنسبة إلى نيلدز وليمان، كان عليهما أن يتبعا النص. لقد أمضيا هما وأركانهما أياماً في المقابلات والقراءة والتحقيقات الخاصة وطرح الأسئلة لإعداد نص معين. لم يسمح برندان بذلك في ما يتعلق بقضيتي، كان يعلم أن أقوى شيء في يد المدعي هو شهادة أدلي بها تحت القسم. لقد أراد محامي أن أذهب إلى هناك بسجل نظيف. لم يكن لدى نيلدز وليمان خطة عمل لهذا أُرغما على التفكير السريع والارتجال في الكلام.

قبل أسابيع من التحقيقات، حاول برندان وزملاؤه أن يحضّروني لتلك التحقيقات. كنت أحضر كل يوم بعد الظهر من مقر قيادة مشاة البحرية في أرلنغتون إلى مكتب وليامز وكونولي في قلب مدينة واشنطن من أجل التلذّذ بتمضية المساء أو نصف الليل في التدريب على الوقوف وراء القضبان!

كان المحامون يعرضون عليّ نص إحدى الوثائق التي كانت معدّة لذلك اليوم ويقولون لي: أخبرنا عن هذه المذكرة.

ـ لقد أرسلتها إلى مكفرلين قبل ذهابنا إلى إيران. هناك بوضوح بعض الأخطاء المطبعية، هل هذه مشكلة؟

ـ هيا يا أولي.. لا تكن فتى عاقلاً.. لديك ميل إلى المزاح ولكن لا تقم بذلك في أثناء التحقيقات.. إنهم يتوقعون منك أن تكون جدياً واعتذارياً.. على الأقل جدياً. ولكن لم يطلب المحامون مني الاعتذار أبداً ولم تكن لدي نية بذلك.

قال برندان: «يجب ألّا تكون مدافعاً، بل اعتمد الطريقة التي تشرح بها لنا دون غرور، هكذا يجب أن تتكلم أمام اللجنة.. قل الحقيقة فقط».

من الصعب عليّ أن أصف علاقتي الحميمة بالمحامين وخصوصاً مع برندان، لقد أمضيت وقتاً طويلاً مع برندان وزملائه، ولقد توصلوا إلى أن يعرفوني أكثر من أي شخص آخر ما عدا بتسي، وبينما كنّا نعمل مع بعضنا شهراً بعد شهر أقمنا علاقة شخصية وثيقة.

لم يكن ذلك عملاً عادياً بالنسبة إليهم، وقد ارتفعت الفاتورة إلى أكثر من مليون دولار قبل أن أتمكن من الدفع. ولكن كان واضحاً منذ البداية أن المحامين لم يسعوا وراء المال في هذه القضية. لقد اعتقدوا، وبكل صدق وتعاطف، أن ما يحدث لي كان خطأً، وفي بعض الأوقات كانوا متخوّفين أكثر مني. لقد أعجبت بهم وقدّرتهم إلى درجة أنني توقّفت عن سرد النكات المتعلّقة بالمحامين.

كان فريق برندان يتألف من خمسة عناصر ويواجه أكثر من ثمانين محامياً وعميلاً من مكتب المدعي العام المختص، وأكثر من مائة موظف ومحامٍ في لجان الكونغرس. ولكن كل عضو في فريق برندان أحضر هدية خاصة للفريق. لقد ذكروني بالوحدات العسكرية حيث لكل عنصر مهارته العسكرية الخاصة.

كان برندان هو الفيلد مارشال وسيّد التكتيكات القانونية وخبير في الاختبارات القانونية. فيما بعد وفي أثناء محاكمتي اعترف القاضي والمدعي العام أنه قام بعمل لامع مع بعض الشهود. لا يوحي وجه برندان بشيء. لقد راقبته وهو يجلس في أصعب اللحظات في أثناء التحقيقات والمحاكمة دون أن تتغيّر تعابيره. (إنه أصغر مما يبدو عليه، وهو يكبرني فقط بسنتين). ومع أني وثقت به تماماً، فقد كان يراجع كل قرار معي وكان يسمح لي الإدلاء برأيي عندما نختلف.

كان باري سيمون، الذي عمل مع برندان منذ سنوات، خبيراً في القانون وهو أكثر الأشخاص الذين أعرفهم أناقة (كان باري أصلع جزئياً ولن أفاجأ ما إذا كان قد أحرق بعض شعره في أثناء التفكير بقضية صعبة) وهو حائز على دراسات عليا في الكيمياء، وقد تخرج من مدرسة الحقوق في هارفرد، حيث كان رئيساً للمجلة القانونية. كان برندان يذكّرني بغموض رجال الدولة، بينما كان باري مباشراً وتصادمياً. كان له ذاكرة قوية جداً، ولم أستطع أن أختلف معه حول أي شيء إلا إذا كنت أملك الوثيقة التي تثبت صحة كلامي. وبعد وقت ليس بطويل صار يعرف عن موضوع إيران ـ كونترا أكثر مما أعرف.

كانت نيكول سيلمان مفاوضة بارعة، وهي أصغر عضو في فريق الدفاع، وفي إحدى المرات أخطأت بينها وبين ابنتي. كانت نيكول بحق سيدة «فن الممكن» ترى الممكن وتبحث عن الحلول، بينما كان الآخرون لا يرون إلا المشاكل. لقد أنعم الله عليها بمنطق

سليم وواضح وحس من المرح. كانت أيضاً كاتبة رائعة إذ كانت تعمل محررة في الصفحة الآسيوية في صحيفة وول ستريت جورنال.

انضم جون كلاين إلى الفريق عندما اتهمت عام ١٩٨٨ وأحضر معه موهبة هامة في البحث، يمكن لباري أن يذكر عن ظهر قلب عشرات الدعاوى ويقوم ببحثها. كان يعدّ مسودة التحركات وإيجازات الشرح ويرسلها إلى باري لمراجعتها بسرعة، وباري بدوره يعيدها إلى جون الذي يراجعها مرة ثانية ويعرضها على برندان. يجري برندان التنقيحات والتغييرات الأخيرة ثم يعيدها إلى جون ثم يعيدها جون مرة أخرى إلى برندان من أجل المراجعة النهائية قبل تقديمها إلى هيئة المحكمة. لم يتأخروا أبداً في مواعيد إيداع الوثائق. كان تيري أودونيل العضو الخامس في الفريق، وهو خبير في الأعمال الداخلية للحكومة. كان قد عمل في إدارة الأغذية ويفهم تعقيدات العمليات السريّة وأوضاعها القانونية. كان يعرف أيضاً عقليات العديد من المسؤولين الحكوميين الذين كان يتعامل معهم في تلك البيروقراطية. عندما أنذر مكتب التحقيق الفدرالي برندان بالتهديد الليبي، كان تيري هو الذي يعلم من هي السلطة الصالحة في وزارة الدفاع للاتصال بها ومراجعتها حول هذا الموضوع.

لقد تطلبت القضية عملاً كبيراً من جميع المحامين ومن عائلاتهم ومن المستشارين الاثنين في المكتب والسكرتيرات الثلاث الذين ناضلوا معنا. أحدهم وهو كريس كابوزي تخلى عن سنة دراسية في معهد الحقوق من أجل أن يبقى للعمل في هذه القضية.

لقد تعلّمت الكثير من المحامين وما زالت بعض نصائحهم عالقة في ذهني. في خلال أحد الاجتماعات مع برندان قال لي: «هناك عدة قواعد عليك أن تعرفها وتحبها. والقواعد الأكثر أهمية هي: قل الحقيقة دائماً.. لا تختلق أي شيء. ولا تدمر أي شيء.. لا تؤكد أي شيء للصحافة.. كما لا تنف أي شيء.. ولا تتكلم مع الصحافة أو مع أي شخص آخر.. وهذا يعني مع أي شخص آخر باستثناء بتسي». ثم تابع: «إذا اتصل بك أحد زملائك القدامى.. إليك ما يجب أن تقول له: أولاً: قل الحقيقة.. لا تكذب على أي أحد حول أي شيء حتى ولو أنك تظن أنك تساعدني. ثانياً: لا تختلق أي شيء ولا تدمّر أي شيء. ثالثاً: وكّل محامياً.. وإذا لم يكن عندك محامٍ اتصل ببرندان سوليفان وهو يوصي لك بأحد المحامين».

قال لي برندان ذات مرة: «تأكّد من أن إجاباتك صحيحة. أنت لم تخالف أي قانون. لا تبدأ الآن بالمخالفة. لا أحد يدخل السجن لما حصل في هذه القضية.. ولكن يمكن أن يدخل بسبب ما يقومون به الآن. يمكن اتهام الناس بسبب الكذب في شهادته

بعد أداء اليمين. قل الحقيقة - حتى حول أمور قمت بها وكانت خطأ. يمكنك أن تعتبرنا مجانين ولكننا هنا في مكتب وليامز وكونولي: لا نحب أن ينتهي زبائننا في السجن».

يستطيع كل من رأى شهادتي على شاشة التلفزيون أن يتذكّر أن برندان سوليفان كان إلى جانبي في جميع المراحل، يجلس على طاولة الشهود.

هناك فرق بين التحقيقات والمحاكمة هو أنه في أثناء التحقيقات يسمح للشاهد بأن يستشير محامية حول أي نقطة، مّما أدى، إلى عدد من المحادثات السريعة بيننا. علمت فيما بعد أن موضوع هذه المحادثات أوحى بجميع أنواع اللعب والنكات. قال أحد الكوميديين: إذا كنت تثابر على إعطائه الأجوبة فكيف سيتعلم إذاً؟

في بعد ظهر اليوم الأول من الإدلاء بشهادتي، تلقى برندان رسالة عاجلة من أحد زملائه السابقين في المكتب، قالت له والدته وهي مصابة بضعف في السمع إنه عندما كان برندان يحجب الميكروفون ويهمس إليّ، استطاعت أن تقرأ ما يقول من خلال حركات شفتيه، بعد ذلك كان برندان يرفع يده ويحجب شفتيه عندما يهمس إليّ.

في بعض الأحيان كان يذكرني بأن أتباطأ، لقد أشار إليّ في إحدى المرات بأني قد أجبت على النصف الأول لسؤال يتألف من قسمين، وفي أحيان أخرى كان يقول لي إنني لم أجب تماماً على السؤال وأنه عليّ أن أتوسّع في إجابتي. لقد أشار إلى عدة أفخاخ نصبت لي. وفي مرة أو مرتين عندما رأى أنني أفقد طبعي كان يخبرني نكتة. لكن أفضل مقاطعة له كانت عندما ينحني ويقول: مرحباً.. منذ برهة تحدثت أنا وإياك.. لذلك فكّرت أن أقول لك مرحباً، كن جدياً وإذا ابتسمت الآن فإني سأرفسك برجلي وأدمي ركبتيك».

لم يكن هذا تهديداً فارغاً، فبينما كنا جالسين إلى طاولة الشهود كانت وجوهنا معرضة لمئات الكاميرات، ولكن بما أن الطاولة كانت مغطاة بشرشف أحمر لم يستطع أحد أن يرى أقدامنا، وفي كل مرّة كنت أقول فيا كلاماً سخيفاً كان برندان يرفسُني بقوة.

في أول يوم قلت لنيلدز: لقد أتيت إلى هنا لأخبرك الحقيقة: الجيد والرديء والقبيح.

أووه...

وبعدها!

نيلدز: أين هي تلك المذكّرات؟

نورث: أي مذكرات؟

نيلدز: المذكرات التي أرسلتها إلى الأميرال بواندكستر تطلب فيها موافقة الرئيس؟

نورث: أعتقد أنني مزّقت معظمها. هل أحصل عليها كلها؟
أووه. . .

وبعد بضع دقائق.
نيلدز: يا سيّدي. . هل تتذكّر السؤال؟
نورث: لقد تمزّقت ذاكرتي.
أووه. .
كنت وقحاً كثيراً في ذلك الصباح، وعندما أخذنا استراحة لتناول طعام الغداء كانت ركبتي تؤلمني.

كانت التحقيقات محبطة لبرندان، لقد كان معتاداً ـ كمحامي محكمة ـ أن يقدم المرافعات أمام القاضي وهيئة المحلفين، لكن في خلال التحقيقات انحسر دوره الظاهر إلى بضع همسات واعتراضات عندما تبدأ اللجنة بالتصرفات المزعجة والتي كان يقوم بها أنوي.

فيما بعد وبعد ظهر اليوم الثالث وصلت الأمور إلى ذروتها عندما سألني آرثر ليمان سؤالاً افتراضياً.

سوليفان: سيّدي الرئيس. . هذا النوع من الأسئلة غير مناسب، ليس بسبب قواعد الإثبات وليس لأنك لا تستطيع أن تقولها في المحكمة، بل لأنها مجرد أحلام. . إنها تصوّرات. . دعنا يا سيّدي الرئيس.

أنوي: أنا متأكد يا حضرة المستشار.
سوليفان: جيّد جداً ـ جيد جداً ـ هذا ما نطلبه. .
أنوي: هل يمكنني أن أتكلم؟ هل يمكنني؟
سوليفان: نعم يا سيّدي.
أنوي: أنا أعتقد أن هذه ليست محكمة قضائية.
سوليفان: صدّقني أنا أعرف ذلك.

أنوي: وأنا متأكد من أنك تعرف أن قواعد الإثبات لا تنطبق على هذه الأسئلة.

سوليفان: أعرف ذلك. أنا أطلب العدالة. العدالة. أنا أعرف أن هذه القواعد لا تنطبق. . أنا أعرف أن الكونغرس لا يقر بامتياز المحامي؛ ـ الزبون وامتياز الزوج والزوجة ـ امتياز القسيس ـ النائب ـ أعرف أن هذه الأشياء هي خارج هذه القاعة.

أنوي: نحن نحاول أن نكون عادلين أكثر ما يمكننا.

سوليفان: ونحن نتكل على عدالتكم سيدي الرئيس. عدالتكم.

أنوي: دع الشاهد يعترض إذا رغب بذلك.

سوليفان: حسناً يا سيدي أنا لست شخصية ذات شأن. أنا هنا محامٍ وهذا هو عملي.

من كان يظن أن إعلاناً عن نباتات مزينة قد يستحوذ على خيال الشعب الأميركي؟ في ذلك اليوم وبعد الظهر عدنا إلى مكتب المحامي ووجدنا عشرات النباتات المزينة. وفي اليوم التالي كانت النباتات المزينة في كل مكان في البهو والممرات والمكاتب وخصوصاً مكتب برندان الذي أصبح مثل حوض زراعة النباتات.

هذا الكرم النباتي يمثل قسماً من دعم الشعب الأميركي. كانت التلفونات في مكتب وليامز وكونولي ترن أجراسها دائماً. وقد علق على البناية المقابلة للمكتب لوحة إعلان ظاهرة تتغيّر كل يوم. وفي اليوم النهائي للإدلاء بالشهادة كتب عليها: أولي ٦ كونغرس صفر، أما عند جيراننا في غريت فالز فقد علقوا أعلاماً ورايات على الأشجار المحاذية للطريق.

خلال التحقيقات وبعدها تلقيت مليون رسالة وطرد بريدي من الناس الذين شاهدوا ذلك على شاشة التلفزيون. كانت بعض الرسائل معنونة ببساطة: أوليفر نورث بطل أميركي. كانت تصل إليّ حتماً. أخيراً كان البريد يصل إلى مكتب وليامز وكونولي الذي امتلأ بالبريد، بحيث صعب العثور على بريد المكتب.

طلب مني إدوارد بنيت وليامز، أحد مؤسسي المكتب الذي يحمل اسمه، ما إذا كان بإمكان الفريق الأمني أن يعجّل بالبريد بحيث يمكن أن يعود المكتب إلى حالته الطبيعية. لكن لم تتوفر في ذلك الوقت الكلاب البوليسية المخصصة للتفتيش، وقد أحضر بعدها عناصر الأمن كلاباً من وكالات أخرى، ومن ضمنها البوليس المحلي ومكتب الكحول والتبغ والأسلحة.

تضمنت الرسائل التي وصلتني تبرّعات من أجل تمويل الدفاع، والتي رتّبها رفاقي في أنابوليس عندما صرفت. بعض الرسائل كانت تحوي دولاراً واحداً مع ملاحظة تقول: «أريد أن أساعد لكن هذا ما أستطيع أن أدفعه»، بعض كبار السن وقّعوا على شكات الضمان الاجتماعي، كان الدعم كبيراً جداً، ولوجستياً وعاطفياً.

وصلت كمية مفاجئة من الرسائل من بعض الناس الذين يعتبرون أنفسهم ليبراليين وكما قال أحدهم: «يمكن أن لا أحب أي موقف تتخذه، ولكن ما قلته في التحقيقات له

مغزى كبير، ومن الواضح أن الكبار رموك من المركب». ولتأكيد هذا الشعور أرسل إليّ الممثل لي ماجورز الجاكيت التي كان يرتديها في البرنامج التلفزيوني «فول غاي».

ثم كانت البرقيات أيضاً.. المئات والآلاف وحتى عشرات الآلاف، بعد أن أعلنت شركة الاتحاد الغربي عن حسم بالأسعار.. معظم البرقيات كانت محببة:

* سوف نسمّي أول ولد ذكر لنا أوليفر.

* الله يحبك وسيرزقك بالمال.

* تهانينا.. ولكن دعك من ذكر مقتطفات من الدستور والقانون، إنه يربك اللجنة.

* أهنئك من أجل وقوفك بوجه هذه «الضباع المرضى» التي وضعتك في جهنم.

* أنت تقوم بعمل رائع.. ارفع رأسك.. قبّل زوجتك وأطفالك.. داعب كلبك أنا ٨١، الأصدقاء هنا يؤمنون بك.

* أتوّجك يا سيد أوليفر ذابحاً للتافهين.

* أهنئك على انتصارك في الكونغرس.. أمسك بمركزك حتى ترتاح. الشعب الأميركي في طريقه إليك.

كانت بتسي أكبر داعم لي، صلبت ورائي خلال الاستجوابات، وكانت معي في الاستراحات، في بعض الأحيان كنّا نمسك بأيدينا ونصلي، وكانت تشد على رقبتي وظهري حتى أرتاح، وكانت تخفف الأمور بابتسامة أو بنكتة. كانت تعرفني جيداً ـ بحيث إنها استطاعت اختيار اللحظات المناسبة حيث كنت أتلمس طريقي للحصول على الكلمة المناسبة بحيث أتجنب استعمال اللغة التجديفية على شاشة التلفزيون.

في أول يومين من أيام الإدلاء بشهادتي شاهدت التحقيقات من المنزل، كان لدينا فكرة عن الجلسات وكيف تعقد، ووافقت أنا وبرندان على أنه لا حاجة إلى أن تعاني بتسي من هذه العملية المضنية. في اليوم الثاني عندما وصلت إلى المنزل متأخراً بعد إجراء تجارب على التحقيقات في مكتب وليامز وكونولي، كنت أجدها بانتظاري. كانت تترك لي شيئاً من طعام العشاء مع أني كنت أتناول الطعام في المكتب حيث كان يطلب برندان البيزا.

قالت: هذا ليس صحيحاً.. يجب أن أكون هناك معك؟

ــ هل تريدين فعلاً أن تذهبي؟

ــ .. نعم إنّ مكاني معك.. لا أريد أن يعتقد أحد أني لا أؤيدك.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، اتصلت ببرندان وسألته: هل يمكن أن تحضر معي بتسي غداً؟

أجاب: «بالتأكيد إذا كانت ترغب ـ والآن خذ قسطاً من الراحة».

ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت للنوم، علينا أن نستيقظ الساعة الخامسة، وأن أصل إلى مكتب المحامي لحضور الإيجاز الصباحي قبل أن نذهب إلى قاعة التحقيقات. كانت بتسي تعدّ الأطفال إلى رحلة وتجهز لهم طعام الغداء، وتراجع التدابير الأمنية مع الفريق الأمني.

كنت آخذ حبوب الأدرينالين، وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى قاعة التحقيقات كانت بتسي مرهقة، ومن أجل سبب غير واضح لم يسمح لنا بتناول القهوة. وقد لاحظت بعد الظهر أن الكاميرات كانت وراء ظهري، ولم أعرف سبب ذلك. هل كان من أجل إزعاجي بصوتها؟ علمت فيما بعد أن هدفهم كان بتسي التي سرعان ما نامت.

عندما عدنا إلى مكتب برندان كانت شبكات التلفزيون ما تزال تعرض مشاهد من التحقيقات. لقد جرحت مشاعر بتسي، ثم أخذت تعتذر لبرندان، لكنه أكّد لها أنه لا يوجد أي مشكلة في ذلك، قال: «في الحقيقة عندما تأتين غداً أريد منك أن تنامي مجدداً، إنه أفضل عمل تقومين به. إنه يظهر أنك واثقة جداً من زوجك إلى درجة أنك لا تعيرين انتباهاً لهذه التفاهات».

خلال الاستراحات، كان يسمح للشاهد ومحاميه باللجوء إلى مكتب مقابل القاعة، وهو يعود إلى أركان السناتور أدوارد كينيدي. كانت هناك أبواب على الطراز الفرنسي تفتح على شرفة حيث وضع أحدهم كرسياً هزازاً وبعض كراسي الشرفة. في استراحة الغداء في اليوم الثالث، حثّني برندان أن أقف أنا وبتسي على الشرفة لنحيي الجمهور المحتشد من المؤيدين. لم أشعر بالارتياح لذلك العمل، لكن برندان دفعني إلى الشرفة وقال: «لقد أتى الناس إلى هنا لمشاهدتك ونشجيعك.. هذا لا يتعلق بالتحقيقات.. دعهم يعرفون أنك تقدّر دعمهم».

لم أعلم حتى تلك اللحظة ما كان يحدث خارج البناية، ولكن حالما خرجنا إلى الشرفة سمعت هديراً كبيراً. كنت أتوقع أن أرى عشرات الأشخاص، لكن كان هناك الآلاف، والعديد منهم يحملون لافتات عليها عبارات الدعم والتأييد، كان ذلك كبيراً، وقد كنت مشدوهاً ولم أقل أي كلمة، كان ذلك تناقضاً دراماتيكياً لما يجري في الداخل.

هذا الاستقبال غير العادي لم يجر دون أن تلاحظه سلطات مجلس الشيوخ، ففي

صباح اليوم التالي عندما وصلت مجموعتنا إلى غرفة الانتظار، لاحظنا أن الأبواب المؤدية إلى الشرفات قد أغلقت وأقفلت.

لم تقتصر مظاهر التأييد على الشوارع فقط، فبينما كنا نمشي في الممشى الطويل في بناية راسل التابعة لمجلس الشيوخ في طريقنا من وإلى قاعة التحقيقات، كان الموظفون والسكرتيرات يقفون ويوجهون إلينا عبارات التأييد والتشجيع: «حافظوا على ذلك.. إنه عمل عظيم».

في اليوم الثالث بدأ أحد موظفي الكونغرس شيئاً سرعان ما تحوّل أحد الطقوس اليومية في وقت الغداء. كنت أقرع باب غرفة الانتظار ثم يطلب مني الذهاب إلى قاعة التحقيقات الخالية في ذلك الوقت، وذلك لالتقاط صور للموظفين والحجّاب وبعض أفراد عائلاتهم، وتوسّعت هذه العادة وانضم موظفو مجلس الشيوخ ومجلس النواب وشرطة الكونغرس وبعض أركان اللجان. وقد أصرّ أحد أركان السناتور أنوي أن يحضرني إلى مكتبه للتعرف على موظفيه والتوقيع لهم على عبارات تذكارية.

لكن هذه المشاعر لم تخترق جدران غرفة التحقيق حيث بقي الجو متوتراً. وكما توقعنا سألني نيلدز عن شهادات عدد من الشهود. كان ألبرت حكيم قد أخبر اللجنة أنه أعدّ حساباً لا تستطيع عائلتي تحريكه إلاّ في حال عدم عودتي من طهران. كان حكيم قد أكّد لي أنه يريد أن يتأكد من أن بتسي والأطفال سيكونون في أفضل حال إذا ما حدث شيء لي، قال: «لا تقلق سوف أهتم بهم».

وبناء على طلبه قلت لبتسي أن تذهب إلى فيلادلفيا للاجتماع مع محامي حكيم. لم يأت على ذكر المال أو الحسابات المصرفية، ولم يحوّل إلينا أي مبلغ من المال، أراد المحامي أن يعرف كم عدد أطفالنا وما هي أعمارهم. فيما بعد عندما عدت من طهران اتصل محامي ألبرت مرة ثانية ببتسي، لكنها لم تتصل به، ولم أسمع بهذا الحساب إلاّ في أثناء التحقيقات.

وهناك موضوع آخر هو النظام الأمني الشهير حول منزلي. مساء ٢٥ نيسان/ أبريل ١٩٨٦، وبعد ١١ يوماً من الغارة المضادة للإرهاب على ليبيا، تلقيت مكالمة من مكتب مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيق الفدرالي. لم تكن الأنباء سارة. في لبنان صرّح ناطق بلسان منظمة «أبو نضال» أنه تم تحديد عدد من الأهداف للاغتيال، ومن بينهم أنا.. لقد تم تسجيل هذا التصريح في شريط فيديو.

كان أول رد فعل لي هو أنه يجب أن لا تظهر هذه التصاريح على شاشات التلفزيون

في أوروبا وأميركا. غالباً ما تقوم المنظمات الإرهابية بأعمال عنف للفت الانتباه، ويمكن أن يلفت التصريح انتباه أشخاص ليس لديهم «استقرار عقلي» فيعتبرون أن هذه مناسبة للشهرة. في خلال الأيام القليلة اللاحقة قمت أنا والأميرال بواندكستر والناطق الصحافي في البيت الأبيض لاري سبيكس بجهد من أجل عدم إذاعة هذا الشريط في شبكات التلفزيون الأميركية.

بعد أسبوع ولّما لم يحصل أي شيء افترضت أننا لم نعد مستهدفين، لكن بتسي اتصلت بي هاتفياً وقالت إنها رأت شريط التهديد في نشرة الأخبار المسائية لشبكة سي.بي.أس. وكانت تشاهد النشرة هي والأولاد.. ولم يكونوا مسرورين بذلك.

رتب بوب ايرل إعادة بث الشريط بحيث يمكنني أن أشاهده. ظهر على الشاشة أبو بكر وهو الناطق باسم المجلس الثوري لحركة فتح. كان الأشخاص المستهدفون هم: أنا والجنرال جاك سينغلوب وإدوارد لوتواك وهو مستشار للشؤون الدولية في واشنطن. لم يكن أحد منهم متورطاً في التخطيط للهجوم ضد ليبيا، لكنهم كانوا مرتبطين ولو إعلامياً في نشاطات تتعلق بأميركا الوسطى والكونترا.

الآن... هناك تهديدات بالموت.. كان أبو نضال أخطر إرهابي في العالم.. إنه مسؤول عن موت مئات الأبرياء.

خطط أبو نضال لمجازر عيد الميلاد في مطاري روما وفيينا عام ١٩٨٥، حيث قتل أكثر من ١٠ أشخاص وجرح أكثر من مائة على يد مجموعة يحملون القنابل والبنادق الرشاشة، وكانت إحدى الضحايا الفتاة الأميركية ناتاشا سيمبسون البالغة من العمر ١١ سنة.

لقد كنت قلقاً جداً على سلامة بتسي وأطفالنا، بالإضافة إلى رحلاتي العادية إلى أوروبا وأميركا الوسطى، كنت أخطط لزيارة طويلة إلى طهران. اتصل بي أحد ضباط الجنرال سيمهوني من السفارة الإسرائيلية وأخبرني أنهم يعرفون جماعة «أبو نضال» وأن هذا التهديد جدّي. لقد أكّدوا تقارير مكتب التحقيق الفدرالي من أن «أبو نضال» له عملاء في الولايات المتحدة، وهكذا طلبوا مني اتخاذ خطوات فعّالة من أجل حمايتي وحماية عائلتي.

بناء على اقتراح مكتب التحقيق الفدرالي اتصلت بالشرطة السريّة والشرطة المحلية ووزارة الدفاع. أرسلت الشرطة المحلية ضابطاً للكشف على المنزل والمنطقة، وأعطى التوجيهات لعائلتي حول الاحتياطات التي يجب أن يأخذوها. لقد وعدوا بزيادة الدوريات

في محيطنا، واقترحوا علينا تركيب جهاز أمن وإنذار فوراً.

كنت أعلم أن الشرطة السرية تشرف على تدابير الأمن لعدد من مسؤولي البيت الأبيض ومن ضمنهم الأميرال بواندكستر ومكفرلين، بحثت هذه المسألة مع الأميرال ومع رود مكدانيل المدير التنفيذي في مجلس الأمن القومي، لكن لم يكن هناك الكثير ليقوموا به، لقد كنت وبكل بساطة «صغيراً جداً» وغير مؤهل للحماية الحكومية.

اتصلت بعدد من شركات الأمن الخاصة. لكن لم يستطع أحد أن يحضر إلى منزلنا قبل الموعد المحدد لزيارة طهران. وفي إحدى جلسات التخطيط لزيارة طهران سألني الجنرال سيكورد عمّا فعلته للرد على التهديدات بالموت، شرحت له أني أواجه مشاكل في تأمين الحماية الفورية لعائلتي فقال لي: «لا تقلق إن لي صديقاً يمكنه المساعدة». بعد عدة أيام عرّفني على غلين روبينات، وهو موظف سابق في وكالة المخابرات المركزية، ويملك شركة أمن. وصل روبينات إلى المنزل وأجرى كشفاً سريعاً وقال إنه يستطيع أن يركّز جهاز الأمن فوراً. . وبالفعل قام بذلك.

لم يرسل غلين روبينات الفاتورة ولم أطلبها منه، وفي خضم المأزق الذي أحاط بالتحضيرات لرحلتنا إلى طهران لم أتحدث مع ديك سيكورد عن الترتيبات المالية.

لم أفكر كثيراً بذلك إلّا حين صرفت، إدراكاً مني بأني لم أدفع ثمن الجهاز الأمني، اتصلت بغلين روبينات ـ كان في أميركا الوسطى ـ وعندما عاد في كانون الأول/ ديسمبر اتصل بي وطلبت منه الفاتورة، فأرسل إليّ فاتورتين بتاريخ سابق.

هنا قمت بعمل غبي فعلاً وخرقت إحدى قواعد برندان «لا تختلق أي شيء». تابعت اللعبة وأرسلت رسالتين زائفتين مؤرختين بتاريخ سابق أردّ فيهما على فاتورتين بتاريخ سابق لروبينات. كان عليّ أن أخبر برندان بما حصل، لكني ظننت أني أعرف أكثر منه.

وكان هذا ما قلته فعلاً أمام اللجنة.

نورث: أنا أعرف أني أخطأت فيما قمت به، وأنا أرغب في أن أجلس هنا وأعترف بذلك، لكني أقترح عليكم أيها السادة أنه إذا كان الجنرال سيكورد هو من دفع الفاتورة فأولاً: شكراً للجنرال سيكورد، وثانياً: عليكم أيها الشباب أن تكتبوا له شيكاً بقيمة المبلغ لأنه كان على الحكومة أن تقوم بذلك.

وبينما رأى بعض أعضاء اللجنة أن الاقتراح مقنع، كنت مقتنعاً أن عدداً منهم كان يعرف أكثر مما يظهر عن علاقتي بموضوع الكونترا في أثناء عملي في مجلس الأمن القومي.

كان ذلك صحيحاً بالنسبة إلى أعضاء لجنتي الاستخبارات في كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب واللتين كانتا تتلقيان تقارير في أوقات منتظمة حول الوضع في المنطقة. كانوا يعلمون تماماً أن الإدارة بشكل عام، وتحديداً أنا، نقوم بمساعدة الكونترا. يحتمل أن لا يعرفوا كيف جرت هذه المساعدة بالضبط، ولكنهم بالتأكيد علموا بها، وهذا هو السبب في أنهم طرحوا أسئلة مفصّلة في رسائلهم التي وجهوها إلى مكفرلين عام ١٩٨٥ وبواندكستر عام ١٩٨٦. لم يكن جميع أعضاء لجنتي الاستخبارات على علم بجميع الحقائق، لكن لم يكن أحد من الناس الموجودين في واشنطن والمهتمين بموضوع نيكاراغوا يعرف أن أوليفر نورث غارق إلى ما فوق أذنيه في مساعدة الكونترا.

خلال التحقيقات سألني نيلدز وليمان عن اتصالاتي مع الكونغرس في تلك الفترة، مفترضين أن لا أحد في الكونغرس لديه أي فكرة عما أقوم به. ودون مفاجأة، ركّز نيلدز على اجتماعي مع لجنة الاستخبارات في آب/ أغسطس عام ١٩٨٦ في غرفة الأوضاع.

نيلدز: هل كنت تتحدث إليهم شخصياً؟

نورث: كان ذلك بناء على تعليمات من مستشار شؤون الأمن القومي، تلقيت تعليمات للاجتماع برئيس اللجنة هاملتون وعدد من أعضاء اللجنة أيضاً.

نيلدز: وكانوا مهتمين بالحصول على أجوبة للأسئلة المطروحة في «قرار السؤال؟».

نورث: بالضبط.

نيلدز: نشاطاتك في التمويل؟

نورث: بالتحديد؟

نيلدز: الدعم العسكري للكونترا؟

نورث: هذا صحيح.

نيلدز: ورد في مستهل هذه المذكرة ما يبدو أنه وصف لما قلت في خلال الاجتماع. إنها تقول: «منذ صدور توصيات بولاند، يتحدث نورث عن «التضييق المالي للكونترا». هل هذا صحيح؟ هل شرحت «التضييق المالي للكونترا؟»».

نورث: لقد شرحت لهم أنه لم تعد هناك مساعدات مالية من الحكومة إلى أن يخصص المزيد.

نيلدز: وتقول إنك لم تنتهك برنامج الحقوق المدنية الإنسانية؟

نورث: لقد قمت بذلك.

نيلدز: لكني أعتبر أنك قمت بأكثر من ذلك ولم تخبر اللجنة عنه.

نورث: اعترفت.. إنه هنا وأمامكم سوف أقول للجميع، المستشار والأعضاء، أني ضللت الكونغرس.

نيلدز: في ذلك الاجتماع؟

نورث: في ذلك الاجتماع.

نيلدز: وجهاً لوجه؟

نورث: وجهاً لوجه.

نيلدز: هل قلت أمامهم كلاماً غير صحيح حول نشاطاتك لدعم الكونترا؟

نورث: نعم.. والأكثر من ذلك أنني قمت به بهدف تجنب وضع كهذا الذي يجري أمامنا، وتجنب إغلاق باب المساعدات أمام المقاومة النيكاراغوية، وتجنب إزالة مؤسسات المقاومة في ثلاثة بلدان في أميركا الوسطى.

نيلدز: نحن؟

نورث: حين وعدنا رؤساء الدول وبناء على أوامر محدّدة، ذهبت إلى هناك وأكدت لهم قدرتنا على كتمان السرّ.

نيلدز: نحن نعيش في بلد ديموقراطي أليس كذلك؟

نورث: نعم سيدي شكراً لله.

نيلدز: حيث يتخذ الشعب وليس كولونيل في مشاة البحرية القرارات السياسية الهامة للأمة.

نورث: نعم.

نيلدز: وكجزء من العملية الديموقراطية.

نورث: أريد أن أشير «كجزء من الجواب» أن ذلك الكولونيل في مشاة البحرية لم يتخذ كل هذه القرارات بمفرده كما أشرت في شهادتي البارحة يا سيد نيلدز، لقد طلبت الموافقة على كل شيء أقوم به.

لم تتغير وجهة نظره.. كان نيلدز وليمان، ومعظم أعضاء اللجنة جادين في إظهار أن كولونيلاً مرتداً قام بكل هذا العمل من تلقاء نفسه. كنت أعلم أن التحقيقات لن تكون جيّدة. وأفترض أنه لم يكن عليّ أن أتوقّع غير ذلك. بعد كل ما حدث كان الكونغرس هو من أعدّ جدول الأعمال ووضع القواعد، إنه الكونغرس من استدعى الشهود وحدّد الأسئلة، لقد كان الكونغرس من اختار أن لا يحقق مع نفسه لأنه تقلّب وتذبذب وكانت سياسته قصيرة النظر تجاه الكونترا.

كانت العملية بأكملها كما أشرت إليها في مقدمة إفادتي* مثل لعبة البيسبول حيث يكون أحد الفريقين حكماً. كان الكونغرس هو من يحدد الأهداف والضربات ويقرر من هو آمن ومن هو خارج اللعبة. إنه الكونغرس من يضيف على الرصيد وفي النهاية يعلن نفسه الفائز!

ولأثبت وجهة نظري.. قامت اللجنة بأعمال مخيفة في شهادتي. خلال أحد الأسئلة عرض ليهان نصّاً لإحدى توصيات بولاند، وجعلها تبدو كأنها وثيقة من صفحة واحدة. في الحقيقة لقد دفنت توصيات بولاند في قوانين المخصّصات الحكومية التي تقع في حوالى ألف صفحة. لكن هذا العرض الذي تضمن توقيع الرئيس أعطى انطباعاً بأن الرئيس كان قد قرأه وقال: «ها.. ها هي توصيات بولاند أعطني القلم بسرعة كي أوقّع عليها».

لم أكن الوحيد الذي كان لديه هذا الشعور، لقد اعترض عضو الكونغرس هنري هايد، من ولاية ألينوي، على هذا العمل. قال إنه خداعي، واعترض على الطريقة التي جرى بها وأضاف: «إذا حاولت ذلك أمام محكمة بلدية في شيكاغو وزورت عرضاً لتجعل نقطة ما نصف صحيحة تكون قد أظهرت عدم احترامك للمحكمة».

عندها أصدر «هايد» بياناً هاماً حول رياء ونفاق التحقيقات. قال وهو يعني الكونغرس:

«الآن وإذا لم يعجبنا قانون معيّن، يا كولونيل، وأنتم أيها الرفاق، علينا أن نتعلم ذلك مثل مجلس الأمن القومي والإدارة..» فقط نستثني أنفسنا.. نحن نستثني أنفسنا من «عمل الصحة والأمان».. نحن نستثني أنفسنا من الأخلاقيات في الأداء الحكومي.. لا مدعين عامين يلاحقوننا.. لنا لجنتنا من أخوتنا التي تهتم بذلك.. نحن مُعْفَوْن من فرصة العمل المتساوية.. ليس لأننا سياسيون.. فصل الموازنة.. اتركه. صوّت عليه اضحك على الناس ثم اتركه.. كل مرة يأتي ملحق للموازنة.. لا تنتبه إليه.

والآن إذا كنّا لا نستطيع أن ننكر القانون أو نعفي أنفسنا منه نكُن كمن يلهو مع هذه العملية. هل تعلمون كيف نزيد رواتبنا؟ هل تعلمون ما قمنا به في مجلس النواب؟ لقد انتظرنا وبإشراف رئيس المجلس وهو مدير المسرح إلى أن مضى ثلاثون يوماً كي نحوّله، عندها لا يمكننا أن لا نحوله، وهكذا نصوّت عليه.. ننتظر حتى ننحشر ثم نصوّت عليه. ثم نخبرهم عن ما لدينا: «أنا لم أصوّت لرفع الرواتب» هذه هي الطريقة التي نعمل بها ولذلك هناك الكثير ليتعلمه الناس من مراقبتنا».

---

* لم يسمح لي بالإدلاء بها إلّا في اليوم الثالث.

حتى هذا الوقت بدأت اللجنة تدمّر نفسها. جلست أنا وبرندان نتعجب بينما التفت أعضاء اللجنة بعضهم إلى بعض وإلى محاميهم. وخلال هذه المداولات انحنى برندان وأخبرني جملة مقتطفة من برنامج إذاعي مشهور عنوانه «الرقيب برستون» وهي: «حسناً أيها الملك لقد انتهت القضية». حقاً إنه لمن الصعب أن لا تبتسم عندما يقول محاميك هذا الكلام.

لم تكن توصية بولاند العرض السيّء الوحيد، فمع أنه كان معروفاً أن عائلتي كانت معرضة لخطر الإرهابيين الذين هدّدوني، فقد عُرضت رسالة كنت قد كتبتها أمام الكاميرا وهي كاملة وتحتوي على عنوان منزلي؟ شكراً.

كان هناك أيضاً تصفيق حاد حول الصور التي عرضتها على مجموعات مختلفة في واشنطن، ولأن هذا الموضوع كان موضوع مخاصمة، فقد فكّر عدد من أعضاء اللجنة أنه من المناسب لي أن أقوم بهذا الإيجاز أمام اللجنة مع عرض الصور. وسرعان ما أصبح عرض الصور مثار جدل بين أعضاء اللجنة، حيث كان العديد منهم يرفض أن يسمح لي بأن أقول كلمة لصالح الكونترا، وهكذا أُعلن أنه لأسباب أمنية لا يمكن إطفاء النور من أجل عرض الصور.

كان الأمر مثيراً للسخرية فالمكان يعجّ بالشرطة وعملاء الأمن في خلال التحقيقات، وكانت قاعة التحقيقات أكثر الغرف وقاية في العالم.

وكدليل على الحماقة، توصلت اللجنة إلى تسوية: بدلاً من عرض الصور والإيجاز، كان عليّ أن أحمل كل صورة في الهواء وأشرح عنها. كان ذلك سخيفاً، وكان الجميع يعرفون ذلك. لكنه كان أفضل من لا شيء.

حملت صورة لطائرة هليكوبتر سوڤياتية من نوع هيند ووصفت قوتها القتالية، كما أمسكت بصورة لكتاب مدرسي في نيكاراغوا يعلم الأطفال الحساب، وذلك بجمع القنابل اليدوية والبنادق الرشّاشة، كما أمسكت بصورة تظهر أحد الهنود من قبائل المسكيتو، وشرحت كيف طُرد من أرض أجداده، كما أمسكت بصورة لقيادة المقاومة: كانوا أحد عشر من أصل ١٦ سانديناً سابقاً.

كانت الإجراءات بكاملها غير جيدة، وهذا ما دفع الشعب الأميركي إلى القيام بهذا الردّ. ولكن حتى الظلم الوقح الذي التقطته الكاميرات لا يصوّر الانحدار بأكمله، ولا يمكنني أن أتذكر أي مناسبة أيّد فيها السناتور أنوي اعتراضاً للمحامي برندان سوليفان.

استمر الظلم إلى النهاية حيث ظهر في بيان أنوي الختامي مما أثار صدمة، فقد ذكر السناتور أنوي أنه بالاستناد إلى قانون القضاء العسكري الأميركي، الذي ينطبق على جميع الرجال والنساء في القوى المسلحة، فإن على المرؤوس أن يطيع أوامر رئيسه ما دامت الأوامر قانونية.

لم يكن ذلك صحيحاً.. لكنّ أنوي قفز فوق خط اللياقة والأصول وقارن إجاباتي بإجابات مجرمي الحرب النازيين!

أنوي: إن قانون القضاء العسكري يوضح أن أوامر الرئيس يجب أن تكون قانونية.. في الحقيقة إنه يقول إن على العسكريين أن يعترضوا على الأوامر غير القانونية.. هذا المبدأ اعتبر هاماً إلى درجة أننا ـ في حكومة الولايات المتحدة ـ اقترحنا أن يطبّق على الصعيد الدولي في محاكمات نورمبرغ.. وهكذا وفي محاكمات نورمبرغ قلنا إن حقيقة أن المدافع...

سوليفان: سيّدي الرئيس هل يمكنني أن أسجّل اعتراضاً؟

أنوي: هل يمكنني أن أكمل كلامي؟

سوليفان: إني أعتبر هذا تهجماً.. وأنا أرى أنك تقوم بهجوم شخصي على الكولونيل نورث.. وأنك قد ابتعدت عن المواضيع المتعلّقة بهذه القضية. أن ترجع إلى محاكمات نورمبرغ فهذا غير مستساغ لا شخصياً ولا مهنياً، وأنا لا أستطيع أن أجلس وأستمع إلى هذا الكلام.

أنوي: عليك أن تجلس هناك إذا أردت أن تستمع.

سوليفان: السيد الرئيس رجاء لا تنهوا هذه التحقيقات بهذه الملاحظة الظالمة.. يمكن أن تطرحوا أسئلة.. ولكن لا يمكن أن تهاجموه شخصياً.. إنكم بذلك تذهبون بعيداً.

وفعلاً ذهبوا بعيداً.. صحيح أن محاكمات نورمبرغ أبرزت الاستخدام الشهير لدفاع «الترخيص»، ولكن حتى لو لم تكن الإشارة إلى محاكمات نورمبرغ غير مناسبة ومثيرة للاشمئزاز، فإن هناك فرقاً كبيراً بين هذا وتلك: أولئك الناس تلقوا أوامر بقتل أشخاص.. بينما تلقيت أنا أوامر بأن أحمي الناس!

(١٧)
بندقية مدخنة في الخـزنة!

«أنصتوا. . أنصتوا. . أنصتوا. . هيئة المحكمة الموقّرة سوف تبدأ عملها. . الـولايات المتحدة الأميركية ضد أوليفر. ل. نورث وهي بـرئاسـة القاضي جيرهارد جيسـل». هكذا كانت تبدأ المحاكمة كل صباح، يوماً إثر يوم وأسبـوعاً إثـر أسبوع. هـذه العبارة أصـابتني بالمرض: الولايات المتحدة ضد أوليفر نورث. لماذا لا تكون شرطة الكونغرس ضد أوليفـر نورث؟ أو المستشار المستقل ضد الجناح التنفيذي؟ كل من هاتين العبارتين أدق وأصح من الأولى*.

سمعت من قبـل أن المحـاكمـة مثـل الحـرب، ويبـدو ذلـك صحيحـاً بـالنسبـة إلى المحامين، ولكنها ليست كذلك بالنسبة إلى المتهمين. في القتال، يسمح لك بإطلاق النار، لكن في هذه المعركة كان برندان وفريقه يطلقون النـار من أجلي، لقـد أدوا عملهم بشكل لامع ولكني كنت أتعذب لأني لم أستطع أن أرد.

في كل ليلة، كان فريق الدفاع يلتئم ويتمـوّن بالذخيرة والسلاح ويتحضر لمعارك اليوم التالي، وحالما يصل السجل اليومي يقـوم أحد المحـامين بمـراجعته والبحث عن ثغـرات في خطوط العدو، وينظر محام آخر في الإفادات السابقة للشهـود الذين سيمثلون غـداً، ومحام ثالث يمحص في آلاف الوثائق، بينما يقوم محام رابع بالتركيز عـلى الوثـائق والشهادات التي سنستخدمها كردٍّ على مرافعة الادعاء.

نظرياً يفترض أن المتهم بـريء حتى تثبت إدانتـه، ولكنه بـالتأكيـد لا يشعر كـذلك عندما يسمع مرافعة الادعاء. وكما ذكّرني المحـامون مـرّات عديـدة، يجب على الادعـاء أن

---

* لم أكن الوحيد الذي شعر بهذه الطريقة، فيما بعد كتب إثنان من القضاة الثلاثة في محكمة الاستئناف في معـرض نقض إدانتي: «نحن لا نؤيد المحـاكمات السيـاسية في هـذه البلاد، وهـذه المسألـة ليست مثل المستشار المستقل ضد الجناح التنفيذي أو حتى الكونغرس ضد الجناح التنفيذي».

يثبت النيّة الجرمية من أجل إدانتي بخرق القوانين. قال المحامون: «هذا لا يشبه تجاوز حد السرعة المحددة، عليهم أن يُظهروا أنك كنت تفكّر وتتصرف مثل أي شخص ينوي مخالفة القانون».

حاولت بتسي أن تحضر إلى المحكمة كل يوم، ولكن لم يكن ذلك ممكناً دائماً. كانت متطوعة لوظيفة مساعدة معلمة في صف سارة وصف دورنين، وكانت تصمم على المحافظة على عائلتنا بحالة أقرب ما يمكن إلى الطبيعية. وعندما كانت تحضر كان يرافقها بريان كوكس مساعد قسيس كنيستنا أو أي صديق آخر. (كان بريان يحضر غالباً لأن برندان كان يطلب منه إعداد الساندويش في مكتب وليامز وكونولي)، وعندما لا تحضر بتسي كان يحضر بريان أو أحد عناصر مجموعة دراسة الكتاب المقدس التي ننتمي إليها. وخلال استراحة الغداء كنّا نجلس مع بعضنا ونصلي بهدوء.

كانت المحاكمة مشهداً رهيباً بالنسبة إلى بتسي، كانت تنام قليلاً، في خارج المحكمة لم نشاهد بعضنا كما يجب بالإضافة إلى حضورها المحاكمات وتعجّبها فيما إذا كان زوجها وأب أولادها سوف يرسل إلى السجن، كان عليها أن تدير شؤون المنزل وتهتم بالأطفال، ولو نجح الادعاء لتوصلت في آخر القضية إلى فقدان الزوج والدخل والوقوع تحت ديون بملايين الدولارات.

حاول الناس مساعدتنا، سعى بعض الجيران وأعضاء مجموعة دراسة الكتاب المقدس لتحضير أطباق طعام بحيث يمكن لبتسي أن تسخّنها عندما تعود إلى المنزل، لكنه كان من المزعج والصعب أن نحافظ على الحياة الطبيعية للأولاد.

لقد أربكتهم أنباء المحاكمات، ومع أن قصتي ظهرت بشكل مفصل في أثناء التحقيقات في الكونغرس، فقد كانت وسائل الإعلام تبرز كل تهمة وكل إثبات كما لو أنها علمت بها للمرة الأولى. أتذكر عندما كشف النائب لي هاملتون، وهو أول شاهد ادعاء يدلي بشهادته في المحاكمة، أنه في آب/ أغسطس ١٩٨٦ التقيت مع أعضاء لجنة الاستخبارات في مجلس النواب في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض، وأنه ظن أن إجاباتي كانت مضللة، لقد تم بحث هذا كله في أثناء التحقيقات، ولكن الإجابات ظهرت في الصفحة الأولى وفي عناوين نشرات الأخبار المسائية.

رداً على أسئلة برندان اعترف هاملتون أنه لم يحدث أن اتهم أحد بالكذب على الكونغرس بهذا الشكل، وأنه لا يوجد سجل يعيّن الاجتماع الذي جرى في غرفة الأوضاع وأني لم أدلِ بشهادتي بناء على القسم. لكن هذه الأمور لم تبرز في الصحافة، عندما أرغموني على الإدلاء بشهادتي أكدوا لي أنه لا يمكن استعمال أي شيء أقوله في التحقيقات

من أجل الادعاء الجرمي بحقي، ولكن ها هي رئاسة لجنة إيران ـ كونترا تشهد ضدي في محاكمتي.

بعدما قرأ «رواية صحافية» حول شهادة هاملتون، اتصل بي ابني ستيوارت من المدرسة في ساعة متأخرة من تلك الليلة، ليسأل ما إذا كان ذلك يعني أني لم أقل الحقيقة في خلال التحقيقات في الكونغرس. قلت له لا. . هذه التهمة ليست لها علاقة بالتحقيقات. لكن ستيوارت لم يكن الوحيد الذي ارتبك حول هذه المسألة، حتى هذا اليوم ما زلت أسمع من بعض الناس أنهم افترضوا أني حوكمت لأني كذبت على الكونغرس في خلال التحقيقات.

أحد أسباب الارتباك هو أن المدعي العام المختص له خبراؤه الذين ينسجون الروايات ويقدمونها في إيجازات منتظمة إلى الصحافة. وفي جميع النيابات العامة ـ المدعي العام الفدرالي، المدعي العام المحلي وغيرهم ـ كان الأركان من المشهورين وغير اللبقين، لكن المدعي العام لا يرد على أحد. في كل استراحة وقبل كل يوم أشهد فيه وبعده، كان مسؤول العلاقات العامة في مكتب المدعي العام أو أحد مساعديه يحشد الصحافيين أمام قاعة المحكمة لتوضيح الشهادات والإثباتات. أما برندان الذي ما زال يتقيّد بقاعدة ـ لا تعليق ـ فقد فضّل أن يناقش القضية أمام هيئة المحلفين.

كانت المحاكمات أطول من التحقيقات وأكثر ضجراً منها. كما كان يعرف محامي أن المحاكمة الحقيقية تختلف عن مشاهد محاكمات «بيري ماسون» و«ل. أ. لو» التي كانت تصور مشاهد عاطفية ودراماتيكية. هناك لحظات أخّاذة في أثناء المحاكمات، ولكنها مغطاة بالأعمال الإدارية الروتينية والإجراءات والشهادات المتكررة. لم تكن تحقيقات الكونغرس نزهة ولكن ـ وعلى الأقل ـ انتهى دوري في ستة أيام.

خلال التحقيقات كنت قادراً على الإجابة على الأسئلة والتعليقات فوراً. كنت أشاهد الشهود الآخرين على شاشة التلفزيون وهم يدلون بشهاداتهم وذلك في غرفة الاجتماعات في مكتب برندان، وكنت أستطيع أن أقوله له جواب كل واحد منهم.

في المحاكمة كنت أجلس صامتاً دون أي حركة يوماً إثر يوم، وكان المدعون العامون يحاولون أن ينتزعوا من كل شاهد كلاماً يدينني. كل ما كنت أستطيع هو تسجيل الملاحظات. قال أحد المراسلين: «إن نورث يخربش مثل راهب العصور الوسطى». باستثناء هيئة المحلفين الذين كانوا يجلسون دون أي كلام، كان لكل شخص آخر عمل يقوم به، كان المحامون من الجانبين منهمكين في استجواب الشهود، وكان السكرتيريون منهمكين أيضاً في طباعة آلاف الكلمات الضرورية لتحضير المطالعة القانونية التي بلغ

حجمها ٨٥٠ صفحة، وكـان عناصر شرطـة الكونغـرس ومسؤولوها يتنقلون بـين الأروقـة للمحافظة على النظام، أو إيقاظ بعض «المحلفين النعسانين»، حتى القـاضي كان بـإمكانـه أن يقاطع ويطرح الأسئلة ويدلي بتعليقات، لقد شعرت وكأني متفرج غبي.

شعرت بازدراء نحو المدعين العامين، لقد سعوا للعمل بهذه القضية السيـاسية عـلى أمل أن تحمل لهم الشهرة، وعلى عكس المـدعين العـامين في القضـايا العـادية، فقـد كان هؤلاء مثل الجلّادين الذين ينفذون حكم الإعدام دون محاكمة! وهكذا، كم كنت مسروراً عندما أربكهم بعض شهودهم بما كانوا يقولونه من أشياء جيّدة عني.

تمّ استدعاء أدولفو كاليرو من قبل المدعي العام، وذلك بهدف تحويل القضية ضدي بسبب دعم المقـاومـة وفتـح حسـاب جـارٍ، وادعى عـليّ بجـرم سرقـة ٤٤٠٠ دولار من الشيكات السياحية. في أثناء استجواب برندان لكاليرو سأله:

سوليفان: هـل لك أن تخـبر السيدات والسـادة من أعضاء هيئـة المحلفين وبـأفضل طريقة من هو الكولونيل نورث؟ وماذا فعل لك؟

كاليرو: حسناً.. بالنسبـة إلينا كـان تقريبـاً المخلّص. نحن نشعر وكـما قلت إنه تم التخلي عنا، وشعرنا أننا لن نستطيع إطعام شعبنا، وأنه لم يعد هناك مجال في الحصول على الدعم من أي مكان. ثم فجأة تعرفنا على هذا الرجل وازددنا معرفة به على مـر الزمن.. وعلى الرغم من كون رجالنا نيكاراغويين وليسوا أميركيين، فإنهم كانو بـالنسبة إليـه بأهمية الأمـيركيين، فقـد قلق من أجلنـا وشعـر مثلنـا.. نحن نشكـره كثيـراً.. وكـما قلت أمـام الكـونغرس إن الشعب النيكـاراغوي يقـدم له جـزيل الشكـر والامتنان.. إلى درجـة أننا سننصب له تمثالاً عندما نحرّر نيكارغوا.

لم أكن أعلم ما الذي كان يتوقعه المدعي العام المختص من أدولفو، لكني أشـك في أنهم كانوا يتكلون على شاهد يريـد أن ينصب تمثالاً للمتهم. فيـما بعد تـطرق برنـدان إلى موضوع الشيكات السياحية.

سوليفان: هل تثق به؟

كاليرو: تماماً.. أود أن أقول إني أثق بالكولونيل نورث وأسلمه حياتي.. وهـذا أعز شيء أملكه.

سوليفان: يقول الادعاء في هذه القضية إن الكولونيل نورث سرق ٤٤٠٠ دولار من الشيكات السياحية العائدة لك.. هل تعتقد أن ذلك صحيح؟

كاليرو: كلا.

وفيما بعد

سوليفان: هل صرّح لك أحد في حكومة الولايات المتحدة أن الكولونيل نورث لا يعمل بشكل صحيح؟

كاليرو: أبداً. . أعني. . كما قلت من قبل وكما يظهر في الصورة [التقطت في البيت الأبيض عام ١٩٨٥] إنه الكولونيل نورث من أخذنا إلى الرئيس.

لم يكن كاليرو شاهد الادعاء الوحيد الذي خيّبت شهادته آمال المدعين العامين، لقد وصف تشي تشي كوينتيرو «تكريسي نحو الواجب» وسماه «عملاً فنياً»، كما سمّاني ديك غاد «بطلاً قومياً». أما جوزيف كورز، الذي أرسله كايسي إلى مكتبي عندما أعرب عن نيّته بدعم المقاومة، فقد قال للمحكمة إنني كنت حسب رأيه «بطلاً أميركياً رائعاً». عندما أنهى كورز الإدلاء بشهادته توجه إلى طاولة الدفاع ووضع يده على ظهر برندان وصافحني مما أثار خنوع المدعين العامين.

لو كان المدعون العامون تحركوا بمشاعر سياسية وشخصية أقل لاستدركوا هذه المشاكل، ولكنهم لم يكونوا قضاة نظاميين من وزارة العدل الأميركية، لقد طلبوا أن يعيّنهم مكتب المستشار المستقل، وهو الهيئة الغريبة التي أنشأها الكونغرس بهدف وحيد وهو ملاحقة عناصر الجناح التنفيذي*.

في القانون الجنائي العادي يعرض المدعي العام الجريمة، سرقة مصرف، قتل وغيرها، وتكون مهمته القبض على الفاعل وتقديمه إلى العدالة. ولكن في هذه العملية الغريبة فإن المدعي العام المختص له عمل مختلف: أولاً يحدد ويختار أحد العناصر من الجناح التنفيذي كمشبوه، ثم يحاول أن يحدد جريمة ارتكبها هذا الرجل الذي وقع عليه الاختيار! إنّ هذه العملية هي من بقايا مهازل المخابرات السوفياتية: «أحضر الرجل أولاً ثم فتّش عن الجريمة!».

نظرياً يتبع المدعي العام المختص لوزير العدل الذي يمكنه طرده، أمّا عملياً فقد بدا وكأن الكونغرس له وزارة عدل خاصة به! المستشار المستقل مستقل!. مستقل في القيود

* لقد أنشىء مركز المدعي العام المختص عام ١٩٧٨ عندما وافق الكونغرس على «أخلاقية الأداء الحكومي». منذ العام ١٩٨٢ عرف المدعي العام المختص بالمستشار المستقل، ولكن التعبير الأساسي يبدو أنه أدق. في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٦ عيّن لورنس والش في هذا المركز من قبل هيئة من القضاة. طلب وزير العدل تحقيقاً حول استخدام أرباح صفقات الأسلحة إلى إيران، ولكن وبناء على طلب الكونغرس فقد توسعت هذه المسألة الضيّقة وتضمنت كل شيء حتى صيد الأسماك دون رخصة!

المالية، مستقل في قيود الوقت، ومستقل عن ضرورة إظهار النتائج ضمن وقت محدّد. لقد تحوّل مكتب المستشار المستقل إلى آلة نافذة، دبابة تشريعية تطحن ضحاياها بغض النظر عن الحجم والوقت والمال. إنه من الصعب أن نحسب كم من أموال دافع الضرائب الأميركي قد أنفق في هذه القضية! ولكن وبينما أنا أكتب هذه الكلمات، وفي صيف ١٩٩١، بلغ مجموع ما أنفق أكثر من ٤٤ مليون دولار. وما زال الإنفاق مستمراً*.

عندما بدأت تحقيقات الكونغرس كان المدعي العام المختص في أوج تحرياته وتحقيقاته مع الأشخاص المتورطين في قضية إيران ـ كونترا. كان أول ضحية سيتز شانيل، وقد فرض ضغط قوي على هذا الرجل. بحلول شهر نيسان/ أبريل ١٩٨٧ حذّره المدعي العام المختص أنه إذا لم يقرّ أنه مذنب في التهمة الموجّهة الملفّقة له بالتواطؤ للاختلاس من خلال المؤسسة الوطنية للمحافظة على الحرية، وهي مؤسسة معفاة من الضرائب، فإنه سيواجه حكماً بالسجن من أجل مخالفات حول ضريبة دخله!.

في ٢٩ نيسان/ أبريل مثل شانيل أمام قاضٍ في محكمة فدرالية.

قال القاضي: أنت متهم بالتواطؤ في هذه القضية، وطبعاً نحن بحاجة إلى شخصين أو ثلاثة لكي يكون هناك مؤامرة، هل أنت جاهز لإعطائنا اسم أي من المتآمرين؟.

ـ نعم يا سيدي.

ـ هل لك ـ من فضلك ـ أن تقول من هم؟

ـ نعم.. الكولونيل نورث وهو مسؤول في مجلس الأمن القومي.

اتصل بي برندان وأبلغني بأنباء هذه التهمة التافهة، ولكن لم تكن نيّة الادعاء إحداث هذه الصدمة عندما أجرى هذا الحوار، كنا واعين لضعف شانيل، ومن ضمن ذلك عدم قدرته على دفع نفقات الدفاع، وهو شيء يعوِّل عليه المدعون العامون. وهكذا أصبح سبيتز شانيل الأول من بين متهمين عديدين وقعوا تحت عبء دين كبير ودمّرت

---

* يضم مكتب المدعي العام المختص في قضية إيران ـ كونترا أكبر عدد من الموظفين اجتمع حتى الآن في الولايات المتحدة: أكثر من ٥٠ محامياً و٧٥ محققاً وعدد كبير من الموظفين لأمور الدعم. إنه المكتب الوحيد في الولايات المتحدة الذي لا يتعرض للمراقبة ولا توجد قيود على موازنته. لقد تقاضى المحامون الذين استأجرهم المكتب أتعاباً فاقت أي رقم في الرواتب الفدرالية ـ أكثر من ١٠٠ ألف دولار سنوياً ـ ومن بينهم محامون تخرجوا حديثاً من كلية الحقوق. في وقت من الأوقات كان للمدعي العام المختص «والش» مكتب صحافي أكبر من المكتب الصحافي الخاص بوزير العدل في الولايات المتحدة. إنه مثل مؤسسة محاماة مستقلة يموّلها دافعو الضرائب الأميركيون والذين لا يقدرون على تحديد إنفاقها أو إلغائه. كذلك يدفع دافعو الضرائب فاتورة إقامة والش في ووترغيت، وفاتورة سيارته وسائقها وثمن تذاكر السفر من وإلى منزله في أوكلاهوما وبعض النفقات الباهظة للمكاتب في واشنطن.

سمعتهم وانتهى مستقبلهم المهني. لقد اختار أن يعترف بجرم صغير بدلاً من استمراره في قتال الوحش الكبير. أمّا أنا فقد اتخذت خياراً مختلفاً فأنا لا أستطيع أن أقول: إنني المتهم.

كانت الأشهر القادمة مكرّسة للاستعداد للتحقيقات، وتبع ذلك أطنان من الأعمال الإدارية القانونية لكلا الجانبين. في آذار/ مارس ١٩٨٨ اتصل بي برندان في قيادة مشاة البحرية، وطلب مني الحضور إلى مكتبه، قال: «من الأفضل أن تترك العمل باكراً هذا النهار هناك بعض التطورات».

كنت أعلم أن هذه العبارة لا تشير إلى أنباء سارة. عندما وصلت إلى مكتب وليامز وكونولي طلب مني برندان الجلوس وقال لي إن المدعي العام المختص قرر اتهام الأربعة: الأميرال بواندكستر والجنرال سيكورد وألبرت حكيم وأنا بتهم عديدة*.

كانت هذه أسوأ لحظة في جميع لحظات القضية، وإحدى أسوأ اللحظات في حياتي. يمكن أن تبدو التهمة كنهاية لمرحلة ما، لكنها في الحقيقة كانت بداية لمرحلة طويلة. كان عليّ أن أعرف أكثر كيف تُقدم هذه الحكومة، التي خدمتها أنا وبواندكستر لسنوات عديدة، على إنشاء هذه الهيئة، مكتب المستشار المستقل، والتي كادت أن تدمر حياتنا. لقد أمِلْنا لعدة أشهر أن لا تصل الأمور إلى هذه الدرجة وأن تنتصر العدالة في النهاية. ولكن التحقيق الجنائي، مثل التحقيقات التي جرت في الكونغرس، اقتصر على السياسة فقط.

لقد قررت للتو أنه إذا جرى اتهامي فإني سوف أستقيل من مشاة البحرية. لقد أوضح لي برندان أنه سيقوم بأي عمل ضمن القانون ليدافع عني، ويتضمن ذلك استدعاءً لرئيس الولايات المتحدة وكذلك أي مسؤول كبير آخر تبدو شهادته ضرورية.

لم يترك ذلك أي خيار لي، وببساطة لم تكن لدي نية بأن أكون أول ضابط يسبب

---

* ردّت هذه التهم من قبل هيئة المحلفين الفدرالية في ١٦ آذار/ مارس ١٩٨٨، لقد كانت ٢٣ تهمة تتضمن التآمر لاختلاس الولايات المتحدة، وإعاقة عمل العدالة والإدلاء بإفادات كاذبة، وسرقة ممتلكات الحكومة، والخداع، والإدلاء بإفادات كاذبة للكونغرس ووزير العدل، وتدمير وإزالة الوثائق. كانت ١٦ تهمة تنطبق عليّ وعندما بدأت محاكمتي تقلص عددها إلى ١٢.
في ٨ حزيران/ يونيه حكم القاضي جيسيل أن تتم محاكمة كل من حكيم وبواندكستر وسيكورد ـ وأنا ـ بشكل منفصل، بحيث يمكننا أن نستخدم الشهادات التي أدلى بها الثلاثة في محاكمة الشخص الرابع. أُدين فيها بعد سيكورد وحكيم بتهم مخفّفة، وأحيل الأميرال بواندكستر على المحاكمة، وحكم عليه بالسجن لستة أشهر.

مثول القائد الأعلى للقوات المسلحة الأميركية أمام هيئة محكمة تجري محاكمة لأحد الضباط. لقد أمضيت حياتي في مؤسسة تعتبر سلسلة القيادة فيها انضباطاً ضرورياً، وكانت هذه سابقة لم أشأ أن أشترك فيها، ليس لأنها تحط من قدر الرئاسة فقط، بل لأنها تضعف المفهوم العام لسلسلة القيادة*.

وهكذا وبكل نفور أعلنت استقالتي وطلبت إحالتي على التقاعد. لقد بكيت تلك الليلة وكذلك بتسي لأنها كانت تعرف ماذا تعني لي مشاة البحرية. لقد كانت هويتي وحياتي كل يوم منذ عشرين عاماً، وكنت أتوقع أن تستمر لمدة عشرة أو خمسة عشر عاماً أخرى. كان من الصعب عليّ تخيّل شيء غير ذلك.

لم يعد الجنرال كيلي قائداً لمشاة البحرية، وعندما أعلنت عن نيّتي في الاستقالة من مشاة البحرية، كنت أسمع عن الشعور بالارتياح عند كبار المسؤولين. كان تقاعدي سريعاً ومفاجئاً، لقد تمت الموافقة على تقاعدي بعد تقديم الطلب بمدة ٢٤ ساعة. عادة يتطلب الأمر مدة أسابيع للحصول على قرار بالتقاعد لأسباب صحية، لكني سمعت صباح اليوم التالي من الضابط المسؤول: «كولونيل نورث لقد تلقينا طلبك.. ولنا جلسة بعد الظهر».

الآن أدركت أنني لم أفتقد مشاة البحرية فقط، لقد افتقدت وجودي مع عناصر مشاة البحرية. كنت أهوى أن أستيقظ باكراً صباح كل يوم، وأعمل مع مجموعة من الرجال يجمعهم اتجاه واحد. لقد كانت حياة منظّمة لكنها مليئة بالمسؤوليات والمغامرات. افتقدت الروح الرفاقية، افتقدت ساعات العمل الشاق بصحبة رجال قساة وحيويين وموهوبين، افتقدت شرب القهوة السوداء في منتصف الليل، وافتقدت اشتراكي في ذلك المجتمع المجازف.

الآن ولأول مرة في حياتي لم يعد لي مكان أذهب إليه كل صباح. في اليوم التالي بعد تقاعدي، استيقظت كالعادة الساعة الخامسة والنصف وحلقت ذقني وارتديت ملابسي وذهبت إلى مكتب ويليامز وكونولي حيث أمضيت وقتاً طويلاً في الأشهر اللاحقة، ومع أن ذلك لم يكن مثل الذهاب إلى قيادة مشاة البحرية إلا أنه لم يكن مختلفاً عنه. كان المحامون يعملون مثل عناصر مشاة البحرية ويشتمون مثل عناصر مشاة البحرية وينظرون إلى عدوّهم بتلهف أكثر، فقط وبدلاً من استعمال البنادق والقنابل للقضاء على خصومهم،

---

* حدث فيما بعد أن قاوم الرئيس من أجل أن يمثل أمام المحكمة، لكن القاضي رفض أن يرغمه على الشهادة!

كانوا ينوون وبكل وضوح العمل على قتل خصومهم!

لكن سرعان ما كـان على المحـامين الانتقـال إلى مسرح آخر للمعـارك. بعد تـوجيه التهم بوقت قليل، كان على كـل من عمل في قضيتي في مكتب وليـامز وكـونولي أن يـترك البناية التي يقع فيها المكتب وأن ينتقل إلى مكتب خاص في شارع كونكتيكت، وذلك لأنه عـلى المحامـين من الجـانبـين أن يـراجعـوا عشرات الآلاف من الـوثـائق السـريّـة المتعلقـة بالقضية. لقد طُلب مـنّا العمل في «مؤسسـة المعلومات الحسـاسة»، هـذه المؤسسة كـانت مجموعة من المكاتب تحميها أجهزة إنذار وأمان معقّدة وحرس مسلح طوال اليوم.

كـان علينا أن نضـع بطاقـات تعريف عـلى ثيابنـا. كـان مـوظفـو مـراقبـة الـوثـائق والمعلومـات السرية يقتفـون أثر كـل وثيقة تـدخل أو تخـرج. كانت النـوافذ مغلقـة دائماً، وكانت الستائـر السوداء مسـدلة أيـضاً من أجل تفـادي التجسس الالكتروني والتصـوير. ومع أن هذه المؤسسة كانت تحتل الطابق الرابع من بناية حديثة، فقـد كانت وكـأنها داخل نفق مظلم تحت الأرض. كنا نسمي أنفسنا فئران «مؤسسـة المعلومات الحسـاسة» لأننـا لم نر ضوء النهار أبداً. كانت الجدران باللون الرمادي وزيّناها بشعارات أرسلها مؤيدونا من جميـع أنحاء العالم: قناعات إفريقية وصور وأعلام ودمى من الشرق الأقصى. كـريسي كابـوزي، وهـو المسؤول عن تبويب وتصنيف الـوثائق، أخـذ مقتطفـات من سجل خـدمتي في مشـاة البحرية أطلب فيه تحديد موقع خـدمتي وطبعه بأحرف كبيرة، ليـذكّر بـالمكان الـذي يجب أن أكون فيه فعلاً. «أطلب تعييني في وحدة متقدمة على طـرف الأمبراطـورية ومن المفضـل بطريقة مؤذية!».

لم يكن هذا المكان طرف الأمبراطورية.. إلاّ أنه كان مؤذياً.

مع ذلك كانت لدينا ضحكات كثيرة. قام باري سيمون بعمـل لحمايـة استراتيجيتنـا الدفاعية، وذلك بأن يوقع جميع الشهود الداخلين إلى المبنى بـاسم «الزائـر». ومنذ البـداية حـاول المحامـون أن يحافظوا على الأشيـاء في سجلات جيـدة. لقد أقـاموا احتفـالاً حيث دعيت أنا والأميرال بـواندكسـتر إلى قص الشريط، وأحضر المحامـون الشامبـانيا و. . مـاذا أيضاً؟ كعكة على شكل مفتاح!

ثم بدأنا العمل.. كنا خلال أكثر من سنـة نتناول طعـام الغداء والعشـاء في المبنى. طلبنا العديد من بيزا دومينو والطعام الصيني، وأخيراً دبّر برندان متعهداً للطعام ليقدم لنـا وجبة كل مساء على غرار وجبات المنازل.

أمضينـا ساعـات طويلة نتفحّص أطنـان الوثـائق التي قدمهـا الادعـاء إلى «مؤسسـة

المعلومات الحساسة»، ومن ضمنها الوثائق التي عملت فيها أو كتبتها خلال خدمة خمس سنوات في مجلس الأمن القومي. لقد تطلّب الأمر أسابيع لتفحّصها ليس لأنها كثيرة بل لإنها كانت مختلطة ببعضها.

لقد رتّبت الوثائق الصادرة عن مكتبي بموضوعها وتاريخها، وهكذا مثلاً كانت جميع ملفاتي حول المنظمات المسلحة الفلسطينية موضوعة في جارور واحد في خزانة مرتبة حسب زمن ورودها. لكنّ الملفات التي تسلمناها في مبنى المؤسسة كانت مختلطة ببعضها وكأنها أعشاب طبية معدّة للغلي! كنت أجد وثيقة مؤرخة عام ١٩٨٥ حول الوضع العسكري في أفغانستان يتبعها تحليل صادر عام ١٩٨٣ حول الاقتصاد السانديني.

بعد عدة أسابيع من التوضيب والترتيب تبيّن لي أننا لم نحصل على كل ما نريد. كانت بعض الوثائق التي ما زلت أذكرها غير موجودة، وكذلك شرائط تسجيل الاجتماعات التي عقدتها مع الإيرانيين. قلت للمحامين: «هناك المزيد.. أنا أعرف أن هناك المزيد».

حقاً كان هناك المزيد.. وشكراً لعناد وتشبث باري سيمون وخطبه الرنّانة التي على أثرها، وبعد أشهر من النكران، عثر المدعون العامون فجأة على ما كنّا نطلبه. كانوا يعملون منذ أكثر من ١٨ شهراً، ولكنهم كانوا قد نسوا هذه الوثائق، وأخيراً سمح لنا بالذهاب إلى بناية المكتب التنفيذي القديمة.

عندما دخلنا إلى الغرفة التي كانت تخزن فيها ملفاتي، وجدنا أنه قد تم نقل ثمانين صندوقاً من الكرتون التي تحتوي على وثائق من المكتب، ودهشنا لأنه لم يزعج أحد من مكتب المدعي العام المختص نفسه ويراجع هذه الوثائق. لقد تم اختيار وثائق عشوائية، وتم تحديد بعض الصناديق على أنها قد تمت مراجعتها من قبل عملاء مكتب التحقيق الفدرالي، ولكن لا أحد من هؤلاء المحامين الذين يتقاضون أجراً عالياً والذين يعملون في مكتب المدعي العام المختص قد نظر إلى هذه الملفات.

جلست أنا وباري ونيكول وجون هناك لمدة أيام ننكب على الملفات وندوّن أرقام الوثائق التي كنا بحاجة إليها. هنا كانت شرائط التسجيل والمذكرات التي كنت أقول عنها للمحامين.. وهنا كانت وثائق الهندوراس التي أظهرت الدعم الواسع الذي قدمته الإدارة للكونترا خلال فترة توصيات بولاند. إذا كنت قد مزّقت نصف ما قاله الناس، فإن كل هذه الوثائق كانت ستختفي.

كان الوقت يمر، وقد عثرنا على هذه الصناديق في تموز/ يوليو ١٩٨٨ وكان من المقرر أن تبدأ المحاكمة في ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨. كانت الصناديق الثمانون سبباً

وجيهاً من أجل طلب تأجيل المحاكمة. لقد كنا بحاجة إلى وقت لمراجعة هذه الوثائق والسماح بالاطلاع عليها والحصول على إذن من القاضي لاستخدامها في المحكمة.

كنت قلقاً بشأن الجدول. فإذا تقرر أن تبدأ محاكمتي في أواخر أيلول/ سبتمبر فإنها من المؤكد ستؤذي الجمهوريين في الانتخابات الرئاسية. لقد أوضح ذلك الديموقراطيون: في ليلة افتتاح المؤتمر الوطني استشهد اثنان من المتكلمين بإيران ـ كونترا. إن الإعلام الذي يرافق المحاكمة من شأنه أن يصبّ الزيت على النار. ولأن على الادعاء أن يحدد القضية قبل أن يتمكن الطرف الآخر من الإجابة، يمكن للدفاع أن يبقى صامتاً إلى ما بعد يوم الانتخابات.

كتب برندان للقاضي: إن المحاكمة في أوج الحملة الانتخابية تحوّل هذه القضية إلى مسألة من مسائل السنة الانتخابية، وذلك على حساب حق أوليفر نورث بمحاكمة عادلة ونزيهة.

في ٥ آب/ أغسطس وعلى ضوء العثور على الثمانين صندوقاً وافق القاضي جيسيل على تأجيل المحاكمة.. وأخيراً بدأت في ٢١ شباط/ فبراير ١٩٨٩.

تبين أن الصناديق الثمانين لم تكن لها أي قيمة للدفاع عني. ومن ضمن المنافع التي حصلنا عليها منها المعلومات اللازمة لمواجهة أحد الشهود الأساسيين للادعاء وهو: روبرت مكفرلين.

لقد كنت قد بحثت موضوع مثول روبرت مكفرلين كشاهد ادعاء في محاكمتي حيث كان بليداً بشكل غير عادي. قال للمحكمة ذات مرة: «أنتم لا تكذبون.. أنتم تبنون تفسيراتكم حول ماهيّة الحقيقة»! وعندما سأله المدعي العام ما إذا كانت رسالته عام ١٩٨٥ إلى النائب هاملتون صحيحة، أجاب بلهجة مكفرلينية: «كما هو مكتوب لا.. وبشكل عام أعتقد ذلك.. ولكن من الخطأ أن نكتب ذلك.. أنا أوافق.. أنا أخطأت».

لقد كان مؤلماً أن أجلس هناك وأراقب رجلاً كنت متأثراً به وأخدمه كثيراً وهو ممزق. المدعون العامون الذين جعلوا من مكفرلين الشاهد الأبرز ضدي لم يتركوا هذا الرجل المحطّم سيّىء الحظ دون أن يهاجموه. لقد سخروا من الرسائل التي كتبها في أثناء محاولته الانتحار عام ١٩٨٧، حتى إن القاضي انضم إلى الادعاء بأن مكفرلين قام بجهود كبيرة ليبعد نفسه عني ومما كان قد طلب مني أن أقوم به.

مع أن مكفرلين قد أعلن أنه مذنب بتهمة تضليل الكونغرس عام ١٩٨٥ و١٩٨٦ وصدر حكم بحقه، فإنه ما زال لا يعترف بأنه حاول إخفاء معلوماته، وكذلك موافقته

على ما قمت به من أجل دعم المقاومة النيكاراغوية. عوضاً عن ذلك انفجر أمام المدعي العام، وبعد أحد الانفجارات حول موقف الشاهد، قال عنه القاضي جيسيل إنه «شاهد لا يمكن الاعتماد على كلامه».

لقد آذاني مكفرلين بشهادته وتسبّب بالضرر الكثير لقضيتي. كان من المؤلم سماع شهادته حول ما كان يعرفه عام ١٩٨٥. كانت مهمة برندان هي أن يوضح أن مكفرلين كان يعرف أن أعمالي كانت تتم بموافقة رؤسائي. أخذ يسأل مكفرلين من خلال السجل الخطي، وكانت كل خطوة تظهر أنه لم يكن يعلم بما كنت أقوم به فقط، بل كان موافقاً عليه أيضاً. عندئذ جعل مكفرلين يُجمل ما كنت أقوم به من أجل المقاومة.. ولماذا.

سوليفان: أنت طلبت وفي الحقيقة أنت أعطيت توجيهات للكولونيل نورث بأن يبقي المقاتلين من أجل الحرية أحياء جسداً وروحاً.. هل هذا صحيح؟

مكفرلين: نعم.

سوليفان: وأنت أوصلت إليه أمر رئيس الولايات المتحدة بالمحافظة عليهم أحياء جسداً وروحاً... أصحيح هذا؟

مكفرلين: صحيح.

سوليفان: ولم تخبره أن ذلك أمر وتوجيهات منك فقط، بل هو أمر من الرئيس وتوجيهات منه بأن يقوم بما يستطيع للمحافظة عليهم جسداً وروحاً أصحيح هذا؟

مكفرلين: نعم.

سوليفان: وخلال الفترة ما بين ١٩٨٤ و١٩٨٥ وحتى نهاية ١٩٨٦ لم يكن الكونغرس يؤمّن التمويل العسكري للمقاتلين من أجل الحرية هل كان ذلك صحيحاً؟

مكفرلين: كلا.

سوليفان: والحقيقة هي أن مهمة الإبقاء على حياتهم قد أنجزها الكولونيل نورث وآخرون خلال تلك الفترة. أليس ذلك صحيحاً؟

مكفرلين: نعم.

سوليفان: لقد بقوا على قيد الحياة في السنوات التي تخلى فيها الكونغرس عنهم أليس كذلك؟

مكفرلين: نعم.

وبعد دقائق.

سوليفان: الآن يا سيد مكفرلين.. هل كان الرئيس غاضباً لأن توصيات بولاند

منعت الولايات المتحدة من الوفاء بتعهداتها للمقاتلين من أجل الحرية؟

مكفرلين: نعم.

سوليفان: هل عبّر لك الرئيس عن غضبه؟

مكفرلين: نعم.

سوليفان: وهل أنت بدورك عبرت عن غضب الرئيس للكولونيل نورث؟

مكفرلين: نعم.

سوليفان: وما كان سبب الغضب؟ هل كان لأن الولايات المتحدة أخلّت بتعهداتها لهؤلاء الناس وتخلّت عنهم؟

مكفرلين: نعم.. جزئياً.

سوليفان: وما هو الجزء الآخر؟

مكفرلين: رأى الرئيس أن قطع الدعم من قبل الكونغرس ليس فقط قطعاً للثقة والعلاقة مع أناس شجعناهم على أن يخاطروا بحياتهم، ولكنه رأى أنه من التناقض أن يقول الكونغرس نعم للمقاتلين من أجل الحرية في أفغانستان، وهم على بعد ١٢ ألف ميل، ولا يقول نعم هنا وعلى مقربة منّا.. إنه غير صحيح.. إنه تناقض.

فيما بعد.

سوليفان: السيّد مكفرلين.. لقد تلقيت مئات الرسائل الخطيّة من الكولونيل نورث في خلال الوقت الذي عملت معه أليس كذلك؟

مكفرلين: نعم.

سوليفان: إني أجرؤ على القول إنه كتب عدداً من المذكرات يفوق ما كتبه أي مسؤول آخر، هل هذا صحيح؟

مكفرلين: تقريباً نعم.

سوليفان: وإني أعتبر أنه عندما تقوم بمسؤولياتك كرئيس لمجلس الأمن القومي، وعندما ترد إليك رسائل هامة تقرأها أو تطلب من بعض أركانك أن يقرأوها ويخبروك بمحتواها.. هل هذا صحيح؟

مكفرلين: نعم.

سوليفان: والصحيح أيضاً.. ألم يقم الكولونيل نورث في تلك السنين التي تحمل فيها معك بجهود استثنائية بإحاطتك علماً بشكل دائم حول ما يقوم به في نطاق تنفيذ واجباته؟

مكفرلين: بشكل عام نعم.

سوليفان: وهل من العدل أن تقول إنه كان من الأفضل للكولونيل نورث أن يقدم إليّ عدداً كبيراً من الأوراق بدلاً من ذلك العدد القليل!

مكفرلين: أوه.. كنت أريد أن يعلمني بكل شيء.

بالنسة إليّ اقتصرت المحاكمة على مسألتين أساسيتين: الأولى هي أن كل ما قمت به كان بعلم رؤسائي وموافقتهم، حتى بدون شهادة الرئيس ريغان والأميرال بواندكستر (الذي لم يسمح له بالشهادة في أثناء محاكمتي) وقد استطاع برندان أن يوضح هذه النقطة في أسئلته لمكفرلين. والثانية هي أنني لم أتصرف بدافع جرمي، وبكلمات أخرى لم تكن لديّ نية في مخالفة القوانين. في الواقع حرص جميع العاملين في موضوع إيران ـ كونترا على تجنّب مخالفة توصيات بولاند أو أي نص آخر.

ارتكز المدعون العامون على مناقشة شهادة سبيتز شانيل في مسألة النيّة الجرمية. في خلال المحاكمة روى شانيل أنه كانت له عدة ارتباطات من قبل: ففي أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥ استقل طائرة ليحضرني إلى دالس في تكساس لتناول طعام العشاء مع رجل النفط المعروف بنكر هانت. كان شانيل يأمل أن يقدم هانت مساهمة أخرى للكونترا، وقد أحضرني معه من أجل أن أشرح الوضع في أميركا الوسطى والحاجة إلى المقاومة هناك. بعدما تناولنا الطعام في نادي البترول تحدثت أنا وهانت وشانيل بينما ذهب مساعد هانت لطلب سيارة تاكسي لتقلّني إلى المطار.

في وصف هذا المشهد في أثناء المحاكمة أضاف شانيل أموراً جديدة وغير عادية، قال عن المحادثة بين هانت وبيني: «إنها علقت في ذهنه»، وكما قال شانيل، سألني هانت: «ماذا تريد أن تفعل؟ هل تجرؤ على التعرض للمشاكل من جرّاء هذا؟» وأجبت على ذلك فوراً: «أنا لا أهتم إذا ذهبت إلى السجن من أجل هذا، وأنا لا أهتم إذا كان عليّ أن أكذب على الكونغرس في هذا الموضوع».

كان برندان قد طلب منّي أن لا أظهر أي ردّ فعل حول شهادات الآخرين، ومهما كانت شاذة. لكن عندما روى شانيل هذه القصة لم أتمالك نفسي ونظرت إليه بتعجّب. إن هذه المحادثة التي تكلم عنها أعطت انطباعاً بأنني كنت أعتقد أن ما أقوم به هو عمل جرمي.. ولقد كانت قد حصلت فعلاً لكنت في ورطة حقيقية.

لكن هذه المحادثة لم تجر أبداً.. أنا أعرف ذلك وشانيل وسوليفان يعرفان ذلك أيضاً، وإذا كان الادعاء لا يعرف ذلك لعدة أسباب فبالتأكيد عليهم معرفة حقيقة الأمر.

في كل مرة كانوا يغتبطون باعتبار رواية شانيل إثباتاً على نيّتي الجرمية. في السنتين الماضيتين كان هذا الشاب المسكين يعيش وهاجس السجن يشغل باله، لكن الحكم لن يصدر حتى يقوّم الادعاء درجة تعاونه. عندما أتى شانيل بروايته الجديدة لم ينظر إليها سوليفان على أنها مشكلة بل اعتبرها فرصة. برأي برندان إذا كان الادعاء يرغب في استخدام هذه الشهادة ليدين زبونه فإنه يريد كشف الكذب.

لماذا يؤمن برندان بثبات بأن شانيل كان يكذب؟ لسبب واحد هو أن الادعاء لم يضع بنكر هانت على لائحة الشهود، وهذا يعني تلقائياً أن هانت لا يؤيد قصة شانيل، وعندها لن يستطيع شانيل أن يؤيد قصته! أمضى ساعات في التحقيقات والمقابلات والاستجوابات أمام هيئة المحلفين، وبعد وقت قصير لم يأت على ذكر المحادثة التي كان قد ادعى أنها جرت بيني وبين هانت حول الكذب على الكونغرس أو الذهاب إلى السجن.

لسوء الحظ لم يستطع برندان أن يظهر تناقض روايات شانيل، كان ينتظر استجواب الشهود حيث تكون له فرصة في أن يظهر أن شهادة شانيل غير صحيحة. خلال الاستراحة عاد المحامون إلى السجل الذي يتضمن شهادات شانيل السابقة،وبسرعة انتزعوا الصفحات التي تظهر كيف أن هذا الرجل المسكين الخائف المهدّد بالسجن قد خضع أخيراً للضغط. التفت برندان نحوي وقال: «لقد التقطناه».

وهنا جرت أروع أعمال سوليفان: لقد بدأ بنعومة ظاهرة يعيد شانيل إلى الشهادة التي كان قد أدلى بها. في هذه العملية ضغط على شانيل فيما إذا كان ينوي أن يرتكب جريمة أم لا. قال شانيل لا. كان الادعاء قد أقنعه بأن يعتبر نفسه مذنباً بارتكاب ما لا يعتبر عملاً جرمياً: التواطؤ من أجل استخدام منظمة معفاة من الضرائب لدعم المقاومة النيكاراغوية.

عندها ذكّر برندان شانيل برواياته السابقة حول الاجتماع مع هانت والتي لم تتضمن أي إشارة إلى المحادثة المزعومة بيني وبينه، وبينما بدأ سوليفان يراجع شهادات شانيل حول ذلك العشاء الذي جرى منذ أربع سنوات، واجهه بأن شهاداته قد تغيّرت بشكل دراماتيكي. وبعدما أظهر برندان عدداً من التناقضات في شهادات شانيل تدخّل القاضي.

القاضي: كيف تفسّر أنك قلت لهيئة المحلفين إن تلك المحادثة بين هانت ونورث قد علقت في ذهنك وإنك لا تشك بها؟

شانيل؟ لأنها حصلت.. وإنه كان من الممتع كما طالت...

القاضي: أصبح لديك ثلاث روايات الآن؟
شانيل: إنها. .
القاضي: ما الـذي كان قـد علق في ذهنك عنـدما أخـبرت هيئة المحلفـين أنه علق بذهنك؟

شانيل: أن الكولونيل نورث قال ما يتعلق بهاتين المسألتين وأنه علق بذهني.

والآن تحرك سوليفان للضربة القاضية:
سوليفان: يظهر يا سيّدي أنه من الصعب أن نتذكر ما قيل. . إنه صعب فعلاً.
شانيل: حسناً. . أنا أفهم ذلك. .
سوليفان: وهذا مهم جداً. . وفي بعض الأحيان عندما يكون لـك دافع للتعـاون، هناك خطر قليل من احتمال أن تنسب كلاماً إلى شخص لم يقله؟ هل من العدل أن نقـول هذا؟

شانيل: أنا متأكد أن هناك مخاطرة.
وبعد لحظات وبعد تأديب شانيل مرة ثانية التفت القاضي نحو هيئة المحلفـين وقال: إن توجيهاتي هي نفسها بالنسبة إليكم، السيدات والسادة أعضاء هيئـة المحلفين، بـالنسبة إلى كل كلمة أشير إليها. . يمكنكم أن تعتبروها متصلة بتقديركم لمصداقية الشاهد.

عملياً كان القاضي ينصح المحلفين بأنّ شهادة سبيتز شـانيل لا يمكن الـوثوق بهـا، وكنا نأمل أن تتجاوب هيئة المحلفين مـع توجيهـات القاضي، لكن تـأثير ذلـك في الادعاء كان واضحاً. بالنسبة إليهم كانت ضربة على البطن كـافية لتحـطيم ادعاءاتهم حـول النية الجرمية.

في الوقت الذي وقفت أخيراً كان الجـو غير مـلائم، وعوضـاً عن النظر إلى أعضـاء مجلسي الشيـوخ والنـواب وأركـانهم، كنت أواجـه المـدعي العـام المختص. كـان القـاضي جيسيل عن يساري وقد جلس أعضاء هيئة المحلفين في مقرهم عن يميني.

كانت بتسي تجلس في الصف الأول، وعندما كنت أنظر إليها كانت تبتسم، وكـانت تقول في كل مرة تعود فيها من الاستراحة «أنا أصـلي من أجلك. . سيكون كـل شيء على ما يرام».

كانت قاعة المحكمة تبدو مختلفة من جانب الشاهد كما هي من جانب الدفـاع، وقد ذهلت لهذا التناقض في وقفة الادعاءووقفة الدفـاع. كان خصمي يميـل إلى التمتمة وبعض الحركات الاستعراضية أمام هيئة المحلفين تماماً كما يجري في الأفلام السينمائية وعـلى شاشـة

التلفزيون. كان برندان ثابتاً رصيناً يجلس وراء منبره تحت قوس القاضي.

خلال استجوابي من قبل الادعاء، كان المدعي العام يبدأ كل جلسة بعبارة «صباح الخير. . أو مساء الخير. . » لكني لم أرغب أن أقول له ذلك. فعلاً لم أكن أرغب أن يكون له صباح جيّد أو مساء جيد، لأني كنت قد أقسمت قبل لحظة أن أقول الحقّ.

بالنسبة إلى بعض المراقبين كانت النقطة الأكثر دراماتيكية في المحاكمات هي عندما يقف المتهم. بالنسبة إليّ كانت الإثارة في المناقشات الختامية. كان المدعي العام ينهي حديثه أولاً، وهو يحاول أن يظهر أنه قد أثبت أن المتهم مذنب. ثم يأتي محامي الدفاع الذي يحاول أن يثبت العكس تماماً.

ادعى المدعي العام أنه لم يستخدم شهادتي أمام تحقيقات الكونغرس، وأنهم لم يشاهدوها ولم يقرأوا عنها، ولكن المحاكمة انتهت بالنتيجة نفسها التي توصلت إليها التحقيقات. في قاعة التحقيقات في مجلس الشيوخ أنهى السناتور أنوي ملاحظاته بأن شبّهني بمجرمي الحرب النازيين الذين حوكموا في نورمبرغ. وفي المحاكمات ذكر المدعي العام هتلر في معرض وصفه لما قمت به. أنا لست متأكداً من سبب هذه التعليقات لكنها ذهبت بعيداً جداً عن أي منطق. لقد ذكّروني بالعقلية السوفياتية القديمة عندما ينعتون كل من يعارض سياستهم المحلية أو الخارجية بالفاشي.

كان برندان متخوفاً من جهود المدعي العام بأن يضع في عقول الصغار رابطاً بيني وبين هتلر. وكم كان والدي سيتعجب من ذلك، وهو الذي خاض الحرب وقاتل النازيين. قال برندان: «لن يقف الناس أمام أي شيء».

إن الاستماع إلى خاتمة برندان كان مثل التفرّج على نجار ماهر وهو يضع اللمسات الأخيرة على منزل جميل عمل فيه منذ أشهر. في أثناء كلامه أمام المحلفين الاثني عشر الذين سيقرّرون مصيري لخّص باهتمام كل ما شاهدوه وسمعوه في المحاكمة، عرض لعملي في مشاة البحرية، وعملي في مشاريع حساسة في البيت الأبيض، وذكر المحلفين أن هناك إثباتاً دامغاً من أن رؤسائي وافقوا على ما قمت به. واستطاع برندان أن يصف شعوري عندما تخلّى عني زملائي ورؤسائي، مع أني لم أكن قادراً على صياغة ذلك بشكل جيد.

أعاد إلى الأذهان التهديدات الإرهابية لي ولعائلتي وأشار إلى كم كانت حياة البعض تتوقف على ما قمت به، أو ما لم أقم به، كما أوضح أن النية الجرمية لم تكن أبداً ببالي، وفي النهاية حث هؤلاء المواطنين الاثني عشر أن يفكّروا بعناية ما إذا كانوا سيدينونني لأي سبب. . أم لا.

في الوقت الذي انتهيت فيه كنت قد استنزفت تماماً. لم أتذكر شيئاً من مرافعات الادعاء وتوجيهات القاضي للمحلفين أو فورة العواطف التي هي ضرورية للمتهم. إنها الآن مسألة انتظار حكم المحلفين.

لبّى القاضي طلب برندان بأن ننتظر في مكتبه ثم نعود إلى المحكمة لسماع حكم المحلفين. كان هذا مريحاً جداً، مع أنه كان يعني أن المراسلين الصحافيين وكاميراتهم كانوا طوال النهار في قاعة المحكمة وفي خارج مكتب وليامز وكونولي وأمام منزلنا، كان بريان كوكس ومجموعة دراسة الكتاب المقدس قد حضروا عدّة مرات في استراحة الغداء وصلّوا وكانت بتسي تنضم إليهم عندما تستطيع، وبعد ظهر كل يوم عندما كانت هيئة المحلفين تأخذ استراحة، كنت أذهب إلى المنزل لتناول طعام العشاء مع عائلتي.

تفرغ المحلفون لأجلي أكثر من أحد عشر يوماً، وبعد ظهر يوم ١٤ أيار/ مايو اتصل سكرتير القاضي جيسيل ببرندان وقال: «هناك حكم». كنت في طريقي للقاء بتسي وتناول طعام الغداء في نادي الجيش والبحرية عندما أخبرني بهذا النبأ أحد عناصر الأمن.

أخذ الصحافيون يصرخون وهم يسألون، ثم صعدنا إلى سيارة الفان وذهبنا في رحلتنا العادية إلى المحكمة. على الطريق قال برندان: «تذكّر إذا لم يجر كما كنا نتوقع فإننا سنستأنف الحكم».

عندما دخلنا إلى قاعة المحكمة رأت بتسي قسيسنا ديفيد هاربر وهو يحاول أن يشق طريقه وسط جموع الصحافيين، وطلبت من جيري ديمنا رئيس فريق الأمن أن يدع ديفيد يدخل إلى قاعة المحكمة. عندما وصلنا إلى داخل القاعة وقفت أنا وبتسي وأمسكنا بأيدينا وصلّى معنا ديفيد بهدوء، ثم حدّق إلى طاولة الدفاع وطلب مني أن أحضر النسخة القديمة من الكتاب المقدس التي كنت أحضرها معي كل يوم.

لقد أعطاني هذه النسخة مورتون بلاكويل وهو ضابط علاقات عامة في البيت الأبيض، وذلك بعد وصولي إلى مجلس الأمن القومي بوقت قصير، وكنت أحمله منذ ذلك الوقت. لقد اصطحبته إلى جميع الأمكنة التي ذهبت إليها بما فيها طهران.

قبل أن أعود إلى مقعدي فتح ديفيد الكتاب المقدس على المزمور ٩١ وسلمه إليّ وبينما كنا ننتظر حضور المحلفين جلست وقرأت*.

بالتأكيد سوف ينجّيك من فخّ الصياد

ومن الوباء الخطر

---

* أخذت هذه الترجمة من النسخة العربية للكتاب المقدس (المترجم).

بخوافيه يظلّك وتحت أجنحته تحتمي.

ترس ومجن حقة.

وبعد برهة وفي الممشى المؤدي إلى قاعة المحكمة بدا أن النظام قد انهار عندما تدافع جمهور الصحافيين ليخترق الحواجز التي أقامها عناصر الأمن في هذه المحكمة.

دخل المحلفون قبيل الساعة ٢,٣٠، نظرت إلى وجوههم لكن كان من المستحيل أن أعرف ماذا قرّروا. سلّم أحدهم الحكم إلى الكاتب الذي سلّمه بدوره إلى القاضي.

كانت القاعة صامتة عندما قرأ القاضي قرار المحلفين.. بعد تأخير بدا أنه طويل.. بدأ يقرأ بصوت رتيب مثل قرع الطبول في العرض الاحتفالي:

بالنسبة إلى التهمة الأولى: بريء (شكراً لك يا رب) من التهمة بحد ذاتها ومن المساعدة والتحريض.

بالنسبة إلى التهمة الثانية: بريء (شكراً لك يا رب) من التهمة بحد ذاتها ومن المساعدة والتحريض.

بالنسبة إلى التهمة الثالثة: بريء (شكراً) من التهمة بحد ذاتها ومن المساعدة والتحريض.

بالنسبة إلى التهمة الرابعة: بريء (شكراً) من التهمة بحد ذاتها ومن المساعدة والتحريض.

بالنسبة إلى التهمة الخامسة: بريء (شكراً).

بالنسبة إلى التهمة السادسة: بريء (شكراً) من التهمة بحد ذاتها ومذنب في المساعدة والتحريض (يا إلهي: لماذا؟).

علمت فيما بعد أن هذه الكلمات قد قوطعت بتلهف وتأوه من حشود قاعة المحكمة. لكنها لم تؤد إلى تغيير النمط الرتيب لكلام القاضي:

بالنسبة إلى التهمة السابعة: بريء (شكراً) من التهمة بحد ذاتها ومن المساعدة والتحريض.

بالنسبة إلى التهمة الثامنة: بريء (شكراً).

بالنسبة إلى التهمة التاسعة: مذنب (يا رب لا تهمة أخرى).

بالنسبة إلى التهمة العاشرة: مذنب (يا رب لا تزيد).

بالنسبة إلى التهمة الحادية عشرة: بريء (شكراً لك يا رب).

بالنسبة إلى التهمة الثانية عشرة: بريء (شكراً لك يا رب).

استغرقت قراءة الحكم من قبل القاضي دقيقة واحدة، لكنها بدت ساعات كنت فيها محطماً ومذهولاً وفرحاً وسعيداً في الوقت نفسه.

لقد قال القاضي «بريء» ثلاث عشرة مرة «ومذنب» ثلاث مرات. وكان هناك اثنتا عشرة تهمة. للحظة لم أعد أتذكر التهم، وبينما جلست أحاول أن أتذكر، تسابق حشد من الصحافيين باتجاه الباب، بينما كان القاضي جيسيل والمحامون يهتمون وبكل هدوء ببقية الإجراءات.

عندما انتهوا عاد الهدوء مرة ثانية إلى قاعة المحكمة، وكنت قد تذكرت التهم الثلاث وهي: المساعدة في إعاقة عمل الكونغرس، وشيء مثل تدمير أو تبديل أو إزالة الوثائق، وقبول نظام الأمن، ثم انتهى كل شيء.

عندما خرج القاضي عاد الهرج إلى قاعة المحكمة، سارعت إلى بتسي وعانقتها، كما عانقت ديفيد هاربر وصافحت برندان ونيكول وباري وتيري وجون، ثم عانقني النائب هنري هايد وعانق بتسي.

ترك المدّعون العامون موظفيهم ليجمعوا الأوراق وهرعوا باتجاه عشرات الميكروفونات التي كانت بانتظارهم.. وبينما عدت إلى الطاولة لترتيب حقيبتي، وصل برندان إليَّ ووضع يده على كتفي وقال: «دعنا نذهب لم تنته الأمور بعد.. سوف نقاتل حتى تصبح حراً من كل ذلك.. تذكر أنك وصلت إلى قاعة المحكمة مع ست عشرة تهمة موجهة ضدك.. ثم بدأت المحاكمة حول اثنتي عشرة تهمة. وها قد انخفض العدد إلى ثلاث تهم.. نحن نسير في الاتجاه الصحيح.. تعال هيا لنقدم استئنافاً وبالمناسبة.. هل تمرح قليلاً؟

في أثناء عودتنا إلى مكتب وليامز وكونولي قرر برندان أن ندلي ببيان موجز أمام الصحافيين الذين يحتشدون حول المكتب. كانت تعليقاتنا صحيحة، أنهى برندان بيانه قائلاً: «يجب أن تتأكدوا أننا لن نترك الكولونيل نورث وعائلته في خضم هذه المعركة القانونية» وفعلاً لم يتركوني.

قلت: «نحن نقاتل منذ أشهر وسنوات هذه الاتهامات، على أي حال نحن واثقون من النتيجة النهائية، وكعنصر في مشاة البحرية فقد تعلمت أن أقاتل بصعوبة حتى النصر، سوف نتابع هذه المعركة وبدعم وصلاة الشعب الأميركي سوف أحقق البراءة».

لم أكن أعلم في ذلك الوقت أن الحصول على البراءة الكاملة يتطلب وقتاً طويلاً،

كان برندان قد قال للتو إنه سيستأنف، وكان المحامون قد سجّلوا وبكل عناية كل مسألة قانونية تتعلق بالقضية.

كانت هناك نقطة حسّاسة تتعلق بهيئة المحلفين. في خلال المحاكمة كنت أسمع همسات من أني أحاكم عبر هيئة محلفين لا يوجد بين أعضائها نظير لي. قال بعض الناس إنه كان على برندان أن يوضح حقيقة أني شاب أبيض وذكر وخريج جامعة وخدمت في الحياة العسكرية وسافرت كثيراً، وقد عملت في المراتب العليا في الحكومة، وأن خلفيتي تختلف عن هيئة المحلفين وجميعهم من السود وأغلبيتهم من النساء.

في ذلك الوقت لم أفكر كثيراً بالأمر، ولكن بعد سنة وفي صيف عام ١٩٩٠ أجريت مقابلة مع إحدى المحلّفات اللائي أدنّي على شاشة التلفزيون. وكان ما قالته مثل الصدمة: «ماذا سيقول عنا الناس في الخارج إذا قلنا إنه بريء؟ حسناً إنهم سيقولون إننا كسود نقول إن رجلاً أبيض بريء؟ إنهم سيظنون حتماً أننا أغبياء».

لقد صعقت.. فمن المفترض أن تكون العدالة عمياء، إن لون الشخص لا يحدد براءته أو ذنبه. وإلى هذا اليوم ما زلت أجهل التصرّف حيال ما قالته المحلفة، والذي يعتبر مناقضاً لكل ما تعلمته وما آمنت به.

لم أكن كثير الصبر لكن صبري تعرض لامتحان خلال الأسابيع السبعة بينما كان القاضي يجمع معلومات لإصدار حكمه، وبينما كنا ننتظر تخرّج ستيوارت من المدرسة الثانوية وحين حاولت أن أستأنف حياتي العائلية العادية، وبينما كنت أعمل مع برندان لتحضير تقرير يقدم قبل إصدار الحكم ويحدد الأسباب التي يجب أن يعتمدها القاضي كي لا يرسلني إلى السجن.

عينّ لي ضابط لمراقبة سلوكي وهو رالف ارديتو الذي من المقرر أن يرافقني خلال هذه الفترة ويقدم توصياته للقاضي قبل إصدار الحكم. في البدء كنت حذراً منه، وافترضت أنه من عناصر المدعي العام، وأنه جُنِّد للعمل ضدّي منذ زمن طويل. لكني سرعان ما عرفت أن أرديتو كان محترفاً، لقد كلّف بعمل صعب ونفّذه بشكل دقيق وحسّاس.

عندما اقترب موعد إصدار الحكم توالت الاتصالات وعروض المساعدة على مكتب برندان. أرسل العديد من معارفي وأصدقائي وبعض الرجال الذين خدموا معي رسائل للقاضي يطلبون فيها التساهل. بعض الرسائل المؤثرة وردت من عناصر مشاة البحرية الذين خدموا معي في ڤيتنام ومعظمهم ممّن لم أره منذ عشرين عاماً.

في ٤ تموز/ يوليو وهو اليوم السابق للحكم، تمتعت عائلتي برحلة هادئة مع مجموعة من أصدقائنا. بعد ذلك ذهبنا لمشاهدة الألعاب النارية في غريت فالز. كان يوماً رائعاً.. لقد سبحنا ولعبنا وتحدثنا حتى بعد غروب الشمس.. ولم أشأ أن ينتهي ذلك اليوم.

في صباح اليوم التالي استيقظت قبل الموعد المحدد وقرأت في الكتاب المقدس. عندما توجهت أنا وبتسي إلى واشنطن، لم نكن نعلم ما إذا كنا سنرجع إلى المنزل سوياً أم لا. بعد وصولنا إلى المحكمة، وكما يحصل دائماً لاحقنا المراسلون الصحافيون والكاميرات طوال الطريق.

بينما كنا ذاهبين إلى قاعة المحكمة السادسة، هرع نحوي أحد المراسلين وقال: أنت تبدو هادئاً بشكل مخيف، وهذا ليس من عادة الرجل الذي يذهب لتلقي الحكم؟

أجبته: «هذا لأني أعرف إلى أين أذهب». كنت أفكر بمواضيع أشمل وأبعد. نظر إليّ بدهشة وقال: «كم سنة سوف تحكم؟».

أجبته: «مؤبد». نظر إليّ بارتباك، لقد كان يفكر حتماً بحكم مختلف تماماً، وهكذا يفكر المدعي العام. لقد ناشد القاضي أن يرسلني إلى السجن، ولم يكن وحده بهذا الرأي. لقد حبّذت صحيفة نيويورك تايمز إصدار حكم بالسجن لمدة طويلة، ويتعجّب الناس لماذا لا أحب الصحافة!

كان يوم الحكم يوماً أكثر إثارة من يوم إصدار حكم هيئة المحلفين، أن تسمع أحداً وهو يناقش في المحكمة من أنك تستحق السجن هو بالفعل تجربة مخيفة. ولكن كان هناك أيضاً نداء من برندان للقاضي من أجل الرحمة والعطف. أخذ برندان ساعة من الوقت، مستنداً على الرسائل التي تلقاها والمقابلات التي أجراها وكل ما كان يعرفه عني، وشرح للقاضي السبب الذي من أجله يجب أن أبقى حرّاً. بدأ بحياتي العسكرية ثم انتقل إلى المواضيع الحالية:

«عام ١٩٨٦ كان الهدف الأول في طلب المستشار المستقل. لقد كان الهدف لأطول وأكبر تحقيق تجربه هيئة محلفين أو مستشار مستقل في تاريخ الولايات المتحدة..

خلال السنتين والنصف المنصرمتين كان هو وعائلته محطّ اهتمام الصحافة أكثر من أي مواطن آخر ما عدا الرئيس الحالي. لقد كتبت الصحافة عشرات آلاف المقالات والتي لم يستطع أن يرد عليها.. وخيّم الصحافيون حول منزله لمدة أشهر، وتبعوه إلى مكان العمل وإلى السوق وإلى الكنيسة وإلى مكب النفايات.. لم يتحدث عن قضيّة للصحافة أبداً.. محترماً بذلك نصيحة المحامي من أن هذه ليست الطريقة الصحيحة للمرافعات

القضائية. تحمّل هو وعائلته إزعاج كتب غير مرخّصة والتي تُوهم أنّها تروي قصة حياته وحياة زوجته وجميع أطفاله. لقد كانوا موضوعاً لتهجم من مسلسل تلفزيوني دون ترخيص ودون إذن منه ودون أن يقابلوه.. وكأنه سلعة يستعملها الناس.

لقد شبه نورث بأدولف هتلر أسوأ مجرم وقاتل جماعي عرفه التاريخ، ولقد شعرت عائلته بتأثير غير عادي. كما أن التهديد بالقتل لم ينته بعد.. لقد تفاقم ذلك بالدعاية الواسعة التي تسبب بها أحد الأجهزة الحكومية.. لم يطلب الكولونيل نورث أن يكون مشهوراً في جميع أنحاء أميركا، لقد تم فرضه على كل جهاز تلفزيون في البلاد.

التهديد يأكل الإنسان مثل السرطان.. إنه موجود دائماً.. إنه يلازمه دائماً.. أنت لا تعرف ما إذا كان سيحدث شيء ما في الشهر المقبل أو لا يحدث شيء أبداً. ربما الشيء الفظيع والذي لم نسمع أحد يقوله هو مقدار خسارته من هذه القضية.. إنها خسارة راحة البال.. نحن نذهب إلى سياراتنا ثم نتوجه إلى مكان العمل ولا نفكر أنه يمكن أن يهاجمنا أحد أو يقتلنا أحد ونحن في طريقنا.. إن خسارة راحة البال هي عبء يقتل.. إنّها عقوبة غير عادية يحملها معه اليوم وفي المستقبل المنظور.. ويجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عندما يحدد القضاء الحكم المناسب اليوم.

عن ماذا نتعجّب؟ هل نتعجب ما إذا كانت مجموعة ما لا تفكر بشكل منطقي تريد أن تنال من الولايات المتحدة، وذلك بقتل أوليفر نورث أو أي شخص يريد أن يرى صورته على الصفحات الأولى للصحف الأميركية.. وذلك بمهاجمة أوليفر نورث؟

لقد عانى الكثير.. وعانت عائلته الكثير أيضاً.. لقد عوقب بما فيه الكفاية.. إن عقوبة السجن ستكون قمة هذا الوضع.. وهي قاسية وخاطئة. إنه وقت التسامح.. إنه وقت إنهاء كل شيء».

وكان ذلك تقريباً.. لقد حكم القاضي بثلاث سنوات مع وقف التنفيذ وبغرامة ١٥٠ ألف دولار وسنتين تحت المراقبة و١٢٠٠ ساعة خدمة عامة مجانية في برنامج مكافحة المخدرات.

كانت هناك نقاط عديدة في ملاحظات برندان والتي أسالت دموعي عندما كنت أصغي إليه وهو يصف حياتي. ومع ذلك لم يستخدم برندان كل شيء. لم يذكر المكالمة التي تلقيتها ذات ليلة من بيلي غراهام، أو رسائل الدعم من الرئيس السابق نيكسون، ولا رسائل التهنئة الثلاث التي تلقيتها من الرئيس ريغان عندما كنت أعمل في مجلس الأمن القومي، والتي لم يكن يعلم بها. بعد سنتين من المحاكمة وعندما كنا ننتقل إلى المنزل الجديد أحضرت الرسائل وعرضتها على برندان فذهل من أجلها.

لقد كان أفضل دليل لم يستعمله برندان هو ما سميناه شريط «بندقية مدخنة في الخزنة»* وقد أتى هذا الاسم من تعابير مستعارة ومجازة ظهرت في السطر الأول من النص. كان هذا الشريط عبارة عن تسجيل لمحادثة بين موظفين في مكتبين مختلفين في مانهاتن لـ «سيتي بانك في نيويورك» في ١٧ حزيران/ يونيه ١٩٨٧ قبل ثلاثة أسابيع من مثولي أمام لجنة تحقيقات الكونغرس. ولكن ذلك كان مصادفة غريبة من الصعب أن تصدق، وقد تسرب من خلال محادثة الموظفين حوار آخر بين رجلين حول موضوع تحقيقات إيران ـ كونترا. ومن حديثهما بدا واضحاً أن أحدهما كان قد مثل أمام لجنة تحقيق الكونغرس.

أعطى البنك الشريط لمكتب التحقيق الفدرالي، وفي الصيف اللاحق عثر عليه باري سيمون بين مجموعة من الدلائل التي قدمها لنا الادعاء. ومع أن معظم المحادثة بين الرجلين كانت واضحة فإننا لم نتمكن من معرفتهما. لكنهما كانا يتحدثان دون شك كما يلي:

أ: نعم هناك بندقية مدخّنة في الخزنة وريغان يعرف.

ب: اصغ.

أ: لقد قلت للجنة إنه لا يوجد.. لقد قلت للجنة.. إنه لا يوجد.. أنا ليس لي علاقة بهذه الأوراق. أولي نورث يعرف عنها. ريغان يعرف. ريغان يعرف عنها.

ب: اصغ إنه لن يشهد.

أ: والآخر والناس الآخرون المتورطون يعرفون حول ذلك.

ب: [كلام غامض].

أ: عليك أن تذهب إلى اللجنة.

ب: [كلام غامض] اللجنة.

أ: عليك أن تذهب إلى اللجنة وليس إليّ.

ب: أصغ.

أ: هناك أحد ما سيقول ذلك.

ب: [كلام غامض].

أ: أعتقد أنه يجب أن يقوم بذلك شخص ما.. يجب أن يكون هناك مسؤول عن ذلك.

ب: [كلام غامض].

أ: ريغان.. ريغان يعرف.. ريغان لديه جميع المذكرات.

ب: هل لديه جميع المذكرات؟ لقد اعتقدت أنه مزّق كل شيء!

أ: كلا لديه جميع المذكرات. . وهناك نسخ عنها.
ب: هل أحرقت هذه المذكرات؟
أ: كلا.
ب: آه لقد نبّهت إلى ذلك.
أ: لا أحد. . لا.
ب: إنها ستصيب الأوراق مثل المجانين.
أ: لم يخبرني أحد بأن. .
ب: [كلام غامض].
أ: [كلام غامض] لا. .
ب: ماذا عن سكرتيرتك؟ ألا تستطيع نسخ الوثائق؟
أ: ليس كلها.
ب: [كلام غامض] حول ريغان [كلام غامض].
أ: أنا سأسحب يدي من هذا الشيء وإذا أتى أحد إليّ فسأفجّر كل شيء.
ب: أقول لك إنه إذا ذهبت إلى هناك فسآخذك معي.
أ: حسناً. . وأنا أيضاً.
ب: أنت وسكرتيرتك [كلام غامض].
أ: من الأفضل أن أتصل بك. . أعتقد أنهم يسجلون كلامنا. .
ب: أعتقد أيضاً. .
أ: حسناً. . وداعاً.

عندما سمع باري ذلك لأول مرة خلال التحضيرات للمحاكمة ذهل تماماً وقال: «إسمعوا هذا». . واجتمعنا جميعاً في غرفة الاجتماعات في المبنى. . وضع باري الشريط عدّة مرات. بحيث يمكنني أن أميّز الأصوات. تساءل اثنان من المحامين ما إذا كان أحد المتحدثين دونالد ريغان، ولكن لم يبد ذلك محتملاً بالنسبة إليّ، إنه لا يشبه صوته، كان ريغان يتكلّم بفظاظة وقساوة، بينما كان هذان يتكلّمان بقلق. كنت أظن أن أحد المتحدثين هو إد هيكي المساعد العسكري للرئيس. كان هيكي قد مثل أمام اللجنة في هذا الوقت، اشترك معي في محاولة لإنقاذ حياة الرهائن بوساطة وكالة المخدّرات التي كانت تُموَّل من أرباح بيع الأسلحة إلى إيران. لكن هذا كان مجرد تخمين. وأيّن يكن هذان الرجلان فقد بدا واضحاً أن أحداً ما يمتلك وثائق هامة وقد أُتلف بعضها. . ولكن ما هي؟ وكيف كان لهذا الأمر علاقة بقصة إيران ـ كونترا!

بما أنني لم أستطع أن أميّز الأصوات، أخذ محامي الشريط إلى البيت الأبيض. في

٢٨ تموز/ يوليو ١٩٨٨ ذهب برندان وباري إلى البيت الأبيض للقاء آرثر غلفاهاوس مستشار الرئيس وأحد مساعديه ليطلبا السماح لهما بالاطلاع على الوثائق وإجراء مقابلة مع الرئيس، وقد أخذا معهما الشريط.

كما وصف باري ذلك فيما بعد شحب لون غلفاهاوس عندما استمع إلى الشريط وبدا أن مساعده اهتز لذلك. أنكر الرجلان أي علاقة لهما بالشريط، وأنه على حد علمهما لم تسأل عنه أي وكالة حكومية، وأن المدعي العام المختص تلقّى هذا الشريط منذ أشهر.

قال برندان: حسناً هل تساعداننا في الوصول إلى العمق.. فنجري مقابلة مع الرئيس حول هذا الشريط؟

قال غلفاهاوس لبرندان إنه سيفكر بالموضوع.. وبعد شهرين كان الجواب لا. يظهر أن حماسة المدعي العام المختص في ملاحقة جون بواندكستر وملاحقتي أيضاً لم تتوسّع حتى يتم التعرّف على المتحدثين، أو الوثائق التي كانا يتحدثان عنها. لم يكن أحد في البيت الأبيض، ولا في مكتب التحقيق الفدرالي، ولا في مكتب المدعي العام المختص، مهتماً بمساعدتنا، وإني أفترض أن لا أحد في لجنة الكونغرس سمع هذا الشريط، ولو سمعوه لكان تسرّب شيء عنه.

دون تحديد الصوتين لم نكن قادرين على استخدام الشريط في المحكمة، يمكن أن يكون المدعي العام المختص قد أعطانا الشريط ليس لأنه كان مرغماً على ذلك بناء على قواعد الإثبات، ولكنهم هم ومكتب التحقيق الفدرالي والبيت الأبيض لم يكشفوا أبداً عن وجوده.

(١٨)
نظرة إلى الوراء

استناداً إلى ما هو شائع فإن قضية إيران ـ كونترا حدثت بسبب مجموعة من الشاذين والمرتدّين الذين يعملون في البيت الأبيض، والذين قفزوا فوق القوانين ونفّذوا السياسة الخارجية الخاصة بهم، حيث صدم فيها بعد رؤساؤهم عندما علموا بما كانوا يفعلون.

إنها قصّة جيّدة.. لكنها لم تحدث أبداً.. وكما أرى فإن سبب إيران ـ كونترا يتفرّع في اتجاهات عديدة ويقع اللوم على الكثيرين من أجلها.

لقد وصفت أخطائي الخاصة وأسفي وهفواتي، لكنّي لم أجعل نفسي فوق القانون، ولم أنو أبداً أن أقوم بعمل غير قانوني. إن الجدال حول معنى ومضمون وقانونية توصيات بولاند سوف يستمر لسنوات، لكني كنت أعتقد دائماً ـ وما زلت ـ أن هذه التوصيات لم تمنع مجلس الأمن القومي من دعم الكونترا. وحتى أكثر توصيات بولاند تشدّداً كانت تحوي منافذ استخدمناها لنضمن عدم التخلي عن المقاومة النيكاراغوية.

منذ عام ١٩٨٤ قمت بكل ما استطعت من أجل المحافظة على إخلاصي للمجموعتين اللتين اهتممت بهما كثيراً، واللتين وضع الرئيس ريغان مصيرهما في قائمة اهتماماته: رهائننا المحتجزين في لبنان والكونترا. وبينما كنا نعمل بحماسة شديدة في هاتين المجموعتين، يمكنني أن أقول الآن إنني تحركت بدافع من طموحي وفخري. وبغض النظر عن صعوبة ومتطلبات العمل كنت متأكداً من أنني أستطيع القيام بالقضيتين. أنا أعرف أنه إذا نجحت هذه الأعمال، فإن عدداً كبيراً من الناس يمكنهم أن يعرفوا ما قمت به، ولقد كنت فخوراً بذلك أيضاً.

ما زال لديّ شعور متناقض حول مبادرتنا نحو إيران، لقد انتهت بالفشل، لكن هذا لا يمنع من أنها كانت تستحق المحاولة، فلو كتب لها النجاح لم نكن سننجح في إعادة الرهائن إلى بلادهم فقط، بل كان يمكن أن نقيم علاقة مع بلد هام وحيوي لأمننا القومي.

لكننا لم ننجح. . ولم نفشل في إقامة اتصال مع المعتدلين فقط بل قوّضنا أيضاً سياستنا بمنع تقديم أي تنازل للإرهابيين، ومع أننا لم نتعامل مع محتجزي الرهائن في بيروت بشكل مباشر، فإن المفهوم العام الذي عملنا به كان واسعاً وشاملاً بحيث لم تعد تلك المسألة مهمة. وبينما أنقذنا ثلاثة رهائن فقد احتجز اثنان، والأكثر من ذلك لقد أدّت اتصالاتنا مع إيران إلى ضرر وإرباك سياسي لحكومة الولايات المتحدة وخصوصاً الرئيس ريغان.

كنت أدرك مسؤوليات ومحاذير المبادرة نحو إيران، ولكني كنت أشعر أن إنقاذ حياة شخص ـ أو حتى محاولة ذلك ـ هي أهم من المحافظة على سياسة معيّنة. في السابق لُمنا عدة حكومات أوروبية لأنها اتخذت الخيار نفسه فيما يتعلق برهائنها المحتجزين في بيروت، ولكن في النهاية قمنا بالعمل نفسه، ومهما كانت أعمالنا «غير حكيمة» فإني مسرور جداً لأنني أعيش في بلد ما زالت حماية حياة الإنسان فيه أهم من مخططات الحكومة.

كانت مبادرتنا نحو نيكاراغوا أكثر وضوحاً، وكانت تمثل لي مأزقاً معنوياً. وإلى حين قرر الكونغرس استئناف تمويل الكونترا فإننا نجحنا في إنجاز المهمة التي كلّفنا بها الرئيس: المحافظة على حياة المقاومة جسداً وروحاً. لم يكن هدفنا عسكرياً بل سياسياً لتمكين الكونترا من فرض ضغوط على الساندينيين تؤدي إلى إقامة نيكاراغو حرّة وديموقراطية. في أوائل عام ١٩٩٠ ثبتت صحّة توقعاتنا وجهودنا عندما فاز التحالف المضاد للساندينيين بقيادة فيوليتا شامورو في الانتخابات وهزموا دانييل أورتيغا والساندينيين.

قالت السيدة شامورو في خطاب لها: «اضبطوا ساعاتكم. . اضبطوها على الساعة نفسها في بولونيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا. . اضبطوها على ساعة تشيلي. . لأنه حان وقت الحرية والديموقراطية».

كانت هذه مشاعر متغطرسة. . ولكن لم يظن أحد في الولايات المتحدة أنها ستفوز، وعلى الرغم من كلّ ما كنت أؤمن به وأعرفه، لم أعتقد أنا أيضاً أنها ستفوز. لقد كنت أتقبّل آراء خبراء الصحافة الذين تحدثوا بكل ثقة عن النصر الذي لا مفرّ منه والذي سيحققه أورتيغا في الانتخابات.

لكنّي لم أحسن تقدير أهمية الاقتراح السري، إن شرارة الحرية الموجودة في كل شخص هي التي أحدثت التغيير في نيكاراغوا، تماماً كما أحدثته في برلين وبولونيا ورومانيا وعدة أماكن أخرى، ومع أني كنت مؤمناً بحماسة برسائل رونالد ريغان حول الحرية والديموقراطية، والتي نشرناها في العالم، والتي ساعدنا في إعداد بعضها، فقد فاتني تقدير مقدار فعالية هذه الرسائل.

مع هذا الانعطاف العالمي نحو الحرية كان يجب أن تنتهي رئاسة ريغان بانتصارات عظيمة، لكن نتائج مبادرات إيران ـ الكونترا شوّهت التأثير الحقيقي للرئاسة. لقد تنبأ برندان سوليفان بهذه النتيجة عندما كتب للرئيس ريغان يحثّه على إصدار عفو عني وعن الأميرال بواندكتسر وجو فرنانديز وبعض الذين تورطوا في هذه المبادرات. لقد وقّع رسالة برندان المحامون الذين يرافعون عن المسؤولين الحكوميين الذين اتهموا في تلك القضية، وقد رفعت الرسالة باليد إلى الرئيس.

كان تقدير برندان صحيحاً، وما زال الجدل قائماً حتى هذه الأيام، ولكن وبينما يقع بعض اللوم عليَّ شخصياً، فإنه لا يقع كله على الذين نفذوا هذه السياسة.

والكونغرس أيضاً تحمل مسؤوليته عما حدث، إن دعمه المتذبذب للكونترا لم يؤدّ إلى تعريض حياتهم للخطر فقط، ولكنه نقض التزامات أمّتنا نحوهم.

وكما رأينا، أصبح المدعي العام المختص وتحقيقات الكونغرس سبيلين أمام الكونغرس من أجل وصف الخلافات بين الجناحين المتساويين في الحكومة بأنها جريمة. لكن لماذا كانت هذه الخلافات كبيرة؟ وألم تكن خلافات دائمة بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية؟

نعم.. ولكن نادراً ما كانت تصل إلى الحد الذي وصلت إليه في عهد ريغان. إن ما حدث في واشنطن في الثمانينات كان نتيجة للتغييرات التي حدثت في السلطتين التنفيذية والتشريعية خلال العقدين أو العقود الثلاثة الماضية. منذ انتصار ليندون جونسون الساحق على غولد ووتر، والذي تبعه المؤتمر الوطني الديموقراطي عام ١٩٦٨ في شيكاغو، أخذت قيادة الحزب الديموقراطي تنتقل نحو اليسار. في هذه الأيام حيث يضمن أصحاب المناصب في الكونغرس إعادة انتخابهم، فإن أعضاء مجلسي النواب والشيوخ يتعلقون بقيادتهم الحزبية أكثر مما يمثلون ناخبيهم، وهذا يفسّر كيف أزيح الكثيرون عن الواجهة السياسية.

بينما كان الكونغرس يتجه نحو اليسار، كان ردّ فعل الناخب الأميركي عام ١٩٨٠ بأن انتخب رئيساً محافظاً. وكان التغيير في العقيدة مفاجئاً وسريعاً، على عكس الكونغرس الذي تكون التغييرات فيه بطيئة. وفجأة أصبحت الخلافات التقليدية بين الرئيس والكونغرس أكثر حدّة مما كانت قبل سنوات، وأصبحت نيكاراغوا مسرح الخلافات.

لقد وصل الرئيس ريغان إلى سدّة الرئاسة متسلّحاً بفلسفة واضحة أكثر من أي رئيس سابق. لقد حبّذ التخفيض في العمل الحكومي وتخفيض الضرائب، وكان يؤمن بأن

القطاع الخاص يجب أن يحل مكان القطاع العام في تأمين فرص العمل للشعب الأميركي. ولّما لم يكن لآرائه في القضايا المحلية انعكاس كاف لدى الأغلبية الديموقراطية في الكونغرس؛ أراد ريغان أن يظهر هذه المبادىء في السياسة الخارجية. لقد أصرّ على أن تبرز السياسة الخارجية الأميركية المثل الثورية المعادية للطغيان التي تمسّك بها أجدادنا. وبتعابير عملية كان ذلك يعني أن على الولايات المتحدة أن تذهب إلى أكثر من «احتواء»، وسوف تدعم بقوة حركات المقاومة المعادية للشيوعية في أنغولا وكمبوديا وأفغانستان ونيكاراغوا. لم تسبب العقيدة الريغانية بإيذاء الكونغرس فقط، بل إنها صعقت قطاعاً كبيراً من ألبيروقراطية الدائمة في واشنطن.

كان ذلك تغييراً كبيراً في موقفنا الدولي. منذ عام ١٩٤٥ تغلبت الشيوعية في كل مكان مدّت يدها إليه، ولكن رونالد ريغان ووليم كايسي أصرّا على أننا إذا استطعنا أن ندعم حركات المقاومة المعادية للشيوعية التي يقوم بها السكان المحليون، من أجل تسديد ضربة كبيرة، فإن العالم الشيوعي بأكمله سوف يتداعى. بعد غزو أفغانستان كانت الأمبراطورية السوڤياتية قد توسّعت كثيراً جداً، بحيث لم يعد باستطاعة موسكو أن تدعم أتباعها.

كانت السنتان الأوليان من إدارة الرئيس ريغان بالنسبة إلى أعضاء الكونغرس الديموقراطيين كارثة تامة. بعد سلسلة هزائم حول قضايا السياسة الداخلية ركّزوا انتباههم على أميركا الوسطى، وهي أحد الأماكن القليلة التي يضعف فيها موقع الرئيس. لقد أشاروا إلى التاريخ المعيب في دعم أنظمة أميركا اللاتينية التي لديها سجلات غير مشرفة في مجال حقوق الإنسان، وأظهروا أن سياستنا في دعم الكونترا هي مماثلة لتلك. لقد حققوا بعض النجاح هنا، والذي بلغ أوجه في توصيات بولاند المختلفة التي حدّت من دعمنا للمقاومة النيكاراغوية.

على الرغم من اختلافي مع الديموقراطيين في الكونغرس، فقد كان من الصعب عليّ أن أصدق أن معظمهم كان يريد فعلاً أن يرى ثغرة شيوعية قريبة منّا، لكنهم كانوا يرغبون بأن يجربوا أي شيء يصلح لمقاتلة رونالد ريغان، وهم بذلك دقّوا الإسفين الأخير في نعش القول المأثور لسام رايبورن: «إن السياسة تنتهي على السواحل».

يجب أن يتقبّل الرئيس ريغان بعض الملامة عمّا حدث. لقد كانت قوته العظيمة سبباً لضعفه. لقد ركّز دائماً على الصور الكبيرة، وكان يعرف دائماً إلى أي اتجاه يذهب. لكنه في هذه القضية أهمل التفاصيل. لقد كان يعرف إلى أين سينتهي به الأمر، ولم يهتم كثيراً للطريقة التي سيتوصل بها إلى النهاية.

فيما بعد عندما انفجر كل شيء بوجهه، أعلن الرئيس ريغان عن اعترافه بالمسؤولية عن إيران ـ كونترا، ولكنّ قدراته بدت مجوّفة بتهرّبه من المسؤولية الحقيقية عندما ادعى أنه لم يكن يعرف شيئاً. لقد كان دفاعاً ضعيفاً وانعكس عليه وعلى رئاسته.

حاول بعض المعلقين أن يبرهنوا أن قضية إيران ـ كونترا حدثت لأن الجناح التنفيذي قام بهذه الأعمال سرّاً، ولكن بعض السريّة ضروري في السياسة الخارجية، والمشكلة لم تكن السرية، إنها كيفية حماية الأعمال التي لا يمكن الكشف عليها دون أن يتأثر الكونغرس بذلك.

بعد كل ذلك فإن الدستور الأميركي يحفظ للكونغرس حق تقديم النصح والموافقة. وكما أرى الأمور، لقد كانت نيّة أجدادنا المؤسسين أن يتبعوا الاعتقاد التوراتي «أنّ الحكمة تكمن في الشورى». لكن النظام الحالي المؤلف من خمس لجان كبيرة (ومن ضمنها لجنتا الاستخبارات) في مجلس النواب ومجلس الشيوخ، والتي تحوي كل منها على عشرات الموظفين، فإن إشرافها على السياسة الخارجية الأميركية غير عملي. لقد أصبحت حماية الأسرار أصعب من أي وقت مضى، مما لا يشجع الجناح التنفيذي على الكشف عن المعلومات الهامة. لقد هربنا من استشارة العدد الكثير إلى استشارة العدد الكثير جداً.

هناك بديل.. نحن نعلم من العمليات الأخرى مثل مشروع مانهاتن خلال الحرب العالمية الثانية وما تبعه من بناء للترسانة النووية أن الكونغرس يحافظ على الأسرار إذا كان عدد اللجان صغيراً، وفي حالة العمليات الاستخبارية نفضل لجنة مشتركة مؤلفة من خمسة أعضاء تتألف مثلاً من ثلاثة أعضاء في مجلس النواب وعضوين من مجلس الشيوخ ويتمثل فيها الحزبان. هذه الهيئة يكون لها موظفون وأركان محترفون.

والدرس الآخر الذي نتعلّمه من إيران ـ كونترا هو أن فريق المستشارين حول الرئيس يمكن أن يخدمه بفعالية أكثر، ويخدم الأمة أيضاً لو ضم عدداً من أعضاء الكونغرس. في الماضي كان الرؤساء يجدون طريقة للعمل مع زعماء الكونغرس من الحزبيين، ولكن في أجواء الخصام السائدة في واشنطن في الثمانينات لم يكن ذلك ممكناً.

وماذا عن الدور الأميركي في العالم؟ لقد انحسر التهديد الشيوعي، لكننا لم نزل نعيش في عالم ليس من صنعنا. إن انبعاث الروح القومية والأثنية في كل مكان من البلقان إلى كويبك يمثل تحديات جديدة في السياسة الخارجية. وبينما يبدو أن تهديد الإرهاب الدولي قد انحسر، وعلى الأقل في هذه الأيام، فما زال هناك قادة مثل معمر القذافي وصدام حسين يقدمون الدعم والتأييد لجماعات مسلحة عديدة، ومع أن أيام فيديل كاسترو دون شك معدودة، فإنه مستمر في تأييد تصدير الثورة الماركسية.

والعالم يتشبث أيضاً بانبعاث الأصولية الإسلامية الراديكالية، فبينما يقارب القرن العشرين على الانتهاء، تفرض الأصولية الإسلامية تهديداً جديّاً لعدد من الأمم: العربية السعودية ومصر والفيليبين وأندونيسيا وباكستان وحتى الهند. وكما ذكر أحد المسؤولين الإيرانيين خلال زيارتنا إلى طهران: «إن صورة آية الله موجودة في جميع هذه الأماكن ونحن لم نرسلها بالبريد».

مع أن العالم الذي نعيش فيه هو أصغر وأصغر، فإن ذلك لا يقلّل من الدور الذي يجب أن تلعبه الولايات المتحدة. لكن علينا أن نتخلى عن ميلنا القديم إلى دعم الأوضاع الراهنة. في الماضي، هذه الرغبة «بالتعامل مع الشيطان الذي أعرفه» شجعت الثورات الكثيرة التي كنا نأمل بتجنب وقوعها. لقد تسامحنا لسنوات وأيّدنا الأنظمة اليمينية المتطرّفة القمعية في أماكن مثل كوبا ونيكاراغوا وباناما وڤيتنام والفيليبين لمجرد أنها معادية للشيوعية. بعض القادة الذي كانوا من أنصار التغيير في تلك البلدان، ومن بينهم فيديل كاسترو وهوشي منه، أتوا إلينا أوّلاً لكنّنا رفضناهم، وكان يجب أن لا نفاجأ عندما تحوّلوا إلى الاتحاد السوڤياتي طلباً للمساعدة.

مع تاريخنا ومثلنا كان يجب أن لا تسمح الولايات المتحدة بأن تصبح الثورات والتغييرات الميدان الوحيد لليسار. إن مثل ثورتنا ـ الحرية والتسامح والحرية الفردية ـ كانت تبث وحيها منذ قرنين وما زالت.

* * *

ملحق

استمر برندان وفريقه في المعركة بعد المحاكمة حتى نهاية هذه المحنـة. في ٢٠ تموز/ يوليو ١٩٩٠ ردّت هيئة مؤلفة من ثلاثة قضـاة من محكمة الاستئنـاف في الولايـات المتحدة إحـدى التهم وألغت الاثنتين الأخـريـين. وإذا أراد المـدعي العـام المختص الاستمـرار في إدانتي كان عليه أن يثبت للقاضي أنه لم يستخدم شهاداتي أمام الكونغرس ضدي أمام هيئة المحلفين التي اتهمتني أو من قبل الهيئة الأخرى التي أدانتني.

اختار المدعي العام المختص أن يستأنف هـذا القرار بـالطلب إلى محكمـة الاستئناف بـأن تردّ قـرار هيئة القضـاة الثلاثـة. في ٢٧ تشرين الثاني/ نـوفمبر ١٩٩٠ قـرّرت محكمة الاستئنـاف الحكم لصالحي، وأيّـدت قرار الهيئة. وكنتيجة لهـذه الأحكام أعـادت إليّ قيادة مشاة البحرية الراتب التقاعدي واستعدت بذلك شيئاً مهماً هو: حق الانتخاب.

كنت آمـل أن تنتهي القصة عنـد هذا الحـد، ولكنهـا لم تنتـه. قـرّر المـدعي العـام المختص لورنس والش أن يستأنف لـدى القضاء الأعـلى. في ٢٨ أيار/ مـايو ١٩٩١ أكـد القضاء الأعلى قراري الاستئناف الصـادرين مسبقاً، وأعلن أنـه لن يقبل استئنـاف المدعي العام المختص.

مع أن والش أكد لبرندان أنه سوف يترك القضية إذا خسرهـا أمام القضـاء الأعلى، لكنه غيّر رأيه فيها بعد. لقد نـوى وبوضـوح أن يبدأ بهـا من جديـد. وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ وقبل ستة أسابيع من البدء ببيع هـذا الكتاب، عـدنا إلى المحكمـة لحضور جلسـة غير عاديـة. توقع الادعاء من مكفـرلين أن يـوضح أن شهـادته في أثنـاء محاكمتي لم تتـأثر بشهـادته أمـام الكونغـرس. ولكن كلما ازداد ضغط المدعي العـام على مكفـرلـين كلما زاد إصراره على أنه استغرق كثيراً في مشاهدتي وأنا أمثل أمـام الكونغـرس وقال: «لقـد كانت شهـادة مدمّـرة، لقد تم تفجيـر عشرات الملايـين من الأميركيـين بوسـاطتهـا. . وذلـك في مشاهدة أربعة أيام من الشهادة لرجل كان مثل ابني. كيف كان لي أن لا أتأثر بذلك؟».

وبعد ذهولهم الواضح من انفجار مكفرلين العاطفي، تراجع المدعون العامون أخيراً وأقروا أن قضيتهم قد انهارت.

لقد انتهت مثلما بدأت. في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ عندما عرض عليّ أدوين ميز ومساعدوه مذكرة «التحويل»، والتي كانت إشارة لبداية مشاكلي القانونية، كان الحمر في واشنطن يلعبون دور الكاوبوي على ملعب واشنطن. لقد انتهت قضيتي في ظروف مماثلة. في يوم الأحد في ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ كنت أصغي إلى لعبة الحمر ضد فينكس عندما اتصل بي برندان من منزله وأخبرني النبأ السار وهو أن لورنس والش قد قرّر إسقاط جميع التهم. لقد انتهت أخيراً.

في صباح اليوم التالي اصطحبني أفراد عائلتي ومحامي إلى المحكمة في آخر يوم لي كمتّهم. لقد انتهت المحنة الطويلة التي بدأت في مكتب وزير العدل بشكل مفاجىء في أقل من عشر دقائق. وقع القاضي جيسيل أمراً مؤلفاً من سطرين يوافق على إجراءات المدعي العام المختص وقال لي ببساطة: «هذا ينهي القضية».

منذ البداية أصر برندان على أنّ شهادتي التي أُرغمت على الإدلاء بها أمام الكونغرس جعلت من الصعب على الادعاء أن يتابع قضيّته. والآن وبعد خمس سنوات اعترف والش أخيراً أن برندان كان على حق.

بينما كنت أغادر قاعة المحكمة انضم إليّ بتسي وسارة ودورنين على الدرج. كالعادة كان المراسلون ينتظرون ولكني تحدثت إليهم هذه المرة:

«منذ خمس سنوات تقريباً كنت أنا وعائلتي تحت النار، خلال ذلك الوقت كنا ننعم بتأييد أفضل محامي أميركا، وبكرم وصلاة الشعب الأميركي، وهذا ما دعمنا خلال هذه المحنة. دون هذا الدعم والتشجيع لم يكن لنا حظ في النجاح.

وكنت أعني ذلك من كل قلبي.

وبالنسبة إلى الأعضاء الآخرين في قضيتنا:

اليوت أبرامز، الذي ترأس مجموعة سريّة داخل الوكالة كانت تشرف على نشاطات المقاومة النيكاراغوية، ترك العمل الحكومي عام ١٩٨٨ وعمل كمستشار. وبينما كان هذا الكتاب يأخذ طريقه إلى النشر ارتفعت بعض الأسئلة حول معرفته بنشاطاتي حول دعم الكونترا.

شارلز آلن، الذي عملت معه في مكافحة الإرهاب، ما زال في وكالة المخابرات المركزية ولكن بدلاً من مكافأته على عمله الشاق لم يرقّ لأنه كان صريحاً أكثر من اللازم

مع رؤسائه حول مبادرتنا نحو إيران.

الاسترالي ما زال مسؤولاً في الحكومة الإيرانية.

عضو الكونغرس مايكل بارنز هزم في انتخابات لعضوية مجلس الشيوخ عام ١٩٨٦.

انريك برموديز القائد العسكري للمقاومة النيكاراغوية منذ عام ١٩٨١ إلى ١٩٨٨ اغتيل في ماناغوا في ربيع عام ١٩٩١.

عضو الكونغرس ادوارد بولاند تقاعد عام ١٩٨٨ بعد خدمة ٣٦ سنة في مجلس النواب.

جورج بوش انتخب رئيساً للولايات المتحدة.

أدولفو كاليرو استمر في العمل كزعيم للمعارضة النيكاراغوية بعدما صرفت. في ما بعد ساعد في تنظيم تحالف المقاومة الذي رشح فيوليتا شامورو للرئاسة وهو عائد إلى نيكاراغوا.

جورج كايف: طلب منه الاجتماع مع القناة الثانية بعد صرفي. ما زال يعمل مستشاراً في وكالة المخابرات المركزية.

وليم كايسي: توفي على إثر إصابته بالسرطان وبالتهاب الرئة في ٦ أيار/ مايو ١٩٨٧ في اليوم الثاني لتحقيقات الكونغرس.

سبيتز شانيل: كان يعمل لإنشاء لجنة عمل سياسي محافظة في واشنطن عندما ضربته سيارة في ١٥ آذار/ مارس ١٩٩٠، توفي في ٧ أيار/ مايو ١٩٩٠.

ديوي كلاريدج: أرغم على التقاعد من وكالة المخابرات المركزية عام ١٩٨٨، وهو يعمل في شركة جنرال ديناميكس. في صيف عام ١٩٩١ أسماه المدعي العام المختص كهدف لتحقيقات إيران ـ كونترا.

جو فرنانديز الذي عمل في نشاطات وكالة المخابرات المركزية السرية لمدة عشرين سنة والذي كان مركزه الأخير رئيس محطة لوكالة المخابرات المركزية في كوستاريكا، أدين مرتين من قبل المدعي العام المختص قبل أن تسقط جميع التهم الموجهة إليه. وهو اليوم شريكي في شركة غارديان التكنولوجية الدولية التي أسّسناها عام ١٩٨٩ وذلك لصنع الأجهزة الواقية لعناصر الشرطة والجيش.

ألن فايرز رئيس قوة العمل لأميركا الوسطى تقاعد من وكالة المخابرات المركزية عام

١٩٨٩. عام ١٩٩١ وجهت إليه تهم عديدة وأدين بعدة جنح ثم وافق على التعاون مع تحقيقات المدعي العام المختص.

روبرت غايتس الذي عمل مساعداً لمدير وكالة المخابرات المركزية برئاسة وليم كايسي رشّح عام ١٩٨٨ لتولي منصب المدير، لكنه سحب ترشيحه بعد معارضة الكونغرس حيث عين نائباً للمستشار لشؤون الأمن القومي. في صيف ١٩٩١ رشح مرة ثانية لمنصب مدير وكالة المخابرات المركزية وأثار ذلك جدلاً سياسياً*.

كلير جورج: تقاعد من وكالة المخابرات المركزية عام ١٩٨٨ والتي كان يعمل فيها معاوناً للمدير لشؤون العمليات. في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ أدين من قبل المدعي العام المختص بتهمة كتم معلومات عن الكونغرس تتعلق بنشاطاتي.

مانوشهر غوربانيفار أجرى مقابلات عديدة مع المدعي العام المختص وفي الكونغرس. ما زال يعيش في أوروبا وله عدة منازل.

ألبرت حكيم أُدين بجنحة نسبها إليه المدعي العام المختص. عاد إلى كاليفورنيا حيث أنشأ شركة أخرى للتجارة الدولية.

فون هال تعيش في كاليفورنيا، وما زالت تستدعى من قبل المدعي العام المختص للإدلاء بشهادتها.

لي هاملتون: أكمل مدة السنوات الست كرئيس للجنة استخبارات مجلس النواب. ما زال عضواً في قيادة الحزب الديموقراطي في الكونغرس.

يوجين هازنفوس أطلق سراحه الساندينيون عام ١٩٨٦ وعندما عاد إلى الولايات المتحدة قدم دعوى ضد سيكورد وبعض الآخرين المتورطين في دعم المقاومة النيكاراغوية لكنه لم يحقق شيئاً.

ديفيد جاكوبسون عاد إلى كاليفورنيا حيث كتب مذكرات عن محنته كرهينة في بيروت.

مايكل ليدين ما زال يعمل مستشاراً في واشنطن وكتب كتاباً عن قضية إيران ـ كونترا

روبرت مكفرلين الذي أُدين بعدة جنح صدر حكم بوضعه تحت المراقبة والخدمة العامة. . وهو يعمل مستشاراً في واشنطن. كان الشاهد الوحيد الذي استدعي عام ١٩٩١ خلال آخر الإجراءات التي قام بها المدعي العام المختص ضدي.

---

* عين فيما بعد وهو «عند صدور الطبعة العربية» مدير لوكالة المخابرات المركزية (المترجم).

الأميرال آرت مورو البطل الحقيقي لحادثة أكيلي لاورو أصبح قائداً للقوات البحرية لحلف الأطلسي في نابولي، توفي على إثر نوبة قلبية عام ١٩٨٩.

الشاب ما زال يقطن في إيران وينتقل أحياناً إلى أوروبا.

أبو نضال: تشير المعلومات إلى أنه يعيش في أحسن حال في ليبيا.

أميرام نير ترك مركزه في الحكومة وقتل في حادث تحطم طائرة في المكسيك عام ١٩٨٨. عام ١٩٩١ اقتحم لصوص منزل أرملته وعبثوا بملفات نير السرية المتعلقة بإيران ـ كونترا.

مانويل نورييغا استسلم إلى السلطات الأميركية عام ١٩٩٠ وهو يقيم الآن في ميامي ضيفاً على الحكومة الأميركية.

دانييل أورتيغا هزم في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٩٠. ما زال رئيساً للحزب السانديني في ماناغوا.

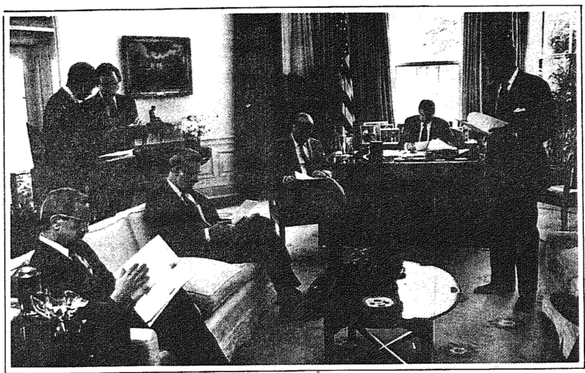
الأميرال جون بواندكستر أُدين بست تهم عام ١٩٩٠ وهو يستأنف قضيته ويعمل مستشاراً لعدة شركات في واشنطن.

رونالد ريغان، عاد إلى كاليفورنيا وكتب مذكراته.

الجنرال ديك سيكورد ما زال في عمله في فرجينيا وهو يكتب مذكراته.

برندان سوليفان وفريقه ما زالوا مستمرين في حماية الحقوق الدستورية للمدّعى عليهم.

لورانس والش الذي كان مسؤولاً في الريف وانتقل إلى المدينة عام ١٩٨٦ كمدع عام مختص ما زال في أوج أيامه..



لم يعرف الإيرانيون الذين التقينا بهم شيئاً عن حكومتنا، ولذلك أحضرت معي صورة لأظهر لهم الشخصيات الحاكمة. التقطت هذه الصورة في المكتب البيضاوي وأخذتها إلى طهران وهي تظهر من اليمين: روبرت مكفرلين، أنا، ديفيد شو (مساعد دونالد ريغان) بوب سيمز (الناطق الصحافي باسم مكفرلين)، الأميرال جون بواند كسترا، الرئيس، دونالد ريغان.

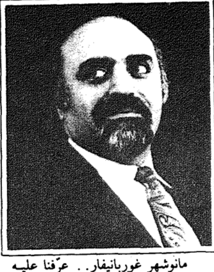


بعد أشهر من هذا الاجتماع الذي جرى عام ١٩٨٦ في المكتب البيضاوي حول مكافحة الإرهاب، رحل الثلاثة دونالد ريغان وبواندكستر وأنا. أما الاثنان الآخران رونالد ريغان وجورج بوش فقد بقيا ملاحقين لسنين حول ما جرى في هذه الغرفة.

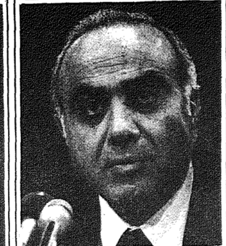


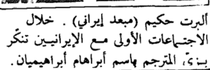
إيرلنديان مسنان: وليم كايسي ورونالد ريغان في مقر قيادة وكالة المخابرات المركزية في لانغلي بفرجينيا، قال كايسي على فراش الموت: «لن يقربها أبداً». وقد تعجبت دائماً ما إذا كان يعني الرئيس.





مانوشهر غوربانيفار.. عرّفنا عليه الإسرائيليون على أنه الرجل القادر. ساهم في إطلاق سراح رهينتين.





ألبرت حكيم (مبعد إيراني) . خلال الاجتماعات الأولى مع الإيرانيين تنكّر بزيّ المترجم باسم أبراهام أبراهيميان.

كان برندان يثق ببحارين هما الأميرال بواندكستر وأنا من أجل أن يبحر بزورقه في خليج شيسابيك في إحدى عطل نهاية الأسبوع.

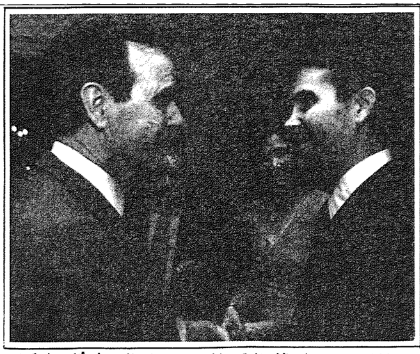
في أثناء تحقيقات البيت الأبيض أصرّ برندان سوليفان على القيام بدوره وكان يطلب منّي أن لا أظهر غضبي وكان يرفسني على ركبتي.

لقد ذهلت بمظاهر الدعم من الشعب الأميركي.





عام ١٩٨٩ أسست أنا وجو فرنانديز شركة غارديان التكنولوجية الدولية، وهي «شركة إنقاذ الحياة».



عندما كان يقوم بحملته الانتخابية دعانا جورج بوش إلى منزله أنا وبواندكستر وعائلاتنا لحضور حفلة عيد الميلاد عام ١٩٨٦.

عائلة أميركية. أفضل صديق (زوجتي) وأنا وأولادي الذين وهبنى الله إياهم. لقد كانوا جزيرة من الهدوء

الفهرس



للطباعة والنشر والتوزيع